المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

القربان

تأليف: بريم تشند

ترجمة: رانيا محمد فوزى

مراجعة وتقديم: أحمد محمد عبد الرحمن

1235

الإبداع القصصى

القربان

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٢٣٥
- القربان
- بريم تشند
- رانيا محمد فوزى
- أحمد محمد عبد الرحمن

هذه ترجمة رواية :

گئودان

تأليف : پريم چند

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

القربان

تأليف : پريم تشند
ترجمة : رانيا محمد فوزى
مراجعة وتقديم : أحمد محمد عبد الرحمن

٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تشند ، بريم
القربان/ تأليف : بريم تشند ؛ ترجمة : رانيا محمد فوزى ؛ مراجعة وتقديم : أحمد محمد عبد الرحمن - القاهرة: المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٨
٧٦٨ ص ؛ ٢٠ سم
١ - الأدب الأردى .
٢ - القصص الأردية .
(أ) فوزى ، رانيا محمد (مترجم) .
(ب) عبد الرحمن ، أحمد محمد (مراجع ومقدم) .
(جـ) العنوان .

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٥٤٦٧
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 977 - 437 - 665 - X)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

مقدمة المراجع

من المعروف أن الأدب لا يحدث ثورة بين الناس، بل يعد لها الأذهان ويوجه إليها العقول، واللغة التى ساهم أدباؤها بإبداعاتهم فى حركة تحرير شبه القارة الهندية، هى اللغة الأردية، وشعارها "انقلاب زنده باد"؛ أى "عاشت الثورة" ما زال يتردد على ألسنة الناس إلى يومنا هذا.

واللغة الأردية، هى اللغة التى يُتحدث بها فى كل من الهند وباكستان، وهى لغة الربط بين جاليات أبناء شبه القارة الهندية حول العالم، إذن فهى لغة غير خاصة بالمسلمين كما يروج البعض لهذا، فاللغة تراث مشترك بين المسلمين وغير المسلمين، ومن يقل غير ذلك فلن يظلم اللغة الأردية فحسب، بل يظلم غير المسلمين أيضًا لما لهم من مساهمات كبيرة فى تطوير هذه اللغة، فاللغة الأردية نشأت وترعرعت فى الهند، ولا أحد يستطيع أن ينكر دور "بريم تشند"، مؤلف رواية "القربان" التى نقدم لها، فى تطوير الأدب الأردى، ولا نبالغ عندما نقول بأنه عميد الأدب الأردى بإبداعاته وأعماله. إذن فمن هو بريم تشند؟

ولد "بريم تشند" فى ٣١ يوليو ١٨٨٠م(١)، كان والده عاملاً فى مصلحة البريد بالقرية التى نشأ وتربى فيها، واسمه الحقيقى "دهنبت راى"، تلقى تعليمه الأوَّلِىّ بطريقة تقليدية؛ إذ درس الفارسية والأردية عند أحد مشايخ القرية، وهو فى سن الخامسة من عمره.

حُرم "بريم تشند" من نعمة الأمومة فى سن الثامنة؛ لذلك ظهر أثر الحرمان عميقًا فى جميع أعماله، ونهضت جدته لأمه بتربيته؛ فكانت المعلِّمة الأولى له، إذ كانت تسمعه القصص والحكايات، ومن هنا بدأ يعشق فن القصة والحكاية.

ظل "بريم تشند" مع جدته حتى نُقل والده "عجائب لال" من العمل بالقرية إلى مدينة "أعظم جره"، وفى سنة ١٨٩٤م تزوج والده، وانتقل "بريم تشند" إلى العيش معه فى المدينة بعد وفاة جدته، وتعرض للمعاناة مع زوجة أبيه.

رجع "بريم تشند" مع زوجة أبيه إلى القرية، والتحق بإحدى المدارس فى "بنارس"، وبدأ فى إكمال دراسته، وكان يحصل على راتب ضئيل لا يكاد يكفيه، وكان عمره فى ذلك الوقت خمسة عشر عاماً، فأراد والده أن يخلى يده منه فزوجه زواجًا تقليديًا، وأصبح الزواج بتكاليفه

---

(١) قمر رئيس – بريم تشند كا تنقيدى مطالعة (بحثيت ناول نكار) – الطبعة الرابعة – على كره ١٩٧٧ – صـ ٢٥ .

وتبعاته عبئًا آخر مع عبء التعليم، ولم يمض على زواجه عدة أشهر حتى توفي والده عام ١٨٩٧م، ومن هنا انقطعت الروبيات(٢) التى كان يحصل عليها من والده.

والحقيقة أن هذه الفترة تعتبر من أصعب فترات حياة "بريم تشند"، فقد صاغ لنا هذه الفترة من حياته بكلمات توضح لنا مدى المعاناة، التى تعرض لها بقوله: "كان فى عنقى مسئولية أربعة أفراد: زوجتي وزوجة أبى وأخَواى، ولم يكن هناك دخل لنا، وكل ما حصلنا عليه من معاش أنفقناه على مرض والدى وتجهيزه وتكفينه، كما كان الحصول على الوظيفة فى هذه الفترة صعبًا للغاية، وكنت أتمنى أن أتم دراستى، ولكنى لم أتمكن من تحقيق أمنيتى، لأن هذا بالطبع يحتاج إلى الأموال، التى لم نعرف لها طريقًا"(٣).

ولم يستسلم "بريم تشند"، بل واجه مصيره وواصل تعليمه، لأنه كانت لديه رغبة شديدة فى امتهان المحاماة، وبالفعل نجح فى الثانوية، وجاءت مرحلة الكلية التى كان الالتحاق بها فى حد ذاته صعبًا للغاية، لما تحتاجه من نفقات للمعيشة وإيجار منزل، وغيرها من لوازم الحياة، وبالفعل شد الرحال إلى الكلية، إلا أنه للأسف الشديد رسب فى امتحان المقابلة، الذى كان يسبق الالتحاق بالكلية، والسبب فى ذلك أنه كان ضعيفًا فى الرياضيات، وتألم "بريم تشند" ألمًا شديدًا، إلا أن ذلك لم يحل

---

(٢) الروبية عملة هندية تساوى عشرة قروش تقريبًا حاليًا.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٤ .

دون تقدمه، فقد بدأ يتابع درسًا فى مادة الرياضيات، وهنا اضطر إلى الاقتراض، لدرجة أنه باع كتبه ومعطفه ليسدد ديونه، وبدأ اليأس يخيم على حياته، واضطر إلى البحث عن وظيفة.

وبالفعل عُين فى وظيفة مساعد مدرس عام ١٨٩٩م بأجر رمزى، ورغم هذا كانت هذه الوظيفة عونًا له، فبدأ ينفق منها على نفسه، وما يتبقى من راتبه يرسله لأسرته. كانت هذه الفترة تمثل له مرحلة صراع بين مشاغل الحياة وإكمال تعليمه الذى طالما حلم به، لقد فشل "بريم تشند" فى الالتحاق بالكلية، إلا أنه وجد وظيفة حكومية، ومن هذه الوظيفة استطاع أن يحصل على منحة حكومية، للحصول على "دبلوم تربوى"، وبدأت حياته فى الاستقرار، فتولدت لديه الرغبة فى التأليف، وبالفعل شرع فى كتابة روايته الأولى "أسرار معابد" على حلقات بإحدى المجلات الأسبوعية "آواز خلق"(*)، التى كانت تصدر فى مدينة "بنارس" وذلك عام ١٩٠٣م.

ترك "بريم تشند" انطباعًا طيبًا لدى عميد الكلية أثناء فترة التدريب التربوية، بما جعله يستدعى "بريم تشند" إلى مدينة "إله آباد" مرة أخرى، ليشغل وظيفة مدرس أول فى إحدى مدارس الحكومة بهذه المدينة نتيجة لتميزه، وهناك أصدر "بريم تشند" عام ١٩٠٥م روايته الثانية "بم خرما بم ثواب" بمعنى (نستمتع ونستفيد) من مدينة "لكهنو".

(*) أى صوت الناس.

ثم نُقل "بريم تشند" إلى مدينة "كانبور"، وأصبح مسئولاً عن الدراسة، وهناك توطدت علاقته بمدير مجلة "زمانه" السيد "منشى ديا نرائن نكم"، لدرجة أن "بريم تشند" كان يكتب بصفة مستقلة لهذه المجلة، ولم تقتصر كتاباته على الفن القصصى فقط، بل تعداه إلى كتابة بعض الافتتاحيات السياسية والاصلاحية، وكما يقول "منشى ديا نرائن نكم": "إنه كان يقوم بدور مدير تحرير المجلة أحيانًا".

لقد كانت فترة قيامه فى مدينة "كانبور" من أحسن الفترات وأفضلها فى حياة "بريم تشند"، ونستطيع أن نقول: إنها صنعت من "بريم تشند" أديبًا ومفكرًا، بل ومصلحًا حيث بدأ نشاطه الأدبى والفكرى والسياسى والاجتماعى، وهناك نشرت له أوّل مجموعة قصصية تناول فيها محاربة المستعمر، ومطالبته بالجلاء عن البلاد، وكان ينشرها تحت اسم مستعار هو "نواب راى" عام ١٩٠٨م، لدرجة أن حكام المدينة الإنجليز عندما قرأوا هذه القصص استدعوه وهدّدُوه بالسجن، وبعدها تم مصادرة هذه القصص وحرقوا ما وصلت إليه أيديهم فى المكتبات.

وفى هذه الفترة كانت زوجته تقيم فى القرية مع زوجة أبيه، حيث كان يرسل إليهم النقود من "كانبور"، وهذا يدلنا على أن "بريم تشند" لم يكن سعيداً بهذا الزواج التقليدى، الذى لم ير فيه زوجته التى كان يتمنى، وبالتالى لم يكن هناك أدنى توائم بينهما، مما جعل زوجة أبيه تستغل هذه الظروف وتتطاول عليها حتى غادرت منزلها إلى بيت أبيها، وهنا وجد "بريم تشند" الفرصة، ولم يذهب لإحضارها مرة أخرى.

أراد "بريم تشند" أن يثبت لقرائه مدى صدق ما يكتبه حول مناصرته للمرأة وخاصة الأرامل، فتزوج بالأرملة "شيوراني" عام ١٩٠٥م، ولم يترك زوجته الأولى، بل كان يرسل لها نفقتها باستمرار.

وذات مرة داعب أحد النقاد "بريم تشند" في ذلك الوقت بقوله: "ليست هناك فرصة للطلاق فى المجتمع الهندوكى، فلا حيلة أمام المرأة إلا الوفاء لزوجها"(٤).

ولا يسعنا إلا أن نؤاخذ "بريم تشند" على هذا المسلك، فهو وإن حاول أن ينصف النساء، إلا أنه فشل فى أن يعالج قضية زوجته الأولى رغم وفائها له، غير أنه عوّض هذا بطرح قضية الزواج غير المتكافئ فى معظم رواياته وقصصه، وحاول أن يبرز النتائج السيئة التى تلحق بالنساء نتيجة لهذه الفعلة الشنيعة من الوالدين، ولذا قَبِل الزواج من أرملة ليكسر بذلك جمود تقاليد المجتمع الهندى، فكانت الخطوة الأُولى من خطوات كفاحه نحو إصلاح وضع المرأة فى المجتمع.

ظل "بريم تشند" فى "كانبور" لمدة أربعة أعوام، حتى أصبح مفتشاً عاماً عام ١٩٠٩م فى إحدى مدن ولاية "مدراس" بالجنوب الهندى(٥)، وهنا بدأ يتنقل بين القرى يشاهد حياة الفلاحين عن قرب نتيجة لظروف

---

(٤) داكتر رام بهتناكر - بريم تشند - دهلى ١٩٦٢م ص ٨ .

(٥) قمر رئيس - بريم تشند كا تنقيدى مطالعة ص ٤٠ .

عمله مفتشا للمدارس، وعاد لمزاولة نشاطه الأدبى مرة أخرى بعد مصادرة مجموعته القصصية "سوز وطن" (آلام الوطن)، إلا أنه - هذه المرة - أضاف إلى الاسم المستعار "نواب راى"، اسمه الحقيقى "بريم تشند"، طبقًا لنصيحة صديق عمره "ديا نرائن"؛ مدير تحرير مجلة "زمانه"، وأكثر "بريم تشند" من القصص والموضوعات، التى تثير حماس المواطنين ضد المستعمر.

تعرض "بريم تشند" لمتاعب كثيرة من قِبَل زوجة أبيه، التى ظلت تعيش معه طيلة حياتها، ورغم تجاوزاتها إلا أنه كان يحترمها، ولذلك بقيت سيدة المنزل حتى فى وجود زوجته، وهذا ما حدا به إلى أن يظهر مساوئ زوجة الأب فى معظم قصصه ورواياته، ومدى المصاعب والمتاعب التى يواجهها الإنسان فى منزله من مجرد وجود زوجة أبيه، لدرجة أن زوجته كانت تقضى معظم أوقاتها فى غياب "بريم تشند" بمنزل والدها.

لم تنعم زوجة "بريم تشند" الثانية بالحياة فى بيتها، إلا بعد أن تركت زوجة أبيه المنزل، وذهبت إلى بيت أخيه، وهنا بدأت تنعم بحياتها وتستمتع بحقوقها فى بيتها، وتعيش مع زوجها الذى أحبها؛ فجادت هى بحبها له، لأنه كان لها بمثابة محور للعالم حيث حاول أن يغير ملامح المجتمع بأكمله بزواجه منها، حيث لم تكن تتصور فى حياتها أن تتزوج مرة أخرى، وطلبت منه أن تشاركه عملية الإصلاح داخل القرى.

داهم "بريم تشند" المرضُ وهو فى "مدراس"، وأصيب بمرض الإسهال نتيجة لعدم الاحتياط فى تناول الطعام، وظن أن هذا ربما كان له علاقة

بظروف الحياة فى "مدراس"، لذلك طلب نقله إلى مكان آخر، وبالفعل نُقل عام ١٩١٤م إلى مدينة أخرى جهة الغرب على حدود مدينة "نيبال"، والتى تعد من ناحية الطقس أسوأ من المنطقة التى كان فيها.

والحقيقة أن هذا كان مخططًا له من قبل الحكومة عقابًا له على تأليفه لمجموعته (آلام الوطن)، مما جعل حالته الصحية تزداد سوءًا عما كانت عليه من قبل، وظل يعالج من هذا المرض مدة طويلة يتنقل فيها بين الأطباء، ما بين مدينة "لكهنو" و "كانبور"، إلى أن اضطر إلى أخذ إجازة بنصف المرتب كانت له عونا بالإضافة إلى كتاباته للوفاء باحتياجاته(٦).

كانت هذه الفترة من أصعب الفترات التى واجهها "بريم تشند"؛ إذ كان يعانى من المرض الذى كان يتوفر له علاجه بين الحين والآخر، وبدأت معاناته وآلامه تزداد عندما عاد إلى العمل مرة أخرى، إلا أنه لم يوفق فى هذا، وطلب أن يعود إلى التدريس رحمة به من معاناة التفتيش الذى لا يتناسب مع صحته، وتم له هذا فى مايو ١٩١٥م، إلا أن مرتبه نقص عما كان عليه سابقًا.

ومن هنا بدأ عهد جديد "لبريم تشند"، واتخذ له منزلاً مستقلاً، وتوجه إلى القراءة والكتابة والتأليف بشكل أكبر، فنُشرت له أربع روايات هى: "أسرار معابد"، و"كشنا"، و"هم خرما وهم ثواب"، و"جلوهء إيثار"،

---

(٦) شيوراني ديوى – بريم تشند كهر مين – ص ٣٦ .

ومجموعتان قصصيتان: "سوز وطن"، "بريم بتشيسى"، ولانتشار هذه المؤلفات الأدبية ذاع صيت "بريم تشند" داخل شبه القارة، وأصبح له حلقة كبيرة من القراء، ولذلك بدأ يكتب قصصه بالأردية والهندية، وينشرها بمجلة "سرسوتى"، التى كانت تصدر من "إله آباد"، وجريدة "برتاب" اليومية، التى كانت تصدر فى "كانبور"(٧).

وفى عام ١٩١٦ م انتقل بريم تشند إلى مدينة "جوركبور"، وفور وصوله رزق بابنه الأول (شريت راى)، فكان الطفل الثانى بعد أخته (كملا)، وبعد فترة رزق بأصغر أبنائه (شرى امرت راى)؛ أحب أبنائه إليه وحاول أن يبذل كل جهده حتى يحصلوا على التعليم المناسب الذى حرم منه، وبدأ يتأقلم مع واقع حياته وما حصل عليه من كتاباته ووظيفته. وكم كان سعيداً بزوجته رغم أنها كانت أرملة، وهذا ما نلاحظه من رسالة له إلى أحد أصدقائه:

"لقد تزوجت من أرملة وأشعر بسعادة كبيرة معها، لها شغف بالأدب، تكتب بعض القصص الخاصة بها أحياناً، إنها إنسانة شجاعة ومؤمنة"(٨).

كانت مدينة "جوركبور" من أفضل الأماكن لكاتبنا، ففيها توفرت له كتابة أفضل أعماله، ومنها ذاع صيته وبدأت شهرته تزداد أكثر فأكثر،

---

(٧) قمر رئيس – بريم تشند كا تنقيدى مطالعة – ص ٤٦ .

(٨) المصدر السابق – ص ٤٨ .

وأصدر مجموعته القصصية "بريم بجيسى" على جزأين؛ أحدهما عام ١٩١٤، والثانى ١٩١٨م، كما أصدر خلال هذه الفترة رواياته "بازار حُسن" "سوق المتعة"، والتى نشرت بالهندية فى "كلكتا" عام ١٩١٩ م، وروايته الضخمة "جوشهء عافيت" نشرها عام ١٩٢١م، والتى توجته أميرًا لفن الرواية فى شبه القارة الهندية.

لقد قضى "بريم تشند" معظم حياته يكافح ويجاهد من أجل حياة أفضل له ولغيره من الطبقات الأخرى، خاصة طبقة الفلاحين والكادحين، فلم يحدث يومًا أنه تكبر، أو تنكر لما فى مجتمعه من عيوب، بل إنه تقدم خطوة وتعرض لعقيدته بالنقد والتمحيص؛ عندما أبرز قضايا المرأة فى رواياته وأعماله الأدبية الأخرى، وأكبر دليل على كفاحه لتحقيق أهدافه، أنه لم يحصل على درجة الليسانس، إلا وهو فى سن الأربعين عام ١٩١٩م، وبدأ يستعد لامتحان الماجستير الذى طالما حلم به، إلا أن المرض أقعده وحرمه من إتمام دراسته، وظل يعتبر نفسه طالبًا للعلم، ولم يترك موضوعًا إلا طرقه، فإذا تعذر عليه فهمه استعان بأهل الخبرة فيه، كل هذا كان له أكبر الأثر فى إنتاجه الأدبى.

وفى عام ١٩٢٠م جاءت قصصه مفعمة بالحماس ضد الاستعمار، خاصة بعد حادثة (جليا نواله باغ)(٩) تحت زعامة "المهاتما غاندى"،

---

(٩) حادثة "جليا نواله باغ" من أكبر الحوادث فى تاريخ الهند الحديث، وقعت فى حديقة بمدينة "جليا نواله" قتل فيها العديد من المواطنين على يد الإنجليز ولذلك لم يطلق عليها البعض اسم حادثة، بل سميت مذبحة جليا نواله لهول ما حدث للمواطنين الهنود، وهى تشبه إلى حد كبير ثورة ١٩١٩م فى التاريخ المصرى.

رغم سوء حالته الصحية، واضطر إلى تقديم استقالته من وظيفته حتى لا يكون هناك ضغط من الحكومة عليه فى إتمام رسالته، وقد ذكر هذا بقوله: "لقد أعادت كلمات وعظات المهاتما غاندى الحياة إلى جسدى الهزيل، وبعدها بأربعة أو خمسة أيام وبالتحديد فى ١٩٢١/٢/٢١م استقلت من وظيفتى بعد عشرين عامًا من شغلى لها"(١٠).

لقد توصل إلى هذا لإيمانه بأن الأديب لا يدافع عن الوطن بالكلام فحسب بل بالعمل أيضًا، وكان يعلم جيداً مدى الصعاب المالية التى سوف يواجهها بعد هذا القرار الحاسم فى حياته، إلا أنه ضحى بكل هذا مقابل أن يشارك الجماهير امتعاضهم من الحكومة، وعدم التعاون معهم فى تحقيق هدفهم، الذى طالب به المهاتما غاندى، إذا كانت هذه هى الطريقة الوحيدة لطرد المستعمر.

رواية جودان (القربان):

إن الفترة التى ظهر فيها "بريم تشند" أديبًا مبدعًا، تبدأ بالربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الثلاثينيات من القرن العشرين، وقد شهدت هذه الفترة تغيرات جذرية فى الحياة الاجتماعية والثقافية فى شبه القارة. ومن هنا أصبحت رواياته سجلاً لما شهدته البلاد فى عصره، فكانت قادرة على قراءة ما بين السطور فى كتاب الواقع

---

(١٠) قمر رئيس – بريم تشند كا تنقيدى مطالعة – ص ٥١ .

وتصوير سماته إيجاباً وسلباً، والتصدى بحق لتصوير الحياة الإنسانية فى فترة من أغنى فترات التاريخ بعوامل التغيير والتحول.

لقد وصف لنا حياة القرية والفلاحين ومشاكل البسطاء من الناس والعادات والتقاليد، كما تعاطف مع الطبقة المظلومة، وخاصة المرأة بصورة لم يسبقه إليها أىُّ أديب آخر، ولهذا اعتبره النقاد أباً للقصة والرواية الأردية.

يعتبر "بريم تشند" من كُتَّاب الرواية الواقعيين، الذين صوروا الحياة فى شبه القارة بشكل حقيقى، وكل ما طرحه من قضايا سواء الفقر وضيق اليد، أو الجوع والبطالة وحالة الفلاحين السيئة، والإقطاعيين ومظالمهم، أو الاستعمار ومساوئه، أو غيرها من القضايا التى شاهدها عن قرب، حيث كان يعى جيدا ما معنى الإفلاس، والبطالة والعبودية، وكيف تأخذ هذه الأمور البلاد إلى التخلف والانحطاط، فما كان له إلا أن يرفع صوته ضد هذه المظاهر والإشكالات، التى تبشر بواقع أشد قسوة وبؤساً، ومما أكسب هذه المعالجة مصداقية وواقعية؛ أن الكاتب نفسه كان يعانى من بعض هذه المشاكل والهموم، لأنه كان ينتمى إلى الطبقة الوسطى، وله عاطفة قوية تجاه الطبقات الكادحة، كما أنه لم ينكر بعض العادات والتقاليد الخاطئة، التى كانت تنخر فى المجتمع، وكيف أن رجال الدين كانوا يستغلون الطبقات الفقيرة، ليبقوا هم على قمة الهرم الاجتماعى، ولذلك وجدناه يصور لنا شخصية كل طبقة، وكل عقيدة بشكل واقعى صادق وبموضوعية شديدة.

هذا ما أكده الناقد الكبير"احتشام حسين" بقوله: "لقد حاول "بريم تشند" فى قصصه ورواياته أن يهاجم المعتقدات المهترئة لمختلف الطبقات ... ولا يفهم من هذا أن "بريم تشند" كان معارضًا للدين، إلا أنه بلا شك ضد التعصب، فقد كان يسخر دائمًا من بعض العادات الدينية، التى يظهر فيها الادعاء والنفاق بعيداً عن الروح الحقيقية والصادقة للعقيدة"(١١)، ويتضح لنا من دراسة روايات "بريم تشند"، أنه روائى عظيم ومصلح كبير، والصورة التى قدمها للمجتمع فى عصره، لا نجد لها مثيلاً عند أديب آخر من أدباء عصره، وذلك أنه لم يطرح هذه الصورة المنتقدة بشكل تقليدى وسطحى، بل غاص فى أعماق شخصياته وبصفة خاصة شخصياته النسائية، وحاول بكل جهده أن يبدل ويصحح بعض الأوضاع الاجتماعية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فمثلاً: لم يكن يعد المرأة مجرد متعة للرجل فقط، بل هى أولاً وأخيراً إنسان لها من الطموح والآمال ما يؤهلها إلى أن تساند الرجل وتشاركه فى بناء المجتمع.

ولو نظرنا إلى رواياته على هذا النحو فسنجد أنه قدم لنا قضايا المرأة بجميع أنماطها الاجتماعية، ولم يقتصر على الطبقات الكادحة فقط، بل طرح جميع قضايا المرأة، لذا وجدنا شخصية الأميرة، الجوارى، الخدم، وفى الطبقة المتوسطة؛ وجدنا الزوجة، الابنة، الأمهات، وكذلك المرأة العفيفة، والمرأة العاهرة، كل هذه الطبقات ومشاكلها، وجدت لها مكانًا بارزًا فى رواياته.

---

(١١) احتشام حسين - تنقيد اور عملى تنقيد - لكهنو ١٩٦١ - ص١٨٣ .

اتخذ "بريم تشند" القرية مسرحًا لروايته "القربان"، وكان لحسن تصويره لحياة الفلاحين والكادحين في القرية أبلغ الأثر في شهرة أعماله، إذ نجح في أن ينقل إلى القارئ صورة حية لجو القرية، أضحت هذه الصورة خالدة في ذاكرة قراء الأردية، و لِمَ لا والقرية هي أول ثمرة لانفعال الكاتب فنيًا، فكانت باكورة إبداعاته عنها.

ليست القرية مجرد شريحة من شرائح المجتمع كما يُفهم من قراءة الرواية، بل هي تجسيد لعالم القرية كنظام اجتماعي وإداري كان سائدًا في البلاد وما زال قائمًا إلى اليوم، وإنما كان تقديم أديبنا للقرية باعتبارها نموذجًا مصغرًا للعالم الكبير – مما يضفي على الشخصيات من أبناء القرية وما ينتابهم من أحداث بعدًا رمزيًا إنسانيًا بارزًا – يصبح أساسًا في قراءتنا للعمل القصصي وتقييمه.

تعتبر هذه الرواية من أهم روايات "بريم تشند" على الإطلاق، لما تعالجه من قضايا اجتماعية مهمة، وقد طبعت هذه الرواية في عام ١٩٣٥م، وتدور أحداثها حول حياة أحد الفلاحين البسطاء؛ هذا الفلاح البسيط لم يكن يحصل على قوت يومه مع أسرته المكونة من أربعة أفراد، إلا من خلال قطعة الأرض الصغيرة، التي كان يمتلكها لذلك كان يقترض المال لإطعام أسرته(١٢).

---

(١٢) بريم تشند – كئودان – دهلي ١٩٨٦ – المقدمة .

يقول أحد النقاد عن هذه الرواية: "لقد قدمت هذه الرواية العديد من الشخصيات بتجاربها المتنوعة من حب وحقد وحرمان وصداقة، وعداوة واحتجاج وحركات إصلاحية، وإقطاع وربا، وعادات وتقاليد... وبالجملة تجلت فيها الهند بكل قضاياها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية"(١٣).

وعن طريق هذا الفلاح، نقلت الرواية لنا هذه اللوحة الواقعية عن تقاليد ابن القرية، وما يعانيه الفلاح من شظف العيش، فيحيا حياة أقرب ما تكون إلى حياة الحيوانات، وجسدت شعور الإخوة الذى يسود بين أبناء الريف، فهم فى وقت الشدة يد واحدة يتعاونون ساعة الأزمات، كما جسدت لنا الصراع الدائم بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا.

وتبرز فى هذه الرواية الشخصيات النسائية، فنجد شخصيتين هما: "جوبندى كهنا" التى تمثل نموذجًا طيبًا للإيثار والتضحية، كما أنها شريك الرجل فى حياته، لكنها شركة دعامتها فى نظر المؤلف، ينبغى أن تقوم على المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات.

وقد استطاع "بريم تشند" من خلال تصوير شخصية "جوبندى"، أن يكشف عن بعض ملامح وجوانب مكوناتها الفكرية، التى اكتسبتها من خلال علاقتها بالآخرين، فاستطاع الكاتب أن ينقلها من مستوى الفرد إلى درجة النموذج العام للمرأة الهندية، بل والنمط الإنسانى الشامل.

---

(١٣) مجلة شيرازه – عدد ٢٠ مارس ١٩٨٠ – كشمير – مقال وحيد أختر .

لقد عاشت "جويندى" زوجة، لا تشعر أن ما تؤديه من طاعة وتضحية مطلقة لأسرتها ولزوجها - رغم أنه كان عربيدًا - مصدر سعادتها.

أما الشخصية النسائية الثانية فهى "مالتى"، وهى نموذج المرأة اللعوب، حيث تجتذبها محافل الطرب والسرور، وقد أبدع "بريم تشند" فى رسم الصورة الفنية لهذه المرأة، التى لا ترضخ للظلم ولا تفى إلا لطبعها الغريزى، ومن هنا تمضى على العكس من الشخصية الأولى، لا يعصمها دين أو فكر أو قيم اجتماعية أو أخلاقية، بل تعيش لحظتها كما تريد وتمارس حياتها كما تشاء.

ولذلك وجدنا "جويندى" تتحسر على وضعها، وتحسد مالتى على حياتها بقولها: "أين الراحة فى الزواج، لقد أحسنت "مالتى" فى عدم زواجها؛ فالكل يحاول إرضاءها، ويركع تحت أقدامها، نعم لقد أحسنت صنعًا"(١٤).

أما عن رجل الدين: فلقد انتقد بريم تشند رجال الدين الهنادكة، وما لهم من نفوذ كبير داخل المجتمع، وكشف القناع الحقيقى عنهم، واعتبرهم السبب الحقيقى وراء تخلف الطبقات الدنيا. وبطل الرواية "هورى" يموت دون أن يتخلص من بطش "داتاين" المرابى.

لقد سلك "بريم تشند" فى رواياته الأولى سبيل الواقعية الدقيقة؛ فاهتم بكثرة التفاصيل فى بعض المواقف، لإيهام القارئ بواقعية الأحداث، إذ إنه يصور الموقف أو الشخصية ويحيطها بسياج من الواقعية،

---

(١٤) بريم تشند - كئودان - دهلى ١٩٨٦ - ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

والتفاصيل المتعلقة بها، وكلما دقت التفاصيل كان القارئ أسرع إلى تصديقها، يضاف إلى هذا أن التركيز على الرسالة المراد إيصالها للقارئ، يحول الرواية إلى نوع من الأدب الموعظى المباشر، مما تنفر منه نفس القارئ ولا تستجيب له، ومن هنا جاءت أهمية رواية "القربان"، التى قامت بترجمتها تلميذتى الدكتورة رانيا محمد فوزى، فأحسنت ترجمتها وقدمت للقارئ العربى نموذجًا أدبيًا رائعًا يفخر به الأدب الهندى الحديث، لما فى هذه الرواية من مصداقية فى أحداثها، فما زال فقراء الهند يعانون من المرابين الجشعين.

ولعل إغماء البطلة فى نهاية الرواية هو إغماء رمزى للإنسان الهندى وروحه، تحت وطأة هذا النظام الاقتصادى الجائر، الذى لا سبيل للخلاص منه إلا الإغماء، ومن هنا تبرز قيمة الرواية لاهتمامها بإصلاح النظام الاقتصادى والاجتماعى الهندى، لأن أى تقدم أو تطور للطبقة الكادحة هناك رهين بهذا، فحياة بطل الرواية منذ البداية تنم عن موته التدريجى تحت وطأة هذا النظام الجائر.

ولا شك أن صدور هذه الترجمة عن المركز القومى للترجمة ضمن المشروع القومى للترجمة يجعلها فى متناول عدد كبير من القراء العرب، مما يوجب تقديم الشكر للقائمين على هذا المشروع.

أحمد محمد عبد الرحمن

مقدمة المترجمة

إن التلقائية التي اتسمت بها أعمال "بريم تشند" هي نفسها السمة البارزة التي اصطبغت بها حياته الخاصة من حيث البساطة، يقول عن نفسه:

(إن حياتي ميدان مستو، قد توجد به بعض الحفر، إلا أنه لا توجد فيه جبال ولا مرتفعات ولا كهوف ولا وديان عميقة).

يمكن تصنيف أدب "بريم تشند" في إطار ما عرف بأدب شعوب العالم الثالث في المرحلة الاستعمارية؛ كل مايتسم به هذا الأدب من خصائص في الشكل والمضمون، مع التسليم بجوانب من الخصوصية والتميز التي تشهد بتفرد "بريم تشند" عن غيره من معاصريه، فنال مكانة في الأدب الأردي والهندي لا تدانيها مكانة أديب آخر في تلك المرحلة.

لقد عاش "بريم تشند" في عصر كانت فيه الهند تعاني من وطأة النظام الطبقي، والإقطاعي التقليدي بكل خصائصه وتبعاته الاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى الاستعمار البريطاني بسماته وبنيته الكولونية الاستغلالية الرأسمالية المعروفة.

كان "بريم تشند" من النخبة الذين حاولوا التعبير عن وعيهم الثقافى والضميرى، وتحالفوا مع طبقات المجتمع المهمشة والمقصاة فى مجتمعها، وعرض لقضاياها بأمانة وصدق فى قالب أدبى فريد.

ولهذا نجد أن أعماله قد تمحورت حول طبقة الفلاحين، والعمال، والمنبوذين الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من مجتمع شبه القارة الهندية، وكانوا يعانون من تناقضات مجتمعهم سواء من التناقضات الاجتماعية التى فرضها الدين الهندوكى أو قبضة الاستعمار الظالمة.

وقد نجحت روايات "تشند" فى أداء دورها الطليعى فى بناء أدب واقعى صادم إلى حد كبير، ولا تجانبنا الصحة إن اعتبرناه من أوائل أدباء الرواية الواقعية الأردية والهندية.

قصارى القول أن "بريم تشند" قد وقف شامخا لأداء دوره كمثقف نخبة، فى مجتمع يعانى من صدمات وظلم اجتماعى بيّن، سببه مجتمع استعمارى مستغل وتراث دينى مكبّل، هو أمشاج مختلطة من عادات وقيم فاسدة قائمة على الطبقية.

وفى النهاية أرجو أن يشترك معى القارئ العزيز فى لذة قراءة نص يقدم لنا صورة صادقة عن المجتمع الهندى فى أوج أزمته تحت نير الاستعمار الغربى. والله من وراء القصد.

رانيا محمد فوزى

الفصل الأول

بعد أن أعطى "هورى رام" الثورين الماء والعلف، قال لزوجته "دهنيا":

- أرسلى جوبر لتجهيز مزرعة القصب، فأنا لا أعلم متى سأعود، وأعطنى عصاى.

كانت يدا "دهنيا" ملطختين بالروث الذى يستخدم للوقود، فحضرت وقالت:

- حسنًا لتفطر، فعلام العجلة؟

قطب "هورى" جبينه، وقال:

- أنت تفكرين فى الإفطار، وأنا أفكر أنى لو تأخرت عن صاحب الأرض فلن أتمكن من لقائه حتى الظهيرة، لأنه يذهب للاغتسال والعبادة.

- لهذا طلبت منك أن تفطر، وألا تذهب اليوم، فما الذى سيحدث؟ لقد ذهبت أول أمس!

- لم تدسين أنفك فيما لا تفهمين فيه؟ أعطنى عصاى واذهبى إلى عملك؛ إن ثمرة مقابلة الإقطاعيين هى التى تجعلنى أحيا حتى الآن،

وإلا لا أعرف ما كان سيحلّ بى؟... أين ذهب كثير من أهل القرية؟ من منهم لم يُطرد؟ ومن ليس عليه رهن؟ وعندما تكون رقبتك تحت أقدام الآخرين، فإن الفائدة ستكون فى ممالقتهم!

لم تكن "دهنيا" تتمتع بذكاء اجتماعى كاف، فقد كانت تعتقد أننا إذا حرثنا وزرعنا أرض المالك فسوف يأخذ خراج الأرض ، فعلام نتملقه؟! وعلام نمسح على قدميه؟! ومع أنها قد مرّت بتجربة كافية فى الأعوام العشرين الماضية من حياتها حيث ندرة الطعام، وجمع القرش على القرش، ومع هذا لم يكن ذلك كافيًا لدفع خراج الأرض، لكنها ترفض الاستسلام! وكان هذا هو محور خلافها الدائم مع زوجها.

كان لديها ستة أبناء، لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة: ولد فى السادسة عشرة من عمره يدعى "جوبر"، وابنتان هما: "سونا" و "روبا" فى الثانية عشرة والثامنة من عمريهما، أما الثلاثة الآخرون فماتوا فى طفولتهم. كان قلبها يحدثها حتى اليوم أنهم لو حصلوا على الدواء لظلوا على قيد الحياة، إلا أنها لم تستطع أن تشترى دواء لهم حتى ولو بقرش!

كان عمرها فى هذه اللحظة ستة وعشرين عاما، إلا أن رأسها اشتعلت شيبًا، وامتلأ وجهها بالتجاعيد، ووهن جسدها، واستحال لونها الخمرى الجميل إلى السواد، وضعف بصرها؛ وهذا بسبب تفكيرها كيف تشبع جوعها؟! لم تعرف الراحة فى حياتها قط، وقد بدّل هذا الحال البائس من عزة نفسها، ولم يعد لديها قلب على الإطلاق، وإذا لم نكن

نستطيع الحصول على الخبز لإشباع بطوننا فلم التملّق؟ كان قلبها يشتعل دائما بعد أن تسمع سباب زوجها، وتعرفه على حقيقته!

بعد أن استسلمت، أحضرت لهورى العصى، والصدرية، والعمامة، والحذاء وعلبة التبغ، وألقت بكل ذلك أمامه.

نظر "هورى" إليها ساخطا، وقال:

- هل أحضرت هذه الأشياء لأذهب بها إلى بيت حماى؟ لكن أختك وزوجة أخيك الشابتين ليستا هناك لأختال أمامهما!

وارتسمت على وجهه الشاحب ابتسامة، فقالت "دهنيا" بحياء:

- يالك من شاب وسيم حتى تقع أختى وزوجة أخى فى غرامك؟!

بعد أن طوى "هورى" صدريته الممزقة، وضعها على الفراش وقال:

- هل تظنين أننى صرت شيخًا؟ إننى لم أبلغ الأربعين بعد، والرجل حتى الستين يظل شاباً.

- انظر إلى وجهك فى المرآة، مثلك لن يكون رجلاً كاملا عند الستين، فأنت لا ترى الحليب والسمن فكيف تكون رجلاً قويًا؟ إننى أشعر بالضعف عندما أرى حالتك! يا إلهى كيف سنعيش حتى سن الستين؟ وعلى أى باب سنقف ونستجدى الصدقة؟

احترقت البسمة على وجه "هورى" بنار الحقيقة، فحمل عصاه وقال:

- "دهنيا"، قبل أن أصل إلى سن الستين سأكون قد رحلت عن الدنيا.

فردّت "دهنيا" وهى حزينة:

- لتصمت، ولا تُخرج من فمك هذا الكلام القبيح، فلو قلت لك كلاما طيبا للمتنى كذلك!

وضع "هورى" العصا على كتفه وخرج من المنزل، وقفت "دهنيا" عند الباب، وظلت تراقبه لبعض الوقت وهى مصدومة من هذه الكلمات البائسة، وظهرت اللوعة فى قلبها؛ فهى كزوجة تدعو الإله جاهدة أن يبعد البلاء عن زوجها، وخرج من قلبها دعاء صار كالتعويذة ليحمى زوجها من البلاء، ففى بحر المصائب العميق زوجها هو الوحيد الذى ينقذها ويعبر بها البحر! لقد هزتها هذه الكلمة المخيفة لأنها تريد أن تأخذ منها هذا السند الضعيف، وإن كانت هذه الكلمات صادقة فإنها تؤلمها، فأنت إن قلت للأعور يا أعور فسيشعر بالمهانة، أما إذا قلت لذى العينين، إنك أعور فلن يشعر بالمهانة كالأعور(١)!

كان "هورى" يسير إلى الأمام قدما، وكانت مزارع القصب الخضراء تحيط بجانبى الطريق وهى تتمايل، فلما رآها قال لنفسه:"لو أراد الإله أن تمطر فى الموعد المناسب وبالمقدار المطلوب فلا يفسد القصب، فإنه سيشترى بقرة، لكن لن يشترى بقرة محلية لأنها لا تعطى الحليب، كما أن عجولها ليست جيدة ولا يستفاد منها سوى فى تدوير الساقية فقط، لكنه سيشترى بقرة مستوردة، وسيقوم على خدمتها فتعطيه أربعة

---

(١) هذا يشبه إلى حد ما المثل العربى: اللى على راسه بطحه بيحس بيها.

أو خمسة كيلوجرامات من الحليب. إن "جوبر" محروم من الحليب، وإذا لم يأكل فى هذا السن فمتى سيأكل؟ إن قام بشرب الحليب طوال العام فسيصبح مثل الثور. إن الزوجين من الأبقار لن يقلا عن مائتى روبيه، فالبقرة زينة المنزل، وما أجمل الصباح الذى نزور فيه البقرة، لا أعرف متى سيأتى هذا اليوم الجميل الذى تتحقق فيه أمنيتى؟!"

كان "هورى" مثل كل المزارعين، يتمنى منذ زمن أن يكون لديه بقرة، فهذا هو حلم حياته، وشغف قلبه، لكن كيف يخطر بعقله الصغير أن يحظى بفوائد البنك، أو يشترى أرضًا، أو يبنى قصرا، أو يحلم بعمل مشروع عظيم؟!

بعد أن أشرقت شمس الصيف من بين حدائق المانجو، غطّت على الظلال الحمراء، ولمعت السماء بضوء صاف قوى، وصار الجو حاراً. كان العمال الذين يزرعون فى الحقول يحيونه قائلين رام، رام(٢)! ويدعونه لتدخين النارجيلة معهم، لكن لم يكن لديه وقت. ومع هذا الاحترام لمع وجهه الجاف بالزّهو، إن هذا هو نتيجه مقابلتى للإقطاعيين، فهم يحترموننى ويقدروننى رغم أننى أمتلك خمسة أفدنة فقط! وهذا الاحترام ليس قليلاً؛ لأن من يملك ثلاثة محاريث أو أربعة هو أيضًا يخفض رأسه احتراما له.

---

(٢) يشبه قولنا "السلام عليكم".

دخل إلى وسط الطريق بين المزارع فى واد تتجمع فيه مياه الأمطار، حيث النسمات العليلة والبرودة إلى حد ما مقارنة بأيام الحر الشديد، كما ترُى الخضرة، وتأتى أبقار القرى القريبة لترعى فيه، ومع هذا الجو الحار فإن الهواء هناك يكون لطيفا وباردا. زفر "هورى" زفرة حارة مرتين أو ثلاث، وفكر فى أن يجلس هنا لبعض الوقت لأنه سيقضى طوال اليوم فى لفح السموم. كان كثير من الفلاحين يريدون أخذ وثيقة استئجار هذه الأرض مقابل الكثير من المال، لكن ليرحم الإله "راى صاحب" فقد قال إنه ترك هذه الأرض لمرعى الحيوانات، ولن يبيعها بأى ثمن؛ لو كان إقطاعيًا جشعًا لقال: فلتذهب الأبقار إلى الجحيم، فسأحصل على المال فلمَ أتركه؟! لكن "راى صاحب" كان متمسكًا بالتقاليد القديمة، فالإقطاعى الذى لا يرعى رعيته ليس إنسانا!

فجأة رأى "بهولا"، وهو لبّان من مزرعة فى قرية مجاورة يأتى مع أبقاره، كان يتاجر فى الألبان والقشدة، وإذا وجد سعرا جيدا كان يبيع للفلاحين أبقاره فى بعض الأحيان. طمع قلب "هورى" فى الأبقار عندما رآها، ما أجمل أن يعطيه "بهولا" البقرة التى فى المقدمة ويأخذ ثمنها على دفعات. إنه يعلم أنه لا يملك روبية واحدة فى المنزل، ولم يدفع خراج الأرض كله حتى الآن، وعليه قرض للبقال "بسيسر"؛ الذى يضيف عليه قرشًا على كل روبية كل يوم!

إن هذه الفوائد كانت بسبب قصر النظر الذى يسببه الإفلاس، إن الفقير لا يخاف من الوقاحة والمطالبة بالدين والسب والضرب! استجمع

"هورى" شجاعته ليحقق الأمنية التى اضطرب قلبه لها، وذهب إلى "بهولا"، وقال:

– صباح الخير أخى "بهولا"، كيف حالك؟ لقد سمعت أنك قد اشتريت أبقارا جديدة من مهرجان سوق الحيوانات.

فَهِم "بهولا" المراد من هذا الحديث، فأجاب بحدة:

– نعم. لقد أحضرت عجلين وبقرتين، لقد أصاب الجفاف الأبقار القديمة فماذا سنفعل إذا لم نوزّع الحليب المقرّر يوميًا.

وضع "هورى" يده على فخذ البقرة التى كانت فى الأمام، وقال:

– أرى أنها ممتلئة بالحليب، بكم اشتريتها؟

رفع "بهولا" قامته:

– كانت أسعار السوق باهظة للغاية، فدفعت ثمانين روبية ثمنًا لها (فجحظت عيناه) ودفعت ثلاثين روبية لكل عجل، ورغم هذا فالزبائن يريدون أن يشتروا كيلو الحليب بثمانية روبيات.

– قلبك كبير يا أخى، فأنت قد اشتريت بقرة لا يوجد مثلها فى عشرات القرى!

امتلأ "بهولا" بالنشوة، وقال:

– يا أخى لقد أراد "راى صاحب" أن يشتريها بتسعين روبية، والعجلين كل واحد بخمسين، إلا أننى رفضت. ولو قدّر الإله لها أن تلد فسأكسب مائة روبية.

– ليس فى هذا شك يا أخى – كيف يشتريها الإقطاعى؟ بل يهديه أحدهم واحدة فيأخذها – إن قلبكم كبير لأنكم تدفعون النقود الكثيرة، أما قلبى فيود أن تظل هذه البقرة أمامه. إن حظك حسن لأنك تقوم على خدمة الأبقار، أما أنا فلا يتيسر لى حتى الروث منها! وعارٌ كبير على الفلاح الذى لا يملك بقرة فى منزله، ونحن لا يتسنى لنا زيارة بقرة! وزوجتى تقول لى المرة تلو الأخرى لم لا تقل هذا لبهولا ؟ وأنا حين أقابله سوف أخبره، وهى دائما مسرورة بأدبك الجم، وتقول لم أر رجلاً مثله، فهو عندما يتحدث يغض بصره ولا يرفع رأسه!

امتلأ وجه "بهولا" بالحبور أكثر فأكثر:

– إن الرجل الصالح هو الذى يرى بنات الغير وزوجات الأبناء كبناته وزوجات أبنائه، ومن ينظر إلى امرأة ولا يغض بصره يستحق أن تُطلق عليه النار! وكما أن الزوجة بدون زوجها تكون بلا سند، فكذلك العكس فعند موت الزوجة يصبح الرجل بلا يدين ولا رجلين. لقد خرب منزلى يا أخى، ولا يوجد من يعطينى شربة ماء!

فى العام الماضى ماتت زوجة "بهولا" بضربة شمس، وكان "هورى" يعلم هذا، وكان يعلم أنه يناهز الخمسين من عمره، لكنه كان يافع الجسد ولا يعلم هذا. ودمعت عينى "بهولا" حبًا فى المرأة، فاغتنم "هورى" الفرصة للحديث، واستيقظ عقله التجارى ولؤمه الفلاحى:

– على رأى المثل المنزل بلا زوجة يكون مسكنا للشيطان والعفاريت، فلم لا تخطب ؟

– أنا أنتظر يا أخى، لكن لم تقع واحدة فى شباكى. أنا مستعد لأن أدفع خمسين أو حتى مائة روبية من أجل تحقيق هذا، ولتكن مشيئة الإله.

– سأبحث لك عنها وإن شاء الإله ستكون فى بيتك قريبًا.

– لتعلم أن هذا سيكون فضلاً عظيما منك يا أخى. فالإله قد أعطانى كل شىء، فلدى كل يوم أربعة وعشرون كيلو من الحليب، لكن ماذا أفعل به؟

– إن المنطقة التى يسكن فيها حماى توجد فيها امرأة، ومنذ ثلاثة أو أربعة أعوام سافر زوجها إلى كالكاتا(٢) وتركها ولم يعد، والمسكينة تعمل يوميًا فى الطحن، ولم ترزق بأولاد، وهى حسنة السيرة والهيئة ولتعلم أنها نعمة.

انبسطت أسارير "بهولا" من حلاوة الأمل، وقال:

– البركة فيك يا أخى ولنذهب معًا ونراها فى يوم عطلتك.

– سأتحدث معها أولاً ثم أخبرك، ففى العجلة الندامة.

– سنذهب متى شئت، لن نتعجل، ولو أرادت أن تأخذ هذه البقرة الحلوب فلتأخذها.

---

(٢) هى عاصمة ولاية البنغال الغربية فى الهند، وأصبح اسمها الآن كاكوتا بدلا من كالكا.

– ليس فى وسعى شراء هذه البقرة وأنا لا أريد أن ألحق بك الضرر، فليس من شيمتى أن أضغط على أعناق أصدقائى. وكما عشت الأيام الماضية فسوف أنتظر حتى أشتريها.

– لماذا تقول مثل هذا الكلام يا "هورى"؟ لا فرق بيننا! فلتأخذ البقرة وتدفع ثمنها وقتما تريد، فكأنها فى منزلى مثلما تكون فى منزلك. لقد اشتريتها بثمانين روبية فلتأخذها أيضًا بثمانين.

– ليس عندى نقود فلتعرف هذا!

– من طلب منك النقود دفعة واحدة يا أخى؟! فهذه البقرة ليست غالية بثمانين روبية، فجسدها ممتلئ وتعطى ستة أو سبعة كيلو جرامات من الحليب صباح مساء، وهى مطيعة فيمكن أن يحلبها طفل، وإذا أنجبت عجلا فسوف يباع بمائة روبية، وهى عند الباب تزيد من قدر المنزل.

إنه مدين بأربعمائة روبية، لكنه يتصرف كأنها ديون معدومة، ولو خطب لبهولا فلن يطالبه بهذا الدين، وإذا لم يحدث نصيب لن يصيب "هورى" أى ضرر؛ فسيحضر "بهولا" المرة تلو الأخرى ليذكره بالمال، سيغضب، ويشتمه، لكن "هورى" لا يملك أى إحساس بالخجل ؛ فقد اعتاد هذا الأمر. إن هذه الأشياء جزء من حياة الفلاح. لو حدث هذا فسيغدر ببهولا، لكن لا يليق به أن يفعل ذلك! وسواء كتب صكا بالدين أو لم يكتب فلن يحدث فرق، إن بلاء القحط والفيضان يصيب قلبه بالوهن، ودائما أمامه

صورة الإله القهار، إلا أن هذا لم يكن في اعتقاده غدرا، إنه فقط يحصل على مراده؛ وذلك ليس بالشيء السيء فهو يحيا في مثل هذه الأعذار ليل نهار، إنه يحلف أمام البقال أنه لا توجد في منزله أي نقود رغم وجود روبيتين أو أربعة، وكان يبل القطن بالماء ليزيد وزنه ويحشوه بشيء أبيض وكل هذا جائز في اعتقاده. إن دافعه ليس الطمع فقط بل إن ذلك كان يجلب السرور إلى قلبه: إنه يسخر من أشواق المسنين السيئة، ولو كسبت شيئًا من ورائهم فلا حرج في ذلك!

أعطى "بهولا" وثاق البقرة إلى "هورى"، وقال:

– خذها يا أخي لكي تتذكرني! وعندما تلد ستعطيك ستة كيلو جرامات من الحليب، تعال سأوصلك إلى منزلك فقد تضايقك في الطريق لأنك غريب عنها، ولقد صدقت معك حين قلت إن الإقطاعي كان سيعطيني تسعين روبية، لكن هل سيبقيها عنده؟ إنه سيأخذها مني ويهديها إلى أحد الحكام، فهل سيخدم الحاكم البقرة؟ إنهم يعرفون فقط كيف يمتصون دماءها. إنهم يحتفظون بها إذا كانت تعطيهم اللبن فإن جف لبنها باعوها، وعندئذ في أي يد ستقع لا أعرف؟ يا أخي إن المال ليس كل شيء، وأنا أظن العكس، فهي ستعيش في منزلك معززة مكرمة فلن يحدث أن تأكل أنت وتنام هي جائعة، إن خدمتها وأحببتها ولاطفتها، فإن البقرة الأم ستدعو لك بالخير.

ماذا أقول لك يا أخي، ففي المنزل لا يوجد علف، وقد ضاعت نقودي في السوق، ففكرت أن آخذ من البقال بعض النقود وأشتري العلف –

لكن لأننى لم أدفع له ديونه القديمة رفض. والحيوانات التى عندى ماذا أطعمها . إن الفكر يقتلنى، فلو أنى أطعم كل واحدة منها قبضة من العلف فسيصبح أربعين كيلو كل يوم. فليخرجنا الإله من هذا المأزق!

وبلهجة كلها تعاطف قال "هورى":

– لماذا لم تخبرنى بهذا من قبل؟ لقد بعت عربة مليئة بالعلف.

أجاب "بهولا" وهو يضرب على جبهته:

– لم أقل لك، لأننى لا أريد أن أقص حكايتى المملة على كل شخص؟ فالغم لا ينقسم، بل إنهم يضحكون! إن البقرة التى لا تدر اللبن أطعمها أوراق الشجر، أما هذه البقرة فبدون علف لن تعيش، فإذا أمكنك فلتعطنى عشرة أو عشرين روبية للعلف.

إن الفلاح المستفاد منه ولا شك، لا تخرج نقود الرشوة من جيبه إلا بصعوبة وهو كثير المساومة، يتملق البقال لساعات ليترك قرشا واحدا من الفوائد، ولا يثق بكلام الناس حتى يتأكد بنفسه، وحياته يتكل فيها على الإله. إن الأشجار تثمر فيأكلها الجميع، وتُزرع الغلة فى الحقول فتأكلها الدنيا كلها، والحليب فى ضرع البقرة لا تشربه هى بل يشربه الآخرون، ويمطر السحاب الموجود فى السماء وتفيض الأرض، فأين تجد الأنانية المذمومة طريقا فى كل هذه المنح؟ وإذا اشتعلت النار فى بيت أحدهم فليس من شيمه أن يستدفئ بها! ولذلك عندما سمع قصة "بهولا" المؤلمة، بدّل رأيه وأعاد الحبل إليه، وقال:

– يا أخى إننى لا أملك أى فلس، بل أملك بعض العلف الباقى، وسأعطيك إياه، ولتُقطع يدى قبل أن تبيع بقرة من أجل العلف وآخذها أنا!

قال "بهولا" بصوت متثاقل:

– هل ستموت ثيرانك من الجوع؟ فلا يوجد عندك علف كاف.

– كلا يا أخى، العلف كان جيدا هذه المرة.

– لم يكن لى حق أن أتحدث عن العلف.

– لو لم تقل لى وسمعت من شخص آخر لتألمت، فأنت تقلل من قدرى. وإذا لم يكن الأخ فى عون أخيه فكيف ستسير الحياة؟!

– يا أخى خذ البقرة واذهب.

– كلا يا أخى، سآخذها فيما بعد!

– سأعطيك حليبا بثمن العلف.

قال "هورى" بلهجة حزينة:

– يا أخى لا داعٍ لمثل هذا الكلام فهذا شىء قليل، فهل إذا تناولت عندك الطعام مرة أو اثنتين كنت ستأخذ منى ثمنه؟

– لكن هل ستموت ثيرانك من الجوع؟

– سيجد الإله لها مخرجاً، إن موسم الأمطار قادم، وسأطلعك على ما يحدث فيما بعد.

– لكن هذه البقرة صارت لك، فى أى وقت تأتى وتأخذها.

– إذا عُرض ثور يملكه أحد الإخوة فى مزاد علنى وأخذته فسأكون آثمًا، وكذلك الحال إذا أخذت بقرتك!

لو كان عند "هورى" عقل لأخذ البقرة وذهب إلى بيته سعيدًا، فبهولا بعدم طلبه للنقود فى الحال يظهر منه أنه لا يبيع البقرة من أجل العلف بل يقصد به شيئًا آخر، لكن "هورى" كان كالحصان الذى يسمع صوت البقرة فيقف بلا حركة حتى لو ضربته! إن الحصول على شىء باستغلال شخص آخر إثم، وهذا ما تعلمه منذ مولده وأصبح جزءًا من عقيدته!

سأل "بهولا":

– هل أرسل أحدًا لآخذ العلف؟

فرد "هورى":

– أنا الآن ذاهب إلى منزل "راى صاحب"، وعندما أعود بعد ساعات فلترسل لى أحدهم.

اغرورقت عينا "بهولا" بالدموع، وقال:

– يا أخى لقد أحسنت اليومَ إلىّ، وعلمت أننى لست وحيدا فى هذه الدنيا، وأن لى صديقًا!

لكن بعد لحظة قال:

– لا تنسَ هذا الحديث!

تقدم "هورى" إلى الأمام وكان قلبه يرقص من السعادة - كان الشىء الذى يفرحه عجيبا - لن يحدث شىء لو أعطيته أربعين أو ثمانين كيلو من العلف، وهكذا لن يبيع بقرته تحت وقع هذه المصيبة. وعندما يكون عنده العلف، سأذهب وآخذ البقرة، وإذا شاء الإله ووجدت له امرأة فلن أقلق على شىء بعد ذلك!

ونظر خلفه ورأى البقرة الحلوب تهش الذباب من حولها، وكانت تحرك رأسها ببطء كأنها تغنى، أوكأنها ملكة وسط الجوارى! إن اليوم الذى تأتى فيه تلك البقرة وتقف على بابه سيكون يوماً سعيداً!

الفصل الثانى

سمرى وبيلارى هما قريتان فى منطقة أوده - لا حاجة لذكر اسم المركز - يعيش "هورى" فى بيلارى و "راى أجربال سنج" فى سمرى، ويفصل بين القريتين خمسة أميال فقط. وقد نال "راى صاحب" شهرة عظيمة فى معركة ستيه جر(١)، وقد عُزل من البرلمان ودخل السجن، ومنذ ذلك الوقت رسخت مكانته عند الرعايا. وليس لهذا علاقة بامتيازات منحها لهم، أو بسبب تخفيفه الغرامة والعمل عليهم، إلا أن السمعة السيئة كانت تذهب لوكيله، ولا تؤثر على سمعة "راى صاحب" الطيبة! ومع أنه كان ينفذ القانون الذى كان معمولاً به فى ذلك الوقت ويسير على نهجه، فإن هذه الأشياء لم تكن تؤثر على مروءة "راى صاحب"، ورغم أنه لم يكن يزيد فى الأجور حتى ولو بمقدار حبة شعير، فإن هذا كله لم يؤثر على شهرته كذلك. وكان يتحدث بالحسنى مع رعاياه، فهل كان هذا يكفيهم؟ إن الأسد وظيفته الصيد، ولو أنه كفّ عن الزئير وتحدث مع الحيوانات فى بيته بحلو الكلام فسيكون الصيد متاحا له أيضاً، ولن يحتاج إلى التجول فى الغابات للصيد.

---

(١) أى حركة عدم التعاون مع الإنجليز، والتى قادها المهاتما غاندى.

كان "راى صاحب "يحب قومه، ومع ذلك كان على علاقة جيدة بالحكام، وكان دائما ما يقدم لهم الهدايا والعطايا، وكان محبا للعلم والأدب والموسيقى، مولعًا بالمسرح، خطيبا مفوهًا، وكاتبا جيدا، ماهرا فى رمى السهام. وقد توفيت زوجته ومرّ على وفاتها عشر سنوات ولم يتزوج، كان دائم الابتسام رغم مرارة العيش وحيدا. وصل "هورى" إلى دهليز حيث رآهم يجهزون الساحة لمسابقة رمى السهام، ويعدون مكانًا كمنصة، ونصبوا خيمة، ومكانًا للضيوف ومحلات للبيع.

اشتدت حرارة الشمس ومع هذا كان "راى صاحب" يجهز المكان بنفسه، وقد ورث مع ثروة والده تدينه، وجعل مهرجان رمى السهام مكانا للمسرح، حيث جعله ترفيها للرعية. وكان يدعو جميع أصدقائه والحكام لهذه المناسبة، وتستمر هذه الاحتفالات يومين أو ثلاثة أيام. كانت أسرة "راى صاحب" كبيرة جدا، وكان يتناول الطعام ومعه مائة وخمسون من الحكام، كان له عدة أعمام وكثيرٌ من أبنائهم وعدد من الأشقاء وأقربائهم؛ كان له عم شديد التدين يدعى "رادها جى" يقضى معظم أوقاته فى معبد بندرابن، وكتب العديد من الأناشيد الدينية التى كان يطبعها فى بعض الأحيان ويوزعها على أصدقائه. وعم آخر كان يحب الإله "رام تشندر جى"(٢) وقام بترجمة الرماين(٣) إلى اللغة الفارسية، وكان جميع أفراد الأسرة يعيشون على منح من الحكومة، فلا يحتاج أى منهم إلى القيام بأى عمل.

---

(٢) أحد آلهة الهنادكة، وتدين له كل مناطق الشمال الهندى.

(٣) هى أحد الملاحم الهندية القديمة، وتحكى قصة الإله رام سالف الذكر.

كان "هورى" واقفا يفكر كيف يخبر "راى صاحب" بحضوره، عندما ظهر هذا الأخير فجأة وراءه، فقال: حسنًا لقد حضرت يا "هورى" كنت سأستدعيك، ولتعلم جيدا أنك ستكون بائعا للأزهار لدى الملك "جنج"، فهمت أم لا؟ وعندما تحضر السيدة "جانكى جى" إلى المعبد للصلاة عندئذ تكون واقفا بباقة الزهور وتقدمها لها، لا تخطئ! وأكد على جميع الرعية أن يحضروا المهرجان، ولتأت معى أريد أن أتحدث معك قليلا.

تقدم "راى صاحب" إلى القصر، و"هورى" وراءه. جلس "راى صاحب" على كرسى تحت شجرة وارفة، وأشار إلى "هورى" أن يجلس على الأرض، وقال:

– أفهمت ما قلته لك؟ إن رئيس العمال سينفذ ما أوكل إليه من عمل، إن الرعية تسمع لبعضها البعض ولا تسمع كلام رئيس العمال، ولا بد أن ندبّر عشرين ألف روبية خلال خمسة أيام أو سبعة؛ كيف سيحدث هذا لا أعرف. إنك تفكر كيف يشكو الإقطاعى ويبكى أمام شخص عادى من رعيته، لمن أحكى ما فى قلبى؟ لا أعلم لم أجعل لك اعتبارا، إننى أعلم أنك ستضحك فى قلبك علىّ، ولو حدث ذلك فسأتحمله، ولكن بالتأكيد لن أتحمل ضحك من هم فى مستواى لأن فى ضحكهم حسدا، وبغضا، وطعنا علىّ . لم لا يضحكون؟ أنا أيضا أضحك على متاعبهم ومصائبهم وتردى أحوالهم ، وأصفق شماتة فيهم، فالثروة والمواساة لا يجتمعان.

إننى أدفع الصدقة، وأؤدى الفرائض الدينية، لماذا؟ إننى أعمل كل ذلك فقط لإخضاع الإقطاعيين الآخرين أمام عظمتى. إن صدقاتى وخدماتى الدينية محض غرور، وعندما ينتصر أحدنا على غيره فى المحكمة ويحجز عليه أو يُسجن بسبب عدم دفع الخراج، وإذا مات لأحدهم ابن شاب وتصبح كنته أرملة، أو يحترق منزله، أو يضحك عليه أحد الإقطاعيين، أو يضربه رعاياه؛ سيضحك إخوانه جميعا عليه وكأنهم وجدوا نعيم الدنيا، وعندما يلتقى به أحدهم يظهر له الحب وكأنه سيفديه بدمه، ولو ضحك غيرنا فلا بأس بذلك، إلا أن أبناء أعمامنا وأبناء عماتنا وأولاد أخوالنا وأولاد خالاتنا الذين يعيشون على منح الحكومة ويلقون الأشعار ويلعبون القمار هم أيضًا يحسدوننى، ولو مت اليوم فسيشعلون المصباح بالسمن. إن أحدا لا يفهم ما أقاسيه، ورغم أننى أبكى فإننى أسخر من الهموم، ولو كنت مريضًا فإننى أشعر بالطمأنينة، وإذا تزوجت وأحضرت زوجتى إلى المنزل ولم أكثر من الخصام لقالوا إننى أنانى. وإننى بزواجى صرت متنعمًا، وإذا لم أحتس الخمر فسيقولون إننى بخيل، ولو احتسيت لقالوا إننى أشربه من دم الرعية، ولو لم أقم بالأعمال المشينة لقالوا عنى إننى رجعى، ولو قمت بها لقالوا إننى ماجن، وكم من الناس احتالوا علىّ لأدمر نفسى بأعمال المجون ومازالوا حتى الآن يدبرون لى المكائد، ويريدون أن أكون أعمى البصيرة ليغتصبوا أموالى؛ إنهم يعتقدون أننى لا أفهم ما يحدث أمامى لكننى أفهم كل شىء وأتظاهر بالغباء.

أخذ "راى صاحب" ورقتين من القات كى يكمل حديثه بنشاط، ثم نظر إلى "هورى" كيف يسبر أغوار فكره، فتجرأ "هورى" وقال:

- كنت أظن أن هذا الحديث بيننا فقط، لكن أرى أنه يوجد الكثير منه بين الإقطاعيين أيضاً.

بعد أن ملأ "راى صاحب" فمه بورق القات، قال:

- أنت تعتقد أننا عظماء، أسماؤنا عظيمة لكن فعلنا عكس ذلك ولو وُجد الحسد والعداء بين الفقراء، فإنه يكون من أجل لقمة العيش، وهذا الحسد وتلك العداوة يمكن التسامح معهما، فمن منا لو أخذت لقمة عيشه لن ينزعها من حلق من أخذها، وإذا لم نفعل سنكون كالآلهة. أما حسد الأغنياء فهو للتلذذ فقط، ولقد صرنا أغنياء لدرجة أننا نشعر باللذة فى المكر والخسة، لقد صرنا آلهة فقد أصبحنا نضحك على آلام الغير. لا تعتقد أن هذه مشقة يسيرة؛ فأسرتى كبيرة العدد ولا بد أن يكون أحدنا مريضاً، والأغنياء يكون مرضهم عضالاً، فلا يكون الرجل غنياً حتى يلحق به مرض صغير يتحول إلى مرض عضال، فلو ظهرت عليه بعض البثور القليلة لصارت مرضاً خطيراً يستوجب استدعاء الأطباء الصغار والكبار بالبرق لعلاجه، ويُرسل إلى العاصمة ليحضر أعظم الحكماء، ويحضر طبيب الملك من كلكاتا ويجتمع الناس فى المعبد للدعاء له، ويقرأ العراف الطالع له، ويعمل السحرة له الأعمال، وكأن الناس جميعًا يساعدونه كى يفر من براثن ملك الموت، والحكماء والأطباء ينتظرون متى سيشعر بالصداع كى يستفيدوا من المال الذى سيهبط عليهم، هذا المال

الذى أُخذ من إخوانك رغما عنهم. إننى أتعجب لم لا تحرقنا آهاتكم، لكن لا عجب في هذا لأن الحريق لا يأخذ وقتا، والأعمار قصيرة ونحن سنحترق شيئا فشيئا؛ إننا نحتمى من هذا البلاء بالشرطة والحكام والقضاة والمحامين الذين يجعلوننا ألعوبة بين أيديهم مثل المرأة الجميلة. إن الدنيا تعتقد أننا نشعر بالراحة، فلدينا الإقطاعيات والقصور والعربات والخدم والمال والسلطة فما الذى ينقصنا؟! لكن من انعدمت الرحمة من قلبه، وليس لديه عزة نفس ولو ملك كل شيء، فإنه ليس إنسانًا! إن من لا ينام خوفًا من العدو، ويضحك الآخرون على همه، ولا يبكى عليه أحد، ورأسه تحت قدم الناس، ومن نسى نفسه من سكرة لذة الحياة، ويقبّل أقدام الحكام، ويمتص دماء رعيته – لا أقول إنه يحيا فى طمأنينة، بل إنه صورة مجسمة لسوء الحظ! فإذا حضر من هو أعظم منه للصيد، أو للتجول، فمن واجبى أن ألهث وراءه، وهو لا يشعر بالغضب، فنحن نتظاهر بأننا نموت لإسعادهم، ونعمل ما فى وسعنا لإرضائهم، ولو حكيت كل شيء فلن تصدقنى! إننا نقدم الهدايا والرشوة، وإلى هذا الحد لا بأس بذلك، لكننا مستعدون للسجود لهم؛ إن أكل الحرام جعلنا بلا يدين أو قدمين، وأنا لا أعتمد على رجولتى، فنحن دائمًا نطيع أوامرهم ليعطفوا علينا، وليساعدونا فى إثارة الرعب فى قلوب رعايانا! إن تضرّع المنافقين أصابنا بالغرور وسرعة الغضب، حتى فقدنا المروءة والتواضع والتضحية. إننى أفكر أحيانًا لو أن الحكومة أخذت أراضينا وعلمتنا كيف نكسب رزقنا فسيكون هذا إحسانا كبيرا لنا؛ ولتتأكد أن الحكومة لا تحمينا إلا لأنها تستفيد منا، وأرى من العلامات الظاهرة أن

طبقتنا ستنهار فى القريب، وسأستقبل هذا اليوم بسعادة، وأدعو الإله أن يأتى به سريعًا، فهذا اليوم سيكون عيدًا لنا! إننا الآن فريسة للأوضاع الراهنة التى سوف تقضى علينا، إن قيود المال التى تكبلنا لا تخرج من أقدامنا، فيلازمنا سوء الطالع ويظل يحلّق فوق رؤوسنا. إننا لم نصل بعد إلى درجة الإنسانية، والوصول إلى هذه الدرجة هو الهدف من الحياة.

أخرج "راى صاحب" القات من الصندوق ووضعه فى فمه، وكان يريد أن يقول المزيد؛ إلا أن خادمه الخاص حضر، وقال:

– سيدى إن العمال يرفضون القيام بعملهم، ويقولون إنهم إذا لم يتناولوا الطعام فلن يعملوا، ولقد هددتهم لكنهم تركوا العمل وجلسوا.

تجهم وجه "راى صاحب"، وفتح عينيه وقال:

– اذهب وأنا سأعاقبهم، وإذا كانوا لم يتناولوا الطعام من قبل فما هذا الحديث الجديد؟! إنهم يأخذون فى اليوم ستة بيسات ونصف، ولا بد أن يعملوا بهذه النقود سواء بالحسنى أو بالعقاب!

ثم نظر ناحية "هورى"، وقال:

– لتذهب الآن يا "هورى" ولتستعد، وضع ما قلته فى ذهنك، وأنا أتوقع أن تحضر من قريتك خمسمائة روبية.

ذهب "راى صاحب" وهو غاضب، وفكر "هورى" أنه كان يتحدث حديثًا دينيًا جيدًا، لكن فجأة اشتعل غضبه.

تعامدت الشمس على رأسه، فتقلَّصت ظلال الأشجار من حرارتها، وارتفع الغبار فى السماء، وارتعشت الأرض أمامه من شدة الحر.

حمل "هورى" عصاه واتجه إلى المنزل، وتسلّطت على رأسه فكرة واحدة: من أين سيأتى بالنقود اللازمة من أجل المهرجان؟!

الفصل الثالث

عندما وصل "هورى" إلى قريته وجد "جوبر" مازال يحرث، وكانت البنتان أيضًا تعملان معه. هبّ الهواء الساخن، تبعته عاصفة ترابية، وكانت الأرض تحترق وكأن الإله قد نفث النار فى الهواء. لماذا يريدون أن يموتوا وهم يعملون؟! اتجه ناحية الحقل وصاح من بعيد:

- لم لا تأتى يا "جوبر"، هل ستستمر فى العمل؟ لقد صار وقت الزوال ألم تلاحظ ذلك؟!

عندما رأوه حمل ثلاثتهم المحراث وذهبوا معه. كان "جوبر" شابا يافعًا أسمر اللون ولم يكن يحب العمل، تعلو وجهه الهموم وعدم الرغبة عوضًا عن الحبور والسعادة ولهذا كان عندما يعمل يتظاهر بأنه يفكر فى العمل لا فى الطعام. أما "سونا" ابنته الكبرى فكانت فتاة خجولة سمراء متناسقة الأعضاء، ترتدى ساريا⁽¹⁾ أحمر قانيا يرتفع فوق الركبتين وتربطه حول وسطها، كانت نحيفة الجسم وكان السارى يجعلها تبدو

---

(١) هو رداء المرأة الهندية، وهو عبارة عن قطعة من القماش ملفوفة على الجزء السفلى من الجسم، وفوقه قميص يلف الجزء العلوى.

شابة. وابنته الصغرى "رويا" كانت فى السادسة من عمرها غير نظيفة وشعرها كأنه عش للطيور، وتلف قماشة حول وسطها، كانت طفلة بكّاءة وشريرة.

احتضنت "رويا" ساقى "هورى"، وقالت:

– انظر يا أبى لم أترك شبراً فى الأرض إلا سويته، وأختى كانت تقول لى فلتذهبى وتجلسى تحت الشجرة، فكيف ستساوى الأرض لتصبح صالحة للزراعة؟

حملها "هورى"، واحتضنها بحب وقال:

– أحسنتى يا بنيتى فلنذهب إلى المنزل.

بعد قليل صرح "جوير" بما يدور فى خاطره:

– لماذا تذهب كل يوم إلى الإقطاعيين وتتملقهم، إذا لم ندفع الخراج فسيأتى المحصل ويسبنى. إننا نخدمهم بدون أجر، ويأخذون منا الهدايا، فلم نتملقهم ؟

كانت تلك الأفكار في ذلك الوقت تدور فى ذهن "هورى"، لكن كان من الضرورى أن يعارض أفكار ابنه، فقال:

– أين نسكن إذا لم ننافقهم؟! وإذا كان الإله قد خلقنا عبيداً فهل بيدنا حيلة؟! من بركة هذا النفاق استطعنا أن نصنع تكعيبة خارج المنزل ولم يعترض أحد، فى حين أن "جهورا" عندما ثبت وتداً أمام الباب غرّمه

عامل البلدية روبيتين، وقمنا بحفر القناة وأخذنا منها الطوب اللبن فلم يقل عامل البلدية شيئا، ولو فعلها شخص آخر لقام بتغريمه. أنا أتملق من أجل مصلحتي، أنا كثير السفر والسير فالتملق لا راحة فيه؛ إنني أظل أنتظر لقاء المالك لساعات حتى يُعلموه بوجودى، أحيانًا يقابلنى وأحيانًا يخبرني أن لا وقت لديه.

فقال "جوبر":

– عندما توافق الإقطاعيين فيما يقولونه تشعر بالسرور، وإلا لما تقدم أحد للعضوية فى البرلمان.

– إذا كنت أنت من يحمل المسؤولية على رأسه لعرفت حقيقة التملق وفائدته. قل الآن يا بنى ما تشاء فأنا أيضًا كنت قبل ذلك أفكر مثلك، أما الآن فقد علمت أن أعناقنا تحت أقدام الإقطاعيين وإذا عارضناهم فلن نتمكن من العيش.

بعد أن كان "جوبر" غاضبًا من والده هدأ قليلاً ومشى صامتا، وعندما رأت "سونا" "رويا" فى حضن والدها شعرت بالغيرة، فنهرتها قائلة:

– انزلى من حضنه، وامشى على قدميكِ، أتكسّرت ساقاك؟!

فوضعت "رويا" يدها على عنق والدها بجرأة، وقالت:

– لن أنزل. يا أبى، إن أختى تسخر منى تقول أنت جميلة، لكننى كالذهب غير اسمى.

نظر "هورى" إلى "سونا" وهو يتصنع الغضب، وقال:

– لماذا تسخرين منها يا "سونا"(٢)، لا فائدة من الذهب سوى رؤيته، والحياة تمشى بروبا(٣)، فإذا لم تكن "روبا" فمن أين ستأتى روبية؟!

أجابت "سونا" لتؤكد كلامه:

– إذا لم يكن هناك ذهب فمن أين نأتى بالنقود؟! ومن أين نأتى بالخزام؟! وكيف سيُصنع العقد؟!

انضم "جوبر" أيضًا لهذا الحديث المازح، وقال لروبا:

– لتخبرى "سونا" أنها مثل الورقة الصفراء الجافة و روبا بيضاء مثل القمر.

قالت "سونا":

– فى الزواج يُلبس السارى المذهب، ولا يُلبس السارى الأبيض.

لم تصمد أدلة "هورى" و"جوبر" أمام هذا الدليل، فشعرت "روبا" بالهزيمة وبكت، ونظرت إلى والدها.

---

(٢) سونا فى اللغة الهندية تعنى الذهب.

(٣) روبا تعنى الفضة البيضاء.

فكر "هورى" فى حجة جديدة:

- إن الذهب للأغنياء أما نحن الفقراء فلنا "روبا"، مثلما يُقال إن الشعير هو الملك والقمح منبوذ؛ لأن القمح طعام الأغنياء أما نحن فنأكل الشعير.

لم تحر "سونا" جوابا أمام حجته القوية، فقالت وهى منهزمة:

- كلكم ضدى، ولولاكم لجعلت روبا تبكى!

رفعت "روبا" يدها وقالت:

- يا إلهى "سونا" منبوذة! يا إلهى "سونا" منبوذة!

ومن سعادتها بالفوز لم تستطع أن تبقى فى حضن والدها فقفزت إلى الأرض، وظلت تقفز وهى تردّد:

- "روبا" ملكة، "سونا" منبوذة! "روبا" ملكة، "سونا" منبوذة!

وصلوا إلى المنزل حيث كانت "دهنيا" واقفة على الباب فى انتظارهم، فقالت بغضب:

- لماذا تأخرت اليوم يا "جوبر"؟ لا تضيع الحياة فى العمل.

ثم قالت لزوجها غاضبة:

- لقد عدت من هناك وكأنك حصلت على المال، ثم اتجهت إلى الحقل مباشرة، فهل كان الحقل سيفر إلى مكان آخر؟!

كانت هناك بئر عند الباب، فوضع "هورى" و"جوبر" دلوًا تلو الآخر على رأسيهما، واغتسلت "روبا"، وذهبوا لتناول الطعام. كان هناك خبز من الشعير، لكنه بدا كالقمح الأبيض، وعدس أصفر ومانجو غير ناضجة.

جلست "روبا" لتأكل فى طبق والدها، فنظرت إليها سونا بغيرة وكأنها تقول: " لمَ يدللها كثيرًا ؟!"

سألت "دهنيا":

– فيم تحدثت مع المالك؟

شرب "هورى" الماء من الإبريق، ثم قال:

– كنا نتحدث عن التحصيل والخراج، نحن نعتقد أن الأغنياء يعيشون فى راحة لكن الحقيقة عكس ذلك، إنهم مهمومون أكثر منا، فنحن نفكر فى لقمة العيش فقط أما هم فتحيط بهم العديد من الأفكار.

لقد تحدث "راى صاحب" معه عن الكثير من الأشياء، إلا أن "هورى" نسيها ولم يبق فى ذاكرته إلا خلاصة الكلام.

قال "جوبر" بسخرية:

– هل سيعطينا الرئاسة؟ وأنا مستعد فى المقابل أن أعطيه حقلى والثيران والمحاريث والمجرفة. فهل يبادلنى؟ إنه كلام فقط، رجولة بالكلام. ومن كان مهمومًا لا يشترى عشرات العربات، ولا يعيش فى القصور ولا يأكل الحلوى والفطائر، ولا يمضى حياته فى الرقص والغناء ويعيش فى راحة كالملوك، فكيف يتظاهر بالأسى.

فقال "هورى" ثائراً:

- يا أخى من يريد أن يتناقش معك؟ أهناك من يترك الرئاسة. ونحن ما الذى نجنيه من الحقول؟ إن أجرة الشخص الواحد فى اليوم ستة بيسات، فمن الذى يعمل ويأخذ كل شهر عشر روبيات، ويعيش أفضل منا، لكن أحداً لا يدع حقله، ولو تركنا الحقل ماذا نفعل؟ لا يوجد عمل. وهناك أمر جدير بالملاحظة فالعمل فى الحقل فيه حرية، ولا توجد حرية في العمل مثل الإقطاعيين؛ إن كثيراً من الناس يضايقونهم فيجب عليهم إرسال المئونة إلى الحكام وتملقهم وإسعاد حاشيتهم، ونحن إذا لم ندفع الخراج فى موعده يحجزون علينا، لكن لا يُلقى بنا أحد فى السجن إنهم يسبوننا ويزجروننا فقط.

اعترض "جوبر":

- هذا كلام فقط، نحن فى حاجة إلى حبة تمر ولا يوجد علينا ما يسترنا من الثياب، وتنفر عروقنا من الرأس إلى القدمين من شدة التعب، وبعد هذا لا نستطيع أن نحيا حياة كريمة، إنهم يجلسون على وسائد مريحة ويتكئون على حشايا ناعمة، لديهم مئات الخدم وآلاف الناس تحت أمرهم؛ وإذا لم يكن عنده مال لكنه يملك الراحة فهذا يكفيه، فماذا سيفعل بالمال أكثر من ذلك؟!

- أتعتقد أننا وهم سواء بسواء؟!

- لقد خلقنا الإله سواسية.

- إن كلامك غير صحيح يا بنى، إن الأغنياء والفقراء يأتون هكذا من عند الإله. إن الغنى يأتى بعد مشقة كبيرة، فهم يعتقدون فى تناسخ الأرواح ويظنون أنهم صنعوا خيراً فى حياتهم الأولى فيجنون ثوابها، أما نحن فلم نفعل شيئا، فما الذى سنجنيه؟!

- هذا كلام فقط لإراحة القلب. لقد خلق الإله الجميع سواسية، إن الذى يحمل فى يده عصا هو الذى يصبح غنيًا بعد أن يدوس على الفقراء.

- هذا ما تظنه، إن الإقطاعى ما زال يعبد الإله حتى الآن.

- وعلى حساب من يعبد ويتصدق؟

- على حسابه.

- كلا، بل على حساب الفلاحين والعمال! فهل يمكن أن تبقى أموال الظلم؟ وبسبب هذا يتظاهرون بالعبودية، ويقدمون الصدقات ويعبدون الإله من أجل هذا، فإذا كانوا جائعين وعرايا ثم قاموا بعبادته عندئذ نرى. لو أعطيتنى الطعام مرتين صباحًا ومساء فسأعبد الإله ثمانية أضعاف، ولو عمل الإقطاعى فى حقول القصب ليوم واحد مثلنا فسينسى العبودية والتصدق.

قال "هورى" مهزوماً:

- من يناقشك يا أخى؟ إنك تتدخل فى شؤون الإله.

فى الساعة الثالثة عصراً أخذ "جوبر" المحراث ليذهب إلى الحقل، فقال له "هورى":

– انتظر قليلاً يا بنى سآتى معك، والآن لتخرج أعواد القمح لأننى وعدت "بهولا" أن أعطيها له لأنه يمر بضائقة هذه الأيام.

فقال "جوبر" متمردا:

– ليست لدينا أعواد للبيع .

– لن أبيعها يا أخى سأمنحه إياها، إنه فى ورطة ومن الواجب مساعدته.

– إنه لم يعطنا بقرة أبداً.

تمايلت "دهنيا" وقالت:

– إنه لا يعطى بقرة ولا يعطى شيئا، وكيف يعطيه بقرة، إنه لا يرسل حتى الحليب لأراه فقط، فهل يمكن أن يمنح بقرة؟! هل أصبح معطاءً؟!

أقسم "هورى" قائلاً:

– أقسم بشبابى أنه قدم لى البقرة الحلوب، إنه فى ضائقة، وليس بإمكانه شراء علف الحيوانات إنه يريد أن يبيع بقرة ليشترى بثمنها العلف، وقد فكرت أنه من غير اللائق أن آخذها وهو فى ضائقة ولهذا سأعطيه أعوادا للعلف، وعندما تكون النقود معى سأشتريها وأدفع المال

على دفعات. إن ثمن البقرة ثمانون روبية، لكنها من نوع جيد فإذا رآها أحدهم اشتاق لرؤيتها لمدة طويلة.

اعترض "جوبر" على هذا الكلام:

– إن سذاجتك هذه هى السبب فى فقرك، هذا الكلام جيد، إن ثمن البقرة ثمانون روبية فنعطيه أعوادا بعشرين روبية ويعطينى البقرة فيتبقى ستون روبية ندفعها على أقساط.

ابتسم "هورى" فى نفسه، وقال :

– لقد فكرت فى فكرة رائعة، حيث سآخذ البقرة دون نقود، كيف؟ إذا ساعدت فى زواج "بهولا"، وأعطيته ثمانين كيلو من الأعواد لكبرت فى نظره.

قال "جوبر" باحتقار:

– أتعمل الآن خاطبة؟!

نظرت "دهنيا" بطرف عينها، وقالت:

– والآن لم يبق لك عمل سوى هذا، لن نعطى أعواداً لأحد، نحن لم نأخذ القرض لبهولى بهولا!

برّر "هورى" قائلاً:

– لو نجح تدبيرى فى تزويجه فهل فى ذلك خطأ؟!

أخذ "جوبر" النارجيلة ومضى ليشعلها، إنه لا يحبذ هذه الفكرة قط.

قالت "دهنيا" وهى تهزّ رأسها:

– وهل يأخذ من يساعده في الزواج بقرة بثمانين روبية؟ بل يأخذ أكثر من ذلك بكثير.

قال "هورى" يمدحه:

– أنا أعرف ذلك، لكنه رجل طيب وعندما يقابلنى يمدحك ويقول إنك امرأة مباركة ومنظمة.

ظهر الفرح على وجه "دهنيا"، لكنها قالت:

– أنا لست فى حاجة إلى إطرائه، فليدعه لنفسه.

– إن "بهولا" يقول هذه الكلمات بمحبة وهو مبتسم، أما أنا فقد قلت له إنك دائمة الانفعال وتتكلمين بأقذع الكلمات، لكنه ظل يردّد أنك مباركة وذلك لأن زوجته كانت ذات لسان حاد وكان يهرب خوفًا منها، وكان يقول: عندما أرى وجه زوجتك فى الصباح الباكر أتبرّك به، فقلت له: ربما تكون أنت مستفيداً ببركتها أما أنا فلم أحصل منها على شىء، إننى أراها كل يوم لكن لم أر مالاً. فأجابنى قائلاً: إنك سيئ الحظ فماذا أفعل لك؟! ثم أخذ يعدّد مثّالب زوجته الراحلة: فهى لا تعطى الفقير شيئا، وتجرى وراءه بالمكنسة لتضربه، كما كانت طماعة، وحتى الملح تستعيره من الجيران؛ لماذا أحكى أعمالها السيئة بعد موته لكن عندما كانت ترانى كانت تحترق. كان "بهولا" صابرا وعاش معها، ولو كان رجلاً آخر مكانه لكان قتل نفسه. إن "بهولا" يكبرنى بعشر سنوات، لكنه دائمًا يبدؤنى بالسلام.

– أخبرنى بما قاله عندما يرى زوجتك؟

– عندما يراك يبعث له الإله بشىء من المال فى ذلك اليوم. إن زوجات أبنائه شرهات، وقد أخذن شماعة بالسلف ثمنها روبيتان، ولو اقترضن شيئا لا يفكرن فى كيفية إعادته. ولم يحزن بهولا عليهن؟!

عاد "جوبر" وقال:

– لقد جاء الجد "بهولا"، سأعطيه أربعين أو ثمانين كيلو ثم تخرج لتبحث موضوع الزواج.

فردت "دهنيا":

– إن الرجل قد جاء إلى منزلنا فيجب أن نكرمه، ونقدم له متكأ ليجلس عليه، إنك حانق عليه حتى قبل أن تكرمه. يجب عليك أن تتعلم الإنسانية، ولتأخذ دلوا وتملأه بالماء وتقدمه له ليغسل فمه ويده وقدم له شرابًا؛ يجب على الإنسان أن يمد يد العون لمن كان فى مصيبة.

قال "هورى":

– لا حاجة إلى تقديم الشراب فهو ليس ضيفًا.

غضبت "دهنيا" وقالت:

– ومن الضيف عندك؟! إنه لا يحضر إلى منزلك كل يوم، وقد أتى من بعيد فى هذا الجو القائظ؛ بالتأكيد هو عطشان. "روبا"، انظرى هل يوجد بالعلبة تبغ أم لا، لا يمكن أن يكون شىءٌ قد بقى لأن "جوبر" أخذه، لتذهبى وتحضرى تبغًا بقرش من صاحبة الدكان.

لقد كُرم "بهولا" كرما لم يره من قبل، فأحضر "جوبر" له فراشا، وأحضرت "سونا" الشراب، أما "رويا" فقد أحضرت التبغ. وقفت "دهنيا" بجوار الباب، وكانت تنتظر لتسمع مدحه لها بنفسها:

أخذ "بهولا" النارجيله في يده، وقال:

– إذا كانت الزوجة الطيبة في المنزل فهي بركة فيه، فهي تعرف كيف تكرم الكبار والصغار.

جَرى موج الفرح في قلب "دهنيا"؛ حيث جعلتها هذه الكلمات تشعر بالهدوء والراحة، رغم ما يحيطها من أفكار اليأس والفقر.

عندما أخذ "هوري" الكيس الذي أحضره "بهولا"، دخل إلى المنزل، فمشت "دهنيا" خلفه، فقال "هوري":

– من أين أتى بهذا الحجم الكبير، ربما أحضره من عند الشواء، إنه سيأخذ أربعين كيلو، ولو أعطيناه اثنين فسيضيع علينا ثمانون كيلو من الأعواد.

كانت "دهنيا" مسرورة، فنظرت إليه نظرة لائمة، وقالت:

– لا تدع أحدا، وإذا دعوت أحدا فلا تقدم له من الطعام ما لا يكفيه، إنه لم يحضر إليك ليأخذ وردة أو ورقة قاتٍ كي يحضر صندوقًا صغيراً، وإذا أعطيته فلتعطه ثلاثة أكياس، ولا أعرف لم لم يحضر ابنه معه؟ ولو حملها بمفرده فسيموت!

– لا أستطيع أن أعطيه ثلاثة أكياس.

– هل ستعطيه كيسا واحداً وتصرفه؟ قل لجوبر أن يأخذ كيسا من عندنا ويملأه واحمله معه.

– سيذهب "جوبر" إلى مزرعة القصب لحرثها.

– هل سيجف القصب إذا لم يحرث اليوم؟!

– هذه مشكلته كان يجب أن يحضر معه أحدا، لقد أعطاه الله ولدين.

– لعلهما خارج المنزل، وذهبا إلى السوق لبيع الحليب.

– هذا شيء عجيب، نعطيه أموالنا ونوصله إلى المنزل أيضًا. ليحمله من يحمله.

– حسنًا لن يذهب أحد، سأحمله أنا، إن خدمة الكبار ليست عيباً.

– لو أعطيته ثلاثة أكياس فماذا تأكل ثيراننا؟

– كان يجب أن تفكر في هذا قبل أن تدعوه، لو أمكن فلتذهب أنت و"جوبر".

– إذا أردت أن تكرم فلتكرم، لكن لا تعطِ منزلك كله(٤).

---

(٤) يشبه إلى حد ما المثل العامي: اللى يعوزه البيت يحرم على الجامع.

– لو حضر عامل من عند الإقطاعى، لكنت حملتها على رأسك وأوصلتها وذهبت مع ابنك وابنتك، وتكسّرها أيضا ليصنعوا منها الحطب للطهى.

– لأن الإقطاعى شىء آخر.

– نعم. لأنه يجبرك على العمل بالعصى. ألا تحرث أراضيه؟ وإذا حرثتها ألا تعطيه الخراج؟!

– حسنًا لا تأكلى روحى، سنذهب نحن الاثنين. لماذا قلت له إننى سأعطيه أعوادا؟! وأنت إما أنك لا تفعلين شيئا وإذا قمت بعمل شىء أديته وأنت متعجلة.

ملأ ثلاثة أكياس بالأعواد، فانقبض "جوبر" فى نفسه، فهو لا يحترم تصرف والده ، لأنه يعلم أنه حيثما ذهب يأخذ شيئًا من البيت. كانت "دهنيا" مسرورة، أما "هورى" فكان يضطرب بين الدّين والوعد.

أخرج "هورى" و"جوبر" كيسًا واحدًا، فقال "بهولا" وهو يضع قطعة من القماش على رأسه ويضع عليها كيس الأعواد:

– سأوصله وأعود بسرعة لآخذ كيسًا آخر.

فقال "هورى":

– ليس واحدًا بل هناك كيسان مملوآن، ولا ترجع مرة أخرى لأننى سأوصله أنا و"جوبر" معك.

احتار "بهولا"، وفكّر أن "هورى" ليس مجرد أخ بل أكثر من ذلك، وامتلأ قلبه بالسرور. ولما مشى ثلاثتهم دار بينهم الحديث، فسأل "بهولا":

- سيأتى عيد دسهرا(٥)، فهل ستقام الاحتفالات الضخمة عند الإقطاعى؟

- نعم. لقد نصبت الخيمة، وأنا سأعمل فى مهرجان رام ليلا، لأن "راى صاحب" طلب منى أن أكون بائع الزهور للملك "جنج".

- الإقطاعى مسرور منك للغاية.

- هذا كرم منه.

بعد لحظة سأل "بهولا":

- هل جهزت النقود اللازمة للمهرجان؟ فأن تكون بائعًا للزهور لا يكفيك لدفع ما عليك.

مسح "هورى" جبينه، وقال :

- إن هذا التفكير هو الذى يقتلنى يا جدى، الغلة وُزنت وذهبت أدراج الرياح؛ أخذ الإقطاعى جزءا منها، وأخذ البقال جزءا، ولم يبق لى سوى خمسة وعشرين كيلو فقط، وهذه الأعواد حملتها فى الليل وأخفيتها، وإلا ما تبقى شىء. إن الإقطاعى واحد لكن البقال ثلاثة؛

---

(٥) أحد أعياد الهنادكة، تقام فيه الاحتفالات والأغانى والمسرحيات من أجل الإله "رام".

صاحبة البقالة لوحدها، "منجرو" لوحده، و "داتادين" وحده. وأنا لم أدفع الفوائد بعد، وما زال للإقطاعي نصف أمواله. لقد استدنت من "سيتهاني" مرة أخرى وإلا ما كنت استطعت العيش. لقد وفرت لكن ذلك لم ينفع في شيء، لقد وُلدنا لنضحي بدمائنا كي نملأ منازل الأغنياء، لقد دفعت فوائد ضعفي المبلغ الأصلي لكن ما زال الدين عليّ كما هو. يقول الناس لا تنفق النقود في الزواج والهموم ولا في السبوع ولا بعد الموت، لكن هذا لم يهدني إلى سواء السبيل، لقد صرف "راي صاحب" عشرين ألف روبية في زواج ابنه ولم ينصحه أحد، وصرف "منجرو" خمسة آلاف روبية في جنازة والده ولم يقل له أحد شيئا، وذلك ينطبق على كل من لديه عزة وكرامة مثلهم!

فقال "بهولا" بصوت مغموم:

– يا أخي كيف تساوي الأغنياء بالفقراء؟

– نحن أيضاً بشر .

– من قال إننا بشر؟ أتوجد فينا إنسانية؟ إن الإنسان هو الذي يملك المال، الإنسان هو الذي يملك القوة والعقل؛ نحن ثيران ولدنا لحراثة الأرض، إننا نحسد بعضنا بعضا ونفتقد إلى الاتحاد. ومن من الفلاحين لا يغتصب جزءا من الحقل المجاور له، فكيف لا يحدث الشجار؟! لقد ودّع الحب الدنيا.

إن أحداث الماضي، وتكاليف المعيشة، وخراب المستقبل أكثر الموضوعات جاذبية عند الشيوخ؛ فأخذ الصديقان يقصان حكايتيهما، فقص "بهولا" حكايات أبنائه، واشتكى "هورى" من إخوانه، ووضع حمله وجلس على حافة البئر ليشرب. طلب "جوبر" من البقال الدلو والإبريق، وأخذ يسحب المياه.

سأل "بهولا" بود:

– وأنت هل تشعر بالألم بسبب بعدك عنهم؟ لقد ربيت إخوانك كأنهم أبناؤك.

شعر "هورى" بغصة في حلقه، وقال:

– لا تسأل عن هذا يا أخي، كنت أريد أن أذهب إلى أى مكان وأقتل نفسى لأن هذه الفرقة حصلت فى حياتى. لقد ضيَّعت شبابى فى تربيتهم، والآن يقفون أمامى للمطالبة بحقوقهم. فما سبب هذه الفرقة؟ يقولون لماذا لا تذهب زوجتك للعمل فى الحقول؟ فأسأل لا بد أن يبقى أحد فى المنزل ليرعاه أليس كذلك؟! ومن يقوم بأعمال الوضع والأخذ والعطاء؟! ثم إنها لا تجلس فى المنزل للراحة، فهناك الكنس، والطبخ، والغسيل، وغسل الأوانى، ورعاية الأطفال، وهذه ليست أعمالا سهلة. هل كانت امرأة "سوبها" ترعى المنزل؟! أو كانت زوجة "هيرا" تديره؟! وعندما تركا المنزل صارا يخبزان الخبز مرة واحدة فقط، أما عندما كانا يعيشان معنا فكانا يشعران بالجوع أربع مرات، أما الآن فلا يمكنهم الأكل أربع مرات.

كانت والدة "جوبر" هى المتصرفة فى المنزل، وأنا من يعرف كم كانت تشعر بالتعب؛ كانت المسكينة ترتدى ملابس زوجات إخوانى الممزقة والقديمة، وتنام جائعة، وتهتم بهم إلى درجة التأكد من وجود ورقة القات، ولم يمس الذهب جسدها، لكنها صنعت لكل واحدة منهن أربعة أطقم فضية، لكن كان كل ما يشغل بالهما أنها تسودهما؛ لذا من الأفضل أن نعيش وحدنا، لقد ارتاح رأسى من هذه المصيبة.

فلما شرب "بهولا" كوبًا من الماء قال :

- هذا هو حال جميع المنازل، إن الناس لا يستطيعون فقط الحياة مع إخوانهم بل مع أبنائهم أيضًا. لا يريدون العيش معى لأنى لن أسكت على أعمالهم السيئة التى يقومون بها؛ مثل: لعب القمار، وتدخين الحشيش، وتعاطى الأفيون. من الذى يأتى بالمال إلى المنزل؟ لو أردت أن تصرف فلتعمل وتكسب المال، لكنهم لا يريدون أن يعملوا، بل يصرفون الكثير فقط. لو آخذ ابنى الكبير "كامتا" شيئًا ليبيعه فى السوق يسرق نصف المال، ولو سألته لا يرد، وابنى الصغير "جنجى" يحب الموسيقى، وفى المساء يأخذ الطبل ويجلس يدق عليها. أنا لا أقول إن الموسيقى شىء قبيح، والغناء ليس عيبًا، لكن ليفعل ذلك فى وقت الفراغ، فليس معنى ما يفعله ألا يعمل فى المنزل، ويُمضى وقتًا فى الغناء والرقص. أنا أحضّر العلف وأحلب البقر والجاموس، وأذهب باللبن إلى السوق، فهذه هى أعمال المنزل؛ إنه مثل العسل الأسود الفاسد لا تستطيع أن تأكله ولا تستطيع أن تلقى به!

أما ابنتى "جهنيا" فحظها عاثر – لقد حضرت حفل زفافها – وكان لها بيت جميل للغاية، وكان زوجها يعمل فى دكان ألبان فى بومباى(٦)، وفى تلك الفترة حدثت الاضطرابات الطائفية بين الهندوك والمسلمين، فطعنه أحدهم فى بطنه فمات وضاع المنزل، فهى لا يمكن أن تعيش هناك، فذهبت وأحضرتها هنا لأزوجها مرة أخرى، لكنها ترفض؛ وزوجات إخوانها يرمونها بقبيح الكلام، فتشعر بالظلم ويسود المنزل الجدال والشجار، والمسكينة حضرت إلى هنا إلا أنها لم تحصل على الراحة.

مرّ الطريق مع هذه الحكايات، إلى أن وصلا إلى قرية "بهولا"، كانت قرية صغيرة لكنها جميلة وخضراء، وكل أهلها يعملون فى بيع اللبن وحالتهم ليست سيئة مثل حال الفلاحين. كان "بهولا" عمدة القرية، وعلى بابه توجد حظيرة للحيوانات فيها عشر أو اثنتا عشرة بقرة وجاموسة، وكانت تأكل العلف فى الخارج. وفى الباحة كانت توجد أريكة ضخمة لا يستطيع حملها عشرة أشخاص. وكانت هناك علاقات وُضع على أحدها طبلة وغير ذلك من آلات العزف، وفى طاقة وضع كتاب فى حقيبة مدرسية، ربما يكون كتاب الرماين، كانت زوجتا ابنيه تعملان فى صنع الغلة، و"جهنيا" واقفة على الباب. كانت عيناها محمرتين، وأرنبتها كذلك

---

(٦) هى العاصمة التجارية للهند، وأصبح اسمها الآن مومباى.

وكأنها كانت تبكى قبل قليل. كانت ممتلئة الجسد، تتمتع بالصحة، والأعضاء المتناسقة تدل على شبابها، كان وجهها كبيراً ومستديراً، وخدّها ممتلئًا، وعيونها صغيرة وغائرة، جبينها صغيراً، صدرها بارزًا، وشباب جسدها يجذب العيون. كانت ترتدى ساريا أحمرَ منقوشا؛ مما يزيد من زينتها، وعندما رأت "بهولا" ركضت لمساعدته وإنزال ما يحمله. ساعد "بهولا" كلاً من "جوبر" و"هورى" على إنزال حمليهما، وقال لجهنيا:

– أحضرى النارجيله وأعدى الشراب، وإذا لم يكن هناك ماء فأحضرى الدلو لأخرجة من البئر، أتعرفين أخى "هورى" أم لا؟

ثم قال لهورى:

– المنزل بلا زوجة ليس منزلاً، كما يقول المثل يا أخى، وحتى إذا وُجدت زوجات الأبناء فهن مثل الثيران القصيرة لا يصلحن لحرث الأرض؛ فهل تستطيع زوجات الأبناء إدارة المنزل؟! عندما توفيت والدتها ذهبت بركة المنزل، وحتى إن كانت زوجات الأبناء يطبخن، فهل يعرفن كيف يعملن فى المزرعة وإدارة المنزل؟ إنهن يعرفن كثرة الجدل فقط. وأولادى يجلسون للحديث واللهو، كلهم كسالى، وعندما يقومون بأى عمل لا يقومون به بإتقان، وأنا أعيش كى أميت نفسى من أجلهم، وإذا مت فسيبكون علىّ فقط لأنهم لن يجدوا من يدير شئونهم. والبنت كذلك، فهى لو أطاعتنى فى شىء تقوم به وهى متذمرة، وأنا أتحمل، لكن زوجها لن يتحمل.

جاءت "جهنيا" بسرعة وهى تحمل النارجيلة فى يد، وفى اليد الأخرى إبريقًا من الشراب، وأخذت الحبل والدلو لإحضار الماء، كان "جوبر" يريد أن يأخذه من يدها، وقال:

- لا تذهبى، سأملؤه أنا.

لكن "جهنيا" لم تعطه الدلو، وابتسمت وهى ذاهبة إلي البئر وقالت:

- أنت ضيفنا، وستقول لم يحضر لى أحد حتى إبريقًا من الماء.

- أنا لست ضيفًا، بل نحن جيران.

- الجار الذى لا تراه فى العام حتى ولو لمرة هو ضيف.

- الحضور كل يوم لا عزة فيه.

نظرت "جهنيا" إليه بطرف عينها، وقالت:

- أنا أعطيك تلك العزة، فلو أتيت فى الشهر مرة أعطيتك الماء بارداً، ولو أتيت كل خمسة عشر يومًا أعطيتك النارجيلة، ولو أتيت كل أسبوع سأحضر لك متكأً، أما إذا حضرت كل يوم فلن أحضر لك شيئًا.

- لكن هل يمكن أن أراك ؟

- اعبدنى كى ترانى.

عندما قالت هذه الكلمات تذكرت شيئًا فأصابها الحزن، لقد تذكرت زوجها "بدهوا" لقد كان يحافظ عليها، وكانت لا تقلق على شىء وهو معها.

أما الآن فليس لديها من يفعل ذلك، ولهذا كانت دائما ما تغلق بابها، إلا أنها أحيانا وتحت وطأة الشعور بالوحدة والملل كانت تفتحة بملء إرادتها لكنها سرعان ما تغلقه إن رأت أحدهم قادما إحساسا منها بالخوف.

أخرج "جوبر" الدلو ممتلئا، فشربوا جميعًا، كما دخنوا النارجيلة واستلقوا. قال "بهولا":

– لتحضر غدا يا"جوبر" وتأخذ البقرة، فهى تأكل العلف الآن.

تعلقت عينا "جوبر" بالبقرة وهو يشعر بسعادة جمة فى قلبه؛ فهى بقرة جميلة جداً ومتناسقة الأعضاء، ولم يكن يعتقد أن يحدث هذا.

لم يُظهر "هورى" طمعه، بل قال:

– سأبعث أحدهم لأخذها، فلم العجلة؟

– لست أنت المتعجل يا "هورى"، لكن عندما تراها على بابك فتذكر ما طلبته منك.

– أنا أفكر فيه يا أخى.

– إذاً لتبعث "جوبر" غداً لأخذها.

وضع الاثنان الكيسين على رأسيهما وذهبا، كانا مسرورين للغاية كأنما عادا من حفلة زفاف.

كان "هورى" مسروراً بتحقيق أمنية حياته دون أن يدفع شيئًا، أما "جوبر" فقد حقق أثمن شيء، واستيقظت في قلبه الأمنية النائمة.

نظر إلى الوراء حيث كانت "جهنيا" تقف على الباب، فازداد الشوق في حصول أمله وجعله مضطرباً وفارغ الصبر.

الفصل الرابع

لم يذق "هورى" طعم النوم، كان مستلقيًا على فراش من القصب تحت شجر النيم(١)، كان يحصى النجوم وهو يفكر في عمل وتد للبقرة بعيدا عن الثيران؛ إن هذا أفضل لأنها ستكون خارج المنزل فى الليل، لكن سأحدد لها مكانا آخر فى المرعى، لكن إذا كانت فى الخارج فستصيبها عيون الناس، وقد يقومون بعمل السحر حتى يجف حليبها، أو لا تعطينا فرصة لحلبها فتركلنا، كلا إن البقرة فى الخارج أمر غير صحيح، ثم من سيعطينى الإذن لعمل الوتد فى الخارج؟ والمحصل سيطلب غرامة، وليس من الصواب أن أذهب وأشتكى "راى صاحب" على كل صغيرة، ثم من سيستمع لك أمام كلام المحصل؟! وإذا أخبرت "راى صاحب" فسيغضب المحصل، وليس من المصلحة معاداة التمساح وأنا فى الماء. سأربطها فى الداخل، إن صحن المنزل صغير لكن سأعمل فيه منطقة صغيرة من الخوص وستسير الأمور. هذه الولادة ستكون

---

(١) لها نفس الاسم بالعربية، كما يطلق عليها "صيدلية القرية"وهي شجرة لها قدسية لدى الهنود جميعا، تتميز بكثرة أفرعها وأوراقها، وتشبه إلى حد ما شجرة الكافور عندنا.

الأولى لها، ولن تعطى أقل من خمسة كيلو جرامات من الحليب. كيلو واحد يكفى ابنى "جوبر" و"روبا" ستطمع عندما ترى الحليب، وستشرب الآن كما تريد، وأحيانًا سأقدم كيلوين أو أربعة كيلوات للإقطاعيين، وأحيانًا للمحصل. كذلك يجب أن ندفع نقوداً لبهولا، لماذا وضعت نفسى فى مشكلة زواجه؟ الرجل الذى يعتمد على نفسه لا يجوز أن يغدر، فهذا عمل خسيس. إنه يعطينى البقرة وثمنها ثمانون روبية ثقة فىّ، ولا يثق أحد فى الآخر عند التعامل فى النقود؛ وسأستفيد كثيراً سأعطيه خمسة وعشرين روبية فيطمئن. لم حكيت لدهنيا؟! لو أحضرت البقرة فى الخفاء وربطتها فى المنزل لدار رأسها، وسألتنى لمن هذه البقرة؟ من أين جئت بها؟ وكنت سأجيبها بعد أن يصيبها القلق؛ لكن الكلام لا يمكث فى صدرى. لو كان لدى أربعة قروش زائدة لأخبرتها بها وما قدرت على إخفائها عنها. إن هذا الشىء جيد لأنها دائمًا ما تفكر فى إدارة المنزل، ولو علمت أن معى نقودا فستشعر بالفخر. إن "جوبر" كسول بعض الشىء، وإلا كان سيخدم البقرة كلما احتاجت. كلا إنه ليس كسولا، ففى هذا السن من يكون نشيطًا؟! فى أيام جدى كنت أتجول، وفى وقت السحر كان المسكين يعمل وأحيانا يكنس خارج المنزل أو يُسمّد الأرض، وكنت أغطُّ فى النوم، ولو أيقظنى كنت أغضب وأهدده بأنى سأهرب من المنزل، وإذا لم يتدلل الأبناء فى حياة والديهم، وإذا كانوا يؤدون العمل وحدهم فمتى سيجدون الراحة!؟ عندما توفى والدى وأصبحت مسئولاً عن المنزل، كان أهل القرية يقولون "هورى" سيُخرب البيت، لكن عندما تحملت المسئولية تغيرت، واندهش الناس من ذلك. ولو لم يستقل "سوبها"

و"هيرا" لكان الحال أفضل؛ كانوا ثلاثة محاريث يعملون معًا، والآن كل واحد يعمل لوحده. فالأيام دُوَل، ما هى هموم "دهنيا"؟ فمنذ أن جاءت المسكينة إلى المنزل لم ترتح قط، فما إن نزلت من المحفّة حتى أخذت العمل كله على عاتقها، كانت تُكرم والدتى، وأضاعت صحتها فى إدارة المنزل، وعندما تطلب من إحدى سلفتيها مساعدتها فى العمل فهذا ليس شيئا سيئا؟ فلا بد أن ترتاح هى الأخرى قليلاً، لكنها لن تنال الراحة حتى يقدر لها ذلك. كانت فى ذلك الوقت تفنى فى خدمة سلفتيها وأبنائهن، كانت ساذجة، صبور، ولو لم تكن بسيطة لما تكبّرت عليها زوجتى "سوبها" و"هيرا"، ولصارتا تمدان الأيدى فى الشارع. للإنسان مطالب عديدة، إن الرجل الذى تموت من أجله هو من يعاديك! استدار "هورى" جهة اليسار، ربما يصبح الصباح. لماذا يستيقظ "جوبر" الآن؟! كلا، لقد أخبرنى أنه سيستيقظ فى الصباح الباكر ويثبت الوتد، لكن ليس من الصواب أن يثبت الوتد قبل مجيء البقرة، فلو غيّر "بهولا" رأيه، أو لم يعطِ البقرة لأى سبب من الأسباب فستسخر القرية كلها، ويقولون: كان يريد بقرة وثبّت الوتد بسرعة كأنه اشتراها ولم يبقَ سوى تثبيت الوتد. إن "بهولا" كان مالكًا لمنزله إلا أن أبناءه كبروا، فهل سيمشى كلام الأب؟! ولو أصرّ "كامتا" و "جنگى" فهل سيعطينى "بهولا" البقرة؟ كلا.

فجأة استيقظ "جوبر"، ومسح عينيه وقال:

– حسنا لقد أصبح الصباح، أأثبت الوتد يا والدى؟

نظر "هوري" إلى "جوبر" بفخر وهو يرى جسده اليافع وصدره العريض، وفكر في نفسه أنه لو كان شرب الحليب وأكل السمن لأصبح يافعًا أكثر من هذا، ثم قال:

– كلا لن نثبت الوتد، فكرت أننا سنكون موضع سخرية إذا لم تحضر البقرة.

رفع "جوبر" حاجبه وقال:

– لماذا لن تأتي؟

– أن يغدر أو لا يغدر، لا بد أن يعطيني البقرة.

ولم يقل "جوبر" سوى هذا، حمل عصاه على كتفه ومضى. نظر "هوري" إليه وهو ذاهب ثم زفر زفرة حارة، علينا ألا نتأخر في تزويجه، لقد دخل في السابعة عشرة من عمره فكيف نفعل ذلك؟! أنا لا أرى النقود، ومنذ أن استقل أخوي، ذهب رونق المنزل، والناس عندما يحضرون للزواج من ابنه يرجعون عندما يرون حالة المنزل، وإذا وافق عليه شخص أو اثنين فإنه يريد مائتي روبية أو ثلاثمائة روبية مهرًا للعروس، ومثلها في حفل الزفاف حتى تكتمل الزيجة؛ من أين كل هذا؟! والآن "سونا" أصبحت في سن الزواج، وإذا لم يتزوج الولد لا توجد مشكلة، لكن البنت إذا لم تزوجها فستسخر العائلة كلها منا؛ في البداية نزوجها ثم ننظر في أمره .

قال أحدهم:

– مرحبًا، ألديك القليل من أعواد القصب؟

نظر هورى فرأى أن "دمرى" صاحب أعواد القصب يقف أمامه، قصير القامة، أسود، سمين للغاية، واسع الفم، له شارب كث، وعيون حمراء، ويضع فى وسطه خنجرا لقطع أعواد القصب. إنه يحضر مرة أو مرتين فى العام، ويأخذ أعواد القصب ليصنع الطاولات، والكراسى، والسلال الكبيرة والصغيرة وغير ذلك.

انبسطت أسارير "هورى" لأنه سيحصل على بعض المال، وأخذه ليريه ثلاثة من أعواد القصب وتفاوضا حول السعر، وأخذ خمسًا وعشرين روبية لكل مائة عود من أعواد القصب. عاد الاثنان وأحضر هورى النارجيلة، وقدم له الإفطار، وقال فى لهجة خافتة:

- لا يباع بأقل من ثلاثين روبية لكنك واحد منا، فلم أفاصل معك؟ أعاد ابنك الذى خطبت له؟

بعد أن أخذ "تشودرى" نفسًا من النارجيلة، سعل وقال:

- لقد أفنيت عمرى على هذا الولد، كانت هناك امرأة شابة فى المنزل، لكنه فرّ مع امرأة أخرى إلى مكان آخر، وزوجته أيضًا فرّت مع شخص آخر. المرأة جنس سيئ يا أخى، فهى لعوب، كم مرة قلت لها كلى واشربى كما تريدين ولكن لا تفضحينى، لكن من يسمع الكلام؟ فليعط الإله المرأة كل شىء لكن ليأخذ منها الجمال حتى لا تخرج عن السيطرة. بالتأكيد سأنته من قطع أعواد القصب؟

نظر "هورى" ناحية السماء وكأنه يحلّق فى الفضاء الواسع، وقال:

- أأنهيت عملك يا "تشودرى"؟ إن الرجال الذين ربيتهم كالأبناء أصبحوا الآن شركائى، لكن أنا لا آكل نصيب إخوانى، أخذ منك نقودا على الاثنين. إن الحياة أيام معدودة فلم الخيانة؟! كلا! بل سأقول لهم إننى بعتها بعشرين روبية ولن يعرفوا؟ وأنت لن تقول لهم هذا؟! أنا أعتبرك كأخى.

لو استعملنا معنى الأخوة فى السوء فى التعامل فهذا خطأ، لكن الصفاء فى تصور معنى الأخوة، وأنها لن تتلوث أبداً بقلوبنا السوداء.

قدم "هورى" هذه الفكرة هامسا ونظر إلى وجه "تشودرى" هل يقبل هذا الاقتراح أو لا؟! وظهر على وجهه العجز الكاذب الذى يظهر على وجوه الفقراء عند التسول؛ فانتهز "تشودرى" الفرصة ليقول له:

- تجمعنا صداقة قديمة يا أخى، وهذا شىء جيد، لكن عندما يبيع شخص دينه بالطمع فإننى سأقول لهم خمس عشرة روبية إذا أعطيتك عشرين.

تكلّف "هورى" الابتسامة وقال:

- أنت تظلمنى، أتوجد أعواد قصب بعشرين روبية؟!

- نعم! بل أحسن منها بعشر روبيات، لكنها تقع على بعد عشرة كيلومترات شمالاً.

– هذا ليس ثمن الأعواد، فهي قريبة من المدينة، والإنسان عندما يفكر أنه سيذهب بعيداً في هذا الوقت يكون قد كسب روبيتين أو أربع.

اتفقا على البيع، خلع "تشودرى" صديريته وعلقها على سقف التكعيبة، وبدأ في قطع الأعواد.

كان القصب يُسقى، وكانت زوجة "هيرا" تتجه ناحية البئر وهى تحمل الدلو، عندها رأت "تشودرى" وهو يقطع أعواد القصب، فقالت من وراء النقاب:

– من الذى يقطع الأعواد؟ لن تُقطع الأعواد.

توقف "تشودرى"، وقال:

– لقد اشتريت الأعواد، واتفقنا على أن المائة عود بخمس عشرة روبية؛ وعلى هذا فأنا لا آخذه مجاناً.

كانت هذه المرأة هى المتصرفة فى شئون المنزل، وهى السبب فى تفرق الإخوة كل على حدة، وقد أصبحت كالأسد بعد انتصارها على "دهنيا". كان "هيرا" يضربها فى بعض الأحيان، ومنذ مدة قصيرة ضربها حتى عجزت عن القيام من الفراش، لكنها لم تتنازل عن حقها، ورغم أن "هيرا" كان يضربها بعنف فإنه كان يعمل بما تأمر؛ مثل الجواد الذى يمتطيه صاحبه لكنه يظل يستعمله للتنقل.

وضعت الدلو عن رأسها وقالت:

– أعوادى لن تباع بخمس عشرة روبية.

كان "تشودرى" لا يحب الكلام مع النساء فى هذه الأمور، ويراه فى غير الصالح، فقال:

- أرسلى زوجك ليتحدث معى.

اسمها "بُنى"، وكان لديها ولدان إلا أن شبابها ولّى، ولو تزينت لاستطاعت أن تُخفى آثار الزمن السيئة، إلا أن الزراعة لا تعطيها ما يكفيها من الطعام، فمن أين تأتى النقود للزينة؟! وأحال الإفلاس والعجز جمالها الفطرى جفافا لدرجة أن أحدهم لو ضربها بمعول ما أثر فيها.

اقتربت من "تشودرى"، وشدّت يده وهى تقول:

- لماذا أُرسل زوجى؟ قل لى ما تريد أن تقوله له. لقد قلت لك بوضوح لا تقطع الأعواد.

سحب "تشودرى" يده، وكانت "بنى" تجذبها المرة تلو الأخرى. مرّت دقيقة وهما يتصارعان فى النهاية دفعها "تشودرى" بقوة، سقطت "بنى" إلا أنها قامت واستردت قوتها وخلعت حذاءها وأخذت تضربه على رأسه وفمه وظهره دون أن ترى ما تفعل؛ أيدفعنى مشترى الأعواد؟! إنه بلا كرامة، كانت تضربه وتبكى. بعد أن استخدم "تشودرى" قوته لدفع المرأة أخذ جزاءه، كل ما يراه أنه يتلقى ضرباتها وهو واقف وليس عنده ما يفعله سوى هذا. بعد أن سمع "هورى" بكاء "بنى" جاء مسرعًا، فلما رأته بدأت تصرخ بقوة، ظن "هورى" أن "تشودرى" ضرب "بنى" فاندفعت

الدماء فى رأسه، وسقط الحاجز الذى كان قائمًا بينهما بسبب الانفصال، ركل "هورى" "تشودرى" بقوة وقال:

- إذا كنت تريد خيراً لنفسك فلتذهب من هنا وإلا صرت جثة هامدة، ماذا تظن نفسك؟! أزاد نشاطك حتى تمد يدك على زوجة ابنى؟!

أقسم "تشودرى" أنه لم يفعل شيئا، وسكت قلبه المذنب بعد أن أخذ يُضرب بحذائها، وأخذ هذه الركلة بلا ذنب فانسابت الدموع من عينيه على خده. إنه لم يمسسها فهل هو جاهل إلى درجة أن يضرب سيدة المنزل؟!

قال "هورى" دون أن يقيم له وزنًا:

- لا تضع التراب فى عينى، إذا لم تفعل لها شيئا فهل تبكى هى مزاحًا؟! سأقضى على استفواك بنقودك، ولو كنا منفصلين فإن الدم لا ينفصل، ولو نظر أحدهم إليها حتى بطرف عينيه لنزعتهما.

كانت "بنى" ثائرة للغاية، وقالت وهى تصرخ:

- ألم تدفعنى وتُسقطنى؟ احلف بابنك أنك لم تفعل هذا؟

وصل الخبر إلى "هيرا"، فنهض للشجار مع "تشودرى" و"بنى"؛ حيث كان "تشودرى" قد دفع "بنى" التى بدأت تضربه بالحذاء، ترك "هيرا" المحراث وأحضر السوط الذى يضرب به الثيران واتجه ناحية المعركة.

كان مشهوراً فى القرية بأنه شديد الغضب، قصير القامة، قوىّ الجسد، عينه كالخرز. كانت عروق رقبته قد نفرت من الغضب، إلا أنه لم يصُب غضبه على "تشودرى" بل على "بنى":

– لماذا تتعاركين مع "تشودرى"؟ لماذا تهينينه؟ لم الشجار مع مشترى القصب؟!

من اللائق أن تذهب إلى "هيرا" وتقصّ عليه ما حدث وهو يفعل المناسب، لماذا دخلت فى الشجار؟ لو كانت له الكلمة العليا لظلّت فى حجابها فى البيت. إن "بنى" تتحدث مع الرجال، وهو يكره هذا، كان حامى الطبع ويريد أن يجعلها هادئة الطبع:

– لما كان أخى الأكبر قد اتفق على البيع بخمس عشرة روبية فلم تتدخلين؟!

ثم حضر، وأخذ يد "بنى"، وسحبها إلى جانب وأخذ يركلها:

– يا ابنة الزنا، لقد وضعتِ أنفى فى التراب. إنكِ تتشاجرين مع الناس جميعاً، قولى لم تضيعين كرامتى؟!

ثم ركلها مرة أخرى قائلاً:

– أنا أنتظركِ حتى تحضرى الحبل للدلو، وأنت تتشاجرين هنا؛ ألا تخجلين؟ لقد ذهب ماء وجهك، سأدفنكِ حية.

كانت "بنى" تتأوه وتقول ليأخذك الله، ليصيبك الصرع، وتبتلعك الأم ديبى(٢)، وليجعلك الله مجزوماً، ولتقطع يداك ورجلاك.

كان "هيرا" يقف ويسمع هذا السباب، لكن السبّة الأخيرة أثّرت فيه كثيراً؛ فإذا تقيأ الطعام سيمرض ويموت على الفور، لكن إذا أصابه البرص فهو ميتة قذرة، بل أكثر من ذلك إنها حياة قذرة، فتململ وهجم على "بُنى" وهو يصك أسنانه، وشد شعرها، وجرّ رأسها على الأرض وهو يقول:

– لو قطعت يداى ورجلاى هل سأقبلك؟! هل ستربين أولادى؟ أم هل ستديرين هذه المزرعة الكبيرة أو المنزل؟ لم لا تتزوجين رجلا آخر ليرتاح بالك.

أشفق "تشودرى" على حالة "بنى"، وحاول أن يُفهم "هيرا":

– لتتركها يا سيد "هيرا" فقد ضربتها كثيرا، ما الذى حدث إذا كانت زوجتك قد ضربتنى فإن كرامتى لن تذهب؛ حصل خير كأن الله قدر لى هذا اليوم.

زجر "هيرا" "تشودرى":

– لتصمت يا "تشودرى"! فلو تدخلت أثناء غضبى لحدث ما يسوؤك، المرأة تضل لو تركتها على حالها اليوم تتشاجر معك، وغداً تتشاجر مع

---

(٢) المقصود آلهة الشر ديوى.

الآخرين، أنت رجل طيب، ولم تضع للأمر اعتبارًا لكن الآخرين لن يتحملوا، ولو رد عليها الآخرون الضرب فلن تبقى لى كرامة أليس هذا صحيحًا؟!

أشعل هذا التفكير نيران غضبه، فهرع إليها، أخذ "هورى" يدها وسحبها إلى الوراء، وقال:

– حسنًا لقد حدث ما حدث، لقد رأت الدنيا شجاعتك، هل ستطحنها وتبتلعها؟!

كان "هيرا" يحترم أخاه الكبير ولا يتشاجر معه مباشرة، فلو شاء لجذب يدها من يده لكنه لم يستطع أن يسيء الأدب مع أخيه، فنظر ناحية "تشودرى" وقال:

– لم تقف هكذا؟! لتذهب وتقطع القصب، لقد اتفقنا على بيع المائة عود بخمس عشرة روبية.

كانت "بنى" تبكى، فقامت بسرعة وضربت على رأسها وقالت:

– أشعل النار فى منزلك فليس لى شأن، أنا سيئة الحظ لأننى تزوجت جزارا مثلك، لتشعل النار فى المنزل!

تركت الدلو واتجهت ناحية المنزل، صرخ "هيرا":

– إلى أين تذهبين أيتها الخبيثة، اذهبى إلى البئر وإلا سأشرب من دمكِ.

تسمّرت قدما "بنى"، فهى لا تريد أن تلعب مشهداً آخر فى هذه المسرحية، فأخذت الدلو وهى صامتة، ومشت ناحية البئر وهى تبكى، و"هيرا" يمشى خلفها. قال "هورى":

– لا تتشاجر معها مرة أخرى، فالمرأة تصبح وقحة.

كانت "دهنيا" واقفة على الباب فصاحت:

– وأنت علام تنظر وأنت واقف هناك؟ هل يسمع أحد كلامك أو أنك تعطى دروسا فى الهواء؟! أليست هذه هى المرأة التى شدت لحيتك من وراء حجابها منذ أيام، أنسيت هذا؟! إنها بلا أصل، فإذا تشاجرت مع الرجال الآخرين ألا يجب أن تزُجر؟!

اتجه "هورى" ناحية الباب، وقال لها وهو يتدلل:

– ماذا ستفعلين لو ضربتك مثلها؟

– ألم تضربنى من قبل حتى تتمنى ذلك؟!

– لو كنت ضربتك بلا رحمة لتركت المنزل منذ أمد بعيد، إن "بنى" صبور للغاية!

– كم أنت عطوف، فى الحقيقة إن إحدى ضرباتك قد تركت فى أثرا حتى الآن. إن "هيرا" يضربها ثم يدللها، أما أنت فقد تعلمت الضرب ولم تتعلم التدليل. وما زلت أعيش معك.

– دعكِ من هذا الحديث، ولا تمدحي نفسك بنفسك، لقد كنت تغضبين كثيراً وتذهبين إلى منزل والدك، وبعد أن أسترضيكِ لعدة شهور تأتين معي.

– يا سيدى أنت عندما تحتاجنى فى العمل تسترضينى، ولم تأتِ إلىّ لتدللنى.

– ولهذا السبب أمدحك أمام الناس.

تشرق الحياة الزوجية عند الصباح بالأمنية المنتشية كالوردة، وتتلون سماء القلب بأشعتها الذهبية. ثم يأتى وقت الظهيرة بشدة الحرارة، ثم تهب الأعاصير وترتعش الأرض، وينزاح الستار الذهبى عن الأمنية فتتعرى الحقيقة، وبعد ذلك يأتى المساء بالراحة والجو البارد والاطمئنان. ونحن نحكى بإخلاص لبعضنا البعض كالمسافرين المتعبين عن أحوال أسفارهم دون هدف، كأننا جلسنا على قمة لا تصل إليها الضوضاء من أسفل.

قالت "دهنيا" بدلال:

– لتمض من هنا فأنت لا تمدحنى أصلاً، ولو خرب شيء لحملتنى المسئولية.

قال "هورى" بلهجة معسولة:

– إن حكمك علىّ يا "دهنيا" لا يعجبنى، فلتسألى "بهولا" عما قلته له عنكِ.

غيّرت "دهنيا" الحديث وقالت:

– انظر هل سيأتى "جوبر" ببقرة أو بدون شىء.

– "بهولا" رجل طيب، لكن أبناءه غير صالحين، وهذا ما يخيفنى فقد يرفضون أن يعطوه إيّاها.

كان "تشودرى" يتصبب عرقا، جاء وقال:

– يا شيخ، تعال معى لتعد عيدان القصب، سأحضر عربة غدا وآخذها.

لم ير "هورى" ضرورة فى عدّها؛ "تشودرى" ليس شخصا سيئا، لو قطع عودا أو اثنين فأى بأس في ذلك؟! وكل يوم تُقطع عيدان القصب فى حفلات الخطوبة، والناس يقطعون مئات الأعواد فى حفلات الزواج لصنع الخيام. أخرج "تشودرى" سبع روبيات ونصف ووضعها فى يد "هورى"، الذى عدها وقال:

– ادفع الحساب كما اتفقنا، فما زال هناك روبيتان ونصف.

أجاب "تشودرى" بجفاء:

– ألم نتفق على خمس عشرة روبية.

– اتفقنا على عشرين وليس خمس عشرة.

– لقد قال الشيخ "هيرا" أمامك إننا اتفقنا على خمس عشرة روبية، لو اعترضت على هذا فسأحضره.

- اتفقنا على عشرين روبية سراً، ولقد تغلّبت عليّ الآن، افعل ما تشاء لكن يتبقى لى روبيتان ونصف لكن لتدفع روبيتين فقط.

لكن "تشودرى" لم يكن أبله، فمن يخيفه الآن؟! فهورى كان كأن على فمه قفلا، ماذا سيقول؟ سيكظم غضبه فى نفسه، فقال له:

- هذا ليس كلاما جيدا، "تشودرى"، إنك تهضمنى حقى فى روبيتين فلا يجعلك هذا تشعر أنك ملك.

قال "شودرى" بلهجة حادة:

- وهل تشعر أنك ملك عندما تغبن جزءًا من حق أخيك؟! أنت تبيع دينك بروبيتين ونصف ثم تعطينى درسا فى الغبن. لو أفشيت سرك، لأصبح رأسك فى الوحل.

شعر "هورى" بندم شديد، فرمى الروبيتين على الأرض أمام "تشودرى" وذهب حيث جلس تحت شجرة نيم وهو يتحسر على ما فات. ياله من شره، يؤثر مصلحته ولقد عرف ذلك اليوم. لو أعطاه "تشودرى" النقود الباقية لشعر بالسعادة؛ ولمدح ذكاءه لأنه سيكسب روبيتين ونصف دون تعب. إننا نتعلم من أخطائنا ونمشى فى ضوئها.

دخلت "دهنيا" المنزل، فلما خرجت ورأت النقود ملقاة على الأرض عدتها، وقالت:

- أين باقى النقود؟! أليس حسابنا عشر روبيات؟

تعجب "هورى" وقال:

– اتفق "هيرا" معه على خمس عشرة روبية، فماذا أفعل؟!

– لو باع "هيرا" بخمس روبيات فليفعل، لكن نحن لن نبيع بهذا السعر.

– وقعت مشاجرة، فكيف أتحدث عن السعر؟!

أخفى "هورى" هزيمته فى نفسه؛ وكأنه سارق يصعد على شجرة المانجو ثم ينزل لينظف ما عليه من تراب حتى لا يراه أحد. إذا فاز أحدهم يمكنه أن يغير الكلام ويكذب، ففى الفوز كل شىء جائز، لكن خجل الهزيمة لا بد من إخفائه.

أخذت "دهنيا" توبّخ زوجها، هذه الفرصة المباركة لا تأتى إلا قليلا. كان "هورى" أبرع منها لكن اليوم كانت الكرة فى ملعبها، هزّت يدها وقالت:

– لم لا؟ فلو باع أخوك بخمس عشرة روبية فكيف تعترض على كلامه؟ يا إلهى! لو اعترضت لأدميت قلب أخيك المدلّل؛ لكن كيف تكلمت عندما كان أخوك يضرب زوجته وشعرت بالظلم؟! لو سرق أحدهم متاعك كله ما شعرت بأن شيئا يحدث!

سمع "هورى" كلامها صامتا: ثار، وغضب، غلى الدم فى عروقه، واشتعلت عيناه، صكّ أسنانه لكن لم يقل شيئا. أخذ الفأس صامتا واتجه لإعداد الحقل.

أخذت "دهنيا" الفأس منه، وقالت:

- أطلع الصباح الآن فقط كى تذهب لإعداد الحقل؟! لقد أصبحت الشمس فوق رؤوسنا، اذهب واغتسل، فالخبز جاهز.

تمتم "هورى" فى نفسه، ثم قال:

- لا أشعر بالجوع.

لقد وضعت "دهنيا" الملح على جرحه، فكيف سيشعر بالجوع؟!

- لقد أطعمك أخوك الحلوى أليس كذلك؟ فليعطِ الله الجميع مثل ذلك الأخ.

غضب "هورى"، وقال:

- كأنك تريدين اليوم أن أضربك.

ادعت "دهنيا" العجز، وقالت:

- ماذا أفعل؟! إنك تدللنى إلى درجة أن رأسى تدور.

- هل أمكث فى المنزل أو لا؟

- إنه منزلك، أنت الملك، ومن أكون أنا لأخرجك منه؟

لم يستطع "هورى" اليوم الدفاع عن نفسه أمام "دهنيا"، كأن عقله قد ذهب، وهو لا يملك ترسا يتقى به سهام سخريتها. وضع الفأس بهدوء، وأخذ منشفة وذهب للاغتسال، وعاد بعد نصف ساعة تقريبًا، لكن "جوبر" لم يكن قد عاد بعد، كيف يأكل بمفرده؟ فقد ذهب ونام هناك.

لبهولا ابنة ماجنة تدعى "جهنيا"، فذهب ليضحك ويتسرى بها، وكان بالأمس يسير خلفها. إذا لم يعطه البقرة فلِمَ لمْ يرجع؟ هل سيظل هناك؟

قالت "دهنيا":

- لم تقف هكذا؟! سيحضر "جوبر" في المساء.

لم يقل "هوري" شيئا كي لا تنبس "دهنيا" ببنت شفة. وبعد أن تناول الطعام ذهب ليجلس تحت شجرة النيم. جاءت "روبيا" باكية، عارية الجسم، ترتدي ما يغطي نصفها السفلي فقط، شعرها متناثر هنا وهناك، وارتمت في حضن "هوري"، وقالت إن أختها الكبيرة "سونا" قالت: (لو جاءت البقرة فسأعمل الروث الصالح للوقود).

لم تحتمل "روبا" هذا، وقالت:

- هل "سونا" هي الملكة لتصنع الروث لوحدها؟ بأي شيء "روبا" أقل منها؟! "سونا" تخبز الخبز، لكن ألا تنظف "روبا" الأواني؟! "سونا" تحضر الماء، "وروبا" هي التي تحضر الحبل للدلو أليس كذلك؟! تملأ "سونا" الدلو وتمشي متبخترة، وتلم "روبا" الحبل ويصنعان الروث معا. تذهب "سونا" إلى الحقل لتجهيزه فهل "روبا" لا ترعى الغنم؟! فلِمَ تصنع "سونا" الروث لوحدها؟! كيف تتحمل "روبا" هذا الظلم؟!

دلّلها "هوري" على براءتها، وقال:

- كلا، أنتِ التي ستصنعين الروث، وإذا ذهبت "سونا" إلى البقرة فاطرديها.

لفّت "رويا" يديها حول عنق والدها، وقالت:

- أنا التى سأحلبها.

- نعم، نعم، من سيحلبها غيركِ؟

- إنها بقرتى.

- نعم، بكل تأكيد.

سُرّت "رويا"، وأسرعت إلى "سونا" تسمعها هذا الكلام:

- البقرة بقرتى، سأحلبها، وأصنع الروث، وأنتِ لن تجدى منها شيئا.

كانت "سونا" فى مقتبل العمر؛ لها جسم شابة وعقل طفلة، كان شبابها يجرها إلى الأمام والطفولة تسحبها إلى الوراء. فى بعض الأشياء الأخرى كانت أقل من الأطفال، لا تعرف شيئا. طويلة جافة لكن وجهها جميل، ذقنها مدببة، كانت عيناها تُظهر الغنى، لا تستخدم زيت الشعر ولا تكتحل، لم تكن ترتدى المجوهرات، وكان العمل فى الحقول قد أحنى ظهرها. هزّت رأسها وقالت:

- اصنعى الروث، وعندما تحلبين اللبن سأشربه.

- سأضع الحليب فى إناء مغلق.

- سأفتح القفل وأشربه.

قالت هذا واتجهت ناحية الحقل. لم تكن المانجو قد نضجت بعد، وكانت ثمرتان أو أكثر قد سقطتا نتيجة هبوب الرياح، كانت ذابلة ومصفرة من رياح السموم، لكن الأطفال كانوا يتجولون فى الحديقة لأخذها بعد أن تقع على الأرض. سارت "روبا" خلف أختها، العمل الذى كانت "سونا" تقوم به كان من الضرورى أن تعمل "روبا" مثله. كانوا يتحدثون عن زواج "سونا"، ولم يذكر أحد زواج "روبا" ولهذا كانت تلح أن تتزوج؛ كيف سيكون زواجها؟ وماذا سيحضرون لها؟ كيف ستعيش معه؟ ماذا سيطعمها؟ وماذا سيكسيها؟ إنها تحكى بالتفصيل هذه الأشياء، ولو سمع أحد الشباب بهذه المطالب لما رضى أن يتزوج بها.

حلّ المساء، لم يستطع "هورى" الذهاب إلى الحقل من الكسل، ربط الثيران فى الوتد وأحضر لها العلف وأخذ يدخن النارجيلة. لقد جمع الغلة فى هذا الفصل وباعها كلها، ومع ذلك كان مدينا بثلاثمائة روبية يزيد عليها مائة روبية فوائد. فقد استدان ستين روبية من "منجروشاه" لشراء الثيران قبل خمس سنوات، ودفع الستين روبية وما زالت الفوائد الباقية ستين روبية. واستدان من "داتادين بندت" ثلاثين روبية ليزرع البطاطس، وسرق اللصوص البطاطس من حقله، وزادت فائدة القرض خلال ثلاث سنوات فوصل إلى مائة روبية. واستدان أربعين روبية ليعطيها لأخيه عند انفصالهما من البقّالة "دلارى" الأرملة التى تبيع الملح والزيت والتبغ، وأصبحت بفوائدها حوالى مائة روبية لأن الفوائد كانت قرشا لكل روبية. ولم يدفع باقى الخراج وبقى عليه خمس عشرة روبية،

وكان عليه أن يحضر النقود من أجل مهرجان دسهره. وجاءت نقود القصب في الوقت المناسب، وقضية الهدايا ستُحل لكن من يدرى؟ لو سقطت حفنة من النقود فى يدى لحدثت ضجة فى القرية، ولنبش المقرضون من كل مكان أظفارهم في. سأعطى الخمس روبيات هدية مهما يحدث، لكن هناك هموما كبيرة فى الحياة تشغل رأسي: زواج "جوبر" و"سونا"، لن تقل نفقاته عن ثلاثمائة روبية رغم التقطير؛ من أى بيت تجىء ثلاثمائة روبية؟ أود ألا أقترض مليما واحدا من أحد، وإذا اقترضت فأريد أن أعيد القرض كاملاً. ومع هذه المعاناة أبقى مدينا، وكذلك الفوائد تزيد، وسيأتى يوم يباع المنزل فى المزاد العلنى، وسيشحذ أطفاله في الشوارع دون أن يكون لهم من يستندون عليه.

عندما ينتهي "هورى" من العمل ويدخن النارجيلة، تحيط به الأفكار كالجدار الأسود من كل ناحية، ولا يملك مفرا منها، وكان يطمئن لأن هذه الحالة السيئة لا يعانى منها وحده فقط بل يعانى منها الفلاحون جميعا. كان أفضل حالا من كثير من الناس، لقد انفصل "سوبها" و"هيرا" عنه منذ ثلاث سنوات، ولكنهما كانا مدينين بأربعمائة روبية. و"بهينجر" يعمل فى حقل "دوهل" وهو مدين بأكثر من ألف روبية، وإذا ذهب إليه الشحاذون لا يجدون ما يأخذونه؛ لم يبق أحد لم يقترض.

وفجأة حضرت "سونا" و"روبا" وهما تركضان، وقالتا فى صوت واحد:

– لقد أحضر أخى الكبير البقرة، وهى تسير خلفه.

كانت "روبا" أول من رأى "جوبر" يأتى إليهم، كان من المفترض أن تخبر هى أباها بهذه البشرى، لكن "سونا" تساوت معها فى حمل البشرى، كيف تتحمل هذا؟ تقدمت وقالت:

- أنا رأيته أولا وجئت راكضة، ولم تره أختى إلا بعدى.

لم تستطع "سونا" أن تقبل هذا الادعاء، وقالت:

- أنت لم تفطنى إلى أخينا؟ كنت تقولين إن هناك بقرة تجرى نحونا، أنا من قلت إنه أخى.

ركضت كلتاهما ناحية الحقل، ليكونا فى استقبال البقرة.

فكر كل من "دهنيا" و"هورى" فى طريقة لتثبيت الوتد من أجل البقرة، قال "هورى":

- لنذهب لنثبت الوتد.

لمع وجه "دهنيا" بالشباب، ولم تقل شيئا:

- لنضع شيئا من الدقيق فى المعلف ونخلط معه شيئا من سكر القصب الأحمر، فقد جاءت فى الشمس وهى عطشى. اذهب وثبت الوتد وأنا سأخلطهما.

- يوجد جرس فى مكان ما فى المنزل لتبحث عنه لنعلقه فى رقبة البقرة. أين ذهبت "سونا"؟ أرسليها إلى البقّالة "سيتهانى" لتُحضر حبلا أسود حتى لا يصيبها الحسد.

كانت "دهنيا" تريد أن تخفى سرورها العظيم فى قلبها، فهذه النعمة الكبيرة يمكن أن تجر وراءها مصيبة كبيرة. كان قلبها يرتجف خوفا من هذه الفكرة. رفعت نظرها إلى السماء وقالت:

- إن مجيء البقرة سيكون مفيدا إذا لم يصاحبها التشاؤم، وهذا كلام من عند الإله.

كانت كأنها تريد خداع الإله أيضا، وأن تريه أنها ليست سعيدة كى لا يجعل إله الحسد الناس تنظر إليهم. وبينما كانت "دهنيا" تخلط الدقيق جاء "جوبر" بالبقرة مع موكب من الأطفال يقفون عند الباب، جرى "هورى" إلى البقرة وتعلق فى عنقها، وتركت "دهنيا" الدقيق، وأخذت قطعة من ساريها الأسود ومزقتها وعلقتها فى عنقها.

كان "هورى" ينظر إليها كأنه عبد لها، وكأن جسم الإله وقدمه قد حلا فى منزله:

- لقد جاء اليوم الذى أحضرت فيه الآلهة البقرة الأم إلى المنزل، فتحل فيه البركة بقدومها يا له من حظ سعيد، لا أعرف من فعل خيرا لنجزى بها!

خافت "دهنيا" وقالت:

- لِمَ تقف وأنت لم تثبت الوتد فى صحن المنزل بعد؟

- ليس فى الصحن مكان لها.

– هناك أماكن كثيرة، فلا يذهب عقلك فأنت تعلم أحوال القرية وتتجاهلها.

– حسنا، فى أى مكان فى الصحن أربطها يا أختى؟!

– لا تتكلم فيما لا تفهم، فلست وحدك من يفهم فى كل شىء.

كان "هورى" مسرورا للغاية، فالبقرة ليست للعبادة فقط بل هى ثروة حية. كان يريد أن يزيد من زينة المنزل وعظمته، وأن يسأل الناس عندما يرون البقرة عند الباب، من صاحب هذا المنزل؟ فيقولون هذا منزل السيد "هورى"، كما يتأثر بها أهل العروس. كان عكس "دهنيا" التى كانت تريد أن تربط البقرة خلف سبعة حجب، ولو مكثت البقرة فى الصحن ليل نهار فلن تخرجها. كان "هورى" دائما ما يفوز فى معركة الكلام، حيث كان يصر على كلامه، وكانت "دهنيا" تخضع له، لكن اليوم لم تفعل ذلك، بل استمرت فى الشجار. كان "جوبر" و"سونا" و"روبا" يساندون "هورى"، إلا أن "دهنيا" لم تُهزم وهى تقف وحدها أمامهم، اليوم لديها ثقة غريبة بالنفس فى حين أظهر "هورى" تخاذلا شديدا.

لكن متى ستتوقف المسرحية؟ إن البقرة لم تحضر فى المحمل. من الممكن أن يحدث شىء كبير فى القرية ولا يجتمع له الناس، لكن كل من سمع عنها ترك ما بيده وهرع لرؤيتها؛ فهى ليست بقرة ريفية، وقد جاءت من منزل "بهولا" بثمانين روبية. لا يمكن أن يدفع "هورى" ثمانين روبية؟ بل أحضرها بخمسين روبية، وكان حضور البقرة بهذا الثمن شيئا نادرا

في القرية. تشترى الثيران بخمسين روبية وكذلك بمائة، لكن من أين يأتى الفلاح بهذه النقود اللازمة للبقرة بعد مصروفاتة اليومية، اللبّانون فقط هم من يفعلون هذا ويدفعون مثل هذه النقود. ما هذه؟ أهى بقرة أم صورة للإله؟! اجتمع المشاهدون والثرثارون، وكان "هورى" يرحب بهم جميعا وهو يركض بينهم؛ لم يكن بهذا التواضع والسرور من قبل.

حضر الشيخ "بندت داتادين" الذى يبلغ من العمر ستين عاما متكئا على عصا، قال بفم خال من الأسنان:

- أين "هورى"؟ أريد أن أرى البقرة، لقد سمعت أنها جميلة.

أسرع "هورى" وقبل قدميه، وامتلأ قلبه بالسرور غرورا، وأخذ "بندت" إلى الصحن باحترام بالغ. أخذ "بندت" ينظر إلى البقرة بعيون الكاهن المجرب، تفحص قرنيها، وضرعها، وفخذيها، ثم حرّك عينيه ذات الحواجب البيضاء الكثيفة وقال:

- أنا لست حسودا! لكنها بقرة جيدة، ولو أراد الإله فسيبدأ حظك الجيد. ما أحسن هيئة هذه البقرة! لا تقلل كمية العلف لها، ولو أنجبت فسيكون المولود بمائة روبية.

قال "هورى" وهو يغرق فى بحر من السرور:

- هذا بفضل دعائك يا أبى.

بصق "داتادين" ورقة التبغ وقال:

- ليس دعائى يا بنى، هذا كرم الإله، هذا كرم الإله! هل دفعت ثمنها نقدا؟

قال "هورى" كلاما لا طائل من ورائه، كان يريد أن يرى البقال مكانته ولا يريد أن يضيع هذه الفرصة. كان كالذى يلبس قلنسوة جديدة ويريد أن يتفاخر بها، ولو ركب الدابة فكأنه يطير فى الهواء. فلم لا يزهو "هورى" بهذه النعمة الكبيرة ولم لا يرفع قامته إلى عنان السماء؟ قال:

- "بهولا" ليس رجلا سهلا يا سيدى، لقد أخذ النقود نقدا.

لقد تحدث بكلام لا طائل منه أمام البقال، وقام بفعلة طفولية، إلا أن "داتادين" لم تظهر على وجهه أية علامة، كم كان صادقا فى كلامه؟ إن هذا لم يخف على عيونه المجربة، فقال بسرور:

- لا حرج فى ذلك يا بنى، لا حرج! يصنع الإله الخير لك. إن بها خمسة كيلو جرامات من الحليب علاوة على ما يشربه الأطفال.

ردّت "دهنيا" على الفور:

- كلا يا سيدى، ليس فيها هذه الكمية من الحليب كما تظن؟ إنها طاعنة فى السن، والآن نحن لا نملك علفها!

أثنى "داتادين "بعيونه على حذر "دهنيا"، كأنه يقول هذه هى عادة الفلاحة؛ فهناك أعمال للرجال وهناك أعمال للمنزل. ثم قال بنفس اللهجة:

- لا تربطها خارج المنزل وأنا أحذرك.

نظرت "دهنيا" بعيون منتصرة إلى زوجها، كأنها تقول له أستسمع كلامى الآن؟! ثم قالت لداتادين:

– كلا ياسيدى، لن نربطها بالخارج، بل لو منحنا الإله ثلاث بقرات لربطتهن فى الصحن.

جاءت القرية؛ كل القرية لترى البقرة، إلا شقيقيه "سوبها" و"هيرا"، كان فى قلب "هورى" مكان لهما، ولو رأى الاثنين مسرورين لامتلأ قلبه بالسرور أكثر من ذلك. حلّ الليل وعاد الشقيقان ومرّا من أمام هذا الباب ولم يسألا عن شىء.

قال "هورى" لدهنيا وهو خائف:

– لم يحضر "سوبها" و"هيرا"، ألم يسمعا؟!

قالت "دهنيا":

– ومن الذى دعاهما إلى هنا؟

– أنتِ لا تفهمين هذا الكلام، فأنتِ مستعدة دائما للشجار. وإذا كان الإله قد أعطانا مثل هذا اليوم فيجب أن نسير خافضى الرؤوس! الإنسان يحب أن يسمع من إخوانه المدح، ولا يتمنى من غيرهم أكثر مما يتمناه منهم. وإذا كان شقيقاى غير طيبين، إلا أنهما شقيقاى على أية حال! وفى العالم أجمع كل الأشقاء يتشاجرون من أجل ميراثهم، لكن هذا لم يغير رابطة الدم. يجب أن ندعوهما ونريهما البقرة، وإلا سيقولان أحضرت بقرة ولم تخبرنا!

قالت "دهنيا" غاضبة:

– لقد طلبت منك مائة ألف مرة ألا تمدح شقيقيك أمامى، عندما أسمع اسميهما تشتعل النيران فى جسدى، لقد سمعت القرية كلها، ألم يسمعا هما أيضا؟ إنهما لا يعيشان بعيدا. لقد حضرت القرية كلها لرؤيتها فهل على قدميهما نقش الحنة، فكيف يحضران؟ إنهما يحسداننا، كيف جاءت بقرة إلى منزلنا، وينشق صدراهما حقدا.

كان وقت إشعال المصباح قد حان، ذهبت "دهنيا" لترى الزيت الذى انتهى، وأخذت زجاجة لتملأ بها. لو كان لديها نقود لبعثت "روبا"، لكنها تأخذ بالأجل فإذا ذهبت بنفسها تجاملها وتأخذ الزيت بالأجل.

استدعى "هورى" "روبا" وأجلسها فى حضنه، وقال:

– اذهبى وانظرى هل حضر عمك "هيرا" أم لا؟ وكذلك اذهبى لترى عمك "سوبها"، وقولى لهما إن والدى يريدكما، وإذا لم يحضرا فلتجريهما جرا.

قالت "روبا" بدلال:

– زوجة عمى الصغيرة تزجرنى.

– لم تذهبين إلى زوجة عمك؟ ثم إن زوجة عمك "سوبها" تحبك وتدللك.

– عمى "سوبها" يغيظنى ويقول لى شيئا لم أذكره أمامك.

– ماذا يقول لكِ؟ قولى.

– يغيظنى.

– ماذا يقول ليغيظك؟

– يقول لقد أحضرت لك فأرا فخذيه واشويه وكليه.

امتلأ قلب "هورى" بالضحك:

– لماذا لم تقولى له كله أنت أولا ثم آكله أنا.

– والدتى تمنعنى، وتقول لى لا تذهبى إلى منزلهم.

– هل أنت ابنة أمك أم ابنة أبيك؟

قالت "روبا" وهى تحتضنه:

– ابنة أمى، وضحكت.

– إذا لتنزلى من حضنى، اليوم لن أطعمك من طبقى.

وكان فى المنزل طبق جميل، وكان "هورى" يأكل فيه وكانت "روبا" تأكل معه لتأخذ العزة، كيف تترك هذه العزة؟ وقالت بدلال:

– حسنا كما ترى.

– أتسمعين كلامى أم كلام أمك؟

– كلامك.

- اذهبى إلى "هيرا" و"سوبها" وأحضريهما.

- ماذا أفعل إذا غضبت والدتى.

- من سيقول لوالدتك أنك ذهبت.

ذهبت "روبا" إلى منزل "هيرا" وهى تلعب، كان حبل العداوة يمسك بالأسماك الكبيرة لكن الأسماك الصغيرة لا يمسكها، وإن أمسكها تهرب؛ وبالنسبة لها فالشبكة للعب وليس للخوف. كان "هورى" وشقيقاه لا يتحدثون، لكن "روبا" كانت تذهب إلى منزليهما فما علاقة العداوة بالأطفال؟!

لكن عندما خرجت "روبا" من المنزل قابلت "دهنيا" وهى تحضر الزيت، فسألتها:

- إلى أين تذهبين فى هذا الوقت من الليل؟ اذهبى إلى المنزل.

لم تتوقف "روبا" طمعا فى أن تسر والدتها، زجرتها "دهنيا":

- اذهبى إلى المنزل، لا داعٍ أن تستدعى أحدا.

أخذت بيد "روبا" إلى المنزل، وقالت لهورى:

- لقد قلت لك مائة ألف مرة لا تبعث ابنتى إلى منزليهما فلو عمل أحدهما لها سحرا فماذا أفعل بك؟ لو أنك تحبهما فلِمَ لا تذهب بنفسك؟ ألم تكتف بالكلام الذى قالاه عنك؟!

كان "هورى" يثبت معلفا للبقرة، كانت يداه ملطختين بالطين، وتصنّع أنه لم يسمع كلامها وقال:

- لماذا تثورين؟ أنا لا أحب أن تنبحى كالكلب فى الهواء.

كانت "دهنيا" تصب الزيت ولا ترغب فى أن يشتعل الشجار فى هذا الوقت، وجلست رويا مع الأولاد. كان جزء من الليل قد انقضى، ثبّت المعلف ووضع العلف فيه، لكن البقرة كانت تجلس حزينة كأنها عروس قد حضرت إلى منزل حميها؛ لم تدخل فمها فى المعلف وبعد أن انتهى "هورى" و"جوبر" من الطعام أحضرا لها نصف رغيف من الخبز لكنها لم تشمه؛ إن هذا ليس شيئا جديدا فالحيوانات تحزن عندما تغير المكان. جلس "هورى" على أريكة خارج المنزل وأخذ يدخن النارجيلة ويتذكر أخويه، لا يمكن أن ينساهما فى أوقات الفرح، اتّسع قلبه بعد أن حضرت الثروة إليه، لقد انفصل عن أخويه، لكنه ليس عدوا لهما! لو جاءت البقرة قبل ثلاث سنوات لكان لكل واحد منهم نصيب فيها، وهى غدا ستعطى الحليب أفلا يرسل لهما بعض الحليب وبعض الزبد؟ إن هذا ليس من شيمته، ولو كان أخواه يفكران فيه بطريقة سيئة فهل يفعل مثلهما؟ كل شخص مسؤول عن أفعاله.

وضع النارجيلة بجوار عمود الأريكة واتجه ناحية منزل "هيرا"، كان منزل "سوبها" هناك أيضا، وكان كلاهما نائمين خارج باب منزليهما وكان الظلام حالكا فلم ير أحد "هورى". كانا يتحدثان عن شىء فتوقف

"هورى" وبدأ يسمع كلامهما؛ لا يوجد إنسان يسمع مديحه فلا يشعر بالسرور؟ قال "هيرا":

– عندما كان يعيش معنا لم يشتر شاة، والآن يحضر بقرة حلوب، لو كان يأكل حق أخيه فلن يرى بركة فى ماله.

قال "سويها":

– أنت لم تكن منصفا معه يا "هيرا"، لقد أعطانا أخى حقنا كاملا، وأنا لست مرتاحا للحديث بأنه قد غبننا حقنا.

– تسمع أو لا تسمع لكن هذه النقود نقودنا.

– لا تتهم أحدا بدون بينة.

– حسنا من أين أتت هذه النقود؟ من أين تمطر الثروة؟ أليس عنده حقل مثلنا؟ الغلة مثل غلتنا ولا نملك حتى ما نشترى به كفننا، فى حين أنه اشترى بقرة جديدة؟!

– لعله اشتراها بالأجل.

– "بهولا" لا يعطى شيئا بالأجل.

– المهم أنها بقرة جميلة، جاء بها "جوبر" فرأيتها فى الطريق.

– أموال الخيانة لا تبقى، فستذهب كما جاءت. وإن شاء الإله لن تعيش البقرة إلا أياما معدودات.

لم يستطع "هورى" أن يسمع المزيد، كان قد نسى الماضى وجاء بقلب ملىء بالحب إليهما لكن هذه الصدمة جرحت قلبه، ولم تمكث فيه الأخوة والمروءة. فكر أن يرد عليهما لكنه سكت حتى لا يكثر الكلام. لو كانت نيتهما صافية لما ظنا فيه ظن السوء، الإله يعلم أنه برىء ولن يبالى بأحد. وعاد إلى منزله وأخذ يدخن ما بقى من النارجيلة، لكن السم كل لحظة كان ينتشر فى عروقه؛ كان يريد أن ينام لكن لم يستطع. اتجه إلى ثيرانه ومسح بيده عليهما فزال عنه الهم قليلا، ثم جهز نارجيلة أخرى لكنه لم يجد لها طعما. كان كأن الهم يضغط عليه، ولا يفكر إلا فى هذا الأمر كالسكران؛ وكما تجتمع المياه فى مكان واحد وتتجه إلى مكان واحد كانت حالة "هورى" مثل ذلك. دخل المنزل على هذه الحالة من الجنون، كان الباب مفتوحا و"دهنيا" مستلقية على حصيرة فى الصحن و"سونا" تدلك جسدها، أما "روبا" التى كانت عادة ما تنام عندما يحل المساء فكانت لا تزال مستيقظة، وكانت تداعب البقرة الواقفة. أخذ "هورى" البقرة بعد أن حلّ وثاقها، ومشى بها ناحية الباب؛ كان يريد أن يعيدها إلى منزل "بهولا" بإرادة مسمومة، لا يمكن أن تعيش البقرة فى منزله لحظة واحدة وهناك وصمة عار على جبينه. كلا!

سألت "دهنيا":

- إلى أين تأخذها فى هذا الوقت من الليل؟!

قال "هورى" وهو يتقدم بها:

- سآخذها إلى منزل "بهولا"؛ سوف أعيدها.

وقفت "دهنيا" أمامه متعجبة، وقالت:

- لماذا تعيدها؟ هل أحضرتها لتعيدها؟!

- نعم! ففي إعادتها راحة.

- ما هذا الكلام؟! أأحضرتها وبعد أن حققت ما تريد تعيدها، أطلب "بهولا" النقود؟

- كلا، لم يحضر "بهولا" هنا .

- إذًا لماذا هذا الكلام؟!

- ماذا ستفعلين بسؤالك؟

خطفت "دهنيا" حبل البقرة من يده؛ لقد فهم عقلها الثاقب ما حدث، وقالت:

- لو أنك تخاف من أخويك فاذهب وقبل أقدامهما، أما أنا فلا أخاف من أحد! ولو انشق صدر أحدهما لزيادة مالي فلينشق، فأنا لا أبالي!

قال "هوري" بلهجة منكسرة:

- تحدثي بصوت منخفض يا ملكة الجمال! لو سمع أحدٌ حديثنا لقال أيتشاجران في منتصف ليلة كهذه. لقد سمعت بأذني وأنت لا تعلمين الناس، إنهم يتحدثون فيما بينهم بأنني قد سرقت بعض النقود قبل الانفصال وأخذت من نصيب أخويّ وأن هذه النقود قد ظهرت الآن.

- "هيرا" يقول هذا؟

- القرية كلها تقول هذا، فلم أشوّه وجه "هيرا" فقط؟!

- القرية لا تقول شيئا، سأذهب وأسأل كم من النقود ترك والدك؟! لقد ضيعت صحتك على أخويك ودمّرت حياتك من أجلهما، لقد ربيتهما حتى أصبحا شابين والآن صرنا ظالمين؟! أقول لك لو خرجت البقرة من المنزل فسيحدث ما يسوؤك. لقد سرقنا النقود، وأخذنا الحقل! وأنا أقول علنا إننى سرقت آنية مملوءة بالذهب، فليفعل "هيرا" و"سوبها" والعالم كله ما يريدون. لماذا لا نأخذ النقود؟! لقد زوجناهما شابين، وأعطيناهما كل ما يحتاجانه للزواج.

شعر "هورى" بالحيرة، فأخذت "دهنيا" الحبل من يده وربطت البقرة فى الوتد واتجهت ناحية الباب. أراد "هورى" أن يمنعها لكنها خرجت، فجلس وهو يضع رأسه بين يديه. إنه لا يريد أن يمسك بها ويتحول الأمر إلى مهزلة. إنه يعرف غضب "دهنيا"، فهى إذا غضبت تصبح جامحة؛ تُضرب وتُقطع فلا تسمع! لكن "هيرا" أيضا رجل غضوب، لو ضربها فستقوم القيامة؛ كلا، "هيرا" ليس قليل الأدب! أنا الذى أشعلت النار من هنا إلى هناك، إذا كان غاضبا فلا بأس، لكن لو احتفظ بهذا الكلام لنفسه لما حدث شيء. فجأة سمع صوتا رهيبا لدهنيا، كذلك سمع صراخ "هيرا" ثم سمع لهجة "بنى" الشديدة. ثم تذكر "جوبر"، فأسرع إلى الخارج فوجد سريره خاليا وهو غير موجود، ستحدث مشكلة لو ذهب "جوبر" إلى هناك، لن يحدث خير، إنه شاب حار الدماء فلا أعرف ماذا سيفعل؟

لكن كيف سيذهب "هورى" إلى هناك؟! يعتقد "هيرا" أنه لا يتحدث بنفسه، وأنه بعث الشيطانة للشجار. اشتد الصياح، فاستيقظت القرية كلها؛ فمن الواضح أن النار قد اشتعلت فى مكان ما وأن الناس قد استيقظوا من أسرَّتهم راكضين لإطفائها. كان صابرا حتى الآن، إلا أنه لم يستطع أن يتحمل أكثر؛ كان غاضبا من "دهنيا" لأنها ذهبت للشجار، فالإنسان يقول فى البيت ما يريد، لكن أمام الآخرين كأن شيئا لم يكن. كان "هورى" كفلاح يبتعد عن الشجار، فقد يذهب إلى قسم الشرطة، ويكبَّل بالأغلال، يطلب توصية ويأكل تراب العدالة، ويذهب الحقل أدراج الرِّياح. لن يتمكن من فعل شىء لهيرا، لكنه كان يستطيع أن يجر "دهنيا" بالقوة. ذهب ووقف على باب "هيرا" بعيدا عن الشجار فى ظل جدار، كان يريد أن يفهم الموقف؛ كالقائد فى الميدان لو انتصر الجنود فلا حاجة لتدخله، ولو انهزموا فعندها يتدخل. رأى هناك جمعا يقارب الخمسين شخصا، من بينهم: "بندت داتادين"، "لالا بيتشورى" اللذان كانا من أعيان القرية. وصل الجميع، كانت كفة "دهنيا" تخف لشدتها التى تجعل الناس يختلفون معها، كما أنها ليست بارعة فى المشاجرة؛ فهى تقول الكلمات الغاضبة ولا تكترث بتعاطف الناس معها. كانت تصرخ:

- لماذا تحسدنا؟! لم ينشق صدرك حســدا؟ لقد ربيتك صغيرا، فهل هذا هو جزائى؟! لو لم نربك لكنت اليوم تمد يديك للناس، ولم يكن أحد سيظلك بظله.

شعر "هورى" بأن هذه الكلمات قاسية أكثر من اللازم، فتربية أخويه كانت واجبا عليه فقد كان ميراثهم فى يده، فكيف لا يربيهم؟! وكيف سينظر الناس إلى وجهه؟!

أجاب "هيرا":

– أنا لا أعرف أحدا قد رباني، فقد كنت أعيش فى بيتك وآكل قطعة من الخبز كالكلاب، وأعمل طوال النهار. لم أتمتع بطفولتى ولا بشبابى، كنت أجمع الروث المجفف، ومع كل هذا العمل لم تكونى تعطيننى الخبز إلا بالسِّباب. لقد أصبحت حياتي مرّة لأنني وقعت في يدى امرأة مثلك!

قالت "دهنيا" بحدة:

– أمسك عليك لسانك وإلا سأقتلعه، المطحنة هى زوجتك. كيف تفكر أيها القاتل؟ يا من تأكل الخبز وترد الجميل بالحرام.

اعترض عليها "داتادين"، وقال:

– "دهنيا" لم تقولين هذه الكلمات السخيفة؟! من عقيدة المرء أن يصبر على ما يقال له، إنه جاهل فلم تتشاجرين معه؟!

أيد "لالا بيتشورى" كلامه، قائلا:

– إن ردّ الكلام يكون بالكلام وليس بالسباب، أنت ربيته فى الطفولة فلم تنسين أن ميراثه كان فى يدك؟!

اعتقدت "دهنيا" بأن الجميع يريد إهانتها، فاستعدت للشجار من جميع الجهات:

– فلتصمت يا "لالا"! أنا أعرف الجميع، وأعيش فى هذه القرية منذ عشرين عاما وأفهم الكل، فإذا كنت من يشتم فهل ينثُر هو الزهور؟! أليس كذلك؟!

وضعت البقالة "دلارى" السمن على النار:

– فى الحقيقة يا أخى إنها امرأة سليطة اللسان! إنها تتشاجر مع الرجال، و"هورى" هو الرجل الوحيد الذى يستطيع الحياة معها، ولو كان رجلا آخر ما عاش معها ليوم واحد.

لو غفر "هيرا" لها وسكت لانتصر هو، لكن عندما سمع سبابها غضب، وعندما رأى الناس قد أصبحوا معه استأسد وقال صائحا:

– اذهبى من منزلى وإلا سأضربك بالحذاء، سأنزع شعرك. أتشتميننى أيتها الشيطانة؟! أتتكبرين بوجود ابنك؟! الدم...

تغيّر الميزان، فثار الدم فى عروق "هورى" كأن النار قد اشتعلت بالبارود، فتقدم وقال:

– حسنا! اسكت، لتصمت يا "هيرا"، فلن أسمع المزيد! ماذا أقول عن زوجتى؟ إذا تمرّغ وجهى فى التراب تكون هى السبب دائما فى هذه الهزيمة، فهى لا تستطيع أن تسكت.

أصبح الجميع ضد "هيرا": قال "داتادين" إنه بلا نخوة، وقال "پيتشورى" إنه بلطجى، ولقبه "جهنكرى سنج" بالشيطان، وقالت "دلارى" إنه غير مؤدب. فى البداية خفّت كفّة "دهنيا" بالألفاظ الوقحة، والآن خفّت كفّة "هيرا" بكلماته السخيفة، وتأثر الناس بكلمات "هورى" المهذبة.

تماسك "هيرا" فالقرية كلها صارت ضده، ومن الأفضل أن يصمت، وحتى فى غضبه كان لديه بعض العقل. زادت قوة قلب "دهنيا" ضعفين وقالت لهورى:

– اسمع لتفتح أذنيك، كنت تموت من أجل أخويك، هذا هو أخوك؟! لو لم تر وجه مثل هذا الأخ فهذا أفضل، إنه سيضربنى بالحذاء، أطعمته وأشربته...

زجرها "هورى":

– لماذا تتكلمين؟ لم لا تذهبين إلى المنزل؟

جلست "دهنيا" على الأرض، وقالت وهى تستغيث:

– والآن سأعود إلى المنزل بعد أن يضربنى بحذائه، ليرينى رجولته. أين "جوبر" ابنى؟ فى أى وقت سيساعدنى؟ هل ترى يا بنى ستضرب أمك بالحذاء!

وهكذا استغاثت نفَثَت فى النار حتى اشتد الغضب بهورى، رجع "هيرا" إلى الوراء منهزما. كانت بُنى تجره إلى داخل المنزل، فهجمت عليه "دهنيا" كاللبؤة ودفعته بشدة حتى وقع على الأرض، وقالت:

– إلى أين تذهب؟! اضربنى بالحذاء! اضربنى بالحذاء لأرى رجولتك!

ركض "هورى" وأخذ يدها وجرها معه إلى المنزل.

الفصل الخامس

تناول "جوبر" طعام العشاء وذهب إلى حى اللّبان، تحدثت "جهنيا" اليوم معه كثيرا، ولما أخذ البقرة إلى المنزل صاحبته "جهنيا" إلى منتصف الطريق؛ كيف يأخذ "جوبر" البقرة لوحده؟ لقد كان غريبا عنها، ولهذا تخاف منه وهذا أمر طبيعي. بعد أن سارا مسافة كبيرة قالت "جهنيا" لجوبر بعيونها المليئة بالأسرار:

- لم لا تأتِ إلينا فيما بعد؟

حتى اليوم كان "جوبر" ساذجا، كانت جميع الفتيات فى القرية بمثابة أخواته أو زوجات إخوانه؛ لا يمكن أن يمزح مع الأخوات وزوجات الإخوان، أحيانا كن يمزحن هن معه، لكن هذا يكون على سبيل المزاح، وفى عيونهن كأن شبابه لم يتفتح بعد، وإذا لم تكن هناك ثمرة فلا فائدة من إلقاء الشجرة بالحجر، ولم يشجعه أحد ولهذا مازال يحتفظ ببكارته. كان قلب "جهنيا" المحروم مشغولا بمزاح زوجات إخوانها، لقد طمعت فى بكارته، واستيقظ الشباب عند هزّ الورقة كالحيوان المفترس النائم.

قال "جوبر" بمراهقة:

- إن الفقير يمكن أن يقف على باب المعطى طوال الليل والنهار إذا تيقن من العطاء.

اعترضت "جهنيا" قائلة:

- كأنك تابع للمصلحة؟!

ثار الدم فى عروق "جوبر"، وقال:

- إن الرجل الجائع إذا مد يده غفر له.

ودخلت "جهنيا" إلى عمق الحديث:

- الفقير لا يشبع حتى يأخذ من عشرات الناس، وأنا لا أتكلم مع أمثال هؤلاء الفقراء، فأمثالهم موجودون فى كل مكان. ماذا يعطى الفقير للناس؟! الدعاء! والدعاء لا يشبع البطن.

لم يستطع جوبر أن يفهم كلام "جهنيا". وهى رغم صغر سنها كانت توصل الحليب للزبائن، وفى بيت حميها كانت تفعل نفس الشيء، وفى هذه الأيام تبيع الزبادى، كانت تلتقى بمختلف الناس وتكسب روبيتين أو أربع، وكان قلبها مطمئنا لذلك، لكنها كانت تشعر أن هذا السرور مزيف، وليس فيه أى أمل، ليس فيه إيثار أو اختيار. كانت تريد الحب لتعيش له وتموت له وأن تضحى بنفسها من أجله. لم تكن تريد ضوءاً كالضوء المنبعث من الفراشة بل ضوءاً مثل ضوء المصباح، كانت فلاحة فلم تستطع الألوان الزاهية والمختلفة أن تميت إحساسها.

قال لها "جوبر" بفرحة:

– لو شبع الفقير على باب واحد فلم يدور على عشرات المنازل؟!

نظرت جهنيا إليه بشفقة – كم هو ساذج، كأنه لم يفهم شيئا – قالت:

– وهل يشبع الفقير من مكان واحد؟! إنه يأخذ الصدقة بكف، وأنت تأخذ كل شيء عندما تعطى كل شيء.

– لا أملك شيئا يا "جهنيا"!

– ليس لديك شيء؟ أنا أرى أنك تملك شيئًا لا يملكه أغنى الناس، أن لا تسألني بل يمكنك أن تشتريني.

نظر "جوبر" إليها بحيرة.

قالت "جهنيا":

– أتعرف ما هو ثمني؟ أن تعيش لي – ولو رأيتك تمد يدك أمام أحد لطردتك من المنزل.

كان "جوبر" كمن يبحث في الظلام ووجد ما يريده، شعر بخوف غريب من السعادة التي ملأت كل عضو فيه. لكن كيف يحدث هذا؟! كيف يأخذ "جهنيا" لتعيش معه في المنزل؟ العشيرة مختلفة والقرية كلها ستتحدث عني، وسيصبح الجميع أعدائي، ولن تدعها والدتي تدخل المنزل؛ لكن إذا كانت هي امرأة ولا تخاف فلِمَ أخاف وأنا الرجل. جُلّ ما سيحدث

أنه سينفصل عن أهله ويعيش وحيداً، لا يوجد فى القرية فتاة مثل "جهنيا"، إنها تتحدث بفهم. ألا تعلم أننى غير مناسب لها؟! ومع ذلك هى تحبنى وراضية عنى، ولو أخرجنى أهل القرية ألا توجد فى العالم قرية أخرى؟ ثم لماذا أترك القرية؟ لقد تزوج "ماتادين" من منبوذة فماذا فعل أهل القرية؟ غضب "داتادينداندت" عليه فقط، لم يغير "ماتادين" مذهبه، ولم يضع فى فمه شيئًا حتى يقوم بعبادة الإله، ويطبخ صباحا ومساءً بنفسه والآن لا يطبخ الطعام بمفرده، بل أصبح والد داتادين يطعمه معه. وتزوج "جهنجرى سنج" من برهمية(١)، فماذا فعلوا به؟ وكما كان يكرمه الناس مازالوا يكرمونه بل أكثر من قبل، لقد كان يبحث عن العمل والآن بنقودها أصبح مرابيا، كان من قبيلة تهكر وله مكانة بين الناس بالإضافة إلى مكانته كمرابٍ. لكن فكر "جوبر" أن "جهنيا" لعلها تستهزئ به، لذا فمن الضرورى أن يطمئن لها أولاً. قال:

- أتقولين الصدق، أم تخدعيننى؟! لقد صرت لك فهل ستصبحين لى؟

- أنت أصبحت لى؟ وكيف أعرف هذا؟

- لو طلبتِ روحى لأعطيتها لكِ.

- هل تفهم ما معنى إعطاء الروح؟!

- أنت تفهمين.

---

(١) البرهمى هو سيد الطبقات فى النظام الطبقى الهندوكى.

– معنى التضحية أن تعيش معنا، لو وضعت يدك فى يدى نعيش معًا طول العمر، لو تقول الدنيا أى شيء، لو قالت الأم، الأب، الإخوان والأقارب والأهل والأسرة فندع كل شيء ونترك الميراث. لقد رأيت الكثير من الناس يضحكون بالكلام ثم يطيرون مثل النحلة التى تمتص رحيق الأزهار، أفلا تطير مثلها؟!

كان حبل البقرة في إحدى يدى "جوبر" فأخذ يد "جهنيا" بيده الأخرى، كأنه وضع يده فى الكهرباء، ارتعش جسده كله من أول لمسة؛ كم كان رسغها لينا وناعما! لم تبعد "جهنيا" يده كأن شيئا لم يحدث، وبعد لحظة قالت بجدية:

– لقد أخذت اليوم يدى فلتتذكر.

– حسنا سأتذكر، سأتذكر يا "جهنيا" حتى الموت.

قالت جهنيا وهى تبتسم بلا اكتراث:

– الجميع يقول هذا يا "جوبر" بل يتحدثون بكلام أحلى، ولو كان الغدر فى نيتك فلتقل لى كى أستعد؛ أنا لا أعطي قلبى لمثل أولئك بل أجاريهم فى الكلام فقط. أنا أبيع الحليب فى السوق منذ سنين، وكثيرٌ من الأعيان والتجار والمحامين والضباط يريدون إيقاعى فى حبائلهم؛ بعضهم يقول وهو يضع يده على صدره (يا "جهنيا" لا تحرمينى)، وبعضهم ينظر إلىّ بعيون سكرى كأنه سيموت فى الحب، وكلهم يريدون أن يخدمونى طول العمر بل فى الحياة الأخرى! لكن أنا أعرفهم جيدا، كلهم كالفراش

يمتصون رحيق الأزهار ويطيرون، أما أنا فأجاريهم وأنظر إليهم مبتسمة، إنهم يظنون لهاء، وأنا أسخر منهم، لو مت لن يذرفوا عليّ دمعة واحدة، ولو ماتوا فسأقول لهم حصل خير، ولو أجبت أحدهم فسأصبح له طول العمر، أعيش معه في الراحة والهم والغم. لست فتاة ماجنة، وأنا لا أموت من أجل النقود أو المجوهرات أو الملابس، لكن أريد رجلا طيبا يحبني وأحبه. كان أحد علماء الهندوك -والذي يضع العلامة الهندوكية الحمراء على جبينه- يأخذ نصف كيلو حليب مني، وفي أحد الأيام كانت زوجته خارج المنزل في حفلة زفاف وأنا لم أكن أعلم، أحضرت اللبن ودخلت كالعادة وأنا أنادي، سيدتي! سيدتي؟ لم يرد أحد، وفجأة، رأيت الراهب الهندوكي وهو يقفل الباب من الداخل ويتجه ناحيتي، ففهمت سوء نيته، فسألته زاجرة "لم أغلقت الباب!؟ أين ذهبت السيدة؟! لم ساد الهدوء المنزل؟!" فقال: "ذهبت إلى حفلة زفاف" ثم اقترب مني أكثر. قلت: "إذا كنت تريد الحليب فلتأخذه، وإلا سأرحل" قال: "اليوم لن ترحلي من هنا أيتها الملكة "جهنيا"! كل يوم تضعين السكين على قلبي ثم تفرين، لن تفلتي اليوم مني". أقول لك الحق يا "جوبر" لقد تسمّر شعري خوفاً.

قال "جوبر" بانفعال:

- لو رأيته فسأحفر وأدفنه، وأمتص دمه. أريني إياه.

- اسمع، يكفي أنني ضربته، كان صدري يدق، لو فعل شيئا ماذا سأفعل؟ لن يسمع أحد صراخي، لكن صممت أنه لو مس جسدي فسألقي بقدر الحليب في وجهه، لو ضاع أربع أو خمس كيلوات من الحليب

فلا بأس بذلك، وسيتذكر دائما ذلك طول العمر. استجمعت قوتى وقلت له: "أنت لا تفكر أن تفعل بى شيئا أيها الراهب! أنا اللبّانة، وسأنزع شعر شاربك شعرة شعرة. أهذا هو المكتوب فى كتابك المقدس أن تأخذ شرف الفتيات الأخريات فى منزلك المغلق؟! وهل بهذا تكون راهبا وتلعب وراء ستار العلامة الدينية الحمراء؟" فأخذ يستعطفنى وركع على قدميه وقال: "لو فعلت ما يريده حبيبك فماذا سيحدث لك يا ملكة "جهنيا"؟! إنك أحيانا تتكرمين على الفقراء، وسيسألك الإله عن جمالك لماذا لم تهده لراهب، فبماذا ستجيبين؟ اسمعى، أنا دائما آخذ الهدايا نقدا واليوم لتعطينى شبابك هدية"، قلت له لأعرف نيته "أنا أريد خمسين روبية". وأصدقك القول يا "جوبر" فإنه قد دخل على الفور وأحضر خمسين روبية من فئة العشرة ووضعها فى يدى، فرميت النقود واتجهت إلى الباب فأمسك بيدى، وكنت أنا قد تأهبت فألقيت بالقدر فى وجهه، فاستحم من رأسه حتى أخمص قدميه، وأصابه ألم شديد، وأمسك برأسه وجلس وهو يتأوه، وعندما رأيت أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا ركلته ركلتين فى ظهره وفتحت الباب وخرجت.

ضحك "جوبر" وقال:

– أحسنت، لقد استحم بالحليب، كما أن العلامة الحمراء قد انمحت أيضا.

– فى اليوم التالى ذهبت إلى منزله، كانت زوجته قد حضرت. كان جالسا فى التكعيبة وقد ربط رأسه، فقلت له: "هل أقول لها ما فعلته

بالأمس أيها الراهب؟!" فأخذ يطلب السماح، فقلت: "حسنا، لكن لتبصق وتلعقها" فسجد على الأرض وهو يقول: "إن كرامتى بين يديك يا "جهنيا" فلتعلمى لو علمت زوجتى فلن تتركنى حيا"، فسامحته.

امتعض "جوبر" لهذا الكلام وقال:

– لم فعلتِ هذا؟! من المفروض أن تخبرى زوجته لتضربه بالحذاء، لا يجب أن ترحمى مثل هؤلاء الأشرار لترينى إياه غداً، وسترين كيف سأضربه.

قالت "جهنيا" وهى تلاحظ مراهقته:

– لا يمكن أن تفوز عليه فهو سمين الجسم، ويأكل التبرعات مجانا.

كيف يستطيع "جوبر" احتمال احتقار شبابه؟! فقال بلا هدف:

– إن سمنته لن تفعل شيئا؟ إن جسدى عظامه من حديد، وأنا أجلس وأنهض مائة مرة، ولا أشرب الحليب، ولا آكل السمن وإلا كان صدرى قد صار عريضا.

وأكد كلامه بإبراز صدره.

– حسنًا، سأريه لك، لكن هنا كلهم مثله بل أكثر، فمن ستضرب؟! لا أعرف ما هذه العادة السيئة فى الرجال إذا رأى أحدهم شابة جميلة أخذ يحدق فيها ويضرب على صدره، أما الأغنياء فيتزلقون بسرعة. وأنا لست جميلة حتى ينظر أحدهم إلىّ...

اعترض "جوبر" قائلا:

– أنتِ؟! إننى حين أنظر إليك أتمنى أن أضعك فى قلبى.

ضربت "جهنيا" ظهره ضربة خفيفة وقالت:

– أتجاملنى مثل الآخرين؟ أنا أعرف نفسى جيدا، إنهم حين يجدون امرأة شابة لا يحتاجون أكثر من ذلك لتداعبهم أنفسهم، والإنسان يرى صفات الشخص الذى سيعيش معه طوال عمره. أنا أرى وأسمع أن أحوال منازل الأغنياء عجيبة، ففى الحى الذى تزوجت فيه كان هناك شخص كشميرى يسمى "جبدو"، كان غنيا جدا، ويشترى خمس كيلوات من الحليب، وله ثلاث بنات؛ اثنتان فى أوائل العشرينيات وواحدة فى الخامسة والعشرين؛ إنهن جميلات ويتعلمن فى كليات كبيرة، وإحداهن تدرّس فى الكلية وتأخذ مرتبا ثلاثمائة روبية، يُجدن العزف، ويعزفن على الهارمونيكا، يرقصن ويغنين، لكن لم يتزوجن. الإله أعلم إذا كن هن لا يحببن الرجال أم الرجال هم الذين لا يحبونهن. ذات مرة سألت البنت الكبرى عن الزواج فضحكت وقالت "نحن لا نصيب أنفسنا بهذا المرض" لكن فى داخلهن كن يردنه رغم لهوهن، عندما أراهن أجد حولهن شابين أو أربعة. أكبرهن ترتدى القميص والبنطال وتمتطى الحصان وتخرج مع الرجال؛ إن قصتهن معروفة فى المدينة كلها. السيد "جبدو" يمشى خافضا رأسه كأن هناك وشمة فى وجهه، إنه يزجرهن، ويفهمهن، لكنهن يقلن له علانية لا حق لك فى أن تتدخل فى شؤوننا، نحن نملك حريتنا وما نريده نفعله، والوالد الشاب لا يقدر أن يقول لبناته شيئا! لم يقدر على ربطهن

وضربهن ولا زجرهن. لكن الأغنياء يقولون إنهن يفعلن ما يردن وكل شيء سيصبح بخير، إنهن لا يخفن من الأهل ومجلس القرية. أنا لا أفهم كيف يتغير القلب من يوم ليوم، هل أصبح الناس أقل شأنا من البقرة والشاة؟ أنا لا أقول كلاما سيئا، فأنت كما تريد يصبح قلبك. أرى الناس الذين يأكلون العدس الأصفر والخبز يريدون دائما أن يغيروا مذاقه بشيء حلو وخبز مقلى، وأرى بعض الناس عندما يرون العدس الأصفر والخبز يفرحون وبعضهم على العكس، وبعض النسوة يفرحن بعدسهن وخبزهن، ولا يتمنين الحلوى والخبز المقلى، انظر إلى زوجتى أخوىّ، إنهما ليسا أعورين ولا أحدبين بل هما شابان فى ريعان شبابهما، لكنهما لا يعجبانهما، إنهما تريدان رجلا يجعل لهما حلقة من ذهب، ويشترى لهما السارى الغالى ويطعمها الحمص كل يوم. أنا أيضا أحب الحلقة والسارى والحلوى، لكن لا يمكن أن أبيع شرفى من أجل هذه الأشياء التافهة. فليقينا الإله من شر ذلك. أنا أريد أن أعيش مع شخص واحد آكل معه الخبز الجاف واليابس وهذه هى طريقتى. إن الكثير من الرجال هم من يخرّبن النساء، فالرجل عندما ينظر يمينا وشمالا فالمرأة أيضا تفعل مثله، وإذا جرى الرجل وراء امرأة أخرى فستجرى المرأة وراء رجل آخر؛ عندما يكون الرجل ماجنًا فالزوجة لا تحب هذا والعكس أيضا صحيح. لتعلم أننى قد قلت لزوجى لو نظرت إلى امرأة أخرى فأنا حرة أفعل ما أشاء، فأنت إذا كنت تعتقد أنك ستفعل ما تشاء أما الزوجة فلن تفعل شيئا خوفا منك فهذا لن يحدث، أنت تفعل فى العلانية وهى تفعل فى الخفاء، وأنت لن تعيش عندما تصيبها بالهم.

كان هذا الحديث بمثابة عالم جديد لجوبر، كان يسمع بإنصات، يقف قليلا ثم يتذكر ويمشى. لقد جعلته "جهنيا" يُحب شبابها وجمالها، لكن اليوم استهوته بكلامها المجرّب وقصة حمايتها لشرفها؛ لو وجد امرأة مثلها تحمل هذه الصفات والعقل سيكون سعيد الحظ! لماذا يخاف من أهله ومجلس القرية؟!

عندما رأت "جهنيا" أنها أثرت عليه تأثيرا بالغًا، وضعت يداها على صدرها وعضّت على لسانها وقالت بتعجب:

– لقد وصلت إلى قريتك! أنت حاذق للغاية، ولم تطلب منى أن أعود إلى قريتى.

وتراجعت وهى تقول هذه الكلمة.

أصر "جوبر":

– لم لا تأتين إلى المنزل للحظة لتراك والدتى؟

أطرقت "جهنيا" عينيها خجلا:

– كلا، لن أذهب إلى منزلك هكذا!! أنا أتعجب كيف جئت كل هذه المسافة، حسنا متى ستحضر عندنا؟ لو جئت ليلاً على بابى فسنجلس معا، وأنا سأقابلك خلف المنزل.

– وإذا لم تقابلينى؟

– لترجع.

- لن أحضر.

- لا بد أن تحضر، أؤكد عليك.

- تعدينى أنكِ ستقابلينى؟

- لن أعدك.

- وأنا لن أحضر.

- لا تحضر.

أشارت "جهنيا" بإصبعها ومشت . فى لقائهما الأول وقعا فى الحب، كانت "جهنيا" تعرف أنه سيأتى، وكان "جوبر" أيضا يعلم أنها ستقابله. فلما مشى بالبقرة وهو يقودها وحده شعر أنه قد خرج من الجنة.

الفصل السادس

كان الجو حارا في جره، لكن زخات المطر جعلت الجو رائعا في حارات سمري وشوارعها، وقد صُفّت الأصُص المليئة بالأزهار حول الخيمة، وكانت هناك مروحة تعمل . كان "راي صاحب" يولّد الكهرباء من مصنعه، وكان جنوده يتجولون بين الناس ليوقعوا الرعب في قلوبهم وهم يرتدون بذلاتهم الصفراء وعماماتهم الزرقاء. كان الخدم يرتدون القميص الأبيض وعمامة بلون الزعفران، وكانوا يُضيّفون العمداء والضيوف. في ذلك الوقت وقفت سيارة على الباب الرئيسي ونزل منها ثلاثة من أصدقائه أحدهم كان يلبس ثوبا من الكتان وينتعل حذاء جلديا ويدعى "بندت اونكار ناته" وهو مدير تحرير في صحيفة معروفة ومشهورة وقد أصبح نحيفا من هموم البلاد. والثاني يرتدي قميصا وبنطالا وهو محامٍ فشل في المحاماة فعمل سمسارا في شركة التأمين وهو يقرض الأغنياء والتجار من البنوك، ويكسب بهذا أكثر من المحاماة، وهو يدعى "شيام بهاري تنخا"، أما الثالث فيرتدي قميصا حريريا وبنطالا ضيقا ويدعى السيد "بي مهتا"، وهو أستاذ فلسفة في الجامعة. كان هؤلاء هم أصدقاء "راي صاحب" في الدراسة، وهم مدعوون في هذا الحفل.

سيحضر اليوم جميع العمال فى هذه المنطقة وسيقدمون الهدايا فى هذا الحفل، وفى الليل سيلعبون بالسهام ويتناول الضيوف الطعام. دفع "هورى" خمس روبيات هدية الحفل، وهو يرتدى صديرية وردية وعمامة وردية وإزارا يرفعه إلى ركبته، وفى يده مجرف، ووضع الزينة على وجهه؛ إذ سيقوم بدور بائع الزهور للملك "جنك"، وانتابه شعور بالكبر كأن الحفل انعقد من أجله.

استقبل "راى صاحب" الضيوف ببشاشة؛ كان شخصًا قوى البنيان، طويل القامة، متين الجسد، بهى الوجه، عالى الجبين، أبيض اللون وعليه رداء حريرى بُنى يزيد من جماله.

سأل "بندت اون ار ناته":

- ما المسرحية التى ستقدَّم اليوم؟ فالمسرحية هى أكثر ما يعجبنى فى هذا الحفل.

أجلس "راى صاحب" أصدقاءه الثلاثة على كراسٍ أمام الخيمة، وقال لهم:

- أولا رمى السهام، وبعد ذلك مسرحية فكاهية. ولم أجد تمثيلية جيدة وما وجدته كان طويلاً يستغرق أكثر من خمس ساعات، وكانت المشكلة أن أحدا لن يفهمها، وفى النهاية كتبت مسرحية فكاهية بنفسى وهى تستغرق ساعتين.

كان "اونكار ناته" يشك كثيرا فى قدرة "راى صاحب" على كتابة المسرحية، فقد كان يظن أن الذكاء والفطنة تلمع فى الفقر مثل المصباح الذى ينير فى الظلام فقط. نظر إلى ناحية أخرى غير مبال به، ولم يحاول أن يخفى امتعاضه.

لم يُرد السيد "تنخا" أن يشارك فى مثل هذا الكلام الفارغ، لكن لأنه يريد أن يدرك "راى صاحب" أن له الحق فى أن يعبر عن رأيه فى هذا الأمر فقال:

– التمثيلية يمكن أن تكون جيدة لو كان الممثلون جيدين، ولو كانت التمثيلية جيدة والممثلون سيئين لفسدت، وإذا لم تحضر الممثلات المتعلمات فلا يمكن أن تصبح التمثيلية ناجحة. فى هذه المرة سجلت رقما قياسيا بأسئلتك التى تثير الضجة فى البرلمان، وأنا أقول إنه لا يوجد عضو له شأن مثلك.

لم يتحمّل "السيد مهتا" أستاذ الفلسفة أن يسمع هذا المدح، وكان يريد أن يعترض فهو قد ألّف كتابا بمشقة خلال عدة سنوات ولم يحز على القبول حتى ولو واحد بالمائة كما كان يتوقع مما أحزنه كثيرا:

– أنا لا أؤمن بالأسئلة فقط بل أريد أن تقوم الحياة على مبادئ، أن تحب الخير للفلاحين، وتراعى مختلف الطبقات، وتريد أن تنزع السلطة من الإقطاعيين بل تظن أنها شؤم على المجتمع، لكن أنت أيضا ما زلت إقطاعيا حتى الآن مثل آلاف الإقطاعيين. ولو كنت تؤمن برعاية الفلاحين

لكنت بدأت بنفسك؛ تكتب لهم وثيقة إيجار الأرض بدون هدايا، وتنهى العمل بلا أجرة، ولا تأخذ الخراج الزائد، وتترك المراعى. أنا لا أتعاطف مع مثل هؤلاء الناس الذين يتحدثون كالاشتراكيين لكن حياتهم كالأمراء، ويعيشون فى النعيم والمصلحة الذاتية.

أصاب الحزن "راى صاحب"، وظهر الامتعاض على وجه المحامى، أما مدير التحرير فكان كأن على رأسه الطير؛ كان يحب الاشتراكية لكنه لا يريد أن يشعل النار فى البيت بنفسه.

أيّد السيد "تنخا" "راى صاحب" قائلا:

- أنا أعرف أن راى صاحب يُحسن إلى عماله، ولو صنع الجميع مثله فلن يحتاج أحد إلى أن يلجأ للسؤال.

ضرب السيد "مهتا" بمطرقة أخرى:

- أعتقد أنك تحسن إلى عمالك، لكن هنا سؤال يطرح نفسه وفيه تظهر شخصيتك أليس كذلك؟ فأنت تريد أن تطهو الطعام على نار هادئة ليكون الطعام لذيذا، ومن يضرب الناس بالحلوى أنجح من الذى يقتلهم بالسم. أنا أعرف أننا إما نكون اشتراكيين أو لا، لو كنا اشتراكيين لعملنا كالاشتراكيين وإلا لا نتحدث عنها. أنا أعترض على الحياة الزائفة، لو كنت تعتقد أن أكل اللحم أمر حسن فلتفعل ذلك علانية، أما إذا اعتقدت أنه أمر سيئ فلا تقم به، وهذا هو ما أؤمن به. لكن أن تؤمن بسوء فعل ثم تأتيه فى الخفاء فهذا ما لا أفهمه، وأعتبره جبنًا وخداعًا وكليهما واحد.

كان "راى صاحب" يصادق الناس، ويتحمل الإهانة بمهارة وصبر وسعة صدر. فكر قليلا ثم قال:

– إن اعتقادك صحيح يا سيد "مهتا"، وأنت تعلم أننى أقدر كلامك الصادق، لكنك تنسى أن هناك مسافة بين الخيال والواقع كالمسافة بين المنازل، ولا يمكن أن تنتقل إلى منزل دون أن تمر على المنزل الأول. ويوجد فى تاريخ الإنسانية أوضح دليل، لقد تربيت فى بيئة تؤلّه الملك، وتعتبر الإقطاعيين وزراء للإله، ومع هذا فقد كان المرحوم والدى يكرّم العمال ويطعمهم فى أيام البرد والجفاف، وأحيانا كان يترك نصف الخراج أو حتى يتركه كله، كان يعطيهم الغلة من مخازنه ويزوج بناتهم بمجوهرات المنزل وذلك مقابل طاعة العمال لأوامره، واعتقادهم أن الآلهة قد حلّت فيه، ويسجدون له. كان دينه رعايتهم لكنه لم يعطهم من السلطة ولو مقدار حبة من خردل، وقد نشأت أنا فى هذه البيئة وأنا أفخر بأننى أستطيع القيام بأى عمل، وقد تقدمت على الجميع بإرادتى القوية وأنا أؤمن أنه إذا لم نراعِ الفلاحين، وأن تكون السلطة اختيارية؛ فلا يمكن أن يقع هذا الخيال على أرض الواقع، ولا يمكن أن تنصلح أحوال الفلاحين، ومن يفعل هذا اختياريا فهو استثناء. لدى أفكار طيبة لكن لا يمكن أن أدع لذّة الحياة، بل أريد أن تجبرنا الحكومة بالقوة على تغيير طريقة حياتنا ولو كنت تعتبر هذا جبنًا فأنا أعتبره إجبارا. إننى أؤمن أنه لا يجوز لأحد أن يسمن من عرق الآخرين، والحياة على حساب الآخرين أمر لا حياء فيه، والعمل سلوك الأحياء، وتقسيم المجتمع على نحو يعيش فيه البعض حياة مريحة ويموت البعض الآخر من كثرة العمل، لا يمكن

أن يوفر أسباب الراحة. الثروة والعلم جزآن من الغنى ولو انهدم هذا الجدار سريعا فهو حل جيد. إن المضحك أن هناك من لا يتيسر له الخبز وضباطهم يقبضون خمسة آلاف روبية وهذا عار على النظام، لقد أثمر هذا النظام للإقطاعيين الراحة وسوء السمعة والسلوك، وكمًا كبيرا من الوقاحة والعبودية فى الحياة. وأنا لا أعرض النظام من أجل هذه الأسباب فقط بل لأننى لا أوافق على الراحة فى الخيال. إننا نقتل ضمائرنا كى نرفع شأننا حتى لم نعد نملك ثقة بالذات، ونحن مكرهون على نهب العمال، فنحن لو لم نقدم الهدايا للضباط لأصبحنا طغاة، وإذا لم نعش بعظمة وخيلاء لصرنا بخلاء. نحن نرتعش من دبيب الثورة ونهرع إلى الضباط لحمايتنا، لم نعد نعتمد على أنفسنا ولم تبق فينا رجولة، وحالتنا كالرضيع الذى يُسقى الحليب بالملعقة فنحن فى الظاهر سمناء وفى الواقع ضعفاء لا طاقة لنا ومعوزون.

صفّق "مهتا" وقال:

– بطل! بطل! يا ليت فى رأسك نصف عقل مثل الذى فى لسانك! أشعر أنك تعرف كل شيء لكن لا تقدر أن تفعل ما يتفق مع فكرك.

قال "اونكار ناته":

– لا يعمل الحمص الصوت فى الرمل لوحده(١) يا سيد "مهتا"! لا بد أن نساير الوقت فيسير الوقت معنا، إن المساعدة ليست فى الأعمال

---

(١) هذا يماثل إلى حد ما المثل العربى: يد لوحدها لا تصفق.

السيئة فقط، بل الأعمال الحسنة أيضا لمن يمد لها يد العون. ألا تلعق لوحدك ألف روبية شهريًا وهناك مئات الألوف من إخوانك يعيشون على ثماني روبيات فقط.

بدا "راى صاحب" حزينا، لكن كان مطمئنا في داخله، ونظر إلى مدير التحرير وقال:

– لا تنتقد الكلام الشخصى، يا سيدى المدير، فنحن هنا نفكر فى نظام المجتمع لا أكثر.

أجاب السيد "مهتا" بقلب هادئ:

– أنا لا أعيب عليه وحده، إن المجتمع يتكون من الأفراد، ولا يمكن التفكير فى النظام دون أن نفكر فى الأشخاص. ولهذا أنا آخذ راتبى الضئيل لأنى لا أقيم وزنا لهذا النظام.

تعجب مدير التحرير وقال:

– كأنك من مؤيدى النظام الحالى؟!

– أنا أعتقد أن الأغنياء والفقراء لا بد أن يعيشوا فى هذه الحياة جنبا إلى جنب، ومن يدمر هذا النظام فسيكون سببًا فى دمار المجتمع الإنسانى.

تغيّر موضوع الحوار بعد أن تركهم "راى صاحب"، ونزل مدير التحرير إلى مائدة الحوار:

– ألا تؤمن ونحن فى القرن العشرين بالمساواة.

- أنا أؤمن بأفكارى، بل أؤمن بها بشدة، إن المذهب الذى تؤمن به ليس جديدا، فمنذ رقى الإنسان وهو يرفع علم المساواة؛ إن (بوذا وأفلاطون وعيسى) كلهم كانوا ينشدون المساواة فى المجتمع، وقد سعت اليونان وروما والشام من أجل هذا الهدف لكنه لم يدم مدة طويلة لأنه غير طبيعى.

- أنا أعجب وأنا أسمع منك هذا الكلام!

- إن التعجب هو الاسم الثانى للجهل.

- سأكون لك شاكرا لو كتبت مقالات تحت هذا العنوان.

- حسنا! أنا لست أحمقَ، لو أعطيتنى المال سأكتب.

- لقد اخترت مبدأ يمكنك به أن تنهب الشعب علانية.

- الفرق بينى وبينك بسيط؛ فأنا أعمل ما أؤمن به، أما أنتم فتؤمنون بشىء وتعملون عكسه. يمكن تقسيم الثروة بين الناس بخيانة وعدم إنصاف، لكن لا يمكن أن نقسم بينهم العقل والسيرة والجمال والذكاء والقوة بالتساوى لأن هذا ليس فى وسعك؛ إن الفرق بين الكبير والصغير ليس فى الثروة فقط فقد رأيت الأغنياء يركعون أمام الفقراء وبالتأكيد رأيت أنت هذا أيضا، وكثير من الأغنياء بل الملوك يسجدون على أبواب الحسان، أليس هذا فرقا اجتماعيا؟ وأنت تضرب مثلا بروسيا فهناك أصبح مالك المصنع عاملا حكوميا، لكن سيظل العقل هو الذى يحكم المجتمع وسيحكم فى المستقبل.

وجاء ورق التبغ فى الصينية، ويدأ "راى صاحب" يقدم منه لضيوفه، كذلك قدم القرنفل وقال:

- لو لم يكن العقل هو المسئول عن إبراز الشخصية، فلا عذر لنا إذا آمنّا بالسلطة وهذا هو معيار الاشتراكية. إننا نسجد أمام الرهبان لأنهم تركوا الدنيا، وهكذا نعطى السلطة للعقل والوقار والزعامة أيضا لكن الثروة لا نعطى لها شيئا. سترحل السلطة العقلية والوقار وتبقى الثروة بعد موته فيعطى القوة لمن يأتى بعده. لا يمكن أن يعيش المجتمع بدون عقل، نريد أن نقضى على الخطر الأقرب فقط.

جاءت سيارة أخرى ونزل منها السيد "كهنا" الذى كان يعمل مديرا فى البنك، كما كان مديرا لمصنع سكر وكان بصحبته امرأتان فخرج "راى صاحب" لاستقبالهم. كانت إحداهما ترتدى ساريا من الكتان، متينة ويبدو أنها ذات فكر ثاقب، وهى زوجة السيد "كهنّا كمنّا كهنّا"، أما الأخرى التى ترتدى الحذاء الطويل وتظهر على وجهها البسمة والحبور فهى الآنسة "مالتى" وقد عادت من إنجلترا بعد دراسة الطب وأخذت تمارسه بعد عودتها، وهى تتواجد دائما فى قصور الإقطاعيين لعلاجهم، وتبدو كتمثال جميل رقيق مفعمة بالدلال لكن لا حياء عندها، وهى أنثى كاملة، حاضرة البديهة وماهرة فى اجتذاب الرجال، وتُؤمن بأن اللهو واللعب هما الهدف من الحياة وهى محطّ أنظار الجميع، وهى بدورها لا تخفى دلالها وتعرف كيف تستولى على أفكار الناس.

صافحت السيد "مهتا" وقالت:

- أراك فيلسوفا حتى فى مظهرك، لقد انتقدت فى كتابك الجديد الذين يؤمنون بالتناسخ، كنت أدرس كتابك وقد خالفتك الرأى. لم لا يملك الفلاسفة حسّ المواساة؟!

شعر السيد "مهتا" بالحياء أمامها، فقد كان أعزب ويتحاشى النساء الجميلات، وكان يتكلم كثيرا وهو بين الرجال، لكن ما إن تحضر امرأة فى مجلسه حتى يقف لسانه كأن عقله قد أُغلق، لكنه مع ذلك لا يسلك مع النساء سلوكا طيبا.

وسأل السيد "كهنا":

- ما هو الشيء الخاص فى شكل الفلاسفة يا سيدتى؟!

أشفقت "مالتى" على السيد "مهتا" وقالت:

- إذا لم يغضب السيد "مهتا" فسأفهمك.

كان السيد "كهنا" من المعجبين بالآنسة "مالتى"، أينما ذهبت يكون معها، وهو يحلق حولها كالفراش، يحب أن يتكلم معها وهى تلتفت دائما إليه.

قال "كهنا" وهو مغمض العينين:

- إن الفيلسوف لا يغضب على أى شيء وهذا هو الوصف الخاص بالفلاسفة.

- لتسمع! الفلاسفة دائما ذوو قلب ميت، وفى أى وقت تراهم تجدهم غارقين فى أفكارهم وهم ينظرون إليك لكن لا يرونك، وتتكلم معهم فلا يسمعونك كأنهم يحلقون فى الفضاء.

ضحكوا جميعاً على كلامها، وشعر السيد "مهتا" كأنه دُفن فى الأرض.

- كان أستاذى فى الفلسفة في جامعة أكسفورد هو السيد "هسبند".

اعترض "كهنا" قائلا:

- هذا اسم نادر.

- نعم وكان أعزب ...

- السيد "مهتا" أعزب أيضاً.

- هذا المرض دائماً ما يصيب الفلاسفة.

فقال "مهتا" منتهزاً الفرصة:

- أنت أيضاً مصابة بهذا المرض.

- كنت قد خططت أن أتزوج من فيلسوف لكن هؤلاء الناس يخافون الزواج. كان السيد "هسبند" يخفى نفسه عندما يرى امرأة، وكان بين تلامذته العديد من الفتيات؛ فإذا حضرت إحداهن إلى مكتبه شعر بالخوف كأن أسدا حضر إليه، وكنا نسخر من سذاجته. ورغم أن راتبه

بالآلاف إلا أننى كنت أراه دائماً يرتدى حلّة واحدة. كانت له أخت أرملة وهى التى كانت تقوم على شؤون المنزل، كان السيد "هسبند" لا يفكر فى مأكل أو مشرب وكان يغلق باب حجرته خوفا من لقاء الناس بحيث يظل يقرأ ويكتب، وعندما كان يحل موعد تناول الطعام كانت أخته تحضر من الباب الخلفى وتغلق الكتاب حتى يعرف أن وقت الطعام قد حان، ويحدث مثل ذلك فى وقت العشاء، وكانت أخته تضىء له الحجرة. وفى أحد الأيام أغلقت أخته الكتاب وجذبته من بين يديه فحدثت مشادة عنيفة بينهما، وفى النهاية وضعت له مقعدا متحركا فى وسط الحجرة حتى يأكل عليه.

قال "راى صاحب":

– لكن السيد "مهتا" ذو أخلاق رفيعة، ومزاج جيد، وإلا كيف ينسجم معنا؟!

– أنا لست فيلسوفًا، لكن عندما أفكر يدور رأسى من الأفكار، كيف يشعر الإنسان بالسعادة وهو يفكر فى مشاكل العالم كله.

وعلى الجانب الآخر كان مدير التحرير يقص على السيدة "كامنى" زوجة "كهنا" مشاكله المادية:

– لقد علمت سيادتك أن حياة الكاتب شاقة ومليئة بالمآسى، فالناس يسمعونه لكن لا يساعدونه، ولا أمل عنده فى أن يحقق خيراً لنفسه أو لغيره. الشعب يتمنى أن يقف أمام كل العقبات ويذهب إلى السجن،

ويُضرب ويُحجز على أمواله كلها كأن هذا واجب عليه، لكن أحدا لم يفكر فيما يعتريه من مشاكل. يعتقد الناس أنه ماهر فى كل علم، ومع هذا لا يستحق أن يحيا حياة طيبة. لم تكتبى شيئا لصحيفتى فى الايام الأخيرة وإذا فعلت فسيكون هذا فرصة طيبة لى.

كانت السيدة "كامنى" محبة للشعر، لدرجة أن مدير التحرير كان يحضر للقائها بنفسه، لكن فى هذه الأيام لم تستطع أن تكتب لجريدته شيئا لأنها كانت منهمكة فى شؤون المنزل. والحقيقة فإن مدير التحرير هو الذى شجعها وجعل منها شاعرة، مع أنها لم تكن تتمتع بذكاء فطرى كبير.

– ماذا أكتب؟ لم يخطر هذا ببالى! أحيانا كنت أقول للآنسة مالتى لم لا تكتبين شيئًا؟

قال مدير التحرير دون أن يلتف:

– وقتها ثمين يا سيدة "كامنى"! الكتابة عامة تصيب القلب بالألم، والشوق، والمعرفة، ومن كان هدفه فى الحياة الثروة ورغد العيش فلماذا يكتب؟!

قالت "كامنى" تسخر من حسده:

– لو استطعت أن تشجعها أن تكتب فى جريدتك لتضاعف توزيعها، لا يوجد فى مدينة لكهنؤ صاحب ذوق لن يشترى جريدتك.

- لو كان الثراء هدفى فى الحياة لما كانت هذه حالتى اليوم، أنا أعرف كيف أصنع النقود ولو أردت لكسبت فى اليوم مئات الآلاف، لكننى لا أفكر فى ذلك. إن الخدمات الأدبية هدفى فى الحياة وستظل.

- على الأقل اكتب اسمى فى المشتركين فى جريدتك.

- أنا لن أكتب اسمك بين المشتركين، بل سأكتبه فى أسماء المشرفين.

- أنت تضع فى الإشراف زوجات الملوك والأميرات، ويمكنك بعد تملقهن أن تنتفع بهن فى جريدتك.

- أنت ملكتى وزوجة ملك الملوك، وأنا لا أرى غيرك ملكة جمال؛ لأن المعرفة والعطاء هما ملكاتى وزوجات ملوكى وأنا أكره النفاق.

قالت "كامنى" ساخرة:

- أما أنا ففى نفاقى أسلك مسلكك يا مدير التحرير.

قال مدير التحرير بلهجة المصمّم على فكرته:

- هذا ليس نفاقًا يا سيدتى.

دعاه "راى صاحب":

- لتحضر هنا قليلاً يا مدير التحرير، فالآنسة "مالتى" تريد أن تقول لك شيئا.

اختفى زهو مدير التحرير، ووقف وقد صار تمثالا للعجز والانكسار فنظرت "مالتى" إليه بشفقة وقالت:

- أنا أيضًا كنت أقول لك إن أكثر ما يخيفنى هم رؤساء التحرير، يريدون إفساد الناس فى دقيقة. ذات مرة قال لى سكرتير التحرير إنه سيكون من حسن حظى لو وضعت "اونكار ناته" متبلد الإحساس وراء القضبان.

انتفخت أوداج "اونكار ناته" وبرم شاربه بغرور؛ كان شخصًا متواضعًا لكن سماع التحدى حرك رجولته وقال بلهجة حازمة:

- أشكرك على هذا العطف، أنا مسرور أن يُذكر اسمى فى مثل هذه المجالس على أية حال. وقولى لسكرتير التحرير إن "اونكار ناته" ليس من أولئك الرجال الذين يخافون من ابن آوى تافه، ولن يتوقف قلمه إلا إذا توقفت حياته وهو عازم على أن يجتث الظلم والغبن.

حثّته الآنسة "مالتى":

- لم تتجنب الحصول على مساعدة الحكام بأسلوبك الحسن، ولو قلّلت فى نقدك من النار والسم قليلا فإننى أعدك بأن أجعل الحكومة تساعدك. لقد وجهت نظرك نحو الشعب وناشدت وتملقت وعبرت عن مشاكله لكن دون فائدة، والآن لم لا تبلغ مشاكلك للحكام وإذا لم تسر بالعربة بعد ثلاثة شهور وتدعنى فى الاحتفالات الحكومية فلتصب علىّ لعناتك؛ كما أن هؤلاء الرؤساء والوطنيين سيطوفون حول منزلك.

قال "اونكار ناته" بفخر:

- هذا ما لا أستطيع فعله يا آنستى، أنا أُعلِّى دائمًا من الأصول والنزاهة وسأظل أحافظ عليهما. إن محبى الثروات تجدينهم فى كل زقاق أما أنا فمن زقاق الأصول.

- إن هذا مكر.

- كما تشائين.

- أنت لا تحب المال!

- لا أحب أن تسيل دماء الأصول.

- كيف إذن تطبع فى صحيفتك إعلانات الأجانب؟! أنا لم أر فى أى صحيفة إعلانات للأجانب مثلما أرى فى صحيفتك. تقول إنك تُعَلِّى من قيمة الأصول، لكن من أجل مصلحتك تنشر إعلانات الأجانب، فأنت تبدِّد أموال الوطن من أجل مصلحتك، ولا يمكنك أن تثبت أن الحق فى جانبك بأسلوبك هذا.

لم يحر "اونكارناته" جوابا أمام صدق حجتها، وعندما رأى "راى صاحب" أنه عاجز عن الإجابه استعد لمساعدته:

- فى النهاية ما الذى ترمين إليه؟! أتريدينه أن يموت من كل جانب؟! كيف يطبع الصحيفة؟!

قالت الآنسة "مالتى" التى لا تعرف شيئًا عن الرحمة:

– لا يطبعها ويقوم بإغلاقها، ليس من حقك أن تطبع صحيفتك بنقود الإعلانات الأجنبية، وإذا كنت مجبرا فلتدع التظاهر بالتمسك بالأصول. أنا أريد أن أحرق هذه الصحف التى تدّعى التمسك بالأصول، وأنا أحرقها داخلى. إذا لم يتطابق قول المرء مع فعله نقول عنه أى شىء إلا أنه متمسك بالأصول.

انفرجت أسارير السيد "مهتا"، فمنذ قليل كان يعرض نفس هذه الأفكار، وتيقّن أنها امرأة ذات فكر ثاقب وليست مجرد فراشة فقط فتخلى عن هذه الفكرة وقال:

– لقد قلت أيضًا مثل هذا الكلام، فعدم تطابق القول مع الفعل هو محض افتراء وخداع. قالت "مالتى" بسرور:

– لقد اتفقنا هذه المرة من هذه الناحية، فهل يمكن أن يقال إننى الأخرى من الفلاسفة؟

كان السيد "كهنا" ينتهز فرصة للحديث، وقال:

– كل عضو فيك غارقٌ فى الفلسفة.

استهزأت "مالتى":

– حسنًا وأنت أيضًا تتحدث عن الفلسفة؟! كنت أعتقد أنك ألقيت بفلسفتك فى نهر جنجا(٢)، وإلا ما تمكنت أن تكون مديرا للبنوك والشركات.

---

(٢) هو أحد الأنهار المقدسة لدى الهنادكة، ويرمون فيه رماد أمواتهم تبركًا به.

ساند "راى صاحب" "كهنا":

- لِمَ تعتقدين أن الفلاسفة يعيشون فى فقر؟!

- نعم. فلو حقق الفيلسوف رغباته فكيف يكون فيلسوفًا.

- على هذا لا يمكن أن يكون السيد "مهتا" فيلسوفًا.

شمَّر "مهتا" عن ساعديه وقال:

- أنا لم أدع هذا الشرف يا "راى صاحب"! فأنا أعلم أن الآلات التى يعمل بها الحداد لا يمكن أن يعمل بها صانع المجوهرات؛ أتريد أن تثمر المانجو جوز الهند، أو أن يتحول الصبار إلى ببول(٣)؟ أعتقد أن الثروة تُنفق لتسهيل الحياة لتحقق هدفها، وأعتقد أن الثروة وسيلة وليست غاية، فأنا لا أعبأ بالمال مطلقًا، فقط أريد أن تتوفر الحياة النافعة.

كان "اونكارناته" شيوعيًا، فكيف يستطيع تحمل فضيلة شخص آخر؟ لذلك من الضرورى لديه أن يكون مرتب العامل ١٠٠٠ روبية شهريًا.

- لو كنت تعلم أن عملك لن ينجزه سوى هذا العامل فلا بد أن تعطيه الأجر الذى يريده، وإذا كان هناك غيره بثمن أقل فلم تتودّد إلى آخر؟

---

(٣) من الأشجار الهندية المشهورة، ولها فوائد طبية عديدة.

– لو كان الأمر فى يد العمال لما احتاجوا سوى النساء والخمر كما يحتاج إليهما الفلاسفة، لكن لتتيقن أننى لا أحسده.

– إذا كنت ترى أن المرأة ضرورية هكذا فى الحياة فلم لا تتزوج؟

قال "مهتا" دون تفكير:

– أنا أعتقد أن الحرية تؤدى إلى ارتقاء الروح، أما الزواج فإنه يحبس الروح فى قفص.

أيّده "كهنا":

– القيد وكبح جماح النفس نظريات بالية، النظرية الجديدة أن تحيا دون زواج.

أمسكت "مالتى" بضفيرتها:

– الآن على زوجة السيد "كهنا" أن تستعد للطلاق.

– لا بد أنك توافق على مشروع الطلاق.

– وربما تكون أول من يستعمله.

نظرت "كامنى" ناحية "مالتى" بغضب، وظهر على وجهها كأنها تريد أن تقول مبارك عليك السيد "كهنا" فأنا لا أبالى.

نظرت "مالتى" ناحية "مهتا" وقالت:

– ما رأيك فى هذا الأمر يا سيد "مهتا"

أصبح "مهتا" كأنه أستاذ، إذا تحدث فى أمر كأنه ينفخ فيه روح الفصاحة، فقال:

- إن الزواج معاهدة اجتماعية، ولا يحق لأحد الطرفين تركها. قبل المعاهدة أنت حر، لكن بعدها أنت مكتوف اليدين.

- إذن فأنت تعارض الطلاق؟!

- نعم.

- إذن فأين الحرية فى الحياة؟!

- الحرية لمن لا يريد الزواج.

- كل شخص يريد لروحه أن تبلغ الكمال فى الرقى، لكن قليلا من الناس يستطيع أن يقف أمام الطمع.

- أيهما تفضل: الزواج أم حياة العزوبة؟

- من الناحية الاجتماعة الزواج، أما من الناحية الشخصية العزوبة.

اقترب وقت إلقاء السهام، فمن الساعة العاشرة حتى الواحدة إلقاء السهام، ومن الواحدة إلى الثالثة تُعرض المسرحية، ثم يبدأ وقت الغداء. كان فى القصر غرف خاصة بالضيوف، اختص السيد "كهنا" وضيفته بغرفتين، وجاء أيضًا عددٌ آخر من الضيوف الذين اتجهوا إلى حجراتهم لتغيير ملابسهم، ثم جلسوا على مائدة الطعام معا فيما عدا "اونكار ناته"

مدير التحرير الذى ظل فى حجرته وحيدا لتناول الخضروات، وكانت "كامنى" تشعر بصداع فرفضت أن تتناول الطعام. لم يكن عدد الضيوف يقل عن خمسة وعشرين، كانت هناك لحوم، وكان "راى صاحب" قد جهز خمراً مخصوصة لهذه المناسبة، ولحومًا مختلفة الأنواع، وأرزا بالخضروات، ليأكل كل حسب رغبته: دجاجًا، غنمًا، ظبيانًا، سمانًا.

عندما بدأ الطعام سألت "مالتى":

– أين ذهب مدير التحرير؟ أرسل شخصاً لإحضاره.

قال "راى صاحب":

– إنه نباتى كالإله "ويشنو"(٤)، لماذا تستدعينه وتفسدين عليه دينه؟ إنه متدين للغاية.

– لو لم يكن لشىء فمن أجل أن نستمتع.

فجأة رأت أحد الأصدقاء فصاحت:

– أأنت موجود أيضًا يا سيد "خورشيد"، حسنًا سأدع لك هذا الأمر حتى أختبر لياقتك.

كان السيد "خورشيد" أبيض اللون، أسود الشارب، عيونه زرقاء، قوى الجسد، كان أصلع فى وسط رأسه، يلبس قميصًا وبنطالاً ضيقًا

---

(٤) أحد ثالوث الآلهة الهندوكية، وهو الحافظ.

ويعتمر قلنسوة. كان عضوا فى مجلس الدولة، لكن كان يغط فى النوم أكثر الوقت، لكنه ينتبه وقت التصويت ويعطى صوته للوطنيين(٥). كان صوفيا، أدى الحج مرتين، لكنه يحب معاقرة الخمر؛ وكان يقول إذا لم تكن أحكام الله تطبق فى الحياة فلم نموت من أجل الدين؟ كان رجلاً فكاهيًا ولا يبالى شيئًا. كان يعمل مقاولا فى البصرة وكان يكسب مئات الألوف، لكن سوء الحظ أوقعه فى حب امرأة أجنبية فقدم للمحاكمة، وبدلا من سجنه حُكم عليه بمغادرة البلاد خلال أربع وعشرين ساعة، وترك وراءه كل شىء ولم يأخذ سوى خمسين ألفا وغادر البلاد. كان له وكلاء فى بومباى ففكر أن يحاسبهم وما تبقى من النقود يعيش عليه، لكنهم خدعوه وأخذوا منه الخمسين ألف روبية، فاتجه يائسا إلى لكهنؤ(٦) وفى العربة التقى بعالم هندوكى خدعه هو الآخر وأخذ ساعته وخاتمه وما كان معه من نقود، فنزل لكهنؤ وهو لا يملك سوى ملابسه. كانت تربطه صداقة قديمة مع "راى صاحب"، ففتح محلا لبيع الأحذية بمساعدته هو وأصدقائه وأصبح المحل من أشهر محلات لكهنؤ. وهو يكسب فى اليوم أربعمائة أو خمسمائة روبية، وقد أحبه الناس لدرجة أنه دخل فى الانتخابات وفاز على مسلم كبير من الإقطاعيين. قال وهو يجلس فى مكانه:

– كلا. أنا لن أفسد على أحد دينه، لتقومى بنفسك بهذا العمل إن أردتِ، والمتعة فى أن تجعليه يعاقر الخمر، وهذا اختبار لحسنكِ.

---

(٥) المقصود أعضاء حزب المؤتمر، أقدم الأحزاب الهندية وأشهرها.

(٦) عاصمة إقليم اتريرديش شمال الهند.

جاءت الأصوات من كل جانب:

- نعم، نعم آنسة "مالتى"! لترينا اليوم جمالك.

صاحت "مالتى" فى "مرزا":

- أتعطينى عندها جائزة.

- سأعطيك مائة روبية.

- مائة روبية فقط، إن إفساد الدين يكلف مئات الآلاف لا مائة روبية.

- حسنا لتقولى بنفسك!

- ألف روبية لا تقل مليما.

- حسنا!

- كلا بل تحضر النقود وتضعها عند السيد "مهتا".

أخرج السيد "مرزا" على الفور مائة روبية من جيبه وأراها للناس، ثم وقف وقال:

- إخوانى! إن كرامة الرجال تدعونا، وإذا لم نعطِ الآنسة "مالتى" ما تريد فلن نتمكن من أن نريها وجوهنا فى أى مكان، ولو كنت أملك النقود لفديت الآنسة "مالتى" على أدائها بمائة ألف روبية؛ وكان فى الزمن القديم شاعر قد فدى حبيبته بمدينتى بخارى وسمرقند على كل خالٍ فى وجهها.

واليوم هو اختبار لبطولتنا، واختبار لعشاق الجمال. من يحمل شيئا من النقود ليعطينا كالأبطال. وأنا أقسم بالعلم، وبأداء المعشوق وأحلف بكرماتى ألا ترجعوا القهقرى! النقود ستُنْفق لكن الشهرة تبقى إلى أبد الأبدين، وهذا رخيص لأنه يساوى مئات الآلاف بل أكثر. لننظر كيف ستسحر ملكة جمال لكهنؤ بحسنها أحد الزهاد.

بعد أن أنهى الحديث فتش جميع الجيوب، وبدأ بالسيد "كهنا" وأخرج منه خمسة روبيات فقط. فقال "مرزا" وهو مهموم:

– آه يا سيد "كهنا"! اسم كبير وفعل صغير، أنت مدير للعديد من الشركات وتكسب الآلاف ولا يوجد فى جيبيك سوى خمس روبيات، لا حول ولا قوة إلا بالله! أين السيد "مهتا"؟ لتذهب لزوجة "كهنا" وتأخذ منها على الأقل مائة روبية.

ضحك "كهنا" بخجل وقال:

– أظن أنه لا يوجد معها ولا فلس واحد، من يعرف أنكم ستفتشون الجيوب اليوم؟

– حسنا، لتصمت. سنجرب حظنا.

– حسنا إذًا سأذهب وأسألها.

– كلا. لن تتحرك من هنا. يا سيد "مهتا" أنت من الفلاسفة وماهرٌ فى علم النفس، فلا تترك الناس يضحكون عليك.

إذا شرب السيد "مهتا" الخمر سكر؛ فتطير فلسفته مع السكر، وتستيقظ نزواته. فأسرع إلى زوجة "كهنا"، وحضر بعد خمسة دقائق وهو مُقطب الجبين.

سأله "مرزا":

– لم عدت خالى الوفاض؟!

ضحك "راى صاحب":

– فئران القاضى أيضا مهرة(٧)!

قال "مرزا":

– والله إنك لسعيد الحظ يا سيد "كهنا"!

ضحك "مهتا" بصوت مرتفع، وأخرج من جيبه خمسائة روبية من فئة المائة، أسرع "مرزا" وعانقه، وارتفعت الأصوات من كل مكان:

– هذا هو الكمال! أنت أستاذ! إنك فيلسوف حقيقى.

مسح "مرزا" النقود بعيونه وقال:

– يا سيد "مهتا" من اليوم صرت من مريديك، كيف سحرتها؟

قال "مهتا" وقد احمرت عيناه فخرا:

– ما فعلت شيئا! لم يكن عملا ذا أهمية، ذهبت إليها وطلبت منها أن تسمح لى بالدخول؟ أجابت فلتتفضل يا سيد "مهتا"، وعندما دخلت

---

(٧) يشبه إلى حد ما المثل العربي: هذا الشبل من ذاك الأسد.

قلت لها: الناس هناك يلعبون الورق، وقد خسرت الآنسة "مالتي" خمسمائة روبية وهي تبيع خاتمها الذي يساوي ألف روبية وقد رأيته بنفسك، وإذا كان معك خمسمائة روبية، إذًا لاشتريت ما يساوي ألف روبية بخمسمائة فقط، وهذه فرصة لا تعوض لأن الآنسة "مالتي" إذا لم تدفع النقود ستخرج من اللعبة، فمن سيعطيها؟ ربما لهذا أخرجت خاتمها لأن أحدا ليس معه خمسمائة روبية، تبسّمت بعد أن سمعت هذا وأخرجت النقود من حقيبتها بسرعة وقالت: أنا لا أخرج من المنزل إلا ومعي نقود فلا أعلم متى أحتاجها.

قال السيد "كهنا" بخجل:

– إذا كان هذا هو حال أساتذة الجامعة، فليكن الله في عون الجامعة.

ألقى خورشيد الملح على الجرح:

– حسنا إنه مبلغ غير كبير حتى يتجمد قلبك من أجله؟ والله يعلم أنني لا أكذب فأنت تكسب هذا المبلغ في يوم واحد. فلتتصور أنك مرضت اليوم والنقود قد ذهبت إلى يد الآنسة "مالتي" التي تملك دواء قلبك.

لكزته "مالتي":

– انظر يا "مرزا"، في الحظيرة لا توجد نقود(٨).

---

(٨) يشبه إلى حد ما المثل العربي: الحدأة لا تلقي بالكتاكيت.

تملقها "مرزا" قائلاً:

- سأشد أذنه يا آنسة.

ثم فتش "تنخا" وأخرج منه عشر روبيات بصعوبة، وأخرج من جيب "مهتا" نصف روبية، ودفع أكثر الناس روبية أو روبيتين دون إجبار. عندما عدوا النقود وجدوها تنقص ثلاثمائة روبية، فقام "راى صاحب" بإكمال الناقص بسعة صدر.

تناول مدير التحرير الفواكه والخضروات فقط، وكان يتثاءب عندما ذهب إليه "راى صاحب" وقال:

- الآنسة "مالتى" تريدك.

قال بسرور:

- يالحسن حظى أن تذكرنى الآنسة "مالتى".

ووصل إلى البهو مع "راى صاحب".

كان الخدم قد نظفوا الطاولات، وتقدمت "مالتى" تستقبله، فنظر مدير التحرير بانكسار وقال:

- تفضلى لا تتعبى نفسكِ، فأنا لست رجلا عظيما.

قالت "مالتى" بلهجة محببة:

- أتعتقد أن فى ذلك مشقة لى؟ كلا، أنا أعتقد أننى أزيد من مكانتى بحضورى إليك، أنت لا تعرف قيمة نفسك لكن هذه هى مكانتك، وكل الناس المجتمعين هنا يعرفون خدماتك الأدبية والقومية، وما سجلته

فى أعمالك فى هذا المجال ربما لم يقدره الناس حتى الآن، لكن اليوم الذى سيحدث فيه ليس ببعيد، وعندها سيطلقون اسمك على شوارع المدينة، وتفتتح النوادى باسمك وتعلق صورتك فى مقر البلدية. لقد جعلت أعمالك العظيمة الناس يستفيقون، لتسعد روحك فالناس بدأوا يحذون حذوك، وهم مستعدون للتعاون معك فى مشروع إصلاح القرى، وهم يريدون أن يقام هذا العمل ونحن متحدون عن طريق إقامة جمعية لمشروع إصلاح القرى وتكون أنت رئيسها.

كانت هذه المرة الأولى التى يكرم فيها "اونكار ناته" بين علية القوم، أحيانا يخطب فى الحفلات العامة، وكان سكرتيرا للعديد من الجمعيات، ومساعدا للسكرتير كذلك، ولكن أحدا من المثقفين لم يلتفت إليه، وهو لم يجد فرصة للعمل معهم ولهذا كانوا يأخذون عليه الكسل والأنانية، وكان ينتقدهم فى جريدته، كان حاد القلم ذا كلمات قاسية، وكان يقوم بالنقد بدلا من كتابة كلام واضح. ولهذا يعتقد الناس أنه يخدعهم وهؤلاء الناس هم اليوم الذين يمنحون العزة! أين رؤساء صحف سورج، وآزاد هند، وستار وهنتر اليوم؟ ليحضروا إلى هنا وينظروا ويحبسوا أنفاسهم! اليوم بالتأكيد هو رحمة الإله، فهو لا يضيع أجر من أحسن عملا! هكذا يقول الحكماء. شعر بالزّهو فى نفسه، وقال شاكرا:

– يا آنسة! أنت تجريننى فى الأشواك، إن خدمة الناس واجب علىّ، وهذا الشرف الذى قلدتنى إياه كان هدف حياتى الذى أفنيت عمرى فى سبيله. لكن ألتمس أن تعطى الرئاسة لشخص آخر ذى مكانة، وأنا لا أؤمن بالمناصب، أنا خادم وأريد أن أظل فى الخدمة.

لم تقبل الآنسة "مالتى" رفضه فقالت: "لا بد أن يكون السيد "بندت" هو الرئيس، فلا يوجد فى المدينة من له مثل تأثيره. فى قلمه سحر، فى كلامه سحر، وذو شخصية ساحرة، كيف يقول إنه لا تأثير له؟! لقد ولى الزمن الذى كانت الثروة فيه هى المؤثرة، اليوم الذكاء هو صاحب التأثير. لا بد أن يقبل رئيس التحرير بالرئاسة، ستكون الآنسة "مالتى" السكرتيرة، وقد جمعنا مائة روبية وبقيت المدينة والولاية، إن جمع أربعمائة أو خمسمائة ألف شيء بسيط.

بدأت النشوة تؤثر فى "اونكار ناته"، كان يشعر بخوف فى قلبه. تغير الأمر وقال بجدية:

– لكن لتعلمى يا آنسة "مالتى" أن هذه مسئولية كبيرة، ولا بد أن تعطيها وقتا كثيرا، وأؤكد لك أنه من ناحيتى ستجديننى أول من يحضر فى المؤتمرات.

مدحه "مرزا":

– لا يمكن حتى لأكبر أعدائك أن يصفك بهذا، فأنت لا تتخلّف عن أداء أعمالك.

رأت الآنسة "مالتى" أن الشراب قد بدأ يؤثر شيئا فشيئا فقالت بوقار:

– إذا لم نكن نعى أهمية هذا العمل ما انعقد هذا المجلس، وما كنت رئيسه، كان يمكن لنا أن نختار رئيسا من الإقطاعيين ونحصل منه على

نقود ونحقق هدفنا من وراء هذه الخدمة، لكن هذا ليس ما نسعى إليه؛ إن هدفنا الوحيد هو الخدمة العامة وأكبر وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى صحيفتك. لقد اتفقنا على توزيعها فى جميع المدن والقرى، حتى يصل عدد النسخ الموزعة إلى عشرين ألف نسخة، وجميع بلدات الولاية والمحافظات ورؤساء المراكز أصدقاء لنا، وعدد منهم يشرفنا هنا، فلو أخذ كل واحد خمسمائة نسخة لأصبحت مائتين وخمسين ألف نسخة، وسيعرض السيد "راجا" والسيد "مرزا" على مجلس الدولة أن تشترى كل قرية نسخة واحدة من صحيفة بجلى على حساب الحكومة، أو أن يقرروا لها مساعدة سنوية وأنا متأكدة أنهم سيوافقون على هذا الاقتراح.

قال "اونكارناته" متمايلا من النشوة:

– لنرسل وفدا إلى المحافظة.

قال السيد "خورشيد":

– بالتأكيد، بالتأكيد.

– سنقول إنه سيكون من سوء سمعة الحكومة المثقفة أن لا تمنح لنفسها العزة بمساعدة صحيفة بجلى، فهى الصحيفة الوحيدة التى ترفع صوت إصلاح القرى.

قال "خورشيد":

– طبعا، طبعا.

– هذا ليس غرورا منى، فهذا ليس وقت الغرور، لكن أرى أن ما فعلته صحيفة بجلى لإصلاح القرى لم يفعله غيرها.

صحّح السيد "مهتا":

- هذه ليست خدمة بل عبادة.

- أنا أشكر السيد "مهتا"، فبالطبع هذا لون من العبادات الشاقة. إن خدمات صحيفة بجلى ليست قاصرة على الولاية وحدها بل على مستوى البلاد كلها.

قال "خورشيد":

- طبعا، طبعا.

وقدمت الآنسة "مالتى" جرعة أخرى:

- لقد اتفقت هذه الجمعية أيضا بأن تدخلك فى الانتخابات عندما يخلو المكان، كل ما ينبغي عليك فعله هو أن تقبل بأن تكون رئيسا للجمعية، أما باقى العمل فسنقوم به نحن ولا علاقة لك بالنقود ولا المتاعب.

لمعت عينا "اونكاناته" وقال بفخر منكسر:

- أنا خادمكم وما تريده منى سأقوم به.

- نحن نرجو منك الشىء نفسه، لقد تعبنا من عبادة الأصنام ولم يعد علينا منها فائدة. والآن وجدنا المرشد والقائد الصادق فيك ونحن اليوم نترك الغرور والمكر بفرح وعلى قلب رجل واحد؛ لن يكون بيننا عظيم، ولا منبوذ، ولا هندوكي، ولا مسلم، كلنا سواسية من أم واحدة ونحن فى حضن واحد ونأكل من صحن واحد، وكلنا إخوان ومن يؤمن بالانفصال

والتعصب فليس له مكان في جمعيتنا. إن الجمعية التي يرأسها السيد "اونكارناته" ذو الأفق الواسع والقلب الكبير لا يوجد فيها فرق بين كبير وصغير ولا في الأكل والشرب، والذين لا يؤمنون بالاتحاد والقومية فليتفضلوا من هذا المجلس.

تظاهر "راى صاحب" بأنه يخالفها، فقال:

– أنا أرى أنه ليس معنى الاتحاد أن يدع الشخص معتقداته فى الأكل والشرب، فأنا لا أشرب الخمر فهل يجب عليّ ترك هذا المجلس؟!

قالت "مالتى" دون خجل:

– بلا شك! فلتغادر المكان، لا يمكن أن تتمتع بامتيازات مخصوصة.

قال "مهتا" يمتحنه:

– أنا أيضا أشك أن رئيسنا نفسه لا يؤمن بالاتحاد فى الطعام والشراب.

اصفر وجه "اونكارناته"، لماذا تكلم هذا اللئيم دون مناسبة؟! هذا اللئيم ينبش القبور، وستغيب السعادة فى الفضاء كالحلم.

نظرت الآنسة "مالتى" إليه بعيون متسائلة، وقالت بلهجة محايدة:

– إن شكك دون أساس يا سيد "مهتا"! هل تظن أن مثل هذا الحامى للوحدة القومية، ذى القلب الواسع، والطبيعة الشاعرية لا يؤمن بهذه الأشياء؟ إن هذا الشك يذل وطنيته.

لمع وجه "اونكارناته" وسعد واطمأن.

قالت "مالتى" بنفس اللهجة:

- لو تكلمنا أكثر لأهنّا رجولته، ومن هو الشخص المهذب المثقف الذى يرفض الشراب من يد امرأة؟! إن هذا إهانة للنساء، الرجال متشوقون بأن تلقى فى قلوبهم سهام نظرات النساء، وحتى ملك الملوك يتمنى الموت على حركات المرأة. أحضروا زجاجة وكأسا ودوروا بها، وأى شك فى هذا المكان المبارك سيعتبر غدرا لا أقل من هذا. فى البداية نشرب لصحة رئيسنا.

كانت الخمر والصودا والثلج مهيأة، وقدّمت الآنسة "مالتى" بيدها إلى "اونكارناته" كأسا مملوءة بالسم الأحمر، ونظرت إليه بعيون ساحرة حتى زال عنه إحساسه بالعظمة وقال لنفسه: "السلوك يتبع البيئة؛ إذا كنت اليوم مفلسا ورأيت عربة تثير الغبار أثناء سيرها فأنت تفكر فى أن تلقيها بالحجارة لتكسرها، لكن ألا يتمنى قلبك مثلها؟ إن البيئة هى كل شىء. لو لم يكن الآباء والأجداد قد شربوا الخمر فهذا لأنها لم تتيسر لهم، فقد كان حظهم منقوشا على الحجر فمن أين يحصلون على الخمر؟ وإلى أين يذهبون وهم لا يركبون القطار ويشربون الماء من أنبوبة المياه اليدوية، ويعتقدون أن تعلم الإنجليزية إثم. إن الزمن يتغير ومن لا يسايره سيتركه وراءه، ولو قدمت له هذه اليد الجميلة السم فيجب عليه أن يتقبله، وملك الملوك نفسه يتمنى أن يحظى بهذه السعادة التى تقف أمامه اليوم فهل يردها؟!" أخذ كأسا وأخفض رأسه شاكرا، وشربها فى جرعة واحدة. نظر إلى الناس بغرور كأنه يقول: "هل تأكدتم الآن؟ أتعتقدون أننى عالم هندوكى غبى؟ الآن لا يمكن أن تقولوا عنى إننى مخادع أو كاذب".

علا صوت الضجيج في الردهة كأن الضحك قد خرج من صندوق مغلق:

– ما شاء الله يا آنسة! يالمهارتك يالبراعتك! لقد كسّرت قانون الملح، وكسّرت قلعة الدين، وكسّرت قلعة الصوفى!

كان الشراب قد نزل فى حلق "اونكارناته" فمنحه الجرأة للحديث، ابتسم وقال:

– لقد سلّمت نفسي وديني للآنسة "مالتى" الرقيقة، وأنا على يقين أنها ستحافظ عليهما وأنا أتصدق عند قدميها بألف دين.

دوّى الضحك فى القاعة.

كان وجه رئيس التحرير متوردا، وعيونه منخفضة، وبعد أن ملأ الكأس الثانية قال:

– هذه الكأس فى صحة الآنسة "مالتى"، لتشربوا وتدعوا لها.

شرب الناس كؤوسهم حتى فرغت.

فى ذلك الوقت وضع "مرزا خورشيد" باقة من الأزهار حول عنق مدير التحرير وقال:

– أيها الناس! لقد نظمت قصيدة فى مدح الرئيس، لتسمحوا لى أن أنشدها على أسماعكم.

تعالت الأصوات من الأرجاء الأربعة:

– نعم، نعم! من الضرورى أن تُسمعنا.

كان "اونكارناته "يدخن البانجو ورأسه معتاد على هذا النوع من السُكر، لكن هذه هى المرة الأولى التى يشرب فيها الخمر. إن نشوة البانجو تأتى كالنوم شيئا فشيئا حتى يغطى الدماغ كالسحاب، لكن يظل واعيا لما يقول ويفعل وتكون خطبته بليغة وخياله متقدا. أما نشوة الشرّاب فتهجم كالأسد، وتغلبه؛ يريد أن يقول شيئا فيتفوه بشىء آخر، حتى يعجز عن معرفة ما يقوله، يقول شيئا ويفعل شيئا آخر. إنها ليست قصصا رومانسية عجيبة فى الحلم، بل إنه وقع فى الشبك وهو يقظ، إنه عاقل قد ذهب عقله بالنشوة. والإله أعلم كيف يدخل هذا الكلام فى رأسه، ورأى أن إنشاد قصيدة أمر بالغ السوء، فضرب بيده على الطاولة وقال:

– كلا، كلا! هنا لا تنشد القصيدة، أنا الرئيس! الأمر أمرى. لننه هذا المجلس وأستطيع أن أخرج الجميع ولا يقدر أحد أن يمنعنى، أنا الرئيس! ولا رئيس غيرى.

ضمّ "مرزا" يديه وقال:

– لقد مدحتك فى هذه القصيدة.

احمر رئيس التحرير، وكانت عيناه تنظر بلا حياء:

– لم مدحتنى؟! لماذا؟ تكلم لماذا مدحتنى؟! أنا لست خادما لأحد، ولا أحد يطعمنى. أنا مدير التحرير، أنا مدير تحرير صحيفة بجلى، أنا أمدح الجميع فيها. يا آنسة أنا لا أمدحك فيها، أنا لست من العظماء، أنا خادم للجميع، وأنا تراب تحت قدميك، إن الآنسة "مالتى" هى كالإله لچهمى والإله سرسوتى والإله رادها.

قال هذا وركع عند قدمي "مالتي"، وسقط على وجهه. ساعده "مرزا" وأبعد الكرسي ومدده على الأرض، واقترب من أذنيه وقال:

- الموت حق! لو قلت لي لشيعت جنازتك.

وقال "راي صاحب":

- عندما يفيق سيغضب من الجميع، وسيسبهم الواحد تلو الآخر في صحيفته وستتذكرون هذا دائما. إنه شرير لا يرحم أحدا ولا مثيل له في مثل هذا المجال. كيف أصبح هذا الحمار كاتبا جيدا! إنه سر من الأسرار.

رفع بعض الرجال رئيس التحرير وأخذوه ومددوه في الغرفة. بدأت لعبة رمي السهام في الخيمة، وجاء العديد من الناس ليدعوهم لحضور الحفل، وحضر رجال الحكم إلى الحفل أيضا، وكانوا يستعدون للذهاب لاستقبالهم. فجأة ظهر أحد الأفغان، أبيض اللون، كث الشارب، طويل القامة، عريض الصدر وفي عيونه شجاعة متهورة، يرتدي قميصا واسعا طويلا، وسروالا وصديرية تحتوي على شغل يدوي وعمامة على رأسه وتعلوها ريشة. كان في يده حقيبة جلدية، وعلى كتفه بندقية وسيف في حزام الوسط، لا نعرف من أين دخل وقال وهو يزأر:

- لن يخرج أحد من هنا، لقد سرق أحد أصدقائنا وصاحب هذا المكان هو الذي سرقه. لا بد أن يعيد ماله حتى آخر قرش، أين صاحب هذا المكان لتستدعوه!

حضر "راى صاحب" أمامه وقال وهو غاضب:

– من الذى سَرق؟! من الذى نَهب؟! هذا عملك أنت، إن أحدا هنا لا يسرق. قل لى بوضوح ما هى القصة؟

فتح الأفغانى عينه، وبعد أن ضرب على الأرض بكعب بندقيته قال:

– أنت تسألنى أنا عن النهب والسرقة!؟ أنت يا من تسرق وتنهب، أنا صاحب قصر فى هذه المنطقة ويوجد فى قصرى خمسة وعشرون من الشباب، وكان رجالنا يحصلون ألف روبية فقمت أنت بسرقتها، ثم تسأل من السارق، ومن الناهب؟! سوف أقول لك ما هى السرقة؟ سيحضر خمسة وعشرون شابا من شبابنا فينهبون قريتك، ولن يقدر أحد على ردهم. لن يقدر أحد!

عندما رأى "كهنا" غضب الأفغانى فكر أن ينصرف فى الخفاء، فزجره:

– إلى أين أنت ذاهب؟! لا يمكن لأحد أن يبرح مكانه وإلا قتلت الجميع. والآن سأضرب النار وأنت لن تستطيع الرد علىّ، أنا لا أخاف الشرطة، الشرطة نفسها تهرب عندما ترانى. لنا مجلس خاص، ويمكن أن نذهب إلى الوالى بعد أن أكتب على الرسالة اسمى. لا يمكن لأحد أن يخرج من هنا، لقد سرقتم ألف روبية منّا، إذا لم ترد لى نقودى فلن أدع أحدا حيا، أنتم تسرقون أموال الناس ثم تشربون الخمر مع المعشوقة.

حاولت الآنسة "مالتى" أن تخرج خُفية، فوقف أمامها كالصقر وقال:

- اجعليه يعطينى المال وإلا سأخطفك، وأقيم الحفل فى قصرى. أنا عاشق لجمالك، أعطنى ألف روبية أو ائت معى عوضا عنها. لن أدعك، لقد وقعت فى حبك، إن قلبي يتمزّق. لدى خمسة وعشرون شابا فى هذا المكان، ويعمل فى هذه المنطقة خمسمائة من شبابنا، أنا سيد القبيلة، وفى قبيلتى عشرة آلاف جندى يمكن أن نحارب بهم أمريكا، بل إن الحكومة الإنجليزية تعطينى سنويا عشرين ألف روبية. إذا لم ترد لى نقودى فأنهب القرية كلها، وأخطف حبيبتك. إننى أشعر باللّذة فى سفك الدماء.

ملأ الخوف المجلس، ونسيت "مالتى" تغريدها، وكانت ساقا "كهنا" ترتعشان من الخوف؛ كان يعيش فى بيت من طابقين ويسكن فى الدور العلوى خوفا من السرقة، والصعود على السلم كان صعبا كأنه يصعد إلى الإعدام، وحتى فى الصيف ينام فى الحجرة من الخوف. أما "راى صاحب" فكان يفتخر على قبيلته چهترى، وسيكون شيئا مضحكا أن يخاف من أفغانى يعيش فى قريته، لكن كان معه بندقية فماذا يفعل؟! لو قام بأى عمل سيطلق النار على الفور، إنه بلا عقل لكنه ماهر فى التصويب. لو لم تكن فى يده بندقية لاستطاع "راى صاحب" عندها مواجهته. المشكلة أن أحدا لن يغادر المكان وإلا لحشد القرية كلها فى لحظة ولقتلوا الأفغانى وأصحابه.

في النهاية ضبط نفسه، وقال دون أن يبالي بحياته:

– لقد قلت لك نحن لسنا سارقين، أنا عضو المجلس عن المنطقة، والآنسه طبيبة مشهورة في لكهنؤ، وكل المجتمعين هم عظماء القوم وأشرافهم. نحن لا نعلم شيئا عن سرقة نقود رجلك، فلتعمل محضرا في قسم الشرطة.

ضرب الخان الأرض بقدمه، وغيّر اتجاهه وأخذ البندقية من على كتفه وأمسكها بيده:

– لا تتحدث بالهراء، إن عضو المجلس هذا أضع مثله تحت قدمي وأسحقه بهما، (حرك قدمه على الأرض) يدي قوية، وقلبي شجاع وأنا لا أخاف أحدا سوى الله. إذا لم ترد لي نقودي (وأشار ناحية "راي صاحب") فسوف أقتلك.

عندما رأى "راي صاحب" البندقية مصوبة إليه وضع رأسه بمحاذاة الطاولة: (إنها مصيبة غريبة! إن الشيطان يقول دون دليل إننا نهبنا أمواله، وهو لا يسمع ولا يفهم ولا يدع أحدا يغادر المكان. والخدم والشرطة مشغولة بمشاهدة رمي السهام، وخدام الإقطاعيين دائما كسالى، ويتهربون من العمل وإذا لم تستدعه عشرات المرات فلن يرد عليك. إنهم الآن مشغولون في عمل ديني، ليس فقط مشاهدة رمي السهام لكن كانت مسرحية عن الإله. لو حضر أحدهم هنا فستعرف الشرطة، وفي لحظة واحدة ستذهب شجاعة الخان، وسينتزعون شعر لحيته واحدة تلو الأخرى. إنه غاضب للغاية وهو مثل منفذ حكم الإعدام، لا يحزنه الموت ولا تفرحه الحياة.

قال "مرزا" بالإنجليزية:

- ماذا سنفعل الآن؟!

ونظر السيد "مرزا" بحيرة وعقل لا يعمل:

- لقد نسيت المسدس فى المنزل وإلا لأذقته.

قال "كهنا" وقد بدا عليه البكاء:

- لتعطه النقود وتبعد هذه المصيبة.

كان وجه "مالتى" محمرا، وقالت:

- ماذا سيحدث؟ إنه يتعامل معى بلا مروءة وأنتم تكتفون بالمشاهدة، أحد الأفغان يحقّر من شأنى وأنا بين عشرين رجلا لا يحركون ساكنا. أنتم قوم لا تجرى فى عروقكم الدماء الحارة، أنت تحب نفسك؟ لم لا يخرج أحدكم مستغيثا؟ لم لا يمسكه واحد منكم ويخطف منه البندقية؟ وإذا كان سيطلق النار فليطلقها، سيموت واحد أو اثنان؟ فليكن.

- لو كنت يا آنسة تعتقدين أن الموت سهل فالناس لا يعتقدون ذلك، إن أى شخص سيحاول الخروج سيطلق الأفغانى عندها خمس أو عشر طلقات فى ثورة وغضب وسيموت الجميع؛ قد يُحكم عليه بالإعدام وقد لا يحكم لأنه سيد القبيلة، والحكومة ستقيم اعتبارا لهذا، وسيجبرهم علية القوم، من سيقيم العدل أمام السياسة؟! بل سندخل فى دهاليز المحاكم، وقد يزيدون فى عدد رجال الشرطة فى هذه المنطقة لا شك فى هذا.

لقد كنا نضحك ونلهو، وكنا سنشاهد المسرحية اللطيفة ولولا دخول هذا الشيطان لكنا فى حفل رمى السهام، وأنا أعتقد أنه لا يقبل إلا بقتل واحد أو اثنين على الأقل.

زجر "كهنا" "مالتى":

– يا آنسة، أنت تزجرين كأن حماية النفس إثم؟! كل من له نفس يحبها، وأنا لا أستحيى من حب نفسى. وقد تعتقدين أن حياتى رخيصة، إننى أتألم من أجل ألف روبية فقط، وأنت تملكينها وقد حصلت عليها بالمجان فلم لا تعطينها له ليخلى سبيلنا؟! أنت التى تهينين نفسك بيدك فلم تلومينا؟!

غضب "راى صاحب" وقال:

– لو مسّ الآنسة بيده فسأحاربه حتى الموت، إنه أيضا بشر.

حرّك السيد "مرزا" رأسه بشك وقال:

– يا "راى صاحب"! أنت تجهل طبيعته، لو أطلق البندقية فلن يترك أحدا حيا، فهو لا يخطئ فى التصويب.

كان السيد "تنخا" قد حضر من أجل الانتخابات، وكان يعتقد أنه سيأخذ خمسة أو عشرة آلاف روبية للانتخابات ثم يعود إلى منزله، لكنه أوقع نفسه فى العذاب وقال:

– إن أسهل طريقة هى التى قالها السيد "كهنا"، إن الألف روبية موجودة فلم تفكرون يمينا وشمالا؟!

نظرت الآنسة "مالتى" باحتقار ناحية "تنخا" وقالت:

– إنكم جبناء! أنا لا أفهم هذا؟

– وأنا أيضا لم أكن أعلم أنك تحبين المال لهذه الدرجة وهو مالٌ مجاني أيضا؟!

– إذا كنتم تستطيعون تحمل رؤية معاملتى باحتقار، فيمكن على هذا أن تتحملوا معاملة زوجاتكم باحتقار؟!

– وأنت أيضا يمكنك التضحية بزوجك من أجل المال؟!

كان الخان يستمع إلى حوارهم الطويل فغضب، وقال زائرا:

– الآن لا بد أن أفعل شيئا، أنا أقف منذ فترة طويلة وأنتم لا تعطوننى ردا (وأخذ الصفارة من جيبه، وقال:) سأعطيكم دقيقة مهلة، وإذا لم تعطينى النقود فسأصفر فيحضر خمسة وعشرون من شبابنا، ثم قال – وهو ينظر بحب إلى الآنسة "مالتى" – : ستذهبين معى يا حبيبتى! فداك نفسى، وسأقدم حياتى تحت قدميك، كلهم يدعى حبك، لكن جميعهم غير صادق! سأريكِ كيف يكون العاشق الحقيقى، سأضع الخنجر فى صدرى بإشارة منكِ.

قال "مرزا" بصوت متلعثم:

– يا آنسة، لتعطى هذا المؤذى النقود بحق الله.

وقال السيد "كهنا" بإلحاح:

– لترحمينا يا آنسة "مالتى".

رفع "راى صاحب" صدره وقال:

– بالطبع لا! ليحدث اليوم ما يحدث، إما أن نموت أو نعلم هؤلاء الظلمة درسا.

زجر السيد "تنخا" "راى صاحب":

– إن دخول عرين الأسد ليس شجاعة، بل أعتقد أنه حماقة!

أما الآنسة "مالتى" فكانت تفكر في شيء آخر: كانت مطمئنة من عيون الخان المليئة بالحب، بل إنها كانت مسرورة من هذه المسرحية كأنها تريد أن تتلذذ بالعشق الوحشى بين هؤلاء الرجال. لقد عرفت الحب المهذب والضعيف، اليوم كان قلبها مضطربا لرؤية العشق الجنونى للمتوحشين؛ كأنها بعد سماع الموسيقى اللطيفة تجرى لمشاهدة الحرب بين الأفيال المجنونة.

جاءت ووقفت أمام الخان وقالت بلا خوف:

– لن تأخذ النقود.

مدّ الخان يديه وقال:

– سأنهبكم!

– لا يمكن أن تأخذنى وأنا بين هؤلاء الرجال.

– أستطيع أن آخذك من بين آلاف الرجال.

– ستموت لو فعلت هذا!

– أنا أتحمل أن يقطع جسدى من أجل حبيبتى.

أمسك الآنسة "مالتى" بيديه وجذبها ناحيته، وفى هذه اللحظة دخل "هورى" إلى الحجرة؛ كان بائعا للزهور لدى الملكة "جنك"، وكان أهل القريه يضحكون على تمثيله. كان يفكر لم لم يحضر الإقطاعى حتى الآن حتى يريه أن القرويين أذكياء فى هذا العمل؟! وليرى أصدقاءه وأحباءه أيضا، كيف سيستدعى الإقطاعى؟! كان يبحث عن فرصة، وعندما انتهى ووجد الفرصة أسرع اليه، لكن عندما رأى هذا المنظر تعجب؛ كان الجميع صامتين ومرتعشين. وعرف كل شىء عندما نظر إلى الخان بعيون مرتعشة. فى ذلك الوقت صرخ "راى صاحب":

- اجرِ يا "هورى" واستدع الشرطة، اركض بسرعة.

تخلّف "هورى" عن الذهاب، وجاء الخان أمامه ورفع البندقية وزجره قائلا:

- يا خنزير! سأطلق عليك النار!

كان "هورى" قرويا جاهلا، تخرج روحه عندما يرى العمامة الحمراء، لكن سيهاجم الفيل المجنون بالعصا. لم يكن جبانا، ويعرف كيف يقتل ويُقتل، لكن لم يكن يستطيع فعل شىء أمام الشرطة، فمن يمشى وهو مربوط بالحبل؟! ومن أين سيحضر نقود الرشوة؟! ولمن يترك أطفاله؟! لكن إذا طلب الإقطاعى أن يهاجم فَلِمَ يخاف؟! فى هذا الوقت يمكن أن يلقى بنفسه فى فم الموت!

أمسك بوسط الخان بسرعة وضربه بقدمه ضربة ألقت به على الأرض، فأخذ يشتم بلغة البشتو. جثم "هورى" على صدره بسرعة، وشدّه من لحيته بقوة فخرجت اللحية كلها فى يده، وعلى الفور رمى الخان بعمامته وقام بقوة وفجأة صاحوا:

- نعم، إن هذا هو السيد "مهتا"!

حاصر الناس السيد "مهتا" من الأطراف الأربعة: بعضهم يعانقه، وبعضهم يربت على ظهره. وقف السيد "مهتا" صامتا دون أن يبتسم أو يغتر ولم ينبس ببنت شفة، وقالت "مالتى" بلهجة متصنّعة بالغضب:

- من أين تعلمت هذه المسرحية؟! إن قلبى مازال يدق خوفا حتى الآن.

ابتسم "مهتا" وقال:

- لقد كان هذا امتحانا للرجولة، فلتسامحينى لو كنت قد أخطأت فى حقكِ.

الفصل السابع

عندما انتهت هذه المسرحية، انتهى رمى السهام فى الخيمة أيضا، وكانوا يستعدون للمسرحية الكوميدية الاجتماعية؛ إلا أن الناس لم تكن معجبة بها بشكل خاص، ذهب "مهتا" فقط لمشاهدتها، وجلس حتى النهاية وهو مستمتعٌ بها، وكان يصفق أحيانا "أعد، أعد" وهكذا يشجع الممثلين. ذكر "راى صاحب" فى مقدمة المسرحية: أنها عن قروى وإقطاعى يذهبان دائما للمحكمة، كانت المسحة فكاهية لكن مليئة بالآلام والهموم، والممثل دائما فى كل حوار يلجأ إلى نكات قانونية، فكان يقوم بمحاكمة زوجته لأنها لم تعد الطعام بسرعة، ثم يتحدث عن براعة المحامين والشهود من القرويين، والتلاعب بالقانون، وإعداد الشهود بسرعة، لكن عندما يحضرون إلى المحكمة يناورون الموكلين، ويطلبون ما يريدون ويسخرون من الناس. كان الناس يضحكون كثيرا من رؤية هذه المشاهد، وكان أفضل مشهد هو الذى يقوم فيه المحامى بتلقين الشهود الشهادة، فينسون فى كل مرة فيزجرهم، ثم يفهمهم بلهجة قروية، وفى النهاية يغيرون شهادتهم فى المحكمة. كان هذا المشهد لطيفا لدرجة أفرحت السيد "مهتا" كثيرا، وعندما انتهت المسرحية، عانق الممثل وأعلن أنه سيمنح جميع الممثلين أوسمة،

وتأكدت فى قلبه القناعة براى صاحب. كان "راى صاحب" يراقب المسرحية من وراء الستار، فأسرع السيد "مهتا" إليه وعانقه، وقال له وهو فى حالة من الوجد:

- أنت صاحب نظر ثاقب، لم أكن أظن ذلك!

كان برنامج اليوم التالى معدا للصيد، حيث يُجهز الطعام على ضفة النهر، والاغتسال، والسباحة، ويعودون فى الليل وهكذا يستمتعون بلطف حياة الريف. بقى من الضيوف المقربين لراى صاحب فقط؛ كان رأس السيدة "كهنا" يؤلمها فلم تتمكن من مرافقتهم، أما مدير التحرير فكان يشعر بالغيظ من هذه الجماعة وكان يفكر فى سلسلة من المقالات ضد هؤلاء الناس لأنهم جميعا بلطجية، وينفقون نقودا حراما، ويبرمون شواربهم، لا دراية لهم بما يجرى فى العالم! ومن يمت من جيرانهم لا يسألون، إن هدفهم هو الفرح والسرور. والسيد "مهتا" الذى يظهر نفسه فيلسوفا، فكل تفكيره هو كيف يستمتع بحياته، إنك تسرق كل شهر ألف روبية، وعليك أن تحيا بها وبعض الناس يقتلهم التفكير فى كيفية تزويج أبنائهم، وإحضار طبيبات لزوجاتهن المريضات، ومن أين يأتون بأجرة المنزل؟ وكيف يكملون حياتهم؟! وأنت كالعجل مطلق السراح تأكل من حقول الآخرين، وتعتقد أن الدنيا كلها تعيش فى راحة، لكن ستتبين الحقيقة عندما تقوم الثورة، ويقال لك: أيها الرجل لتذهب إلى الحقل وتحرث بالمحراث، عندها سأرى كيف ستكمل حياتك؟! وكذلك الآنسة "مالتى" التى تتجول وقد شربت من اثنتين وسبعين بئرا، وتشعر أنها ما زالت آنسة،

ولم تتزوج حتى الآن؛ إن الزواج سيغلق حياتها، والتقيد سيمنعها أن ترتقى فى الحياة ارتقاءً كاملا؛ فالرقى عندها هو أن تنهب الدنيا وتعيش حرة! لنكسر جميع القيود، ونطلق الرصاص على الدين والمجتمع، لا تدع الواجبات تقيدك، عندها فقط ترتقى حياتك، فهل توجد حياة أسهل من هذا؟! وإذا لم تكن هناك علاقة جيدة بين الوالدين، فلا تعطهما الفرصة كى يزوجاك، لأن هذا هو القيد فى الحياة، وإذا كان لديك طفل فهذه شبكة الحياة. لكنكِ تدفعين الضرائب! القانون أيضا قيد، لم لا نكسره؟ لم لا نهرب منه؟ لأنكِ تعرفين أنكِ لو قمت بشيء مخالف للقانون فستقيَّد رجلاكِ بالحديد، ولهذا فهم يكسرون القيد فقط الذى يمنع الهوى، فيضربون الحبل وهم يعتقدون أنه أفعى، وتفتخر بهذا بين الناس، كيف استطعت قتل الأفعى؟! وهى لا تذهب إلى الثعبان، وتعجز عن مقاومته، لأنه إذا نفخ سترتعش، وإذا رأيته آتيا نحوكِ تفرين بسرعة، وهذا هو مفهوم الحياة الكاملة عندكِ!

رحلت جماعة الصيد فى الساعة الثامنة، لم يصِد السيد "كهنا" من قبل، وكان يرتعش من صوت البندقية، لكن الآنسة "مالتى" كانت فى الرحلة فكيف لا يذهب؟! أما السيد "تنخا" فلم تتح له الفرصة حتى الآن للتفاوض على موضوع الانتخابات، وربما يكون "راى صاحب" قد ذهب لأنه لم يذهب إلى تلك المنطقة منذ مدة، ويريد أن يطلع على الأحوال، فالذهاب إلى المناطق التابعة للإقطاعيين من حين إلى آخر يقوى علاقته مع العاملين ويبث الخوف فيهم، وكذلك كى يُسعد الخدم والعسكر.

أما "مرزا خورشد" فكان متشوقا ليجرب هذه الحياة الجديدة، خاصة فى تجربة تعطى له الفرصة ليرى الناس شهامته. كيف لا تذهب الآنسة "مالتى" فى هذه الرحلة؟! فهى تحب أن يكون الناس فى شوقٍ لها. السيد "مهتا" فقط كان ذاهبا بنية صادقة. كان "راى صاحب" يريد أن يحمل معه أمتعة الطعام، والطباخ، والساقى، والخادم لكن السيد "مهتا" رفض.

قال "كهنا":

– هل سنموت جوعا هناك؟!

أجاب "مهتا":

– لم لا نأكل؟ لكن لنقم بالعمل بأنفسنا، ولنر هل نستطيع الحياة دون خدم أو لا؟! ستطبخ الآنسة "مالتى" ونحن نأكل، وسنجد فى القرى الأوانى وأوراق الشجر، والحطب ليس قليلا وسنحضر الصيد.

فاعتذرت الآنسة "مالتى":

– معذرة، لكن رسغى يؤلمنى حتى الآن منذ أمسكته بقوة.

– نحن نعمل وأنت تقولين لنا ما نفعله فقط.

قال "مرزا خورشيد":

– أنتم تشاهدون فقط وأنا سأنظم كل شىء، لا توجد مشكلة! إن البحث عن قدر أو آنية فى الغابة حماقة، لنصد غزالا فيشوى ونأكل وتنام وتغط فى ظل الشجرة.

اتفقوا على هذا ثم مضوا فى عربتين، جلست فى إحداهما الآنسة "مالتى" وفى الأخرى "راى صاحب" نفسه. وبعد عشرين ميلا أو خمسة وعشرين بدأت المناطق الجبلية، كانت سلاسل الجبال العالية تحيط بهم من الجانبين، كان الطريق ملتويا. بعد فترة من صعود نزلوا فى وادٍ، فاتجهت العربة بسرعة إلى أسفل، ومن بعيد رأوا النهر. أوقفوا السيارة تحت شجرة برجد مثل المريض الضعيف الواقف دون حس، نزل الناس وانقسموا إلى مجموعات على أن يعودوا من الصيد فى الساعة الثانية عشرة.

استعدت الآنسة "مالتى" للذهاب مع "مهتا"، فاضطرب قلب "كهنا" لأنه كان يأمل أن يذهب هو معها، لكن هذا لن يحدث؛ لو كان يعرف أن "مالتى" تخدعه لعاد إلى المنزل، لكن الذهاب مع "راى صاحب" ليس أمرا سيئا، فقد كان يريد أن يحدثه في بعض الأعمال. وبقى "خورشيد" و"تنخا" معا، فقد كان يجمعها عمل، وذهب كل واحد إلى اتجاه.

بعد فترة من السير مع "مهتا" فى الطريق الحجرى، قالت "مالتى":

– أنت تسير دون راحة، دعني آخذ نفسى!

ضحك "مهتا":

– إننا لم نمشِ إلا ميلا واحدا وأنت تعبت؟!

– لم أتعب بعد لكن لم لا نرتاح قليلا؟!

– لا يحق لنا أن نرتاح إلا بعد أن نصطاد!

– أنا لم أحضر للصيد.

قال "مهتا" كأنه لا يعرف:

– حسنا، أنا لا أعرف لما جئتِ؟

– ماذا أقول لك؟!

جاء قطيع من الظبيان فاختفى الاثنان وراء الصخر، وأطلق النار عليهم لكنه أخطأ التصويب، وفرَّ القطيع.

سألت "مالتى":

– والآن؟

– لا شيء، سنذهب لصيد آخر!

ذهب كلاهما لمسافة بعيدة وهما صامتان، ثم توقفت "مالتى" وقالت:

– حالتى تسوء من شدة الحرارة، تعالى لنجلس تحت الشجرة.

– ليس الآن، إذا أردت فلتجلسى لكن أنا لن أجلس.

– حقا إنك بلا رحمة!

– لا يمكننى الجلوس حتى أصطاد شيئا.

– هكذا ستقتلنى، قل لم سببت لى الألم فى الليلة الماضية؟ لقد كنت غاضبة منك للغاية، أتتذكر ما قلته لى؟ "ستسرين معى يا حبيبتى؟"

لم أكن أعرف كم أنت شرير؟! لتصدقنى القول هل كنت ستأخذنى معك فى ذلك الوقت؟!

لم يرد عليها كأنه لم يسمع.

مشى الاثنان لمسافة فى الطريق الحجرى وحرارة الصيف شديدة، فجلست "مالتى" وهى تعبة. قال "مهتا" وهو واقف:

– حسنا! ارتاحى أنتِ هنا، وسأعود إليكِ.

– ستدعنى وحدى وتذهب؟!

– أنا أعرف أنكِ تستطعين المحافظة على نفسكِ.

– كيف تعرف؟!

– هذا من شيم نساء هذا الزمن الجديد، إنهن لا يردن مساندة من الرجل، بل يردن أن يسرن معه كتفا بكتف.

قالت "مالتى" بخجل:

– فى الحقيقة يا "مهتا" أنت فيلسوف أعمى!

كان هناك طاووس يجلس على شجرة، صوب السيد "مهتا" بندقيته على رأسه فطار الطاووس، فرحت "مالتى" وقالت:

– هذا أفضل، حصل خير. لقد أصابك هذا من دعائى السيئ.

وضع "مهتا" البندقية على كتفه، وقال:

- أنتِ لم تدعى بالسوء علىّ بل على نفسك، فلو كنت صدته لأعطيتك مهلة عشر دقائق للراحة، أما الآن فسنذهب على الفور.

وقفت "مالتى" وأمسكت بيد "مهتا"، وقالت:

- ربما لا يكون للفلاسفة قلوب، من الأفضل أنك لم تتزوج لكنت قتلتها! لكننى لن أتركك، لا يمكن أن تدعنى وتمشى.

جذب "مهتا" يده منها وتقدم إلى الأمام.

قالت "مالتى" بنواح:

- قلت لن تذهب، وأنا أقول لك لا تمش وإلا سأضرب رأسى فى الحجر.

لكن "مهتا" تقدم بسرعة، ونظرت "مالتى" إليه وعندما تقدم عشرين قدما وقفت بغضب وأسرعت وراءه، الراحة فى الانفراد ليست فيها لذة.

عندما اقتربت قالت:

- لم أكن أظن أنك حيوان هكذا!

- الظبى الذى أصطاده سأقدم جلده هدية لك.

- ليذهب الجلد إلى الجحيم، لن أتحدث معك.

- إذا لم نصطد شيئا واصطاد الآخرون فسأستحى منهم.

كانت المياه أمامها وفي وسطها الصخور كالأسنان ومدببة كالشوك، حتى الأمواج كانت تندفع بشدة، والشمس فوق الرؤوس.

قالت "مالتى" بسرور:

- الآن علينا أن نعود.

- لماذا؟! سنعبره ونصطاد هناك.

- الحجارة مدببة بشدة، وقد تأخذنى معها!

- حسنا لتجلسى هنا، وسأذهب أنا.

- لتذهب، أما أنا فلست مستغنية عن حياتى!

وضع "مهتا" قدمه فى الماء وسار فيه ماسكا نفسه، وتقدم فى المياه والعمق يزيد حتى وصل إلى صدره، فزعت "مالتى" واضطرب قلبها من التفكير، لم تشعر بهذا الألم من قبل فى حياتها! وقالت بصوت مرتفع:

- المياه عميقة، قف، سآتى أيضا.

- لا، لا تحضرى وإلا ستزلّ قدمكِ، التيار شديد.

رفعت "مالتى" السارى إلى فوق ودخلت فى الماء، لكن لم تسر عشر أذرع حتى وصل الماء إلى وسطها، شعر "مهتا" بالخوف عليها فأشار بيديه كى تعود، وقال:

- لا تأتى إلى هنا يا "مالتى"، فستصل المياه إلى عنقكِ.

تقدمت "مالتى" وقالت:

- ليكن ما يكون، لو أن موتى يرضيك فسأموت إلى جوارك!

وصلت المياه إلى بطن "مالتى"، كان التيار شديدا كأن قدمها ستنخلع من الأرض، فعاد "مهتا" وأخذ بيدها.

قالت "مالتى" غاضبة، وبعيونها المسكرة:

- لم أر رجلا ظالما مثلك! إنك حجر، حسنا اليوم ستؤلمنى كما تشاء، وأنا سأردها لك فيما بعد.

شعرت مالتى أن قدمها ستنخلع، فأمسكت بالبندقية واحتضنتها.

قال مهتا لتسليتها:

- لن تستطيعى الوقوف هنا، سأضعك على كتفى.

اعترضت "مالتى" وقالت:

- هل عبور المياه أمر ضرورى؟!

لم يجب "مهتا".

أخذ البندقية ووضعها بجوار رأسه، وأخذ "مالتى" ووضعها على كتفه الأخرى.

قالت "مالتى" وهى تخفى سرورها:

- ماذا يحدث لو رآنا أحد؟!

- لو رآنا فلن أخجل!

- هذا أمر سيئ!

بعد قدمين قالت بصوت متألم:

- حسنا لو غرقت هنا، فهل ستحزن أم لا؟ أنا أعتقد أنك لن تحزن على الإطلاق!

قال "مهتا":

- أتعتقدين أنني لست إنسانا؟!

- أنا أعتقد هذا، فلم أخفيه؟!

- لتصدقيني القول يا "مالتى"؟

- أنا سأخبرك، ماذا تعتقد؟

وصلت المياه إلى عنق "مهتا"، يمكن أن تصل المياه إلى رأسه لو تقدم قدما آخر، دقّ قلب مالتى:

- "مهتا" لا تتقدم من أجل الإله، وإلا سألقى بنفسى فى الماء.

لقد تذكرت الإله فى هذه المصيبة، وكانت من قبل تضحك على هذا وهى تعلم أن الإله لا يجلس فى مكان حتى يأتى وينقذها، لكن القلب يحتاج إلى المساندة والقوة وهى غير موجودة فى أى مكان! بدأت المياه تقل، فقالت "مالتى" بسرور:

- لتنزلنى.

- كلا، كلا! اجلسى صامتة، قد تكون أمامنا حفرة.

- أخاف أن تظن أننى أنانية.

- لتعطينى أجرتى.

تحرك قلب "مالتى"، وقالت:

- أى أجرة تريد؟

- إذا حدث موقفٌ محرج كهذا فقومى باستدعائى.

وصلا إلى الضفة الأخرى، عصرت "مالتى" ساريها على الرمال وأخرجت الماء من حذائها، غسلت يديها ووجهها؛ لكن كانت عبارته تتراقص أمامها وهى ممتلئة بالأسرار، قالت تعبر عن لطف هذه التجربة:

- لن أنسى هذا اليوم!

سأل "مهتا":

- هل شعرت بخوف شديد؟

- فى البداية شعرت بالخوف، لكنى تيقنت أنك تستطيع الحفاظ علينا.

نظر "مهتا" إلى "مالتى" بفخر، وكان وجهه متورما ومحمرا من التعب وقال:

- أنا مسرور من كلامك، قد تعجزين عن فهم هذا يا "مالتى"!

- أنت لم تفهمني؟! وبدلا من هذا تسير بي في الغابات، وعند العودة سنعبر هذا النهر، لقد أوقعتنا في مصيبة؛ لو عشت معك ما عشنا في راحة حتى ليوم واحد!

ضحك "مهتا"، وكان يفهم المعنى الخفي لهذه الكلمات:

- أتعتقدين أنني ظالم؟! وإذا قلت إنني أحبك فهل تتزوجينني؟

- من تلك التي تتزوج من هذا القلب المتحجر؟! ستحرقني ليل نهار!

ونظرت إليه بحب كأن لسان حالها يقول: "أنت تعرف معنى هذا الكلام، أنت لست جاهلا!"

قال "مهتا" بعد تفكير عميق:

- معك حق يا "مالتي"، أنا عاجز عن إسعاد أي امرأة، ولا يمكن لواحدة أن تحبني، وأن أصل إلى أعماق قلبها حتى أكون قريبا منها.

ارتعشت "مالتي"، كم كان صادقا في كلامه، سألت:

- قل لي أي حب يطمئنك؟

- الحب الذي يطمئنني هو الذي يقوم على الصدق، وأعتقد أن الحسن والسلوك اللّين ليسا مهمين، أنا أريد ما يريح نفسي، ليس ضروريا أن يكون الشيء جذابا ومفعما بالحيوية.

قالت "مالتي" من بين أسنانها:

- لا يهزمك أحد! أنت قوي. قل لي رأيك فيَّ.

لمعت ابتسامة على وجه "مهتا"، وقال:

– يمكنك فعل كل شيء، عالمة، ذكية، تفهمين فى طبائع البشر، رحيمة، مدللة، أنانية، يمكنك أن تكونى راهبة، لكنك عاجزة عن أن تحبى أحدا.

نظرت "مالتى" إليه بحدة، وقالت:

– أنت كاذب، بالتأكيد كاذب! وهذا ادعاء بلا دليل حتى تصل إلى قلب المرأة!

كان الاثنان يسيران إلى جانب النهر، وأصبحت الساعة الثانية عشرة، لكن "مالتى" لم تكن تريد أن ترتاح أو تعود فقد كانت متلذذة من أحداث اليوم؛ لقد كانت تجربة فريدة من نوعها، لقد استطاعت أن تجعل العديد من العلماء والحكماء حمقى بنظرة وبسمة منها، إنها ترفض أن تبنى حياتها على جدران من الرمال، أما اليوم فقد وجدت حجرا قاسيا وصلبا يخرج الشرارة من الفأس، وهذا الصلب يفتنها أكثر من أى شيء آخر!

سمعا صوتا مهيبا، كان رأس أحمر يطير فوق النهر، صوب السيد "مهتا" نحوه فأخذت الضربة لكن طارت بعيدا ثم سقطت فى وسط التيار وجرفها الموج.

– والآن؟!

– سأذهب لإحضارها، إلى أين سأذهب؟!

قال هذا وأسرع فى الرمال، وضع بندقيته على ضفة النهر، وألقى بنفسه فى الماء وسار مع الموج، لكنه لم يجد الطائر لمسافة نصف ميل لقد ماتت ومع هذا كانت كأنها تطير! فجأة رأى شابة على الضفة خارجة من منزل خشبى، رأت الطائر وهو يسبح فى الماء فرفعت السارى إلى فخذيها، وألقت بنفسها فى الماء وفى لمحة كانت قد أمسكته، وقالت لمهتا تُريه:

- لتخرج من الماء يا سيدى هذا هو طائرك.

استغرب "مهتا" من سرعتها وهمتها، وأسرع إلى الضفة الأخرى ووصل إليها خلال دقيقتين.

كانت الفتاة شديدة السمرة، ملابسها قذرة تثير الاشمئزاز، وكان فى يدها سواران على سبيل المجوهرات، شعرها أشعث، وليس فى وجهها شىء من الجمال يمكنك من القول إنها جميلة، لكن ملأ الهواء الصافى النقى وجهها بالملاحة، وبسبب نشأتها فى أحضان الطبيعة كانت متناسقة الأعضاء، نشيطة، وهى خير صورة للشباب ولا يمكن أن نجد صورة أخرى. وقد أدخلت هذه الصحة الجيدة اللمعان والشجاعة على قلب "مهتا".

قال "مهتا" يشكرها:

- لقد نزلت فى الوقت المناسب، وإلا لما عرفت إلى أين كنت سأسبح؟!

قالت الفتاة بسرور:

- لقد ركضت عندما رأيتك، وقد عرفت أنك جئت للصيد.

- نعم، لقد حضرت للصيد، لكن دخل وقت الظهيرة وهذا هو الصيد الذى وجدناه!

- لو أردت أن تقتل فهدا فسأريك مكانه. إنه يأتى كل يوم لشرب المياه هنا، أحيانا يأتى فى الظهيرة أيضا.

وقالت على استحياء، وهى تخفض رأسها:

- أنت ستعطينى جلدها؟ لتأتِ معى إلى المنزل فهناك ظل شجرة البيبل، إلى متى ستظل واقفا تحت هذه الشمس؛ إن ملابسك مبتلة؟!

قال "مهتا" وهو ينظر إلى ساريها المبتل على جسدها، وقال:

- أنتِ أيضا ملابسك مبتلة!

قالت دون اهتمام:

- كلا، نحن من سكان الغابة، ونحن نقف تحت الشمس وفى المياه كل يوم أما أنت فعاجز عن هذا!

فتاة واعية رغم جهلها!

- ماذا تفعلين بالجلود؟

- جدى يبيعها فى السوق، هذا هو عملنا.

- لكن إذا قضينا الظهيرة هنا، فهل ستطعميننى؟

قالت الفتاة بخجل:

– لا يوجد فى منزلى طعام يليق بك، لو أردت فستأكل خبز الذرة؛ فهو موجود، كما سأطبخ لك الطائر بالحساء، ولتعلمنى كيف أقوم بهذا. يوجد القليل من الحليب أيضا، ذات مرة حاصر فهد بقرتنا لكنها تمكنت من رده بقرنيها، ومنذ ذلك الوقت وهو يخاف منها.

– لكن أنا لست وحدى، معى أيضا امرأة.

– أهى زوجتك؟

– كلا، ليست زوجتى بل هى صديقة.

– سأذهب وأستدعيها، وأنت لتسترح فى الظل.

– كلا، كلا! سأذهب أنا لاستدعائها.

– أنت متعب، لم يحضر أهل المدينة إلى الغابة؟ نحن أهل الغابة، إنها واقفة على الضفة.

قبل أن يتكلم "مهتا" كانت قد ذهبت. جلس "مهتا" فى ظل شجرة البيبل وتولدت لديه الرغبة فى أن يعيش هذه الحياة الحرة، وسلسلة الجبال الواسعة أمامه كأنها أصول الفلسفة بلا نهاية وغير قابلة للعبور كأنها توسع الفهم والفراسة، وكأن القلب يرى فى جسم كبير بهذا الشكل العقل والنور والعمق. من بعيد كان يرى معبدا صغيرا على قمة الجبل، كان فى مكان لا يمكن فهمه كأن العبادة والعلم واقفان فى علو وسمو؛ وكأن الطائر يريد الراحة بعد الطيران لكنه لا يجد مكانا!

كان "مهتا" غارقا فى الأفكار، عندما حضرت الفتاة مع السيدة "مالتى"، كانت كزهرة برية تفتحت فى الشمس، والأخرى كباقة الزهور التى اصفرت من شدة الحرارة والشمس.

قالت "مالتى" بلا اكتراث:

- ظل شجرة ببيل يعجبنى، وأنا أموت جوعا!

أحضرت الفتاة قلتين كبيرتين، وقالت:

- اجلسا هنا، سأحضر لكما الماء ثم أوقد النار للطهى، إذا أكلت من يدى فسأعد كل شىء فى دقيقة وإلا اطهِ بنفسك. لا يوجد فى منزلى دقيق القمح، ولا يوجد محل فى القرية كى أشتريه.

قالت "مالتى" لمهتا بغضب:

- ماذا تفعل هنا؟!

قال "مهتا" يدللها:

- لتستمتعى اليوم بلطف الحياة فى الصحراء، وتتذوقى خبز الذرة.

- أنا لا أستطيع تناول هذا الخبز ولو بلعته فلن أهضمه، إن حضورى معك كان خطأ كبيرا! لقد أتعبتنى طوال الطريق، والآن أحضرتنى إلى هنا!

نزع "مهتا" ملابسه المبتلة وجلس فى سروال قصير مبتل فقط، وعندما رأى الفتاة تحمل قلّة أخذها من يدها ومشى إلى البئر ليملأها؛

رغم انغماسه في الفلسفة فإنه كان يحافظ على صحته. ذهب وأحضر القلة الثانية، كان يشعر بيديه القويتين وصدره وفخذه الممتلئ، كان يتأمل قوة أعضائه المتناسقة كأنه تمثال يوناني. كانت الفتاة تنظر إليه برغبة وشوق وهو يخرج الماء من البئر، كان ينظر إليها بحسن ظن.

كانت البئر عميقة بستين ذراعا، والدلاء كبيرة وثقيلة، شعر السيد "مهتا" بالتعب من رفع الماء بالدلو رغم ممارسته الدائمة للرياضة. ركضت الفتاة وأخذت الحبل من يده، وقالت:

- لن تستطيع رفعه، لتذهب وتجلس على الفراش وأنا سأحضره لك.

لم يستطع "مهتا" أن تهان رجولته، فأخذ الحبل من يدها مرة أخرى ورفع المياه بالدلو الثاني في لمحة واحدة، ثم رفعه بيديه الاثنتين ووقف على باب الكوخ. أشعلت الفتاة النار بسرعة، وقامت بشي جناح العصفور ثم قطعته بالسكين، وأشعلت الحطب ووضعت اللحم عليه، ووضعت على الموقد قدرا من الحليب.

كانت "مالتي" عابسة، وتجلس مستلقية على السرير وهي تشعر باليأس وتنظر إلى ذلك المشهد، كأنها تجهز لعملية.

وقف "مهتا" عند باب الكوخ وهو ينظر إلى أعمالها المنزلية بشوق ورغبة، وقال:

- قولي لي ماذا أفعل لأساعدك؟

زجرته الفتاة بلطف، وقالت:

– كلا! لا تعمل شيئا، اذهب واجلس مع السيدة لأنها جائعة جدا، لقد بدأ اللبن يسخن، فلتأخذه لها لتشربه.

أخرجت الدقيق من جرة وأخذت في العجن، نظر "مهتا" إلى حسن حركة أعضائها، كانت الفتاة أيضا تنظر بطرف العين أحيانا ثم تشغل نفسها بالعمل.

نادت "مالتي":

– لم تقف هناك؟! لقد اشتّد عليّ الصداع، وأشعر أن نصف رأسي سينفجر ويسقط.

حضر "مهتا" وقال:

– أظن أنكِ أُصبت بضربة شمس.

– لم أكن أعرف أنك جلبتني هنا لتقتلني!

– أمعكِ أي دواء؟

– أحضرت لفحص مريض لأحضر معي دواءً؟! حقيبة الدواء في سمري، أف! رأسي سينفجر.

جلس السيد "مهتا" على الأرض من ناحية رأسها، وأخذ يمسحها ببطء، أغلقت "مالتي" عينيها.

حضرت الفتاة وفى يدها الدقيق، شعرها مبعثر، عيناها حمراوان من الدخان، جسدها كله قد غطاه العرق وكان صدرها الممتلئ يُرى بوضوح، حضرت ووقفت ورأت "مالتى" وهى مقفلة العينين، فقالت:

- ماذا حدث للسيدة؟

قال "مهتا":

- رأسها يؤلمها جدا.

- صداع نصفى أم كل رأسها؟

- تقول إنه صداع نصفى.

- يمينا أم يسارا؟

- يسارا.

- سأسرع لإحضار الدواء، تحكه فى الحجر وتضعه على رأسها وستشفى.

- أين ستذهبين فى حرارة الشمس؟!

لم تصغِ الفتاة إليه وأسرعت إلى الناحية الأخرى وغابت فى الجبل، وبعد نصف ساعة رآها السيد "مهتا" وهى تصعد إلى الجبل المرتفع كأنها دمية صغيرة.

قال لنفسه إن هذه الفتاة المتوحشة تحمل روحا عاطفية، رغبة فى الخدمة، ومعرفة عملية، وهى تصعد فى حرارة الشمس إلى السماء.

فتحت "مالتى" عينيها ونظرت وقالت:

- أين ذهبت السوداء؟! لونها أسود كأنها قبضٌ من شجرة الأبنوس! أرسلها إلى "راى صاحب" ليحضر السيارة هنا، وإلا سأموت فى هذه الشمس.

- لقد ذهبت لإحضار الدواء، وكانت تقول إنها أعشاب طبية ستحضرها لتقضى على الصداع.

- إن دواءهم ينفعهم هم فقط، لكن لا ينفعنى. لقد أحببتها! أنت شخص لئيم، دنىء روحك سيئة، وكذلك ملائكيتك.

لم يكن السيد "مهتا" يخشى من النطق بالحقيقة المرة، فقال:

- هناك بعض الأشياء الموجودة فى هذه الفتاة لو كانت فيك لكنت إلهة حقيقية.

- صفاتها لها! أنا لا أريد أن أكون من الآلهة.

- إذا أردت فسأحضر لك السيارة، لكن لا أدرى إذا كان من الممكن إحضارها إلى هنا أم لا؟

- لم لم ترسل الفتاة السوداء؟!

- ذهبت لإحضار الدواء، وبعدها ستطهو الطعام.

- أنت اليوم ضيفها!

قال "مهتا" نافرا من هذه الجملة:

– بالنسبة إلىَّ فإن فى قلبى حبا وثقة روحية فى هذه الفتاة، ولو نظرت إليها بشكل سيئ لفقدت نور عينى؛ لماذا؟ لأننى لن أصعد إلى هذا الجبل فى مثل هذه الشمس من أجل صديقى الحميم! نحن فى بيتها مجرد ضيوف عابرين، والفتاة تعرف هذا، لكنها مستعدة للركض من أجل امرأة غريبة. أستطيع أن أكتب وأخطب أمام الدنيا أن الناس جميعا إخوة، ولا بد أن يكن كل شخص لأخيه المحبة والأخوة، لكن هذه الفتاة تقوم بإثبات هذا بشكل عملى؛ وكما تعلمين فالعمل أصعب من القول!

قالت "مالتى" باستهزاء:

– اسكت اسكت، إنها إلهة وقد آمنت بذلك! إن لديها صدراً ممتلئًا، ووسطها مرن وجسدها لين، ماذا تحتاج أكثر من هذا لتكون من الآلهة؟!

تململ "مهتا"، ووقف على الفور وارتدى ملابسه التى جفت، وأخذ البندقية واستعد للذهاب. زفرت "مالتى":

– لا تستطيع أن تذهب وتتركنى وحدى!

– إذا من سيذهب؟!

– إلهتك!

وقف "مهتا" حائرا؛ يمكن للمرأة أن تتغلب بسهولة على الرجال، واليوم هذه هى التجربة الأولى فى حياته.

عادت الفتاة السوداء وهى تجرى لاهثة، وفى يدها غصن من الأعشاب الطبيعية، وعندما حضرت إلى جوار "مهتا" ورأته يستعد للذهاب، قالت:

– لقد أحضرت الدواء سأفركه وأحضره لك، لكن إلى أين تذهب؟! لقد نضج اللحم، وسأسخن الخبز فلتأكل، وستشرب السيدة الحليب ثم عودا عندما يصبح الجو لطيفا.

فتحت زر قميص "مهتا" بلا انتظار، ضبط "مهتا" أنفاسه فقد كان يشعر أنه يريد تقبيل قدمى هذه البدوية.

قالت "مالتى":

– احتفظى بدوائك لنفسك، عند الشاطئ تقف عربتنا تحت الشجرة، وستجدين أصدقاءنا هناك قولى لهم أن يحضروا السيارة إلى هنا، واذهبى بسرعة.

نظرت الفتاة إلى "مهتا" بيأس: (لقد أحضرت الأعشاب بصعوبة بالغة وهى لا تقدر هذا، إن دواء الفلاحة وإن كان لا يروق لها فكان من الممكن أن تأخذه لتسعدنى!)

وضعت الأعشاب على الأرض، وقالت:

– ستبرد نيران الموقد يا سيدة، وإذا أمرت فسأسخن الخبز لغداء السيد وأنتِ تشربين الحليب وتستريحا حتى أذهب وأحضر السيارة فى أثناء ذلك.

دخلت الكوخ، وأشعلت النار مرة أخرى، وكان اللحم قد نضج حتى إنه احترق قليلا، وبسرعة أعدت الخبز. كان اللبن ساخنا فبردته قليلا وأحضرته في آنية إلى "مالتي"، عبست "مالتي" عندما رأت الآنية لكنها عجزت عن عدم شرب الحليب.

جلس "مهتا" عند باب الكوخ وأخذ يأكل اللحم والخبز، وكانت الفتاة تحرّك المروحة اليدوية، فقالت لها "مالتي":

– اتركيه يأكل فهو لن يفر! واذهبي لإحضار العربة.

نظرت الفتاة "لمالتي" نظرات استفهامية: ماذا تريد؟ ما هو مرادها؟ إنها لا ترى على وجه "مالتي" العجز والاعتراف بالجميل رغم مرضها، بل عوضا عن ذلك يلمع بالغرور والرعونة! كانت الفتاة البدوية حاذقة في معرفة أحوال الشخصية، فقالت:

– أنا لست جارية لأحد أيتها السيدة! ولو كنت أميرة ففي بيتك، أنا لم أطلب منكِ شيئا، ولن أذهب لإحضار السيارة.

زجرتها "مالتي":

– لقد أظهرتِ قلة الأدب وعدم الاحترام! إلى أي منطقة من مناطق الإقطاعيين تنتمين؟

– منطقة "راي صاحب".

– سأجعل "راي صاحب" يضربكِ بالسوط.

- لو يشعرك ضربى بالراحة يا سيدتى، فلتفعلى ذلك. أنا لست ملكة الملوك ليحضر الجيش من أجلي!

لم يكد "مهتا" يتناول لقمتين أو أربع حتى سمع كلام "مالتى"، فوقفت اللقمة فى حلقه وغسل يده بسرعة، وقال:

- لن تذهب، بل سأذهب أنا.

وقفت "مالتى" وقالت:

- لا بد أن تذهب هى.

قال "مهتا" بالإنجليزية:

- إن مكانتك يا "مالتى" لن تزيد بإهانتها!

زجرته "مالتى" قائلة:

- إن الرجال دائما ما يقعون فى هوى هذه النوعية من الفتيات، التى لا تتحلى بأى فضيلة سوى الخدمة السريعة، وتفرح وتعتبر نفسها سعيدة الحظ إذا طلب الرجل منها شيئا، هى فقط الإلهة! لقد كنت أعتقد أنك لا تتصف برجولة القرويين، لكن قلبك مثل الفلاحين!

كان "مهتا" ماهرا فى علم النفس، وهو يعى ما يعتمل فى قلب "مالتى" جيدا. إنه لم ير قط مثل هذا الحسد، ولم يتصور أن يوجد فى هذه المرأة الناعمة، السعيدة، واسعة الصدر والباسمة مثل شعلة الحسد هذه! قال:

– قولى ما تشائين لكننى لن أدعها تذهب، ولا يمكن أن أذل فى نظرها ويكون هذا جزاء خدمتها وضيافتها؟!

كان صوت "مهتا "حاداً، حتى إن "مالتى" وقفت ببطء واستعدت للذهاب، وقالت بحرقة:

– حسنا سأذهب أنا، ثم تتبعنى بعدما تعبدها وتقبل قدمها!

مشت "مالتى" قدمين أو ثلاثة، فقال "مهتا" للفتاة:

– أستأذنك يا أختاه، وسأتذكر دائما محبتك وخدمتك المخلصة!

امتلأت عيون الفتاه بالدمع، وودعته وهى تضم يدها باكتئاب ثم اتجهت إلى الكوخ.

فى المجموعة الثانية سار "راى صاحب" و"كهنا"؛ كان "راى صاحب" يرتدى قميصا حريريا وعباءة من الحرير، لكن "كهنا" كان يرتدى بدلة الصيد ليكون مستعدا لمثل هذا اليوم، فكهنا ليست لديه فرصة أخرى لصيد الحيوانات لأنه كان يصطاد الناس! كان "كهنا" قصيرا، متوسط الجسد، وسيم الوجه، قمحى اللون، ذا عيون واسعة جدا وفى وجهه علامات مرض الحصبة، كان ذكيا ماهرا فى الحديث.

بعد أن سارا مسافة جاء "كهنا" على ذكر السيد "مهتا"، الذى كان على رأسه كالنحس وقال:

– "مهتا" هذا رجل عجيب! وأنا أراه رجلا متصنعا.

كان "راى صاحب" يقدر "مهتا"، ويعتقد أنه رجل صادق غير مراء، لكن كان لديه عمل مع "كهنا" كما كان يحب الأمن والسلام فلم يستطع معارضته، وقال:

- أنا أعتقد أنه مسلٍ، وأنا لا أناقشه، وإذا أردت مناقشته فمن أين أحوز على العلم الغزير؟! إن الرجل الذى لم يعرك الحياة الحقيقية، ويخرج مبادئ جديدة فى الحياة يثير ضحكى، إنه يأخذ راتبا ألف روبية شهريا، وليس عنده فكر ولا هم، إذا لم يتحدث أمثاله فى الفلسفة فمن الذى سيتحدث؟! يحلم بأن تكتمل الحياة بالوحدة، فكيف أجادل شخصا كهذا؟!

- سمعت أنه سيئ السمعة.

- كيف تكون سمعته سيئة مع عدم مبالاته؟ إذا كان يعيش فى المجتمع ويعطيه حقوقه عندها سيعرف حقيقة الحياة!

- أنا لا أعرف لم تموت الآنسة "مالتى" عشقا فيه؟!

- أعتقد أنها تريد أن تثير حنقك.

- كيف تثير حنقى؟! أنا أعتبرها دمية.

- لا تقل هذا يا سيد "كهنا" فأنت تحب الآنسة "مالتى"!

- أنا أيضا أعتقد أنك تحبها.

- أنا حقا أعتقد أنها دمية، وأنت جعلتها كالصنم!

ضحك "كهنا" بقوة دون سبب:

– لو قدمت ماء فى الإبريق للآلهة، على أن تعطينى الجنة فهل هذا خطأ؟!

ضحك "راى صاحب" منه بقوة دون داع:

– أنت لا تفهم هذه السيدة جيدا، لو عبدتها فستبعد عنك، وإذا بعدت أنت عنها ستقترب هى منك. أما عنى فأنا خارج جماعة المشتاقين هذه يا سيد "كهنا"! ولأصدقك القول فإن كل عقلى وقوتى أصرفها فى تنظيم إقطاعيتى وتحصيل الخرج وعائلتى كلها مجانين؛ فهم إما فى العبادة وإما فى اللهو والمزاح! وواجبى هو إطعام هؤلاء الأفاعى. إن كثيرا من إخوانى الإقطاعيين يعيشون فى راحة، وأنا أعلم جيدا أنهم ينظرون إلى بيوت بعضهم بعضا رغبة فى حرقها. إن القروض تزيد على رأسى، وأنا مسؤول عن دفعها، كل يوم يربح غيرنا فى المحاكم. إذا اقترضت من أحد وعجزت عن السداد لساء اسمى فى كل مكان، أنا أعتقد أن الموت أفضل من هذه الحياة. لا أعرف كيف تبقى فى جسدى روح لعمل الخير الذى يربطنى بالبلد والمجتمع؟! عندما بدأ العصيان المدنى ذهبت إلى السجن، وصرفت مئات الآلاف وحتى الآن ما زلت أنال جزاء فعلتى لكنى غير نادم، بالقطع لا، بل أنا فخور بهذا، وأعتقد أن الرجل لا يكون رجلا إذا لم يسع لصالح البلاد والشعب ولم يضحِّ! هل أحب امتصاص دماء الفلاحين الموتى، وأقدم لأهلى النقود ليصرفوا على أهوائهم ولكن ماذا أفعل؟! لقد ولدت فى جو من السلطة ونشأت فيه،

ورغم هذا فأنا نافر منها، لكنى عاجز عن تركه؛ إننى أعيش فى هذه المأساة ليل نهار، وأبيع ضميرى حفاظا على كرامتى وعزتى. إن رجلا على هذه الشاكلة لا يقع فى حبائل الآنسة "مالتى" ومن على شاكلتها، وإذا وقع فسيقضى على نفسه، لكننى أتحدث معها من أجل التسلية فقط!

كان "كهنا" رجلا جريئا، يقتحم ميدان الحرب، ذهب إلى السجن مرتين، ولا يخضع لأحد، ويرتدى الزى الوطنى ويشرب الخمر الفرنسى، ولديه قدرة على تحمل المصائب. لم يمس الخمر فى السجن، وكان يعيش حياة مترفة لكن يأكل خبز الفقراء، ورغم أنه يستطيع أن يرتاح لكنه عاجز كالعربة التى تسير دون وقود، ولهذا كان يحب أن يملأ حياته بالحب والتنوع، قال:

– يمكن أن تكون راهبا أما أنا فلا، إن الرجل الذى لا يحب الدنيا لا يشترك فى الحرب بعزم شديد، ومن لا يحب المرأة أعتقد أنه لا يحب الوطن.

ابتسم "راى صاحب":

– أنت تنتقدنى؟

– هذا ليس قدحا بل هو الصدق!

– ربما!

– إذا دخلت إلى قلبك لرأيت الحقيقة.

- لقد رأيت، وأنا أصدقك. يوجد الكثير من التمرد لكنى لا أحب السُّم!

- أشفق عليك! إن قتل النفس هو سبب همك وفكرك، أما أنا فسألعب هذا الدور، وإذا كانت نتيجته الغم فلا بأس بذلك. ستمازحنى وترينى أنها لا تبالى بأمرى، لكن أنا إنسان لا أدعى الهمة، وحتى الآن لم أفهم طباعها، وإذا كنت سأصيب هدفى فلا أعرف، لكن اليوم الذى سأجد فيه مفتاحها سيكون انتصارا لى.

- ربما تجد هذا المفتاح، وربما يجده السيد "مهتا" ويسبقك!

كان الظبى مع قطيع، وكان ذا قرنين كبيرين أسود اللون، صوّب "راى صاحب" عليه فأوقفه "كهنا":

- لِمَ تقلته؟! إنه يرعى فدعه يرعى. إن الشمس شديدة، تعال لنجلس فى مكان فنكمل حديثنا.

أطلق "راى صاحب" البندقية لكن الغزال فرّ، فقال:

- وجدنا الصيد ولم نحسن التصويب!

- أنت وُقيت من القتل.

- نعم تفضل، قل لى فيما تريد محادثتى؟

- فى منطقتك يزرع القصب؟

- بكثرة.

– لم لا تشارك فى مصنع السكر؟ الأسهم تباع، لتشتر ألف سهم على الأقل.

– من أين آتى بمثل هذه النقود؟

– أنت إقطاعي شهير ولا تملك النقود؟! الأسهم كلها لن تكلفك خمسين ألف روبية، وأنت ستدفع خمسا وعشرين بالمائة فقط.

– كلا يا أخى، ليس لدى الآن شيء من النقود.

– اقترض منى كما تشاء، البنك معك، حسنا! أنت لم تؤمن على حياتك حتى الآن، لتأخذ من شركتى صكا للتأمين وتدفع كل شهر مائة روبية أو مائتين بسهولة وبعد ذلك تأخذها كاملة، وعندئذ ستحصل على نفقات تكفى أربعة أو خمسة آلاف ولد، لا يوجد أفضل من هذا. سأريك القواعد: إننا نعمل على التعاون المتبادل بين الناس، الأرباح لا تذهب سوى للإدارة والعمال فقط، وستتعجب كيف تسير الشركة، ولو عملت فى مجال المراهنات لأن جميع المليونيرات الذين تراهم قد حصلوا على نقودهم من البورصة، ويمكنك أن تراهن على القطن أو السكر أو القمح أو المطاط، وفى دقيقة واحدة تكسب مئات الآلاف. العمل ليس جيدا فكثير من الأشخاص الجدد ينخدعون فى هذا المجال، ومثلك مجرب ومثقف ومتعلم وبعيد النظر وهذا أنفع عمل لك؛ إن الصعود والهبوط فى السوق ليس مصادفة، إنه علم، فلو نظرت بتمعن لا يمكن أن تنخدع.

لم يكن "راى صاحب" يقيم وزنا للشركات، وكانت له تجربة مريرة معها مرة أو مرتين، لكنه كان يرى أن السيد"كهنا" يعلو شأنه فى هذا المجال

وهو يؤمن بمهارته. لقد كان قبل عشر سنوات يعمل صرافا فى البنك، وهو معبود المدينة لجهده وذكائه، لذا لا يمكن رفض رأيه دون إبداء أسباب. وفكر أنه لو اتخذ من السيد "كهنا" قائدا فى هذا المجال يمكنه أن يربح، لم يدع الفرصة تضيع من يده فقام بسؤاله العديد من الأسئلة. فجأة شاهدا أحد الفلاحين يحمل سلة بها أعشاب طبية وأوراق وأزهار.

سأله "كهنا":

– ماذا تبيع؟

خاف الفلاح أن يأخذوها منه لأنه خادم، فقال:

– لا شيء، أعشاب طبية.

– ماذا تفعل بها؟

– سأبيعها، إنها أعشاب طبية.

– أى نوع من الأعشاب؟

فتح الفلاح علبته ليراها، كانت أشياء بسيطة من التى يأخذها الناس من الغابة، ويبيعونها عند العطار فى المدينة. رأى العديد من أنواع الأعشاب الطبية وكان يصف له فى أى مرض تنفع مثلا، هذه للسعال وخفقان القلب، لو أخذتها مرة يرتاح المريض، وهذه بذورها لآلام العضلات ....

سأل "كهنا" عن سعرها، فقال له بنصف روبية. رمى "كهنا" بروبية، وقال:

– خذها وأوصلها إلى مكانى.

لقد أخذ ضعف السعر، فذهب وهو يدعو له.

سأل "راى صاحب":

– ماذا ستفعل بهذه الأعشاب؟!

ضحك "كهنا" وقال:

– سأصنع الذهب الإيرانى، يبدو أنك لا تعرف أنى كيميائى!

– يا صديقى لتعلمنى هذا السحر!

– طبعا طبعا! ستصبح من تلامذتى، أولا أعطنى كيلو وربعًا من الحلوى كأضحية وسأخبرك. الحقيقة أننى أقابل مختلف أنواع البشر بعضهم يحضر حبا فى الأعشاب الطبية، آه لو عرفوا أن هذه الأعشاب أعطانى إياها أحد الفقراء؟! إنه يتملقك ويحك أنفه، ولو أعطيته ذلك الشىء فسيكون شاكرا لك طول حياته، وليس من السوء أن نجعل من عشرة أو عشرين حمقى. سأحسن إليه بشىء بسيط، وبذلك تسهل علىّ الأمور الكبيرة.

تعجب "راى صاحب"، وسأل بلهفة:

– كيف تعرف صفات الأعشاب وفى أى مرض تنفع؟!

ضحك "كهنا" وقال:

– يا "راى صاحب" أنت أيضا شخص مضحك، أنت تصفها بأى صفة وهذا يعتمد على كفاءتك؛ إن نصف المرضى يشفون بالإيحاء. إن من تراهم اليوم من كبار الضباط والعلماء والأمراء ينقادون انقيادا أعمى! أنا أعرف أساتذة فى علم النبات لا يعرفون حتى شكل القثاء! إن معلمى يستهزئ بهؤلاء العلماء، إنك لم تره حتى الآن، وعندما يحضر فيما بعد سأجعلك تلقاه. منذ جاء إلى حديقتى والناس يقفون طوابير، وهو ليس طامعا بل يشرب الحليب فقط مرة واحدة. لم أر مثل هذا العالم الهندوكى حتى الآن، ولا أعرف كم عاش على جبال الهمالايا يتعبّد؟! إنه فقير لكنه متصل بالإله. يجب عليك أن تصبح أحد مريديه، وأنا على يقين من أن مشاكلك ستنتهى. عندما يراك سيخبرك عن ماضيك وحاضرك ومستقبلك! إنه شخص مبتسم ولو رأيته لصرت مثله. والعجيب أنه عالم هندوكى كبير، لكنه يعارض الرهبانية، وترك الدنيا والمعبد وأكل روث البقر ومثل ذلك، ويعتبر أن التقاليد الجامدة لا حقيقة لها، ويقول: اكسروا التقاليد الجامدة تصبحوا بشرا، اتركوا الاعتقاد فى الآلهة وذلك بأن تجعل من نفسك أنت إلها، وإذا كنت إلها فلا يمكن أن تكون إنسانا.

شكّ "راى صاحب" فيما يقول، فقد كان يعتقد أن علماء الهندوك الذين يؤمنون بهذه المعتقدات سيحلون مشاكل الأغنياء والمشاكل الروحية كذلك، وهم يطمعون فى الاطمئنان عن طريق عبادة القلب المغموم، وعندما تكون المشاكل المادية سببا فى القلق يفكرون فى اعتزال الحياة

ويرون ذلك سبيل النجاة. وكان يعتقد أن التقاليد الدنيوية هي سبب عدم رقى الروحانيات وأن الابتعاد عنها هو معيار الحياة، لكن ماذا نفعل لكسر هذه التقاليد الجامدة دون رهبانية ودون ترك الدنيا. قال:

– إذا كان يعتقد أن الرهبانية هي المسرحية فلم يترهبن هو؟!

– إنه لم يترهبن حتى الآن، وهو يقول إن الإنسان يجب عليه أن يعمل حتى آخر أنفاسه، إن الفكر الحر من أهم نصائحه.

– أنا لا أفقه شيئا في التفكير الحر!

– أنا أيضا لا أفهم ذلك! لكن إذا حضرت فيما بعد فتحدث معه. إنه يعتبر الحب هو الحياة الصادقة، إنه يتحدث بصراحة وكل من يسمعه يشعر بالسرور.

– ألم تلتق الآنسة "مالتي" به؟

– أتسخر مني، كيف أجعلها تقابله؟!

لم يمكن الحديث بينهما قد انتهى عندما سمعا صوتا من بين الأعشاب، فانتبها واختبأ هو خلف "راى صاحب" لإنقاذ نفسه. خرج فهد من بين الأعشاب وتقدم إلى الأمام ببطء، رفع "راى صاحب" البندقية وأراد أن يصوبها نحوه فقال "كهنا":

– ماذا تفعل؟ لم تقتله دون سبب لو عاد ماذا سيحدث؟!

– لم يعود؟ سوف يموت.

- دعنى أصعد هذه الصخرة فأنا أمقت الصيد.

- لم حضرت للصيد إذا؟!

- إنه حظى العاثر!

أخفض "راى صاحب" البندقية:

- لقد ضاع الصيد الجميل فمتى ستسنح فرصة أخرى كهذه؟!

- لا يمكن أن أقف هنا، إنه مكان خطر.

- لنصطد فريسة واحدة، فلو عدت خالى الوفاض فسأشعر بالخجل.

- لتوصلنى إلى السيارة من فضلك وبعدها لتصد نمرا أو فهدا.

- فى الحقيقة أنت جبان يا سيد "كهنا"!

- ليس من الشجاعة أن أضحى بروحى دون سبب!

- حسنا، لترجع بكل سرور.

- وحدى؟!

- الطريق آمن تماما.

- كلا، لتأت معى وتوصلنى.

حاول "راى صاحب" إفهامه لكن دون جدوى، بل اصفر وجهه خوفا من الموت، ولو خرج سنجاب فى هذا الوقت لصرخ ووقع على الأرض.

كانت كل خلجة من جسده ترتعش وابتل بالعرق، اضطر "راى صاحب" أن يذهب معه وعندما ابتعد الاثنان وعاد إلى السيد "كهنا" وعيه، قال:

- أنا لا أخاف الخطر، لكن لا أحب المخاطرة فهى حماقة.

- نعم، لقد رأيت فهذا فطار صوابك!

- أنا أعتقد أن الصيد كان منتشرا عندما كان الإنسان كالحيوان، لكن الآن المدنية تتطور مع الوقت.

- سأحكى كل ما حدث للآنسة "مالتى".

- أنا لا أخجل من السلام.

- حسنا، أكانت هذه مسألة خاصة بالسلام؟ حسنا!

قال "كهنا" بغرور:

- هذه هى قضيتى، أنت تنتسب إلى بوذا⁽¹⁾ والإله شنكر⁽²⁾ ثم تقتل الحيوانات الخرساء؛ أنت من يجب أن يخجل وليس أنا!

سارا مسافة وهما صامتين، ثم قال "كهنا":

- متى ستحضر؟ فأنا أريد أن تملأ صك التأمين اليوم، وعقود أسهم السكر عندى كذلك.

---

(١) هو مؤسس العقيدة البوذية التى ظهرت في الهند فى القرن السادس قبل الميلاد، وتقوم هذه العقيدة على فكرة الخلاص.

(٢) أحد آلهة الهندوك، واسم من أسماء الإله شيفا إله الدمار، أحد آلهة الثالوث الهندوكى.

قال "راى صاحب" بلهجة متفكرة:

– دعني أفكر قليلا.

– لا توجد ضرورة للتفكير.

أما المجموعة الثالثة فتكونت من "خورشيد" و"تنخا"، كان ماضى "خورشيد" ومستقبله كالورقة البيضاء، كان فى حالة من النشوة، ولم يكن لديه حمل من الماضى وليس عنده تفكير فى المستقبل فهو يتصرف كيفما يحدثه قلبه. كان كأنه تمثال الفكاهة وسط جماعة الأصدقاء، لم يكن هناك عضو فعال فى المجلس مثله، وعندما كان يقف أمام الوزراء كانت أسئلته تبكيهم. لا يتسامح مع أحد، وهو الذى يبعث الفكاهة فى المجلس. وكان اليوم عنده هو الحياة، فلا أحد يعرف ماذا سيحدث غدا. وعندما يغضب لا يقف أحد أمامه، لكنه يسجد أمام الضعفاء، وإذا حاول أحدهم أن يتملقه يقف أمامه ويتصدى له. وهو لا يتذكر ما له وما عليه، كان معاقرا للخمر، محبا للشعر، وكانت المرأة فى نظره للتسلية فقط؛ لكنه كان قد أحب امرأة منذ زمن بعيد.

أما السيد "تنخا" فكان يقيم الصداقات ثم ينهيها، يساوم، يحل المشاكل، ويضع العراقيل، يخرج النفط من الأرض ويضغط على الرقاب، ويخرج من المشاكل بذكاء دون أن يصيبه ضرر، وإذا شاء جعل السفينة تسير فى الرمال، وأنبت الزرع فى الحجر. يقرض الإقطاعيين من المرابين، يفتح الشركات الجديدة، يختار المرشحين وقت الانتخابات وهذا

كل ما يقوم به من عمل. إن حظه كان يلمع فى أيام الانتخابات فقد كان يخدم المرشح الثرى بقلبه وروحه ويكسب من ورائه عشرة أو عشرين ألف روبية؛ عندما كان حزب المؤتمر قويا كان يساعد مرشحى الحزب، وعندما كانت جماعات الفتن الطائفية تقوى كان يعمل إلى جانب الحزب الهندوسى، وكانت لديه دائما الحجج على صحة ما يقوم به، ولا يستطيع أحد مجادلته. كان صديقا لرؤساء المدن والأمراء والحكام، وإذا كان الناس لا يحبون وجهة نظره فى داخلهم إلا أن هدوء طبعه يجعلهم عاجزين عن مواجهته بشىء.

مسح "مرزا خورشيد" العرق عن جبينه، وقال:

– اليوم غير مناسب للصيد، بل يجب أن يكون أمسية شعرية.

أيد المحامى كلامه:

– نعم، فى الحديقة يكون جيدا.

بعد فترة بدأ "تنخا" يتحدث عن العمل:

– ستحدث أشياء جديدة فى الانتخابات القادمة، وستكون مشكلة لك أيضا.

قال "مرزا" بلا مبالاة:

– أنا لم أرشح نفسى!

سأل "تنخا":

– لماذا؟!

– ما الفائدة فى الوقوع فى الآلام دون مقابل؟ أنا لا أؤمن بالديمقراطية، إنهم يضيعون الشهور بحثا عن حل بسيط! نعم إلا أن هذا يحدث فقط لذرّ الرّماد في عيون الشعب! وأنا أفضل على هذا أن أكون حاكما لولاية بصرف النظر إذن من قبل الهنود أو الإنجليز، وهذا لا جدال فيه! إن موتورا واحدا يمكنه أن يجعل العربة تسير آلاف الأميال. إننى حزين من مسرحية المجلس التشريعى ولو كان بإمكانى لأحرقته، ويقولون هذه هى الديمقراطية! إنه فى الأصل مخصص لكبار التجار والإقطاعيين يتحكمون فيه، أليس كذلك؟! من لديه نقود يفوز فى الانتخابات، ومن يملك المال يحصل على الكثير من الرعايا بماله. إن كبار العلماء الهندوك ومشايخ الإسلام والكتاب والخطباء الذين يجعلون الشعب يميل حيث يريدون جميعهم يعبد إله الذهب. لقد صممت أننى لن أدخل الانتخابات ولن أقربها، وسأقوم بعمل دعاية مضادة للديمقراطية.

وأعطى السيد "مرزا" دلائل من آيات القرآن على أن الملوك في الزمن القديم كانوا أصحاب مكانة عالية فى هذا المجال، ولن نستطيع اليوم الوصول إلى علو منزلتهم، وإذا نظرنا نحوهم تفتحت أحجبة العيون. إن الملوك لم يكونوا قادرين على صرف مليم من خزانة الدولة على نفقاتهم، وكانوا يعيشون على نقل الكتب، وحياكة الملابس وتعليم الأولاد؛ وعدّد السيد "مرزا" قائمة طويلة لهؤلاء الملوك، وكيف كانوا يرعون الشعب. أما اليوم فإن الوزراء الذين يحصلون على خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية آلاف روبية شهريا يسمون هذا النهب ديمقراطية؟!

ثم رأى مجموعة من الظباء فلمع وجهه فرحا بالصيد، رفع البندقية وصوبها فسقط ظبى أسود:

- لقد قتلته!

وجرى "مرزا" نحوه وهو يصرخ بصوت جنونى، كالطفل الذى يركض وهو يصفّق فرحا. بالقرب منه كان هناك رجل يقطع الخشب من الشجر، وعلى الفور نزل من على الشجرة وركض مع السيد "مرزا"، أصابت الرصاصة عنق الظبى وكانت أرجله ترتجف وتحجرت عيونه. نظر الحطاب إلى الظبى بحزن وقال:

- كان قويا، إنه لا يقل عن أربعين كيلو، لو أمرت فسأوصله لك؟

لم يقل "مرزا" شيئا، كان ينظر إلى عيون الظبى الممتلئة بالألم؛ كان حيا قبل دقيقة واحدة لو حركت أمامه ورقة لطار كالهواء، وكان يرعى العشب الذى أنبته الله له مع أطفاله وزملائه، أما الآن فصار بلا حراك، ولو سلخت جلده، أو قطعته فلن يشعر بشيء. إن الشيء الجذاب الذى كان فى حياته السعيدة اختفى من هذه الجثة. كم كان جسده متناسقا، وعيناه جميلتين، ووجهه حلوا وعندما كان يجرى ويقفز يملأ قلوب الناس بالفرحة، كأن قلوبنا تقفز معه، عندما كان حيا كان يشع حياة فى كل مكان كما تنشر الزهرة الرائحة العطرة، لكن رؤيته الآن تَبُثُّ الألم!

سأل الحطاب:

- إلى أين أحمله؟ لتعطينى قرشين أو أربعة.

أفاق السيد "مرزا" من أفكاره، وقال:

– حسنا، لتحمله، أين ستذهب؟

– إلى أى مكان تريد!

– كلا، سأعطيه لك، احمله حيث تريد.

نظر الحطاب إلى السيد "مرزا" بتعجب ولم يصدق أذنيه، وقال:

– كلا يا سيدى، كيف نأكله وأنت من اصطدته؟!

– كلا كلا، أقول لك بكل سرور خذه. كم يبعد منزلك عن هنا؟

– حوالى كيلو ونصف يا سيدى.

– سأسير معك وأرى كيف سيُسَرُّ أهلك وأولادك؟

– أنا لن آخذه يا سيدى! لقد حضرت من بعيد واصطدت فى شدة حرارة الشمس فكيف سآخذه؟!

– خذه خذه ولا تتلكأ، لقد تيقنت من أنك رجل صالح.

حمله الحطاب خائفا وهو ينظر إلى وجه السيد "مرزا" بعيون يملؤها الشك، فقد يغضب. أخذ الظبى ثم فجأة تركه ووقف قائلا:

– لقد فهمت يا سيدى، حضرتك لم تسمِ الله عليه؟!

ابتسم السيد "مرز"ا قائلا:

– لقد فهمت ما حدث جيدا، خذه إلى المنزل.

لم يكن "مرزا" رجلا متدينا، ولم يصلِ منذ عشر سنوات. كان يصوم يوما واحدا كل شهرين دون طعام أو شراب، لم يرد السيد "مرزا" أن يخبره أن الظبى غير صالح للأكل حتى يطمئن. وضع الحطاب الظبى على كتفه وذهب إلى المنزل. كان السيد "تنخا" يقف تحت الشجرة دون مبالاة، لم يتجه نحو الظبى فى حرارة الشمس، وهو لم يعرف ما يحدث. لكن عندما رأى الحطاب يذهب إلى الاتجاه المعاكس جاء إلى السيد "مرزا" وقال:

– أين تذهب؟ هل نسيت الطريق؟

ابتسم "مرزا" ابتسامة المذنب، وقال:

– لقد أعطيت الصيد لهذا الرجل الفقير، وسأذهب الآن إلى منزله لتتفضل معى.

نظر "تنخا" إلى "مرزا" بتعجب، وقال:

– هل أنت فى وعيك؟!

– لا أعرف، لا أعرف!

– لم أعطيته الصيد؟!

– لأنه سيُسر أكثر منا.

قال "تنخا" مازحا:

– دعه، لقد كنت أعتقد أننا سنتناول الكباب وقد قضيت على كل أمنياتى! حسنا، سيعود "راى صاحب" و"مهتا" بالصيد فلا تحزن. أريد

أن أخبرك عن الانتخابات، إذا كنت لا ترغب فى ترشيح نفسك فكما يحلو لك، لكن لا أريد منك أن تطلع أحدا بعدم ترشيحك فإننا نأخذ النقود من المرشحين. إن الأثرياء يعطون أصواتهم لبعضهم البعض، والحكام يساعدونهم، أما أنت فذو تأثير كبير على الشعب وهم يخافون من هذه الشعبية، لو أردت لأخذت منهم عشرة أو عشرين ألف روبية مقابل عدم ترشيح نفسك فى الانتخابات .... لا تعترض ودعنى أطلعك على كل شيء وأنت لن تفعل شيئا بهذا الشأن ولن تشغل بالك: سأعد قائمة بما ستفعله بعد الفوز، وسأعطيك عشرة آلاف روبية نقدا فى نفس اليوم مساء.

نظر "مرزا" إليه باحتقار وقال:

- اللعنة عليك وعلى نقودك!

لم يتأثر السيد "تنخا" بكلامه، حتى إن تعابير وجهه ظلّت جامدة:

- العنى كما تشاء، لكن إن لعنت النقود تصيبك الخسارة.

- أنا أعتقد أن مثل هذه النقود حرام.

- أنت لا تعمل وفق الشريعة.

- النهب حرام، وليس ضروريا اللجوء إلى الشرع لمعرفة ذلك!

- كأنك لن تغير رأيك بهذا الخصوص؟!

- كلا!

– حسنا دعك من هذا، لو كنت مديرا لشركة التأمين فأظن أنك لن تعترض على هذا؟! وليس من الضرورى شراء حصة فى الشركة، فقط نريد اسمك.

– بالتأكيد لا! أنا لا أقبل أن تستخدم اسمي. كنت رئيسا لمجلس إدارة العديد من الشركات، كما كنت العضو المنتدب، لقد كانت الثروة تقبل قدمى. أنا أعلم أن الثروة يمكن أن تشترى بها الراحة وترف العيش، لكنى أعلم أيضا أن الثروة تجعل المرء أنانيا؛ حياة مريحة مع مكر وعدم نخوة.

لم يجرؤ المحامى على تقديم عرض آخر له، كان يعتقد أن السيد "مرزا" عاقل وذو تأثير لكنه تيقن الآن من أنه أقل من هذا. إن الثروة هى كل شيء فى الحياة، والشخص الذى لا يبالى بالمال لا يمكن أن يكون صديقا له. كان الحطاب يركض وهو يحمل الظبى على كتفه، تقدم السيد "مرزا" كذلك أما السيد "تنخا" فقد تقهقر إلى الوراء بسبب ضخامة جسده، فنادى "مرزا":

– اسمع يا سيد "مرزا"، أنت الآخر تجرى وتتركنى!

أجاب السيد "مرزا" دون أن يتوقف:

– ذلك الفقير يحمل الظبى ومع هذا يجرى بسرعة، ونحن لا نستطيع حتى محاذاته ونحن نحمل أجسامنا فقط!

ألقى الحطاب الظبى على صخرة وتوقف لالتقاط أنفاسه.

حضر السيد "مرزا" وسأله:

- لم توقفت؟

قال الحطاب بخجل:

- إن الظبى ثقيل يا سيدى.

- أعطنى إياه لبعض المسافة.

ضحك الحطاب، ورغم أن السيد "مرزا" كان قوى الجسد وأطول منه وأسمن، وهذا الرجل نحيف ومع هذا ضحك على كلامه. شعر السيد "مرزا" كأن أحدهم ضربه بالسوط فسأله:

- لم تضحك؟ أتعتقد أننى عاجز عن حمله؟!

استسمحه الحطاب قائلا:

- حضرتك من علية القوم، أما نحن فالحمل عملنا.

- أنا أضخم منك!

- هذا ليس مهما يا سيدى.

لم يتحمل "مرزا" إهانة رجولته أكثر من هذا، وتقدم ورفع الغزال فوق عنقه ومضى. لكن المشكلة أنه لم يسر سوى خمسين قدما حتى انحنت رقبته، وارتعشت قدماه، وظهرت غمامة أمام عينيه، قوى نفسه وسار لعشرين قدما أخرى، أين ذهب سيئ الحظ هذا؟! إن جسد الظبى

يبدو وكأنه امتلأ بالزجاج، لو وضع على عنق السيد "تنخا" سأشعر بالسرور! لكن كيف أنزل حملي؟! ظن أنهما يقولان في نفسيهما ليرينا رجولته؟ وهو عاجز عن وضع الظبي بنفسه، استسلم بعد خمسين قدم أخرى.

قال الحطاب مستهزئا:

– كيف حالك يا سيدي؟ إنه خفيف للغاية أليس كذلك؟!

شعر مرزا بأنه خفيف، فقال:

– أنا سأحمله نفس المسافة التي حملته أنت فيها.

– ستشعر بالألم في رقبتك لعدة أيام ياسيدي!

– لتعلم أنني لست منتفخا بلا قوة.

– كلا يا سيدي! لن أفهم هذا لكن لا تحيّر نفسك، ضعه على تلك الصخرة.

– أستطيع أن أحمله مسافة مثل هذه.

– لكن ليس أمرا جيدا أن أسير وأنت تحمله!

أنزل "مرزا" الظبي ووضعه على صخرة، لحق به المحامي كذلك فقال "مرزا":

– لا بد أن تحمله أنت أيضا يا سيدي!

نظر المحامي إلى السيد "مرزا" دون اكتراث وقال:

– لتسامحني؛ أنا لم أدَّعِ أنني بهلوان!

– إنه ليس ثقيلا، صدقني!

– دعك من هذا العبث.

– لو حملته لمسافة مائة قدم أعدك أنني سأقبل كل ما عرضته عليّ.

– لن أقع في الفخ!

– أقسم إنني لا أحتال عليك! سأرشح نفسي في أي منطقة تريدها، وسأنسحب متى أمرتني. وإذا أردت يمكن أن أكون مديرا للشركة وسمسارا، كما سأعمل في الإعلانات، لكن احمله لمائة قدم فقط. وأنت تعرف حق المعرفة علاقتي الجيدة بأصدقائي، فهم سيعملون ما أطلبه منهم.

شعر السيد "تنخا" أن السيد "مرزا" صادقا فيما يقول، كما أن الغزال لن يكون ثقيلا لهذه الدرجة. لقد حمله السيد "مرزا" نفس هذه المسافة ولم أره قد أنهك من التعب. لو رفضت فستضيع مني هذه الفرصة الذهبية إنها ليست مشكلة كبيرة؟ إنه في حدود أربعين أو خمسين كيلو وسيؤلمني عنقي ليومين أو أربعة؛ عندما ستكون النقود في جيبي سأشعر أن المرض قد سبب الراحة.

– مائة قدم فقط؟ سأمشي معك وأعد المائة قدم واحدة واحدة.

– وتسير أنت معنا؟

– من يتقدم عليك فعليه اللعنة!

ربط "تنخا" رباط الحذاء جيدا، وأعطى سترته للحطاب ورفع سرواله ومسح وجهه بالمنديل، ثم نظر نحو الظبى كأنه سيلقى بنفسه فى التهلكة. حاول رفعه مرتين أو ثلاث مرات وفى النهاية نجح في وضعه على عنقه، غير أنه لم يستطع رفع رقبته وانحنى وسطه، اضطربت أنفاسه وأراد أن يلقى به على الأرض إلا أن السيد "مرزا" ساعده ودفعه إلى الأمام.

تقدم السيد "تنخا" كأنه يسير فى رمال متحركة، شجعه "مرزا" قائلا:

– ما شاء الله! يا أسدى، آه، آه!

سار "تنخا" قدما أخرى، وشعر بعدها أن عنقه سيتحطم.

– لقد ربحت الميدان! ما شاء الله! لتعش أيها الشاب!

سار تنخا قدمين أخريين وقد جحظت عيناه.

– اجتهد مرة أخرى يا صديقى! دعك من المائة قدم لنجعلها خمسين.

كانت حالة المحامى في غاية السوء، كان يشعر كأن الظبى الميت يشرب من دمه كأسد، انهارت قواه تماما، وكل ما كان يجعله يتحمل هو الطمع كالعصا التى تحمل التكعيبة، إن القضية تتعلق بخمسين ألف روبية لكن فى النهاية لم تتحمل هذه العصا وانكسر وسط الطمع، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ودار رأسه وسقط حامل الصيد على الأرض الحجرية!

رفعه "مرزا" على الفور، وحرك الهواء بالمنديل وربت على ظهره إعجابا بشجاعته.

أخذ "تنخا" نفسا عميقا وقال:

– لقد أردت اليوم قتلى، إنه لا يقل عن ثمانين كيلو!

قال "مرزا" ضاحكا:

– لكن يا أخى الحبيب لقد حملته مثل هذه المسافة!

بدأ المحامى يتملقه:

– كنت أود أن أكمل ما طلبته منى، وأنت كنت تريد أن تتسلى بمشاهدتى! والآن هل ستفى بوعدك؟

– هل أكملت الاتفاق؟!

– لقد حاولت ما بوسعى!

– هذه ليست حجة.

أخذ الحطاب الغزال وتقدم إلى الأمام كأنه يريد أن يريهما أنهما لم ينجحا فى شيء فقد حملاه لمسافة عشرة أقدام بعد مجهود شاق، أنا أضعف منكما إلا أننى أبرع منكما فى هذا الميدان. حسنا أنت تستطيع أن تكتب على الورق متى تشاء وتدافع بالكذب!

كانت هناك قناة بها القليل من الماء، ووراء القناة تقع قمة الجبل، ويوجد هناك حى به خمسة أو سبعة منازل ورأوا أطفالا يلعبون تحت شجرة التمر الهندى، عندما رأوا الحطاب ركضوا جميعا لاستقباله وسألوه:

– من اصطاده يا أبى؟ وكيف؟ وأين؟ وهل أصابته الطلقات هو فقط ولم تصب غيره؟

كان الحطاب يجيب بكلمة "حسنا! حسنا!" حتى وصل إلى شجرة التمر الهندى فأنزل الظبى واتجه نحو منزله الخشبى ليحضر لهما أريكة. تعاون أربعة من الأولاد والبنات فى حمل الصيد، وحاولوا إبعاد الأولاد الآخرين، وقال أصغرهم:

– هذا لى.

زجرته أخته الكبرى والبالغة الخامسة عشرة من عمرها، ونظرت إلى الضيوف وقالت:

– اصمت، وإلا أخذك الشرطى.

قال "مرزا" للولد يداعبه:

– هذا ليس لك بل لى.

ركب الولد على الغزال، وأحكم قبضته عليه وقال:

– لقد أحضره أبى!

وقالت أخته:

– قل له إنه لك.

كانت والدة الأطفال تقطع أوراق الشجر للأغنام، وعندما رأت غريبين أحكمت غطاء رأسها، وحضرت وهى تشعر بالخجل من مقابلتهما لأنها

كانت ترتدى ساريا قذرا وممزقا فكيف تقابل به الضيوف؟! لكن إذا لم تذهب فمن سيقوم بالعمل؟ ومن سيضيفهم؟

حلّت الظهيرة، وكان "مرزا" يريد أن يمضى باقى الوقت فى هذه القرية. اجتمع رجال القرية وأحضروا الخمر، وطهوا الصيد وأحضروا السمن البلدى والدقيق من السوق ودعوا القرية كلها. أكل الكبار والصغار والرجال والنساء، احتسى الرجال الكثير من الخمر حتى سكروا وظلوا يغنون حتى المساء، وقام أحد الأطفال بوضع قلنسوته على رأسه، وأحيانا يأخذ البندقية ويضعها على كتفه ماشيا بفرح، وأحدهم يأخذ ساعته ويضعها فى يده. شرب السيد "مرزا" الخمر المحلى، وظل يغنى كرجال الغابة. عندما حلّ المساء استأذن فى الانصراف، فرافقه رجال القرية والنساء لمسافة كبيرة، كان العديد منهم يبكى لفراقه، إن هذه الفرصة الذهبية تحدث لأول مرة فى حياة الفقراء بأن يضيفهم صاحب الصيد. لا بد أنه أحد الملوك، وإلا ما كان كبير القلب هكذا؟ لا يمكن أن نصادف شخصا كهذا مرة أخرى!

بعد أن ساروا لمسافة قال "مرزا" وهو ينظر إلى الوراء:

- كانوا فى غاية السرور! ليت هذا اليوم يتكرر فى حياتى! لقد كان اليوم يوما مباركا!

قال "تنخا" بتعابير جامدة:

- مبارك لك! أما لى فقد كان يوم نحس. لم أحقق شيئا من مطالبى، لقد سرنا اليوم كله فى الغابات والجبال ونعود دون تحقيق شىء.

توقف "مرز"ا وقال:

- أنا لن أواسيك.

عندما وصلا تحت شجرة البرجد(٢) كانت المجموعتان الأخريان قد عادتا، كان وجه السيد "مهتا" مغتم و"مالتى" تجلس حزينة بمفردها، كان كل من "راى صاحب" والسيد "كهنا" يشعر بالجوع ولم ينطق بكلمة، كان المحامى عابسا بسبب قلة وفاء السيد "مرزا"، وحده السيد "مرزا" كان يشعر بسرور روحانى.

---

(٢) من الأشجار الظليلة، وهى ذات فوائد طبية عديدة.

الفصل الثامن

عندما وصلت البقرة عند منزل "هورى" زادت من رونقه، كانت "دهنيا" تفتخر بها أكثر من اللازم فهى تتحدث عنها فى كل وقت.

انقضى وقت السحر، قاموا بزراعة البرسيم فى أرض القصب كى يطعموا الماشية. كانوا يرفعون أبصارهم إلى السماء انتظارا لسقوط الأمطار حتى ينبت العلف، لكن مرّ نصف موسم المطر دون أن تنزل قطرة واحدة.

فجأة تلبّدت السماء بالسحاب وأمطرت لأول مرة، فخرج الفلاحون للزراعة فى فصل الخريف. فجأة حضر مدير أعمال "راى صاحب"، وقال:

- إذا لم تدفعوا الخراج فلا يمكن لكم حراثة الأرض.

وقع هذا الكلام على أسماع الفلاحين كالصاعقة، لم يكن يستعمل هذه الشدة فيما مضى فكيف يفعل هذا؟! لن يفر أحد منا من القرية، وإذا لم نحرث الأرض فمن أين نأتى بالنقود؟! النقود تخرج من الأرض! يجب علينا أن نذهب إلى مدير أعمال "راى صاحب" ونقص عليه ما حصل.

كان اسم مدير أعماله "بندت نوكهى رام"، لم يكن رجلا سيئا لكن هذه أوامر الإقطاعى فكيف يعارضه؟! لقد تحدث "راى صاحب" فى ذلك اليوم كلاما مليئا بالوفاء والكرم والجود والتدين، واليوم كيف يظلم رعيته؟! أعدّ "هورى" نفسه للقاء الإقطاعى، لكنه عاد وفكر: إذا كان قد أمر مدير أعماله بأمر فكيف سيرجع عنه؟! ولماذا يسيء إلى نفسه أمامه وهو رئيس العمال؟! مادام لم يتكلم أحد فلن أقع وحدى فى النار، سأفعل ما يفعله الآخرون.

ثارت الغوغاء بين الفلاحين، وهرعوا جميعا لاقتراض النقود من المرابين. كان أكبر مرابٍ فى القرية هو "منجروشاه"، لقد ربح الكثير هذا العام كما أن مكاسبه من القمح لم تكن قليلة. كان هناك مرابون آخرون مثل: "بندت داتادين" و"دولارى" البقالة، أما أكبرهم جميعا فكان "جهنجرى سنج" الذى كان وكيلا لمرابٍ كبير يعيش فى المدينة، ويوجد العديد من الناس يعملون تحت أمره ويقومون بالعمل فى القرى المجاورة. بالإضافة إلى ذلك كان صغار المرابين يأخذون اثنى عشر فلسا عن كل روبية كربا ودون وجود صك؛ لو امتلك أحد أهل القرية مائة أو مائتى روبية لعمل بالربا. كان "هورى" نفسه يعمل مرابيا فى وقت ما، ولهذا كان الناس يعتقدون أن "هورى" يملك نقودا مدفونة، أين ذهبت تلك النقود؟ إنها لم تظهر عند القسمة، كما أن "هورى" لم يؤد بالحج، فأين ذهبت تلك النقود كلها؟! لقد تمزّق حذاؤه ولم يشترِ حذاء آخر!

ذهب كل واحد فى طريق، بعضهم اتجه إلى الآلهة، وبعضهم اتفق على أخذ النقود بالربا، وبعضهم اتفق أن يكون الربا ستة قروش عن كل

روبية، لكن "هوري" مازالت لديه بعض النخوة فكيف يذهب للاقتراض وهو لم يسدد القديم؟! لم يرَ أمامه سوى "جهنجرى سنج"، الذى يأخذ صكا بالدين ويأخذ الهدايا ونقود إضافية على حدة، كما كان يأخذ بدلا عن الكتابة والطوابع ويأخذ الربا مقدما كل سنة، وإذا أردت خمسا وعشرين روبية أعطاك سبع عشرة روبية فقط. لكن فى هذا الوقت العصيب ماذا تفعل؟! إن هذا الظلم قد وقع بيد "راى صاحب" وإلا ما كنا احتجنا أن نمد أيدينا إلى أحد!

كان "جهنجرى سنج" ينظف أسنانه بالسواك، كان رجلا قصير القامة، سمين الجسم، أصلع، أسود اللون، طويل الأنف، ذا شارب كث كأنه قراقوز فى مسرحية، كان رجلا مضحكا. ولأنه قد تزوج من القرية فقد كان يقول للرجال أنتم أصهارى، ولو كان أحدهم كبير السن يقول له يا حماى، ويقول للنساء أنتن أخوات زوجتى. كان الأطفال يزعجونه فى الطريق، ويقولون: "سنسجد عند قدميك" وكان هو يدعو عليهم: لتنكسر عيونكم، وركبكم، وتصابوا بالمرض، وتشعلوا النار فى بيوتكم، وما إلى ذلك، غير أن الأطفال لا يكفون عن استهزائهم. لكنه كان شديدا للغاية فى معاملات الأخذ والعطاء، لا يترك مليما من الربا ولا يعود من الباب دون أخذ النقود.

ذهب "هورى" وسلم عليه، وحكى له أحواله.

ابتسم "جهنجرى سنج" قائلا:

– وأين أنفقت النقود السابقة؟!

– لو كان عندى نقود فلِمَ أذهب إلى المرابين؟! لابتعدت عنهم! من يحب الربا؟!

– لا يمكن أن تخرج النقود المدفونة حتى وإن زاد الربا، هذه طبيعتكم.

– أى نقود مدفونة يا سيدى؟! إننى لا أجد قوت يومى. لقد صار ابنى شابا وأنا عاجز عن تزويجه، كما أن البنت الكبرى أصبحت فى سن الزواج، لو كان عندى نقود لأخرجتها!

منذ أن رأى "جهنجرى سنج" البقرة على باب "هورى" وهو يتطلع إليها، إن شكل البقرة يدل أنها تعطى خمسة كيلوات من الحليب على الأقل. فكر فى نفسه: لقد سنحت لى الفرصة فى أن ألقى بهورى فى مصيبة وأخطف البقرة. قال:

– حسنا يا أخى ليس لديك شىء، لقد قبلت أن أعطيك نقوداً كما تشاء، لكن أنصحك نصيحة مفيدة لو كنت تملك مجوهرات لترهنها عندى وتأخذ النقود، أما إذا كتبت صكا بالدين فسيزيد الربا وتقع فى المصيبة.

– أقسم إنه لا يوجد فى المنزل أى مجوهرات على الإطلاق، وأساور "دهنيا" من النحاس.

أظهر "جهنجرى سنج" التعاطف على وجهه وقال:

– افعل شيئا، لتبع البقرة لى وتنجُ من مصيبة الربا والطوابع والصك، وتأخذ سعرها بعد أن يقدرها أربعة أشخاص. أنا أعلم أنك أحضرتها لترتاح، ولا تريد بيعها، لكن لا بد أن تقى نفسك من هذه المصيبة!

ضحك "هورى" فى البداية على هذا الكلام، إنه لا يريد أن يفكر فى هذا الأمر بقلب بارد، لكن المرابى أفهمه مشكلته وأراه الوجه المتوحش للربا والمرابين واستقر الكلام فى قلبه. المرابى يقول الصدق، فإذا أعطانى النقود فى يدى أخذ بقرتى، ولو كتب صكا بثلاثين روبية فسيعطينى خمسا وعشرين روبية فقط، وإذا لم أسددها فى ثلاث أو أربع سنوات فستصبح مائة روبية والتجربة القديمة تقول الشىء نفسه بأن: القرض ضيف لو حل لا يفكر فى المغادرة، وقال:

- سأذهب إلى المنزل لبحث الأمر.

- المشورة ليست فى صالحك، أبلغهم أن القرض ليس فيه إلا الخراب.

- أنا أعرف أيها المرابى، وسأعود لأعطيك الجواب.

لكن عندما عاد إلى المنزل وقال هذا الكلام حدثت ضجة كبيرة؛ لم تصرخ "دهنيا" كثيرا، أما البنتان فقد وصل صراخهما إلى عنان السماء: لا تعطه بقرتنا، خذ النقود من أى مكان تشاء، وقالت "سونا":

- بدلا من بيع البقرة بعنى أنا فتأخذ نقودا أكثر!

وقع "هورى" فى مشكلة وفكر كبيرين: لقد أحبت البنتان البقرة بصدق، تعلقت "روبا" بعنقها، لم تكن تأكل حتى تضع هى اللقمة فى فمها، كانت البقرة تلعق يدها بحب وتنظر إليها بود شديد. كم سيكون عجلها جميلا! لقد أعطته اسما حتى قبل مولده هو مترو، كانت ستنام معه.

كانت الأختان تتشاجران عدة مرات من أجل البقرة؛ تقول "سونا" إنها تحبني و"روبا" تقول إنها تحبني أنا! ولم يُحكّم في هذا الأمر وظل ادعاؤهما قائما.

تكلم "هوري" مع "دهنيا" فاقتنعت في النهاية: إذا أخذ من أحدهم قرضا على البقرة ثم باعها فهذا أمر غير معقول، لكن إذا وقع إنسان في مصيبة فيبيع حتى دينه، وهذا ليس إثما في الدين! لو لم يكن الأمر هكذا فلم يخاف الناس من وقوع المصائب؟ لم يعترض "جوبر" فقد كان فكره في هذه الأيام في أمر آخر، واتفقوا أن يأخذوا البقرة إلى "جهنجري سنج" بعد نوم البنتين. عجز "جوبر" عن رؤية هذا المنظر المؤلم فذهب إلى مكان آخر، كيف يرى البقرة ترحل من عندهم؟! كيف يمسك دموعه؟! كان متماسكا من الخارج أما من الداخل فقد كان هو الآخر يشعر بالاضطراب! لا يوجد أحد يعطيه خمسا وعشرين روبية في هذا الوقت العصيب حتى وإن ردها خمسين فيما بعد، وعندما وقف أمام البقرة شعر بأن مآقيها السوداء تمتلئ بالدمع، كأنها تقول: (أشبعت مني في بضعة أيام، لقد وعدتني ألا تبيعني طول عمرك، أهذ هو وفاؤك بالوعد؟! لم أشكُ منك في أي شيء، وقد شبعت بأي علف منحتني إياه سواء كان جافا أو لا ولم أقل شيئا، أليس كذلك؟!)

قالت "دهنيا":

– البنتان نائمتان، لم لم تذهب حتى الآن؟ وإذا كنا اتفقنا على بيعها فليكن هذا الآن.

قال "هورى" بصوت مرتجف:

- يدى لا تطاوعنى يا "دهنيا"! ألا تنظرين إلى وجهها، لندعها وآخذ النقود بالربا ولو شاء الإله فسأسددها، إن ثلاثمائة أو أربعمائة روبية ليس بكثير، وعندما يحل موعد حصاد القصب فسنسددها كلها.

نظرت "دهنيا" نحوه بفخر وحب، وقالت:

- نعم! لقد حضرت البقرة إلى المنزل بعد طول دعاء، فهل نبيعها؟! لتأخذ النقود غدا، وكما سنسدد الباقى سنسدد هذه أيضا.

كان كل ما بداخل المنزل مختنقا، الهواء لا يتحرك ولا تهتز ورقة شجر، امتلأت السماء بالسحب لكن لم يكن هناك أثر للمطر. ربط "هورى" البقرة فى الخارج، حذرته "دهنيا":

- إلى أين تأخذها؟!

لكن "هورى" لم يسمع لها، وقال:

- سأربطها فى الخارج فترتاح أو ليست نفسا!

بعد أن ربط "هورى" البقرة ذهب لعيادة أخيه الأوسط "سوبها" الذى كان مريضا بالسل منذ عدة أشهر ولم يستطع التداوى، فهو عاجز حتى عن توفير لقمة العيش ولا بدّ له من العمل بجد ولهذا كانت حالته تسوء يوما بعد يوم. كان "سوبها" رجلا صبورا، كان يبتعد عن أرض المعركة، ولا يدس أنفه فى شؤون الآخرين، بل يهتم بشؤونه فقط. كان "هورى"

يحبه وكان هو يحترمه. تكلما عن موضوع النقود، وكانا ينتقدان أوامر "راى صاحب" الجديدة.

عندما عاد "هورى" متأخرا فى الساعة الحادية عشرة شعر أن هناك رجلا يقف بجوار البقرة، فسأل:

– من يقف هناك؟

قال "هيرا":

– أنا يا أخى، لقد حضرت لأخذ النار من موقدك.

جاء "هيرا" ليأخذ النار من موقده، شعر "هورى" بحبه الأخوى وأنه يبادله الشعور من هذا التصرف البسيط؛ هناك مواقد أخرى في القرية كان يمكنه أخذ النار منها لكن "هيرا" يأخذ النار من موقده، ورغم معرفته أن أهل القرية كلها تأتى لتأخذ النار من عنده لأنه يملك أكبر موقد إلا أن مجىء "هيرا" كان شيئا آخر. ماذا حدث لشجار ذلك اليوم؟! بعد الشجار لم يبق حقد فى قلب "هيرا"، إنه غاضب لكن قلبه صاف.

سأله بلهجة مليئة بالحب:

– أأحضر التبغ؟

– كلا يا أخى، لا تحضر التبغ.

– لقد اشتد المرض على "سوبها" اليوم.

- يرفض أخذ الدواء فماذا سنفعل له؟! وفي اعتقاده أن الأطباء والحكماء والعطارين لا يفقهون شيئا، إن العقل الذى كان عند الإله قد حباه هو وزوجته به!

قال "هورى" مضطربا:

- هذا عيبه لا يسمع نصيحة أحد، وكل من يمرض يغضب من أى كلام. ألا تذكر عندما أصابتك الأنفلوانزا رميت الدواء، وعندما ربطت يدك وكانت زوجتى تعطيك الدواء فى فمك كنت تسبها وهى تفعل ذلك.

- بلى يا أخى، كيف أنسى هذا الكلام لقد فعلت لى الكثير، وإذا لم يكن ذلك فكيف أحيا لأتشاجر معك؟!

شعر "هورى" أن صوت "هيرا" قد ثقل، فامتلأ بالألم وقال:

- يا بنى إن الشجار أمر طبيعى فى الحياة، والإخوان لا ينفصلون بسبب الشجار، وإذا كان فى المنزل أربعة أشخاص يحدث الشجار لكن إذا كان المنزل خاليا من الناس فهل سيقع هناك شجار؟!

دخن كلاهما النارجيلة، ثم ذهب "هيرا" إلى منزله وذهب "هورى" لتناول الطعام.

قالت "دهنيا" غاضبة:

- انظر إلى ابنك لم يعد حتى الآن رغم أن الليل قد انتصف، وحتى الآن لم ينته من اللهو واللعب. أنا على علم بما سيحدث، إنها ابنة "بهولا" الأرملة "جهنيا" فهو واقع فى حبها.

سمع "هورى" هذا الكلام أيضا من قبل لكنه لم يتأكد منه، فقال:

– إن "جوبر" ولد مسكين لا يعرف مثل هذا الكلام، أقال لك أحد شيئا عنه؟

احتدّت "دهنيا":

– أنت لا تعرف شيئا، لكن هذا يتردد فى كل مكان. إنه ولد ساذج أما هى فماكرة، وهى تحركه بإشارة من أصبعها وهو يعتقد أنها واقعة فى هواه. لتشرح له حتى لا يقع ما يسوء، وعندها لن نستطيع أن نواجه أحدا!

قال "هورى" متوددا:

– إن "جهينا" فتاة جميلة حلوة الكلام، فلنزوجه، فمن أين سنأتى بمثل هذه العروس الرخيصة؟!

أصاب هذا التودد "دهنيا" كالسهم:

– لو حضرت إلى المنزل سأحرق وجه هذه الأرملة، وإذا كان "جوبر" يحبها فليأخذها وليذهب حيث يشاء.

– وإن أحضرها "جوبر" إلى هذا المنزل؟

– لمن إذا سنزوج البنتين؟ من سيطلبهما منك فى القرية؟ إن أحدا لن يأتى ويقف على بابك طالبا يديهما!

– إنه لن يهتم.

– لن أترك "جوير" يتزوجها، لقد ربيته بين المصائب ثم تأتي "جهنيا" وتتحكم! سأشعل النار في فم هذه الأرملة.

فجأة دخل "جوير" وهو يقول بصوت مذعور:

– أبي لا أعرف ماذا أصاب البقرة "سُندريا"؟ أعتقد أن ثعبانًا قد لدغها، إنها مضطربة.

دخل "هورى" إلى الفناء وكانت أمامه صينية الطعام فتركها وخرج قائلا:

– ما الشؤم الذى يخرج من فمك؟! كانت مستلقية لقد رأيتها منذ برهة.

اتجه الثلاثة إلى الخارج، ورأوا على ضوء المصباح الرغاوى تخرج من فم البقرة "سُندريا"، وقد تجمدت عيونها، وانتفخ بطنها وتباعدت أقدامها. أخذت "دهنيا" تضرب رأسها، وهرع "هورى" إلى "بندت داتادين"، فقد كان طبيب مواشى القرية.

كان "بندت داتادين" ذاهبا للنوم، فأسرع معه وشيئا فشيئا اجتمعت كل القرية؛ ربما أطعم أحدهم البقرة شيئا، وكان الأمر واضحا لقد أعطاها أحدهم السم، لكن من العدو الموجود فى القرية الذى يفعل هذه الفعلة؟! لم تقع مثل هذه الحادثة فى القرية من قبل! لكن من حضر من خارج القرية؟! كما أن "هورى" لا عداوة له مع أحد حتى يشتبه فيه.

كان قد تشاجر مع "هيرا" لكنه شجار بين أخوين، والأكثر من هذا فقد أظهر هيرا حزنا أكثر من أى شخص آخر، وكان يهدد من قتلها أنه إذا عثر عليه سيشرب من دمه، كان غاضبا كما أنه لا يمكن أن يقوم بهذا العمل الحقير!

اجتمع الناس حتى منتصف الليل، كل يشارك هورى فى همه ويسب من قتلها وأنه لو استطاع الإمساك به لما تركه حيا. إذا كان هذا هو الحال في القرية، فكيف نربط الحيوانات فى خارج المنزل؟! حتى الآن كانت الحيوانات تبيت خارج المنزل دون خطر، لكن الآن حلت هذه المصيبة الجديدة. لقد كانت البقرة جميلة، ولو نظر إليها أحد كان يتأمل جمالها، كانت تستحق العبادة ولم تكن تعطى أقل من خمسة كيلوات من الحليب والعجل منها يباع بمائة روبية، ولم يمر وقت طويل حتى وقع هذا الهم كالجبل. عندما مضى كل واحد إلى منزله أخذت "دهنيا" تسب "هورى":

– لو أفهمك أحد مائة ألف مرة لظللت تفعل ما تشاء! لقد أخذت البقرة من صحن المنزل، ولقد ألححت عليك أن لا تخرجها. أيامنا سيئة، لا علم لنا متى سيحدث شيء سيئ؟! لقد كنت تقول إنها تشعر بالسخونة أما الآن فقد صارت باردة، فهل هدأ قلبك؟! كان "تهاكر" يريدها منك لو كنت أعطيتها له لذهب عنا الحمل، وكان هذا سيكون إحسانا له، فكيف نتحمل هذه الضربة؟! إذا حدث شيء سيئ فالعقل يضيع من قبله. لو كنا ربطناها داخل المنزل حتى وإن شعرت بالسخونة لما أصابها مكروه. لقد تعرفت على كل أفراد المنزل بسرعة كأنها ولدت فى منزلى، كان

الأطفال يلعبون بقرنيها وهى لا تحرك رأسها، وكلما وضعنا لها العلف تنهى ما فيه، لقد كانت بركة فكيف تعيش فى منزل غير أهل للبركة؟!

استيقظت "سونا" و"رويا" على هذه الجلبة، وكانتا تبكيان بشدة؛ كانت مسئولية خدمتها عليهما. كانت رفيقة لهما، عندما كانتا تستيقظان من النوم كانتا تحضران لها لقمة من العيش بيديهما وهى تخرج لسانها وتأخذها وتأكلها، وإذا لم تأخذ من يديهما فكانت تنتظرهما، لقد انكسر حظنا!

كان "جوبر" والفتاتان قد ناموا وهم يبكون، استلقى "هورى" أيضا، وحضرت دهنيا لتضع إبريقا من الماء عند رأسه، وهمس "هورى":

– أنت عاجزة عن كتم شىء! لو علمتِ شيئا لانتشرت الأخبار فى القرية كلها!

قالت "دهنيا" محتجّة:

– أريد أن أعرف ما هو الشىء الذى نشرت أخباره حتى أسىء إليك؟!

– أتشكين فى أحد؟

– أنا لا أشك فى أحد، هل كان من الخارج؟

– هل ستخبرين أحداً لو أخبرتك بأمر ما؟

– إذا لم أخبر أحداً فكيف سيصنع لى أهل القرية المجوهرات؟!

– لو أخبرت أحداً لقتلتكِ.

– لن ترتاح بعد موتى، فأنت عاجز عن الزواج من امرأه أخرى! أنا أعيش وأتحمل عبء المنزل، وعندما أموت فستبكى وتضع يدك على رأسك وأنت تظن أننى مجمع سوء لكن بعد موتى ستبكينى.

– أنا أشك فى "هيرا".

– هذا كذب، كذب! "هيرا" ليس شخصا حقيرا هكذا! إنه يقول الكلام السيئ فقط.

– أنا رأيته بعينى، أقسم برأسك!

– رأيته بعينك، متى؟

– عندما عدت من منزل "سويها" كان يقف بجوار البقرة "سُندريا"، سألته من أنت؟ قال: أنا "هيرا"! لقد حضرت لأخذ النار من الموقد، وأخذ يتحدث معى ودخن النارجيلة، ثم مضى ودخلت أنا إلى المنزل وفى نفس الوقت نادى "جوبر" معلنا عن هذه المصيبة. أنا أظن أنه عندما ذهبت إلى منزل "سويها" حضر ووضع السم فى معلفها، لعله عاد ليتأكد هل ماتت أم لا!

زفرت "دهنيا" زفرة حارة، وقالت:

– هاهم الإخوة الذين لا يفكرون فى قطع عنق أخوهم. أف! أهيرا له مثل ذلك القلب الأسود؟! وأنا التى ربيته حتى صار شابا!

– حسنا، اذهبى للنوم، لكن لا تنسى لا تخبرى أحدا.

- سأقتاده إلى الشرطة فى الصباح الباكر، وإذا لم أفعل هذا فلست ابنة أبى! إن هذا القاتل لا يستحق الأخوة، أهذا عمل الأخ؟! إنه عدو مضل مبين! وقتل مثل هذا العدو ليس ظلما، بل الظلم هو تركه.

هددها "هورى":

- أقول لك يا "دهنيا" سيحدث حدث جلل.

قالت "دهنيا" بانفعال:

- حادثة أو أبو الحادثة، لن أدع "لالا" إلا بعد أن أضعه خلف القضبان لمدة ثلاث سنوات، سيعمل كالمطحنة ثلاث سنين! وعندما يعود من السجن سيدفع الغرامة الدينية، ويذهب للاستحمام فى نهر جنجا، ويقيم حفلة دينية على نفقته. لن يفكر فى الخداع! سأطلبك كشاهد وتحلف بابنك.

دخل "هورى" إلى الحجرة وأغلقها من الداخل، وأخذ يشتم نفسه:

"إذا كنت عاجزا عن الاحتفاظ بالكلام لنفسى فكيف ستحفظه "دهنيا"؟! وهذه الشيطانة لن تسمع كلامى، إذا أصرت على شىء لا تسمع لأحد؛ واليوم أخطأت أكبر خطأ فى حياتى".

كانت القرية غارقة فى الظلام، أحيانا تدق أجراس الثيران، وعلى بعد عشرة أقدام كانت جثة البقرة الهامدة. كان "هورى" يتململ وهو مستلق على السرير ويتأسف على ما حدث وهو لا يرى خيطا أبيض فى الظلام!

الفصل التاسع

فى الصباح الباكر حدثت ضجة فى منزل "هورى"، كان "هورى" يضرب "دهنيا" وهى تسبُّه والفتاتان تمسكان برجلى والدهما، أما "جوير" فكان يحاول مساعدة أمه، كم من مرة أمسك يد "هورى" ودفعه للوراء لكن ما إن تعاود "دهنيا" السب حتى يسحب "هورى" يده ويضربها ضربتين أو أربع بقدمه ويديه. كان غضبه قد أخرج طاقة مخيفة رغم كبر سنه. عرفت القرية كلها بما يحدث واحتشد الناس لرؤية هذه المسرحية، حضر سوبها وهو يتكئ على عصاه وزجر "داتادين":

– ما هذا يا "هورى" أذهب عقلك؟! أيضرب أحدٌ زوجته هكذا! إن هذا ليس من شيمك، أأصابك "هيرا" بالعدوى؟!

قال "هورى" بعد أن قبل قدميه:

– يا سيدى لا تتحدث الآن لأنى اليوم سأقتلها وأرتاح، أنا أتساهل معها لكنها تتمادى!

قالت "دهنيا" بغضب وهى تبكى:

– يا سيدى لتكن شاهدا؛ لن أذوق طعم الماء حتى أرسل أخاه القاتل إلى السجن. لقد قتل البقرة بعد أن أعطاها السم، والآن إذا ذهبت

لإبلاغ الشرطة يضربنى. القاتل، لقد ضيّعت حياتى كلها معه، أهذا هو جزاء وفائى؟!

صكّ "هورى" على أسنانه وجحظت عيناه وقال:

- لقد أعدتِ نفس الكلام! أرأيت "هيرا" وهو يضع السم؟

- لتقسم إنك لم تر "هيرا" عند منزلنا قرب البقرة.

- لم أره، أقسم على هذا.

- لتضع يدك على رأس ابنك وتقسم.

وضع "هورى" يداً مرتجفة على رأس "جوبر"، وقال بصوت مرتعش:

- أقسم إننى لم أرَ "هيرا" قرب المعلف.

بصقت "دهنيا" على الأرض، وقالت:

- عار عليك أن تكذب! ألم تقل لى إنك رأيت "هيرا" يقف قرب المعلف كسارق، أف لك! أتكذب من أجل أخيك؟! عار عليك! لو مسّ ابنى مكروه فسأحرق المنزل بكل ما فيه. يا إلهى يقول المرء الكلمة ويتراجع عنها بلا حياء!

ضرب "هورى" الأرض بقدميه وقال:

- لا تتطاولى يا "دهنيا"، وإلا سيحدث ما يسوؤكِ.

- اضربنى كيفما شئت، إذا كنت ابن أبيك فلا تشرب جرعة ماء حتى تضربنى، أقسم عليك. إن هذا الظالم قد ضربنى حتى كسر عظمى،

لكنه لم يكتفِ لأنه يعتقد أن الشجاعة هى فى ضربى، أمّا أمام أخويه فيصبح رعديدا، يا قاتل! يا ظالم!

كانت تبكى وتستغيث: لقد حضرت إلى هذا المنزل وتحمّلت آلاما شديدة، وحلّت بها المصائب، كانت تتوق إلى الملابس ولم تحصل عليها، جمعت النقود: القرش فوق القرش، وحرصت عليها كروحها، كم مرة أطعمت الجميع ونامت هى دون أن تتناول شيئا سوى شرب الماء، فهل هذا اليوم هو جزاء تضحياتها؟! إن الإله يرى هذا الظلم ولا يتحرك لمنعه عنها!

شيئا فشيئا بدأ الناس يتفقون مع كلام "دهنيا"، فلم يعد لديهم شك أن "هيرا" هو من قام بسم البقرة. أقسم "هورى" على تلك الكذبة البيضاء، فازداد الناس يقينا بأنه كاذب، واحتج "جوبر" على والده لأنه أقسم به كذبا خوفا من أن تصيبه مصيبة نتيجة هذه الكذبة البيضاء. وزجره "داتادين" فمضى "هورى" صامتا، وانتصر الصدق.

سأل "داتادين" "سوبها":

– "سوبها" أتعرف شيئا عن هذا الأمر؟ ما الذى حدث بالضبط؟

كان "سوبها" مستلقيا على الأرض، فقال:

– يا سيدى، أنا لم أخرج منذ ثمانية أيام، وكان أخى "هورى" يحضر أحيانا ويقدم لى المساعدة التى كنت أحيا عليها. وليلة أمس جاء لزيارتى أيضا. وإذا كان أحدهم قد فعل شيئا فلا علم لى! نعم، لقد

حضر "هيرا" عندى أمس وأخذ فأسا، وكان يقول إنه ذاهب للبحث عن الأعشاب ومنذ ذلك الحين لم أره.

تشجعت "دهنيا"، وقالت:

– يا سيد "بندت"! هذا هو ما فعله: لقد أخذ فأسا من بيت "سوبها"، وأحضر عشبا وأعطاه للبقرة، ومنذ الليلة التى حدثت فيها المشاجرة وهو يحمل الحقد فى نفسه.

قال "داتادين":

– لو ثبت هذا الكلام فسيدفع ديّة القتل، وسواء قبضت عليه الشرطة أو لا فإن الدين الهندوسى سيقتص منه. اذهبى يا "روبا" واستدعى "هيرا"، قولى له إن السيد "بندت" يريدك، وإذا لم يكن هو القاتل فليقسم على مياه جنجا فى المعبد.

قالت "دهنيا":

– يا سيدى، لا فائدة من قسمه لأنه سيحلف كذبا، وإذا كان "هورى" وهو إنسان متدين قد أقسم كذبا، فكيف نعتد بقسم "هيرا"؟!

قال "جوبر":

– لو حلف كاذبا فليحلف، وعندها سينقطع نسله، وإذا كان العجائز يعيشون فما الذى يفعله الشبان؟!

حضرت "رويا" مسرعة وقالت:

- عمى ليس فى المنزل يا سيد "بندت"! وزوجة عمى تقول إنه ذهب إلى مكان ما.

هزّ "داتادين" لحيته قائلا:

- ألم تسأليها إلى أين ذهب؟ اذهبى يا "سونا" فربما يكون مختبئا! وربما كان فى المنزل!

اعترضت "دهنيا":

- لا ترسلها يا سيدى! إن "هيرا" قاتل، وقد يمسها بسوء.

ذهب "داتادين" بنفسه متكئا على عصاه، إلا أن "هيرا" فى الحقيقة لم يكن بالمنزل وقد خرج لمكان ما. وقالت زوجته "بنيا" إنه أخذ إبريقا وحبلا وعصا وكل ما يحتاج، وقد سألته عن وجهته فلم يجب، حتى الروبيات الخمس التى كان قد أخفاها فى ماكينة صنع العلف ليست موجودة هناك، فلعله أخذها أيضا.

قالت "دهنيا" بقلب مطمئن:

- لقد فرّ، قبل أن تنكشف الفضيحة.

قال "سوبها":

- إلى أين يفر؟! ربما ذهب للاستحمام فى جنجا!

قالت "دهنيا" بشك:

- إذا كان قد ذهب لجنجا فلم أخذ النقود؟! وهذه الأيام ليست عيدا للاستحمام!

لم يستطع أحد إبعاد هذا الشك، فتيقنوا من صدقها. لم يطبخ فى منزل "هورى" اليوم طعام ولم تعط الثيران المياه، وقد حل الصمت على القرية كلها وهى تفكر فى هذه القصة، واجتمع الناس مثنى ورباع وأخذوا يتحدثون عن تلك الحادثة: لا بد أن "هيرا" قد فرّ لأنه عندما علم أنه عند انكشاف الأمر سيذهب إلى السجن وسيدفع الديّة. كانت "بنيا" أيضا تبكي لأنه لم يقل لها شيئا عن مكان ذهابه، ولم يبق شيء إلا وأكمله قائد الشرطة عندما حضر فى المساء، وكان خفير القرية قد قدم تقريرا عن الحادثة، فكيف يمكن لقائد الشرطة أن لا يتدخل فى هذا الأمر؟ كان على أهل القرية أن يستضيفوه!

واجتمع "داتادين"، و "جهنكرى سنج"، و "نوكهى رام" وحراسه الأربعة، "منجروشاه" و"لاله بتشورى" ووقفوا أمام قائد الشرطة.

استدعوا "هورى"، كانت المرة الأولى التى يقف فيها أمام قائد الشرطة، وكان خائفا كأنه ماض إلى حتفه. عندما يضرب "دهنيا" كان كالأسد، أما عندما حضر قائد الشرطة أصبح كالسلحفاة تخفى رأسها فى داخلها. نظر إليه القائد نظرة فاحصة فعلم ما يدور داخله، فقد كان ماهرا فى الفراسة، ربما كان جاهلا فى علم النفس كدراسة لكنه كان ماهرا فيه من الناحية العملية، وقد تأكد أنه اليوم قد رأى نذير خير.

كان وجه "هورى" يخبر بأنه سيقص كل ما حدث مع تحذير واحد.

سأل القائد:

- بمن تشتبه؟

قبل "هورى" الأرض وضم يديه وقال:

- يا سيدى أنا لا أشتبه في أحد! لقد ماتت البقرة ميتة طبيعية، لقد كانت طاعنة فى السن.

كانت "دهنيا" أيضا قد حضرت ووقفت خلفه، فقالت على الفور:

- لقد قتل أخوك "هيرا" البقرة، والقائد ليس غبيا حتى يصدق كل ما تقوله له، وقد حضر لتحرى الأمر.

سأل القائد:

- من هذه المرأة؟

حاول كل شخص أن يسبق الآخرين ليكون من حسن حظه التحدث مع القائد، تكلموا فى صوت واحد وكل منهم يظن أنه تحدث أولا، قالوا:

- زوجة "هورى" يا سيدى!

- استدعوها لأكتب شهادتها أولا، أين "هيرا"؟

قال علية القوم بصوتٍ واحد:

- خرج اليوم فى الصباح الباكر إلى مكان ما أيها القائد.

– سأفتش منزله.

التفتيش! علت أنفاس "هورى"، لماذا يفتش منزله وهو ليس هناك؟! فكر "هورى" فى نفسه طالما بقيت فىَّ نسمة حياة فلن يُفتّش منزل أخى، ومن الآن فصاعدا لا علاقة لى بدهنيا، ولتذهب أينما تريد! وإذا كانت تريد الانتقاص من كرامتى فكيف يمكنها أن تعيش فى منزلى؟! وعندما تصطدم القدم فى الطرقات بالحصى عندها تعرف معنى الألم!

بدأ علية القوم يتهامسون لإبعاد هذه المصيبة، حرك "داتادين" رأسه الأصلع وقال:

– هذا كله من أجل التربّح، وإلا فاسألوه ماذا يوجد فى منزل "هيرا"؟!

كان المرابى "بتشورى" طويلا للغاية لكنه ليس غبيا، فقال وهو يمط فمه الطويل:

– نعم، وإلا لِمَ حضر؟! وإذا حضر القائد للتفتيش فلا بد أن يحصل على المال.

استدعى "جهنكرى سنج" "هورى" وهمس فى أذنه:

– أخرج بعض النقود وأعطها له، وإلا لن تخرج من هذا المأزق!

تحدث القائد بصوت عال قائلا:

– سأفتش منزل "هيرا" .

استحال لون "هورى" إلى الأصفر، وتجمد الدم فى عروقه، لو فتّش منزل أخيه فكأن منزله قد فُتش، ورغم انفصاله عن "هيرا"، فإن الدنيا كلها تعلم أنه أخى، لكن لن يقدر أحد على منعه! لو كان يملك خمسين روبية لأعطاها للمأمور وهو يقول: "يا سيدى، إن عزتى وكرامتى بين يديك، لكنى لا أملك حتى فلسا واحدا لشراء السم!"

حتى لو كان لدى "دهنيا" روبيتان أو أربع فإن هذه الشيطانة لن تعطينى! فوقف خافضا رأسه كأنه محكوم عليه بالإعدام، وكان يشعر أنه بلا كرامة.

قال "داتادين" لهورى:

– لا فائدة من الوقوف هكذا يا "هورى"، لا بد أن تدبّر النقود.

قال "هورى" بعجز:

– ماذا أفعل يا سيدى؟! إن علىّ دينا فبأى وجه أطلب من جديد؟ لتخرجنى من هذه المصيبة، فإن عشت سأسددها لك كاملة، وإن مت فسيدفعها "جوبر".

تشاور علية القوم حول قيمة الهدية التى سيقدمونها للقائد، قال "داتادين" خمسون روبية، أما "جهنكرى سنج" فرأى ألا تقل عن مائة، ووافقه "نوكهى رام" الرأى، أما "هورى" فلم يكن لديه فرق بين الخمسين أو المائة، ومن أجل الخروج من مصيبة التفتيش فلا بأس من تقديم أى نقود، فهل يشعر الميت إن أحرقته بأربعين كيلو خشب أو بأربعمائة؟!

لكن "بتشورى" رأى أن هذا غير عادل:

- لم تحدث سرقة أو قتل، إنه مجرد تفتيش، عشرون روبية تكفى.

لعنه الزعماء وقالوا:

- أنت الذى ستتحدث مع القائد، فنحن لن نذهب إليه، من سيتحمل الزجر منه؟!

وضع "هورى" رأسه بين قدمي "بتشورى" وقال:

- أعطني النقود، وسأكون خادمك طول عمرى.

قال القائد بقوة من صدره العريض وبطنه الكبيرة:

- أين منزل "هيرا"؟ سأفتشه.

تقدم "بتشورى"، وهمس في أذن القائد:

- ماذا تفعل بالتفتيش أيها القائد؟ إن أخاه حاضر فى خدمتك.

انفصلا عن الجمع للحديث معا:

- من هو؟

- إنه شخص فقير للغاية يا سيدى، ولا يجد قوت يومه.

- حقا؟!

- نعم يا سيدى، أتحدث الصدق.

– حسنا، ألا يستطيع دفع خمسين روبية؟

– نعم يا سيدى! لو وجدت معه عشر روبيات فهى بالنسبة له تساوى ألفا! ليس بإمكانه دفع خمسين روبية إلا إذا وُلد خمسين مرة، وهو سيعطى النقود لو أعطاه المرابى.

قال القائد بعد أن فكر لدقيقة:

– ما الفائدة من الإساءة إليه؟ أنا لا أسىء إلى من يموتون من أنفسهم.

ورأى "بتشورى" أن الهدف قد تحقق أكثر مما يريد فقال:

– كلا يا سيدى، لا تتركه دون أخذ شىء، أين سنذهب نحن؟ ليس لدينا مزارع!

– أنت عامل التخطيط فى المنطقة، فكيف تقول هذا؟!

– عندما تسنح فرصة كهذه فنحن أيضا نكسب من ورائك، وإلا من سيبالى بهذا الموظف؟!

– حسنا لتحضر ثلاثين روبية، عشرون لى وعشرة لك.

– هناك أربعة عمداء، لا بد أن تفكر فيهم!

– حسنا، لتأخذ النصف وتعطنى النصف، لكن بسرعة فأنا على عجلة من أمرى.

تحدث "بتشورى" مع "جهنكرى"، ثم استدعى "جهنكرى" هورى" بإشارة وأخذه إلى منزله وأعطاه ثلاثين روبية بعد عدّها، وقال كأنه يحسن إليه:

- لتكتب ورقة، فأنا دفعت هذه النقود من أجلك أنت فقط، فأنت رجل طيب.

أخذ "هورى" النقود وربطها فى كوفيته وأسرع ناحية القائد بسعادة، فجأة ظهرت "دهنيا" أمامه وجذبت الكوفية بسرعة فائقة، كانت الربطة غير محكمة فانحلّت من قوة الجذب وسقطت النقود كلها على الأرض. فقالت بصوت كفحيح الأفعى:

- إلى أين تأخذ هذه النقود؟ قل! وإذا أردت الخير فأعد النقود من حيث أخذتها، الأهل يموتون جوعا ليل نهار، ويشتاقون إلى لقمة، ولا نجد ما نرتديه سوى الملابس الممزقة وأنت تأخذ النقود حتى تحفظ كرامتك من السوء! أعندك كرامة والفئران تفر من منزلك؟! سيفتش القائد، ليفتش وقتما شاء وأينما شاء! لقد ضاعت بقرة بمائة روبية دون عزة، واحسرتاه على كرامتك!

كتم "هورى" غضبه، وارتعش المجتمعون كلهم، وخفض الزعماء رؤوسهم، وشعر القائد بالحيرة فهو لم يهن هكذا فى حياته!

وقف "هورى" محتارا، فهذه أول مرة فى حياته تتغلب عليه "دهنيا" أمام الناس، رفع رأسه إلى السماء بحيرة كيف سيرفع رأسه؟!

لم يكن القائد يقهر بسرعة، فقال ضاحكا:

– أنا أعرف أن خالة الشيطان هذه هى من أعطت السم للبقرة كى تتهم "هيرا".

حركت "دهنيا" يدها وقالت:

– نعم، أنا من سممتها، كانت بقرتى وقد قتلتها! لم أقتل حيوان شخص آخر! لو خرجت إلى التفتيش لتكتب هذا وتضع فى يدى القيود. لقد رأيت عدلك وعقلك، إن قطع أعناق الفقراء شىء، والتفريق بين الحق والباطل شىء آخر!

اشتعلت النيران فى عيون "هورى" وهجم على "دهنيا"، لكن "جوبر" حال بينهما دفاعا عنها وقال بسرعة:

– حسنا يا أبى، ما حدث قد حدث! تراجع وإلا لو مددت يدك عليها فلن تر وجهى مرة أخرى. أنا لن أمد يدى عليك فأنا لست ابنا عاقا، لكن سأشنق نفسى فى هذا المكان!

تراجع "هورى"، فاستأسدت "دهنيا" وقالت:

– ابتعد يا "جوبر"، لأرى ما سيفعله بى! إن القائد جالس ليرينى همته. تفتيش المنزل يذهب بكرامته، لكن ضرب امرأة أمام القرية كلها لا يذهب بها! هذه هى شيم الشجعان! ولو أنك شجاع حقا فلتتصارع مع الرجال، إنك تضرب من أخذت بيدها لتعيش معك لتظهر شجاعتك،

إنك تعتقد أنك تمنحني الملبس والمأكل، فخذ من اليوم هذا كله وأدر المنزل! وأنا سأعيش في هذه القرية وسأنظر كيف ستعيش أنت؟! أما أنا فسأعيش وآكل وألبس أفضل منك، وإذا أردت فسترى!

انهزم "هورى"، وعلم أن الرجل يكون ضعيفا ومجبرا أمام المرأة!

أخذ الزعماء النقود من على الأرض، وأشاروا للقائد كى يذهب من هذا المكان، فضربت "دهنيا" ضربة أخرى:

– لمن هذه النقود؟ لتعطها له، لن نقترض من أحد، وإذا أردت أن تعطيه فخذ منه! أنا لن أدفع مليما، حتى إن ذهبت إلى المحكمة فلا توجد مشكلة. كنت أريد روبيتين لأسدد باقى الخراج لكن أحدا لم يعطنى، واليوم يمنحوننى حفنة من النقود على الفور! أنا على علم بكل شيء، سيتقاسمون المال فيما بينهم هناك. هؤلاء الظلمة هم عمداء القرية! إنهم يمتصون دماء الفقراء وينهبونهم عن طريق القروض والربا والهدايا والرشوة؛ نريد التقدم، لكن التقدم لا يأتى بالجهل بل يأتى بالدين والعدل.

اسودّت وجوه الزعماء، أما القائد فكان كأنه صفح بمكنسة، ولكى يحافظ على كرامته اتجه نحو منزل "هيرا".

وقال القائد فى الطريق باستسلام:

– المرأة شجاعة جدا!

قال "بتشورى":

– أيها القائد إنها ليست شجاعة بل كثيرة الشجار، ومثلها يجب أن يطلق عليه النار!

– لقد ضيقت الحياة عليكم من أجل أربع روبيات!

– كما ضاعت على القائد خمس عشرة روبية.

– إن نقودى لن تذهب بل سيدفعها عمداء القرية، وبدلا من خمس عشرة روبية أريد خمسين روبية، فأعدوها بسرعة.

قال "بتشورى" ضاحكا:

– أيها القائد أنت تتمتع بروح الدعابة!

وقال "داتادين":

– علية القوم هكذا! ونحن لا نرى مثل هؤلاء الآلهة كثيرا.

قال القائد بلهجة حادة:

–لا تتملقونى، لتحضروا لى الآن الخمسين روبية نقدا. ولو قمتم بأى حركة فسأفتش منازلكم أنتم الأربعة، من المحتمل أنكم قمتم بهذه الحركة للإيقاع "بهورى" "وهيرا" فى هذه المصيبة لتأخذوا منهم خمسين أو مائة روبية!

ظلّ الزعماء يعتقدون أن القائد يمزح معهم.

قال "جهنكرى سنكه" وهو يشير بطرف عينه:

– لتخرج الخمسين روبية يا سيد "بتوار".

أيده "نوكهى رام" قائلا:

– هذه منطقة "بتوار"، ولا بد عليه أن يستضيفه.

وصلوا إلى تكعيبة "نوكهى رام"، وجلس القائد على الأريكة وقال:

- ماذا قررتم؟ ستخرجون النقود أم أفتش؟!

أعتذر "داتادين":

- لكن يا سيدى...

- لن أسمع لو ولكن.

تجرأ "جهنكرى سنج" وقال:

- أيها القائد هذا كله ...

- سأعطيكم مهلة خمس عشرة دقيقة، ولو تأخرتم فى دفع الخمسين روبية فسأفتش منازلكم الواحد تلو الآخر، وأنتم تعرفون "جندا سنج" من أضربه لا يستطع طلب المياه!

قال "بتشورى" بحدة:

- اخترنا التفتيش، وهذه المسرحية الفكاهية يقوم بها واحد ويعاقب عليها آخر!

- أنا أعمل قائدا للشرطة منذ خمسة وعشرين عاما، أتعرفون هذا؟

- ولكن هذا الظلم لم يحدث من قبل!

- إنكم لم تشاهدوا الظلم حتى الآن؟! وإذا أردت فسأسجن كل واحد منكم خمس سنوات، وهذا أمر يسير؛ ففى حالة سرقة واحدة يمكننى إرسال القرية كلها إلى السجن، فلا تنخدعوا!

أخذ الأربعة يتشاورون فى التكعيبة. لكن لم يعرف أحد ماذا حدث بعدها، لكن القائد شوهد مسرورا، وكانت اللعنات تظهر على وجوه الأربعة. امتطى القائد فرسه وسار، فسار الأربعة خلفه وهم يركضون، ابتعد الفرس فعادوا وكأنهم يرجعون بعد إحراق جسد أحد أعزائهم.

فجأة قال "داتادين":

- لابد أن تصيبه دعواتى السيئة!

أيده "نوكهى رام":

- مثل هذه النقود لا تبقى.

تنبّأ "بتشورى":

- إن الحرام يذهب فى الحرام!

وشكّك "جهنكرى سنج" فى العدل الإلهى:

- أين كان الإله وهو يرى هذا الظلم ولم يجازِ به؟!

فى ذلك الوقت كان من الجدير رؤية أشكال هؤلاء الناس!

الفصل العاشر

مضت عدة أيام دون معرفة مكان "هيرا" رغم محاولات "هورى" الحثيثة للبحث عنه، التى لم تسفر عن شيء. لا بد أن يفكر فى الحقل، ما الذى يمكن للشخص الوحيد أن يفعل؟ كان يفكر فى حقل "بنيا" أكثر من حقله. كانت "بنيا" وحيدة مما زاد من حدة طباعها، وكانت الأيام تمر و"هورى" يتملقها، كان "هيرا" وحده القادر على التغلب على حدتها وبعد ذهابه لم يقع السوط على "بنيا"، فالخلاف كان بين "هورى" و"هيرا"، أما "بنيا" فمجرد امرأة، كيف يتشاجر معها؟ كانت "بنيا" تعرف طبيعة "هورى" وتستفيد من كرمه. من حسن الحظ أن العامل لم يستخدم معها القوة فى تحصيل الخراج بل رضى بالهدية، وإلا كان على "هورى" أن يقترض ويعطيها النقود. فى موسم الأمطار كان جميع العمال مشغولين فى الحقول، إلا أن "هورى" لم يستطع أن يبذر الأرز فى حقله، لكن كيف لا يبذره فى حقل "بنيا"؟! عمل "هورى" حتى ساعات الليل المتأخرة ليتمكن من بذر الأرز، فقد كان حاميها، ولو أصابت "بنيا" أى مصيبة فستضحك الدنيا عليه، ونتيجة لهذا لم يحصد "هورى" فى فصل الخريف من الغلة إلا القليل أما حقل "بنيا" فقد كان مليئا بالأرز حتى إنه لم يوجد مكان لمزيد.

استمرّت المقاطعة بين "هورى" و"دهنيا" منذ يوم الشجار، ولم يكن "جوبر" يحدثه أيضا؛ كأن الأم والابن قد فرضا عليه المقاطعة، فأصبح غريبا فى بيته، كما يحدث مع الرجل الذى يركب سفينتين فى آن واحد فقد كان هذا هو حال "هورى". كما قلّ اعتباره في القرية، وأصبحت "دهنيا" زعيمة ليس للنساء فقط بل للرجال كذلك. كان سكان القرى المجاورة يقصون تلك الواقعة بمدح، وكأنها هبطت من السماء، أو أن الإله قد حلّ بها: "عندما قبض القائد على زوجها وجعل القيود في يده تذكرت "دهنيا" الإله فحلّ بها وتملكتها القوة، وفى لمح البصر كسرت القيود من يد زوجها، وأخذت بشارب القائد وخلصته منه، ثم جثمت على صدره فأخذ يتوسل كى تتركه حتى أطلقت صراحه. وظل الناس لمدة طويلة يحضرون لرؤيتها، ورغم أن تلك الواقعة قد مرّ عليها زمن، فإن سطوة "دهنيا" فى القرية قد زادت عن ذى قبل، كانت ذات همة عالية يعجز عن مثلها الرجال.

لكن "دهنيا" بدأت تتغير شيئا فشيئا، فكانت ترى "هورى" فى حقل "بنيا" ولا تنبس ببنت شفة، ليس لأنها لا تغار على "هورى" بل لأنها تشفق على "بنيا"، يكفيها جزاء فرار "هيرا" من المنزل!

فى تلك الأثناء أصيب "هورى" بالحمى، كانت حمى موسمية أصابت "هورى" ثم عاودته بعد عدة سنوات وقضت على ما بقى منه. ظلّ "هورى" طريح الفراش لمدة شهر، وقد ضربه ذلك المرض ضربة قاسمة، لكن هذا أيضا أثر فى "دهنيا"، كيف يبقى الحقد إذا كان الموت يقترب من

زوجها؟! ففى مثل هذه الأحوال لا يُؤخذ الجزاء من العدو، هذا بالإضافة إلى أنه زوجها، حتى لو كان سيئا معها إلا أنهما عاشا معا لخمسة وعشرين عاما، لو شعرنا بالراحة معا، لو تعبنا معا، لو كان سيئا أو حسنا فهو منا. لقد ضربنى أمام الناس وأهان كرامتى أمام القرية كلها، لكن من حينها وهو يستحى منى فهو لا ينظر نحوى مباشرة، وعندما يأتى لتناول الطعام يخفض رأسه حتى يقوم ويذهب، وهو يخشى أن أقول له شيئا، وحتى إن شفى "هورى" من مرضه إلا أن وزنه سينخفض.

ذات يوم قالت "دهنيا":

– كيف غضبت هكذا؟! أنا إن غضبت عليك لا يمكن أن أرفع يدى أمامك.

قال "هورى" نادما:

– لا تتحدثى عن هذه القصة يا "دهنيا"! فى ذلك اليوم لبسنى شيطان، أنا خجل وأشعر بالألم!

– ولو مت فى ذلك الطريق؟

– أتظنين أننى سأظل لأبكى عليك؟ بل ستذهب جثتى معكِ للحرق.

– حسنا، لا تتحدث بهذا الكلام السيئ.

– لقد ضاعت البقرة لا مشكله، فقد وضعت مصيبة على رأسى. إن التفكير فى "بنيا" سيقتلنى! ولهذا يقال إن الإله يجعل أحدهم كبير المنزل

كي لا يضحك أحد على الصغار، وما من مصيبة أو خير إلا وينسبه الناس إلى الكبار.

حل شهر ماج(١)، ومرّت أيام الأمطار، كان الظلام دامسا. كانت إحدى ليالى الشتاء، هذا بالإضافة الى أمطار شهر ماج، فساد هدوء كالموت. بعد أن تناول "هورى" الطعام ذهب واستلقى فى حقل البسلى الخاص ببنيا فى كوخ عشبى، كان يريد أن ينسى الصقيع وينام، إلا أن الغطاء والصديرية الممزقين وكذلك أعواد القمح المبلّلة من البرد كانوا كالأعداء، فكيف ينام في مواجهتهم وهم لا يعطونه فرصة، وليس لديه اليوم تبغ ليسلّى نفسه. أشعل نارا للتدفئة، لكنها انطفأت هى الأخرى من شدة البرد، أخذ قدميه المشققة وضمها إلى صدره، ووضع يده بين فخذيه وأدخل وجهه تحت الغطاء، وحاول أن يستمد الحرارة من أنفاسه. إنه يرتدى هذه الصديرية منذ خمسة أعوام، وقد صنعتها دهنيا رغما عنه؛ كانت قد اشترت القماش من بائع أفغانى فسبّها "هورى" بسبب ذلك وكأنها ارتكبت مصيبة، وهذا هو القماش الذى صنعت منه الصديرية. أما هذا الغطاء فموجود من قبل ولادته، وكان ينام فيه مع والده فى طفولته، وفى شبابه كان يأخذ "جوبر" معه فى فصل الشتاء، ولما كبر اليوم صار الغطاء ملازما له؛ كان فى الظاهر كالأسنان لكنها ليست صالحة للأكل. لم يمر يوم فى حياته بقى فيه معه شىء من النقود بعد

---

(١) الفصل العاشر من السنة الهندية وهو يقابل شهر يناير فى الأشهر الميلادية.

ما يأخذه الإقطاعيون والمرابون، والآن حلّت مصيبة جديدة دون سبب. لو لم أفعل هذا لضحكت الدنيا، وسأظل أفكر ماذا سيقول الناس عني، إنهم يعتقدون أنني أسرق "بنيا"، وبدلا من أن يذكروا الإحسان يرمونني بالتهم. ومن ناحية أخرى كم مرة يذكرني "بهولا" أن أبحث له عن زوجة، لأن أعمال المنزل لا تسير بدونها. ونبهه "سوبها" إلى أن "بنيا" تفكر فيه تفكيرا سيئا، لكن عليه أن يقوم بأعمال حقلها ضاحكا أو باكيا. وقلب "دهنيا" لم يصف حتى الآن، أما قلبه هو فمازال حزينا، لم يكن من المفترض أن أضربها أمام الناس! لقد عشنا معا خمسة وعشرين عاما، وضربها أمام الناس كان رذيلتي، لكن دهنيا أيضا لم تدع لي شيئا من الكرامة! إنها تمضي كأنها لا تراني، ولو أرادت أن تقول شيئا تبلغه لي عن طريق "سونا" أو "روبا". أنا أرى ساريها قد تمزّق، ومع ذلك طلبت مني بالأمس أن أحضر ساريا لسونا ولم تطلب لنفسها. إن ساري "سونا" يتحمل شهرا أو شهرين، أما ساريها هي فقد تمزق تماما. أنا أيضا لم أقل شيئا يدخل السرور عليها! ولو أسمعتني كلمتين فهل سيقل قدري؟! لو صالحتها فقد تقول لي كلمة أو كلمتين فهل يصيبني من ذلك ضرر؟! ثم إنني قد صرت كهلا، ومع هذا أجعل نفسي كالبومة! إن مرضي قد جعلها تشفق عليّ، وإلا لا أعرف إلى متى كانت ستتخاصمني؟!

وما حدث بينهما اليوم كان كغذاء لجائع، فقد تحدثت من صميم قلبها، مما أسعد "هوري" كثيرا.

وفكر أن يضع رأسه عند قدميها، ويقول لها:

- لقد ضربتك فها هو رأسى اضربينى كما تشائين، وسبينى كما تريدين.

فجأة سمع صوت أساور أمام الكوخ العشبى، فأصغى السمع، أهناك أحد؟! قد تكون ابنة "بتوارى" أو زوجة "بندت" قد حضرتا لحصد البازلاء، لا أدرى قد تضمران السوء! إنهما ترتديان أفضل ملابس فى القرية، وآلاف الروبيات مدفونة في منازلهما، وتقرضان الناس وتأكلان الربا، وتأخذان الرشى والهدايا، إنهما تطحنان الناس بألف طريقة، لكن هذه نواياهما على أية حال! الأبناء على شاكلة آبائهم، وهو لا يحضر بنفسه بل يرسل امرأته، ولو قُبض عليها فهل ستسوء كرامته؟! إن الفقراء فقراء، أما الأغنياء فيجب أن تكون قلوبهم واسعة، والواقع هى أنها أصغر من قلوب الفقراء! أنا لا أحب الإمساك بامرأة أحد، ولو رأيت الذبابة لا أستطيع أن أخرجها، خذى ما تشائين، واعلمى أننى غير موجود، وإذا كان الكبار لا يحترمون مكانتهم فلا بد للصغار من احترامها!

لكن لم تكن هذه سوى "دهنيا" تناديه.

نادت "دهنيا":

- أنائم أم مستيقظ؟

نهض "هورى" بسرعة وخرج من كوخ العشب، وكأن الآلهة قد حضرت اليوم وباركته، ورغم هذا فإن مجيئها فى هذه الأمطار وفى هذا البرد القارس وفى جنح الظلام، جعله يفكر أن مكروها لا بد قد حدث.

قال:

– النوم يحلو فى مثل هذا الشتاء، لكن ما الذى أحضركِ فى هذه الليلة الباردة!؟ أكل شىء على ما يرام؟

– كل شىء على ما يرام.

– لِم لم ترسلى "جوبر" ليستدعينى؟!

لم تجب "دهنيا"، بل دخلت الكوخ وجلست على أعواد القمح، وقالت:

– لقد وضع "جوبر" السواد على وجهى، لتسأل عن فعلته؟ لقد حدث ما كنت أخشاه.

– ما الذى حدث؟ أتشاجر مع أحد؟

– أن لا أعرف ماذا أفعل؟ تعال واسأل تلك الأرملة.

– أى أرملة؟! ماذا تقولين؟! هل جننت؟!

– كيف لا أجن، لقد حدث ما جعل صدرى ينتفخ.

جالت فى خاطر "هورى" أسئلة كثيرة:

– لم لا توضحين كلامك؟ عن أى أرملة تتحدثين؟

– إنها "جهنيا" ومن غيرها؟!

– أحضرت "جهنيا" هنا؟!

– إلى أين ستذهب؟ ومن سيسأل عنها؟

– أليس "جوبر" فى المنزل؟

– لا أعرف مكان "جوبر"، لقد فر، وهى حامل منذ خمسة أشهر.

فهم كل شىء، لقد انتبه لهذا الأمر قبلا عندما كان "جوبر" يذهب إلى قرية اللبانين، لكنه لم يكن يعتقد أنه ماجن كبير! إن الحب من شيم الشباب، هذا ليس أمرا جديدا. كان يبتسم عندما يرى القطن يتطاير فى السماء الزرقاء، لكن لم يكن يعرف أن هذا القطن سيغلق الطريق عليه، حتى إنه لم يعرف أى إله سبب هذا؟! أجوبر ماجن؟! لم يكن يعرف هذا، بل كان يظن أنه ليس سوى شاب قروى ساذج، وكان يعتقد أنه مجرد طفل! لم يكن يفكر فى والديه ولا يخاف من مجلس القرية، كيف ستعيش جهنيا فى منزله؟! كل هذا لا يشغل باله، كان تفكيره كله منحصرا فى "جوبر"، إنه ولد خجول، ساذج، ابن أبيه لا يمكن أن يفعل شيئا سيئا!

قال وهو خائف:

– أذكرت "جهنيا" شيئا عن مكان "جوبر"؟ لا بد أنه أخبرها شيئا عن مكانه.

أجابت "دهنيا" بغضب:

– لقد أكل العشب عقلك! إن حبيبته تجلس هنا فكيف يفر؟ ربما يكون مختبئا فى هذه المنطقة، إنه ليس طفلا رضيعا كى ينسى الطريق، كل هذا بتحريض من "جهنيا" المنحوسة، ماذا أفعل معها؟ لن أدعها

تمكث في منزلى لدقيقة، لقد بدأ الحب بينهما يوم أحضر البقرة. لو لم تكن حاملا ما كان الناس ليتحدثوا، لكنها حملت، فأخذت "جهنيا" تحثه كي يفرا لأى مكان، لكن "جوبر" أخذ يماطل. فإلى أين يذهب بامرأة؟ لم يكن يفكر فى شيء، لكن عندما أصرت أن يأخذها من هذا المكان وإلا قتلت نفسها، قال لها: لنذهب إلى منزلي، وهناك لن يقول أحد شيئا، وسأخبر والدتي. ولهذا حضرت هذه المنحوسة معه، وكان يسير أمامها وعندما اقترب من المنزل فر، فأخذت تناديه، لكن عندما حل الظلام ولم يعد، جاءت هاربة عندي. وقد قلت لها أنت تجنين جزاء فعلتك، لقد دمرت سيئة الحظ ابني، وهي الآن تبكي فى انتظاره، وهى جالسة وتقول: بأى وجه سأعود إلى منزلي؟ ليت الإله جعلني عقيما بدل أن يعطني مثل هؤلاء الأبناء! وفى الصباح الباكر سيعرف الناس جميعا فى القرية هذه القصة، أريد أن أتناول السم، وأقول لك أنا لن أدعها تعيش فى منزلى، وإذا أراد "جوبر" فليحملها على رأسه لكن ليس فى منزلى مكان لمثل هؤلاء الناس! ولو تكلمت فى هذا فإما أنت وهى أو أنا فى المنزل!

قال "هورى":

- أنت لا تعرفين كيفية التصرف معها، كان يجب عليك ألا تدعيها تدخل المنزل.

- لقد قلت لها كل ما يمكن أن يقال لكنها لم تتحرك، وكأنها جالسة فى إضراب!

- حسنا لنذهب، كيف لا تقوم؟! سأجرها إلى الخارج.

– كان "بهولا" يرى كل شيء والتزم الصمت، إنه أب لا حياء عنده!

– كيف له أن يعرف ما كان يحدث بينهما!

– كيف لم يكن يعرف؟ لقد كان "جوبر" حولها ليل نهار، فهل عميت عيناه؟ لا بدّ له من التساؤل عن حضوره المرة تلو الأخرى.

– لنذهب ونسأل "جهنيا".

بعد أن خرج الاثنان من الكوخ العشبي وسارا باتجاه القرية، قال "هوري":

– لقد أصبح الليل متأخرا.

قالت "دهنيا":

– بالطبع، الجميع يغط في سبات عميق ولو جاء سارق لنهب القرية كلها دون أن يحس أحد.

– إن اللصوص لا يحضرون إلى قرية كهذه بل يذهبون إلى منازل الأغنياء.

وقفت "دهنيا" قليلا وأمسكت يد "هوري" قائلة:

– انتظر، لا تحدث ضجة، وإلا ستستيقظ القرية كلها وتحدث فضيحة.

قال "هوري" بلهجة غاضبة:

– أنا لا أعرف شيئا سوى أنني سأجرها وأخرجها من القرية، القصة سيعرفها الجميع ذات يوم فلم لا يكون الآن؟ لم حضرت إلى منزلي؟ لتذهب حيث ذهب "جوبر" وحيث فعلا فعلتهما. هل سألانا فيما فعلاه؟!

أمسكت "دهنيا" يده وقالت بصوت منخفض:

- لو أمسكت يدها ستصرخ.

- لتصرخ!

- أين ستذهب فى هذا الوقت المتأخر وتحت جنح الظلام؟ فلتفكر فى هذا.

- لتذهب إلى أقاربها، من لها فى منزلى؟!

- ليس من الصواب أن تخرج من المنزل فى مثل هذا الليل، المرأة حامل، لو أصابها الهلع ستحدث مصيبة أخرى، وعندها لن تمكن من فعل شيء.

- ماذا سنفعل إذا عاشت أو ماتت، لتذهب أينما تريد، لم ألحق العار بى؟! وسأخرج "جوبر" أيضا.

قالت "دهنيا" بعد تفكير عميق:

- لقد لحقنا العار ولن ينمحى طوال العمر، لقد أغرق "جوبر" السفينة!

- لم يغرقها "جوبر" بل أغرقتها هى، كان طفلا فأوقعته فى حبائلها.

- أيا كان من أغرقها فقد غرقت.

وصلا أمام باب المنزل، فجأة وضعت "دهنيا" يدها حول عنق "هورى" وقالت:

– انتظر! لتقسم بحياتى ألا ترفع يدك عليها، إنها تبكى على حالها، وإذا لم تكن سيئة الحظ فلم رأت هذه الأيام؟!

دمعت عينا "هورى"، كان حب "دهنيا" النسائى ينير أفكاره كالمصباح الذى ينير فى الظلام، وكأن الشباب قد استيقظ فى قلبيهما. وتذكر "هورى" الرقة والرشاقة والقلب العطوف فى هذه المرأة العجوز التى دخلت حياته منذ خمسة وعشرين عاما، إن هذه المعانقة تحمل الحل العميق الذى يزيل جميع المتاعب والألم، ويحمل فى داخله العادات والتقاليد.

وقف الاثنان عند الباب ونظرا إلى الداخل، كان هناك مصباح مشتعل لم يكن الضوء قويا، كانت "جهنيا" تضع رأسها على ركبتيها وتنظر إلى الباب فى الظلام كانت تبحث عن السعادة التى كانت قد غابت قبل لحظات، لقد أصابتها تلك المصيبة، وجرحتها سهام السخرية، كانت قلقة من مصائب الحياة، تبحث عن ظل شجرة، وقد وجدت مكانا وهى تشعر بالسرور كأنها محفوظة فى قلعة، الراحة اليوم غابت عن ذلك المكان وكأن مصباح علاء الدين حملها إلى قصر الملك، وكان الشيطان يستقبلها يريد بيعها إلى مستقبل مخيف.

فجأة انفتح الباب، وعندما رأت "هورى" قامت مرتعشة، وسقطت عند قدميه باكية وهى تقول:

- لم يبق لى مكان سوى عندك يا سيدى، إذا شئت فاقتلنى لكن لا تطلب منى مغادرة منزلك.

ركع "هورى" وأخذ يربت على ظهرها، ويقول بحب:

- لا تخافى، لا تخافى يا بنيتى! هذا منزلكِ، هذا بابكِ، ونحن معك سنعيش فى راحة، ومثلما أنت ابنة "بهولا" فأنت ابنتى، لا تفكرى فى السوء طالما نحن على قيد الحياة. لا يمكن أن ينظر أحد إليك بسوء طالما نحن نعيش، وسندفع الديّة التى يطلبها القوم، لا تبالى بشىء.

أثرت هذه الكلمات الرقيقة فى "جهنيا"، والتصقت بقدمى "هورى" قائلة:

- يا أبى! أنت والدى، وأنتِ أمى، أنا يتيمة احمنى وإلا فإن والدى وإخوتى سيأكلوننى حية.

لم تستطع "دهنيا" أن توقف سيل العواطف، فقالت:

- لتجلسى فى المنزل، أنت لست ملكا لوالدك وإخوتك فقط! إذا أرادوا شيئا فليأخذوا ذهبكِ، ألقيه لهم!

منذ مدة وجيزة كانت "دهنيا" تشتعل غضبا، وتقول لجهنيا إنها من سوء طالعهم وعار ووجه الشؤم وغير ذلك من الأوصاف، وكانت تريد أن تخرجها من المنزل بالمكنسة. عندما سمعت "جهنيا" كلمات الحب والعفو والاطمئنان، تركت قدم "هورى" وتعلقت بقدمى "دهنيا"، لم تكن ترى مثل

هذه المرأة الطاهرة فلم تكن ترى سوى "هورى". كانت تعانق "جهنيا" المذنبة، وتمسح دموعها وتسليها بكلامها العطوف، كأنها عصفور يحتضن أطفاله تحت جناحه!

أشار "هورى" إلى "دهنيا" كى تحضر الطعام والشراب لجهنيا، وسألها:

– يا بنيتى أتعرفين أين ذهب "جوبر"؟

قالت "جهنيا" نائحة:

– لم يقل شيئا، لكن كل هذا قد حل بكم.....

لم تكمل هذه الكلمات لأن صوتها قد توقف من الدموع.

لم يستطع "هورى" أن يخفى اضطرابه:

– عندما رأيته اليوم هل كان حزينا؟

– كان يكلمنى وهو يضحك، لكن ما فى قلبه لا يعرفه سوى الإله رام!

– وماذا يقول لك قلبك؟ هل مازال فى القرية أم خارجها؟

– أشك فى أنه قد خرج من القرية.

– وهذا هو اعتقادى، لقد فعل فعلته الطفولية! نحن لسنا أعداءه، وإذا حدث أمر سيئ أو حسن فلا بد أن نتحمله معا، وفراره هذا قد أوقعنى فى مصيبة.

أمسكت "دهنيا" بيد "جهنيا" وذهبا إلى الداخل، فقال:

- إنه يشعر بالخجل! إذا أخذ يد فتاة فلا بد أن يكمل مشوار حياته معها، لا أن يضع السواد على وجهه ويفر! وإذا حضر لن أدعه يدخل البيت.

جلس "هورى" على أعواد القمح، أين ذهب "جوير" ؟ ظل هذا السؤال يتردد فى قلبه كطائر محلق فى السماء.

الفصل الحادي عشر

صارت هذه القصة حديث القرية كلها؛ فهى حادثة غير عادية، واستمرت لعدة شهور. كان أخوا "جهنيا" يبحثان عن "جوبر" كى يضرباه بالعصا، وأقسم "بهولا" إنه لن يرى وجه "جهنيا" أبدا ولا تلك القرية، كما أغلق باب الحديث عن الزواج مع "هورى" الذى دار بينهما من قبل، كما أنه أراد أن يسترد نقوده عوضا عن بقرته، وهدّد بأنه سيرفع دعوى على "هورى" ويبيع منزله فى المزاد إذا تأخر فى السداد. أما أهل القرية فقد طردوا "هورى" من القبيلة، فلم يعد أحد يدخن معه النارجيلة، ولم يعد يشرب الماء فى منزل أحد. كانوا يتشاورون فى منعه من أخذ المياه من البئر لكنهم جميعا كانوا يعرفون غضب "دهنيا"، ولهذا لم يتجرأ أحد على فعل ذلك؛ وكانت "دهنيا" تقول للجميع دائما من يمنعنى من الماء فأشرب من دمه، خاف الجميع من هذه الجرأة. أما "جهنيا" فكانت مغمومة أكثر من الجميع لأنها سبب كل هذا، ولم يصل أى خبر عن مكان هروب "جوبر" مما زاد من حزنها؛ كانت تقضى اليوم كله صامتة فى المنزل وهى تخفى وجهها، فلو خرجت ستنطلق عليها سهام السخرية من جميع الجهات ولن تستطيع إنقاذ نفسها. كانت تعمل فى المنزل طوال اليوم،

وعندما تنتهى تبدأ فى البكاء، كانت ترتجف دائما خوفا من أن تزجرها "دهنيا"، لم تكن تطبخ الطعام لأن أحدا لن يأكل من يدها، أما باقى العمل فكان واقعا على عاتقها، وكان النساء والرجال فى القرية كلما تجمعوا كان هذا محور حديثهم.

ذات يوم كانت "دهنيا" ذاهبة إلى السوق، والتقت فى الطريق "بندت داتادين"، فأخفضت رأسها وكانت تريد أن تمضى دون أن تحتك به، لكن "بندت جى" لم يرد ترك هذه الفرصة دون استغلال:

– ألم يأتكم أى خبر عن "جوبر"؟ مثل هذا الابن يشوه عزة المنزل!

كانت "دهنيا" تفكر فى هذا الأمر، فقالت بلهجة حزينة:

– عندما تأتى الأيام السوداء يذهب عقل الإنسان، فماذا أقول؟!

قال "داتادين":

– عليكِ ألا تتركى هذه الخاطئة فى منزلك، عندما تقع ذبابة فى الحليب يخرجها الإنسان ويرميها ثم يشرب الحليب. فكرى، كم يضحك الناس على هذا العار؟! إذا لم تعش الخاطئة فى المنزل فلن يحدث شىء، إن الأولاد دائما ما يقعون فى مثل هذه الأخطاء، لا بد أن تدفعى الديّة وتطعمى البراهمة حتى تتبرئى من هذا الذنب. لو لم تبقها فى منزلك لما حدث شىء، إن "هورى" رجل ساذج لكن كيف خُدِعت أنت؟!

كان "ابن داتادين" على علاقة بأحد المنبوذات، وكانت القرية كلها تعرف هذا لكنه كان يضع العلامة الحمراء، يتلو كتاب الهندوك المقدس،

ويخطب ويقرأ البهاجوت(١) ويعمل موثقا لعقود الزواج ولهذا لم تقل مكانته قط، وكان يذهب كل يوم للاستحمام والعبادة ليكفر عن ذنبه. كانت "دهنيا" تعرف أن وجود "جهنيا" في المنزل سيأتي بالبلاء لكنها لا تعرف كيف أشفقت عليها، لو أخرجت "جهنيا" في تلك الليلة لما واجهت العار، لكنها خافت أن تلقى بنفسها في البئر أو البحيرة، ليس هذا فقط بل كيف تفضل عزتها عن فقد "جهنيا" والطفل الذي تحمله هو حفيدها؛ كيف تقتلها خوفا من السخرية؟! كما أنها تأثرت بعجز "جهنيا" وقلة حيلتها، عندما تأتي من الخارج مغمومة كانت "جهنيا" تقدم لها الماء في الإبريق وتغسل قدميها، فيهدئ هذا من غضبها، كانت تموت حياء فكيف أضغط عليها؟! وكيف أقتل الميت؟!

قالت بلهجة حادة:

– منزلنا لا يحب العزة يا سيدي! إذا كنا سنقتل طفلا من أجل هذه العزة. إنها غير متزوجة لكنها اختارته وقد أخذ ابني يدها، كيف أطردها؟! إذا فعل ذلك الأغنياء فعندهم كرامة، ولا تضيع عزتهم، فالأغنياء يقدرون كرامتهم أكثر من تقديرهم لحياة الآخرين! أما نحن فكرامتنا ليست عزيزة علينا!

كان "داتادين" شخصا لا يؤمن بالهزيمة، وكان مسؤولا عن عشر قرى، وهوايته هي تقصي الأخبار من هنا وهناك، لم يكن يسرق لأن السرقة قد

---

(١) البهاجوت جيتا هي أحد كتب الهندوك المقدسة، وهي جزء من ملحمة المهابهارت.

تفقده حياته، لكن يأخذ جزءا من المال المسروق! لم يكن يحب أن يقع في التراب على ظهره في الصراع، وحتى اليوم لم يدفع خراجا للإقطاعيين، وإذا جاء عليه مزاد علني يهدد بإلقاء نفسه في البئر، فيعجز "نوكهى رام" عن فعل شيء معه! كان يقرض الفلاحين بالربا، وأي امرأة تريد شراء الذهب كان "داتادين "حاضرا في خدمتها. كان يحب أن يعمل وسيطا بالمال في الزواج، يأخذ المكانة والمال معا! كان يداوي المرضى بالأعشاب أو التعاويذ وفقا لرغبة المريض، وكانت لديه القدرة على أن يصبح شابا عندما يجالس الشباب، وطفلا مع الأطفال، وكبيرا مع الكبار! كان صديقا للصوص والشرفاء على السواء، لكن أحدا لم يكن يعتمد عليه، بيد أن في كلامه جاذبية تجعل الناس تنخدع فيه المرة تلو الأخرى!

حرك رأسه، وقال:

- هذا كلام صحيح يا "دهنيا"! هذه هي شيم العلماء، لكن لا بد أن نحافظ على العادات والتقاليد!

في ذلك الوقت كان "بتشوري لالا" يسخر من "هوري"؛ كان مشهورا في القرية بتدينه، وفي يوم پورنماشي(٢) يسمع خطاب ست نارائن(٣)، ولأنه كان يعمل في المساحة كان الناس يعملون في حقله مجانا، ويسقي زرعه دون نقود، وكان يفض المشاجرات بين الفلاحين ويأخذ منهم النقود،

---

(٢) ليلة اكتمال القمر، ويقومون فيها بالتعبد.

(٣) أحد الكتب المقدسة لدى الهندوك.

كانت القرية كلها تهابه، وكان يكسب آلاف الروبيات من إقراض الفقراء خمس روبيات أو عشر! كان يأخذ من غلال كل فصل من الفلاحين ثم يهديها للمحكمة والقسم، وبهذا كانت المنطقة كلها تعمل له حسابا، الشخص الوحيد الذى لم يقع فى يده كان الضابط الجديد "جندا سنك" الذى وصل إلى المنطقة حديثا! إلى جانب هذا كان يحسن إلى الناس، فعندما يأتى وباء الحمى كان يوزع أقراص"الكونين" الحكومية بين الناس، وعندما يمرض أحد فلا بد أن يذهب للسؤال عن صحته، وإذا حدث شجار بسيط يقوم بحلّه. كان يهدى الهودج والسجاد والأمتعة فى الزواج كى يستعملها الناس مجانا، لا يدع فرصة دون أن يستغلها ويغنى لمن يطعمه. قال:

– ماالذى أصبت به نفسك يا "هورى"؟!

– ماذا فعلت يا "لالا"؟ أنا لم أسمع؟

تقدم "بتشورى" إلى الأمام حتى أصبح بجانبه، وقال:

– كنت أقول أذهب عقلك حتى تأكل العشب مع "دهنيا"؟! لم لم ترسل "جهنيا" إلى والدها؟ أنت تجعل من نفسك أضحوكة بين الناس! نحن لا نعرف والد هذا الطفل؟! وأنت وضعتها فى منزلك! وعندك بنتان فكيف تزوجهما؟! فكر كيف تتخلص من هذه المصيبة.

كان "هورى" قد تعب من سماع مثل هذه الكلمات والزجر، فقال:

– أنا أعرف هذا كله يا "لالا"، لكن ماذا أفعل؟ لو طردت "جهنيا" فهل سيتركها "بهولا" فى منزله؟ إذا وافق فسأوصلها اليوم بنفسى

إليه، وإذا أقنعته فسأكون ممنونا لك طوال عمرى، كما أن ولديه مصران على قتلها فكيف أخرجها؟! إن الشخص الذى أخذ يدها شخص سيئ قد خدعها، ولو طردتها أنا الآخر وهى عاجزة عن العمل وقتلت نفسها فمن سيتحمل الوزر؟! أما قضية زواج البنات فالإله معنا، عندما يحين وقت زواجهما فسيتهيأ الطريق لهذا، لا توجد فتاة عانس فى قبيلتى حتى الآن وأنا لا أستطيع أن أكون قاتلا خوفا من القبيلة!

كان "هورى" شخصا مسالما، يمشى خافضا رأسه، صبورا، وكان الجميع يظن فيه الخير ماعدا "هيرا". كيف يمكن للمجتمع تحمل هذا العار؟! وحتى بعد أن يحاول الناس إفهامه فهو عاجز عن الفهم، وهو وزوجته يتحديان المجتمع فمن يمكنه فعل شىء لهما؟! وإذا لم يفهم فإن المجتمع سيريه أنه لن ينام فى راحة.

فى تلك الليلة اجتمع زعماء القرية للتباحث فى هذا الأمر.

قال "داتادين":

– ليس من شيمى القدح فى أحد، إن الذنوب تحدث كثيرا فى هذه الدنيا لكن لا علاقة لى بها، لكن الأرملة "دهنيا" تشاجرت معى، لقد سرقت حق أخويه وجرى المال فى يدها فلم تعد تفكر سوى فى الشجار عندما يشبع سفلة القوم يعوج سيرهم! لهذا يقول الكتاب المقدس إن السفلة لا يسمعون إلا إذا ضربوا!

أخذ "بتشورى" نفسا من النارجيلة، وقال:

– وعيبهم أن أفكارهم تتبدل برؤية النقود، لقد تكلم "هورى" معى اليوم وأنا عاجز عن الرد عليه! لا أعرف بم يقنع نفسه؟! فكروا ما الذى

سيجره هذا العمل السيئ على القرية؟! وبعد أن ترى الأرامل الأخريات "جهنيا" فمن منهن لن تحذو حذوها؟ لقد حدث هذا اليوم فى منزل "بهولا" وغدا سيحدث فى منازلنا؛ إن المجتمع يسير بقوة الخوف، وإذا ذهب الخوف من المجتمع اليوم فستحدث شتى الذنوب فى العالم!

كان "جهنجرى سنج" متزوجا من اثنتين؛ ماتت زوجته الأولى بعد أن تركت له خمسا من البنين والبنات، وكان عمره فى ذلك الوقت حوالى خمسة وأربعين عاما. فتزوج بأخرى فلما لم تلد تزوج بالثالثة. هو الآن فى الخمسين من عمره، وصارت له زوجتان شابتان تعيشان فى منزله، والكلام السيئ ينتشر حولهما، إلا أن أحداً لم يجرؤ على التحدث خوفا من السيد "جهنجرى سنج"، وحتى إذا تحدث أحد عنهما فهو لا يتحدث إلا من وراء ظهر زوجهما، أما الفتاة غير المتزوجة فهى التى تقع فى المشاكل. كان "تهاكر" يحافظ عليهما بشدة، ويفتخر أن أحدا لم ير حتى نقابهما، لكن ما يحدث خلف النقاب لا يعلم عنه شيئا؟! قال:

– لا بد من قطع رأس هذه المرأة، لقد زرع "هورى" سما فى المجتمع بوضعه لهذه الأرملة فى منزله، إذا تركنا الناس فى القرية على هذا النحو لخربت، فلنطلع "راى صاحب" على ما حدث، ونخبره بوضوح أن هذا الظلم إن بقى فى القرية فلن تسلم عزة أحد.

كان "بندت نوكهى رام" من كبار علماء الهندوكية، وكان جده يعمل عند أحد الملوك لكنه تخلى عن كل شيء بين قدمى الإله وأصبح راهبا، وقد عاش والده هو الآخر طوال عمره يتعبد، وقد ورث "نوكهى رام" عن

والده هذه الرهبانية؛ فكان يجلس صباحا للعبادة ويظل يردد اسم الإله رام حتى العاشرة، لكن ما إن يقوم من أمام الإله حتى تغلب عليه فطرته فيمتزج قلبه وقوله وفعله بالسم. كانت هذه المشورة إهانة لخبرته، كان منتفخ الأوداج وعيناه غائرتين، فجحظتا وهو يقول:

– لم نسأل "راى صاحب"؟ يمكننى القيام بكل شىء، أريد مائة روبية كدية وعندها سيترك القرية بنفسة، وأنا سأقدم شكوى فى المحكمة.

قال "بتشورى":

– لقد دفع الخراج.

أيده "جهنجرى سنج":

– نعم لقد اقترض منى ثلاثين روبية لدفع الخراج.

قال "نوكهى رام بغرور:

– لكنه لم يأخذ إيصالا، فكيف سيثبت أنه دفع الخراج؟!

واتفقت الآراء على تجريم "هورى" بجعله يدفع مائة روبية؛ بأن يجتمع أهل القرية كلها فى يوم لأخذ مشورتهم كمسرحية، على أن ينتظروا خمسة أو عشرة أيام، لكن "جهنيا" ستضع مولودها اليوم.

فى اليوم التالى انعقد مجلس القرية، استدعوا "هورى" و"دهنيا" لسماع المحاكمة. كان هناك زحام شديد فى المجلس حتى إنه لم يعد هناك موضع لقدم، وقد قرر المجلس أن يدفع "هورى" مائة روبية نقدا وطنا ومائتى كيلو من الغلة.

صرخت "دهنيا" فى المجلس:

– أيها السادة! إذا ظلمتم الفقراء لن تعيشوا فى راحة، لتعرفوا هذا جيدا. نحن نموت هنا، ولا نعلم إذا كنا سنستمر فى الحياة فى هذه القرية أم لا، ولتعلموا أن دعائى عليكم لا بد أن يصيبكم، لقد أوقعتم علىّ غرامة باهظة لأنى تركت زوجة ابنى تعيش فى منزلى، أألقى بها فى الشارع لتمد يدها للناس؟! أهذا هو عدلكم؟!

قال "بتشورى لالا":

– إنها ليست زوجة ابنك، بل هى من الشارع!

زجر "هورى" "دهنيا":

– لم تتكلمين؟ إن الإله هو الذى يتحدث فى المجلس، وإذا كان هذا العدل عندهم فأنا أقبل به طائعا، وإذا كان تركُنا للقرية هو ما سيرضى الإله فماذا نفعل؟! أيها السادة! كل ما أملكه هو الغلة وهى فى الحقل، ولم تصل حبة من هناك إلى منزلى، لتأخذوا ما تريدون لو أردتم أن تأخذوها كلها فخذوها! نحن ملك للإله، وإذا كانت قليلة فلتأخذوا ثيراننا.

عضّت "دهنيا" على أسنانها، وقالت:

– لن أعطى حبة واحدة من أجل الغرامة، ولن أدفع مليما واحدا، ومن لديه قوة ليحضر عندى! إن هذا شيء عجيب! كل ما تفكرون فيه هو الاستيلاء على كل شيء باسم الغرامة ثم تهدونه للآخرين، تبيعون

الحديقة وتتمتعون بها، لن يحدث هذا و"دهنيا" على قيد الحياة. إن سعادتكم ستموت بداخلكم، لا أريد أن أكون من القبيلة، لن أفوز وأنا منهم وسأظل آكل بعرق جبيني، وبعد ترك القبيلة، سآكل بعرق جبيني أيضا.

ضم "هورى" يديه أمامه، وقال:

- "دهنيا"! أقبل قدميكِ اصمتي! نحن خدم للقبيلة، لا يمكننا الخروج منها، وافقى على دفع الغرامة وأنت خافضة الرأس، إن الموت أفضل من حياة الوحدة! لو مُتنا اليوم فالقبيلة هى التى ستحرقنا، وهكذا نفوز فى آخرتنا. أيها السادة! أقسم برأس ابنى إنى لا أملك مليما ولا يوجد عندى سوى الغلة الموجودة فى الحقل، وأنا لن أخدع القبيلة، لو أردتم أن ترحموا أطفالى فلتراعوهم، وإلا علىّ تنفيذ حكمكم.

ذهبت "دهنيا" من المجلس وهى غاضبة، أما "هورى" فقد أمضى الليل حتى آخره وهو يجمع الغلة ويضعها فى مخزن "جهنجرى سنج": ثمانمائة طن من الشعير، وطنان من القمح، وطنان من البسلى، وقليل من الحمص وبعض السمسم أيضا. كان يعمل فى حقلين بمفرده، وكل هذه الغلة قد جاءت بجهد "دهنيا"، كانت "جهنيا" تعمل داخل المنزل أما "دهنيا" وابنتاها فكن يعملن فى الحقل. كان كلاهما يفكر فى سداد الخارج بجزء من القمح والسمسم، وأن يدعا جزءا منها لفوائد القروض، الشعير للطعام، ونستمر هكذا خمسة أو ستة أشهر حتى يأتى فصل غلة البسلى والأرز.

ذهبت كل أمانيهما أدراج الرياح، لقد ضاعت الغلة من أيديهما، وفوق ذلك كان عليهما سداد مائة روبية. لا يوجد الآن ما يأكلونه، والإله وحده يعلم ما الذى حدث لجوبر! إذا لم يكن يحبها فلم فعل ما فعله؟ لكن من يمكنه منع القدر؟ كان الخوف من القبيلة يجعله يحمل الغلة على رأسه كأنه يحفر قبره بيده، كان يخاف من الإقطاعيين والمرابين والموظفين ومن كل شىء. ماذا سيأكل أبناؤه فى الغد، هذا التفكير جعل روحه تتجمد، لكن الخوف من القبيلة يجلد ظهره مثل الشيطان. كانت القبيلة فى حياته كالشجرة الراسخة كأنها تتغلغل فى عروقه، لو خرج من القبيلة لتمزق ثوب حياته!

وعندما لم يبق فى الحقل سوى ستين أو ثمانين كيلو من الغلة فقط جرت "دهنيا" وأمسكت بيده، وقالت:

– حسنا، دعه! لقد أعطيت القبيلة كلها، وصنعت ما يريدون، ألن تترك شيئا لأولادك أم ستترك كل شىء للقبيلة؟! لقد لحقتنى الهزيمة بسببك، إن سوء حظى هو الذى أوقعنى فى ساذج غبى مثلك!

سحب "هورى" يده، وبدأ يلم الغلة فى السلة وهو يقول:

– لا يمكن أن يحدث هذا يا "دهنيا"! لو تركت حبة واحدة فسأكون لصا، سأضع الغلة كلها لديهم، وفيما بعد إذا رحمونا فسيعطون شيئا منها لأطفالنا، وإلا فالإله هو المالك!

تململت "دهنيا"، وقالت:

- إنهم ليسوا بشرا بل شياطين، شياطين حقيقية! إنهم يريدون أن يأخذوا منّا ليتمتعوا. إن الغرامة مجرد ستار، أنا أحاول إفهامك لكنك لا تفتح عينك، إنك تريد من الشياطين أن تمد لك يد المساعدة، وتظن أنهم سيعطونك مائتى كيلو أو أربعمائة، انس ذلك!

عندما رفض "هورى" ووضع السلة على رأسه، سحبت "دهنيا" السلة بيدها بكل قوة، وقالت:

- لن أدعك تمضى بها حتى تأخذ روحى أولا، لقد حصدناها بعد جهد شاق وسقيناها طوال الليل، هل عملنا ليأخذها القوم كلها تحت اسم الغرامة ويموت أطفالنا جوعا؟! أنت لم تعمل بمفردك، أنا وبناتى عملنا أيضا. ضع السلة دون جدال وإلا سأنهى علاقتنا اليوم، ولتسمع ما أقول جيدا.

فكر "هورى" أنه عاجز، فقد كان كلام "دهنيا" حقيقيا! ليس من حقه أن يعطى حق أولاده للغرامة. إنه يملك المنزل من أجل تربية أبنائه وليس لكى يأخذه ويعطيه للقبيلة من أجل أن يرفع قدره فى أنظارهم. أنزل السلة من يده وقال فى هدوء:

- كلامك صحيح يا "دهنيا"! ليس لى حق فى مال الغير، لتأخذى ما تبقى وأنا سأذهب وأخبرهم أننى قد أعطيتهم كل ما أملك.

وضعت "دهنيا" سلة الغلال فى المنزل، وأخذت تغنى مع بناتها يوم سبوع حفيدها بصوت مرتفع لتسمع القرية كلها. اليوم هى المناسبة الأولى المباركة ولم تحضر أى امرأة من القبيلة، ذكرت "جهنيا" وهى جالسة فى مكان ولادتها أن الوقت غير مناسب لأغانى السبوع، لكن متى كانت "دهنيا" تبالى؟! إذا كانت القرية لا تهتم بها فهى أيضا لا تعيرهم التفاتا. فى ذلك الوقت كان "هورى" يرهن منزله عند "جهنجرى سنج" بثمانين روبية فلا أحد غيره يمكنه دفع مثل هذه النقود، عشرين روبية من بيع السمسم والقمح والبسلى، والباقى رهن به المنزل. كان "نوكه رام" يريد أخذ الثورين، لكن "داتادين" و"بتشورى" عارضاه، فلو بيعت الثيران كيف سيعمل "هورى" فى الحقل؟ سيأخذون النقود من العوائد، لكن لن يفعلوا معه شيئا لكى يغادر القرية، وهكذا بقيت الثيران.

بعد أن كتب "هورى" صك الرهن عاد إلى المنزل فى الساعة الحادية عشرة، سألته "دهنيا":

– ماذا كنت تفعل حتى هذا الوقت المتأخر؟

صبّ "هورى" جم غضبه عليها، وقال:

– ماذا كنت أعمل؟! كنت أسدد ما فعله ابننا! لقد فرّ واشتعلت النار، وأنا من سيطفئها. لقد رهنت المنزل بثمانين روبيــة، ماذا كنت أفعل؟! لقد رضوا عنى وعفت القبيلة عنى.

عضّت "دهنيا" على شفتيها، وقالت:

– ولو لم يرضوا فما الذى كان سيلحق بنا من ضرر؟! إذا لم تدخن النارجيلة مع أحد لأربعة أو خمسة أشهر فهل سيقل قدرك؟! أنا أسألك لِمَ أنت ساذج هكذا؟ أنت تدعى أمامى العقل لكن فى الخارج فمك مغلق! لقد ترك والدك وأجدادك هذا المنزل ذكرى واليوم تبرأت منه. بعد ذلك ستكتب لهم الثلاثة أو الأربعة فدادين التى نملكها، وبعد ذلك تمد يدك للناس فى كل حارة. أنا أريد أن أعرف أليس فى فمك لسان كى تتكلم، وتسأل القوم هل من يضع الغرامة على الآخرين هو متدين حقيقى؟! إن وجوهكم هى الذنب الكبير!

زجرها "هورى":

– لتصمتى! لا تكثرى من الكلام، لو كنت وقعت فى شبكة القبيلة ما كنت لتفتحى فمك!

اشتعلت "دهنيا":

– ما الذنب الذى اقترفته حتى تخاف من القبيلة؟! لم نسرق أحدا، هل نهبنا أموال الناس؟ الزواج ليس ذنبا، الطلاق هو الذنب! إن الشخص الساذج بلاء. الكلب يلحس فمه من سذاجته، اليوم يمدحونك لأنك صنت كرامة القبيلة. إن سوء حظى هو الذى أوقعنى فى شخص مثلك، ولم أذق طعم الراحة.

– أقبلت قدمى والدك كى يزوجنى منك؟! هو الذى ربطك فى عنقى.

– لقد وقع حجر على رأسه فلم يعد يفهم، ماذا يمكنني أن أقول أكثر؟ لا أعرف كيف وافق عليك فأنت لست جميل الطلعة.

تحول الشجار إلى حديث ضاحك، لو ضاعت عشر روبيات فلا ضير فحفيدنا بمائة ألف روبية، لن يأخذه منا أحد. ولو عاد "جوبر" إلى المنزل تستطيع "جهنيا" عندها أن تحيا فى المنزل باطمئنان.

سأل "هورى":

– من يشبه الطفل؟

أجابت "دهنيا" ضاحكة:

– إنه يشبه "جوبر" تماما!

– أهو قوى؟

– نعم!

الفصل الثاني عشر

فى الليلة التى حضر فيها "جوبر" مع "جهنيا" كان يرتجف كأن أنفه قد قُطع، ستحدث ضجة فى القرية كلها بعد رؤية "جهنيا"، وسيجتمع الناس من كل مكان يلوكون سيرتها، وستسبها "دهنيا". بعد أن فكر فى كل هذا لم يستطع التقدم للأمام؛ لم يكن يخاف من "هورى"، إنه يزأر مرة ثم يصمت، كان يخاف من "دهنيا" التى ستأكل السم وتشعل النار فى المنزل. فكر فى نفسه، كلا! لا يمكن أن أذهب إلى المنزل مع "جهنيا" الآن، لكن لو منعت "دهنيا" "جهنيا" من دخول المنزل وجرت لضربها بالمكنسة فأين ستذهب المسكينة؟ لا يمكن أن تعود إلى منزلها، لو ألقت بنفسها فى البئر أو شنقت نفسها بحبل فماذا سيحدث؟! تنفس بعمق أمام الإله.

لكن والدتي ليست قاسية القلب حتى تضربها، قد تسبها مرتين أو أربعا فى غضبها، لكن عندما تمسك "جهنيا" قدميها وتبكى فسترحمها. إذن ليختف حتي يحدث ذلك، وعندما يهدأ الأمر سيعود ذات يوم ويسترضى والدته، وحتى يحين ذلك الوقت إذا عمل وجمع روبيتين أو أربعا وعاد بهما فستغلق "دهنيا" فمها.

قالت "جهنيا":

– إن قلبى يخفق بشدة، لم أكن أعلم أنك ستصيبنى بهذا المرض! لا أعلم أى ساعة سيئة رأيتنى، لو لم تحضر لأخذ البقرة لما حدث شىء، لتتقدم وتخبرهما وأنا سأحضر خلفك.

قال "جوبر":

– أنا، لا! اذهبى أنتِ أولا، وقولى لهما إنك عدت من السوق بعد بيع الحليب وقد تأخر الوقت وحلّ المساء فكيف أعود فى هذا الوقت؟ وعندئذ سألحق بك.

قالت "جهنيا"، وهى تفكر:

– إن والدتك صعبة المراس، وأنا أرتعش منها، لو ضربتنى ماذا سأفعل؟

قال "جوبر" يسرِّى عنها:

– هذا ليس من شيم والدتى، إنها لم تضربنى حتى الآن ولا صفعة واحدة، فلم ستضربك؟! ولو أرادت أن تقول شيئا فستقوله لى أنا، هى لن تتحدث معك أساسا.

عندما اقتربت القرية، وقف "جوبر" وقال:

– اذهبى الآن.

أصرّت "جهنيا":

– لا تتأخر.

– كلا، كلا! سأحضر فى لمحة بصر، لتذهبى.

– لا أعرف لم يضطرب قلبى، أنا غاضبة منك.

– لماذا تخافين؟ سأحضر.

– كان من الأفضل أن نفر إلى مكان آخر.

– إذا كان منزلنا موجود فلم الفرار إلى مكان آخر؟! لا داعٍ للخوف.

– هل ستحضر بسرعة؟

– نعم، سأحضر بسرعة!

– لعلك تخدعنى؟ ترسلنى إلى المنزل ولا تحضر.

– لست خبيثا يا "جهنيا"، عندما أخذت يدك احتفظت بها حتى الموت.

سارت "جهنيا" ناحية المنزل، وقف "جوبر" للحظة يفكر فى المشكلة، وفجأة تجسد أمامه خيال اللعنة واللوم حتى صار شكلا مخيفا يقف أمامه. لو ضربتها أمى حقا فما الذى سيحدث؟! التصقت قدماه بالأرض، وكان بينه وبين منزله حديقة مانجو صغيرة رأى ظل "جهنيا" الأسود وهو يسير ببطء، تصاعدت أنفاسه كأنه يسمع أمه تسب "جهنيا"، دق قلبه بسرعة كأن فأسا سقط على جسده وكأن دمه قد جف فى عروقه. بعد لحظة

رأى "دهنيا" تخرج من المنزل وتتجه إلى مكان ما، لعلها ذاهبة لوالدى الذى ربما أنهى عشاءه وذهب إلى حقل البسلى. سار ناحية الحقل، كان يسير فوق حقول القمح مسرعا كأن هناك من يطارده حتى وصل إلى كوخ والده العشبى، توقف ثم جلس وراءه صامتا لقد حدث ما توقعه، عندما وصل سمع صوت "دهنيا" لقد حدثت مصيبة عظيمة، إن والدتى بلا رحمة! لم تشفق على البنت اليتيمة، ولو ظهرت أمامهما فسأزجرهما: لا حق لك فى سب "جهنيا"، عندها تضيع الزعامة كلها، والدى أيضا غاضب، لقد أصبح الحجر أشد من المسمار! أنا أجله دائما فهل هذا جزائى؟! والدى ذاهب إلى المنزل، لو ضرب "جهنيا" فلن أصبر، يا إلهى! إننى أتوكل عليك الآن، لم أكن أعلم أن الروح ستُنفخ فى هذه المصيبة! "جهنيا" تعتقد أننى مخادع وجبان لكن كيف يضربانها؟! وكيف يخرجانها من المنزل؟ أليس لى نصيب فى البيت؟! لو رفع أحد يده عليها فستقع اليوم حرب شعواء كحرب مهابهارت(١)! إن الآباء والأمهات يكونون آباء وأمهات بقدر حفاظهم على أبنائهم، وإذا انعدمت الأمومة والأبوة فكيف يكونون أباءً وأمهات؟!

عندما خرج "هورى" من الكوخ العشبى، سار "جوبر" خلفه صامتا ببطء لكن عندما شاهد ضوءا عند الباب تسمرت قدماه، لا يمكن أن يطأ بقدميه هذا الضوء، وقف فى الظلام عند الجدار صامتا. لقد ضاعت شجاعته، آه! سيصرخون فى المسكينة "جهنيا"، وستعجز هى عن فعل شىء،

---

(١) أكبر ملحمة فى الهند، تدور حول صراع الآلهة وانتصار الخير على الشر. وهى والرماين مثل الإلياذة والأوديسا عند اليونان.

لقد اشتعلت النار فى فعلته، وستأتى على الأخضر واليابس. لم يكن يعرف هذا، ولم يجد الشجاعة الكافية حتى يحضر أمامهم ويقول "نعم، أنا الذى ألقيت بالشعلة"، إن الأعمدة التى كان يتكئ عليها انهارت كلها فى هذا الزلزال وسقط الحلم، تراجع إلى الوراء؛ كيف يرى "جهنيا" وجهه؟! سار مائة قدم، لكن مثل الجندى الذى يفر من الميدان، تذكر وعد الحب والوفاء الذى وعده لجهنيا، وتذكر أيام الوصال وحديثها الحلو، عندما كان يرى عيونها المسكرة وأنفاسها الحارة كان يلقى بنفسه عند قدميها. لقد كانت "جهنيا "تعيش فى عشها الصغير كطائر وحيد يعيش منفردا، لا يوجد معها زوج تسعد به، ولا مكان للفرح فى داخلها، ولا صوت الطفولة الحلو، ولم يكن هناك شباك الصياد ولا خداعه! فذهب "جوبر" إلى عشها وهى لا تعلم إن كان سيمنحها الراحة أم لا؟ ومن يعرف هذا؟ فأوقعها فى العذاب، واستعد كجندى هارب حثّ زميله على المضى وفرّ هو من الخلف!

عاد إلى الباب فوجده مغلقا، ووجد شعاعا يخرج من تحته وينعكس فى الخارج، ورأى الداخل من جانب الباب كانت "دهنيا" و"جهنيا" جالستين و"هورى" واقفا، سمع صوت بكاء "جهنيا"، وكانت "دهنيا" تفهمها: يا بنيتى ادخلى واجلسى فى المنزل وأنا سأواجه والدك وأخويك، لا تفكرى فى شىء، وطالما نحن على قيد الحياة فلن يستطيع أحد أن ينظر إليك ولو بطرف عينه.

شعر "جوبر" بالفرح، لو كان فى مقدرته لألبس والديه إطارا من الذهب، ولقال لهما: "لا تفعلا شيئا، ارتاحا وكلا واشربا وأنفقا كما تريدان!"

لم يعد قلقا على "جهنيا"، لقد أخذت الأعمدة التى كان يتكئ عليها. لو اعتقدت "جهنيا" أنه مخادع فلتعتقد، وعندما يعود إلى المنزل ومعه النقود سيسكت بها فم القرية كلها، وكى لا يظن والداه أنه عار عليهما بل يفخران به.

عندما يصابان بصدمة عميقة ثم يظهر فيما بعد فسيفرحون بنفس القدر، لقد أخرج هذا العار الدموع المختفية فى قلب "جوبر"! اليوم ولأول مرة يشعر بأنه يحمل عبئا على كتفه، ومع هذا وجد فى قلبه الإرادة والتصميم. حتى الآن كان يعتقد أن له الحق فى أن يأكل كثيرا ويعمل قليلا، ولم يخطر بباله أن لأهل بيته عليه حقا، واليوم أضاء تسامح والديه النور فى قلبه! عندما دخلت "دهنيا" و"جهنيا" داخل المنزل ذهب هو إلى كوخ والده العشبى، وأخذ يفكر فى المستقبل.

كان قد سمع أن الفلاح يحصل فى المدن على خمسة قروش أو ستة، لو أخذ فى اليوم ستة قروش وعاش على قرش منها لوفّر خمسة قروش، فيصبح معه فى شهر عشر روبيات، وفى السنة تصبح مائة وخمسا وعشرين روبية. عندما يعود إلى المنزل بهذه النقود، من سيفتح فمه أمامهم؟ سيقول أمثال "داتادين" و"بتيشورى" نعم، نعم! وستفخر "جهنيا" به كثيرا. ولو استمر يكسب هكذا سنتين أو أربع لذهبت مصائب المنزل كلها، إن المنزل جميعه الآن لا يكسب مائة وخمسا وعشرين روبية التى سيكسبها وحده، وسيقول الناس إنه يعمل كأجير ليكن! العمل ليس عيبا، كما أننى لن آخذ دائما ستة قروش، بل ستزيد. وعندما أصبح

ماهرا فى العمل ستزيد أجرتى، وعندها سأطلب من والدى أن يجلس فى المنزل ويتعبد فقط: (إنك تضيع حياتك فى الحقل، فما الذى جنيته منه؟!) سيشترى أولا بقرة جيدة لتعطيهم أربعة أو خمسة كيلوات حليب، وسيقول له: (أنت تقوم على خدمة البقرة لتفوز بالدنيا والآخرة معا).

ألن يعرف كيف يعيش بقرش واحد، ماذا سيفعل لشراء منزل؟! فى أى مكان سيعيش؟ هناك آلاف المعابد والمنازل المجانية، قد يعمل عند شخص يعطيه مكانا. سيشترى عشرة كيلوات من الدقيق بروبية واحدة، وربع كيلو أرز بستة قروش، يأكل من الدقيق كل يوم بستة قروش. وماذا عن الوقود، والعدس، والملح، والخضروات من أين يأتى بهذا كله؟ إن كيلو الدقيق سيكفيه ليوم، أواه! لا تسأل عن الطعام، يمكن أن تعيش بحفنة من الحمص، كما يمكن أن آكل الحلوى والخبز المشوى كما أشاء. يستطيع العمل كل يوم بعد أكل نصف الكيلو من الدقيق، ولو جمع الروث من هنا وهناك فسيكفيه للوقود، سيشترى بقرش عدسا، وأحيانا بطاطس، سيشوى البطاطس ويقوم بعمل سلطة. لقد جئنا إلى هنا لقضاء اليوم بأى طريقة وليس للراحة! نعجن العجين على ورق الشجر، ونصنع الخبز على الروث، نشوى البطاطس لعمل السلطة، فنحن فى المنزل لا نأكل وجبتين فى يوم واحد كذلك؛ فنحن نأكل فى وقت وفى وقت آخر نحيا على أى شىء.

وأصابه الخوف، فماذا سيفعل إذا لم يجد عملا؟! لكن كيف لا يجد عملا؟ عندما يعمل بجد سيطلبه مئات الناس، كل شخص يحب العمل

الجيد ولا يعبأ بالأبيض أو الأسود! هنا أيضا يحدث جفاف، وينخر السوس في القصب ويهاجم القمح، حتى حبة الخردل يصيبها المرض. وإذا توفر له عمل بالليل فلن يتركه، يعمل بالنهار، ويعمل بالليل كبواب لو أخذ قرشين في الليلة فهذا كثير بالنسبة له. وعندما يعود إلى القرية سيشترى لكل واحدة في العائلة ساريا، وسيضع السوار في يد "جهنيا"، ويحضر الملابس لوالده.

كان يبنى قصورا على الرمال، لكن كيف ينام في البرد؟ بات الليلة في كوخ والده العشبي بصعوبة، ثم استيقظ في الصباح الباكر واتجه إلى شوارع لكهنؤ. التي تبعد مسافة ستين كيلو تقريبا، وقدّر أنه سيصل إلى هناك ليلا. من سيذهب من قريته إلى هناك؟ أيكتب عنوانه؟ كلا! وإلا سيحضر والدى في اليوم التالي. كان حزينا، لم لم يخبر "جهنيا" بأن تذهب إلى المنزل وأنه سيرجع بعد أن يكسب المال؟ لكن لو قلت لها هل كانت ستذهب إلى المنزل؟ كانت ستقول سأذهب معك أيضا، إلى أين سآخذها هناك؟! كان وقت السحر، وهو لم يتناول شيئا منذ الليل، اشتد عليه الجوع فأخذ يتلوى يمينا ويسارا، وأراد أن يجلس ليلتقط أنفاسه. لا يمكنه السير بدون طعام، لكنه لا يملك قرشا واحدا، كانت هناك شجرة برقوق على جانب الطريق فأخذ القليل منها وارتاح لبعض الوقت ثم أكمل سيره. اشتم رائحة عسل أسود من إحدى القرى فلم يستطع إلا أن يذهب إلى هناك، عندما ذهب هناك أخذ دلوا وحبلا ليحضر الماء، وعندما بدأ يشرب قال أحد الفلاحين:

– أتشرب دون أن تأكل شيئا؟ لتأكل شيئا من العسل الأسود. فى مثل هذا الوقت من السنة نصنع العسل الأسود، لكن فى العام القادم سيفتتحون مصنعا للقصب وسيباع القصب كله من الحقل. وعندما يباع العسل الأسود والسكر بسعر واحد فمن سيشترى منا العسل؟!

ثم أحضر له وعاء مليئا بالعسل الأسود، أكل "جوبر" وشرب الماء.

– أتدخن النارجيلة؟

قال "جوبر":

– لا، حتى الآن لم أدخنها.

فرح الشيخ، وقال:

– هذا أمر جميل، لأن هذا مرض لو ذقته مرة واحدة لن يدعك طول عمرك!

امتلأ بالوقود، فسار بسرعة. كان فصل الشتاء، ولم ينتبه متى حلّت الظهيرة. رأى امرأة شابة جالسة تحت شجرة وهى حزينة من زوجها، وهو واقف أمامها يستسمحها. وقف المارة لرؤية هذا المشهد ووقف "جوبر" كذلك، إن أفضل شىء فى الحياة هو مسرحية طلب الغفران!

نظرت المرأة إلى زوجها بحدة، وقالت:

– لن أذهب، لن أذهب، لن أذهب!

هدّدها الرجل قائلا:

- ألن تذهبى؟

- لن أذهب!

- ألن تذهبى؟

- لن أذهب!

أخذ الرجل يجرها من شعرها، فالتصقت المرأة بالأرض.

قال الرجل منهزما:

- أقول مرة أخرى قومى لنذهب.

قالت المرأة بحدة:

- لن أذهب إلى منزلك ولو تناسخت روحك لسبع مرات، ولو قُطعت لن أذهب.

- سأذبح عنقك.

- ستشنق.

ترك الرجل شعرها وجلس واضعا يديه على رأسه، لقد وصلت جرأتها إلى حد أنه لا توجد جرأة بعدها.

قام فى لمحة للمرة الثانية، وقال بصوت منهزم:

- أكرر لك، قومى لنذهب!

اعتدلت المرأة أيضا، وقالت بصوت مصمم:

- أنا أريدك أن تتركني.

- قولي لي ما الذي حدث؟

- لماذا يُسب إخواني وأبي؟!

- من سب إخوانك وأباكِ؟

- اذهب إلى منزلك واسأل!

- عندما نذهب سنسأل.

- عم تسأل؟ ألديك الجرأة؟! اذهب ونم في حضن والدتك، هي أمك ولا صلة لها بي. اسمع أنت سبابها، لماذا أسمعه أنا؟! إذا أكلت رغيفا فمقابل عمل أربعة أرغفة، لم أتحمل الزجر؟! أنا لا أذكر مليما واحدا أعطيته لي.

كان المارة يستمتعون بهذه المسرحية، لكن لم يكن أحد يتوقع أن تنتهي بسرعة، فلما كثر الحشد بسبب وقوفها بدأوا ينفضون الواحد تلو الآخر. كان "جوبر" يكره الرجل الخسيس، ولم يستطع أن يقول هذا بين الناس لكن عندما انفض الجمع قال:

- يا أخي، لا يليق أن أتدخل بين الرجل وزوجته، لكن لا يليق أيضا أن تكون بلا رحمة!

جحظت عينا الرجل الصغيرتان، وقال:

- من أنت؟!

قال "جوبر" بشجاعة:

- أنا أى شخص يكره الكلام السيئ.

قال الرجل بعد أن حرك رأسه:

- أعتقد أنك لم تتزوج حتى الآن ولهذا عندك مروءة.

- عندما أتزوج لن أشد شعرها.

- حسنا لتمض فى طريقك، إنها زوجتى! سأضربها وأقطعها، فمن أنت لتتدخل بيننا؟! امض فى طريقك بسرعة ولا تقف.

اشتعل الدم الحار فى عروق "جوبر" فلم يذهب، إن هذا شارع عمومى وليس ملكًا لأحد، وباستطاعته أن يقف كيف شاء ومن يستطيع فليكرهه على السير.

عضّ الرجل على شفتيه، وقال:

- لم تذهب، أهكذا؟

ربط "جوبر" الكوفية على وسطه واستعد للشجار، وقال:

- تحضر أو لا تحضر، أنا سأرحل عندما أريد!

- أنا أعلم أنك ستذهب بعد كسر قدميك ويديك.

– من يعلم من الذى ستنكسر يداه وقدماه؟

– ألن تذهب؟

قال "جوبر":

– كلا!

ضم الرجل قبضته، واتجه ناحية "جوبر" لمهاجمته، عندئذ أخذت المرأة إزاره وجذبته نحوها، وقالت لجوبر:

– لم تريد الشجار؟! لتذهب فى طريقك، أهذه مسرحية؟! إنه شجار بيننا؛ هو يضربنى أحيانا وأنا أزجره فى أحيان أخرى، لم تتدخل؟

عندما ذهب "جوبر" زجرت المرأة زوجها:

– لم تتشاجر مع الجميع؟ ما الشىء السيِّئ الذى قاله حتى تشعر بالإهانة؟ عندما تفعل شيئا سيئا سيشعر العالم كله بهذا السوء! ويبدو أنه رجل من عائلة طيبة، وأعتقد أنه من قبيلتنا لم لا تزوجه أختك؟

قال الزوج بشك:

– أهو أعزب حتى الآن؟!

– لم لا نسأله؟

جرى الرجل لمسافة عشر أقدام، ونادى على "جوبر" ملوحا له بيده حتى يتوقف، فاعتقد جوبر أن الشيطان ربما لعب برأسه ولهذا يناديه وهو

يريد أن يضربه؛ إن الكلب فى بيته يظن نفسه ذئبا، حسنا ليحضر! لكن لا تبدو على ملامحه علامات الشجار بل توجد دعوة للصداقة. سأل عن اسم قريته، واسم قبيلته، فقال "جوبر":

– صحيح، صحيح!

كان اسم هذا الرجل "كودئى".

قال "كودئى" وهو يبتسم:

– لقد نجونا من الشجار، عندما تركت المكان فكرت أن كلامك صحيح لقد غضبت منك دون وجه حق! ألديك أرض فى منزلك؟

أخبره "جوبر" أنه قد ورث خمسة أفدنة، ولديه محراث واحد.

– لقد قلت لك أشياء سيئة لتسامحنى يا أخى! إن الإنسان يصبح أعمى عند الغضب. إن زوجتى امرأة طيبة لكن أحيانا يلعب الشيطان برأسها، تخبرنى، لكن لا أحد فوق والدتى! هى التى أنجبتنى وربتنى، وعندما يحدث شىء أزجر زوجتى لأنها تابعة لى. لتفكر هل ما أقوله خطأ؟ كان يجب أن لا أفعل ما فعلته بشد شعرها، لكن المرأة لا تمشى مستقيمة حتى تعطيها ضربة، هى تريد منى الانفصال عن والدتى، فكر كيف أنفصل وعن من؟ عن والدتى؟! التى ولدتنى! لن يصدر هذا عنى شاءت زوجتى أم أبت.

غير "جوبر" رأيه، وقال:

– احترام الأم دين الجميع، يا أخى من يستطيع أن يوفى أمه حقها؟

طلب "كودئى" من "جوبر" أن يذهب معه إلى منزله فهو لن يتمكن من الوصول إلى لكهنؤ اليوم، لو سار ميلا أو ميلين فستغرب الشمس، ولا بد أن يقيم فى مكان فى الطريق عندما يحل الليل. ضحك "جوبر":

- أقبلت زوجتك بمجيئى؟

- ولو لم ترضَ، فماذا بوسعها فعله؟

- لقد زجرتنى فشعرت بالخجل منها!

- هى أيضا قد أنبت نفسها، لتحضر معى وتحاول التفاهم مع والدتى، فأنا لا أستطيع أن أقول لها شيئا، وهى أيضا يجب أن لا تسب إخوان زوجتى ووالدها، لم تسبهم؟! لى أخت، وستتزوج عما قريب هى الأخرى، هل سترضى أن تسبنا أم زوجها؟! إن زوجتى لا تتحمل المسؤولية وحدها، فأمى أيضا تتحمل بعض الخطأ؛ والدتى دائما تأخذ صف ابنتها، فلا بد أن تشعر بالضيق! لكن بها ميزة حسنة، فعندما تغضب تترك المنزل ولا ترد السباب بالسباب.

كان "جوبر" يود تمضية الليل، لذا ذهب مع "كودئى". وعندما وصل الاثنان إلى المكان الذى كانت تجلس فيه زوجته، كانت تشعر بالخجل، وأصبحت زوجة حقيقية، ووضعت النقاب على وجهها. قال "كودئى" ضاحكا:

- لم يكن يريد الحضور، وكان يقول: كيف يذهب معنا إلى المنزل بعد أن سمع الزجر؟

قالت المرأة لجوير وهي تنظر من وراء حجابها:

- أخفت من هذا الزجر البسيط؟! عندما تحضر زوجتك إلى أين ستفر؟!

كانت القرية قريبة، لم تكن قرية بالمعنى المعروف بل أقرب إلى حي يشتمل على عشرة منازل أو عشرين، نصفها مبني بالطوب اللبن والنصف الآخر بالقش. عندما وصل "كودئي" إلى منزله أخرج السرير ووضع عليه الفرش، وأمر بتجهيز الشراب وأحضر له النارجيلة. بعد لحظة حضرت زوجته ومعها إبريق مليء بالشراب، وألقت ببعض الماء على "جوير" كأنها تستسمحه، أو كأنه زوج لأخت زوجها، فلماذا لا تمزح معه؟!

الفصل الثالث عشر

نهض "جوبر" فى الصباح واستأذن من "كودئى"، كان الجميع قد عرف بأمر زواجه فلم يتحدث أحد عن هذا الموضوع. أحبه أهل البيت لطيبته، وقد قال لأم "كودئى" ناصحا لها بالحسنى، ومشددا على مكانتها حتى سرّت، ودعت له:

- أنت عظيمة يا أمى! وتستحقين العبادة، ولا يمكن أن يوفى الابن أمه حقها ولو تناسخ مائة مرة أو حتى مائة ألف مرة، ولا ملايين المرات....

سُرّت العجوز به كثيرا، بعدما رأت أن ما قاله لصالحها:

- مثلما حدث اليوم، لقد غضبت زوجة ابنك وخرجت من المنزل فمن أصابه الضرر؟ إن أحدا لا يعرفها ولا يعرف والدها، ولا أقاربها، من يعرفها؟ ربما يكون أبوها علافا...

قالت العجوز باقتناع:

- إنه بالفعل علاف يا بنى، علاف بمعنى الكلمة! ومن يراه فى الصباح الباكر لن يجد شربة ماء.

قال "جوبر":

- من الذى يمكنه السخرية من شخص كهذا؟ بل سيسخر منك ومن ابنك، وسيسأل من زوجها؟ إنها فتاة غير ناضجة، قليلة الخبرة، ووالداها لا مكانة لهما، فكيف يمكن أن تصبح فتاة حسنة؟ عليك أنتِ أن تعلميها كطائر الببغاء العجوز؛ وهى لن تتعلم بالضرب بل بالحب، لا تتشاجرى معها فإن ضررا لن يصيبها بل ستضيع كرامتك أنت...

عندما أراد "جوبر" الرحيل، أعطته العجوز دقيقا حلوا ليأكله فى الطريق. كان العديد من رجال هذه القرية يتجهون للعمل فى المدينة، فأمضى الطريق فى الحديث معهم حتى وصلوا إلى حى أمين أباد فى المدينة عند التاسعة مساء. كان "جوبر" يشعر بالحيرة من أين جاء كل هؤلاء الناس إلى المدينة؟ كأن الرجال يتساقطون على الرجال، لم يكن فى السوق أقل من أربعمائة أو خمسمائة عامل فى ذلك اليوم؛ كان هناك البناء، والنجار، والحداد، وحارث الحقول، وصانع السلال، والحمال والنحات... عندما رأى "جوبر" هذا الحشد الغفير شعر باليأس، كيف سيجد هؤلاء جميعا عملا؟ وليس فى يده آلة، فكيف سيعرف من يريده ما يمكنه القيام به؟ من سيأخذه؟ من سيطلبه للعمل بدون أدوات؟

شيئا فشيئا كان كل شخص يجد عملا ويمشى، والبعض يعود إلى بيته يائسا وهم من العجائز أو من لا رغبة لهم فى العمل، ومن لا علاقة لهم بالمدينة ومن بينهم "جوبر". كان "جوبر" اليوم لديه طعام فلا يهم، فجأة حضر "خورشيد" بين العمال، وقال بصوت مرتفع:

- من يريد العمل بستة قروش فليتبعني، سيأخذ كل واحد ستة قروش وسينتهي العمل في الخامسة. استعد الجميع، فيما عدا خمسة وعشرين من البنائين والنجارين. اجتمع عدد من الناس، وصل إلى حوالي الأربعمائة، جميعهم في حالة يرثى لها، تقدمهم "مرزا" وهو يضع على كتفه عصا غليظة ووراءه صف طويل من الجائعين والموتى. سأل أحد العجائز "مرزا":

- ما هو العمل يا سيدي؟

أصابهم العمل الذي ذكره السيد "مرزا" جميعا بالدهشة، أراد أن يلعبوا المصارعة الجماعية، أي شخص هذا الذي يعطي سته قروش من أجل لعب المصارعة الجماعية؟! أيمكن أن يكون مخبولا؟ عندما يكسب شخص الأموال الوفيرة يذهب عقله، وكذلك يجن عندما يكون ذا علم وافر. وشك بعضهم أن يكون مجنونا يأخذنا إلى منزله ثم يقول ليس لدي عمل، فمن يقدر على فعل شيء له؟ وإذا أراد أن نلعب المصارعة الجماعية أو الأستغماية أو حتى البلى سنلعبه، لكن يعطينا النقود أولا، كيف نثق بمثل هذا المجنون؟!

قال "جوبر" خائفا:

- يا سيدي! ليس لدينا نقود لنأكل، أعطنا النقود لنأكل أولا.

وضع "مرزا" على الفور ستة قروش في يده، وقال بصوت مرتفع:

- سأعطي كل واحد منكم الأجرة مقدما، لا تفكروا في هذا الأمر.

كان السيد "مرزا" قد اشترى أرضا صغيرة خارج المدينة، وعندما وصل العمال وجدوا أرضا واسعة محاطة بالأسوار، وبها كوخ عشبى يحتوى على ثلاثة أو أربعة مقاعد، وطاولة وضعت عليها بعض الكتب، والكوخ مغطى بالبلاب وذو منظر بديع. وفى إحدى الجوانب توجد أشجار المانجو، والليمون والجوافة، وفى ناحية أزهار وباقى الأرض خالية. أوقف "مرزا" الجميع في صف واحد وبدأ فى توزيع الأجرة عليهم، الآن لم يعد لدى أى أحد شك فى جنونه!

كان "جوبر" أول من أخذ أجرته، واستدعاه "مرزا" وطلب منه سقى الأزهار، وشعر أنه لن يلعب المصارعة الجماعية، لو لعبها لهزم أولئك الشيوخ، لكن لا يهم لقد لعبت كثيرا وأخذت الأجرة كاملة.

اليوم سنحت الفرصة لهؤلاء العجائز أن يلعبوا المصارعة الجماعية، أكثرهم لا يذكر إن كان قد لعب هذه اللعبة أم لا؟ فهم يكدحون فى المدينة كل يوم ويعودون إلى المنزل فى وقت متأخر، ويعيشون على أرغفة الخبز الجاف، وينامون، وفى الصباح يبدأ العمل نفسه. الحياة تسير على وتيرة واحدة دون متعة أو لذة، واليوم حانت الفرصة ليصبح الشيوخ أيضا شبابا، كانوا نصف ميتين، جسدا بلا لحم، فَمًا بلا لسان ولا يوجد فى جوفهم أمعاء. رفعوا إزارهم إلى أفخاذهم، وأخذوا يضربون عليه ويهزون أجسادهم، كأن الشباب قد عاد إلى أبدانهم التى شاخت.

تجهز الميدان بسرعة من أجل اللعب، اختاروا قائدين من بينهم كل واحد اختار أصدقاءه. بدأ اللعب فى الثانية عشرة، وكان هذا الفصل مناسبا لهذه الألعاب لأن شمسه غير حارة.

وعند الباب الرئيسى كان السيد "مرزا" يقطع التذاكر للمشاهدين، كانت هذه الأشياء الجنونية تدور فى خلده دائما: بأن يأخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء. كان يعلن منذ عدة أيام عن مصارعة العجائز هذه، وعلق الإعلانات الكبيرة على الجدران، ووزع ورق الإعلانات على الناس: هذه اللعبة ستكون جديدة من نوعها، كأن هذا لم يحدث من قبل، كيف ظل عجائز الهند شبابا حتى اليوم؟! ومن يرد أن يرى مثل هذ المنظر الجديد فليحضر ويرى بعيونه، ومن لا يراه فسيلحقه الخجل ولن يجد فرصة كهذه مرة أخرى. كانت التذكرة بستين قرشا، وحتى مائة وعشرين. اجتمع الناس جميعا فى هذا المكان عند الثالثة، كان هناك جمع غفير من العربات ليس أقل من ألفين، كانت هناك مقاعد للأغنياء، أما العامة فيفترشون الأرض.

كانت الآنسة "مالتى"، و"مهتا"، و"كهنا"، و"تنخا"، و"راى صاحب" مجتمعين، وعندما بدأت المصارعة قال مرزا لمهتا:

- لتتفضل يا دكتور لنلعب جولة.

قالت الآنسة "مالتى":

- الفلاسفة يواجهون الفلاسفة.

برم "مرزا" شواربه، وقال:

- أتظنين أننى لست من الفلاسفة؟ أنا لم أحصل على أى شهادة، ورغم هذا فأنا فيلسوف ويمكن أن تختبرنى يا دكتور "مهتا".

سألت "مالتى":

– أأنت مادى، أم روحانى؟ أتعتقد فى الروحانية أم المادية؟

– أعتقد فى الاثنتين.

– كيف؟

– أنا أعلم جيدا، وأميل حسب المصلحة.

– كأنك لا تؤمن بمعتقدات راسخة؟!

– كيف يمكن أن أقطع برأى فيم لم يجتمع عليه العلماء حتى الآن، ولن يجتمعوا عليه في المستقبل؟! وقد وصل العلماء إلى هذه النتيجة بعد سهر ليالٍ طويلة ومطالعة العديد من الكتب، أما أنا فقد وصلت إليها دون تعب! أيمكن أن تصفى شخصا بأنه فيلسوف لأنه صنع شيئا غير الأفكار العقلية؟

قال "مهتا" وهو يفتح زر قميصه:

– تفضل لنلعب معا، وإن كان هناك من يؤمن بك أم لا، فأنا أعتقد أنك من الفلاسفة.

سأل "مرزا" "كهنا":

– أأختار لك شخصا لتلعب معه؟

قالت "مالتى":

– نعم، نعم! من الضرورى أن تحضر شخصا، ليكن السيد "كهنا".

قال "كهنا" بخجل:

- اعذرونى!

سأل "مرزا" "راى صاحب":

- أأختار لك أحدا؟

قال "راى صاحب":

- أنا أختار "اونكار ناته"، لكنى لا أراه اليوم.

اتجه "مرزا" و"مهتا" إلى ميدان اللعب، عاريا الجسد، مرتديين سروالين قصيرين، وبدأت المصارعة أحدهم فى جهة، والآخر فى الجهة المقابلة.

كان العامة يضحكون على مصارعة العجائز، ويصفقون، ويسبون، ويشجعون ويراهنون: انظر إلى ذلك الشيخ كيف يسير بعظمة كأنه سيرجع بعد ضرب الجميع! حسناء انظر لقد خرج من الناحية الأخرى شيخ آخر للقائه، كيف يتحركان يمينا وشمالا؟! ما زالت القوة فى عظام الشيوخ يا أخى! كان هؤلاء الناس يأكلون الزبد، أما نحن فلم تتيسر لنا حتى المياه. يقول الناس عن الهند إنها ستصير دولة غنية، لكننا نرى شبابنا اليوم يختلفون عن هؤلاء العجائز. لقد أمسك أحدهم بالآخر، وهو يستخدم قوته ليفلت منه، لكن العجوز المتصابى لم يستطع. هجم ثلاثة على واحد ليظهروا سعادتهم، كانوا جميعا أمام الميدان ويشاهدون

اللاعبين وهم يجذبون بعضهم ويتحركون ويتصارعون، وكل غارق فى مشاهدة هذا المنظر. كانت الضحكات تتعالى من كل جانب، وعند مشاهدة شيء مخالف للقوانين أو خداع يقولون: دعوه، دعوه! وبعضهم يصدر ضجيجا، والبعض الآخر يجرى إلى أرض الملعب. كان عدد قليل من الناس يجلس فى مقاعد الدرجة الأولى، لكنهم لم يشعروا بلذة فى هذه اللعبة، فانشغلوا بالحديث عن أمور تهمهم.

بعد أن أفرغ "كهنا" كأس الشراب أشعل سيجاراً، وقال لراى صاحب:

– لقد أخبرتك بأن البنك لن يعطيك بفائدة أقل من هذا، وذلك فقط لأننى قد أوصيت بك من أجل العلاقات الأسرية التى تربطنا.

ضحك "راى صاحب" من تحت شواربه، وقال:

– يجب أن تقتل أهل البيت بسكين بارد!

– ماذا تقول؟

– أنا أقول الصدق، لقد أقرضت "سروج برتاب سنج" بفائدة سبع بالمائة، وأنت تأخذ منى تسعا بالمائة وفوق هذا تمن علىّ!

ضحك "كهنا"، كأن هذا الكلام مدعاة للضحك:

– سأعطيك بالفائدة نفسها لكن بنفس الشروط أيضا، لقد رهنت ممتلكاته وربما لن يستعيدها أبدا.

– أنا أيضا سأرهن بعض أملاكي، أن أخسر بعض الممتلكات الزائدة أفضل من أن أدفع فائدة تسعًا بالمائة. أريدك أن ترهن القصر الذى يقع فى شارع جاكسون، وستستفيد أنت الآخر.

– إن رهن هذا القصر صعب بعض الشيء، فهو يقع فى مكان ناء كما تعلم، لكن سوف نرى. كم تبلغ قيمته؟

قال "راى صاحب":

– مائة وخمسة وعشرين ألف روبية، ويقع على خمسة عشر فدانا.

شعر "كهنا" بالحيرة منه، وقال:

– كان هذا السعر منذ خمسة عشر عاما يا "راى صاحب"، لتعلم أن السعر فى هذه الأيام أقل بخمسين بالمائة.

شعر "راى صاحب" بالحزن، وقال:

– لقد كان ثمنه مائة وخمسين ألفا قبل خمس سنوات!

– سأحاول أن أجد من يشتريه، لكن سآخذ خمسا بالمائة عمولة، لو كان غيرك لأخذت عشراً بالمائة. ماذا ستفعل بهذه النقود؟ أعطنى المبلغ الذى تريد، أرضيت الآن؟! وحتى وقتنا هذا لم تشتر أسهما فى مصنع السكر، ولم يبق منها الآن سوى القليل وستندم على هذا، وكذلك لم تأخذ بوليصة التأمين. إن فيك عادة سيئة هى تأخير العمل، وإذا تأخرت فيما ينفعك فكيف لك أن تنفع الآخرين؟! لهذا يُقال إن السلطة تسلب المرء عقله، ولو استطعت لضبطت أملاك الإقطاعيين.

كان السيد "تنخا" يرمى بشباكه على الآنسة "مالتى"، وقد بينت له أنها لن تشترك فى الانتخابات، إلا أن "تنخا" لا يمكن هزيمته بسهولة، فأسند يده إلى الطاولة وقال:

– أمعني التفكير قليلا فى هذا الموضوع، أنا أعتقد أنك لن تجدى فرصة كهذه! والملكة "تشند" لن تجد فرصة ضئيلة كى تتغلب عليك. كل ما أريده أن يكون فى المجلس شخص ذو خبرة مثلك، ويقوم على خدمة العامة. إن المرأة التى لا تعرف سوى رغد العيش، وتعتقد أن العامة هم وقود العربة، والخدمات القيمة التى تقدمها الأحزاب تهدى للمحافظين والسكرتارية لهذا لا مكان لها فى المجلس، وستكون هناك بعض الامتيازات فى يد الأعضاء فى المجلس الجديد، ولا أرغب فى أن تقع فى يد من لا يستحقها.

قالت "مالتى" كى تتخلص منه:

– لكن يا سيدى أنا لا أملك عشرة أو عشرين ألف روبية لأصرفها على الانتخابات، أما الملكة فيمكنها أن تنفق مائتين أو أربعمائة ألف! كما أننى أحصل منها كل عام على خمسمائة أو ألف روبية، فستضيع هذه النقود أيضا من يدى.

– أولا أخبرينى أتريدين هذا الأمر أم لا؟

– أريده شريطة أن أناله بالمجان.

– اتركى لى هذا الأمر وسأدخلك مجانا.

- كلا! لتعذرني أنا أيضا لا أريد أن أذوق مرارة الهزيمة، وعندما تفتح الملكة صرة النقود وتعطى الذهب من أجل الأصوات فقد تعطيها أنت الآخر صوتك!

- أتعتقدين أن الفوز في الانتخابات بالنقود فقط؟!

- كلا الشخصية أيضا مهمة، لكني لم أقم بأى خدمة عامة سوى الذهاب إلى السجن لمرة واحدة! وأصدقك القول كان هذا لغرض فى نفسي، كما فعل "راى صاحب" و"كهنا". إن أساس الحضارة الجديدة هو الثروة، إن العلم والخدمة والأسرة العريقة الغنية رفيعة المكانة وغير ذلك لا قيمة لهم أمام الثروة! هناك أيام فى التاريخ تخضع فيها الثروة للثورات، لكن هذا استثناء، ولا أخفيك أنه عندما تحضر امرأة فقيرة للتداوى فى عيادتى لا أتكلم معها جيدا، لكن أى امرأة تأتى بعربة أستقبلها من عند الباب، وأحترمها كأنها إلهة كاملة، ولا توجد مقارنة مع الملكة! ولهذا فإن هذا الوقت تكون فيه الملكة هى المناسبة لمثل هذه المجالس.

وفى إحدى نواحى الميدان كان فريق "مهتا" ينهزم، وقد انهزم بالفعل أكثر من نصف الفريق؛ لم يكن "مهتا" قد لعب المصارعة الجماعية فى حياته قط، أما "مرزا" فقد كان أستاذا فى هذا الفن. كان "مهتا" يمضى عطلاته فى التدريب على المسرحيات، وكان الناس يحتارون من قدرته على تقمص الشخصيات، أما السيد "مرزا" فكان كل همه هو المصارعة وكان يحب المصارعين والفتيات.

كان فكر "مالتى" متجها إلى الميدان، فنهضت وقالت لراى صاحب:

- فريق السيد "مهتا" سيهزم هزيمة نكراء!

كان "راى صاحب" و"كهنا" يتحدثان عن التأمين، وكان "راى صاحب" يكره هذا الموضوع فوجد فى "مالتى" طوق النجاة، فنهض وقال:

- نعم، إنه ينهزم، فمرزا لاعب ماهر.

- لا أعلم أين ذهب عقل "مهتا"؟ لقد أهان نفسه دون مقابل!

- ما الكرامة هنا؟ إنها مجرد تسلية!

- من يخرج من ناحية "مهتا" تلحقه الهزيمة.

بعد لحظة سألت:

- أليست هناك استراحة فى هذه اللعبة؟

قال "كهنا" ساخرا:

- لقد أراد أن يواجه "مرزا"، وهو يعتقد أن هذه فلسفة أيضا.

- سألتك أتوجد استراحة فى هذه اللعبة أم لا؟

أجاب "كهنا":

- ستنتهى اللعبة قريبا، وسنستمتع عندما يأخذ "مرزا" "مهتا" ويطرحه أرضا، وعندها يصرخ "مهتا" صرخة ضعيفة، ثم ينهزم!

- أنا لم أسألك، لقد سألت "راى صاحب".

قال "راى صاحب":

– كيف توجد استراحة فى هذه اللعبة؟ يخرج الواحد تلو الآخر ويتواجهان.

– حسنا! لقد انهزم رجل آخر من فريق "مهتا".

قال "كهنا":

– سترى! سينهزم الجميع، وفى النهاية سينهزم السيد "مهتا" أيضا.

اشتعلت "مالتى":

– لم تكن لديك الشجاعة للخروج إلى الميدان.

– أنا لا ألعب الألعاب القروية، أنا ألعب التنس.

– وأنا هزمتك مئات المرات فى التنس.

– ومتى ادعيت أننى تغلبت عليكِ؟!

– لو ادعيت فأنا مستعدة.

زجرته "مالتى" وجلست مكانها، لم يكن أحد يساعد "مهتا"، ولم يتدخل أحد لإنهاء اللعبة. إن "مهتا" أيضا رجل عجيب، لم لا يخدع فى اللعبة، أنا أيضا أرى العدل، عندم يعود منهزما سيصفق الناس من كل جانب. لم يبق سوى عشرين رجلا فى فريقه والناس سعداء للغاية.

عندما اقتربت اللعبة من نهايتها تحمس الناس، وأخذوا يتقدمون نحو الميدان، وقطعوا الحبل الذى يفصلهم عن اللاعبين. حاول المتطوعون

إيقافهم لكن دون جدوى، حتى وصلوا إلى الحلبة وظل "مهتا" وحيدا وهو يلعب الآن بصمت. كانت اللعبة كلها تقع على عاتقه، وعندما يعود سالما من دائرة أخرى فهذا خير له وإلا سيعود بالهزيمة والذل، وعندما يمس الناس من الدائرة الأخرى يعود دون أن يُمس، سينهزمون جميعا ويعود الناس إليه بعدد من مسهم. كانت عيون الجميع معلقة على "مهتا"، سار "مهتا" فأحاط الناس بالحلبة وهم ينظرون بشوق، كان "مهتا" يتقدم باتجاه أعدائه باطمئنان، وكل حركة له تنعكس على المتفرجين، أحنى بعضهم عنقه حتى لامست أعناق الآخرين. اشتعل الجو، ووصلت الحرارة فى الميدان إلى آخرها! دخل "مهتا" فى جماعة المنافسين التى أخذت تتراجع للخلف، كان الفريق قويا فلم يقع أحد فى قبضة "مهتا"، وكان الكثير يأملون أن يفوز مهتا بخمسة رجال أو عشرة.

فجأة تحرك "مرزا"، وطار ممسكا بوسط "مهتا" الذى حاول بشدة أن يبعد قبضته وكان "مرزا" يجذبه حتى خط الفوز. تحرك الناس بجنون، حتى لم يعد أحد يميز بين اللاعبين والمشاهدين وكأنهم اختلطوا معا! كان "مهتا" و"مرزا" يتصارعان، واتجه عدد من عجائز "مرزا" ناحية "مهتا" وأمسكوا به. سقط "مهتا" على الأرض صامتا، لو استطاع الوصول إلى خط الفوز لعاد خمسون شخصا من فريقه، لكنه كان عاجزا عن التحرك قيد أنملة! كان "مرزا" راكبا على عنقه، احمر وجه "مهتا"، غامت عيونه، وأخذ العرق يتصبب منه. كان "مرزا" يرفع جسده السمين ويهبط به عليه، اقتربت "مالتى" وقالت بانفعال:

– هذا ليس استعراضا يا "مرزا" "خورشيد"! أنتما متعادلان.

قال السيد "خورشيد" وهو يحك عنق "مهتا":

- لن أتركه حتى يخرج صوت الهزيمة، فلم لا يخرجه؟!

تقدمت "مالتى" وقالت:

- لا يمكنك إجباره على الكلام!

رفع "مرزا" نفسه، وجلس على "مهتا" وقال:

- لى الحق فى فعل هذا! اطلبى منه أن يستسلم وسأتركه.

أراد "مهتا" أن يرفع نفسه، لكن "مرزا" أمسك بعنقه.

أمسكت "مالتى" بيده كى تبعدها عن عنقه، وقالت:

- هذه ليست لعبة، بل عداوة!

- لتفهمى أنها عداوة.

- ألن تدعه؟

فى ذلك الوقت تحرك "مهتا" بشدة كأنه زلزال، فسقط السيد "مرزا" على الأرض وفرّ "مهتا" ناحية خط الفوز، أخذ آلاف الناس يرفعون القبعات والعمائم والعصيان كالمجانين، ولم يفهم أحد كيف حدث هذا؟ احتضن "مرزا" "مهتا" وحمله إلى مكان الجلوس، والكل يقول إن الدكتور قد فاز! وهم يتعجبون كيف حدث هذا فى لمحة بصر وذلك بعد أن كان منهزما؟! وأخذوا يمتدحون شجاعته وثباته.

اشترى لكل عامل برتقالة، وأعطاه إياها، وأذن لهم بالانصراف. قُدم الشاى للضيوف، جلس "مهتا" و"مرزا" على طاولة واحدة وكل منهما فى مواجهة الآخر، وجلست "مالتى" بجوار "مهتا". قال "مهتا": لقد مررت اليوم بتجربة جديدة، يمكن لمواساة المرأة أن تبدل الهزيمة إلى فوز!

نظر "مرزا" تجاه "مالتى":

– هذا كلام جيد، لكن ما أصابنى بالحيرة كيف حضرت فجأة؟!

احمر وجه "مالتى" خجلا، وقالت:

– أنت شخص بلا مروءة لقد عرفت هذا اليوم يا "مرزا جى".

– هو المخطئ، لما لم يصدر صوت الهزيمة؟!

– لم أكن لأخرج صوت الهزيمة حتى لو فقدت حياتى.

دار الحديث بين الأصدقاء، ثم قدموا شكرهم وتهانيهم، واستأذن الضيوف، ومن بينهم "مالتى" التى كانت تريد أن تذهب إلى أحد المرضى. لم يتبق سوى "مرزا" و"مهتا" اللذين غطاهما الطين فكان لا بد لهما من الاستحمام، وإلا كيف سيرتديان ثيابهما؟ أحضر "جوبر" الماء، واستحم الاثنان.

سأل "مرز":

– متى ستتزوج؟

سأل "مهتا" بحيرة:

– من؟!

– أنت!

– ممن سأتزوج؟!

– تتحدث وكأن هذا الأمر يمكن إخفاؤه!

– كلا، كلا! أنا أقول الحقيقة، أنا لا أعرف شيئا عن هذا. هل سأتزوج؟!

– أتعتقد أن الآنسة "مالتى" سترافقك طوال العمر دون زواج؟!

قال "مهتا" بقوة:

– تقديرك خاطئ للغاية يا "مرزا جي"! الآنسة "مالتى" جميلة، ممتعة، عاقلة، فكرها متقد، وتتحلى بالعديد من الصفات الحسنة، لكن عندما أريد أن أختار رفيقة لحياتى أجد أن "مالتى" لا تتمتع بالصفة التى أريدها. أعتقد أن المرأة يجب أن تكون تمثالا للوفاء والإيثار حتى تصير جزءا من روح الزوج بعد أن تذوب شخصيتها بتضحية وبدون كلام؛ فالجسد للرجل، ولكن الروح للمرأة. قد تقول لى لماذا لا يمحى الرجل شخصيته، فى حين أن المرأة هى التى تطالب بذلك؟ أقول لك لأن الرجل عاجز عن هذا، إذا محيت شخصيته لن يبقى له شىء، عندما ينفرد بذاته يحلم بأنه قد وصل للحقيقة. عندما يصبح هذا حال الرجل يزيد جلاله، فهو يزعم أنه عالم،

ويظن أنه تمثال للعقل، ويظن أن الإله قد حل فيه. أما المرأة فتتحمل في صبر وسكون، وعندما يتصف الرجل بصفات المرأة يصير راهبا، وعندما تتصف المرأة بصفات الرجل تصبح سيئة السمعة! يرغب الرجل فى المرأة الكاملة من كل جانب، وقد عجزت "مالتى" عن اجتذابى إليها. بأى ألفاظ أوضح لك ما هى المرأة فى رأيى؟ أنا أصف الأشياء الجميلة فى العالم بأنها تمثال للمرأة، وأود أن لا تفكر بالسوء من ناحيتى حتى لو قتلتها! وأن لا تشعر بالغيرة حتى إن أحببت امرأة أخرى أمامها، عندما أجد امرأة بهذه الصفات فسأضع رأسى عند قدميها، وأضحى بروحى من أجلها.

هز "مرزا" رأسه، وقال:

- لن تجد امرأة فى الدنيا بهذه الصفات!

ضرب "مهتا" يده، وقال:

- لا توجد واحدة بل آلاف، وإلا لكانت الدنيا خراب!

- أعطنى مثالا؟!

- زوجة السيد "كهنا".

- لكن السيد "كهنا"...

- إن كهنا سيئ الحظ، لقد وجد جوهرة ويعتقد أنها قطعة زجاج! فما أكثر تضحياتها وحبها له. لكن السيد "كهنا" يحب الجمال، ولا اعتبار

لها عنده! لو أصاب "كهنا" مصيبة ذات يوم فستفديه بروحها، لو كف بصره اليوم، أو أصابه الجزام لما اختلف وفاؤها له كذلك! ومع هذا لا يقدرها "كهنا" حق قدرها! لكن ستراه ذات يوم يغسل قدميها ويشرب هذا الماء. أنا لا أريد زوجة أتحدث معها عن أسس نظرية "أينشتاين"، ولا أريد أن تقرأ مسودة كتبي، أريد المرأة التى تنير حياتى، وتطهرها بحبها وتضحياتها!

مسح "خورشيد" على لحيته وكأنه تذكر شيئا كان قد نسيه، وقال:

– إن كلامك صحيح، صحيح للغاية يا سيد "مهتا"! ولو وجدت امرأة كهذه لتزوجتها أنا أيضا، لكن لا أمل لى فى لقائها.

ضحك "مهتا"، وقال:

– أأنت أيضا تبحث عنها مثلى؟ لعل الحظ يحالفنا.

– لكن الآنسة "مالتى" لن تدعك، ولو أردت لراهنتك على هذا!

– أستطيع اللهو مع مثل هؤلاء النساء، لكن لا أتزوجهن. الزواج يعنى تسليم النفس.

– إذا كان هذا هو الزواج، فما هو الحب؟

– عندما يسيطر الحب ويجعلنا نسلم النفس سيأتى الزواج، وقبل هذا يكون مجونا.

ارتدى "مهتا" ملابسه واستأذن فى الانصراف. حل المساء، ورأى "مرزا" أن "جوبر" مازال يسقى الأشجار حتى الآن، فقال بسرور:

- اذهب الآن فقد انتهى وقت العمل. هل ستحضر غدا؟

قال "جوبر" بعجز:

- أنا أريد أن أعمل عملا دائما يا سيدى.

- عمل دائم؟ لتعمل عندى.

- كم الأجرة يا سيدى؟

- كم تريد؟

- كيف أطلب؟ لتعطنى ما تشاء.

- سأعطيك خمس عشرة روبية، وآخذ منك العمل الشاق.

لم يكن "جوبر" يخشى الجهد، وإذا أخذ النقود يمكنه أن يواصل الليل بالنهار، لو أخذ خمس عشرة روبية لأمكنه أن يفنى نفسه فى العمل. قال:

- أعطنى حجرة هنا، فأعيش عندك.

- حسنا، حسنا! سأعد لك مكانا. والآن ستعيش فى ناحية من هذا الكوخ الخشبى.

كان "جوبر" كأنه قد دخل الجنة!

الفصل الرابع عشر

أمضى "هوري بيساكه"(١) في دفع الدية، ثم بدأ فصل جيته(٢) ولم يكن في المنزل حبة واحدة، إذا لم نشبع تماما فلنشبع نصف بطن، إلى متى يمكننا أن نحيا في هذه الفاقة؟! ممن نقترض؟ أنا أخفي وجهي من جميع المرابين في القرية كبيرهم وصغيرهم خوفا من طلب النقود، إذا وجد عملا فعند من؟ ففي فصل جيته يكون العمل في المنزل كثيرا، كما أن المياه قد أغرقت القصب! لكن كيف نعمل ونحن خاليو البطون؟

حلّ المساء، كان الطفل الصغير يبكي، لا تجد الأم طعاما فمن أين يأتي اللبن؟! كانت "سونا" تعي هذا كله، لكن هل ستفهم "روبا"؟ كانت تبكي المرة تلو الأخرى، كانت تعيش طوال النهار على المانجو غير الناضجة، لكن الآن لا بد من وجود شيء من الطعام الجيد.

ذهب "هوري" ليأخذ من البقالة "ستهاني" الغلة، لكن الدكان كان مغلقا حيث كانت قد ذهبت للسوق. أما "منجروشاه" فلم يرفض فقط،

---

(١) ويبدأ من ١٣ إبريل.

(٢) ويبدأ من ١٥ مايو.

بل زجره أيضا: أجئت لتقترض منى؟ أنت لم تدفع الفائدة منذ ثلاث سنوات، هل ستعطينى فى حياتك الثانية؟ أعتقد أن نيتك سيئة، الإله أيضا لا يمكنه قبول هذا العمل، كيف أعطيت العامل الحكومى نقودا عندما زجرك، أليست هذه نقودا؟! وزوجتك كذلك صاحبة مزاج عالٍ!

فعاد من هناك وهو يبكى، وجلس مهموما. حضرت "بنيا" لأخذ النار فرأت المطبخ مظلما، فقالت:

- ألن تصنعى الخبز اليوم يا سلفتى الكبيرة؟ لقد حل المساء!

منذ أن فر "جوبر" وحبل الكلام قد اتصل بين "بنيا" و"دهنيا"، هذا بالإضافة إلى أن "بنيا" كانت ممتنة لإحسان "هورى"، وهى الآن تسب "هيرا": لقد فرّ قاتل البقرة! لقد اسود وجهه، فكيف يعود إلى المنزل؟! وإذا عاد فلن أدخله. لقد قتل البقرة ولم يستح من فعلته! سيكون من الخير أن تقبض عليه الشرطة، ويؤدى أعمالا شاقة.

لم تجد "دهنيا" حيلة سوى أن تقول:

- كيف نصنع الخبز ولا توجد حبة واحدة فى المنزل؟! لقد أطعم القبيلة، وسواء مات أطفالنا أو عاشوا فالقبيلة لا تعير هذا الأمر التفاتا!

كان حصاد "بنيا" جيدا، وكل هذا بفضل جهود "هورى"، ولم تكن هناك بركة كهذه على يد "هيرا"، وقالت:

- لم لم تطلبى الغلة منى؟ فهى من عمل السيد "هورى"، أليس مكسبه؟! عندما نكون فى الرخاء نتشاجر مع بعضنا، لكن فى الألم نبكى معا!

هل أنا عمياء حتى لا أعرف نية الرجل؟ لو لم يساعدني السيد "هورى" لما عرفت كيف كان سيؤول حالى اليوم؟!

عادت وأخذت معها "سونا"، وفى لمح البصر أحضرت سلتين كبيرتين مملوئتين بالحبوب ووضعتهما فى صحن المنزل، لم تكن تقل عن ثمانين كيلو. لم تنبس "دهنيا" ببنت شفة! ثم مضت وعادت بسلة مملوءة بالعدس الأصفر، وقالت:

- لنشعل النار فى المطبخ.

عندما نظرت "دهنيا" فى السلة وجدت سلة صغيرة تحتوى على أربعة أو خمسة كيلوات من الدقيق، كانت هذه هى المرة الأولى التى تُغلب فى حياتها، قالت ودموع المحبة والشكر تنساب من عينيها:

- أأحضرت الغلة كلها أم تركت شيئا فى المنزل؟ أكانت الغلة ستختفى؟!

- كان الطفل مستلقيا فى الصحن يبكى، فأخذته "بنيا" فى حضنها ودللته، وقالت:

- عندى الكثير بفضل دعائك يا سلفتى الكبيرة، ستة أطنان من الشعير، وأربعة أطنان من القمح، وطنان من البسلى لم أخفيها؟ ستكفى طعام المنزلين، وبعد شهرين سنحصد الذرة، والإله سيساعدنا فيما سيأتى.

حضرت "جهنيا" وقبلت قدمى حماتها الصغيرة، فدعت لها "بنيا". أوقدت "سونا" النار، وأخذت "روبا" دلوا لتملأ الماء، وتحركت الحياة الساكنة. كان الماء يدور وفيه صوت اضطراب وفقاقيع، كان الماء يجرى بسرعة، ومياه الحياة تسير جنبا إلى جنب وكأنها تشدو.

قالت "بنيا":

- لم تعجل السيد "هورى" فى دفع الغرامة؟!

قالت "دهنيا":

- كيف يرفع رأسه فى القبيلة؟!

- إذا كنتِ لن تغضبى فسأقول لك شيئا؟

- لن أغضب؟!

- لن أقول لك شيئا حتى لا تغضبى.

- لن أقول لك شيئا، فتحدثى.

- عليك ألا تتركى "جهنيا" فى منزلك.

- ماذا سأفعل؟ سوف تموت!

- لو وضعتها فى منزلى لما قال أحد شيئا.

- هذا الكلام تقولينه اليوم، لكن لو أرسلتها فى ذلك اليوم لكنت طردتها بالمكنسة!

– كنت تستطيعين تزويج "جوبر" بهذه النقود.

– من يستطيع تغيير القدر، يا أختى؟! حتى الآن لم نتمكن من دفع القرض، و"بهولا" يطلب ثمن بقرته! لقد أعطانا البقرة مقابل أن نزوجه، والآن يقول لا أريد الزواج بل النقود، وابناه يريدان ضرب "جوبر" بالعصا. ولا أجد من يدافع عنا؟! والبقرة الشؤم دمرت منزلنا منذ جاءت!

بعد أن تجاذبا أطراف الحديث، ذهبت "بنيا" لإشعال النار. كان "هورى" يرى كل ما يدور، فدخل قائلا:

– "بنيا" ذات قلب صاف.

– أكان "هيرا" ذا قلب صاف هو الآخر؟!

أخذت "دهنيا" الحبوب، لكن كانت تشعر بالندم داخلها، إن الأيام دول، واليوم تشعر بالهزيمة!

– أنت لا تشعرين بالامتنان لأحد، هذا هو عيبك!

– كيف أمتن لها؟ إن زوجى هو الذى قام بالعمل كله فى الحقول، وأنا لم آخذ صدقة منها، بل سأرد لها كل حبة!

كانت "بنيا" تعرف ما يدور فى رأس "دهنيا"، لكنها ترد جميل "هورى" وعندما تنتهى الغلة فستحضر طنين أو أربعة. لكن عندما جاء موسم الأمطار ولم تمطر السماء تعقدت القضية، حل شهر المطر لكن رياح السموم كانت تتحرك فى كل جانب، جفت مياه الآبار، وكان القصب

يحترق من حرارة الشمس، وقلّت المياه في النهر، مما سبب اشتعال الشجار فحمل الناس عصيّهم حتى انتهت مياه النهر أيضا. كذلك بدأت السرقة تنتشر وقطاع الطرق، واضطربت المناطق كلها. في النهاية أمطرت السماء في شهر بهادون(٣)، وامتلأت قلوب الفلاحين بالسرور، كانت سعادتهم كأنهم لم يشربوا مياها قط، أو كأن السماء تمطر ذهبا! كانوا يأخذون منها ما يريدون، وبدأ الناس في حرث الحقول التي كانت رياح السموم قد اشتدت عليها، وخرج الأولاد من منازلهم لمشاهدة البحيرات والترع. يقال إن نصف البحيرة قد امتلأ ثم يسرعون نحو الترع، حتى لو نزلت السيول فقد انتهى فصل القصب، وإذن فلن يزيد طول القصب عن ذراع، لا يمكن أن ندفع الخراج ذرة! والمرابون لم تشبع بطونهم! ستكون علفا للحيوانات، فأنّى للإنسان أن يعيش؟!

عندما مرّ شهر ماجه ولم يأخذ "بهولا" نقوده، حضر عند منزل "هورى" وهو غاضب:

- أهذا هو وعدك؟ لقد وعدتني بلسانك هذا أنك ستعطيني ثمن البقرة بعد بيع القصب، لقد عصرت القصب وبعته فهاتِ النقود.

عندما سمع "هورى" قص عليه مصائبه واستدرّ عطفه كثيرا، لكن "بهولا" لم يتحرك من عند الباب، فقال غاضبا:

---

(٣) يبدأ ١٥ أغسطس حتى ١٥ سبتمبر.

– يا أخى ليس عندى نقود، ولا يوجد من يقرضنى فمن أين أحضر المال؟ ليس عندى حبة واحدة، وإذا لم تصدقنى فادخل المنزل وانظر، وما تجده فخذه!

قال "بهولا" بوقاحة:

– لم أذهب إلى منزلك وأبحث؟! هل سأعرف إذا كنت تملك نقودا أم لا؟ وعدتنى أنك ستعطينى النقود بعد عصر القصب، وقد عصرته فأعطنى نقودى.

– قل لى ماذا أفعل؟

– ولم أقل لك؟!

– أنا أدع الأمر لك.

– سأذهب وآخذ ثيرانك.

نظر "هورى" نحوه بحيرة وكأنه لا يصدق ما يسمعه، وأطرق برأسه، أيريد "بهولا" أن يجعله فقيرا؛ لو ذهب الثوران ستنقطع يداه، قال بعجز:

– لو أخذت ثيرانى فسيضيع كل شىء منى! وإذا كان دينك يأمرك بهذا فلتأخذها؟!

– لا أبالى بما سيحدث لك، خيرا كان أم شرا، أنا أريد نقودى!

– وإذا قلت لك إنى دفعت لك نقودك؟!

شعر "بهولا" بحيرة عندما سمع هذا الكلام، ولم تتيقن أذناه، أيمكن أن يكون "هورى" بلا دين لهذه الدرجة؟! لا يمكن! فقال بحدة:

– لو أقسمت وحملت مياه الكنج(٤) فى يدك وقلت إنك أعطيتنى النقود، فسأصبر!

– أريد أن أقول إن من يكون فى ضيق يفعل ما بدا له، ومع هذا فأنا لم أكذب عليك!

– لا يمكن أن تقول هذا؟!

– نعم يا أخى أنا لا أستطيع، كنت فقط أمزح معك.

وقع للحظة فى ورطة، ثم قال:

– لم تعادينى يا أخى "بهولا"؟! إن "جهنيا" تعيش فى منزلى، فهل فزت بالجنة؟! لقد خسرنا ابننا، ودفعنا مائتى روبية غرامة، لقد خسرت خسارة كبيرة! والآن تريد أنت أيضا أن تهدم بنيانى! الإله رام وحده يعلم، أما أنا فلم أعرف ما الذى كان ابنى يفعله؟! كنت أعتقد أنه يذهب لسماع الأغانى، وقد عرفت الحقيقة عندما حضرت "جهنيا" إلى منزلى عند منتصف الليل، فى ذلك الوقت لم أكن فى المنزل، لتفكر، لو لم أدعها فى منزلى فأين كانت ستذهب؟!

---

(٤) هو نهر الهندوك المقدس، إليه يحجون وفيه يرمون رماد موتاهم.

اختبأت "جهنيا" وراء الباب الخشبى، وكانت تسمع كل شىء، إنها الآن لا تعتبره والدها بل عدوها، وخافت أن يعطيه "هورى" الثيران، فذهبت إلى "روبا" وقالت:

– استدعى والدتك بسرعة، قولى لها لقد حدث أمر سيئ. لا تتأخرى!

كانت "دهنيا" قد ذهبت لتسميد الحقل، وعندما سمعت رسالة كُنَّتها حضرت وقالت:

– لم استدعيتنى؟ لقد أصابنى الهلع!

– أرأيت والدى، أم لا؟

– نعم لقد رأيته، إنه جالس فى الخارج مثل الجزار، لكن لم أتكلم معه.

– إنه يطلب ثيراننا من حماى!

اضطرب قلب "دهنيا"، وشحب لونها وقالت:

– أيطلب الاثنين؟!

– نعم! إنه يقول أعطنى نقودى أو آخذ الثيران.

– بماذا أجاب حموك؟

- قال له: لو أن دينك يأمرك بهذا فخذها!

- فليأخذها! لكن لتعلمى أنه سيأتى على بابى ويشحذ، إذا لم يحدث هذا فلتبصقى على وجهى! وإذا كانت دماؤنا تشبعة فليشربها!

ثم خرجت غاضبة، وقالت لهورى:

- أيريد الثيران، لم لا تعطيها له حتى يشبع؟ الإله رام مالكنا! إنه لم يقطع أيدينا! حتى الآن نحن نعمل فى منزلنا، وبعدها سنعمل عند الناس. لو شاء الإله فستعود الثيران فيما بعد، ولو عملنا فهذا ليس شيئا سيئا! لن نفكر فى حمل الخراج أو الجفاف. لم أكن أعلم أنه عدوى، وإلا ما كنت ربطت بقرته على رأسى! إن البقرة الشؤم منذ أن حضرت دمرت منزلنا.

وجد "بهولا" الفرصة سانحة لإخراج أسلحته المخفيّة، وتأكد أنهما لا يملكان شيئا سوى الثيران ولهذا سيقومان بعمل أى شىء لحمايتها، فقال وهو ثابت الجنان كرامى سهام ماهر:

- أتريد أن تهين كرامتى وتجلس فى هدوء؟! إنك تتباكى على مائة أو مائتى روبية، أما أنا فقد ذهبت كرامتى، وهى تساوى مائة ألف روبية! إن راحتك هى فى إخراج "جهنيا" من منزلك كما وضعتها فيه، وعندها لن أطلب ثيرانك ولا حتى نقود البقرة. لقد قطعت أنوفنا، وأنا أريد أن أراها تتشرد! إنها تعيش هنا كملكة، ونحن نبكى على اسمها وقد صبغت وجوهنا بالسواد. أنا عاجز عن احتمال ذلك! هى ابنتى وقد

دللتها فى أحضانى، والإله يعلم أننى لم أفرق بينها وبين الأولاد، وسيرتاح قلبى عندما أراها تشحذ، وتجمع الحبة من القمامة. وقد جمد قلبى أنا والدها من ناحيتها! كم كنت أشعر بالألم الشديد؟ تلك الخبيثة ألحقت العار باسم الأسرة حتى سابع جد، وأنت تضعها فى منزلك وكأنها تطحن صدرى كالرّحى؟!

قالت "دهنيا" بصرامة:

– لتسمع أنت أيضا يا سيدى! الشيء الذى تريد منى فعله لا يمكن أن يحدث حتى لو تناسخت مائة مرة، "جهنيا" جزء منا، وإذا كنت تريد أخذ ثيراننا فلتأخذها؟ لو التصق أنفك بهذه الثيران فخذها وألصقه! وإذا كان هذا يحمى كرامة أجدادك فاحمها! لقد أذنبت "جهنيا" بالفعل، فى اليوم الذى حضرت فيه إلى منزلى كنت أريد أن أضربها بالمكنسة، لكن عندما رأيت الدموع تنساب من عينيها شعرت بالخوف! وأنت يا أخى قد صرت شيخا ومع هذا ما زلت تفكر فى الزواج حتى الآن، أما هى فما زالت طفلة!

نظر "بهولا" إلى "هورى" بعيون مليئة باللوم، وقال:

– أسمعت يا "هورى" ما قلته؟ أنا لن أشعر بالألم، ولن أعود من دون الثيران.

قال "هورى" بصرامة:

– اذهب وخذها!

- بعدها لا تتباكى بأنى أخذت ثيرانك!

- لن أبكى.

وعندما كان "بهولا" يفك وثاق الثيران، خرجت "جهنيا" وهى ترتدى السارى المرقّع وتحمل طفلها فى حضنها، وقالت بصوت مرتعش:

- سأخرج من المنزل يا أبى، وسيحدث ما تريد، سأشحذ وسأعيش أنا وابنى، وإذا لم يعطنى أحد شيئا فسأغرق نفسى.

قال "بهولا" بلا حياء:

- ابتعدى من أمامى! أدعو الآلهة ألا أرى وجهك، أيتها الخبيثة! أنت عار، وخير لك أن تغرقى.

لم تنظر "جهنيا" ناحيته، كان غاضبا لدرجة أنها تمنت لو ابتلعتها الأرض! ليس هذا بسبب العار بل بسبب الكرامة، ولو انشقت الأرض وابتلعتها لاعتبرت نفسها سعيدة الحظ، تقدمت إلى الأمام.

لم تسر سوى قدمين حتى جرت "دهنيا" وجذبتها، وقالت لها بمحبة كبيرة:

- إلى أين تذهبين يا كنتى؟ ادخلى إلى المنزل! هذا منزلكِ، فى حياتنا وبعد موتنا، وليغرق من يعادى أبناءه! إن هذا الرجل لا يستحى أن يُخرج مثل هذا الكلام من فمه، إنه يريد أن ينتصر علىّ، يا حقير! اذهب واشرب من دم الثيران....

قالت "جهنيا" باكية:

- يا أمي! إن والدى يحتقرنى، فلتدعينى أغرق! من سوء الطالع أنكم عانيتم بسببى، ومنذ حضرت دمرت منزلكم! لقد منحتنى بحب مكانا فى منزلك حتى أمى الحقيقية لم تكن لتفعل ذلك! لو استنسخنى الإله فأمنيتى أن أكون من رحمك.

جذبتها "دهنيا" ناحيتها، وقالت:

- إنه ليس والدك بل عدوك، إنه قاتل! لو كانت والدتك على قيد الحياة لشعرت بآلامك، وإذا تزوج فستضربه زوجته بالحذاء، وهذا ما أنبئك به!

ذهبت "جهنيا" إلى المنزل وراء حماتها، ومن الناحية الأخرى كان "بهولا" يفك وثاق الثيران من الوتد، ثم سار ناحية منزله وهو يتنهد كأنه ضرب فى حفلة زفاف بالحذاء عوضا عن الخبز المشوى!

(الآن ستعمل فى الحقل وتعزف على الناى، يريدون إهانة كرامتى ثم تعادينى لسبب أجهله؟! وإلا من يدع مثل هذه الفتاة فى منزله؟ لقد صاروا جميعا بلا حياء! ولهذا لن يقدم أحد على الزواج من ابنتيه، انظر إلى جرأة المرأة "جهنيا"، التى حضرت ووقفت أمامى! لو كان لديها حياء ما حضرت وأرتنى وجهها! كلهم أشرار، وهم يعتقدون أن "جهنيا" قد صارت لهم، لكن لا يعلمون أن من لا تبقى فى منزل والدها لن تبقى فى منازل الآخرين، لقد حلّ بى الوقت السيئ، وإلا كنت سأجر الشيطانة "دهنيا" من شعرها فى وسط السوق، لقد كانت تسبنى!)

ثم نظر نحو الثورين، إنهما قويان ومتوافقان معا، يمكن أن أبيعهما بمائة روبية إذا أردت وسأكسب ثمانين روبية. عندما كان خارجا من القرية رآه "داتادين"، و"بتيشورى"، و"سوبها" وعشرا أو عشرين شخصا فهرعوا نحوه، تجمد دم "بهولا" فى عروقه، ستحدث معركة وسينتزعون الثيران منى، وسأضرب أيضا. فوقف واستعد، وإذا كان سيموت فليمت وهو يقاوم.

اقترب "داتادين" منه، وقال:

– لم هذا الظلم يا "بهولا"؟ لقد أخذت ثوريه فلم ينبس ببنت شفة فأصبحت كالأسد! كان الجميع مشغولين فى أعمالهم فلم يعرفوا شيئا، لو أشار "هورى" فسيُنزع شعرك واحدة واحدة! لو أردت الخير لنفسك فلتعد الثورين، أنت لا تملك شيئا من المروءة!

قال "بتيشورى":

– هذا جزاء سذاجته! إذا كان قد اقترض منك وتريد نقودك فلترفع دعوى فى المحكمة وتكسبها، لكن ليس من حقك أخذ ثوريه. لو رفع دعوى فى المحكمة فسيُقبض عليك.

قال "بهولا" بعجز:

– أنا لم آخذهما رغما عنه، لقد أعطانيهما "هورى".

قال "بتيشورى" لسوبها:

– أعد الثورين يا "سوبها"! لو تخلى الفلاح عن ثيرانه، فمن سيحرث له الحقل؟

وقف "بهولا" أمام الثورين:

- اطلبوا منه أن يعطينى نقودى، ماذا سأفعل بالثورين؟!

- سنأخذ الثورين ولترفع دعوى مطالبا بنقودك، وإلا سنضربك ضربا مبرحا. أأعطيته النقود نقدا؟ إنها البقرة المنحوسة التى ربطها فى رأسه، والآن ستأخذ ثوريه؟!

لم يتحرك "بهولا" من أمام الثورين، وكان يقف صامتا جامدا كأنه سيتحرك بعد الموت. كيف يرد على حجة "بتيشورى"؟

تقدم "داتادين" مسافة قدم، وأقام ظهره المحنى، وقال:

- علام تنظرون، وأنتم تقفون هكذا؟ اضربوه حتى يفر! كيف يأخذ الثيران من قريتنا؟

كان "بنسى" شابا قويا، فدفع "بهولا" بقوة فلم يستطع أن يثبت وسقط. أراد الوقوف لكن "بنسى" عاجله بقبضته. هرع "هورى"، فتقدم "بهولا" عشر أقدام، وسأله:

- قل بإيمانك يا أخى "هورى"، أأجبرتك على أن تعطينى الثورين؟

استفسر "داتادين" عن هذا الكلام:

- أتقول إن "هورى" قد أعطاك الثورين بإرادته، أنحن بلهاء؟!

قال "هورى" متلعثما:

- لقد قال لى إما أن تخرج "جهنيا" من المنزل، أو تعطينى نقودى، أو سآخذ ثيرانك. فقلت له: إننى لن أطرد كنتى، وليس لدى نقود، وإن كان دينك يأمرك بذلك فلتأخذ الثورين، لقد تركته لدينه فأخذ الثورين!

قال "بتيشورى" بحزن:

- عندما تركته لدينه، كيف يكون قد أجبرك؟ لقد سمح له دينه بأخذهما، خذ الثورين فهما لك!

قال "داتادين" مؤيدا له:

- إذا تحدثنا عن الدين فلا يمكن لأحد فعل شيء!

نظر الجميع نحو "هورى" باحتقار وعادوا مهزومين، ورفع "بهولا" رأسه بعزّة وافتخار وأخذ الثورين وذهب.

الفصل الخامس عشر

كانت "مالتى" تبدو كالفراشة، أما فى داخلها فكالنحلة. حياتها لا تعرف الضحك فقط، فمن يمكنه العيش على العسل الأسود دون غيره؟! ولو عاش فلن تكون حياة مريحة. وهى تضحك لأنها تأخذ مقابلا لذلك، وهى تتدلل وتشع بريقا لأنها تعتبر الحياة دلالا وإشعاعا! وهى ترى نفسها عظيمة، لذلك تفعل كل شىء من أجلها، وهى تتدلل وتمزح لأنها تعتقد أن هذا يخفف عنها حملها. كان والدها شخصا عجيبا، يكسب مئات الآلاف بلسانه فقط، كان يساعد فى بيع أملاك الحكام والإقطاعيين الكبار، يقرضهم وينهى معاملاتهم مع الضباط- هذا كان عمله- وبعبارة أخرى كان سمسارا. كان يفهم طباع علية القوم، وكان يقوم بأى عمل إذا كان سيحقق له أى ربح، ويكمل عمله بأى وسيلة. يقوم بتزويج الملك من ملكة، ويكسب عشرة أو عشرين ألف روبية.

هؤلاء السماسرة الذين يقومون بأعمال صغيرة يدعون تاوت(١)، ونحن ننفر منهم، لكن بعد قيامهم بعمل كبير يقومون بالصيد مع الملوك،

---

(١) أى من طبقة المنبوذين فى المجتمع الهندى.

ويشربون الشاى على مائدة الحكام؛ وكان السيد "كول" من سعداء الحظ هؤلاء. كان لديه ثلاث فتيات وأراد أن يعلمهن فى إنجلترا حتى يصلن إلى قمة العلم، وكان مثل الأغنياء يعتقد أن التعليم في إنجلترا يغير الناس، وكأن الهواء هناك يزود العقل بالطاقة! لكن حلمه لم يكتمل، فعندما كانت "مالتى" فى إنجلترا أصيب بالشلل التام، وعندما أصيب بالخرس انتهت آماله جميعا لأن كل ما كسبه كان يحققه عن طريق لسانه. لم يكن يدخر للمستقبل، ولم يكن لديه أجر ثابت، وكان يصرف ما يكسبه، وظل لعدة سنوات بعد هذا يعيش فى ضيق. أصبحت كل الأعباء على عاتق "مالتى"، ولم يكن ما تكسبه "مالتى" من أربعمائة أو خمسمائة روبية يكفى لشيء سوى تعليم البنات. كان يعيش عيشة متوسطة، وكانت "مالتى" تعمل من الصباح حتى آخر الليل من أجل لقمة العيش، وكانت تريد أن يحيا والدها حياة كريمة، لكنه كان منكبا على تناول اللحم ومعاقرة الخمر ولا يستطيع التخلص منهما، وإذا لم يجد نقودا يقوم برهن منزله عند المرابى ويأخذ ألفا أو ألفي روبية. كان المرابى من أصدقائه القدامى الذين جنوا مئات الآلاف بسببه، وكان لا يرد له طلبا من أجل مروءته القديمة وصدقاته، حتى صار عليه خمس وعشرون ألف روبية، وكان بإمكانه بيع المنزل في المزاد لكنه لم يفعل إكراما للصداقة. إن الشخص الأنانى ليس لديه نخوة، وقد كان ذلك حال السيد "كول"، لم يكن يهتم إلا بمتطلباته، وكانت "مالتى" تغضب من إسرافه الذى لا داعٍ له، ولكن والدتها التى كانت تجسيدا للإله كانت تعتقد فى وقتها أن النساء خلقن لخدمة الزوج، فكانت تشرح لها الأمر ولهذا لم يحدث شجار فى المنزل.

حلّ المساء، كان الهواء حارا والسماء مليئة بالسحاب، وكانت "مالتى" وأختاها يجلسن على العشب فى حديقة المنزل. كان العشب قد احترق من عدم الرّى، وجف الطين، فسألت "مالتى":

– أيها البستانى لم لا تسقيه؟

قالت أختها الوسطى "سروج":

– إن هذا الخنزير دائم النوم، وإذا سأله أحد عن شىء يتعلل بعشرين سبب كى لا يقوم به.

كانت "سروج" طالبة جامعية، نحيفة، طويلة، شاحبة، جافة، حادة المزاج ولا يعجبها كلام أحدٍ، ودائما ما تخرج فيه العيوب. وقد نصحها الأطباء بعدم القيام بمجهود شاق، وأن تعيش فى الجبال، لكن حالة المنزل لم تمكنها من الذهاب إلى الجبال.

وأصغرهن "وردا" كانت على خلاف دائم مع "سروج" لأن الجميع كانوا يراعون "سروج". فأرادت أن تصاب بنفس المرض لأن الراحة فيه، فلم لا تصاب به؟! كانت بيضاء، مغرورة، متكبرة، تتمتع بالصحة وذات عيون وقحة وكان وجهها يضىء بالفهم والفراسة. كانت تعطف على الجميع ما عدا "سروج"، وتعترض على كلامها على وجه الخصوص، فقالت:

– إن والدى يرسله إلى السوق طوال النهار، فمتى سيتمكن من القيام بعمله؟ لا يجد فرصة حتى للموت، فكيف تقولين إنه دائم النوم؟!

زجرتها "سروج"، قائلة:

– متى أرسله والدى إلى السوق يا كاذبة؟!

– يرسله يوميا، وقد أرسله اليوم أيضا. إذا أردت فاستدعيه، وسأثبت لك؟ أتريدين أن أستدعيه؟

وخافت "مالتى" أن تتشاجر أختاها فتحدث مشكلة كبيرة، وعندها لن تنعم بالراحة، فقالت تغير مجرى الحوار:

– حسنا، أكان لديك اليوم ندوة للدكتور "مهتا" يا "سروج"؟

حكّت "سروج" أنفها، وقالت:

– نعم، لكن لا أحد يحب ندواته، فقد ذكر أن الرجال والنساء دائرتان منفصلتان تماما، ومجيء النساء لدائرة الرجال هو عار على الدنيا، فبدأت الفتيات تصفرن وتصفقن. فجلس المسكين خجلا! إنه رجل عجيب، حتى إنه قال إن الحب لا يوجد سوى فى خيال الشعراء، ولا وجود له فى الحياة الحقيقية. وقد ضحكت السيدة "هكو" على حديثه.

احتجّت "مالتى":

– السيدة "هكو"؟ أمثلها يتحدث عن هذا الموضوع؟! كان لزاما عليك أن تسمعى كلام الدكتور من أوله إلى آخره، ما الذى يعتقده فى الفتيات؟

– من بإمكانه سماع المحاضرة حتى النهاية؟ كان كمن يرش الملح على الجرح.

– لم دعوتموه إذا؟! إنه ليس عدوا للمرأة، كما أنه يتحدث كلاما نفهمه. وهو ليس من الرجال الذين يتحدثون بأى شىء لإسعاد النساء. ثم من يعلم إذا كان الطريق الذى تسلكه النساء طريقا جيدا؟ من الجائز جدا أن نغير رأينا بعد المضى فيه.

ثم أوضحت مقياس حياة نساء فرنسا وألمانيا وإيطاليا، وقالت:

– لنسرع! هناك ندوة فى مجلس النساء، وسيتحدث فيها "مهتا".

قالت "سروج" باندهاش:

– لكنك تقولين إن حقوق الرجال والنساء يجب أن تتساوى؟!

– هذا كلامى إلى الآن، لكن لا بد أن نعرف ما يقوله الحزب المعارض، فمن الممكن أن نكون على خطأ.

كان الحزب قد أقام جمعية جديدة فى المدينة، وقد تأسس بجهود "مالتى"، وانضمت إليه النساء المتعلمات. وقد أثار أول خطاب لمهتا ضجة كبيرة لدى النساء، فاقترح المجلس أن يقمن بالرد عليه ردا قاطعا، وقد أخذت "مالتى" على عاتقها هذا كله، وكانت تبحث حتى اليوم عن دلائل وإثباتات لتبرهن على أقوالها، كما كتبت العديد من النساء أيضا المقالات. وفى مساء اليوم الذى وصل فيه "مهتا" إلى قاعة المجلس التى كانت تكتظ بالحاضرين، وكان من دواعى سروره وفخره أنهم حضروا لسماع محاضرته! ولم تظهر هذه السعادة والفخر على وجهه وعينيه فقط. وقد حضرت جميع النساء اليوم وهن يرتدين الملابس الحريرية المزينة

بالذهب كأنهن يحضرن حفل زفاف، واستخدمن كل قوتهن لهزيمة "مهتا"، من يستطيع القول إن اللمعان ليس جزءا من القوة. كانت "مالتى" ترتدى ساريا وقميصا من أحدث الصيحات، وتضع الزينة، والأزهار كأنه يوم زفافها! لم يكن هذا الحشد قد اجتمع من قبل، ورغم أن الدكتور "مهتا" كان وحيدا، فإن قلوب النساء كانت ترتجف! فى الحقيقة يمكن لشعلة الصدق أن تحرق جبلا كاملا!

كان "مرزا" و"كهنا" يجلسان فى الصف الخلفى، وحضر "راى صاحب" بعد أن بدأت المحاضرة، ووقف فى الخلف.

قال "مرزا":

– تفضل، إلى متى ستظل واقفا؟!

ردّ "راى صاحب":

– كلا، سأشعر بالاختناق.

– سأقوم وتجلس أنت.

وضع "راى صاحب" يده على كتفه:

– لا داعى لأن تتعب نفسك، لتجلس، وعندما أتعب سأطلب منك أن تقوم وأجلس مكانك. حسنا! الآنسة "مالتى" تتصدّر الجلسة، لتعطنى الجائزة يا سيد "كهنا".

تكلف "كهنا" البكاء على وجهه، وقال:

– الآن نظرها مصوب نحو السيد "مهتا"، لقد سقطت من نظرها!

بدأ "مهتا" محاضرته:

– أيتها الآلهة! عندما أخاطبكن بهذا اللقب فهل ستعترضن على كلامي؟ هل هذه العزة من حقكن؟ لكن أسمعتن أن امرأة أطلقت لقب الإله على الرجل؟ لو لقبته به لاعتقد أنها تسخر منه! أنتن تملكن الرحمة لمنح الصدقة، كما تتصفن بالعبودية والزهد، فماذ يملك الرجل للصدقة؟! إنه ليس معطاء، بل يأخذ فقط، فهو ينهض لأخذ حقوقه، ويحارب وينشر الفتن والفساد فى الأرض!

صفقن له، فقال "راى صاحب":

– لقد ابتكر طريقة جديدة لإسعاد النساء، ويالها من طريقة!

قال رئيس تحرير بجلى يُحقّر من شأنه:

– هذا ليس كلاما جديدا، لقد قلت مثله كثيرا!

استمر "مهتا":

– لهذا أرى أن النساء المثقفات يهرعن نحو حياة الفساد والفتن، عوضا عن حياة العبودية والزهد، وهن يعتقدن أن فى هذا راحتهن! فلا يمكن مباركة هذا!

نظرت السيدة "كهنا" بغرور نحو "مالتى"، فنكّست "مالتى" رأسها.

قال "خورشيد":

– تحدث الآن؟! إن "مهتا" رجل شجاع، يقول الصدق فى مواجهتهن.

حك رئيس تحرير بجلى أنفه:

– لقد ولت الأيام التى كانت النساء فيها تقع فيها فى الخداع، تأكل حقوقهن وتقول أنتن آلهة، أنتن أمهات، وأنتن بركة!

استمر "مهتا":

– وأنا أشعر بالألم عندما أرى النساء فى ملابس الرجال ومنشغلات بأعمال الرجال، كما أشعر بنفس الألم عندما أرى الرجال فى ملابس النساء ويقمن بعملهن! أنا على يقين أنكن لا يمكن أن تعطين حبكن وإيمانكن لرجال كهؤلاء؟! وأنا على يقين أيضا أن الرجل لا يمكن أن يعطى حبه وإيمانه لأمثال هؤلاء النسوة!

أضاء وجه "كهنا" بالسعادة.

قال "راى صاحب" مازحا:

– لماذا أنت مسرور هكذا يا سيد "كهنا"؟!

قال "كهنا":

– عندما أقابل "مالتى" سأسالها عن رأيها فى هذا الكلام؟!

استمر "مهتا":

– إننى أعتقد أن الرقى الإنسانى عند المرأة أرفع درجة من الرجل، كما أعتقد أن الحب، والعبودية والزهد أفضل من الشجار، والشر والفساد. لو تركت "آلهتنا" معبد الفطرة، والولادة والتربية ودخلت فى ميدان الشجار

وسوق الحرب، لا يمكن للمجتمع أن يستفيد، وأنا متفرد فى رأيى! إن الرجال قد أعطوا أهمية كبيرة لغرورهم، ومن أجل الشهرة الشيطانية أخذوا يأكلون حقوق إخوانهم، ويستبيحون دماءهم، وهم يعتقدون أن هذا انتصار كبير! إن النساء اللاتى تلدن هؤلاء الأطفال من دمائهن وتربيهن، فيعتقد بعد أن يلقى بالقنبلة ويستخدم الرشاش والدبابات أنه فاتح! وعندما تضع أمهاتنا علامة *الزعفران*(٢) على جبينهن، ويرسلهن بالدعاء وهم يرتدون ملابس الحرب إلى ميدان الحرب الدموى، فلا عجب أن يعتقد الرجال أن هذا هو النصر الدنيوى، ويزداد تعطشهم للدماء يوما بعد آخر! واليوم نرى أن هذه النزوة الشيطانية قد تمكنت منه، فأخذ يخرب المنازل، ويحرق الحقول، ويقتل الإنسان والحيوان. أيتها الإلهات! إنى أسألكن هل ستساعدن هذه النزوة الشيطانية فى ميدان الحرب؟! وهل بذلك تصنعن خيرا لهذه الحياة؟! إننى أتوسل إليكن أن تدعن هؤلاء الظلمة، وضعن أنظاركن على مذهبكن.

قال "كهنا":

- إن "مالتى" لم ترفع عنقها قط!

أيَّد "راى صاحب" هذه الفكرة:

- إن كلام "مهتا" صحيح *للغاية*.

---

(٢) علامة تضعها المرأة الهندية عند الزواج.

قال رئيس تحرير بجلى بحزن:

- إلا أنه ليس كلاما جديدا، فمعارضو حركة تحرير المرأة يستندون على مثل هذه الأسانيد. أما أنا فلا أعتقد أن الحياة قد ارتقت بالحب والزهد، بل تترقى بالشجاعة، والعقل، والجهد والقوة!

قال "خورشيد":

- دعنا نسمعه، أم ستطربنا أنت؟!

أكمل "مهتا" محاضرته:

- أيتها الإلهات! أنا لست ممن يقولون إن الرجل والمرأة متساويان، ولا يوجد بينهما اختلاف، لا يمكن أن أتصور هذا الكذب الرهيب! إن هذا الكذب يريد به الرجال أن يحجبوا تجربتهم الطويلة كما يحجب الغمام الشمس! أريد أن أنبهكن كي لا تقعن فى هذه الشبكة، إن المرأة أفضل من الرجل كالنور بالنسبة إلى الظلام! إن أرفع معيار لدى الإنسان هو العفو، والرحمة، والزهد والعدل، وقد وصلت المرأة إلى هذا المعيار. الرجال يحاولون منذ قرون الوصول إلى هذا المعيار استنادا إلى الدين، والروحانيات والعلماء إلا أنهم لم ينجحوا حتى الآن، فميزان تضحية المرأة أثقل من الروحانيات!

صفق الحضور فكأن القاعة قد اهتزت، فقال "راى صاحب" مسرورا:

- إن "مهتا" يقول ما فى قلبه.

عارضه "اونكارناته":

– لكن كل كلامه قديم، كأنه لحم فاسد!

– الكلام القديم يصبح جديدا بالطاقة الروحية.

– إن الشخص الذى يتقاضى راتبا شهريا يبلغ ألف روبية، ويعيش فى رغد العيش لا يمكن أن يتقد فيه شىء من الروحانية! إنها فقط أفكار النساء المختلفات، وهذه طريقة الرجال فى إسعادهن!

نظر "كهنا" نحو "مالتى":

– لماذا تشعر بالسعادة؟ إنه يريد إحراجها!

ألح "خورشيد" على "كهنا":

– لم لا تُلقى أنت أيضا محاضرة؟ وإلا سينتصر "مهتا" عليك! وقد فاز بنصف المعركة.

قال "كهنا" بلا حياء:

– دعك من قصتى، فكم من فتاة أوقعتها فى شباكى، وتركتها!

غمز "راى صاحب" "خورشيد"، وقال:

– أنت تحضر هذه الأيام اجتماعات النساء، أصدقنى القول كم أعطيتهن من المال؟

قال "كهنا" بخجل:

– أنا لا أعطى تبرعات لهذه الجمعيات التى تنشر الفساد عن طريق هذه المسرحية.

أكمل "مهتا" كلامه:

- الرجال يدعون أنهم من أوجد الفلسفة والعلوم، وكل علماء الدين الكبار من الرجال، الشجعان، السياسيون المهرة والملاحون جميعهم رجال، لكن ماذا فعلت هذه الجماعة العظيمة؟! إن هؤلاء العلماء، ومؤسسي المذاهب لم يفعلوا شيئا في الدنيا سوى إجراء أنهار الدم، وإشعال الفتن بين الناس، لم يقم هؤلاء البواسل سوى بقطع رؤوس إخوانهم، فأى ذكرى تركوا؟! لم تبق من علامات السياسيين المهرة سوى آثار متهدمة، والأحياء يستعبدون الناس، فأى قضية حلوا؟! لا يوجد هدوء فى مدينة الرجال، فأين التعاون؟

وقف "اونكارناته"، واستعد للذهاب:

- إن النار تشتعل في جسدى عندما أسمع كلاما عظيما من أفواه الأغنياء!

جذبه "خورشيد" من يده وأجلسه:

- يا رئيس التحرير، أنت رجل جاهل! من أراد أن يقول شيئا فليقله، فهذه هى الدنيا! وسيسمع بعض الناس ويصفقون وتنتهى القصة. سيأتى العديد من أمثال "مهتا" ويذهبون، وتستمر عجلة الحياة فى الدوران، ما الذى يغضبك فى هذا الكلام؟!

- لا يمكن أن أصبر على الكذب!

أيده "راى صاحب":

- ألا يحترق القلب عند سماع كلام حسن من فم فاحش؟!

جلس "اونكارناته" وأكمل "مهتا" كلامه:

– أنا أسألكن: عندما ترون الصقر وهو يصطاد عصفورا فهل يليق بالبجع أن يترك مكانه الهادئ في الغابة ويبدأ في صيد العصافير؟! ولو أصبح صيادا فهل تباركن عمله؟! البجع لا يملك منقارا حادا، ولا مخالب قوية، ليس لديه بصر حاد، ولا أجنحة قوية، وليس متعطشا للدماء، ويحتاج إلى قرون كي يتحلى بهذه الصفات، وبعد ذلك هل سيصبح صقرا؟ أشك في هذا! وسواء أصبح صقرا أم لا، فإنه لن يبقى بجعا؛ البجع هو الذي يأكل اللؤلؤ!

اعترض "خورشيد":

– هذه أدلة الشعراء، فزوجة الصقر تصيد مثل زوجها!

سر "اونكارناته":

– هذه هي الأدلة التي يثبت بها فلسفته.

أخرج "كهنا" حقد قلبه:

– ليس من الفلاسفة، بل ذيل الفلاسفة، الفلسفي هو من ....

أكمل "اونكارناته" الكلام:

– .... من لم يبتعد عن الصدق قيد أنملة!

لم يعجب هذا الكلام "كهنا":

– لا علم لى بالصدق والكذب، أنا أعتبر الصادق من الفلاسفة.

مدحه "خورشيد":

– لقد عرفت الفلسفة تعريفا صادقا، يا سبحان الله! الفيلسوف هو الفيلسوف الصادق، لم لا يكون؟!

أكمل "مهتا":

– أنا لا أقول إن العلم ليس ضروريا للمرأة، بل أكثر ضرورة من الرجل، ولا أقول إن المرأة لا تحتاج إلى القوة بل تحتاجها أكثر من الرجال، لكنهما ليسا العلم والقوة اللذين استخدمهما الرجل فى الحياة فصارت ميدان حرب! لو تعلمتن هذا العلم، وأخذتن تلك القوة فستصبح الدنيا كالصحراء! إن علمكن وقوتكن ليسا للحرب والخراب، بل للإنجاب والتربية. أنتن تعتقدن أن الإنسان سينجو عن طريق التصويت، وسينجح باستخدام اللسان والقلم فى المحاكم والدوائر الحكومية، أليس كذلك؟! أتردن ترك المنح الإلهية فى مقابل حقوق التدمير وعدم الأصالة، والبعد عن الفطرة؟!

كانت "سروج" تجلس حتى الآن بأدب أمام أختها الكبرى، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها:

– كلنا نريد التصويت مثل الرجل.

وصرخت بعض الشابات:

- التصويت، التصويت!

وقف "اونكارناته"، وقال بصوت عال:

- من يعارض النساء يضيع وقاره!

ضربت "مالتى" الطاولة، وقالت:

- ليلزم الجميع الصمت، وستكون هناك فرصة ليعبر المعارضون والموافقون عن آرائهم.

قال "مهتا":

- التصويت هو شبكة العالم الجديد! إنها خداع، عار وغش لو وقعتن فى هذه الشبكة فلن تنتمين إلى أى جانب. من قال إن دائرة عملكن محدودة، إنكن فقط عاجزات عن إظهار جوهركن! كلنا بشر، وحياتنا فى منازلنا، فهناك ولدنا وتربينا، وكل تجارتنا هناك، أهذه دائرة محدودة؟! إذن ما هو الشيء الذى لا حدود له؟ هل هو ساحة الحرب، حيث يقتل بعضهم بعضا؟! هل تردن أن تتركن مصنعا يُصنع فيه الإنسان وأقداره، وتذهبن إلى المصنع الذى يطحن فيه الإنسان وتسيل دماؤه؟!

اعترض "مرزا":

- لقد ظهرت روح الثورة من ظلم الرجال!

قال "مهتا":

- مما لا شك فيه أن الرجال ظلمة، لكن ليس هذا هو الحل. لا تنهِ الظلم بإنهاء نفسك!

قالت "مالتى":

- المرأة حقوق تريد أن تستخدمها، والرجل يمنعها بحجة أنها ستستخدمها استخداما سيئا!

أجاب "مهتا":

- إن أعظم حقوق ينالها الإنسان فى الدنيا هى التى تأتى عن طريق الخدمة والتضحية وهذا ما تملكنه، وحق التصويت هذا لا شىء أمامه! وأنا أشعر بالأسف لأن أخواتنا تستند إلى كلام الغرب، حيث نزلت النساء هناك عن مكانتهن وأصبحن شيئا للمتعة والشوق بعد أن كن الملكات. كانت النساء فى الغرب تردن الحرية لينعمن برغد العيش، لكن هذا ليس مقياس أمهاتنا اللاتى كن دائما مكرّسات للخدمة! لتأخذن الأشياء الجيدة من الغرب، فمنذ وقت طويل هناك تبادل بين الثقافات، أما التقليد الأعمى فدليل على ضعف العقل! النساء فى الغرب اليوم لا تردن أن تكن مالكات المنزل، إن رغبتهن القوية فى رغد العيش جعلتهن يردن الحرية الكاملة، لقد ضحّت بخجلها وعظمتها، التى كانت بضاعتها الثمينة، من أجل المجون والمتعة! وعندما أرى الفتيات المتعلمات هناك أيديهن ممتلئة، ومستديرة ومزدانة بالعرى أشفق عليهن؛ لقد هزمتهن رغباتهن، وعجزن عن حماية حرمتهن! هل يمكن للمرأة أن تضيع إلى هذه الدرجة؟!

صفّق "راى صاحب"، فدوى المكان بالتصفيق كأن انفجارا قد حدث، فقال السيد "مرزا" لرئيس التحرير:

– ألا تملك إجابة عن هذا؟!

قال رئيس التحرير بلا حياء:

– هذا الكلام هو الصدق الوحيد فى المحاضرة كلها.

– أصبحت الآن من أتباع "مهتا"؟!

– كلا لست تابعا لأحد، وسأرد عليه وسترى فى بجلى.

– هذا يعنى أنك لم تبحث، وحديثك فقط رغبة فى الشجار!

وعاتبه "راى صاحب":

– وأنت تفتخر بحبك للحق؟!

قال رئيس التحرير بثبات:

– إن عمل المحامى هو أن يرى مصلحة موكله دون تدقيق فى الصدق والكذب.

– أتقول إنك محامى النساء؟!

– أنا محامى الجميع: الضعيف، والوحيد والمظلوم.

أكمل السيد "مهتا" الحديث:

– إن هذه مؤامرة من الرجال، فقد سحبوا النساء من قمة الجبل بحجة المساواة! هؤلاء الرجال الجبناء، الذين لا يعرفون كيف يتحملون

الحياة الزوجية يريدون أن يرضوا نزواتهم، ويأكلوا من حقول الآخرين كالعجل الذى ليس له رابط! لقد نجحت هذه المؤامرة فى الغرب، وصارت النساء كالفراشات! ويخجلنى أن أقول إن نفس الشىء قد حدث في هذه الأرض المتدينة الزاهدة! وهذا السحر يؤثر فى الأخوات المتعلمات على وجه الخصوص، فهن يتركن عبادة ربات البيوت إلى عبادة الفراشات الملونة!

قالت "سروج" ثائرة:

- لا نريد مشورة من الرجال، وكما أن الرجال أحرار فالنساء أيضا أحرار؛ لا تريد الفتاة الآن العمل بالزواج فقط، تتزوج عندما تجد الحب.

ارتفع التصفيق بحدة خاصة فى الصفوف الأمامية حيث كانت النساء.

أجاب "مهتا":

- إن الحب الذى تتحدثين عنه محض خداع، إنه هوى النفس المتغير، كما أن الزهد ستار مهذب للشحاذة! ذلك الحب الذى يقلل من شأن الحياة الزوجية، فلا توجد حياة حرة على الإطلاق. إن الاطمئنان والفرح الصادقين يكمنان فى العطاء فقط؛ الخدمة هى الرابط الذى يربط الرجل بزوجته طوال العمر برباط الحب والمساعدة، ولا تؤثر فيه عوائد الدهر. وعندما ينتفى العطاء يحدث الطلاق وسوء الظن، وأنت تتحملين أكثر من

الرجال لأنك تديرين سفينة الحياة، وإذا أردت أنقذتها من الطوفان والإعصار، لكن إن غفلت غرقت السفينة وغرقت معها، وستعجزين عن النجاة!

انتهت المحاضرة، وفتح باب الأسئلة، وطلبت بعض النساء الإذن، لكن الوقت كان قد تأخر لذلك شكرت "مالتى" "مهتا" وانتهت الجلسة. وذكرت أن يوم الأحد القادم سيشهد محاضرات تلقيها النساء عن هذا الموضوع.

هنأ "راى صاحب" "مهتا":

– لقد أمتعنى حديثك يا سيد "مهتا"! أنا أتفق معك فى كل ما ذكرته.

ضحكت "مالتى":

– أنت بالطبع تهنئه، فاللص دائما فى عون أخيه اللص! المحاضرة كلها عن النساء المساكين فقط، لم تضع كل العمل والجهد على عاتقهن؟!

قال "مهتا":

– لأن النساء على درجة عالية من الفهم.

نظر "كهنا" بعيون متسعة إلى "مالتى"، وكى يفهم ما يدور بخلدها قال:

– إن أفكار الدكتور هذه معروفة منذ قرن من الزمان!

أجابت "مالتى" بوجه عابس:

– أى أفكار؟!

- عن الخدمات والواجبات وغير ذلك.

- إن كنت ترى أن هذه الأفكار لها قرن من الزمان فاطرح أفكارك الجديدة، وأخبرنا كيف يمكن للرجل والمرأة أن يعيشا فى راحة وهدوء؟! أعندك أى نسخة جديدة؟

شعر "كهنا" بالخجل، كان يتحدث ليسعد "مالتى" لكنه أفسد الأمر فقال:

- هذه النسخة يعرفها السيد "مهتا".

ردّ الدكتور:

- أتعتقد أن الأفكار التى مرّ عليها قرن صارت شيئا قديما، وتريد التحدث عن نسخة جديدة؟! أنت تعلم أن هذا الحديث لا يكون قديما أبدا! دائما ما يطرح المجتمع مثل هذه الموضوعات، وسيظل يطرحها.

حضرت السيدة "كهنا"، فاقترب "مهتا" منها وسألها:

- ما رأيكِ فى محاضرتى؟

أطرقت السيدة "كهنا" عينيها، وقالت:

- جيدة جدا! لكنك رجل أعزب ولهذا تظن أن النساء من الآلهة أو أفضل وأنهن مسؤولات عن سفينة الحياة، لتتزوج ثم سأسألك عن رأيك فى النساء! لا بد لك أن تتزوج، أنت تفر من الزواج، وقد قلت إن من يفعل ذلك رجل جبان!

ضحك "مهتا":

– أُعد الأرض من أجل هذا.

– ملابس الآنسة "مالتى" أنيقة.

– سأشترط عليها أن تعيش معكِ عدة أيام لتتعلم منك تصرفات النساء.

– رأسك محشو بكلام الرجال! فهل تعلمت الواجبات المتعلقة بالرجل؟

– أنا أتساءل ممن سأتعلم؟!

– السيد "كهنا" سيعلمك جيدا!

قهقه "مهتا":

– كلا! بل سأتعلم هذه الواجبات منكِ.

– كلام حسن، إذا كنت ستتعلم منى فاعلم أن أول شىء أن تنسى أن المرأة هى الأفضل وأن عليها كل الواجبات، الرجل هو الأفضل، والعبء كله يقع عليه، فبإمكانه أن يولّد فى المرأة حب الذات، والتضحية بالنفس والإحساس بالواجب. وإذا لم توجد فيه هذه الصفات، فلن تتوفر فى المرأة كذلك! إن ثورة النساء اليوم لأن الرجال لا يتحلون بهذه الصفات.

رفع السيد "مرزا" "مهتا" فى حضنه، وقال:

- مبارك!

نظر إليه "مهتا" بعيون متسائلة:

- أأعجبتك محاضرتى؟!

- المحاضرة ليست جيدة أو سيئة بل مؤثرة، لقد قيدت الحور فى زجاجة! ومن حسن طالعك أن المرأة التى لا تعطى أحدا فرصة تغنى لك!

قالت السيدة "كهنا" بصوت متواضع:

- أخبرنى عندما تذهب النشوة!

قال "مهتا" بلا مبالاة:

- من ستحبنى يا سيدتى، وأنا أحب القراءة؟ كما أننى أقدس الأفكار القديمة!

عندما رأت السيدة "كهنا" زوجها يتجه نحو عربته اتجهت إليه. خرج "مرزا" كذلك، وأخذ "مهتا" عصاه من على الرصيف وأراد المضى، فحضرت "مالتى" وأمسكت بيده وقالت بإلحاح:

- لا يمكنك الذهاب، لتحضر معى وتلتقى بأبى وتتناول الطعام معنا اليوم؟

وضع "مهتا" يده على أذنه، وقال:

- اعذرينى! فسروج ستهاجمنى هناك، وأنا أخشى هؤلاء الفتيات كثيرا!

- كلا، كلا! أنا المسؤولة لن تفتح فمها.

- حسنا! لتذهبى، وسأحضر بعد قليل.

- كلا لن يحدث، لقد ذهبت "سروج" بعربتى وأنت ستوصلنى، سأذهب معك.

جلس الاثنان فى عربة "مهتا"، وسارت العربة. بعد لحظة سأل "مهتا":

- لقد سمعت أن السيد "كهنا" يضرب زوجته، ومن وقتها وأنا أكره رؤيته. الإنسان الذى ليس لديه رحمة، لا يمكن أن يُدعى إنسانا! ويبدو أنك تسعين لمصلحة النساء، لم لا تتحدثين معه؟!

قالت "مالتى" غاضبة:

- التصفيق يحتاج إلى يدين معا، أنسيت هذا؟!

- لا يمكننى التفكير فى سبب يجعل الرجل يضرب زوجته!

- قد تكون امرأة سليطة اللسان!

- إلى أى حد؟!

- أنت رجل من نوع جديد!

– ولو كان الرجل سليط اللسان، فهل من رأيك أن يضرب بالسوط؟

– يمكن للمرأة أن تغفر، أما الرجل فلا. لقد سلمت اليوم بهذا الكلام.

– أهذا هو جزاء تسامح النساء؟! أنا أعلم أنكِ تتحدثين مع السيد "كهنا" وهذا ما يشجعه، إنه يحترمك كثيرا، ويؤمن بك ولهذا فإنكِ تستطيعين التأثير عليه بسهولة، وإلا ستصبحين شريكته فى الذنب!

قالت "مالتى" بغضب:

– لم تتحدث فى هذا الموضوع، أنا لا أريد الإساءة إلى أحد؟! لكن أنت أيضا لا تعرف "جوبندى ديوى" بشكل جيد، ولهذا تعتقد أنها إلهة بمظهرها البرىء الساذج! أنا لا أريد أن أعطيها أكثر من قدرها، فقد سعت إلى تشويه سمعتى، وهاجمتنى بكلمات لو أخبرتك بها لأصابتك الحيرة! لتعلم أن هذا هو الجزاء العادل لمثل هذه المرأة!

– على أى حال لماذا غضبت هكذا؟! ما السبب؟

– تسأل عنها، وأنا لا علم لى بأحوال القلوب؟

– يمكنكِ التخيل دون سؤال! لو تدخل أحد بينى وبين زوجتى فسأطلق عليه النار، وإن عجزت عن ذلك فسأطلق النار على نفسى! وهكذا إذا أردت إحضار امرأة بينى وبين زوجتى، فلزوجتى الحق فى فعل ما تريد، ولا يمكن أن أقتنع بشىء آخر فى هذا الخصوص! وهذا

سلوك طبيعى ورثته عن آبائى وأجدادى المتوحشين. اليوم يقول بعض الناس إن هذا السلوك غير مهذب، وغير حضارى، لكنى لم أستطع التغلب عليه، ولا أريد أيضا! أنا لا أبالى بالقانون فى هذا الشأن، فى منزلى تسرى قوانينى!

سألت "مالتى" بلهجة حادة:

– كيف يكون هذا اعتقادك وتريد منى أن أقف بين "كهنا" و"جويندى"؟! إنك تهيننى بهذا الحديث، فأنا لا أضع اعتبارا لكهنا حتى بطرف حذائى!

قال "مهتا" بعدم اكتراث:

– أنت لا تتحدثين من قلبك يا آنسة "مالتى"، أتعتقدين أن الدنيا كلها حمقى؟! لو آمنت السيدة "كهنا" بما يؤمن به الناس جميعا فلا يمكننا أن نلومها!

– كيف يمكننى تغيير هذه الطبيعة؟ لكن هذا سوء سمعة دون جريرة! أنا لست وضيعة لدرجة أن أطرد "كهنا" إذا حضر عندى، فعملى أن أرحب بالجميع، وإذا اعتقد أحد شيئا آخر فهذا شأنه....

توقف الكلام فى فم "مالتى"، وأدارت وجهها ومسحت دموعها بالمنديل، ثم قالت بعد لحظة:

– أنت تفكر كالآخرين .... لقد آلمتنى .... لم أكن أتوقع هذا منك!

ربما شعرت بالندم على ضعفها، فقالت بحدة:

- ليس من حقك أن تهاجمني، إنك من هؤلاء الرجال الذين ما إن يرون امرأة مع رجل فلا يطيقون صبرا على تشويه سمعتها، لتفعل، أنا لا أبالي! عندما تحضر امرأة عندك لأى سبب كان، وتفهمك أنك إله، وتستشيرك فى كل أمورها، وتفرش عيونها تحت قدميك وتلقى بنفسها فى النار بإشارة واحدة منك، فأنا أستطيع القول إنك لا يمكنك التعامل معها بِخِسَّة! ولو تصرفت معها بخسَّة فلن تصبح إنسانا، ولو دلّت على عكس ذلك فلا يمكن أن أعير الأمر التفاتا! وأنا أخبرك أنك لن تتعامل معها بخسة، أو تطردها بل ستغسل قدميها وتشرب الباقى! وبعد مضى أيام قليلة ستملك قلبك! وأنا أتوسل إليك وأرجوك ألا تذكر اسم "كهنا" أمامى أبدا!

غضب "مهتا" من هذا الكلام، وقال:

- شرط ألا أراك مع "كهنا"؟!

- لا يمكن أن أقتل المروءة، إذا حضر لن أطرده.

- لتطلبى منه أن يعامل زوجته معاملة حسنة؟

- لا أعتقد أنه من المناسب التدخل فى حياة أحد الزوجية، وليس لى حق فى هذا!

- ولا يمكنك أيضا إغلاق فم أحد!

وصل إلى فيلا "مالتى"، فنزلت ومضت دون مصافحته، حتى إنها نسيت أنها قد دعته لتناول الطعام.

أرادت أن تختلى بنفسها وتبكى، لقد هاجمتها "جوبندى" من قبل، لكن اليوم كان الهجوم عنيفا للغاية ومحطما للقلب!

الفصل السادس عشر

عندما سمع "راى صاحب" بما حدث فى إقطاعيته، وأن عمداء القرية قد فرضوا ديّة على "هورى" استدعى على الفور "نوكهى رام" وسأله: لم لم يطلعه أحد؟ ليس لهذا الرجل الماكر، الناكر للجميل مكان فى بلاطه.

قال "نو كهى رام" بغضب، بعد معرفته بالأسباب:

– لم أفعل ذلك بمفردى، شاركنى أهل القرية. ماذا كنت أستطيع فعله بمفردى؟!

نظر "راى صاحب" إلى كرشه بنظرات حادة، وقال:

– لا تتكلم! كان يجب عليك أن تقول: لا يمكننا أخذ غرامة دون إخبار المالك، ما دخل الناس بيني وبين رعاياى؟! ما هو شأنكم وهذه الغرامة؟! الخراج يذهب إلى الحكومة، والفلاحون لم يدفعوا القروض، إلى أين أذهب؟! وماذا آكل؟! رأسك! من أين تأتي مئات الآلاف من الروبيات التى أنفقها كل عام؟! للأسف أنت تعمل معى منذ عقدين، وأنا أطلعك على هذا اليوم. كم أخذت من "هورى"؟

قال "نوكهى رام" بحيرة:

– مائتى روبية!

– نقدا؟

– نقدا؟ من أين له بالنقود يا سيدى الإقطاعى؟! لقد قدم الغلة، ورهن منزله بالباقى.

كان "راى صاحب" متعاطفا مع "هورى"، ويتركه لغرض فى نفسه:

– حسنا، لقد دمرت أنت وزملاؤك أحد الفلاحين المعتبرين! وأنا أسألك من أعطاكم الحق فى أخذ الدية من رعاياى دون إخبارى؟! لو أردت أن أزج بك فى السجن على هذه الفعلة أنت والمخادع "بندت" و"بتوارى" لسبع سنوات لفعلت! لقد اعتقدت أنك ملك هذه المنطقة، وأنا أقول لك لتحضر القرية كلها لدى عند المساء، وإلا سيحدث ما يسوؤك! سسأرسلكم الواحد تلو الآخر إلى السجن لتعملوا فى الأعمال الشاقة. اذهب، واستدع "هورى" وابنه ليمثلا أمامى.

قال "نوكهى رام" بصوت خاضع:

– لقد ترك ابنه القرية وفر فى نفس الليلة التى حدثت فيها هذه الحادثة!

قال "راى صاحب" بغضب:

– لا تكذب! أنت تعلم أن الكذب يشعل النار فى جسدى! لم أسمع حتى اليوم عن شاب يحضر حبيبته إلى منزله ويفر هو؟! وإذا كان قد فر

فلم أحضر تلك الفتاة؟! أنا أعتقد أنك تخدعني، ولو غرقت فى نهر جنجا وأنت تقسم لما صدقتك! لقد هددتموه حبا فى الحفاظ على المجتمع، لو لم يفر المسكين فماذا كان سيفعل؟!

لم يستطع "نوكهى رام" أن يعترض، فما يقوله الإقطاعى صحيح! لم يستطع كذلك أن يقول له لم لا تذهب بنفسك وتتقصى الصدق والكذب؟! يريد علية القوم عند غضبهم الطاعة العمياء، ولا يمكنهم سماع كلمة واحدة تعارضهم!

عندما سمع العمداء كلام "راى صاحب" ذهبت فرحتهم أدراج الرياح، كانت الغلة موجودة كما هى أما النقود فقد صرفت، ورهن "هورى" منزله، لكن من سيأخذه فى القرية؟ فالمرأة الهندوسية تملك البيت مع زوجها، ولو تركه فلا قيمة له، كذلك الحال بالنسبة إلى منزل "هورى" يبلغ ثمنه مائة ألف روبية، لكن قيمته الفعلية لا شىء! لا يمكن أن يترك "راى صاحب" النقود دون أخذها، وظنوا أن "هورى" ربما ذهب إليه وقصّ عليه ما حدث. كان "بتيشورى" أكثر الجميع خوفا، فستضيع وظيفته. فكر الأربعة بإمعان فى هذه المشكلة، لكن لم يصل أى منهم إلى حل، وأخذوا يلومون بعضهم بعضا، وحدثت بينهم مشادة كلامية.

حرّك "بتيشورى" رقبته الطويلة، وقال:

– ألم أخبرك ألا تفعل شيئا لهورى وتسكت عنه، لقد دفع الجميع ديّة قتل البقرة، أما هذا الأمر فلن نتخلص منه بدفع الدية! بل ستضيع

وظائفنا أيضا. لكنكم لا تفكرون في شيء سوى فى النقود! أخرجوا عشرين روبية وهكذا نرتاح، فلو قام "راى صاحب" بعمل محضر فسنسجن جميعا.

غضب "داتادين" غضبا تحركه عظمة برهمية، وقال:

- لا يمكن أن أدفع عشرين روبية، فليس عندى عشرين قرشا. لقد أعطينا جزءا من النقود للبراهمة كهدية، وقمنا بعمل جلسة دينية، ألم تُصرف نقود فيها؟! لا يمكن لراى صاحب أن يزج بى فى السجن، سأحطم المنازل، وهو لم يلتقِ ببرهمى من قبل!

وردد "جهنكرى سنج" كلاما مماثلا، فهو ليس خادما لدى "راى صاحب"، كما أنهم لم يقتلوا "هورى" أو يضربوه أو يجبروه على شيء! كان "هورى" يريد التوبة، فأعطوه الفرصة، لهذا لا يمكن أن يُظلموا على فعلة كهذه! لكن "نوكهى رام" لا يمكن أن ينجو بعنقه بسهولة، فهو يعيش هنا يتنعم كالملوك. لم يكن راتبه يزيد عن عشر روبيات، لكنه كان يأخذ ألف روبية زيادة فى كل عام، ويحكم مئات الناس، له أربعة من الحراس، ويأخذ العمل من الناس دون أجر، يحترمه رئيس القسم، ويقدم له كرسيا يجلس عليه! لا يمكن أن يجد هذا الاحترام فى مكان آخر! وقد أصبح "بتيشورى" مرابيا بفضل منصبه، إلى أين يمكن أن يذهب؟! ظل يفكر ليومين أو ثلاثة فى سبيل النجاة من هذه المصيبة؛ وفى النهاية رأى سبيل النجاة، فقد كان أحيانا يقرأ صحيفة بجلى فى المحكمة،

لو أرسل خطابا لرئيس التحرير بأن "راى صاحب" يأخذ من رعاياه الديات فسيدفع بدل أن يأخذ! وافقه "نوكهى رام" كذلك، وكتب الاثنان خطابا وأرسلاه بالبريد.

كان رئيس التحرير "اونكار ناته" ينتظر مثل هذه الخطابات دائما، وقد أطلع "راى صاحب" عليه فورا: لقد وصلنى خبر لا يطمئن قلبى لصحته، لكن كاتب هذا الكلام قد أعطى دليلا لا يمكن تجاهله، هل صحيح أن "راى صاحب" قد أخذ من أحد الفلاحين فى إقطاعيته ثمانين روبية لأن ابنه قد أحضر أرملة إلى منزله؟!

كان رئيس التحرير مجبرا على التحقيق فى هذا الأمر، وأن يقوم بنشره من أجل المنفعة العامة، وسينشر تعليق راى صاحب كذلك. كان رئيس التحرير يود أن يكون الخبر كاذبا، لكن بما أنه قد تأكد من صحته فهو مجبر على نشره، فلا يمكن للصداقة أن تبعده عن طريق الواجب.

عندما وصل الخبر "راى صاحب" ضرب رأسه بيده، فكر فى البداية أن يذهب إلى "اونكار ناته" ويضربه خمسين جلدة ويطلب منه: أن ينشر عن ضربه فى نفس مكان نشر الخطاب! لكن عندما فكر فى العواقب هدأ قلبه، وذهب للقائه على الفور، فلو تأخر عليه ونشر "اونكار ناته" الخطاب فستذهب سمعته أدراج الرياح.

كان "اونكارناته" قد عاد من نزهة، وأخذ يفكر فى كتابة افتتاحية الصحيفة، لكن قلبه كان يطير كالعصفور؛ ففى ليلة الأمس وجهت له زوجته كلاما آلمه كالأشواك! لو قال له أحد إنه مفلس، سيئ الحظ وأحمق فلن يتأثر مطلقا، لكن أن يقال له إنه ليس رجلا فهذا يفوق احتماله، ثم هل من حق زوجته أن تقول له هذا؟! وهو يتمنى أن يغلق فمها عندما تنطق بهذا الكلام. مما لا شك فيه أنه عاجز عن نشر مثل هذه الأخبار، وهو لا يكتب ملاحظات كهذه حتى لا تحيق به مصيبة. إنه يمشى رويدا رويدا ولا يمكنه فعل أكثر من هذا فى ظل قوانين هذا الزمان السوداء! إنه لا يضع يده في جحر الثعابين حتى لا يقع أهله فى المصائب، ويصبح هذا عاقبة صبرهم. هذا ظلم! كيف يمكنه شراء السارى البنارسى(١) وليس لديه نقود؟ كثير من الزوجات كزوجة الدكتور "سيته"، والأستاذ الدكتور "بهاتيا" يلبسن السارى البنارسى، فماذا ستفعل هى؟! لم لا تكتفى زوجته بساريها المحلى؟ إن من طبيعته عندما يذهب للقاء علية القوم أن يرتدى الملابس المحلية، وعندما يعترض أحد يرد عليه ردا يفحمه، فهل توجد الصفة نفسها فى زوجته؟! لم تضطرب عندما ترى الآخرين في راحة؟! يجب عليها أن تفهم أنها زوجة وطنى مخلص، ولا يملك كنزا غير حب الوطن! كان يريد أن يسطر هذا فى افتتاحية اليوم، لكن فكره اتجه إلى موضوع "راى صاحب"، بم سيرد بعد معرفته. سيرى! لو وجد الأدلة القاطعة التى تخرجه من هذا المأزق. لو ظن أن

---

(١) بنارس مدينة مقدسة لدى الهندوك، وتشتهر بصناعة السارى.

"اونكارناته" سيخضع له، أو يخاف أو يحيد بوجهه عن واجبه فسيكون هذا تفكير خاطئ منه! بعد كل هذا الزهد لا يملك شيئا سوى رفع الستار عن لصوص القانون. إنه يعرف جيدا أن "راى صاحب" رجل ذو نفوذ، فبالإضافة إلى عضويته فى المجلس، له قدم وحظوة عند الحكام أيضا، إذا أراد فبإمكانه أن يعقد له محاكمة صورية، أو يجعل حراسه يضربونه، لكن "اونكارناته" لا يخاف مثل هذه الأشياء، وسيجاهد ضد الظالمين ما بقيت روحه فى جسده!

فجأة سمع صوت عربة فتنبّه على الفور، وأخذ ورقة وبدأ يكتب موضوعه. بعد لحظة دخل "راى صاحب " الحجرة، رحّب "اونكارناته" به وسأله عن أحواله وقدم له كرسيا، ورأى فيه مذنبا قد حضر إلى ساحة محكمته، فسأله بصوت مهيب:

- أوصلك خطابى؟ لم أكن مضطرا لكتابته، فواجبى أن أبحث بنفسى لكن من أجل المروءة قد نقتل الأصول. هل هذا الخبر صحيح؟

لم يستطع "راى صاحب" أن ينكر صدق الخبر، مع أنه كان بإمكانه أن ينكر أنه أخذ هذه الروبيات، لكنه أراد أن يعرف إلى أين سيسير هذا الشخص.

أظهر "اونكارناته" أسفه، وقال:

- لا بد إذن أن أنشر هذا الخبر، ما باليد حيلة! وكل أسفى أنه يتعلق بأحد أصدقائى الخيرين، لكن المرء يكون عاجزا أمام الواجب،

وإذا لم يؤد رئيس التحرير واجبه كاملا فليس من حقه أن يجلس فى هذا المكان!

جلس "راى صاحب" على الكرسى، ووضع التبغ فى فمه، وقال:

- لكن هذا ليس من مصلحتك، فكل ما سيلحق بى من ضرر سيكون مستقبلا، أما أنت فستلقى جزاءك على الفور! وإذا كنت لا تقيم وزنا لأصدقائك، فأنا مثلك!

اختار "اونكارناته" أن يلعب دور شهيد الواجب، فقال:

- لن أخاف من تهديدك! ففى اليوم الذى وضعت عبء إدارة الصحيفة على عاتقى نسيت نفسى، ومن حينها وأنا أرى أن موت رئيس التحرير فداء للحق والعدل هو أعظم موت!

- كلام جميل. سأقبل تحديك، حتى الآن كنت أعتبرك صديقى، لكن الآن أنت مستعد للحرب فلتكن حرب بيننا. قل الحقيقة ألم أتبرع لصحيفتك خمسة أضعاف أى شخص آخر؟! هذا فقط كى تكون عبدا لى! لقد جعلنى الإله رئيسا، ولم أصبح هكذا بفضلك. عادة ما يدفع الناس خمس عشرة روبية شهريا للمجلة، أما أنا فأدفع خمساً وسبعين حتى تغلق فمك! عندما تبكى على خسارتك تحتاج إلى المساعدة، وربما لا تمر ثلاثة أشهر حتى تأتينى طالبا العون، والتبرعات للصحيفة، ودائما ما كنت أساعدك، لماذا؟ أنا أرسل لك الهدايا فى جميع المناسبات،

كأعياد ديوالى(٢) ودسهروهولى(٣)، وأدعوك خمساً وعشرين مرة فى العام، لماذا؟ لا يمكن أن يسير الواجب والرشوة جنبا إلى جنب!

قال "اونكارناته" بغضب:

– أنا لم أتلق أى رشوة!

فرد عليه "راى صاحب":

– إذا لم تكن هذه رشوة، فما هى الرشوة؟ لتفهمنى؟! أتعتقد أن الجميع حمقى عداك، بحيث يمدون لك يد المساعدة فى أزماتك دون غرض؟! أخرج إيصالاتك وأخبرنى كم أخذت من إقطاعيتى حتى الآن؟ أنا متأكد أن الرقم سيكون بالآلاف! وإذا كنت أنت لا تخجل من نشر الإعلانات الأجنبية وإعلانات الأدوية وغيرها، فلم أخجل أنا عندما آخذ الديّة من رعاياى؟! أنت لست أول من تحدث عن إقامة مشروعات نافعة للفلاحين، فأنا أحيا وأموت بجوارهم، ولا يمكن أن تكون محبا للخير أكثر منى، لكن كيف أعيش؟! من أين أدعو الضباط؟! ومن أين أحضر التبرعات للحكومة؟! كيف أوفر ضرورات المئات من الأسر؟! كم يصرف منزلى؟ ربما تعرف، أتثمر النقود فى منزلى؟! ما أحصل يأتى من بيوت رعاياى. أتظن أن الإقطاعيين والحكام يعيشون فى راحة بال؟!

---

(٢) أى عيد الأنوار، حيث يضىء فيه الهنادكة المصابيح حول المنزل احتفالا بفوز رام وعودة زوجته التى اختطفها راون.

(٣) وهو عيد الألوان، ويأتى فى بداية الربيع ويشبه شم النسيم عندنا.

أنت لا تعرف حقيقة حالهم! لو عاش أحدهم متدينا لصعبت عليه الحياة وما أمكنه العيش، وإذا لم يقدم الهدايا للحكام يزج به فى السجن. نحن لسنا عقارب حتى نلدغ الناس دون سبب، ولا نسعد بالضغط على أعناق الفقراء، لكن لا بد أن نسير وفقًا للعادات والتقاليد! وكما تريد أن تستفيد منى، فالناس أيضا مثلك، وهم يعتقدون أننى دجاجة تبيض ذهبا! لو جئتنى فى قصرى فسأريك عدد الأسهم التى تتجه نحوى من الصباح إلى المساء: يُحضر أحدهم شالا كشميريا، والآخر يحضر جرامافون، وثالث يحضر هدية، والأشخاص الذين يأخذون التبرعات لا حصر لهم، أأحكى حكايتى أمام الناس جميعا؟! أيحضر هؤلاء الناس لسماع قصتى المؤلمة! إنهم يحضرون للأخذ منى، لو تخليت اليوم عن التقاليد فسيصفق لى الناس، لكن إذا لم أقدم الهدايا إلى الحكام فسأصبح طاغية، وعندها لا يمكن لمقالاتك مساعدتى! أنا أدفع الديّة حتى الآن عقابا على انضمامى لحزب المؤتمر، وقد خُط اسمى فى القائمة السوداء، وعلىّ الكثير من القروض، هل سألت عن هذا كله؟! لو انتصر المرابون فى المحكمة ستباع أملاكى كلها، حتى أوسمتى. قد تقول لى لم تفعل كل هذا؟! أنا أعيش فى هذا الوضع منذ سبعة عقود، ولا يمكننى الخروج منه، لا يمكن أن أعمل فى قص الحشيش. أنت لا تملك أرضا، ولا ثروة، ولا عادات وتقاليد، قد لا تخاف من شىء ومع هذا تجلس خائفا! أتعلم أن المحاكم توجد فيها الرشى، وتسيل دماء الكثير من الفقراء، وتسلك النساء طريق الفاحشة! أيمكنك الكتابة عن هذا كله؟ أنا أعطيك أمثلة، وبالدليل.

قال "اونكارناته" بشيء من الهدوء:

– عندما تحين مثل هذه الفرصة لن أتردد فى وضع قدمى.

هدأ "راى صاحب" هو الآخر قليلا:

– نعم أنا أعرف أنك قد أظهرت رجولتك فى فرصة أو اثنتين، لكن دائما ما كنت تركز على مصلحتك، وليس على مصلحة العامة. لم تفتح عينيك، ولم يحمر وجهك، ونزلت إلى الميدان ففزت بنتيجة جيدة حيث زادت عزتك ودخلك! لو لعبت معى فأنا على استعداد لمساعدتك، لن أعطيك نقودا لأنها ستكون رشوة، بل أهدى زوجتك المجوهرات، ما رأيك؟ والآن سأصدقك القول: إن الخبر الذى وصلك غير صحيح، ولكن أنا أيضا أحصل على الديّة من رعاياى كإخوانى، وهكذا أحصل على خمسة أو عشرة آلاف روبية فى العام. لو أخذت لقمة من فمى فستخسر! وكما تريد أن تعيش فى الدنيا براحة فكذلك أنا، ما الفائدة فى أن تدخلنى فى مصيبة بعد لعب دور فى مسرحية الواجب، وأن توقعنى وتوقع نفسك فى مصيبة؟! أخبرنى بما يجول فى خاطرك، أنا لست عدوك! كم مرة تناولنا الطعام، وأكلنا على طاولة واحدة؟! أنا أعلم أنك فى وضع سيء، وحالك أسوأ من حالى، ولكن لو أصررت أن تكون مثل هريش تشندر(٤) الملك القديم فهذا شأنك، أستأذن.

---

(٤) ملك قديم، وأصبح بعد ذلك أحد آلهة الهندوك.

نهض "راى صاحب" من على الكرسى، فأمسك "اونكارناته" بيده، وقال يصالحه:

– كلا، كلا! اجلس لبعض الوقت، لا بد أن أصحح صورتى، أنا أقدر لك ما فعلته معى، لكن عندما يكون حديثى عن الواجب، فأنت تعلم أن الواجب أغلى عندنا من الروح!

جلس "راى صاحب" على الكرسى، وقال بلهجة حلوة:

– حسنا، لتكتب ما تريد، لا أريد أن أحطم مبادئك. جل ما سيحدث أن تسوء سمعتى، فليحدث! إلى متى أموت حفاظا على كرامة اسمى؟! من مِن الإقطاعيين لا يظلم رعاياه؟! لو احتفظ الكلب بالعظم، فماذا سيأكل؟! وفى استطاعتى منع وصول مثل هذه الشكاوى إليك فى المستقبل، ولتكن متأكدا من هذا، فاغفر لى هذه المرة. أنا لم أكن لأتملق رئيس تحرير آخر هكذا، بل كنت سأضربه فى السوق! لكن أنت صديقى، ولا بد أن أتحامل على نفسى، فهذا دور الصحف، حتى الحكومة تخشاها، فمن أكون أنا؟! من تريد رفعه ترفعه، ومن تريد تخفضه! حسنا! لننحِّ هذا الشجار جانبا، وأخبرنى عن أحوال صحيفتك، أزاد عدد قرائها؟

قال "اونكارناته أسفًا:

– الصحيفة توزع قليلا، والحالة الراهنة لا توحى بأى أمل فى الزيادة! إننى لم أترأسها طمعا فى الثروة والراحة، ولذلك لا أشتكى! لقد جئت لخدمة الجمهور، وأنا أفعل هذا بقدر الإمكان. أمنيتى أن أقدم خيرا للوطن والشعب، فلا قيمة لراحة شخص واحد أو عدم راحته!

رد "راى صاحب" بكثير من اللين:

- يا أخي! هذا كله صحيح، لكن لا بد أن تعيش من أجل الخدمة، ولا يمكن أن تخدم وأنت تفكر فى المال، ألا يزيد عدد قراء الصحيفة؟

- أنا لا أريد أن أنزل بمستوى صحيفتي، فلو طبعت اليوم صور نجوم السينما وقصص حياتهم لزاد القراء، لكن هذا ليس مبدئي. وهناك الكثير من الطرق المماثلة التي يمكنني بها كسب النقود، لكن أظن أن هذا عمل سيئ!

- ولهذا فأنت اليوم تحوز على مكانة عظيمة، سأطرح عليك أمرا ولا أدرى أستقبل أم لا؟ وذلك بأن تقوم بتوزيع مائة عدد مجانا على أناس من قبلي، وأنا سأدفع ثمنها.

هزّ "اونكارناته" رأسه شاكرا، وقال:

- أقبل هديتك مع جزيل الشكر، للأسف لم يعد الناس يعيرون الصحف التفاتا! النقود ليست قليلة في المدارس والكليات والمعابد، لكن لم يعد هناك شخص كريم يعطي منحة لطبع الصحف. إن الأهداف الثقافية تكتمل بالصحف وبأقل التكاليف، ولا توجد طريقة أخرى. وكما تصل التبرعات من الجمعيات المختلفة إلى المدارس لا بد أيضا من مساعدة محرري الأخبار. هؤلاء المحتاجون الذين يضيعون أوقاتهم، ويعطون الهدايا من أجل الإعلانات، لم يكونوا ليفعلوا هذا لو ساعدهم الناس. أنا أشكرك للغاية.

استأذن "راى صاحب"، لم يظهر السرور على وجه "اونكارناته". رغم أن "راى صاحب" لم يشترط شيئا يقيده بشيء، إلا أنه لم يستطع اليوم أن يرفض هذه المساعدة بعد النصيحة الكبرى! كما أنه لم ير سبيلا آخر غيره للخروج من أزمته، كان مدينا بأجرة ثلاثة أشهر للمطبعة، وألف روبية لتاجر الورق، وهذه منحة إلهية حتى لا يمد يده لأحد.

حضرت زوجته "جومتى"، وقالت غاضبة:

– ألم يحن وقت الطعام؟ أنت لا تتحرك من مكانك ما لم تدق الساعة الواحدة، حتى متى ستظل النار موقدة؟!

نظر "اونكارناته" نحو زوجته بعيون حزينة، فذهب غضب "جومتى"؛ كانت تعي أعباءه، لكن قلبها كان ينبض بالرفض حين ترى الملابس والذهب تزين النساء الأخريات، فتُسمع زوجها كلمتين أو أربع! لم تكن فى الحقيقة غاضبة منه، بل غاضبة على سوء حظها، وكانت شعلة هذا الغضب أحيانا ولسوء الطالع تصل إلى "اونكارناته"، وأحيانا أخرى تشفق عليه من مجهوده الشاق وتواسيه. كانت تعتقد أن به مسا من الجنون، فسألته بعد أن رأت وجهه العابس:

– لم أنت حزين هكذا؟ هل يؤلك بطنك؟

تبسّم "اونكارناته":

– من الحزين؟! أنا اليوم أكثر سعادة من يوم زفافى، فلقد ربحت ألفا وخمسمائة روبية، لا بد أننى قد طالعت وجها حسنا!

لم تكن "جومتى" واثقة، فقالت:

- أنت كاذب! من أين أتت الألف وخمسمائة روبية؟! لو قلت خمس عشرة لصدقتك.

- كلا، كلا! أقسم برأسك إنها ألف وخمسمائة! فقد حضر "راى صاحب"، ودفع تبرعات باسم مائة شخص للصحيفة من جيبه الخاص.

ظهر الحزن على وجه "جومتى":

- هل أخذتها؟!

- كلا، لقد وعدنى "راى صاحب" وهو صادق.

- لم أرَ إقطاعيا يفى بوعده! كان جدى يعمل عند أحد الإقطاعيين، ولم يكن يأخذ راتبا طوال العام، حتى استقال من خدمته، ولم يكن قد دفع له راتب عامين، وذات مرة غضب جدى للغاية فقام بضربه؛ لا يمكن الوثوق بوعده!

- سأرسل اليوم الفاتورة.

- لترسلها! سيقول لتحضر غدا، وغدا سيذهب إلى إقطاعيته ويعود بعد ثلاثة أشهر.

بدأ الشك يملأ قلب "اونكارناته"، إذا لم يفِ "راى صاحب" بوعده فماذا سيفعل؟! فقال ليطمئن قلبه:

- لا يمكن! فأنا لا أعتقد أن "راى صاحب" شخص مخادع، وهو ليس مدينا لى بشىء.

قالت "جومتی" بنفس الشك:

- لهذ السبب أقول إنك أحمق! لو واساك أحدهم تشعر بالزهو، إنه من الإقطاعيين الكبار، وكم من الوعود يمكنه هضمها في بطنه؟! لو أوفى بكل وعوده لشحذ في الشوارع! لم يكن السيد "هار" إقطاعي قريتي يحاسب البقالين بالسنتين والثلاث، ويعطي جزءا قليلا من مرتبات العمال ويأخذ العمل طوال العام، وعندما يطلب العمال مرتباتهم كان يضربهم ويجلدهم، كم طفلا من أولاد العمال خرج من مدرسته لعدم أخذ العامل لأجره! وفي النهاية كانوا يستدعون أبناءهم إلى المنزل، فكانوا يأخذون منه تذكرة القطار كقرض؛ و "راى صاحب" على شاكلته! هلم إلى الطعام، واعمل في المطحنة، فهذا قدرُك، ولتعرف أن هؤلاء الأغنياء سيزجرونك، وهذا أفضل لك! لأنه لو أعطاك قرشا فسيأخذه من رعاياه أربعة أضعاف. والآن كل ما تريد أن تكتبه، فلتكتبه، لكن فيما بعد لن يمكنك كتابة شيء!

كان "بندت جي" يأكل، لكن اللقمة لم تكن تنزل في حلقه، كان من الصعب عليه تناول الطعام قبل تخفيف ثقل قلبه، فقال:

- إذا لم يعطني النقود، فسأعمل له أمرا سيتذكره طوال حياته؛ فأمره في يدي! لا يمكن أن يرسل أهل القرية بخبر كاذب، فهم يخافون من أن تزهق أرواحهم إذا أعطوا خبرا صادقا، فكيف بالخبر الكاذب؟! لقد أُرسل لي خبر عن "راى صاحب" لو نشرته لما استطاع الخروج من

منزله! إنه لا يتصدّق عليّ! لقد أعطاني بعد أن وقع تحت الضغط؛ كان في البداية يهددني، لكن عندما رأى أنه لا فائدة من هذا فألقى لي بهذا العلف. أنا أيضاً فكرت أنه لو استقام شخص واحد في البلاد فإن الظلم لن يختفي، فلم لا أقبل هذه الهدية؟! لقد تنازلت عن مبادئي، لكن إذا لم يفِ "راي صاحب" بوعده، فأنا أيضا سأنزل إلى ميدان المعركة، وسأجعل ضميري يفهم أنه ينهب من ينهب الفقراء!

الفصل السابع عشر

وصل الخبر إلى القرية بأن "راى صاحب" قد استدعى العمد، وزجرهم بشدة، وانتزع كل ما أخذه هؤلاء الناس، وكان سيرسلهم إلى السجن! لكنهم استسمحوه وقبَّلوا قدميه. استراحت "دهنيا"، وكانت تدور فى القرية تتحدث عما حدث للعمد حتى تذلّهم:

– إذا لم يلبِّ الإنسان الدعاء، فالإله يستجيب! كانوا يعتقدون أنهم سيصرفون هذه النقود في المتعة، لكن الإله قضى على أمانيهم، وانتزع الطعام من فمهم، فدفعوا ضعف ما أخذوه! ماذا سيفعلون لأخذ منزلى؟!

لكن كيف يمكن الحرث دون ثيران، لقد بدأ موسم الزراعة فى القرية، لو ماتت ثيران الفلاح فى شهر كاتك؛ فكأن يده قد قطعت، وكانت يدا "هورى" قد قطعتا! وكان الناس جميعا يحرثون حقولهم، ويبذرون البذور، وصوت الغناء يرتفع هنا وهناك، أما حقل "هورى" فكان كمنزل الأرملة. كان عند "بنيا" محراث، لكن لم تجد فرصة لمساعدة "هورى" فى حرث حقله. كان "هورى" يدور طوال النهار يمينا وشمالا، يجلس

فى حقل أحدهم، وأحيانا يساعد أحدهم فى الحرث، لهذا لم يواجه مصاعب فى موسم الحرث، وهكذا كان يأخذ أجرا على صورة غلة. كانت "دهنيا"، و"سونا" و"روبا" يساعدن الآخرين فى الحرث، وكن يستمتعن بالأكل. كان التفكير صعبا، لكنهم كانوا يجدون الطعام، وفى الليل يتشاجر الزوج والزوجة لبعض الوقت.

انتهى شهر كاتك، فأصبح العثور على عمل فى القرية مشكلة، وكانت كل أمانيهم معلقة على القصب الموجود فى الحقل. كان الوقت ليلا والبرد قارسا، ولا يوجد طعام فى منزل "هورى"؛ أكلوا فى النهار بسلى مشوية، لكن الآن لم يجدوا شيئا ليطبخوه على النار! كانت "روبا" مضطربة من الجوع، ووقفت أمام الباب الذى تشتعل عنده النار، لا يوجد فى المنزل حبة واحدة من الغلة فماذا تطلب؟! وماذا تقول؟!

عندما عجزت عن تحمل الجوع، ذهبت إلى منزل "بنيا" بحجة طلب النار. كانت تخبز خبز باجرا وخضروات البتهوا، سال لعاب "روبا" من الرائحة.

- ألم توقد ناراً فى منزلكِ؟

قالت "روبا" بعجز:

- لا يوجد اليوم شىء فى المنزل، فعلام نشعل النار؟!

- إذاً لِمَ حضرت لطلب النار؟!

- أبى سيدخن النارجيلة.

ألقت "بنيا" بنار من الروث ناحيتها، لكن "رويا" لم تأخذها واقتربت منها، وقالت:

- رائحة خبزك جميلة يا عمتي! أنا أحب خبزك جدا.

تبسمت "بنيا"، وقالت:

- تأكلين؟

- ستزجرني أمي.

- من سيخبر أمك؟

أكلت "رويا" حتى شبعت، ثم ذهبت إلى المنزل دون حتى أن تغسل فمها ويديها. كان "هوري" غارقا في الفكر، عندما استدعاه "بندت داتادين"، دق قلب "هوري"، أي مصيبة جديدة ستحل؟! قبّل قدميه، ودعا له، ووضع له متكئا.

جلس "داتادين"، وقال بلهجة متعاطفة:

- لم يحرث حقلك بعد يا "هوري"! لم لم تطلب مساعدة أحد أبناء القرية، وساعتها ما وجد "بهولا" فرصة لأخذ ثيرانك من أمام منزلك، وإلا كان سيموت هنا؟ وأنا أقسم وأنا أحمل الكتاب المقدس في يدي، أنني لم أشترك في أخذ الدية منك، إلا أن "دهنيا" تلطخ اسمي دون حق! كل هذا من عمل "بتيشوري لالا" و"جهنكري سنج". لقد جلست في مجلس القرية لاستدعاء الناس فقط، وكانوا يريدون أخذ ديّة أكبر، وقد طلبت

منهم أن يأخذوا دية أقل. الآن كلهم يبكون، وهم يضعون أيديهم على رؤوسهم، فهم يعتقدون أن هذه الدية كانت ملكهم، لكنهم تناسوا أن للقرية مالكا آخر! ماذا ستفعل من أجل بذر حقلك؟

أجاب "هورى" بصوت باك:

- ماذا أقول يا سيدى؟ سيبقى بلا حرث.

- بغير حراثة؟! هذا ظلم عظيم!

- إذا كانت هذه إرادة الإله، فماذا أفعل؟!

- كيف يكون حقلك دون حراثة وأنا موجود؟ فى الغد ستبدأ الحراثة، الحقول الآن مبتلة، وستنبت بعد باقى الناس بعشرة أيام. كلا لن يحدث، وسأتقاسمه معك، فلا أخسر أنا ولا أنت. لقد جلست اليوم، وأمعنت التفكير فى هذا الموضوع، وشعرت أن هذا ظلم عظيم ألا تنبت البذور فى حقل محروث!

فكر "هورى" فى نفسه: لقد وضعت الكثير من السماد، واليوم سأعطيه نصف غلة الفصل مقابل بذر البذور فقط، وهو يمُن علىّ بهذا! لكن الأفضل أن تُبذر البذور بدلا من أن يظل الحقل دون بذور، إذا لم يستفد شيئا فعلى الأقل يمكنه دفع الخراج، لأننى لو لم أدفعه سأدفعه بالربا.

وافق على الاقتراح.

قال "داتادين" بسعادة:

- تعال معى، وسأنزل لك البذور حتى لا تحدث مشكلة فى الصباح. هل تناولت الخبز؟

أجاب "هورى" بحياء:

- لم تشعل النار فى المنزل.

قال "داتادين" وهو فى غاية السعادة:

- حسنا! إذا لم تشعل النار فى منزلك فلم لم تخبرنى؟! أنا لست عدوك! إن قلبى حزين من أجل هذا، أيها الرجل الساذج، ما الداعى إلى الحياء فى أمر كهذا؟! كلنا واحد، ورغم أنك من الطبقة السفلى وأنا من البراهمة، فإننى لا أعبأ بأمر كهذا، فكلنا من منزل واحد! إن الأيام ليست سواء عند الجميع، من يعرف قد تصيبنى فى الغد مصيبة، فإذا لم أخبرك فمن أخبر؟! حسنا! لقد حدث ما حدث، لتحضر معى لأزن لك أربعين أو ثمانين كيلو من الغلة والبذور.

بعد نصف ساعة حضر "هورى" وهو يحمل على رأسه أربعين كيلو من الغلة، وبدأت مطحنة المنزل فى العمل. كانت "دهنيا" تبكى وهى تطحن مع "سونا": بأى ذنب يعذبها الإله؟!

فى اليوم التالى بدأ البذر، وكان كل فرد من العائلة مشغول فى الحقل كأن الغلة كلها ستكون لهم! وبعد عدة أيام قاموا بريِّها، لقد حصل

"داتادين" على العمل بالمجان! وفى بعض الأحيان كان ابنه "ماتادين" يحضر إلى بيت "هورى"، كان شابا ماجنا، لكنه معسول الكلام، وما يكسبه "داتادين" ينفقه ابنه على التدخين وغيره. كان قد أحب امرأة من المنبوذين، ولهذا لم يمكنه الزواج بها حتى الآن، كانت تعيش بمفردها، وكانت القرية كلها تعرف هذا السر، لكن أحدا لم يجرؤ على قول شىء؛ إن الطعام هو مذهبنا، وإذا كان الطعام طاهرا لا يمكن أن يتدنس مذهبى، فالخبز يحمينى من عدم الإيمان!

كان "ماتادين" يتحين الفرص للتحدث مع "جهنيا" بحجة الحق المشترك، فعندما يحضر وتكون "جهنيا" بمفردها فى المنزل يحتال للدخول بحجة أو أخرى. لم تكن "جهنيا" جميلة، إلا أنها شابة، وأجمل من محبوبته، وقد عاشت فى المدينة لفترة فعرفت أصول اللبس والحديث، كانت كذلك ذات حياء، وهذا الأمر هو الذى يجذب الرجال إلى المرأة. كان "ماتادين" أحيانا يرفع ابنها ويدلله، وكان هذا يسعد "جهنيا".

ذات يوم قال لجهنيا:

– ما الذى أعجبكِ فى "جوبر" لتحضرى معه يا "جهونيا"؟!

قالت "جهنيا" بحياء:

– إن القدر هو الذى أحضرنى يا سيدى! ماذا أقول؟!

قال "ماتادين" بحزن:

– إنه رجل غير وفى! كيف يترك امرأة مباركة مثلك، ويدور هنا وهناك؟! إنه فتى عابث! وأنا أشك فى أنه قد وقع فى حبائل امرأة أخرى،

لا بد أن تطلق النار على أمثاله! إن دين الرجل يحتم عليه إذا تزوج امرأة أن يعيش معها طول حياته، ومع هذا فقد دمر حياة شخص، وأخذ ينظر إلى بيوت الآخرين!

بكت المرأة، فنظر "ماتادين" حوله ثم أمسك بيدها، وأخذ يفهمها:

– لا تبالى به يا "جهنيا"! لو رحل فلا توجد مشكلة، أنت لا تحتاجين إلى شيء! النقود، المال، المجوهرات، الملابس وكل ما تريدين سأحضره لكِ.

سحبت "جهنيا" يدها ببطء، وتراجعت قائلة:

– لقد حزت كل شيء بدعائك يا سيدى! أنا معلقة؛ فلم أكن فى منزلى، وأنا هنا أيضا لست فى منزلى! لم أجد الدنيا، ولم أجد الإله! ولم أخبر طرق الحياة، لذا عندما سمعت الكلام المعسول وقعت فى شبكته!

بدأ "ماتادين" يسىء لجوبر:

– إنه ماجن! فلا هو يحب المنزل، ولا يحب الخارج! دائم الشجار مع أبيه وأمه، إذا وجد نقودا لعب القمار على الفور، وروحه معلقة بالبانجو والأفيون، يدور دائما مع الفتيان العابثين، ويراود البنات وزوجات الناس وهذا هو ما يفعله! أراد مأمور القسم أن يزج به السجن بسبب أفعاله الشائنة، وقد توسطنا حتى تركه. كان يسرق الغلة من حقول الآخرين، كم مرة قبضنا عليه وهو يسرق، لكننا تركناه لأنه من أهل قريتنا.

حضرت "سونا" من الخارج، وقالت:

– يا زوجة أخي! أمي تطلب منك أن تخرجي الغلة وتضعيها في الشمس، وإلا ستخرج منها الكثير من القشور.

وكأن "بندت" قد وضع الماء على الزيت الساخن، قال "ماتادين" بوضوح:

– أنا أرى أن المطر لا ينزل في منزلك، وإذا أمطرت فستبتل الأشجار وتبتل الغلة أكثر.

قال هذا ثم مضى، لقد خرب مجيء "سونا" لعبته.

سألت "سونا" "جهنيا":

– لم حضر "ماتادين"؟

قالت "جهنيا" وهي ممتعضة:

– كان يطلب حبلا، وقد أخبرته أنه لا يوجد حبل هنا.

– إنها حيلة، فهو رجل سيئ للغاية!

– إنني أرى أنه رجل طيب، ما السيئ فيه؟!

– أنت لا تعرفينه، فهو على علاقة مع "سليا" إحدى المنبوذات.

– من أجل هذا اعتبرته إنسانا سيئا؟!

– بأي شيء يصبح الرجل سيئا؟!

– لقد أخذنى أخوكِ أيضا، أهو رجل سيئ؟!

لم تجب "سونا"، وقالت:

– لو حضر إلى منزلى فسأجره إلى الخارج!

– ولو تزوجته؟

استحت "سونا":

– يا زوجة أخى أنت تسبيننى!

– لم؟ ما السباب فى كلامى؟!

– لو تكلم معى سأحرق فمه.

– هل ستتزوجين إلاها؟! فمن فى القرية من الرجال بمثل وسامته وحسنه؟

– لتذهبى أنت معه، فأنتِ أفضل من "سيليا" مائة ألف مرة!

– لم أذهب معه؟! لقد حضرت مع شخص آخر، سواء كان حسنا او سيئا!

– وأنا أيضا سأذهب مع رجل بعد الزواج، سواء كان حسنا أو سيئا!

– وإذا تزوجت من كهل؟

ضحكت "سونا":

– سأصنع له الخبز اللين، وأعد دواءً من الأعشاب وأصفيه، وأمسك بيده لأوقفه، وعندما يموت سأبكى وأحجب وجهى.

– وإذا تزوجت شابا؟

– عندها يكون ما فى رأسكِ، أليس كذلك؟!

– حسنا! أتفضلين الزواج من شيخ أم من شاب؟

– من يحبنى هو شاب بالنسبة لى، ومن لا يحبنى فهو شيخ كبير.

– ليعطيكِ الإله زوجا كهلا لأرى كيف ستحبينه؟! عندها ستقولين لى متى يموت كى أتزوج من شاب.

– لكنى سأعطف على ذلك الكهل!

فى هذا العام افتتح مصنع السكر، كان عماله يدورون فى القرى لشراء القصب من الفلاحين من الحقل؛ وهذا هو المصنع الذى افتتحه السيد "كهنا". وفى أحد الأيام حضر عامل لهذه القرية، وعندما حسب الفلاحين ما يعود عليهم من صناعة العسل الأسود وجدوا الفائدة فى بيع القصب للمصنع، وأنهم إذا كانوا سيحصلون على نفس المال فلم يتحملون عبء العصر؟ استعدت القرية كلها لبيع القصب من الحقل، (حتى لو ربحنا أقل فلن نبالى لأننا سنأخذ المال نقدا، بعضنا سيشترى ثيرانًا، والبعض سيدفع الخراج، والبعض الآخر سيدفع النقود للمرابين).

كان "هورى" يود شراء ثيران، لم يكن فصل القصب جيدا هذا العام، هذا بالإضافة إلى أنه لم ينمُ بحجم مناسب، وعندما يباع العسل الأسود بسعر السكر فمن سيشترى العسل الأسود؟ وقد أخذ الجميع جزءا من الثمن مقدما. كان "هورى" يتمنى ألا يقل ثمن القصب عن مائة روبية، حيث سيشترى ثورين متوسطى الحجم، لكن ماذا سيفعل مع المرابين: "داتادين"، و "منجرو"، و "دولارى" و"جهنجرى سنج"، فجميعهم يريد سلب روحه؟ لو أعطى المال للمرابين فإن المائة روبية لن تكفى لدفع الفوائد فقط، ولم يستطع التفكير فى حيلة يأخذ بها النقود دون علم أحد، وعندما تحضر الثيران إلى المنزل من سيمكنه فعل شيء؟! عندما توزن عربة القصب ستعرف القرية كلها، وسيعلم الجميع بالنقود التى سأحصل عليها، وقد يكون "منجرو" و"داتادين" برفقتنا، وما إن آخذ النقود حتى يأخذوا رقبتى من هناك!

سأله "جردهر" ذات مساء:

- متى سيباع قصبك يا عم "هورى"؟

احتال "هورى":

- لا أعرف شيئا عن هذا يا أخى، متى ستبيع أنت؟

احتال عليه "جردهر" أيضا:

- أنا أيضا لا أعرف متى يا عمُّ؟

الناس جميعا يفعلون هذا، فهم لا يثقون فى بعضهم؛ فقد كانوا جميعا قد اقترضوا من "جهنجرى سنج"، وكانوا جميعا يريدون ألا تذهب النقود إلى يديه، وإلا سيهضمها كلها، وعندما يقترض الناس منه فى اليوم التالى يكتب ورقة جديدة، ويأخذ فائدة جديدة، ويأخذ أجر الكتابة الجديدة!

فى اليوم التالى حضر "سوبها"، وقال:

– يا أخى! لتتدبر حيلة حتى يصاب "جهنجرى" بالإغماء، ويسقط ولا ينهض أبدا.

قال "هورى" مبتسما:

– أليس لديه أطفال؟

– أأهتم بأطفاله أم بأطفالى؟! إنه يعيش فى راحة مع زوجتين، وأنا عاجز عن إطعامهم الخبز الجاف! سيأخذ كل ما جمعناه، ولن يدعنا نحضر إلى المنزل بقرش واحد.

– إن حالتى أسوأ من حالتك، يا أخى! لو ذهبت النقود من يدى فسأدمر، ومن غير وجود نقود لا يمكن أن أعيش.

– إن حمل القصب يحتاج إلى يومين أو ثلاثة، وعندما يصل القصب إلى المصنع للوزن، نطلب منه أن يأخذ بعض النقود كى يزن بسرعة ويعطينا باقى النقود فيما بعد، ثم نقول لجهنجرى نحن لم نقبض شيئا حتى الآن.

فكر "هورى"، وقال:

- إن "جهنجرى" أكثر مهارة منا يا "سوبها"! إنه سيقابل من يزن القصب ويأخذ منه النقود، ونحن سنكون فى الانتظار. إن المصنع ملك السيد "كهنا" ولا فرق بينه وبين المرابين!

قال "سوبها" وهو مهموم:

- لا أعرف هل سنتحرر من قيد هؤلاء المرابين أم لا؟!

قال "هورى":

- لا أرى بصيص أمل فى هذه الحياة! نحن لا نريد الملك والراحة، بل نريد أن نرتدى ما يسترنا، ونأكل ما يكفينا، ونعيش بكرامة، وهذا أيضا غير متوافر!

قال "سوبها" بخبث:

- فى هذه المرة سأحتال عليهم يا أخى، سأعطى الرشوة لصاحب الميزان حتى لا يدفع لى النقود على الفور، فإلى متى سيظل "جهنجرى سنج" يجرى ورائى؟!

قال "هورى" ضاحكا:

- لن يحدث هذا يا أخى! الراحة هى فى تقبيل يدى "جهنجرى سنج" وقدميه، كلنا وقعنا فى الشباك وتحريك أجنحتنا يجعلنا نعلق أكثر!

- أنت تتحدث كالشيوخ يا أخي! إن الرجولة ليست في أن نجلس في القفص بلا حراك، وإذا اشتدت العقدة على رقبتنا أفلا يجب علينا أن نتحرك للتخلص منها؟! لو عمل "جهنجري سنج" شيئا فليس أكثر من وضع منزلي في المزاد، فليعقد مزادا! أنا لا أريد من أحد أن يعطيني نقودا، وليتركني أموت جوعا، فليركلني ولا يقرضني مليما، لكن إذا لم يقرضني المرابون فمن أين سيأكلون؟ ومن أين سيربحون الربا؟! إذا رفع أحدهم علينا دعوة، فالآخر سيعطينا النقود بالربا حتى نقع في الشبكة، أما أنا فسآخذ المال بعد ذهاب "جهنجري سنج" إلى مكان آخر.

غيّر هوري تفكيره أيضا، فقال:

- هذا صحيح!

-نزن القصب، ثم نأخذ النقود عندما يحين الوقت المناسب.

- نعم، نعم! هذه حيلة جيدة!

في صباح اليوم التالي بدأ رجال القرية في قطع القصب، وصل "هوري" أيضا إلى حقله حاملا الفأس للحصاد، حضر "سوبها" لمساعدته، حتى "بنيا"، و"جهنيا"، و"دهنيا"، و"سونا" حضرن جميعا إلى الحقل؛ كان أحدهم يحصد القصب، والآخر يقطعه، وغيره يحزمه في حزمة. عندما رأى المرابون قطع القصب اعتراهم الخوف، فجرت "دلاري" من ناحية، ومن الناحية الأخرى "منجروه شاه"، ومن الناحية الثالثة "داتادين" و"بتيشوري"، وعمال "جهنجري". كانت "دلاري" تضع في قدمها

خلخالا فضيا، وفى أذنيها حلقًا ذهبيًا، وكانت مكتحلة العينين، حضرت العجوز المتصابية وقالت:

– تدفعون نقودى أولا ثم تقطعون، عندما أصبر عليكم تستأسدون! لم أحصل على الربا منذ عامين، أنت مدين لى بخمسين روبية.

قال "هورى" متمسكنا:

– يا زوجة أخى دعينى أقطع القصب، وعندما آخذ النقود فسأعطيكِ حسب استطاعتى، أنا لن أفر من القرية، ولن أموت بسرعة! القصب لن يعطينى النقود وهو فى الحقل!

قالت "دلارى" بعد أن أخذت الفأس من يده:

– نيتكم سيئة، ولهذا لا توجد عندكم بركة!

لقد مر اليوم خمس سنوات على الثلاثين روبية التى اقترضها "هورى" من "دلارى"، وقد صارت ثلاثمائة بعد ثلاث سنوات، كان فى ذلك الوقت قد كتب ورقة، وفى عامين صار عليه ربا بمقدار خمسين روبية.

قال "هورى":

– يا "ستهانى"! نيتى ليست سيئة، ولو شاء الإله فسأعطيكِ كل مليم، لقد ضاق بى الحال فى هذه الأيام لهذا قولى ما تشائين!

لم يمض وقت طويل على ذهاب "ستهانى"، حتى حضر "منجرو شاه": بلونه الأسود، وكرش كبير يتدلّى تحت خصره. كان لديه نابان كبيران

يخرجان من فمه كأنه سيقضم أحدا، على رأسه عمامة، ويلف عنقه بشال. كان عمره لا يزيد عن الخمسين، لكنه يسير متكئا على عصا بسبب إصابته بروماتيزم فى ركبته، كما كان مريضا بالربو. وقف مستندا على العصا، وقال لهورى زاجرا:

– لتدفع نقودى أولا يا "هورى" ثم تقطع القصب، لقد أقرضتك النقود ولم أهدها لك! لقد مرت ثلاث سنوات لم تدفع فيها لا النقود ولا الفوائد، فلا تظن أنك ستهضم نقودى، لو كنت ميتا فسآخذها!

قال "سوبها" هازئا:

– لم تخاف أيها المرابى؟ فسوف تأخذ نقودك من جثته، فكلاكما سيموت بعد عام أو عامين وستذهبان إلى الجنة حيث ستسوى حساباتكم أمام الإله.

سبّ "منجرو" "سوبها" بشدة، وهو يقول:

– لقد جمعت الكثير بلا إيمان، ولا اعتبار لشىء! أنت تحرك ذنبك عند الأخذ، لكن عندما تأتى للدفع تزأر! سأبيع منزلك، وأضع ثيرانك فى المزاد.

ضايقه "سوبها":

– حسنا لتقسم لى أيها المرابى بدينك كم من النقود أعطيتنى وهى التى صارت الآن ثلاثمائة روبية؟!

– عندما لا تعطينى المال العام تلو الآخر يزيد الربا!

– فى البداية كم روبية أعطيتنى؟ خمسين فقط!

– وكم يوما مر؟ لتنظر إلى ذلك أيضا!

– مرت خمس سنوات أو ست.

– كلا! لقد صارت عشرا كاملة، بل بدأت السنة الحادية عشرة.

– وأنت تأخذ ثلاثمائة روبية بعد أن تعطينى خمسين، ألا تستحى؟!

– لم أستحى؟! لقد أعطيتك النقود، ولا أطلب منك صدقة!

أقنعه "هورى" بالذهاب بعد إلحاح، كان "داتادين" شريكا لهورى فى الحقل، وكان سيأخذ نصف الغلة مقابل إعطاء البذور فقط، ولذلك كان أى تنازع فى هذا الوقت يخالف المصلحة.

تحدث "جهنجرى سنج" مع مدير مصنع القصب عن الطريقة التى يمكن بها أخذ النقود من الفلاحين، كان عماله يحملون القصب على العربة ويوصلونها إلى النهر الذى يبعد نصف ميل عن المصنع، كانت العربة الواحدة تدور سبع أو ثمانى مرات فى اليوم الواحد، وكانت السفينة تحمل ملء خمسين عربة، وهكذا وبأقل تكلفة تُنقل، وهكذا أصبح "جهنجرى سنج" موضع امتنان المنطقة كلها! جلس "جهنجرى" على باب المصنع مع بداية الوزن، كان كل من يزن قصبه يأخذ فاتورة بقيمته، ويأخذ النقود من أمين الخزنة، كان يأخذ نقوده مع الفوائد، ويعيد الباقى

إلى صاحبها، وإذا بكى الفلاح كثيرا لا يعبأ به؛ كان هذا أمر المالك فماذا يفعلون؟!

أخذ "هورى" مائة وعشرين روبية، أخذ "جهنجرى سنج" منها رأس المال مع الفوائد، فلم يبق معه سوى خمس وعشرين روبية.

نظر "هورى" إلى النقود بغير اهتمام، وقال:

– ماذا أفعل بها يا "تهاكر"؟ خذها أيضا فأنا سأعمل أجيرا!

أخذ "جهنجرى" الخمس وعشرين روبية من على الأرض، وقال:

– خذ المال أو ارمه كما تشاء! لقد زجرنى المالك بسببك! إن "راى صاحب" يركب على رأسى ويأمرنى بدفع الدية. لقد تركت لك هذه النقود شفقة على حالك، وإلا ما كنت لأعطيك مليما. وإن شدد "راى صاحب" علىّ فأنا أدفع له من بيتى أكثر من الدية!

أخذ "هورى" النقود ببطء. عندما خرج استدعاه "نو كهى رام"، ذهب "هورى" ووضع فى كفه الخمس وعشرين روبية وفرّ على الفور دون أن يفتح فمه، وكان رأسه يدور!

أخذ "سوبها" المبلغ نفسه، وعندما خرج أحاط به "بتيشورى"، تغيّر "سوبها" وقال:

– ليس لدى نقود، لتفعل ما تريد!

قال "بتيشورى" بغضب:

– هل بعت القصب، أم لا؟!

- نعم، بعته.

- ألم تعدنى أنك ستعطينى النقود عندما تبيع القصب؟

- نعم، وعدتك.

- إذا لماذا لا تعطينى؟!

- كل ما تبقى لدى للأطفال.

قال "بتيشورى" مهددا:

- لتعطيني نقودى يا "سوبها" اليوم، وأنت خاضع. والآن قل ما شئت، وعندها ستذهب إلى السجن لستة أشهر بمحضر واحد! ستة أشهر كاملة، لن تقل يوما! إنك تلعب القمار، ومحضر واحد سيضيعك. أنا لست خادما للمرابين ولا للإقطاعين، بل أنا خادم للحكومة، وهى تملك العالم الذى يملكه المرابون والإقطاعيون!

ثم تقدم "بتيشورى" وسار "سوبها" و"هورى" خلفه صامتين، كأنهما خافا من تهديده. قال "هورى":

- أعطه النقود يا "سوبها"، واعتبر أن النار قد اشتعلت فى القصب! لقد فكرت أنا نفسى فى ذلك.

قال "سوبها" بلهجة متألمة:

- نعم يا أخى سأعطيه، إذا لم أعطه فإلى أين سأذهب؟!

كان "جردهر" يتقدم نحوهما وهو يترنح من الشراب، وقال عندما رآهما:

– لقد أخذ "جهنجرى" كل شىء يا عم "هورى"! لم يترك حتى ربع روبية! الظالم! لقد بكيت ورجوته، لكنه لم يشفق عليّ.

قال "سوبها":

– كيف لم يترك لك قرشا وقد احتسيت الخمر؟!

كشف "جردهر" بطنه، وقال:

– لقد حل الليل ولم تنزل قطرة فى جوفى، لقد أخفيت قرشا فى فمى وشربت خمرا به! لقد فكرت أن دمى قد سال طوال العام فلم لا أشرب ولو ليوم؟! لكن كى أكون صادقا معك أنا لست سكرانا، فالنشوة لا تحصل عليها بمليم، لكننى أترنح حتى يعتقد الناس أننى شربت كثيرا. هذا جيد جدا يا عمُّ، لقد تخلصت من الديون، دفعت مائة وستين روبية وأخذت عشرين، هل لهذا نهاية؟!

عندما وصل "هورى" إلى المنزل أسرعت "روبا" بدلو الماء، وأحضرت "سونا" النارجيلة، جلبت "دهنيا" دسما وملحا ووضعتهما، وقد تعلقت عيون الجميع به، حضرت "جهنيا" ووقفت عند الباب. كان "هورى" مهموما، كيف يغسل وجهه ويديه؟! كيف يأكل الدسم؟! كان يشعر بالندم، كأنه قد قتل نفسا!

سألت "دهنيا":

– بكم بعت القصب؟

– مائة وعشرين روبية، لكنها أُخذت كلها ولم يتبق مليم!

احترقت "دهنيا" من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، واشتعل الغضب داخلها حتى سيطر على حديثها، فقالت:

– لم خلق الإله حمارا مثلك على صورة إنسان؟ إذا قابلته سأساله! إن حياتى معك قد تحولت كلها إلى هباء، ألا يمنحنى الإله الموت كى أستريح من هذه المصيبة؟! أعطيت النقود كلها لزوجات إخوانك، ألنا دخل آخر كى نشترى به الثيران؟! هل سأحرث لك الحقل، أم ستحرثه أنت؟ اعتقدت أنك شخت، ومع هذا لم تعقل حتى الآن! إن هذه النقود كانت لشراء الثيران، كيف ينتزعها أحد من يدك؟! سيحل برد شهر بوس ولا نجد ما نلبسه، لم لا تأخذ الجميع وتغرقهم فى النهر فنموت مرة واحدة بدلا من البكاء والموت كل يوم؟! إلى متى سنمضى الليل فى أعواد القمح ثم لا نتمكن من أكله؟! لو أردت أكل العشب فلتأكله، أما نحن فلا نستطيع!

قالت هذا ثم ابتسمت! لقد أدركت الآن أنه عندما تكون النقود فى اليد، والمرابون فوق الرؤوس لا يمكن للفلاح أن يتخلص منهم! كان "هورى" يبكى على سوء حظه، فلم ير وجه "دهنيا" وهى تبتسم، فقال:

– نعمل بالأجر، ونأكل من هذه الأجرة.

سألت "دهنيا":

– أين العمل فى القرية؟ وبأى وجه ستعمل وأنت يقال لك يا سيد؟!

قال "هورى" بعد أن دخن النارجيلة:

– العمل بالأجر ليس ذنبا، فالعامل يصبح فلاحا والفلاح يصبح عاملا. وإذا لم يكن مقدرا لى العمل بالأجر فلم حلّت بى هذه المصيبة؟! ولم ماتت البقرة؟! ولم أصبح الولد ماجنا؟!

نظرت إلى زوجة ابنها وبناتها، وقالت:

– لم تحطن بنا؟ اذهبن وقمن بعملكن. غيرك من الناس إذا حضروا إلى منازلهم يحضرون هدايا للأطفال بقرشين أو أربعة، وهنا نريد أن نفك الروبية فلا تقل مليما! لهذا لا توجد بركة عند من يفعل هذا! إن الذين ينفقون هم الذين يجدون النقود، أما الذين لا يأكلون ولا يلبسون فلا يجدونها هل يحصلون عليها ويدفنونها؟!

سأل "هورى" ضاحكا:

– وأين هذه النقود المدفونة؟!

– ستجدها حيث دفنتها! ما يبكينى أنك تعرف أحوالنا ومع هذا تموت على النقود! لن يصيبك الحزن إذا أحضرت للأطفال هدايا بأربعة قروش! لو طلبت من "جهنجرى" أن يعطيك روبية، وإلا فلن تعطيه مليما أو يأخذك إلى المحكمة، لكان أعطاك بكل تأكيد.

شعر "هورى" بالندم؛ لو لم يعطِ "نوكهى رام" الخمس وعشرين روبية فى ثورة غضبه ماذا كان سيفعل له؟ كل ما كان سيفعله أن تزيد الفوائد ربع روبية على رأس المال. الآن عرفت أننى وقعت فى الخطأ!

دخلت "جهنيا" وقالت لسونا:

- أنا أشفق على حماى! عندما عاد المسكين إلى المنزل متعبا سبته حماتى، لقد ضغط المرابى على عنقه، فماذا كان سيفعل؟!

- من أين ستأتى الثيران؟

- المرابون يريدون نقودهم ولا يريدون سماع مصائب منزلكم!

- لو كانت والدتى هناك لأذاقتهم وبال أمرهم! ولجعلت المرابى يبكى على سوء حظه.

قالت "جهنيا" مازحة:

- لهذا النقود شحيحة هنا! لو كنت تتحدثين مع المرابين ضاحكة، عندها سترين أيتركون النقود أم لا؟ وأصدقك القول، عندها ستزول كل مصائب حماى!

وضعت "سونا" يديها على فمها، وقالت:

- لتصمتى! وإلا قلت لأمى عما دار بينك وبين "ماتادين" من حديث، وعندها ستبكين!

سألت "جهنيا":

– ما الذى ستخبرى به أمك؟! لا يوجد كلام ليقال! إذا كان يحتال لدخول المنزل بحيلة هل أطلب منه أن يخرج؟ كما أنه لم ينل منى شيئا، بل سيعطينى المال، ولن يأخذ من "جهنيا" شيئا سوى الكلام المعسول، أنا ماهرة فى بيع الكلام الحلو بثمن غالٍ! أنا لست جاهلة لأقع فى شبكة أحد إلا إذا علمت أن أخاك قد تزوج بغيرى عندها سأغير رأيى، فعندها لن يكون هناك رباط لى مع أحد! أما الآن فأنا أعتقد أنه لى، وأنه يدور فى الحارات بسببى، ويتلقى الضربات والمصائب. الكلام والضحك شىء، أما أن أخدعه فلا يمكن، من يتلاعب بين اثنين لا يمكن أن يكون خالصا لأحدهما!

حضر "سوبها"، واستدعى "هورى"، ثم وضع نقود "بتيشورى" فى يده قائلا:

– أعطِ هذه النقود "للالا" يا أخى، لا أعرف ما الذى حدث لى فى تلك الأثناء؟!

أخذ "هورى" النقود ووقف، ثم سمع من ناحية صوت المعبد. فى الناحية الأخرى للقرية يسكن "دهيان سنج" وهو من قبيلة تهاكر، كان يخدم فى الجيش وعاد للقرية بعد عشر سنوات بعد أن أمضاها فى الجيش زار خلالها: بغداد، وعدن، وسنغافورة وبورما. وهو الآن يفكر فى الزواج، ويريد إسعاد البراهمة بهذه العبادة.

قال "هورى":

– أعتقد أنه أتم العبادة السابعة على أكمل وجه، وهو يأخذ البركة من النار.

رد "سوبها":

– نعم، هو كما قلت. لنذهب لأخذ البركة.

قال "هورى" بلهجة متفكرة:

– لتذهب، وسأحضر بعد قليل.

فى اليوم الذى حضر فيه "دهيان سنج" أرسل لكل منزل كيلو من الحلوى، وعندما التقى بهورى فى الطريق كان يسأل عن صحته. لو ذهبت إلى مجلسه ولم أحضر هدية فسأشعر بالمذلة! إن بركة الصينية(١) ستكون فى يده، فكيف يجلس أمامه خالى الوفاض؟! من الأفضل ألا يذهب إلى جلسته الدينية، فهل سيتردد بين الناس أن "هورى" لم يحضر؟ ليس هناك من يسجل الحضور! ثم ذهب واستلقى على الفراش، لكن قلبه ظل مضطربا ليس لديه مليم ولا حتى قرش من نحاس، لكن بركة المجلس والعبادة لم تبرح خاطره، لكن الكلام كله للتجارة! إذا حاز على بركة"

---

(١) هى صينية يضع فيها الهندوك الحلوى ويتناولونها بعد أن يقرءوا عليها الأدعية كى يباركها الإله.

"تهاكر جى" هناك، عندها يمكن أن يقدم نفسه للعبودية، لكن كيف يكسر التقاليد؟ كيف يرفع مقامه فى عيون الناس؟ فجأة نهض واقفا، لماذا يعمل حسابا للتقاليد، لماذا يترك البركة من أجلها؟! لو ضحك الناس، فليضحكوا! لن يبالى. الإله سيقيه من أفعال الإثم، وهو لا يريد أكثر من هذا! واتجه إلى منزل "تهاكر".

الفصل الثامن عشر

كانت علاقة "كهنا" و"جوبندى" سيئة، ولا يعرف أحد حقيقة الخلاف! يعتقد العرّافون أن هناك خلافا بين نجميهما، وعند الزواج لم يكن هذا الخلاف موجودا. أما الكتب الهندوكية الدينية فتذكر أن هناك شيئا آخر غير شؤم النجوم، وأن علماء النفس يجب أن يبحثوا عنه، أما نحن فكل ما نعرفه أنه يوجد خلاف لا أكثر! السيد "كهنا" ثرى، محب للجمال، اجتماعى ووسيم، وصل إلى أعلى درجات العلم، ويعتبر من الخاصة من أهل المدينة. أما "جوبندى" فهى ليست حورية، لكنها بالتأكيد جميلة ذات لون قمحى، وعيون خجولة، تنظر لمرة فقط ثم تخفضهما، ومع أنها ليست غضّة لكنها ناعمة، لها جسد رقيق، وأعضاء متناسقة، وسواعد مستديرة، ويظهر على وجهها المرارة كما يلتمع ببعض الغرور، وهى تعتقد أن تجارة الدنيا لا قيمة لها! كان "كهنا" يمتلك كل أسباب الرفاهية: فيلا فخمة، ورياش فاخر، وعربة فارهة، وثروة لا حدود لها، لكن كل هذه الأشياء كانت فى نظر "جوبندى" لا قيمة لها، فهى تعيش فى ماء مالح، لذا تشعر بالعطش الشديد، وكل ما لديها هو تربية الأطفال وبعض أعمال المنزل القليلة، وهى تغمس نفسها فى هذه الأشياء ولا تعبأ بمباهج الحياة!

ما هي الجاذبية، وكيف تتولد؟ هذا ما لم تفكر فيه، فهي ليست لعبة للرجال، أو شيئا للذة، فلم تتصنع الجاذبية؟! وإذا لم يجد الرجل عيونا ليرى جمالها الداخلي، ويجري وراء النساء، فهذا من سوء حظه! إنها تتفاني في حب زوجها، وخدمته كأنها تغلبت على إحساسي الرغبة والنفور. وهذه الثروة الهائلة تدمر روحها، وتغرقها، وهي دائما تتمنى أن تتخلص من حياة المظاهر هذه! كانت ستحيا سعيدة بحياة بسيطة وطبيعية! وهي دائما ما تحلم بهذا! لماذا اعترضت مالتي طريقها، ولماذا تتراقص الراقصات؟! لماذا كل هذا الشك والتصنع، والاضطراب الذي يجعل حياتها أشواكا؟! منذ زمن بعيد، عندما كانت طالبة في مدرسة بالكاودياليه، كانت تحب الشعر والرومانسية، فكل آلام الحياة يعبر عنها الشعر، أما الثروة والرفاهية فتوجد فقط لتحترق في مهرجان الألوان، والتي تجعل الإنسان يلهو ويلعب. وقد أصبحت الآن تنظم الشعر، لكن من يسمع؟! إن شعرها ليس تعبيرا عن مشاعر القلب والخيال فقط، لكن كل كلمة فيه تحوي آلام الحياة، وتملأ العيون بالدموع المحرقة. كانت ترغب في العيش في مكان خال من التظاهر، وبعيداً عن الرغبات والأهواء، وتعيش براحة طبيعية، وعندها ستشعر بالسعادة. عندما كان "كهنا" يرى أشعارها كان يهزأ منها، وأحيانا يمزقها! كل يوم يمر كان حاجز ثروته يرتفع بينهما، وصار أحدهما يبتعد عن الآخر شيئًا فشيئًا! كان "كهنا" ليّنا مع زبائنه، لكن شديدا في المنزل، ودائما ما يغضب "جويندي" بكلامه السيِّئ، أما الكلام المعسول فهو لمكاسب الدنيا فقط وهي ليست نزعة إنسانية! في مثل هذه المواقف تهب "جويندي" إلى حجرتها،

وتجلس مع نفسها تبكى طوال الليل، أما "كهنا" فيستمع إلى الأغانى فى البهو، أو يذهب إلى النادى لاحتساء الخمر حيث يفرغ العديد من الزجاجات؛ ورغم هذا فكهنا هو كل شىء فى حياتها، ورغم احتقار "كهنا" وإذلاله لها، كانت جارية عنده، تتشاجر معه، تحترق منه، تبكى، لكن تحيا معه! وهى لا تتخيل حتى فى أحلامها أن تنفصل عنه!

استيقظ "كهنا" اليوم وكأنه قد رأى وجه شؤم، فتح أخبار الصباح فوجد أن أسعار البورصة قد انخفضت، مما أدى إلى خسارته بضعة آلاف. أضرب عمال مصنع السكر، وأرادوا تخريبه، اشترى فضة ممنيا النفس بالربح فانخفضت أسعارها أكثر، وكان "راى صاحب" يريد شراءها منه فكان يطمع فى جنى ربح وفير، وهو يرى الآن هذا الربح يطير من بين يديه. وشعر بصداع، ووهن لأنه أمضى الليل بطوله فى احتساء الخمر، من ناحية أخرى أخبره سائق عربته بوجود عطل فى الموتور، كما علم أن هناك من رفع دعوى قضائية على بنكه فى مدينة لاهور، وكان يشعر بالاضطراب فى قلبه، وهو على هذه الحالة قالت "جوبندى":

– لم تنخفض حرارة "بهيشم" اليوم، لتستدع أحد الأطباء.

كان "بهيشم" هو أصغر الأطفال، وقد ولد ضعيفا؛ لهذا كان يمرض فى كل يوم، فيوم سعال، ويوم حمى، وأحيانا يخفق قلبه، وأحيانا يصاب بالإسهال، كان عمره عشرة أشهر، لكن حجمه يبدو وكأنه ابن خمسة أشهر فقط. كان "كهنا" على يقين أن هذا الطفل لن يعيش، ولهذا لم يكن يبالى به! أما "جوبندى" فكانت تحبه أكثر من باقى أطفالها لهذا السبب!

قال "كهنا" بشفقة الآباء:

- ليس من مصلحة الأطفال اعتياد الدواء ، وأنت مصابة بداء إعطائه الدواء! لو حدث شيء بسيط تستدعين الطبيب، لننتظر ليوم ونرى، فاليوم هو ثالث أيام الحمى لعله يشفى.

أصرّت "جويندى":

- لم تخف الحرارة منذ ثلاثة أيام، وقد فَشلت رغم استخدام الأدوية المنزلية!

سألها "كهنا":

- حسنا! سأستدعي أحدهم، من أستدعى؟

- استدعِ الدكتور "ناك".

- حسنا! سأستدعيه، لكن لتعلمى أن الطبيب لا يكون جيدا بشهرته، إن "ناك" يأخذ أتعابا باهظة، ولا يُشفى أحد على يده، وهو مشهور بإرسال مرضاه إلى الجنة!

- استدعِ من تريد، لقد ذكرت "ناك" لأنه حضر هنا عدة مرات.

- لم لا أستدعى الآنسة مالتى؟ فهى لا تطلب الكثير، وهى تعرف أحوال الأطفال أكثر لأنها امرأة، وهو ما يعجز عنه الطبيب الرجل.

احترقت "جويندى"، وقالت:

أنا لا أعتبر الآنسة "مالتى" طبيبة!

نظر "كهنا" إليها بحدة، وقال:

– أذهبت إلى إنجلترا لزراعة العشب؟! إنها تنقذ آلاف الناس من الموت يوميا، ومع هذا لا تساوى شيئا!

– أنا لا أثق بها، يمكنها معالجة قلوب الرجال لكن ليس لديها دواء آخر!

تشاجرا، زأر "كهنا"، وبدأت "جويندى" ترد عليه؛ فى كل مرة يرد اسم "مالتى" فيها تُعلن الحرب بينهما!

ألقى "كهنا" بجميع الأوراق على الأرض، وقال:

– لقد أصبحت حياتى معكِ مريرة!

قالت "جويندى" بصوت متألم:

–لتتزوج "مالتى"، فلم يفت الوقت! ولو استطعت لكنت تزوجتها!

– ما الذى تظنينه؟!

– أظن أن "مالتى" تعرف كيف تصنع منك عبدا لا ملكا!

– هل أنا ذليل فى عينيكِ لهذه الدرجة؟!

استعر الخلاف وحاول كل منهما إثبات صحة كلامه أن "مالتى" تعطيه مكانته، وربما لم يفعل أحد مثلما فعلت! وهى تكرم "راى صاحب" و"راجا صاحب"، لكنها تشتكى إن لم تلتق بى!

أضاعت "جويندى" حججه أدراج الرياح بنفس واحد:

– هذا لأنها تعتبرك أعمى! أما الآخرون فلا يمكن أن تجعل منهم حمقى بسهولة.

قال "كهنا" كلاما لا معنى له:

– لو استطعت لتزوجت من "مالتى" اليوم!

لكن "جويندى" شككت فى الأمر:

– لو سجدت لها على الأرض، أو تناسخت روحك سبع مرات لما تزوجت بك! أنت مطيتها؛ تطعمك العشب، وقد تمسح على فمك، أو على قدميك ليس إلا! وذلك حتى تصعد عليك، وعندها آلاف الحمقى مثلك فى جيبها.

كانت "جويندى" اليوم فى غاية الغضب، وكأنها مستعدة للشجار معه، وكأن استدعاء الطبيب مجرد حيلة! كيف يتحمل "كهنا" هجومها الشديد على رجولته، وقدرته، وصلاحيته، فقال:

– أنتِ تعتقدين أننى أحمق جاهل، فلِمَ يأتى آلاف الناس خاضعين عند بابى؟! من مِن الملوك والإقطاعيين لا يسجد لى؟! لقد حوّلت الآلاف إلى حمقى!

– إن ميزة الآنسة "مالتى" الأصيلة هى أنها تشوى اللحم على نار هادئة!

– أنت تسيئين إلى "مالتى" كما تريدين، لكنكِ لا تساوين التراب الذى تحت قدميها!

– أعتقد أنها أقل من الساقطات، لأنها تصيد من وراء الستار!

لقد رمى كل منهما الآخر بسهام نارية، ووجه "كهنا" لجوبندى كلاما حادا المرة تلو الأخرى، لكنها لم تكن تشعر بالسوء، أما المقارنة الحقيرة بينهما وبين "مالتى" فخارجة عن نطاق تحملها! لو قالت "جوبندى" لكهنا أى شىء لا يغضب هكذا، لكنه عجز عن احتمال إهانة الآنسة "مالتى"، وكلاهما يعرف مواطن ضعف الآخر! ولأن كلامهما أصاب وترا لدى الآخر فقد اضطربا: احمرت عينا "كهنا" ووجه "جوبندى"، وقف "كهنا" من الغضب وشد أذنها بقوة، ولطمها ثلاث لطمات أو أربع، فبكت ودخلت.

بعد قليل حضر الطبيب "ناك" وطبيب حكومى هو السيد "دادا"، كما حضر طبيب أعشاب يدعى "راج نيلكنت شاستر"، لكن ظلت "جوبندى" جالسة فى حجرة ابنها بسبب ما حدث، وما قاله لها زوجها، ولهذا لم تعرف طبيعة مرض ابنها. لقد وقعت اليوم المصيبة التى تخيلتها، كأن "كهنا" اليوم قد قطع علاقته بها وأخرجها من المنزل مغلقا الباب! إنها لا تريد الخضوع لمن افتتح سوقا للحسان، إنها تحكم من وراء ستار. إن "كهنا" زوجها، ومن حقها أن تفهمه، وبإمكانها أيضا تحمل ضربه، لكن أن تتحكم "مالتى" فيه فهذا غير ممكن! إنها لن تذهب حتى تشفى الحمى عن طفلها، لا بد أن تخضع الأنانية أمام الواجب!

في اليوم التالى انخفضت حرارة الطفل، فاستدعت "جوبندى" حنطورا، وخرجت من المنزل، لا يمكن أن تعيش فى مكان لا كرامة لها فيه! إنها صدمة شديدة! حتى إنها ابتعدت عن أطفالها الأحباء. لقد قامت بكل ما كان عليها، وكل ما بقى من واجبات يقع على عاتق "كهنا"! كيف ستتمكن من الابتعاد عن حضن أطفالها؟ إن روحها معهم، وهى تخرج من المنزل بجسدها فقط لأنه لا شيء آخر يخصها. إنه يدّعى أنه سيربيهم، سوف تريه كيف سيستطيع الحياة وحيدا دون الاعتماد عليها. فى ذلك الوقت كان الأطفال الثلاثة يلعبون، كل ما أرادته "جوبندى" هو أن يدللها زوجها ولو مرة! إنها لا تفر إلى مكان معين، وإذا كان الأطفال يحبونها فسيحضرون إليها ويلعبون فى منزلها، وعندما يريد "كهنا" رؤية الأطفال فليحضر ويراهم. كل ما تريده هو ألا تعتمد على "كهنا".

حلّ المساء، كان الناس يتجولون فى الحدائق، ومستلقين على العشب ويستمتعون بالجو اللطيف. كانت "جوبندى" قد سارت فى طريق حضرت جنج، وأرادت أن تدخل فى شارع حديقة الحيوان عندما رأت عربة فيها "مالتى" و"كهنا"، شعرت أن "كهنا" قد أشار نحوها، ثم قال شيئا فضحكت "مالتى"، كلا! إنها واهمة، لا يمكن أن يسبها "كهنا" أمام "مالتى"؛ لكنه بلا حياء! لقد سمعت أن أعمال الخير لديها تسير على نحو جيد، كما أن أهل بيتها أثرياء ومع هذا تبيع نفسها! فلم لا تتزوج؟! لكن من الذى سيتزوجها؟ كلا ليس هذا هو السبب، فالكثير من الرجال حمقى إذ سيعتقدون أنهم سعداء الحظ بالعثور عليها، لكن لا بد أن تعجب "مالتى" بأحدهم.

لكن أتوجد راحة فى الزواج؟! من الخير لها ألا تتزوج فجميعهم الآن خدم لها، أما إذا تزوجت فستصبح جارية واحد منهم! إن ما تفعله شيء جيد، فالآن هذا الشخص يلهث عند قدميها، أما بعد الزواج فسيتبدل الأمر، ولو وجد في المجتمع امرأتان أو أربعا على شاكلتها لكان أمرا جيدا، ولكانت آذان الرجال قد اشتعلت!

أحست "جوبندى" بشفقة كبيرة على "مالتى"، فهجومها عليها لم يكن عادلا! ألم تر بعينيها حالتى؟! إنها تشاهد الحياة الزوجية التعيسة بعينيها، ولذا لا تقع فى شبكة الارتباط، فهل تقوم بشيء سيئ؟!

كان الصمت يلف أرجاء حديقة الحيوان الأربعة، أوقفت "جوبندى" الحنطور، وسارت نحو العشب الأخضر وهى تحمل طفلها. لكن لم تكد تسير قدمين أو ثلاث حتى ابتل حذاؤها، يبدو أن العشب قد سُقى منذ قليل، وتسرب الماء تحته، وبسبب عجلتها وضعت قدمها فى الطين اللزج، فنظرت خلفها ثم نظرت إلى قدميها، من أين ستحضر الماء كى تغسلها؟! طارت جميع أفكارها، ولم تعد تفكر سوى فى نظافة قدميها، وقد توقف تداعى خواطرها، طالما أن قدميها غير نظيفتين فلن تستطيع التفكير!

فجأة رأت ماسورة طويلة مختفية فى العشب والماء يخرج منها، ذهبت وغسلت قدميها وحذاءها ويدها وفمها، ثم شربت بعض الماء، واتجهت إلى الناحية الأخرى من الماسورة حيث الأرض الجافة. إن ذكرى الموت تأتى على الفور فى الهموم! ماذا لو ماتت وهى تجلس هنا؟! سيخبر صاحب الحنطور "كهنا" على الفور، وعندها سيسر لكن سيضع

منديلا على عينيه حتى تراه الدنيا، أما الأطفال فاللعب والنزهة أغلى عندهم من أمهم! هذه هى الحياة! هل سيذرف أحد الدمع عليها؟ ثم تذكرت عندما كانت حماتها على قيد الحياة، كان "كهنا" مستقيما فى ذلك الوقت، كانت تشعر بالاستياء عندما كانت حماتها تغضب عليها، اليوم شعرت بالحب على هذا الغضب؛ فعندما كانت حماتها تغضبها كانت تدللها بعدها، أما اليوم فتغضب لشهور لكن من يهتم بها؟! فجأة طار قلبها عند قدمى أمها، لو كانت والدتها موجودة اليوم فهل كانت ستصاب بهذه الحالة؟ ورغم أنها لم تكن تملك شيئا فإنها تحمل قلبا مليئا بالحب، فتبكى فى حضنها، لكنها لن تبكى لأنها لا تريد أن تؤلمها وهى فى الجنة، كل ما أرادت فعله لى قد فعلت ما هو أكثر منه، ولم يكن بوسعها تغيير حظى فلم البكاء؟! إنها ليست تحت إمرة أحد، ويمكنها أن تكسب معيشتها غدا، ستشترى من محل "جانده آشرم" بعض الأشياء ثم تقوم ببيعها، فما العيب فى ذلك؟! قد يشير نحوها الناس: هذه زوجة "كهنا" تعمل! لكن لماذا أعيش فى هذه المدينة؟ لأذهب إلى مدينة أخرى، ولن يعرفنى أحد! إن كسب عشر روبيات أو عشرين ليس أمرا صعبا، وعندما آكل من عرق جبينى لن يتحكم فى أحد، ولن يتحكم فى ذلك الشخص الذى يحتد علىّ معتقدا أنه يقوم على رعايتى، أنا التى سأرعى نفسى بنفسى!

فجأة رأت "مهتا" يأتى نحوها، اضطربت، ففى هذا الوقت كانت تريد أن تكون وحدها تماما؛ ليس من طبيعتها الحديث مع أحد، لكن ها هو أحدهم قد حضر إلى هذا المكان، كما بدأ الطفل فى البكاء!

اتجه "مهتا" نحوها، وسألها وهو متعجب:

- كيف حضرت إلى هنا فى هذا الوقت؟!

أسكتت "جوبندى" الطفل، وقالت:

- لقد حضرت كما حضرت أنت!

قال "مهتا" مبتسما:

- لا تكررى كلامى أعطنى الطفل لأسكته، فليس للمرء قلبان فى جوفه.

- متى تعلمت هذا الأمر؟!

- أريد التعلم لأمتحن فيه.

- حسنا! هل اقترب موعد الامتحان؟!

- أتدرب حتى أكون مستعدا. سأجلس، إننا نضيع أبصارنا من أجل الحصول على شهادة صغيرة، أما هذه التجارة فهى امتحان الحياة!

- حسنا! سأرى الدرجة التى ستحققها!

قالت هذا ثم أعطته الطفل، فاحتضنه وبدأ يلاعبه فصمت، قال لها كأنه طفل:

- أرأيت كيف أسكته بسرعة؟! الآن سأحضر طفلا من أى مكان.

مازحته "جويندى":

– هل ستحضر الطفل أم أمه أيضا؟!

حرك "مهتا" رأسه بيأس، وقال مازحا:

– أين أجد مثل هذه المرأة؟!

– لماذا لا تكون الآنسة "مالتى"؟ فهى جميلة، ومتعلمة، وعاملة، ومشوقة فماذا تريد أكثر من ذلك؟!

– الآنسة "مالتى" تفتقر إلى الصفة التى أريدها فى زوجتى!

استمتعت "جويندى" بذمة له، وقالت:

– ما السيئ فيها؟! أسمع أنها فراشة دائمة التحليق، وأن رجال اليوم يحبون مثل هذه المرأة.

أبعد "مهتا" يد الطفل عن شاربه، وقال:

– إن زوجتى ستكون ذات صفات أخرى، لذا سأعبدها!

لم تستطع "جويندى" إيقاف ضحكها:

– أنت تريد تمثالا وليس امرأة، وربما لن تجد مثل هذه المرأة!

– كلا! فهذه الإلهة موجودة فى هذه المدينة.

– حقا؟! أريد أن أراها حتى أحاول أن أكون مثلها.

- أنت تعرفينها جيدا، إنها زوجة المليونير! لكنها لا تعتد بالثروة، أو الرفاهية، ورغم أنه يعاملها باحتقار وعدم اكتراث فإنها لا تحيد عن واجباتها، إنها تضحى بنفسها بقدر تضحية الأم! ولهذا فإن إيثارها أمر عظيم، وهى جديرة بالعبادة!

رقص قلب "جوبندى" فرحا، فهمت لكنها أبدت عدم الفهم، وقالت:

- كيف تمدح أمثال هذه المرأة. أعتقد أنها تستحق الرحمة!

قال "مهتا" متعجبا:

- تستحق الرحمة؟! إنكِ تهينينها، فهى امرأة كاملة، والمرأة الكاملة هى زوجة كاملة!

- لكن هذا المعيار لا يعتد به فى هذا الزمن!

- إنه معيار أبدى لا يزول، فالإنسان تزول نفسه عند زواله!

كان قلب "جوبندى" يرتجف، فهى لم تشعر بهذه السعادة فى حياتها قط، ومن بين معارفها جميعا كان لمهتا منزلة كبيرة عندها. فقالت بنشوة وهى ترتجف من مدحه:

- لنذهب حتى تعرفنى بها.

أخفى "مهتا" وجهه فى خد الطفل، وقال:

- إنها تجلس هنا.

– أين؟ أنا لا أرى أحدا!

– أنا أتكلم مع هذه الإلهة!

ضحكت "جوبندى" بقوة:

– لماذا تريد أن تصنع منى اليوم حمقاء، لم؟

قال "مهتا" باقتناع:

– سيدتى أنت غير عادلة معى، بل لست عادلة حتى مع نفسك! أنا لا أصدق إلا عددا قليلا من الناس وأنت واحدة منهم؛ إن صبرِك، وإيثارِك وأخلاقِك لا نظير لها! إن أكبر راحة فى الحياة فى تصورى أن أكون خادما تحت قدمى إلهة مثلِك، إن الصفات النسائية التى أعتد بها متمثلة فيكِ!

نزلت دموع الفرح من عينى "جوبندى"، أيمكنها أن تقى نفسها من الآفات بأن تلبس درع الإيمان؟ كأن كل شعرة فيها تغنى أغانى الفرح! تحكمت فى سرورها النسائى، وقالت:

– كيف أصبحت فيلسوفا يا سيد "مهتا"؟ كان لا بد أن تكون شاعرا!

ضحك "مهتا" من سذاجتها، وقال:

– الفيلسوف لا يكون هكذا دون أن يكون شاعرا، الفلسفة هى فقط وسيط بينهما.

- أنت الآن فى طريق الشعر، لكن أتعلم أن الشاعر لا يمكنه أن يعيش مرتاحا فى الدنيا؟!

- الدنيا التى تظنينها هى راحة الشاعر، أما الثروة، والشهرة، والجمال، والقوة، والعلم، والعقل التى تجذب البركات تعجز عن جذب الشاعر، ما يجتذبه هو الأمانى الميتة، والذكريات الماضية، ودموع القلب المحطم، وفى اليوم الذى يكف فيه عن حب هذه الأشياء لن يكون عندها شاعرا! الفلسفة تلعب على أسرار الحياة، أما الشاعر فينضم إليها. قرأت لك قصيدتين أو أربعا، وقد وجدت فيها السرور، والتأثير والألم الحلو، كما أنكِ تبكين فيها كالمجنون! أنا وحدى الذى أفهمها، كم ظلمتنا الأقدار؟! لكنها لم تصنع إلهة سواكِ!

قالت "جويندى" بلهجة متحسرة:

كلا يا سيد "مهتا"! هذا هو ما تظنه فقط، فمثل هؤلاء النساء تجدهن فى كل مكان، وأنا أقل من ذلك بكثير! المرأة التى تعجز عن إسعاد زوجها، أو التوافق مع طبائعه ليست امرأة؟! أفكر أحيانا فى تلقى هذا العلم من الآنسة "مالتى"؛ فهى ناجحة فيما فشلت أنا فيه! أنا لم أستطع أن أحيا من أجل ذاتى، وهى تجعل الآخرين لنفسها! أليس هذا مدعاة لفخرها؟

قطب "مهتا"، وقال:

- إن الخمر تجعل الجميع مجانين، فهل نقول إنها أفضل من الماء الذى يروى العطش ويحيى ويسكّن؟!

قالت "جويندى" مازحة:

– أرى أن الماء يجرى دون هدف، أما البيوت فتباع من أجل شراء الخمر! بالإضافة إلى أن الخمر وحدها تعطى نشوة أكثر وهذا شيء آخر، كما أننى سمعت أنك تحب الشراب!

وصلت "جويندى" إلى حالة شديدة من اليأس، تجعل الإنسان يشك فى الصدق والدين، لكن "مهتا" لم يفكر على هذا النحو، وكل ما علق فى ذهنه هو تلك العبارة الأخيرة، إنه يشعر بالندم اليوم على شرب الخمر، لم يشعر بالندم من قبل، ولم يعمل بالنصائح الثمينة! لكنه لم يجد جوابا شافيا على أدلتها، ولم يحر جوابا على أسئلتها، وقد ندم على حديثه عن الخمر؛ لقد شبه "مالتى" بالخمر فارتدت ضربته على رأسه، فقال نادما:

– حسنا، حسنا! يا سيدتى أنا أعترف بحبى لها، ولن أعتذر منكِ بأننى أشرب لضرورة ما، أو أثبت لكِ بدلائل وحجج وبراهين، فهذا سيكون إثما بل أكثر من إثم! وأعاهدكِ أنه لن تنزل قطرة من الشراب فى حلقى من اليوم أبدا.

صمتت "جويندى" مصعوقة، ثم قالت:

– لم قلت هذا يا سيد "مهتا"؟ إن الإله يشهد بأن هذا لم يكن قصدى، أعتذر بشدة وأشعر بالأسف!

– كلا! بل لا بد أن تشعرى بالسرور لأنكِ أحسنت إلىّ.

– أحسنت إليك؟ بل أنا التى ألتمس أن تحسن أنت إلىّ!

– من؟ أنا؟ سأكون سعيد الحظ!

قالت "جوبندى" برقة:

- حسنا! أنا لا أرى أحداً غيرك لأقص حكايتى، لكن ليبق هذا سرا. إن حديثى معك الآن لا طائل من ورائه، فأنا أشعر أن حياتى غير محتملة، لقد صبرت قدر استطاعتى لكن لا أستطيع أن أصبر أكثر من هذا! "مالتى" تريد تدميرى، وأنا عاجزة عن التغلب عليها بأى سلاح! أما أنت فلك تأثير كبير عليها، إنها تقدرك كثيرا، ربما لا يوجد رجل آخر مثلك! وإذا خلصتنى من قبضتها فسأكون أسيرة إحسانك طوال عمرى! إن حياتى الزوجية تدمر على يديها، لو كان بمقدورك أن تحمينى منها، فلتحمنى! لقد خرجت اليوم من المنزل وأنا أفكر ألا أرجع مرة أخرى، لقد حاولت أن أحطم جميع سدود الموت، لكن قلب المرأة ضعيف يا سيد "مهتا"! الحب حياتها، لا يمكنها أن تحيا لو تحطم حبها! لقد أخفيت حزنى فى قلبى حتى الآن، لكن اليوم أطلب مساعدتك، وأنا أمد يدى لتحمينى من "مالتى"! أنا أدمر بيديها الساحرة....

غصّ صوتها بالدموع، وبكت بشدة.

لم ترتفع مكانته فى نظره إلى هذا الحد من قبل، حتى عندما طبع كتابه واختارته الأكاديمية الفرنسية كأحسن كتاب في هذا القرن، وهنأته. والإلهة التى يعبدها بقلب صادق، ويعتقد من قلبه أنها أهل للعبادة، وكان يتمنى أن يهتدى بها فى الأحوال الصعبة فى الحياة اليوم تستجدى منه المساعدة! إنه الآن يشعر بطاقة يمكنه معها أن يحطم جبلا، أو يعبر البحر! غلبت عليه النشوة كطفل يركب حصانا خشبيا، ويعتقد أنه يطير

فى الهواء، ولم يفكر فى أن العمل صعب، ولم يخطر بباله أنه سيقتل مبادئه، فقال بلهجة مطمئنة:

– لا تلقى بالا إلى "مالتى"، فستبتعد عن طريقك! لم أكن أعلم أنكِ متألمة بسببها، عقلى قاصر، وعيناى لا ترى، وفكرى محدود فماذا أقول؟ وإلا ما كنتِ تعرضتِ لهذه المشكلة!

قالت "جوبندى" بشك:

– لكن انتزاع الصيد من فم اللبؤة ليس أمر سهلا، لتعرف هذا!

قال "مهتا" مؤكدا:

– قلب المرأة كالأرض يمكن أن تنتزع من اللبؤة وتجد المرارة! وهى تنبت ما يبذر فيها.

– لا بد أنك نادم على لقائك بى اليوم!

– لو أخبرتك أن اليوم أسعد يوم فى حياتى لعلك لا تصدقيننى!

– لقد وضعت حملا كبيرا على رأسك!

قال "مهتا" باقتناع:

– لا تخجلى منى يا سيدتى! لقد أخبرتكِ أننى خادم لكِ! ولو ضاعت حياتى من أجل سعادتكِ فسيكون هذا من حسن حظى! لا تعتبرى أن هذا إحساس رومانسى بل هو الصدق فى حياتى! ما هو معيار حياتى؟! لا أستطيع الإمساك بتلك الأمنية التى أريد أن أخبركِ بها، أنا عبد للقدرة،

وأريد أن أرى الإنسان على شاكلتها؛ وهو الذى يضحك عندما يفرح، يبكى عندما يحزن، يقتل وقت الغضب، ويتحمل الألم والراحة معا. أما الذى يعتقد أن البكاء ضعف، والضحك سخرية، فلا علاقة لى به! الحياة بالنسبة لى لعبة مملوءة بالسرور، حياة بسيطة ومتفتحة، حيث لا يوجد إثم أو حسد وحقد. أنا لا أفكر فى الماضى ولا أبالى بالمستقبل، وأؤمن أن الوقت الحاضر هو كل شىء. التفكير فى المستقبل يجعلنا جبناء، وثقل الماضى يكسر ظهورنا! إن قوة الحياة فينا ضعيفة، وعندما تفكر فى الماضى والمستقبل تضعف أكثر، إننا نحمل أثقالا من التقاليد والعقائد والتاريخ بالمجان، ونحن نعتصر تحت هذه الأنقاض ولا نستطيع الحراك، فقد خارت قوانا. إن القوة والعقل يجب أن يستخدما لأداء الواجبات الإنسانية والمساواة والأخوة، وليس فى أخذ الدية والعداوة وسداد قروض الآباء والأجداد، وعندما ستذهب هباء! إن ديانة "ايشور" هى الخلاص من هذه الأشياء، وأنا أضحك على هذا الخلاص، لأن العبودية أمر ذاتى يدمر إنسانيتنا! وحيث توجد الحياة، واللعب، والسرور، والحب يوجد الإله، ويملأ الحياة بالسعادة والعبادة، والنجاة. العابد يقول إنه لا يجب أن تظهر البسمة على شفتيه، أو تنزل دمعة من عينيه، أما أنا فأقول أن من يمكنه ألا يضحك ليس إنسانا، بل إن العلم الذى يطحن الإنسانية ليس علما بل مطحنة! لكن اعذرينى على هذه المحاضرة المملة، لقد تأخرتِ، لنذهب، سأوصلكِ كما أن الطفل قد نام فى حضنى.

قالت "جوبندى":

– لقد حضرت فى الحنطور.

– سأصرفه.

أعطى "مهتا" الحوذى أجرته، فقالت "جوبندى":

– لكن إلى أين ستوصلنى؟!

سأل "مهتا" محتاراً:

– سأوصلكِ إلى منزلكِ!

– إنه ليس منزلى يا سيد "مهتا"!

– أهو منزل السيد "كهنا"؟

– أيحتاج هذا إلى سؤال؟! الآن هو ليس منزلى! فالمكان الذى أفضح وأهان فيه لا أعتبره منزلى!

قال "مهتا" بصوت متألم، وكل حرف يخرج من قلبه:

– كلا، يا سيدتى! إنه منزلكِ، وسيظل إلى الأبد! لقد بنيتِ هذا المنزل وزينت أهله، وأدرته كالجسم والروح، وإذا خرجت الروح فماذا سيكون حال الجسد؟! إن منزلة الأم عظيمة جدا يا سيدتى، وهذه المنزلة لا تفضح ولا تهان فى أى مكان! إن عمل الأم هو منح الحياة، واليد التى

فيها هذه القوة لا تبالى بمن يغضب منها، أو يتشاجر معها. لا يمكن أن يعيش الجسد بلا روح، كما أن الجسد هو منزل مناسبٌ للروح. كيف أعلمكِ أمور الدين والعبادة، فأنت مجسم حى لتلك الصفات!....

قالت "جويندى" بلا صبر:

– أنا لست أما فقط، بل امرأة أيضا!

صمت "مهتا" لدقيقة، ثم قال بعد ذلك:

– نعم! لكننى أعتقد أن المرأة أم فقط، وأى شىء آخر هو أمر عابر! فأن تكونى أما هو أكبر رياضة، وأعظم إيثار، وأكبر نصر؛ إنها كلمة تجمع الإنسانية، والشخصية، والحياة! لقد فقد السيد "كهنا" صوابه فى هذه القصة، وكل ما يقول ويفعله مطابق لحالته تلك. لكنه لن يأخذ وقتا طويلا حتى يشفى من جنونه، وسيأتى قريبا الوقت الذى سيعرف فيه أنكِ أهل للعبادة!

لم تجب "جويندى"، وسارت ببطء نحو العربة، فتقدم "مهتا" وفتح الباب، جلست "جويندى" وسارت العربة وهما صامتان.

عندما وصلت "جويندى" عند دارها نزلت من العربة، ورأى "مهتا" الدموع تنساب من عينيها!

خرج الأطفال من المنزل وهم يهتفون: أمى! أمى! واحتضنوا أمهم، فلمع وجه "جويندى" بنور عظمة الأمومة.

قالت لمهتا:

- أشكرك للغاية على تعبك!

وأخفضت رأسها، وانسابت قطرة من الدمع على خدها.

امتلأت عينا "مهتا" أيضا بالدمع، فرغم كل هذه القوة والعظمة والرفاهية، فإن هذه المرأة حزينة!

الفصل التاسع عشر

كان منزل "مرزا خورشيد" كأنه ناد، حيث تحيطه الأسوار، وتعقد المحكمة، وكذلك حلقات المصارعة. المنزل مزدحم طيلة النهار، ولا يوجد مكان للمصارعة في المنطقة، فقد أعد "مرزا" مكانا لها، حيث يجتمع خمسون مصارعا أو مائة، وكان "مرزا" يتصارع معهم.

ينعقد مجلس الحي في نفس المكان، حيث يحكم بين الزوجة والحماة، والأخ والإخوة، وكان مركزا للحياة الاجتماعية، ومركزا للحركات السياسية. ودائما ما تنعقد الحفلات السياسية، حيث يعد المتطوعون برنامجهم، فتخرج الحركات السياسية في المدينة من هناك، في الجلسة الماضية انتُخبت "مالتي" رئيساً لحزب المؤتمر عن المدينة، وقد زاد رونق المكان بانتخابها.

مرّ على "جوبر" عام في تلك المدينة، ولم يعد ذلك الشاب القروي الساذج؛ فقد رأى من الدنيا الكثير، وبدأ يفهم الألاعيب، لكن ظل في داخله حتى الآن متمسكا بأصله القروي؛ فكان يمسك على النقود بأسنانه، ويفهم المطلوب، لا يتكاسل عن العمل، ولا تفتر همته لكنه تلون بلون المدينة! في الشهر الأول كسب شيئا قليلا، وأكل نصف بطن،

وادّخر جزءا من النقود. بدأ العمل على عربة متجولة لبيع البطاطس المحشوة والزبادي، وعندما رأى أنها تدر عليه ربحا، ترك الخدمة؛ في الصيف كان يبيع المشروبات والثلج، وكان حسنا في تعامله ولهذا ثبتت قدماه، وعندما حل الشتاء أغلق دكان الشربات وبدأ في بيع الشاي الساخن. أصبح دخله في اليوم لا يقل عن روبيتين ونصف أو ثلاث، وقصّ شعره على الطريقة الإنجليزية، ارتدى دهوتي(١)، وحذاء بلاستيكيا، واشترى شالا أحمر، وبدأ يدخن السجائر، وتعلّق بورقة التبغ. وأثناء ذهابه ومجيئه على الجلسات بدأ يقف على بعض الأمور السياسية؛ فبدأ يفهم معنى القومية والمذاهب، كما بدأ خوفه من العادات الاجتماعية واللوم الدنيوي يقل. وقد جعلته مجالس الحي شجاعا، فهو يخفي وجهه بعيدا عن المنزل، وهنا تحدث أكثر الأشياء سوءا ولا يفر أحدٌ إلى أي مكان، فلم يخاف هو ويخفي نفسه؟!

لم يرسل في تلك الفترة أي نقود إلى منزله؛ فهو يعلم أن والديه ليسا ذكيين فيما يتعلق بالمعاملات المادية، فعندما يجدان النقود ينفقانها على الفور. سيبدأ والده على الفور بالحج، وستفكر والدته في صنع الحلي، ولا نقود لديه لذلك! الآن هو مُرابٍ صغير؛ حيث يقرض أصحاب الحناطير، والسائقين، والغسالين بالربا، وقد صنع لنفسه مكانة بجهده وكدّه خلال أحد عشر شهرا، والآن يفكر في أن يحضر "جهنيا" ويعيش معها.

---

(١) ملابس الهندوك الدينية، وهي عبارة عن إزار يلفه الرجل بين قدميه.

كان الوقت عصرا، وقد عاد بعد الاستحمام من صنبور الشارع. كان يسلق البطاطس للمساء. وفي نفس الوقت كان "مرزا خورشيد" يقف عند الباب، لم يكن "جوبر" خادما لديه، لكنه يحترمه ويفديه بروحه في أي لحظة، وجاء عند الباب فسأل:

- ما الذى تأمر به يا سيدى؟

قال "مرزا" وهو واقف:

- إذا كان لديك نقود فأقرضني، فمنذ ثلاثة أيام وزجاجة الخمر خالية، وقد يضطرب حالي بسبب ذلك!

كان "جوبر" قد أقرض "مرزا" مرتين أو ثلاث لكنه عجز عن استرداد نقوده؛ خاف أن يطلبها، لم يكن السيد "مرزا" يعرف السّداد بعد الأخذ، ولا تبقى النقود في يده، تحضر من هنا وتغيب من هناك! إنه لا يستطيع أن يقول لن أعطيك نقودا، أو ليس عندى، فأخذ يعدد مساوئ الخمر.

- لم لا تدعها يا سيدى؟ لا يوجد في الشراب أى فائدة!

دخل "مرزا" إلى الحجرة وجلس على السرير، وقال:

- أتعتقد أنني لا أريد تركها؟ وأنني أشرب حبا في الشراب؟! أنا لا أستطيع الحياة بدون الخمر! لا تخف على نقودك، فسأردها قرشا قرشا.

قال "جوبر" بثبات:

– حتى أكون صادقا يا سيدى ليس لدى نقود الآن، لو كنت أملك نقودا ما أنكرتها عليك.

– ألا يمكنك أن تعطينى روبيتين؟

– ليس عندى الآن!

– لترهن خاتمى.

شعر "جوبر" بالطمع، لكن كيف يغير كلامه، فقال:

– ماذا تقول ياسيدى؟! لو كنت أملك نقودا لأعطيتك! من الذى تحدث عن الخاتم؟!

قال "مرزا" بإصرار عاجز:

– أنا لن أطلب منك شيئا بعد الآن يا "جوبر"! أنا عاجز عن النهوض، لقد ضيعت الخمر مئات الآلاف من نقودى حتى صرت فقيرا، والآن عزمت ألا أتركها حتى لو سألت الناس!

عندما أصر "جوبر" على الإنكار ذهب السيد "مرزا" يائسا، لديه فى المدينة آلاف الأصدقاء، وقد صار العديد منهم أغنياء بفضله، وساعد العديد عند الحاجة، لكنه لا يحب مقابلة هؤلاء الناس. إنه يعرف آلاف الطرق لنزع النقود، ويمكنه استخدامها فى أى وقت ويجمع عن طريقها كثيرا من النقود! لكن لا قيمة لهذا كله في نظره، النقود فى يده كأنها تلدغه، ولا يطمئن قلبه حتى يصرفها!

بدأ "جوبر" يسلق البطاطس، لقد أصبح عاقلا خلال عام، وأصبح يكسب النقود جيدا حتى تعجب الكثير من ذكائه. الحجرة التى يسكن فيها أعطاه إياها السيد "مرزا"، كان بإمكانه أخذ أجرة خمس روبيات شهريا، وكان "جوبر" يعيش فيها منذ ما يقرب من عام، لكن "مرزا" لم يطلب منه أجرة قط، وهو لم يدفع، ولم يخطر بباله أنه يستطيع التكسب بإيجار الحجرة!

بعد قليل حضر حوذى يطلب نقودا، كان اسمه إله الدين؛ كان أصلع تماما، ولحيته بيضاء في معظمها، وأعور. كانت ابنته تستعد للتوجة إلى منزل زوجها، فكان يحتاج إلى خمس روبيات بشدة، وقد أعطاه "جوبر" بفائدة ستة قروش على الروبية.

شكره إله الدين، ثم قال:

– يا أخى! استدع أسرتك، حتى متى ستظل تطبخ بيديك؟!

اشتكى "جوبر" من الإنفاق فى المدينة:

– كيف تسير شؤون المنزل بهذا الدخل القليل؟!

أشعل إله الدين سيجارة محلية، وقال:

– الله سيعطيك يا أخى! فكر كم ستركاح؟ إن ما تنفقه بمفردك سيكفيك أنت وأسرتك، المرأة فى يدها البركة. أقسم بالله عندما كنت أعيش هنا وحيدا كل ما كنت أكسبه كان يذهب على الطعام، ولا يتبقى مليم للتبغ والسجائر. كنت محتارا! بعد العودة متعبا كنت آخذ الحصان

فى نزهة، وأطعمه، ثم أسرع إلى المخبز، حتى تعبت للغاية! لكن عندما حضرت زوجتى كنت أجد الراحة، وصارت النقود نفسها تكفينى. إن الإنسان يكسب ليرتاح، فإذا لم يجد الراحة بعد الكد لانهارت حياته! أؤكد لك أن الربح سيزيد بعد مجيئها يا أخى، ففى الوقت الذى تسلق فيه البطاطس وتغلى البازلاء يمكنك بيع كوبين أو أربعة من الشاى؛ فالشاى أصبح الآن يشرب طوال العام، وعندما تنام فى الليل تدلك قدميك، وعندها سيزول تعبك كله.

أثر هذا الكلام فى "جوبر"، اضطرب قلبه، وفكر أنه لا بد أن يحضر "جهنيا" إلى هنا. مازالت البطاطس على النار، لكنه بدأ يجهز للعودة إلى المنزل، وتذكر أن مهرجان الألوان قد اقترب وهكذا سيأخذ معه الهدايا بهذه المناسبة؛ حتى البخلاء يصرفون النقود فى المناسبات السعيدة، وهذا هو الذى شجع "جوبر". لقد وفّر القرش فوق القرش لهذا اليوم، سيشترى ساريا جديدا لوالدته وأختيه و"جهنيا"، وسيشترى لهورى دهوتى ورداء، سيأخذ زجاجة زيت وحذاء لسونا، وعرائس يابانية لروبا، وسيشترى لجهنيا صندوقا يحوى زينة وعلامة الزوجية الحمراء ومرآة، ولطفله قلنسوة وقميصا من الذى يباع جاهزا فى السوق، أخرج النقود، واتجه إلى السوق حيث ظل حتى الظهيرة يبتاع الحاجيات، ثم ربط الفراش. علم أهل المنطقة أن "جوبر" سيعود إلى منزله، فودعه العديد من الرجال والنساء، وقد عهد "جوبر" بمنزله إليهم، قائلا:

– سأدع المنزل فى عهدتكم، وإذا شاء الإله فسأعود بعد يومين من مهرجان الألوان.

ضحكت امرأة شابة، وقالت:

- لا تحضر بدون زوجتك، وإلا لن أدعك تدخل المنزل!

ونصحته امرأة أكبر سنا:

- حسنا! لقد طهوت كثيرا، وعندما ستعود ستأكل الخبز براحة.

حيّى "جوبر" الجميع؛ فالهندوك والمسلمون كانوا جميعا أصدقاءه، وكانوا جميعا يتشاركون فى الآلام؛ يصوم المسلمون فى شهر رمضان، والهندوك يصومون ايكاديش، وأحيانا يسخر بعضهم من دين بعض؛ فيصف "جوبر" صلاة إله الدين بأنها قيام وقعود، ويقول إله الدين عن أصنام شيو الصغيرة والكبيرة والتى توضع تحت شجرة البيبل إنها حجر الوزن، لكن لا توجد بينهم عصبية طائفية.

اتجه "جوبر" نحو المنزل، وقد ودعه الجميع وهم يضحكون بسعادة.

فى هذه اللحظة حضر الحوذى مع حنطوره بعد أن عمل طوال النهار، فعلم أن "جوبر" عائد إلى منزله، فأحضر الحنطور عنده، احتج الحصان فضربه بالسياط. وضع "جوبر" أمتعته، وتقدّم الحنطور، وودعه المودعون حتى آخر الشارع، وكان "جوبر" يحييهم ثم جلس فى الحنطور. كان الحنطور يجرى فى الشارع، وكان "جوبر" ينهل من كأس السعادة بالعودة إلى منزله. كان الحصان قويا ويمشى كأنه يطير، وقد وصل إلى المحطة أثناء حديثهما.

كان "جوبر" مسرورا، وأخرج روبية من وسطه وقدمها لبهورا قائلا:

- لتشتر بها حلوى لزوجتك.

نظر بهورا نحوه نظرة شكر محتقرة، ثم قال:

- أتعتقد يا أخى أننى غريب عنك؟! هل لأنك ركبت الحنطور يوما آخذ منك أجرة؟! أنا أضحى بدمى فى المكان الذى ينزل فيه عرقك، قلبى ليس صغيرا! كما أننى لو أخذتها لما تركتنى زوجتى حيا.

لم يقل "جوبر" شيئا بعد هذا، فقد شعر بالخجل. أنزل أمتعته، ومضى.

الفصل العشرون

أقبل شهر بهاجن(١) فاصطبغت الحياة بلون جديد، فنبتت أزهار المانجو، وانتشرت رائحتها، وأخذ العندليب يغرد بين أغصانها.

بدأ حرث القصب فى القرية، ووصل "هورى" إلى الحقل قبل شروق الشمس. كانت "دهنيا"، و"سونا"، و"روبا" يحملن القصب المبتل إلى الحقل، و"هورى" يقطعه بالفأس. إنه الآن يعمل عند "داتادين" وتحول من فلاح إلى عامل، كانت العلاقة بينه وبين داتادين علاقة مالك بأجير! حضر "داتادين"، وقال يزجره:

- لتعمل بسرعة! لو ظللت تعمل بهذه الوتيرة فلن تنتهى حتى المساء!

أجاب "هورى" متألما:

- أنا أعمل يا سيدى، لست جالسا!

كان "داتادين" يأخذ العمل الشاق من العاملين، ولهذا لا يمكث لديه أحد، وكان "هورى" يعلم طريقته لكن إلى أين يذهب؟!

---

(١) الشهر الحادى عشر من شهور السنة الهندية ويأتى فى الربيع.

وقف "بندت"، وقال:

– هناك فرق بين العمل والعمل بجد، فقطع القصب بجد ينتهى فى يوم واحد، أما العمل الآخر فلا ينهى حزمة واحدة طوال النهار! بدأ "هورى" يعمل بسرعة، وكان يتجرّع السم! لم يكن يأكل كفايته منذ شهر، وهو يعيش على وجه العموم على وجبة الإفطار، وأحيانا يكتفى بما يسد رمقه، وأحيانا لا يجد ما يأكله. كان يريد العمل بسرعة، لكن يده كانت عاجزة عن العمل، وبالإضافة إلى هذا كان "داتادين" يلاحقه. لو يرتاح للحظة لأصبح مستعداً للعمل، لكن كيف يستريح وهو خائف من زجره؟!

حضرت "دهنيا" وابنتاها يحملن حزمة، كانت ملابسهن مبتلة، ورطوبة الماء عليها. أخذن قسطا من الراحة، فزجرهن "داتادين":

– أتشاهدين مسرحية يا "دهنيا"؟! اذهبى وقومى بعملكِ، فالنقود لا تأتى مجانا! لقد أحضرتِ حزمة واحدة بعد فترة طويلة، ولو عملتِ على هذا النحو فلن ينتهى العمل!

قالت "دهنيا" غاضبة:

– ألا تريدنا أن نرتاح لوهلة، يا سيدى! نحن أيضا بشر، ولو عملنا عندك فهذا لا يعنى أننا ثيران! لو حملت حزمة على رأسك لعلمت حقيقة التعب.

غضب "داتادين":

– أنا أعطيكِ الأجر من أجل العمل، لا للراحة! إذا أردت أن ترتاحى، فلتذهبى إلى البيت وترتاحى!

كانت "دهنيا" تنوى الرد، لكن "هورى" زجرها:

– لِمَ لَمْ تذهبى يا "دهنيا"؟ لم تتشاجرين معه؟!

أخذت "دهنيا" حزمة القصب، قائلة:

– سأذهب، لكن لا تضرب الثيران وهى تعمل بجد!

احمرت عينا "داتادين"، وقال:

– أرى أن طباعكِ الثائرة لم تهدأ حتى الآن، ولهذا لا تجدين حبة غلة تأكلينها!

لم تستطع "دهنيا" السكوت، فقالت:

– أنا لا أتسول عند بابك!

قال "داتادين" بلهجة حادة:

– إذا كانت هذه حالتكِ، فأنت أيضا تشحذين!

كان الرد جاهزا عند "دهنيا"، لكن "سونا" جرتها نحو القصب، وإلا لكان الشجار قد احتدم. لكنها شعرت بالارتياح بعد أن غادرت المكان، ثم قالت:

- أنت تشحذ لأنك من الشحاذين، أما نحن فعمال، في أي مكان نعمل نأخذ أربعة قروش!

قالت "سونا" باحتقار:

- دعيه يا أمي! فهذا ليس وقتا مناسبا، إنكِ تتشاجرين على كل كلمة!

كان "هوري" يقطع القصب بالفأس، كان يرفعها حتى مستوى رأسه ثم يهوي به كالمجانين، كأن النار قد اشتعلت في داخله. وقد استحوذت عليه قوة شيطانية، وهي القوة التي يحملها منذ الأزل، تخرج كالبخار وتعطي جسده القوة، كأنه آلة. دار رأسه، وتحركت يداه بسرعة كآلة لا تكل ولا تتوقف. كان العرق يتصبب من جسده، واللعاب يسيل من فمه، ويشعر بأن رأسه تنفجر، لكنه كان يعمل كأن شيطانا قد ركب عليه!

فجأة أظلمت الدنيا أمام عينيه كأنه يدخل تحت الأرض، وحاول أن يتماسك ثم أغمي عليه، سقطت الفأس من يده، ووقع على وجهه على الأرض. في نفس الوقت حضرت "دهنيا" بحزمة القصب، ورأت العديد من الناس يحيطون بهوري، وأحد عمال الحرث يقول لداتادين:

- يجب عليك ألا تقول مثل هذا الكلام الذي يجرح الإنسان، فالماء يفني شيئا فشيئا!

ألقت "دهنيا" بحزمة القصب على الأرض كالمجنونة، وهرعت نحو "هورى"، وضعت رأسه في حجرها وأخذت تبكى بصوت عال: إلى أين تذهب وتتركني؟! "سونا" اركضى وأحضرى الماء، وأخبرى "سوبها" أن أخاه قد فقد وعيه. يا إلهى أين أذهب؟ لمن أعيش؟ ومن ينادى على "دهنيا"؟!

حضر "لالا بتيشورى" بسرعة، وقال بحب شديد ولهجة حادة:

– ماذا تفعلين يا "دهنيا"؟ تمالكى نفسك! لم يحدث لهورى شيء، لقد أغمي عليه بسبب الحرارة، سيعود إلى وعيه. إذا كان قلبكِ ضعيفا فكيف سيسير الحال؟!

أخذت "دهنيا" بقدمى "بتيشورى"، وقالت وهى تبكى:

– ماذا أفعل يا "لالا"، قلبى لا يرتاح! لقد أنزل الإله المصائب علىّ لكنى صبرت، لكننى ما عدت أستطيع الاحتمال، آه يا أغلى من الماس! آه، يا حبيبى!

أحضرت "سونا" المياه، فرش "بتيشورى" الماء على فم "هورى"، وكان العديد من الناس يحركون حوله الهواء. برد جسم "هورى"، فاضطرب "بتيشورى" هو الآخر، لكنه أخذ يواسى "دهنيا".

قالت "دهنيا" بنفاد صبر:

– لم يحدث هذا من قبل يا "لالا"، أبدا!

سأل "بتيشورى":

– أتناول شيئا فى الليل؟

قالت "دهنيا":

– نعم، لقد صنعت الخبز، لكن في هذه الأيام تنزل المصائب عليّ، وهذا ليس خافيا عليك! لم نشعر بالشبع منذ شهر، وكنت أحاول إقناعه بأن يقوى نفسه، ويعمل، لكن الراحة ليست مكتوبة لنا!

فجأة فتح "هوري" عينيه ونظر هنا وهناك بنظرة خاطفة، أما "دهنيا" فكانت كأن روحها قد عادت إليها مرة أخرى، فعانقته في عنقه وهي مضطربة، وقالت:

– كيف حالك؟ لقد وصلت روحي إلى الحلقوم!

قال "هوري" بصوت واهن:

– حسنا! لا أعرف ما الذي حدث لي.

قالت "دهنيا" بلهجة محبة:

– ليس في جسدك قوة، وتعمل بجهد كبير! لقد كان حظ الأطفال جيدا بعودة روحك لك مرة أخرى، وإلا لأغرقتنا!

ضحك "بتيشوري"، وقال:

– لقد كانت "دهنيا" تبكي وتلطم.

سأل "هوري" بنفاد صبر:

– أحقا بكيت يا "دهنيا"؟!

دفعت "دهنيا" "بتيشورى" إلى الوراء، وقالت:

– دعه يتحدث بالهراء، واسأله لم حضر إلى هنا وترك العمل فى أوراقه؟!

قال "بتيشورى" يمدحها:

– أنت التى كنت تبكين وتقولين: يا روحى، يا روحى! والآن تنكرين استحياءً، كما كنت تلطمين صدرك.

قال "هورى" لدهنيا والدمع يملأ مآقيه:

– هل جننتِ أم ماذا؟! لا أعرف لماذا تريدين أن أبقى حيا، وأنتِ لم ترى الراحة؟

اتكأ "هورى" على رجلين فأخذاه إلى المنزل، ووضعاه على الفراش. كل ما كان يزعج "داتادين" هو أن الحرث قد يتأخر، أما "ماتادين" فلم يكن بلا رحمة، لذا أسرع وأحضر من المنزل لبنا ساخنا، وزجاجة من ماء الورد كذلك، وبعد أن شرب "هورى" اللبن عادت روحه إليه.

وفى نفس الوقت رأوا "جوبر" آتيا، ومعه عامل يحمل أمتعته.

فى البداية نبحت عليه كلاب القرية، ثم أسرعت نحوه وهزت أذنابها، قالت "روبا":

– حضر أخى، حضر أخى!

وأسرعت وهي تصفق، تقدمت "سونا" قدمين أو ثلاثا لكنها تحكمت في فرحتها؛ فلقد أصبحت في عام شابة وخجولة، وقفت "جهنيا" على الباب ووضعت حجابها على وجهها.

قبَّل "جوبر" قدم والديه، ووضع "روبا" في حضنه ودللها. دعت له "دهنيا"، ووضعت رأسه في حضنها كأنها أخذت أجر أمومتها. كان قلبها يرقص من الغرور، اليوم هي ملكة - حالتها مضطربة - لكنها أيضا ملكة، لو نظرت ملكة إلى وجهها لاستحت منها! كم كبر "جوبر"، وأصبح وسيما بعد أن ارتدى الملابس الجيدة؟! ولم يخطر ببال "دهنيا" السوء من ناحيته، وكان قلبها يقول إن "جوبر" في صحة وعافية وسعيد، عندما رأته اليوم كانت كمن وجد لؤلؤا في أرض ضاعت فيها! أما "هوري" فقد أشاح بوجهه.

سأل "جوبر":

- كيف حال أبي يا أمي؟

لم ترد "دهنيا" أن تزعجه بأخبار المنزل، فقالت:

- لا يوجد ما يقال يا بني! رأسة يؤلمه قليلا. اذهب، وبدِّل ثيابك، واغسل يديك ووجهك. أين كنت طوال الفترة الماضية؟ ولم هربت من المنزل؟! إنك حتى لم تكتب خطابا، ثم تذكرتنا بعد عام بعد أن يئسنا من رؤيتك! كنت أتمنى أن تحضر حتى أراك. لقد قال بعضهم فرَّ إلى مرتش، وقال آخرون ذهب إلى دمراتابو، وكلما كنت أسمع هذا كانت روحي تخرج من جسدي، أين كنت طوال تلك الأيام؟!

قال "جوبر" بخجل:

- لم أذهب بعيدا يا أمى، كنت فى لكهنؤ.

- طالما كنت قريبا، لم لم تكتب خطابا؟!

فتحت "سونا" و"روبا" أمتعة "جوبر"، وأخذا يقسمان الأشياء بينهما، أما جهنيا فقد وقفت بعيدا، كان وجهها يلمع خجلا، فاليوم ستقتص من الفعلة التى فعلها "جوبر" معها. عندما رأى المرابون زبونهم، اضطربوا طمعا فى أخذ النقود التى كانوا قد يئسوا من أخذها. كان الطفل يريد أخذ كل شيء ووضعه فى فمه، لكن "جهنيا" لم تنزله من حضنها.

قالت "سونا":

- يا زوجة أخى، لقد أحضر لكِ أخى مرآة ومشطا.

قالت "جهنيا" بلا لهفة:

- أنا لا أريد مرآة أو مشطا، ليحتفظ بهما!

أخرجت "روبا" قلسنوة الطفل اللامعة:

- آه، هذه قلنسوة الطفل!

ووضعتها على رأسه، أنزلت "جهنيا" القلنسوة، وألقت بها. رأت "جوبر" يدخل فجأة، فأخذت الطفل ودخلت إلى الحجرة. رأى "جوبر" أمتعته كلها مفتوحة، كان يريد أن يستسمح "جهنيا" أولا لكن الشجاعة خانته،

فجلس هناك وبدأ فى إخراج الأشياء وتوزيعها على الجميع، إلا أن "رويا" غضبت لأنه لم يحضر لها حذاءً، فهاجمتها "سونا":

– ماذا ستفعلين بالحذاء؟ العبى بالدمية، أنا لا أبكى على دميتك، فلم تبكين أنتِ على حذائى؟!

أخذت "دهنيا" فى تقسيم الحلوى: لقد عاد ابنى إلى المنزل سالما، بعد مدة طويلة، وهو يوزع الحلوى على القرية كلها.

كانت لقمة القاضى فى فم "رويا" كحبة الكمون فى فم الجمل، كانت تريدهم أن يضعوا الحلوى كلها أمامها فتأكل منها، وهى تلهو.

فتح الصندوق، وأخرج منه ساريا لكل واحدة منهن. كانت كلها مطرزة عند الأطراف، كالذى يُلبس فى منزل "بتيشورى لالا"، لكنها كانت خفيفة، حتى متى ستتحمل ملابس كهذه؟! ترتدى زوجات الأثرياء هذه الثياب الرقيقة لأنهن لا يعملن شيئا سوى الجلوس والنوم، أما هنا فلا شىء سوى العمل فى الحقل وتنظيف البيت! وأحضر لهورى دهوتى، وكانت هناك كوفية أو كوفيتين.

قالت "دهنيا" بسرور:

– خيرا يا بنى! فقد تمزقت كوفيته.

بعد قليل أدرك "جوبر" حالة المنزل، كان هناك العديد من الرقع فى سارى "دهنيا"، وكان سارى "سونا" ممزقا من ناحية الرأس وشعرها

يرى منه، أما سارى "روبا" فكان ممزقا من كل جانب. كانت وجوههم شاحبة، وأجسامهم نحيفة، والفقر يظهر فى كل جانب.

سرّت البنات بالملابس، وفكرت "دهنيا" فى إعداد الطعام لابنها. كان فى المنزل دقيق الشعير؛ ففى تلك الأيام كانوا يعيشون على أقل القليل، لكن "جوبر" لم يعد كما كان، أيمكنه تناول دقيق الشعير؟ كان فى المدينة يأكل مختلف الأشياء، فذهبت إلى دكان "دلارى" حيث أخذت دقيقا، وأرزا وسمنا دون نقود؛ منذ شهور لم تعطهم "دلارى" شيئا بالقرض، أما اليوم فلم تسأل عن النقود! سألتها:

– أكسب "جوبر" الكثير؟

قالت "دهنيا":

– حتى الآن لم يفتح شيئا، ولم أجد من المناسب أن أقول له شيئا. لقد أحضر لكل واحدة منا ساريا مطرزا عند الأطراف، وقد عاد سالما ببركة دعائكِ، وهذا بالنسبة لى هو الأهم.

دعت "دلارى" قائلة:

– ليمنحه الإله الراحة حيثما كان، ما الذى يريده الأب والأم أكثر؟ أن يكون الولد واعيا، ولا ينفق النقود كالآخرين. إذا لم تعطينى الدين، فأعطينى الفوائد فالحمل يثقل يوما بعد يوم!

ألبست "سونا" الطفل قميصه وقلنسوته وحذاءه، فكان كالملك، كان الطفل يريد أن يأخذ الأشياء فى يده ويلعب ويأكل، أكثر من ارتداء

الملابس. دارت فى الحجرة مسرحية الغضب والغفران بين "جوبر" و"جهنيا":

قالت "جهنيا" وهى تنظر باحتقار:

- أحضرتنى هنا وتركتنى، وذهبت أنت إلى المدينة، ولم تفكر أأنا حية أم ميتة؟! وبعد عام استيقظت من النوم، ياالك من مخادع؟! كنت أظنك ستتبعنى، لكنك طرت وعدت بعد عام، الرجال جميعا ماجنون! ربما ارتبطت بغيرى، وقلت لأبقى أنا فى المنزل وتكون الأخرى زوجتى أمام الناس!

قال "جوبر" موضحا:

- يشهد الإله يا "جهنيا" أنى لم أنظر إلى أى امرأة، لقد فررت من المنزل من الخجل، لكن ذكراكِ لم تخرج من قلبى ولا لحظة! والآن صرت مستعدا أن أصطحبك معى، وقد حضرت من أجل هذا. كما أن أهلك قد غضبوا للغاية!

- كان والدى يريد قتلى!

- حقا؟!

- لقد حضر الثلاثة إلى هنا، إلا أن حماتى زجرتهم، فعادوا، لكنهم أخذوا ثورينا.

- هذا ظلم بيّن! أَوَلَمْ يقل أبى شيئا؟!

– كيف يمكن لوالدك أن يتشاجر معهم بمفرده؟! كان أهل القرية يريدون منعهم من أخذ الثورين، لكن والدى أعطاهما لهم فماذا كان بوسع الناس فعله؟!

– كيف يقوم بالعمل فى الحقل؟

– لقد خرب الحقل تماما، وصرنا شركاء مع "بندت مهراج"، ولم نحرث القصب.

كان فى وسط "جوبر" فى ذلك الوقت مائتى روبية، ولم تكن نخوته قليلة، عندما سمع هذا الخبر اشتعلت النار فى جسده وقال:

– سأتفاهم معهم أولا، أبإمكانهم أخذ ثيراننا من أمام باب منزلنا؟! هذا نهب، نهب بيّن! سيدخل ثلاثتهم السجن لثلاثة أعوام، إذا لم يعيدوها سأشكوهم فى المحكمة وأكسر غرورهم.

قام خارجا فى فورة حماسه، فأمسكت "جهنيا" به، وقالت:

– فلتذهب، لكن لم العجلة؟! لترتح قليلا ثم تناول شيئا، أمامك النهار كله. لقد اجتمع عمد القرية وأخذوا ثمانين روبية كديّة، وفوقها اثنا عشر طنا من الغلة، وهذا ما دمرنا تماما!

أحضرت "سونا" الطفل بعد أن ارتدى الملابس والحذاء، كانت هذه الملابس تجعله يبدو كالملك، احتضنه "جوبر"، لكن لم يكن فى مزاج يسمح له بتدليل الطفل ، جرى الدم فى عروقه، وزاد من غضبه النقود الموجودة

حول وسطه! سيفهمهم الواحد تلو الآخر: ما حق العمد فى أخذ الدية؟ من مِن حقه التدخل في شؤوني؟ لقد جلب امرأة إلى منزله، فما الذى حدث لآباء العمد؟! لو شكاهم في المحكمة لوضعوا القيود في أيديهم، لقد دمر الحقل تماما، فماذا يعتقد هؤلاء الناس؟!

تبسّم الطفل في حضنه، ثم صاح بصوت عال كأنه رأى شيئا مخيفا! أخذت "جهنيا" الطفل من حضنه، وقالت:

- اذهب واغتسل، فيم تفكر؟ لو تشاجرت مع الجميع لما استطعت العيش يوما، من يملك المال يعتبر رجلا عظيما وخيرا، أما من لا يملك المال فلا قيمة له عند الناس!

- كنت غبيا حين فررت من المنزل، وإلا لرأيت كيف سيستولون على مليم واحد من الديّة!

- لقد أثّر هواء المدينة عليك، ولهذا صرت تفكر على هذا النحو، وإلا لم فررت من المنزل؟!

- أريد أن أحمل العصا، وأضرب "بتيشورى"، و"داتادين"، و"جهنجرى"، وأولاد الكلب جميعا، وألقى بهم على الأرض، وأنتزع منهم النقود.

وضعت يدها حول وسط "جوبر"، لكنه قام وقال:

- أربحت؟ كلا، لكن عندما ستأتين معى سأبدأ بالكسب. لقد أمضيت العام فى التعرف على ألوان المدينة.

– هل ستتركني حماتي أذهب؟!

– لم لا تتركك؟! ما صلتها بالموضوع؟!

– لا يمكن أن أذهب دون رضاها، لقد تركتني أنت هنا فمن كان يرعاني؟ مالم تسمح لي بالبقاء، فإلى أين كنت سأذهب؟ سأظل ممتنة لها طوال حياتي. أستبقى المدينة؟

– ماذا سأفعل بالجلوس هنا؟ أكسب وأعطي المرابين، لا شيء سوى هذا! لكن في المدينة من لديه شيء من العقل، ويبعد عن الكسل لا يمكن أن يموت جوعا، العقل لا يعمل هنا! لماذا يغضب مني والدي؟

– هو ساخط على سوء حظه، ولو أمسكك في ذلك الوقت للطمك حتى يحمر وجهك!

– أَسَبَّكِ أنتِ أيضا؟!

– كلا، ولا حتى دون قصد! كانت حماتي غاضبة في البداية، لكن حماي لم يقل شيئا. وعندما يناديني، يناديني بحب، إذا شعرت بالصداع يضطرب، لقد رأيت والدك إلها حقيقيا! إنه يتفهاهم مع حماتي حتى لا تقول لي شيئا، لقد غضب منك مائة مرة لأنك تركتني وفررتَ وحدك. وفي هذه الأيام هو يحتاج إلى المليم، فقد طار ربح القصب من الخارج، وهو الآن يعمل أجيرا. واليوم أغمي على المسكين وهو يعمل في الحقل، حتى إننا بكينا، ولطمنا وجوهنا، ومن ساعتها وهو مستلقٍ على السرير.

بعد أن غسل "جوبر" فمه ويده، مشط شعره، وخرج إلى القرية فاتحا! ذهب إلى منزل عمّيه وسلم عليهما، ثم التقى بأصدقائه. لم يتغير الكثير فى القرية! كان "بتيشورى" قد صنع مظلة جديدة، وحفر "جهنكرى سنج" بئرا جديدة عند بابه. استيقظ حب الشجار فى قلب "جوبر"! استضافه كل من مرّ به فى القرية، كما أصبح بطلا للشباب الذين استعدوا للذهاب معه إلى لكهنؤ، لقد صار ذا قيمة خلال عام واحد!

فجأة التقى بجهنكرى سنج وهو عند بئره، فمرّ "جوبر" به دون أن يسلم عليه؛ فقد أراد أن يريه أنه لا يحترمه. قال له "جهنكرى سنج" بنفسه:

- متى حضرت يا "جوبر"؟ أكنت فى راحة؟ أعملت خادما فى لكهنؤ؟

قال "جوبر" برعونة:

- لم أكن عبدا فى لكهنؤ، الخدمة هى العبودية، لقد كنت أعمل فى التجارة.

نظر "تهاكر" إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بحيرة، وقال:

- كم كنت تكسب فى اليوم؟

فرد عليه "جوبر" بنصل حاد:

- كنت أكسب روبيتين ونصفا أو ثلاثا يوميا، أحيانا آخذ أربعا لا أكثر من هذا.

كان "جهنكرى سنج" يكسب خمسا وثلاثين روبية بعد النهب والسرقة، وهذا الشاب القروى يكسب مائة روبية! خفض رأسه، بأى حق يمكنه إخافته؟ كان من علية القوم، لكن من يسأل اليوم عن القوم؟ هذا ليس وقتا مناسبا للمقارنة يمكن الاستفادة منه بالتوسل، فقال:

– هذا ليس قليلا يا بنى، ولا يمكن أن تصرفه كله! لا أحد فى القرية يكسب حتى اثنى عشر قرشا! – كان بهوانى أكبر أبنائه – أعطِ "بهوانى" عملا فأرسله معك، فهو لا يحب الدراسة، ودائم الشجار! لو كان هناك مكان فى الحسابات فأخبرنى، بل خذه معك. إنه صديقك! حتى لو كان الراتب قليلا فلا بأس بذلك، لكن شريطة أن يدخر أكثر من أربعة قروش يوميا.

ضحك "جوبر" بغرور، وقال:

– هذا العمل يخرب الناس يا "تهاكر"! لكن عاداتنا قد خربت، حتى إننا نعمل بلا إيمان، ولا نشبع بغير هذا! يمكنه العمل فى لكهنؤ فى الحسابات، لكن كل التجار يريدون رجلا متدينا ونشيطا ولو أعطيت "بهوانى" عملا لدى شخص وسرق منه شيئا فإنه سيمسك بعنقى، لا أحد يسأل فى الدنيا عن العلم، بل عن الإيمان!

بعد هذه الصفعة تقدم "جوبر"، اضطرب قلب "جهنكرى سنج": كيف يتحدث هذا الشاب بهذا الغرور؟! كأنه إله فى الدين!

وقد فعل "جوبر" نفس الشيء مع "داتادين"، فقد كان يريد الذهاب لتناول الطعام، فلما رأى "جوبر" قال بسرور:

- أكنت مرتاحا يا "جوبر"؟ لقد سمعت أنك وجدت عملا جيدا، لتعطِ "ماتادين" فرصة عمل هو الآخر، فهو لا يقوم بشيء سوى تدخين البانجو والنوم!

قال "جوبر" هازئا:

- أتحتاج في منزلك إلى شيء يا سيدي؟ عندما تذهب إلى أي زبون تكسب منه شيئا، تأخذ في الولادة، والموت، والزواج، والحزن. تملك حقلا، وتعمل بالربا، وفي الدلالة، لو زلّت قدم أحدهم تأخذ منه الدية، وبدل الدية تنهب منزله، ألا تشبع بطنك من هذه المكاسب؟! ماذا ستفعل بجمع الأموال، هل ستأخذها معك بعد الموت؟!

رأى "داتادين" أن "جوبر" يتكلم بوقاحة، وينسى الأدب تماما، ربما لا يعلم أن والده أجير عنده! حقا إن النهر الصغير لا يأخذ وقتا طويلا حتى يفيض! لكن لم يظهر على وجهه أثر الغضب، وكما يضحك الشيوخ بعد أن يشد الأطفال شواربهم استهزأ من هجومه، وقال ضاحكا:

- إن هواء لكهنؤ قد جعلك شجاعا للغاية يا "جوبر"! لتحضر ما كسبته، أخرجه. لأكون صادقا معك، أنا أذكرك دائما، هل ستقضي معنا بضعة أيام؟

– نعم سأبقى لعدة أيام، حيث سأقيم دعوى على الذين أخذوا مائة روبية بحجة الدية، وسأرى من سيمتنع عن شرب نارجيلتى؟ ومن سيخرجنى من القبيلة؟

هدده، ثم تقدم من هناك وقد أصبح الشباب مرعوبين من جرأته.

قال أحدهم:

– لترفع دعوى يا أخى "جوير"، بُدها ثعبان أسود، من يلدغه لا يفيده الدعاء! وقد أحسنت بزجره. لتشد أذن "يتيشورى" فهو رجل ليئم: يشعل النار بين الوالد وولده، والأخ وأخيه، ويقطع الأعناق بمساعدة موظفى الحكومة، يحرث حقله ويسقيه أولا ثم تحرث حقلك من بعده.

برم "جوير" شاربه، وقال:

– ما الذى تقوله يا أخى؟! إن عاما لن ينسينى! أنا لن أعيش هنا، وإلا لجعلت كل واحد منهم يتراقص. فى هذا العام سنحتفل بمهرجان الألوان بشكل جيد، حيث سيصبغهم جميعا بألوانه!

– سيبدأ الاحتفال بمهرجان الألوان، وسندخن الكثير من البانجو والحليب والأشياء الملحة أيضا، وسنصنع ألوانا سوداء مع الألوان نلون بها وجوه العمد! ومن سيتكلم فى مهرجان الألوان؟ ثم نضعهم فى المقدمة ليحقرهم الناس جيدا! ولا أهمية للروبية والقرش، لأن أخى "جوير" قد ربح النقود!

بعد أن تناول "جوير" الطعام ذهب للقاء "بهولا"، فهو لن يرتاح حتى يربط الثورين عند بابه، وهو مستعد للشجار والموت!

قال "هورى" بلهجة عاجزة:

- لا تزد من حدة النزاع يا بنى! إذا كان "بهولا" قد أخذ ثورينا فسيجازيه الإله، كنا مدينين له.

قال "جوبر" بغضب:

- يا أبى! لا تتحدث فى هذا الموضوع، لقد كانت بقرته بخمسين روبية وثورانا بمائة وخمسين روبية، وقد عملا فى حقلنا لثلاث سنوات لنقل أن ثمنها قد أصبح مائة روبية على الأقل! يجب عليه أن يطالب بنقوده عن طريق المحكمة، وليفز أو يخسر! لم يأخذ ثورينا من أمام بابنا؟ ماذا أقول لك؟ لقد خسرت الثورين هنا، وهناك خسرت مائة وخمسين روبية فى الدية، هذا هو جزاء السذاجة! لو كان قد أخذ الثورين من أمامى لأريته ما كان سيحدث، ولقتلت الثلاثة! ولن أتكلم مع الناس، وسأرى من يستطيع أن يخرجنى من القبيلة، ويفصلنى؟! أنت ترى كل شىء، ولا تعمل شيئا!

أخفض "هورى" رأسه كأنه مذنب، لكن كيف ترى "دهنيا" هذا الظلم وتسكت؟! فقالت:

- يا بنى! أنت الآخر تظلمه، لو قطعنا علاقتنا بالناس كيف نعيش فى القرية؟ هناك فتاة كيف نزوجها؟ إن الإنسان مقيد بالقبيلة فى الموت والحياة...

قطع "جوبر" حديثها:

– كانت الصلات موجودة، وكانت لنا كرامة فى القبيلة فَلِمَ لَمْ أتزوج وقتها؟ أخبرينى؟! لأنه لم يكن فى المنزل خبز. النقود هى التى تصنع العلاقات، ولا معنى للأخوة ولا القبيلة، الدنيا تجرى وراء المال، ولا يسأل أحد عن غيره!

سمعت "دهنيا" بكاء الطفل فدخلت الحجرة، وخرج "جوبر" أيضا من المنزل. كان "هورى" جالسا يفكر كيف تفتّح عقل ابنه؟! كيف يتحدث بشجاعة؟! لقد هزم فهمه المعكوس إيمان "هورى" وأخلاقه!

فجأة سأل "هورى":

– أأحضر معك؟

– أنا لست ذاهبا للشجار يا أبى! لا تخف، القانون فى صفى فلم أتشاجر؟

– أهناك مانع إذن أن أحضر معك؟

– مانع كبير، فأنت تلوى الكلام الصحيح!

صمت "هورى"، ومضى "جوبر".

لم تمض خمس دقائق حتى خرجت "دهنيا" مع الطفل، وقالت:

– أذهب "جوبر" لوحده؟! أتساءل إذا كان سيعطيك الإله عقلا أم لا؟! هل سيعطيه "بهولا" الثورين ببساطة؟ سيتعارك الثلاثة معه، وينقضون

كالصقر عليه. ممن أطلب أن يسرع ويحضر "جوبر"؟ لقد لحقتنى الهزيمة بسببك!

وقف "هورى"، وأخذ عصاه من أحد الجوانب وركض باتجاه "جوبر". كان خارجا من القرية، ورأى من بعيد ظلا لأحدهم، كيف وصل "جوبر" إلى هذه المسافة، وفى هذا الوقت القصير؟! لام "هورى" نفسه: لم لم أوقفه؟ لو كنت زجرته حتى لا يذهب إلى منزل "بهولا"، لما ذهب! إنه لا يستطيع الركض، فجلس منهزما، وقال:

- لتحفظه يا "مهابير سوامى"(٢)!

عندما وصل "جوبر" إلى تلك القرية، رآه بعض الرجال الذين يلعبون القمار تحت شجرة البرجد فظنوا أنه جندى فى الشرطة، فأسرعوا بالفرار. فجأة تعرف "جنكى" عليه، فقال:

- إنه "جوبر"!

نظر إليه "جوبر" من وراء الشجرة، وقال:

- لا تخف يا أخى "جنكى"! إنه أنا، رام، رام! لقد وصلت اليوم، وفكرت أن أحضر للقاء الجميع، لا أعلم متى سأعود؟ لقد خرجت إلى المدينة بدعائك، وأنا مستريح. أنا أخدم لدى أحد الأمراء، وقد قال لى:

---

(٢) أحد كبار العلماء الهندوك، ومن الآلهة.

إذا وجدت رجلين يصلحان للعمل فأحضرهما معك، فهو يحتاج إلى حارس. قلت: يا سيدي! سأجلب لك رجلا يضحي بحياته ولا يفر من الميدان، إذا أردت فلتأتِ معي، فهو مكان جميل.

صدّق "جنكي" كلامه من مظهره الذى يبعث على الرعب، فهو لا يستطيع لبس حذاء ردىء، و"جوبر" يرتدى حذاءً لامعا! كان يرتدى قميصا مزركشا ونظيفا، شعره مرتب، وأصبح سيدا بمعنى الكلمة، فرق كبير بين "جوبر" فى الماضى، و"جوبر" الآن! وقد ذهبت حرارته مع الوقت، وحل مكانها البرود، لم يبق شيء من الغضب، كان مقامرا، ويحب تدخين البانجو، وكان لا يجد نقودا فى المنزل إلا بصعوبة، فسال لعابه، وقال:

– سأذهب، لم لا؟! أنا أجلس هنا بلا عمل، ألن أكسب نقودا؟!

قال "جوبر" مؤكدا:

– لا تبال بشيء، الأمر كله في يدى، وكل ما تريد سيحدث. فكرت إذا كان هناك رجل في منزلى، فلم أستخدم رجلا لا أعرفه؟!

سأل "جنكى" بنفاد صبر:

– ماذا سأفعل؟

– إذا أردت فلتعمل حارسا، أو اعمل محصلا، لكن عمل التحصيل أفضل؛ حيث تأخذ النقود من الزبون وتقول للمالك لم أجده، يمكن أن تكسب نصف روبية، أو روبية كل يوم.

- أهناك مكان للمعيشة؟

- لا توجد مشكلة فى المكان، إنه قصر كبير جدا، وخالٍ، يوجد به ماء وكهرباء، وأنت لن تجد شيئا قليلا فى الحياة. أذهب "كامتا" إلى مكان؟

- نعم! ذهب لبيع الحليب، ولم يسمح لى بالذهاب لبيعه؛ إنهم يقولون إننى سأدخن بثمنه البانجو. يا أخى أنا أدخن القليل جدا! لكن أنا أحتاج قرشين كل يوم، لا تخبر "كامتا" شيئا عن هذا، وسأذهب معك.

- نعم، نعم! ستذهب معى دون تباطؤ بعد مهرجان الألوان.

- لا تنس وعدك!

ظل الاثنان يتحدثان حتي وصلا عند باب "بهولا"، كان "بهولا" يصنع حبلا رفيعا، تقدم "جوبر" وقبل قدميه؛ فى ذلك الوقت كان الكلام يخرج منه ثقيلا:

- يا عم! لتسامحنى على خطئى.

توقف "بهولا" عن صنع الحبل، وقال بصوت حاد:

- كان جزاء فعلتك يا "جوبر" قطع رأسك! لن أكون ظالما، لقد حضرت إلىّ فماذا أقول لك؟ سيجازيك الإله على فعلتك! متى حضرت؟

حكى "جوبر" عن حظه بتلميع الحكاية، واستأذن أن يأخذ "جنكى" معه، كأن دعاء "بهولا" قد استجيب، فقد ظن أن "جنكى" يفشل فى كل أعمال المنزل، وإذا ذهب سيكسب ولو أربعة قروش، وإذا لم يعطِ أحدا مالا فسيتحمل مسئولية نفسه!

قال "جوير":

– كلا، ياعمُّ! ولو أراد الإله فسيصبح رجلا بعد أن يمكث هناك عاما أو عامين.

– حسنا، هذا إذا استطاع المكوث!

– الإنسان يتغير من تلقاء نفسه عندما تحل الآلام!

– متى تعتزم الذهاب؟

– سأذهب بعد مهرجان الألوان سأصلح الحقل مرة أخرى، وعندما لا يوجد ما يشغل بالى سأذهب.

– قل لهورى أن يشتغل بالعبادة فقط، وأن يدعو الإله رام!

– هذا ما أقوله له، لكنه عندما يجلس لا يشعر بالراحة.

– لا بد أنك تعرف طبيبا، لأننى مصاب بالسعال، فلو أمكن أرسل لى دواء.

– هناك طبيب مشهور يسكن بالقرب منى، سأصف له داءك، وآخذ الدواء وأرسله لك. أيشتد السعال فى الليل، أم النهار؟

– كلا، يا بنى! لا يغمض لى جفن فى الليل. إذا كان هناك مكان سأذهب معك، وأعيش هناك، أنا هنا لا أجنى أى فائدة!

– لذّة العمل هناك ياعم، أما هنا فلا شيء! هنا لا يشترى أحد عشرة كيلوات من الحليب بروبية، فصناع الحلوى فقط هم من يشترونها وبصعوبة. أما هناك فيمكن أن تبيع خمسة أو ستة كيلوات بروبية، وفى غضون ساعة تبيع أربعين أو ثمانين كيلو جراماً من الحليب.

ذهب "جنكي" ليحضر لجوبر شرابا من الحليب، وعندما رأى "بهولا" أنهما قد صارا وحدهما وليس معهما أحد، قال:

– يا بنى! لا أريد المصائب؛ فأنت تعلم حال "جنكى"، و"كامتا" يبيع الحليب في السوق، فإطعام البهائم وربطها يقع على عاتقى! أنا أريد أن أعيش براحة، وأكل الخبز وأستريح، كل يوم شجار، مع من سأتصالح؟ أعانى من السعال، وأعجز عن النهوض ليلا، ولا يسأل عنى أحد، أو يقدم لى إبريقا من الماء، لقد انقطع الحبل فلم يفكر أحد فى إصلاحه، ولا يصلحه إلا أنا!

قال "جوبر" بحب:

– لنذهب إلى لكهنؤ ياعم! فتبيع خمسة كيلوات من الحليب نقدا، أنا أعرف الكثير من الأغنياء، وأتعهد لك بأنك ستبيع أربعين كيلو جراماً من الحليب. أنا أملك أيضا دكانا للشاى، سأشترى منك عشرة كيلوات، ولن تكلف شيئا!

أحضر "جنكى" الحليب، فشرب "جوبر" كأسا، وقال:

– لو جلست فى دكانى صباحا ومساءً، فستكسب روبية ياعم.

بعد دقيقة قال "بهولا" بخجل:

– يا بنى، الإنسان يصبح أعمى عند الغضب! كنت قد أخذت ثوريك، لتأخذهما، ليس عندى هنا حقل.

– لقد رأيت ثيرانا، وتكلمت مع صاحبها.

– كلا، كلا! لم تشترى ثيرانا جديدة؟ لتأخذهما.

– سأرسل لك نقودك.

– إن نقودى ليست فى يد غريبة يا بنى! نقودى فى البيت، لكنها مسرحية من أجل القبيلة! لكن لا فرق بينى وبينك، بل فى الحقيقة يجب علينا أن نسعد لأن "جهنيا" تعيش فى بيت كريم وتشعر بالراحة، وأنا أردت قتلها؟!

رحل "جوبر" من هناك فى المساء ومعه الثوران، وكان "جنكى" خلفه يحمل صحنين من الزبادى!

الفصل الحادي والعشرون

هناك ستة أشهر تعقد فيها الاحتفالات فى القرية، وتبدأ قبل شهر من مهرجان الألوان، وتغنى أغانى ألها(١) بداية من شهر اساره وتغنى فى شهرى ساون(٢) ويهادون أغانى كجليان(٣)، ثم تبدأ بعدها حكاية الرامائن. كانت الحفلات تنعقد فى سمرى، ولا يعرقل شباب المرابين وعمال الحكومة هذه الحفلات، وحتى لو لم توجد فى المنازل غلّة، ولا ملابس تستر الجسد، ولا نقود فى الجيوب؛ لا يهتمون بهذا، لا يمكن إيقاف الرغبة فى الحفلات الترفيهية، كما لا يمكن لأحد أن يحيا دون ضحك!

ومن أهم أماكن الغناء فى يوم المهرجان مظلة "نوكهى رام"، هناك يدخنون المخدرات، ويلعبون بالألوان، ويرقصون فى نفس المكان، ويصرف العامل الحكومى خمس روبيات أو عشرا؛ فمن ذا الذى يملك المال ليتمكن من إقامة مثل هذه الحفلات!

---

(١) أناشيد دينية يرددونها فى عيد الألوان.

(٢) وهو شهر الأمطار ويوافق شهر يوليه.

(٣) مثل أغانى آلها، مجموعة أغانٍ دينية تغنى فى عيد الألوان.

لكن "جوبر" أحضر شباب القرية جميعا إلى هنا، فصارت مظلة "نوكهى رام" خالية. أخذوا فى تدخين المخدرات أمام منزل "جوبر"، تناولوا التبغ، وأخذوا يعدون الألوان فى الماء. كان المكان مفروشا، والأغانى تصدح، ولا أحد فى المظلة، المخدرات موجودة لكن من يدخنها؟ وآلات الطرب متوفرة لكن من يعزف ويغنى؟ كان الجميع يرون وهم ذاهبون إلى منزل "جوبر". وقد وضعوا فى الماء الملون ماء الورد والزعفران واللوز؛ كان "جوبر" قد أحضر معه كيلو جرامًا من اللوز، من يشرب منه يشعر بالسكينة والارتياح، كما أحضر عجينة التبغ، من نوع خاص من بسوان(٤)، ووضع الألوان كذلك، كان يعرف كيف يكسب، وكيف ينفق أيضا؛ فلو أخفى النقود فمن يراها؟! الثروة تعنى التنعم. ليست المخدرات فقط، بل من حضر الغناء أيضا كان له هدايا وعطايا، وعدد الراقصين ليس قليلا فى القرية، ولا توجد ندرة فى المطربين أو فى الجوقة. قام "سوبها" بعمل مسرحية عن رجل أعرج، لكن أحدا لم يستطع القيام بها. لم يكن له مثيل فى تقليد الأصوات؛ يقلد صوت أى شىء إنسانا كان أو حيوانا، كذلك لا نظير لجردهر فى التقليد؛ يقلد المحامى، وعامل المساحة، كما يمكنه تقليد مأمور القسم، والفراش، والأثرياء والجميع، لكنه فقير ولا يملك الأدوات التى تمكنه من التمثيل، لكن "جوبر" أحضر له اللوازم كلها، وهكذا سيكون تقليده محكما.

---

(٤) اسم قبيلة هندوكية ومكان فى الهند.

عندما ذاع هذا الخبر، اجتمع المشاهدون منذ المساء، كما حضر جمع من المشاهدين من القرى المجاورة، اجتمع ثلاثة أو أربعة آلاف شخص حتى الساعة العاشرة. عندما بدأ "جردهر" فى تقليد "جهنجرى" لم يعد هناك موضع لقدم! رأس صلعاء، وشوارب كثّة، وكرش كبير متهدل، كان كمن يتناول الطعام، وزوجته الأولى تمسك بمروحة يدوية لتروح عنه وهو يأكل.

كان "تهاكر" يخاطب زوجته بصوت عاشق، ويقول:

- مازلت حتى الآن تحتفظين بشبابكِ، لو رآكِ أحد الشباب لاضطرب!

أجابت زوجته بزهو:

- لهذا تزوجت بأخرى؟!

- لقد أحضرتها لخدمتكِ، ألها نفس مكانتكِ؟!

سمعت الزوجة الثانية هذا الكلام، فذهبت إليه مقطبة الجبين!

فى المشهد الثانى كان "تهاكر" جالسا على السرير، والزوجة الصغيرة تجلس على الأرض مقطبة، كان "تهاكر" يحاول أن يفك أسارير وجهها، فقال:

- لماذا تغضبين منى؟

- لتذهب عند حبيبتك، أنا مجرد جارية! وقد حضرت من أجل خدمة الآخرين.

- أنتِ ملكتى، العجوز هى التى فى خدمتكِ.

سمعت الزوجة الأولى هذا الحديث، فدخلت عليه بالمكنسة وضربته بها، كان "تهاكر" يفر بروحه!

ثم بدأ التقليد الثانى، حيث يظهر "تهاكر" وهو يكتب إيصالا بعشر روبيات ويعطى خمسا فقط! فهو يأخذ مالا مقابل الكتابة، ومقابل التقاليد، والربا. حضر الفلاح وسقط عند قدمى "تهاكر" وهو يبكى، أعطاه "تهاكر" النقود بعد إلحاح شديد، وعندما بدأ يكتب الإيصال لم يصل إلى يد الفلاح إلا خمس روبيات، فسأل بحيرة:

- إنها خمس روبيات فقط يا سيدى!

- ليست خمسا بل عشرا، عدّها بعد الذهاب إلى المنزل.

- كلا يا سيدى! إنها خمس.

- روبية كهدية، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدى.

- وواحدة للكتابة؟

- نعم يا سيدى.

- وواحدة للورقة؟

- نعم يا سيدى.

– وواحدة للتقاليد السائدة؟

– نعم يا سيدى.

– وواحدة فوائد؟

– نعم يا سيدى.

– وخمس روبيات نقدا، ألم تكتمل عشرا؟!

– بلى يا سيدى! ولتأخذ الخمس روبيات من عندى أيضا.

– أجننت؟!

– كلا يا سيدى! روبية للزوجة الصغيرة، والأخرى للكبيرة، وواحدة للزوجة الصغيرة لتدخن التبغ، ومثلها للزوجة الكبيرة، تبقى روبية تأخذها لتجهيز كفنك.

وهكذا قلّد "نوكهى رام"، و "بتيشورى" و"داتادين"، ومع أن الكلام لم يكن جديدا، والتقليد قديما، فإن طريقة تقليد "جردهر" جعلت الناس يضحكون، وكان المشاهدون ساذجين بحيث يضحكهم أى شىء. مضى الليل كله فى التقليد، والقلوب المظلومة فرحة بهذا الانتقام الخيالى!

فى النهاية انتهى التقليد، وكان هناك غراب ينعق!

وعندما أصبحوا أخذوا ينشدون نفس الأغانى، نفس التقليد، نفس الفقرات؛ حتى أصبح عمد القرية أضحوكة، عندما يخرجون يتبعهم صبيان أو أربعة ويرددون نفس الفقرات. كان "جهنجرى سنج" شخصية

مرحة، وهو الوحيد الذى تقبل المزاح، أما "بتيشورى" فكانت فيه خصلة سيئة، إذ كانت هذه الأشياء تغضبه، كان "بندت داتادين" أيضا عصبى المزاج، حتى إنه يتشاجر لأتفه الأسباب، يحظى بالاحترام؛ المحصلون أنفسهم يحترمونه، و يحييه "راى صاحب" عندما يراه؛ فلم يحتمل أن يكون أضحوكة القرية، لو كان يملك معجزة برهمية لأحرقهم جميعا، ولدعا عليهم بالسوء حتى يحترقوا، لكن فى هذا الزمن لم يعد هناك أثر للدعاء بالسوء، لكنه أخرج الأسلحة الصالحة لهذا الزمن؛ حيث ذهب إلى منزل "هورى" والشرر يتطاير من عينيه، وقال:

– لم لم تذهب اليوم إلى العمل يا "هورى"؟ لقد تحسّنت الآن، لقد لحقت بى الخسارة وأنت لا تفكر فى هذا!

كان "جوبر" قد نام متأخرا، واستيقظ منذ وقت وجيز، فخرج من المنزل وهو يفرك عينيه؛ حيث وصل إلى مسامعه صوت "داتادين"، وبدلا من أن يحييه قال بغرور:

– إنه لا يعمل أجيرا عندك! ونحن نريد حرث القصب.

وضع "داتادين" التبغ فى فمه، وقال:

– كيف لا يعمل؟ لا يمكن أن يترك العمل فى وسط العام! ليتركه فى شهر جيته، أو يكمل العمل كما يشاء، لكن قبل هذا لا يمكنه تركه!

قال "جوبر" وهو يتثاءب:

– إنه ليس عبدا عندك، يعمل متى يحلو له، ولا يمكنك إجباره!

- ألن يعمل "هورى"؟!

- نعم!

- إذاً لتعطينى نقودى مع فوائد ثلاث سنوات، كانت فى الأصل مائة روبية وصارت مائتين، لقد فكرت أن أخصم من أجره ثلاث روبيات من فوائد كل شهر، وإذا كنت لا تريد أن تعمل لتعطينى نقودى. لو أردت أن تجعل من نفسك أميرا، فلتصنع صنيع الأمراء!

قال "هورى" بعجز:

- متى رفضت خدمتك يا سيدى؟! لكن قصبنا أيضا يحتاج إلى الحرث.

زجر "جوبر" والده:

- كيف تخدم، ومن؟! لا يوجد هنا خدم، فالجميع سواسية! هذا شىء عجيب، تعطيه مائة روبية كقرض، وتأخذ عمره كله فى سداد الفوائد ويبقى الأصل كما هو، هذا ليس ربا بل مَصاً للدماء!

- لتعطنى نقودى يا أخى، لم الشجار؟! أنا آخذ الربا ستة قروش على كل روبية، لكننى خفضت لك النصف لأنك من قريتى.

- سأدفع لك روبية على المائة روبية، لن أدفع مليما فوقها! إذا أردت فخذها، أو لتأخذها من المحكمة. وروبية على المائة ليست قليلة!

- أرى فيك حرارة النقود!

- الحرارة يشعر بها من يأخذ عشر روبيات فائدة على الروبية الواحدة، أما نحن فعمال، وحرارتنا تسيل مع العرق! أذكر جيدا أنك أعطيتنا ثلاثين روبية لشراء الثيران وقد صارت مائة، والآن مائتين، وهكذا حكمتم الفلاحين، وجعلتموهم عمالا بالأجر بعد نهبهم وسلبهم، وأصبحتم تملكون أراضيهم! مائتين من أصل ثلاثين، أتذكر كم مرّ عليها يا أبى؟

قال "هورى" بلهجة حزينة:

- حوالى ثمانى سنوات أو تسع.

وضع "جوبر" يده على صدره، وقال:

- فى تسع سنوات تصبح الثلاثين مائتين، فكم روبية تربحها من وراء قرض بمائة روبية؟ - قام بعمل الحسبة بحصى على الأرض - ست وثلاثون روبية فى عشر سنوات مع الأصل تصبح ستا وستين، لتأخذ سبعين روبية، لن أعطيك مليما أكثر من هذا!

قال "داتادين" موسطا "هورى":

- أتسمع يا "هورى" عدل "جوبر"؟! أترك مائتين وآخذ سبعين، وإلا لاشتكى فى المحكمة، لو حدث هذا كيف ستسير الدنيا؟! وأنت تجلس مستمعا! لتعلم أنى برهمى، لا يمكن أن تهضم نقودى وترتاح! سأتنازل عن السبعين روبية، ولن أذهب إلى المحكمة أيضا. سأذهب، ولو كنت برهميا فسترى كيف سآخذ المائتين روبية وستحضر عند بابى وتدفعها وأنت خاضع ذليل.

ذهب "داتادين" غاضبا، وجلس "جوبر" فى مكانه، لكن "هورى" كان مضطربا بسبب تدينه! لو كانت هذه نقود "تهاكر" أو البقالة لما خطرت بباله، لكنها نقود برهمى! لو اغتصبت من نقوده مليما فستخرج بتكسير العظم، ولو شاء الإله لحل غضب البرهمى على من يريد، حتى لن يبقى فى المنزل من يشعل المصباح، أو يحضر الماء! لقد اهتز قلبه المتدين، فأسرع نحوه وأمسك بقدمه، وقال بصوت متألم:

- يا سيدى! سأدفع لك نقودك مليما مليما ما دمت على قيد الحياة، لا تسمع لكلام الولد، التعامل بينى وبينك فمن يكون هو؟!

لان "داتادين" بعض الشىء، وقال:

- انظر إلى ظلمه! إنه يقول سبعين روبية بدلا من مائتين، أخذها أو أذهب إلى المحكمة؟ إنه لم يقع فى مصائب المحاكم، لو وقع فى أحدها لما بقى مغرورا! أمضى فى المدينة أربعة أيام، فظن أنه قد صار الملك "تاناشاه"!

- لقد أخبرتك يا سيدى! سأدفع لك كل مليم.

- لتحضر غدا للعمل.

- قصبى يحتاج إلى الحرث يا سيدى! وإلا لعملت عندك.

عندما مشى "داتادين" نظر "جوبر" باحتقار، وقال:

- أذهبت لإرضاء الإله؟! أنتم السبب فيما يحدث، فأنتم من جعلتم لهم مكانة! تأخذ ثلاثين روبية وتردها مائتين، وفوق كل هذا تدعه يزجرك، ويجعلك أجيرا عنده حتى تموت وأنت تعمل!

قال "هورى" وهو يظن أنه صادق فى تفكيره:

– علينا ألا ندع الدَّين يا بنى، بل نعمل وهو بجانبنا! ندفع الفائدة بنفس الحساب، ثم إنه من بابهن(٥) أيمكننا أكل نقود عليه؟! هم الذين يأكلون نقود الناس!

قطب "جوبر" بغضب:

– من قال لك دع الدَّين، أو كل نقود البابهن؟! لن ندفع فوائد زائدة! البنوك تأخذ الفائدة اثنين وسبعين قرشا على كل مائة، وأنت تعطيه روبية كاملة، أليس هذا نهبا؟!

– سيظلم، وسيشعر بالألم!

– ليشعر!

– يا بنى! مادمت على قيد الحياة فلتدعنى أسير بطريقتى، وعندما أموت لتحضر وتفعل ما تشاء!

– إذن لتدفع أنت، أما أنا فلن أقطع يدى وقدمى بالفأس! لقد كنت غبيا حين تدخلت من أجلك! أنت أكلت فلتدفع، فلماذا أسلم روحى له؟!

قال هذا ودخل، فسألته "جهنيا":

---

(٥) اسم قبيلة هندوكية كبيرة تتمتع بقدسية خاصة لدى الهنادكة.

– لم تتشاجر مع والدك فى الصباح؟!

قصّ "جوبر" عليها كل ما حدث، وفى النهاية قال:

– سيزيد ثقل القروض عليه! إلى متى سأدفعها؟! لقد أعطى كل ما كسبه للآخرين، لماذا أقع أنا فيما حفره؟! إنه لم يسألنى قبل أخذ القرض، كما أنه لم يأخذها من أجلى، لن أدفعها!

على الناحية الأخرى كان العمد يتآمرون لإذلال "جوبر":

– إذا لم نربط هذا الغلام فى الشبكة فسيثير لنا المشاكل مع أهل القرية! لقد أصبح راكبا بعد المشى، لذا يسير معوجا! لا أعرف من أين تعلم كل هذه القوانين؟ يقول لن أدفع أكثر من روبية واحدة فائدة على المائة، خذها أو اذهب إلى المحكمة، وليلة أمس جمع شباب القرية وأذلنا أمامهم.

إلا أن الحسد كان موجودا بين العمد كذلك؛ فكان كل واحد منهم سعيداً بضحك الناس على الآخرين. دار الحديث بين "بتيشورى" و"نوكهى رام"، قال "بتيشورى":

– الناس يعرفون أحوال كل بيت، لقد قلّد "جهنجرى سنج" فضحكوا عليه أكثر من أى شخص آخر، وقد ضحك الناس كثيرا بعد سماع كلام الزوجتين!

ضحك "نوكهى رام"، وقال:

- لكن التقليد كان صحيحا، كم من مرة رأيت الزوجة الصغيرة واقفة على الباب تضحك، وتتكلم مع الشبان!

- أما الزوجة الكبيرة فتجمل نفسها بالكحل والألوان الحمراء والعقود لتجعل من نفسها شابة، وتتشاجر الاثنتان طوال الليل والنهار، و"جهنجرى" لا حياء عنده على الإطلاق! لو كان أحد آخر مكانه لفقد عقله.

- سمعت أنه قلدك واستهزأ منك كثيرا، ومثل أنك تعرضت للضرب في منزل مغلق لإحدى المنبوذات!

- سأريه بعد أن أرفع دعوة عليه لدفع الخراج، وسيتذكر طوال حياته هذا الدرس!

- ألم يدفع الخراج؟!

- لم أعطه إيصالا، فكيف سيثبت أنه دفع الخراج؟ ومن هنا يرى دفتر حساباتى؟! سأرسل حراسى اليوم ليستدعوه.

كان "هورى" و"جوبر" يسقيان حقل القصب للزراعة، فى هذا العام لم يكن لدى "هورى" أمل فى زراعة القصب لذا لم يحرث الحقل، أما الآن فقد حضرت الثيران فلم لا يحرثه؟

إلا أنهما صارا متنافرين، لا يتحدثان ولا ينظر أحدهما إلى الآخر. كان "هورى" يحرث بالثيران، و"جوبر" يضع القصب فى الحفرة، وكانت كل من "سونا" و"روبا" تفتحان القنوات حتى تجرى المياه، وأثناء ذلك اختلفتا هل تأكل زوجة "جهنجرى سنج" أولاً أم تطعم زوجها؟!

كانت "سونا" تقول إنها تأكل أولا، أما "رويا" فترى عكس ذلك.

اعترضت "رويا":

– لو كانت تأكل قبله فلم صارت نحيفة، وأصبح "تهاكر" سمينا؟ لو سقط عليها لطحنها!

اختلفت معها "سونا":

– أتعتقدين أن الناس يسمنون من أكل الطعام الطيب، وأن الطعام الجيد يجعل الناس شجعانا؟! إنهم لا يسمنون من هذا، بل من أكل الخضر.

– أزوجة "تهاكر" أقوى منه؟

– بالطبع! لأنه تشاجر معها قبل أيام فدفعته حتى سقط، وجرحت ركبتيه.

– وأنت هل ستأكلين أولا ثم تطعمين زوجك؟

– بالطبع!

– أمي تطعم أبي أولا!

– لهذا يزجرها والدي عندما يريد، أما أنا فسأجعل زوجي يسير وفق إرادتي! وزوجك سيضربك، ويحطم عظمك.

تباكت "رويا"، وقالت:

- لِمَ يضربني؟ لن أفعل ما يستحق الضرب!

- إنه لن يسمع شيئا، لو تكلمت معه في شيء فسيضربك حتى يسلخ جلدكِ عن جسدكِ!

غضبت "رويا" وأخذت تمزق ملابس "سونا" بأسنانها، وعندما عجزت عن ذلك أخذت تقرصها، وواصلت "سونا" مزاحها:

- وسيقطع أنفكِ!

عندها عضّت "رويا" أختها بأسنانها، نزف الدم من ساعد "سونا" التي دفعت "رويا" بقوة، فسقطت ثم وقفت وأخذت تبكي، بكت "سونا" أيضا بعد مشاهدتها لآثار الأسنان.

عندما سمع "جوبر" شجار الاثنتين غضب، وحضر وضربهما، فبكتا وخرجتا من الحقل، واتجهتا نحو المنزل. توقف عمل السقاية، فتشاجر الأب وابنه، قال "هوري":

- من سيسقي الماء؟ لقد ركضت نحوهما ففرتا، لم لا تذهب لتصالحهما؟

- لقد أفسدتهما أيضا!

- ستفقدان الحياء إن ضُربتا.

– لو منعت عنهما الطعام مرتين لانصلح حالهما!

– أنا والدهما، ولست جزارا!

لو اصطدمت القدم فستظل تصطدم دائما، وستتورم الأصابع فى بعض الأحيان لشهور! وهكذا حدث شرخ فى العلاقة بين الاب وابنه؛ كان هذا هو الشرخ الثالث.

عاد "جوبر" إلى المنزل ليحضر "جهنيا" لتسقى الحقل بالماء، فحضرت ومعها طفلها، أما "دهنيا" وابنتاها فقد جلسن ينظرن؛ كانت الأم هى الأخرى مستاءة من تصرف "جوبر"، لو ضرب "روبا" لما استاءت، لكن ضرب البنت الشابة خارج عن نطاق احتمالها!

فى تلك الليلة استعد "جوبر" للذهاب إلى لكنهؤ، لم يعد يستطيع الحياة هنا بعد الآن! إذا لم تكن له كرامة فى البيت فلماذا يبقى فيه؟! وإذا كان لا يمكنه التحدث فى شؤون المنزل فلماذا يبقى؟ كما أن ضرب البنتين أغضبهما للغاية كأنه شخص غريب عنهما، ولهذا لن يعيش فى هذا المنزل!

خرج "هورى" بعد تناول الطعام، فى نفس الوقت استدعاه حارس "نوكهى رام" قائلا:

– لتحضر، فالسيد يدعوك.

قال "هورى" برعونة:

– لماذا يدعونى فى مثل هذا الوقت؟ لقد دفعت الخراج!

قال الحارس:

– لقد أمرني بإحضارك فقط، قل له بنفسك ما تريد!

لم يكن "هوري" يريد الذهاب، لكنه كان مكرها، جلس "جوبر" دون اكتراث. بعد نصف ساعة عاد "هوري"، وأخذ يدخن النارجيلة. لم يطق "جوبر" صبرا فسأله:

– لماذا استدعاك؟

قال "هوري" بصوت متألم:

– لقد دفعت الخراج حتى آخر مليم، وهم يزعمون أنني مدين بخراج عامين! أعطيته في يوم بيع القصب خمسا وعشرين روبية، كيف يقول إني مدين بخراج عامين؟! لقد أخبرته أنني لن أدفع قرشا واحدا.

سأله "جوبر":

– أعندك إيصال؟

– إنه لا يعطيني إيصالا!

– لماذا تدفع النقود قبل أخذ الإيصال؟!

– لم أكن أعلم أن الناس بلا إيمان! هذا كله من فعلك، أغضبه استهزاؤك به في تلك الليلة، لا يمكن أن تعادي التمساح وأنت في الماء! لقد حسب سبعين روبية مع الفوائد، من أين ستأتي هذه النقود؟!

قال "جوبر" يبرئ نفسه:

– لو كنت أخذت الإيصال واستهزأت أنا به مليون مرة، لما استطاع أن يضرك! لا أفهم لماذا لا تكن جادا فى معاملتك؟ إذا لم يعطك إيصالا فلترسل النقود بالبريد، عندها كنت ستدفع روبية أو نصف روبية، ولما حدث هذا الظلم!

– لو لم تشعل النار لما حدث شىء! الآن كل العمداء غاضبون، ويهددوننى، الإله وحده يعلم كيف ستمضى سفينة الحياة!

– سأذهب، وأسألهم!

– لو ذهبت لاشتعلت النار أكثر.

– لو احتجت لإشعال النار، فسأشعلها! إذا لم يكتب إيصالا، فليفعل ما يريد! سأجعلهم يقسمون فى المحكمة بعد وضع مياه جنجا فى أيديهم. لتجلس أنت خائفا، وسأفعل ما باستطاعتى، لا أريد أن أغبن أحدا قرشا واحدا، ولا أريد أن يغبننى أحد!

ذهب في هذا الوقت، ووصل إلى مظلة "نوكهى رام"، رأى العمداء مجتمعين، عندما رأوا "جوبر" تنبهوا؛ كانت رائحة المؤامرة تفوح من المجلس.

سأل "جوبر":

– ما هذا الكلام أيها المحصل؟! لقد دفع والدى الخراج حتى هذا العام، وأنت تقول إنه مدين بخراج عامين، ما هذا الظلم!

استند "نوكهى رام" على مسنده، وقال برعب:

- ما زال "هورى" حيا، لا أريد التناقش معك فى المعاملات!

قال "جوبر" بصوت متألم:

- أليس لى قيمة فى المنزل؟!

- أنت فى منزلك كل شىء، لكن هنا لا شىء!

- حسنا! هل ستأكل حقه؟ سأعطيك النقود فى المحكمة بعد أن تحلف بجنجا، كما سأحضر مئات الشهود من هذه القرية يشهدون أنك لا تعطى الفلاحين السذّج إيصالات، ولأنهم صامتون ظننت أن الكل حمقى! إن "راى صاحب" عيش حيث أسكن، وأهل القرية يظنون أنه شخص عظيم، لكننى لا أعتقد هذا! سأقص عليه ما حدث، وسأرى كيف ستأخذ منى نقود الخراج مرتين؟!

كان فى حديثه قوة الصدق، والكلام الصادق يجعل الجبناء بكما!

إن الأسمنت عند خلطه بالطوب يصبح حجرا، لكن عندما يستخدم مع الطين يصبح طينا! وقد حطم "جوبر" بكسر ذراع نيتهم السيئة بكلامه الصادق الجرىء، والذى أفهم قلب "نوكهى رام" الضعيف معنى القوة!

قال "نوكهى رام" وكأنه تذكر شيئا:

- لم أنت غاضب؟ ما الذى أغضبك فى كلامى؟! إذا كان "هورى" قد دفع النقود فلا بد أنى سجلت هذا فى مكان ما، غدا سأخرج الورق

وأرى. نعم، نعم! لقد تذكرت شيئا عنها، لعل "هورى" قد أعطانى النقود، ليطمئن قلبك! إذا كانت نقودك هنا فلن تضيع، أنت لن تكذب من أجل نقود تافهة، وأنا كذلك لن أثرى بهذه النقود!

عندما عاد "جوبر" من المظلة، زجر والده العجوز حتى بكى:

– أنت تخاف أكثر من الأطفال الذين يرتعدون عند سماع قطة تموء، حتى متى أنقذك؟ سأعطيك سبعين روبية لتعطيها لداتادين وتأخذ الإيصال، إذا أعطيته أكثر ولو مليما واحدا لن أعطيك شيئا بعد الآن، أنا لا أكسب فى الغربة لأعطيك كى تُنهب! سأرحل غدا، وسأقول لك كلمة واحدة لا تقترض مليما واحدا بعد الآن، ولا تعطِ لأحد شيئا، لا بد أن تعطى روبية واحدة كفائدة على كل مائة لمنجرو، و"دلارى"، و"داتادين".

خرجت "دهنيا" بعد تناول الطعام، وقالت:

– لماذا تذهب يا بنى؟ لم لا تبقى يومين أو أربعة حتى يكتمل حرث القصب، وتضبط التعاملات المادية، وبعدها تذهب؟!

قال "جوبر" بتكبّر:

– أنا أخسر كل يوم روبيتين أو ثلاث فى تجارتى، أتفهمين هذا؟ لو عملت هنا بالأجر لما كسبت أكثر من أربعة وعشرين قرشا، والآن سآخذ "جهنيا" معى، لأننى أشعر بالتعب فى إعداد الأكل والشرب.

قالت "دهنيا" بخوف:

– افعل ما تشاء! لكن كيف يمكنها إدارة المنزل وحدها؟ وكيف ستربى الطفل؟!

- أنا الآن أنظر إلى حالتى وليس إلى حال الطفل، لا أستطيع حتى أن أشعل النار!

- أنا لا أمانع، لتأخذها وتذهب، لكن فى الغربة تقع المشاكل بسبب الأطفال فلا يوجد أحد يساعدهم، فكر فى تلك المشكلة؟!

- في الغربة أيضا لدى أصدقاء يا أمي! والحياة منفعة متبادلة، لو أعطيت أحدهم أربعة قروش لصار خادما لك، وبدون المال لا يسأل عنكِ حتى الأب والأم!

فهمت "دهنيا" هذا الهجوم، فاحترقت من رأسها حتى أخمصِ قدمها:

- هل تعد الأم والأب بين أصدقاء النقود!

- أنا أرى بعيونى!

- أنت لا ترى شيئا! فقلب الأم والأب ليس جامدا، بل الأولاد هم الذين يتبدلون من ناحية الوالدين إذا كسبوا شيئا من المال! ويمكن أن أريك فى هذه القرية عشرات، إذا اقترض الأب والأم فمن أجل من؟ من أجل أبنائهم وبناتهم، أم من أجل مصلحتهم؟!

- لا أعرف من أجل من اقترضت؟ فأنا لم آخذ مليما واحدا!

- أكبرت دون تربية؟!

– ما الذى صرفته على تربيتى؟ عندما كنت طفلا كنت تطعميننى الحليب، ثم تركتنى كشىء مهمل، كنت آكل مثلما يأكل الجميع، فلم تحضرى لى الحليب أو القشدة، والآن تريدين أنتِ ووالدى أن أسدد القروض والخراج، وأزوج البنتين، كأن حياتى وقف على ما تطلبون، وأنا أيضا لدى أطفال!

شعرت "دهنيا" بالاضطراب، ففى لحظة واحدة تحطم حلم حياتها الحلو! حتى الآن كانت تشعر فى داخلها بالسرور لأن المصائب قد زالت عنها، فعندما عاد "جوبر" تراقصت الضحكة على وجهها، وأصبحت حلوة الكلام، وواسعة القلب. إذا كان الإله قد أنعم عليه فيجب أن يسير خافضا الرأس، والاطمئنان الداخلى يجعل الظاهر شريفا! لقد نزلت هذه الألفاظ على قلبها كالصاعقة، واحترقت أمنيتها كالحمص، تحطم غرورها، ولم يبق شىء من اللطف فى حياتها بعد سماع هذا! السفينة التى كانت تريد أن تعبر بها البحر تحطمت، فلمن تعيش؟!

لكن كلا! لم يقصد "جوبر" ذلك، فهو لم يرد على كلام والدته، ولم يطلب شيئا، كان يأكل كل ما يقع تحت يده من أشياء جافة، فلماذا تحدث اليوم عن ذلك وحطم تمثال الحب والبراءة؟! لماذا يتحدث المرء خلاف طبيعته؟! إن والديه يغدقان عليه الحب، هو الذى تحدث عن المعاملات أولا، وإلا من كان سيقول له ادفع قروض أمك وأبيك؟! إن راحة الأم والأب أن يريح الابن، ويعيش فى عزة وكرامة مثل الأشخاص الطيبين! إذا تمكن من مساعدة والديه فليساعدهم، وإذا لم يستطع فلن يضغطا على عنقه!

لو يريد أخذ "جهنيا" فليأخذها على الرحب والسعة، ولم تقل "دهنيا" ما قالته إلا من أجل المصلحة فقط، فلو أخذها سيلقى متاعب أكثر من الراحة. ما الذي قالته حتى يغضب لهذه الدرجة؟! لعل "جهنيا" هي التي أشعلت النار، وعلمته هذا السحر، لأنها لا تجد هنا ما تزين به نفسها؛ فهي تقوم ببعض أعمال البيت، أما هناك فستكون النقود في يدها فتستريح، وتأكل وتلبس جيدا، وتنام كما تشاء، وصنع خبز لشخصين لا يأخذ وقتا، وإذا كانت هناك النقود فقد سمعت أن الخبز الطازج يباع في السوق. هي التي زرعت هذه المشاكل كلها، لقد عاشت في المدينة لفترة فتعودت على الحياة هناك، لا أحد هنا يسأل عنها، وقد وجدت هذا الرجل الساذج فأوقعته في حبائلها! عندما جاءت عندي هنا وهي حامل في شهرها الخامس كم كانت وديعة كالقطة! لو لم أعطها سكنا لكانت اليوم تتسول في مكان ما، أهذا هو جزاء الإحسان؟! ودفعنا الديّة بسبب هذه الشيطانة، وساءت سمعتنا في القبيلة، وخرّب الحقل، كل المشاكل بسببها! واليوم هذه الشيطانة تبصق في الطبق الذي أكلت فيه، عندما رأت النقود تبدلت، ولهذا تمشي معوجة، وترفع من قدرها لأن ابني يكسب النقود! لم يرسل لها طوال العام شيئا، فكانت تحضر وتدلك قدمي حماتها بالزيت، هذه الشيطانة تريد نزع خزانة حياتها من يديها!

قالت بصوت متألم:

- من علمك هذا الكلام يا بني؟ لم تكن هكذا! فالوالدان والأخوات والمنزل جميعا لك! أيعيش هنا شخص غريب؟ هل سيمتد بنا العمر؟

لو أعدت للمنزل عزته لارتحت أنت! والإنسان يعمل، ويكسب النقود من أجل أهله، الخنزير يعرف كيف يطعم نفسه! لم أكن أعلم أن "جهنيا" هى التى تلدغنا، إنها كأنثى الكوبرا!

قال "جوبر" غاضبا:

- أمى لست ساذجا حتى تعلمنى "جهنيا"! أنت تسبينها دون وجه حق. لا يمكننى تحمل إدارة المنزل كله، سأساعدك فيما أستطيع مساعدتك فيه، لكن لا يمكنى وضع الحديد فى قدمى!

خرجت "جهنيا" من الحجرة، وقالت:

- يا والدتى، لم تصبين غضبك علىّ؟! إنه ليس طفلا كى أؤثر فيه، فهو يعرف الحسن والقبيح! الإنسان لا يولد كى يتعب من أجل تحسين حالته وإلا سيموت خالى الوفاض، كل إنسان يريد الراحة فى الحياة، وكل شخص يرغب فى المال!

قالت "دهنيا" وهى تضغط على أسنانها:

- لا تتظاهرى بالحكمة! أعرفت اليوم الحسن والقبيح؟! لكن عندما جئت إلى هنا باكية، ووضعتِ رأسكِ عند قدمى، ألم تفكرى فى ذلك الوقت فيما يسوؤك أو يزينك؟ لو فكرنا فى ذلك الوقت فى الحسن والقبيح لأنفسنا لما بقيت اليوم على قيد الحياة!

بعد ذلك بدأت الحرب؛ أخذتا تتطاعنان، وتسبان بعضهما، وتفضح إحداهما الأخرى، لم يبق شىء لم يقل! كان "جوبر" أيضا يلدغ وسط

الكلام، و"هورى" جالس فى البهو يسمع كل ما يجرى بينهم، أما "سونا" و"روبا" فوقفتا فى الصحن خافضتى الرأس. وصلت "دلارى" و"بنيا" وبعض النسوة ليصلحن ذات البين، ساد السكون وسط صوت الرعد؛ كلتاهما تندب حظها، وتسب الإله إيشور، وتبرئ نفسها من الخطأ. كانت "جهنيا" تخرج الموتى من القبور؛ فقد أخذت اليوم تواسى "هيرا" و"سوبها" على وجه الخصوص، وتزعم أن "دهنيا" لا تحترمهما، وعلاقة "دهنيا" بهما سيئة حتى الآن، فكيف ستكون علاقتها جيدة بجهنيا؟ كانت "دهنيا" تحاول تبرير موقفها، لكن الناس وقفوا إلى جانب "جهنيا"، ربما لأنها تتمالك نفسها، أما "دهنيا" فقد فقدت السيطرة على نفسها تماما، وربما لأن "جهنيا" زوجة رجل يربح المال، وإسعادها قرين المصلحة!

خرج "هورى" من الصحن، وقال:

– أقبل قدميك يا "دهنيا"، اصمتى! لا تلطخى وجهى بالعار، حسنا! إذا لم تكفى فستسمعين أكثر!

هرعت "دهنيا" نحوه وهى تزفر:

– أنت أيضا تقف فى صف الأقوياء! أنا من تشعر بالألم، أترمينى بالورد؟!

تغيّر ميدان الحرب:

– من يتشاجر مع الصغار يصبح منهم!

بأى دليل تعتبر "دهنيا" "جهنيا" صغيرة؟!

قال "هورى" متألما:

- ليست صغيرة بل كبيرة، لكن هل ستقيدين من لا يرغب فى الحياة هنا؟ إن واجب الوالدين هو تربية الأبناء حتى يكبروا، لقد فعلنا ذلك! وقد أصبح بإمكانهم الآن الاعتماد على أنفسهم، فماذا تريدين الآن؟ أن يحضر العلف ويطعمكِ! إن واجب الوالدين نحو الأولاد واجب مطلق، أما واجب الأبناء نحو الوالدين فهو واجب ضئيل لا يقارن، من أراد أن يذهب فليذهب، وادعى له. الإله معنا، وسنرى ما كتبه الإله علينا! لقد مرّ أربعون أو سبعة وأربعون عاما من البكاء، وبقيت خمس سنوات أو عشر، فلنمضها!

استعد "جوبر" للذهاب، وقد أصبح ماء هذا البيت حرام عليه، عندما تقول له أمه هذا الكلام فإنه لن يريها وجهه أبدا! حزم أمتعته فى لمح البصر، كما ارتدت "جهنيا" ملابسها، وأصبح "منو" ملكا بعدما لبس القلنسوة والقميص.

قال "هورى" برقة:

- يا بنى ليس من حقى التحدث معك، لكن قلبى غير مطمئن! هل سيحدث ما يسوء إذا دخلت إلى والدتك وقبلت قدميها؟ ألا يمكنك أن تفعل شيئا يسيرا للبطن التى أنجبتك، ورضعت من لبنها؟!

قال "جوبر"، بعدما أشاح بوجهه:

- أنا لا أعتبرها أمى!

انسابت الدموع من عينى "هورى"، وقال:

- كما تشاء، أدعو لك بالراحة حيثما كنت!

ذهبت "جهنيا" إلى حماتها، وقبلت قدميها بطرف حجابها، لكن لم يخرج من فم "دهنيا" ولا حتى كلمة دعاء واحدة، حتى إنها لم تنظر ناحيتها! احتضن "جوبر" ابنه، وتقدم، وتأبطت "جهنيا" الفراش، وحمل أحد المنبوذين الصندوق. أوصل بعض رجال القرية ونسائها "جوبر" حتى خرج من القرية.

جلست "دهنيا" تبكى، كانت كأن قلبها يقطع بالمنشار! لقد صارت أمومتها كمنزلها محترقة، وصار كل شىء رمادا! لم يبق مكان حتى تجلس وتبكى فيه.

الفصل الثانى والعشرون

أخذ الناس يتحدثون منذ بضعة أيام عن زواج ابنة "راى صاحب"، كما اقترب موعد الانتخابات. كان أهم شيء بالنسبة إليه هو رفع دعوى فى المحكمة؛ كانت أتعاب التقاضى خمسين ألف روبية، بالإضافة لنفقات أخرى. كان أخو زوجة "راى صاحب" إقطاعيا ووحيدا، وقد مات فى شبابه فى حادث سيارة، كان "راى صاحب" يريد أخذ حق الانتفاع من هذه الإقطاعية لابنه الأعزب عن طريق القانون، لكن أولاد عم زوجته استولوا على الإقطاعية ورفضوا إعطاء "راى صاحب" أى حق. كان "راى صاحب" يرغب بشدة فى التصالح، وأن يترك لأولاد عمها الإقطاعية بعد أخذ تعويض مناسب، ورضى حتى بأن يعطيهم نصف دخل الإقطاعية، لكن أولاد العم رفضوا، بل بدأوا فى تحصيل الخراج بالقوة، فلم يجد "راى صاحب "بُدًّا من اللجوء إلى المحكمة. أنفق مئات الآلاف فى الدعوى، لكن دخل القطاعية لم يكن يقل عن مليونى روبية، وقد أكد له المحامى "دكلار" أنه سينجح فى هذه الدعوى، فمن يدع هذه الفرصة؟! كانت المشكلة أن المهام الثلاث قد حلّت فى آن واحد، ولم يكن يمكنه ترك واحدة منها. كانت ابنته فى الثامنة عشرة من عمرها، وقد تأخر زواجها بسبب المال فقط،

فهي ستصرف مائة ألف روبية، وكان كل من يتقدم لها يطلب الكثير من المال. لكن حانت فرصة في هذه الأيام، حيث توفيت زوجة "كنور دج وجي سنج" بداء السُّل، وكان "كنور صاحب" يريد الزواج بسرعة، وقد اتفقا على مبلغ زهيد؛ فلم يكن ليضيّع هذا الصيد من يده! ولهذا اختار أن يزوجها في هذا الوقت. كان "كنور صاحب" محبا للملذات، كان يعاقر الخمر، يتعاطى البانجو والأفيون وكل أنواع المخدرات، لم يكن يدع النشوة دون اغتنامها! كان القمار هو زينة الأغنياء، والغني لا يكون غنيا إلا بالمقامرة! كيف إذًا ستصرف النقود؟! ورغم كل هذا كان يتحلى ببعض الصفات الطيبة، حتى إن كبار العلماء كانوا يمدحونه، لم يكن له نظير في العزف، والتمثيل المسرحي، وقراءة الكف، والتنجيم، والتحطيب بالعصا، والمصارعة الحرة، ورمي السهام وغيرها من الفنون. كان إلى جانب هذا لا يخاف، وكان يتبرع للحركات القومية لكن في الخفاء، إلا أن هذا الأمر لم يكن خافيا على الحكام، ومع هذا كانوا يقدرونه كثيرا! كان المحافظ قد حلّ ضيفا عليه في عام أو اثنين. لم يكن عمره يزيد عن ثلاثين أو اثنين وثلاثين عاما، وكانت صحته جيدة، حتى إنه يستطيع أكل ماعز بمفرده! كان "راي صاحب" يعتقد أن الطعام قد سقط وذلك من حسن حظ القطة! لم يكد يمر ستة عشر يوما على حداد "كنور صاحب" حتى بدأ "راي صاحب" في التحدث معه. بالنسبة إلى "كنور" أراد هذه الزيجة فقط حتى يزيد من نفوذه وقوته؛ فراي صاحب عضو في المجلس، وذو نفوذ عظيم، كما أنه قد صار زعيما وطنيا لدى عامة الناس بعد الثورة الوطنية، لم يكن هناك مانع من الزواج، وقد اتفقا على كل شيء.

أما الانتخابات فكانت بيضة ذهبية؛ لا يمكن رميها أو أكلها أو هضمها! لقد انتخب مرتين في المجلس، وفي كل مرة كان يصرف مائة ألف روبية، لكن هذه المرة هناك أحد الملوك يستعد لدخول الانتخابات، وقد أعلن على الملأ أنه سيمنح كل من يعطيه صوته ألف روبية، حتى لو قضت الخمسون ألفا على إقطاعيته إلا أنه لن يدع "راى صاحب" يفوز بالعضوية! وقد وعده بعض الحكام بالمساعدة. كان "راى صاحب" حاذقا، ماهرا ويعرف ما ينفعه ويضره، لكنه كان من الراجبوت، وواحدا من الأمراء، فكيف يفر من ميدان التحدي؟! لو حضر الملك "سورج برتاب سنج"، وقال له: يا أخي لقد فزت بالعضوية مرتين فدعها لي هذه المرة. ربما قبل "راى صاحب" بهذا، فهو لم يكن طامعا في العضوية، لكن لا حيلة له في مواجهة هذا التحدي. كانت هناك منفعة أخرى، فقد أكد عليه السيد "تنخا" أن يترشح للانتخابات ثم يدعها للملك مقابل مائة ألف روبية، بل أخبره أن الملك سيعطيه النقود بكل سرور، وقد تحدث معه في هذا الشأن. لكنه يعلم الآن أن الملك لا يريد ترك الميدان إلا بعد هزيمته! وكان من أهم أسباب ذلك هو زواج ابنة "راى صاحب" من "كنور صاحب"، حيث سيتحد الاثنان ضده، وكان هذا ضد مصلحته. كان "راى صاحب" يشعر بأنه سيستعيد مال صهره، وكان الملك يشعر بالضيق، إذا أخذ أموال صهره عندها سيكون في استطاعته الوقوف في وجه الملك، لهذا كان يجب على الملك أن يدمر "راى صاحب" ويلقي بكرامته في الوحل!

لقد وقع "راى صاحب" المسكين في ورطة كبيرة، وهو يشك أن السيد "تنخا" قد خدعه من أجل مصلحته، كما علم أيضا أنه قد أصبح وكيلا للملك،

وضع ذلك الملح على جرح "راى صاحب"! استدعى السيد "تنخا" عدة مرات، لكنه كان إما غير موجود فى منزله، أو يعد بالمجيء ولا يأتى. فى النهاية ذهب بنفسه للقائه، وصل عند منزله، كان "تنخا" موجودا فى المنزل، إلا أن "راى صاحب" جلس ساعة كاملة فى انتظاره، أهذا هو تنخا الذى كان يحضر يوميا ويقف على باب "راى صاحب"؟! اليوم تغير الحال. كان يجلس حزينا . حضر السيد "تنخا" بكامل هيئته، وكان يدخل سيجارة في فمه ومد يده، فانفجر "راى صاحب":

- أنا جالس هنا منذ ساعة، ثم تخرج بعد كل هذا! إن هذا إهانة لى.

جلس "تنخا" على أحد الأرائك، وقال دون اكتراث وهو ينفث الدخان:

- أعتذر، كان لدى عمل ضرورى. كان من واجبك أن تهاتفنى لنتفق على موعد.

سقط السمن على النار، لكن "راى صاحب" تحكم فى غضبه، إنه لم يحضر للشجار، كان هذا وقت التحكم فى الغضب، فقال:

- نعم أنا مخطئ! لعلك مشغول فى هذه الأيام؟

- نعم، للغاية! وإلا كنت حضرت لزيارتك.

- جئت كى أسألك عن الترشح للانتخابات، لا أعتقد أن هناك أملا فى الصلح، فهم يتهيئون للمعركة بقوة!

- أنت تعلم أن الملك رجل مشاغب، وفى غاية الجنون! ودائما ما يستولى على تفكيره شىء، فى هذه الأيام يفكر فقط فى هزيمتك! وإذا استحوذ شىء على تفكيره لا يسمح لأحد بأن يمنعه عنه حتى لو خسر كثيرا! لقد اقترض أربعمائة ألف روبية، ومع هذا لم يدع جنونه! وهو يصرف يمينا وشمالا، فلا أهمية للنقود عنده. لم يدفع مرتبات العمال منذ ستة أشهر، لكنه يبنى قصرا من اللؤلؤ، وفرشه من حجر المرمر، إنه عمل رائع، حتى إن العين تعجز عن عدم النظر! إنه يرسل الهدايا كل يوم إلى الضباط، وسمعت أنه سيحضر مدير أعمال إنجليزيًّا.

- لكن كيف أخبرتنى أنك ستصلح بيننا؟!

- لقد فعلت كل ما فى وسعى، ماذا أفعل أكثر من هذا؟! لو أراد شخص أن يحرق مائتى ألف روبية أو أربعمائة ألف، فماذا أفعل له؟!

لم يستطع "راى صاحب" أن يتحكم فى غضبه، فقال:

- خاصة عندما يكون نصيبك من المائة أو المائتى ألف عشرا أو عشرين ألف روبية!

لم يصمت "تنخا"، وقال:

- "راى صاحب"! لا بد أن نتحدث بصراحة، فلا أنا ولا أنت من الزهاد، كل منا يسعى للكسب، كل شخص يريد أن يربح ربحا كاملا؛ هل طلبت منك أن ترشح نفسك؟ لقد فعلت ذلك طمعا فى المائة ألف روبية! لو حدث ما اتفقنا عليه لكنت تملك مائة ألف روبية، وعندها كنت ستعقد قران

ابنتك على "كنور"، وترفع الدعوى دون أن تقترض، لكن من سوء حظك أن الأمر قد انقلب رأسا على عقب! أنت لم تأخذ شيئا، فكيف آخذ أنا؟! في النهاية صرت من زمرته، فلا بد لي من عبور هذا البحر بأي طريقة!

اشتعل غضب "راي صاحب"، حتى إنه أراد قتل هذا البلطجي بالرصاص! هو الذي زين له الأمر، والآن يبرئ نفسه! لا يمكن لأحد أن يساوي ظهره بالأرض، لكنه أمسك لسانه لأن الفرصة غير سانحة:

– ألا يمكنك فعل شيء؟!

– نعم!

– أنا مستعد للانسحاب بخمسين ألف روبية.

– إن "سورج برتاب سنج" لن يقبل.

– يمكن أن يقبل بخمس وعشرين ألف روبية؟

– لا يوجد أمل، لقد أكد ذلك!

– هو الذي يقول أم أنت؟

– أتظنني كاذبا؟!

قال "راي صاحب" منهزما:

– أنا لا أظنك كاذبا، لكنني أعلم أنك إذا أردت فسيوافق!

– أتعتقد أننى لا أريده أن يوافق؟!

– كلا، هذا ليس قصدى! كل ما أريد أن أقوله إنك لو أردت فلن أقع في هذه المشكلة.

قال "تنخا" وهو ينظر إلى الساعة:

– إذا كنت تريد يا "راى صاحب" أن أوضح لك فلتسمع: لو قدمت لى شيكا بعشرة آلاف روبية فى يدى، فبالتأكيد ستكون عندك اليوم المائة ألف، لعلك تريد أخذ النقود من "راجا صاحب"، ثم تعطينى ألفا أو ألفين، أنا لست أحمق! ستأخذ النقود من "راجا صاحب" وتضعها فى الخزانة، وأنخدع أنا! عندها ماذا سأفعل معك، قل لى؟! لا يمكن أن أرفع عليك دعوى فى أى مكان!

نظر إليه "راى صاحب" بنظرة متألمة، وقال:

– أتعتقد أننى بلا إيمان لهذه الدرجة ؟!

نهض "تنخا" من على الكرسي، وقال:

– من يعتبر هذا عدم إيمان؟ هذا نوع من الحذق فى هذه الأيام أن تجعل الآخرين حمقى! هذه طريقة ناجحة، وأنت أستاذ ماهر فيها!

ضمّ "راى صاحب" قبضته، وقال:

– أنا؟!

– نعم، أنت! فى الانتخابات الأولى كنت من بين مؤيديك، فأعطيتنى خمسمائة روبية بصعوبة، وفى الانتخابات الثانية أعطيتنى عربة خربة ومتخبطة، وخلصت نفسك؛ ومن لدغته الحية يفر من الحبل!

خرج من الحجرة، وأمر بإحضار العربة.

كان دم "راى صاحب" يغلى؛ أوَصَلَ إلى هذه الدرجة من الوقاحة حتى يجعلنى أنتظر ساعة كاملة، ثم يطردنى من منزله بلا مروءة! لو كان واثقا من قدرته على إلقاء السيد "تنخا" على الأرض، لألقاه، لكن كان "تنخا" أطول منه. عندما أطلق "تنخا" بوق السيارة، خرج وجلس هو أيضا في عربته، وذهب إلى السيد "كهنا".

كانت الساعة التاسعة، إلا أن السيد "كهنا" كان فى سبات عميق، لأنه لم يكن ينام قبل الثانية صباحا، ويستمر فى النوم حتى التاسعة صباحا. انتظر "راى صاحب" هناك نصف ساعة أيضا! عندما دقت الساعة التاسعة والنصف، خرج السيد "كهنا" مبتسما، فزجره "راى صاحب" قائلا:

– حسنا! لقد فتحت عينيك الآن، الساعة التاسعة والنصف! بالتأكيد قد جمعت النقود ولهذا فأنت لا تجد ما ينغصك! لو كنت إقطاعيا مثلى لكنت واقفا عند أحد الأبواب، ولدار رأسك إذا جلست!

قدم له "كهنا" سيجارا من علبته، وقال:

– لقد نمت متأخرا، من أين حضرت؟

قصّ عليه "راى صاحب" مشاكله باختصار، وهو يلعن "تنخا" فى قلبه؛ كان زميله في المدرسة، وكان دائما ما يحاول خداعه، لكنه يتملقه فى وجهه!

رسم "كهنا" على وجهه علامات التفكير العميق، وقال:

– رأيى أن تدعك من الانتخابات، وتقوم برفع دعوى فى المحكمة ضد أصهارك، أما الزواج فهو مسرحية لثلاثة أيام، ولا يجوز أن تقترض من أجله! إن السيد "كنور" من أصدقائى، ولن يأخذ شيئا منك.

قال "راى صاحب" بسخرية:

– أنت تنسى يا سيد "كهنا" أننى لست رجلا من رجالات المصارف، بل أنا إقطاعى! لم يطلب السيد "كنور" أموالا، فالإله قد منحه كل شيء، لكنك تعرف أنها ابنتى الوحيدة، وقد توفيت أمها، ولو كانت على قيد الحياة اليوم لربما أعطتها متاع البيت كله وكانت ستعتقد أنه قليل! فى ذلك الوقت كنت قد أمرتها بالامتناع عن الإنفاق، لكن أنا بمثابة الأم والأب بالنسبة إليها، ويمكننى أن أعطيها مهجة قلبى وأنا فى غاية السرور! لقد شربت حب الأولاد فى حياة الوحدة، وقد رفعت شعار الوفاء فى حب طفلى بعد زوجتى الراحلة، ولا يمكننى ألا أنفق على هذه المناسبة المباركة! يمكننى إقناع قلبى، لكن كيف لا أنفذ طلب زوجتى الراحلة؟! لا يمكننى الفرار من ميدان الانتخابات، وأنا أعرف أننى سأهزمه، فسورج برتاب سنج ليس ندا لى، وسوف أريه أن "راى صاحب" ليس مضغة سائغة!

- ومن الضرورى رفع دعوى فى المحكمة.

- أنا أعلق عليها كل أملى، الآن قل كيف ستساعدنى؟!

- أنت تعرف أوامر رؤسائى فى هذا الشأن، و"راجا صاحب" أحدهم، فهم يصرون على تحصيل النقود القديمة، ربما لا يمكن عمل قرض جديد!

قال "راى صاحب" بحزن:

- أتريد إغراق سفينتي يا سيد "كهنا"؟!

- كل ما عندى ملك لك، لكن في المعاملات المصرفية لا بد أن أسير وفق أوامر الرؤساء.

- لو حصلت على هذه الأملاك، ولدى أمل قوى فى هذا، فسأدفعها لك مليما مليما!

- أيمكن أن تخبرنى كم عليك من قروض الآن؟

قال "راى صاحب" خائفا:

- نصف مليون، أو أقل قليلا.

قال "كهنا" دون اكتراث:

- إما أنك قد نسيت، أو تخفى الأمر!

فرد "راى صاحب" بحدة:

- كلا، لم أنس ولا أخفى شيئا! إن أملاكى تساوى تقريبا خمسة ملايين روبية، وأملاك حماى لا تقل عن هذا؛ وقرض بمليون أو نصف مليون ليس شيئا بالنسبة لأملاكه!

- كيف تقول إنه لا توجد قروض على أملاك حماك؟!

- أنا أعلم أنه لا قروض عليها!

- بلغنى خبر أن عليه مليون روبية، فلا يمكنك أخذ قروض على هذه الأملاك! أنا أعرف أيضا أن على أملاكك قرضا لا يقل عن مليون روبية، وهذه الأملاك لا تساوى خمسة ملايين، بل مليونين ونصف المليون فقط، وفى هذه الحالة لا يمكن لأى بنك أن يقرضك. لتعلم أنك واقف على بركان من النار، وضربة واحدة ستصل بك إلى ما تحت الثرى! لا بد أن تسير بحذر فى هذا الوقت!

مد "راى صاحب" يده نحوه، وقال:

- يا صديقى، أنا أعرف هذا جيدا! لكنها مأساة الحياة، وما الحياة إلا مجرد مأساة!! ما لا يريد قلبك فعله تفعله! والآن لا بد أن تمنحنى قرضا لا يقل عن مائتى ألف روبية.

سحب "كهنا" نفسا عميقا، وقال:

- يا إلهى، مائتى ألف! غير ممكن، بالتأكيد مستحيل!

- سأقتل نفسى عند بابك، لتفهم يا "كهنا" أننى قمت بكل هذه الأمور معتمدا عليك، وإذا رفضت قد أتجرع السم! لا يمكن أن أستسلم أمام "سورج برتاب سنج"، يمكن تأجيل زواج البنت شهرين أو أربعة أشهر، كما يوجد وقت كاف لرفع الدعوى، أما الانتخابات فقد داهمتنى، وهى أكثر ما يشغل فكرى!

قال "كهنا" بحيرة:

- هل ستصرف مائتى ألف على الانتخابات؟!

- لا علاقة لهذا بالانتخابات، بل بالكرامة، فهل تعتقد أن كرامتى تقل عن مائتى ألف؟! حتى لو بعت كل أملاكى، فلن أحزن! لكن لن أدع "برتاب سنج" يفوز بسهولة.

قال "كهنا" بعد دقيقة وهو ينفث الدخان:

- لقد أوضحت لك أحوال المصرف، وقد أغلق المصرف باب التعامل، لكن سأحاول أن تحصل على معاملة خاصة. لكن التجارة تجارة، وأنت تعرف جيدا ما هى عمولتى؟ سأوصى توصية خاصة، فلرجا صاحب تأثير على الرؤساء الآخرين، وأنت تعلم كم سأتعب فى تكوين حزب مضاد له؟ بل يجب أن تعلم أن هذا القرض قد يكون على مسئوليتى الخاصة!

ظهر الحزن على وجه "راى صاحب"، فقد كان "كهنا" من أصدقائه المقربين، وكان زميلا له فى المدرسة، بل كان يجلس بجواره، هو الآن يريد أخذ عمولة، يالها من دناءة! كان منذ أيام يتملقه، فلماذا؟

إذا أثمرت حديقة، أو نضجت الخضروات فإنه يرسل أول ما يرسل إلى "كهنا"! وفى أى حفلة، أو جلسة يكون "كهنا" أول المدعوين، فهل هذا هو رد الجميل؟!

قال بحزن:

- كما تشاء، لكن كنت أعتبرك أخى!

قال "كهنا" بلهجة ممتنة:

- هذا من كرمك، وأنا أيضا كنت أعتبرك أخى الكبير، وما زلت حتى الآن. لن أضع حواجز بينى وبينك، لكن التجارة شىء وهذا شىء آخر! ففى التجارة لا يوجد صديق ولا أخ، كما لا يمكن أن أطلب منك باسم الأخوة أن تعطينى عمولة أكبر من الآخرين، وهكذا عليك ألا تصر على تقليل عمولتى، فأنا أؤكد لك أننى قد خفضت لك قدر استطاعتى. لتحضر إلى المكتب وقدم طلبا بالقرض، فتنتهى المعاملات. أسمعت شيئا؟ إن السيد "مهتا" فى هذه الأيام قد وقع فى غرام "مالتى"، وقد انتهت كل فلسفته! إنه يحضر لديها مرة أو مرتين كل يوم - هذا مؤكد - وفى أكثر الأمسيات يخرجان معا للنزهة. إن كرامتى لا تسمح لى بالذهاب عند بابها لتحيتها، ربما لأنه الآن بقربها! فى الماضى كان السيد "كهنا" هو كل عالمها! أى عمل تسرع لكهنا، عندما تحتاج النقود ترسل ورقة لكهنا، والآن تشيح بوجهها عنى! كنت قد أرسلت إلى فرنسا، حيث أحضرت لها ساعة مخصوصة، وقد ذهبت لديها بشوق كبير لكنها رفضت أخذها! وبالأمس أرسلت إليها هدية من الفاكهة التى أحضرتها من كشمير فأعادتها! أنا متعجب كيف يتغير الإنسان بهذه السرعة؟!

كان "راى صاحب" فى غاية السرور فى داخله على إهانته، لكنه نظر إليه بحزن، وقال:

- لو وقعت فى حب "مهتا"، فلا يوجد سبب لقطع علاقتهما!

قال "كهنا" بحزن:

- هذا هو ما يؤلمنى يا أخى! كنت أعرف منذ البداية أنها لن تقع فى يدى، أصدقك القول فأنا لن أخدع نفسى وأقول إنها تحبنى، لم تكن غايتى الحصول على شىء من الحب منها، لكن كنت فقط أحب جمالها ورغم معرفتى بهذا كنت أسقيها الحليب! الببغاء هو أكثر الطيور دناءة، لكن الناس يحتفظون به لشكله وصوته، ويضعونه فى قفص ذهبى، وكانت "مالتى" بالنسبة لى كالببغاء! آسف لأننى لم أنتبه منذ البداية، لقد أنفقت عليها آلاف الروبيات يا أخى! عندما كان خطابها يصلنى كنت أرسل النقود على الفور، حتى اليوم كانت تركب عربتى، لقد دمرت بيتى من أجلها، يا أخى! لقد روت عصارة قلبى أرضا بورا، فجفت الحديقة الموجودة على الجانب الآخر! منذ سنتين وأنا لم أحدث "جوبندى" بقلب مفتوح، وكانت كل خدماتها، وحبها وتضحيتها تصيبنى بالغثيان، كمريض لا يقدر على هضم الحلوى! "مالتى" تلاعبنى كصاحب القرد، وكنت أرقص بسعادة! كانت تهيننى، فأضحك مسرورا! وكانت تأمرنى، فأخفض رأسى! إنها لا تكلمنى بطريقة لائقة، أنا أعلم هذا! لم تكن تحترمنى كفاية، وهذه حقيقة! ومع كل هذا كنت أمنحها روحى مقابل لمعان وجهها كالفراشة. الآن هى عاجزة عن معاملتى بمروءة، لكن يا سيدى!

إن "كهنا" ليس هذا الرجل الذى يقف مكتوف اليدين، ففواتيرها لدى، وسأحصل منها على كل مليم، وسأطرد الدكتور "مهتا" من لكنهؤ، لن يتمكن من الحياة هنا....

فى هذه اللحظة دق جرس الباب، وفى لمح البصر كان السيد "مهتا" قد حضر ووقف، كان أبيض اللون ذا صحة جيدة تنعكس على وجهه، وكان يرتدى قميصا طويلا وسروالا من لكهنؤ، ونظارات ذهبية؛ كان كأنه إله للشرق، وقف "كهنا" وصافحه:

– تفضل يا سيد "مهتا"، كنت أتحدث عنك.

صافح "مهتا" صديقيه، وقال:

– يالها من ساعة مباركة التى خرجت فيها من المنزل لأقابل صديقى فى مكان واحد! لا بد أنك قرأت فى الصحف أنهم يفكرون فى إقامة ناد للنساء، وستكون الآنسة "مالتى" رئيسا له، وسيصرف على إنشائه مائتى ألف روبية؛ إنه ضرورى جدا للمدينة، وأنتم تعلمون هذا أكثر منى! أرغب أن تكونا على رأس قائمة المتبرعين، كانت الآنسة "مالتى" ستحضر بنفسها لكن والدها شعر اليوم بوعكة ولذا لم تستطع المجىء.

وضع القائمة فى يد "راى صاحب"، كان أول اسم هو: "راجا سورج برتاب سنج" وأمامه خمسة آلاف روبية، وبعده اسم "كنور دج وجى سنج" ثلاثة آلاف روبية، وبعدهما كان هناك مثلهما أو أقل قليلا، كانت "مالتى" قد دفعت خمسمائة روبية، والدكتور "مهتا" ألف.

قال "راى صاحب" بخجل:

– لقد جمعت حوالى أربعين ألف روبية!

قال "مهتا" بفخر:

– هذا كله من كرمكم، وهو نتيجة مجهود ثلاث ساعات فقط! ربما لم يدفع "راجا سورج برتاب سنج" تبرعا للأعمال الترفيهية من قبل، لكنه اليوم أعطانى شيكا دون أن ينبس ببنت شفة! هناك صحوة فى البلاد، والناس على استعداد للمساعدة في أى عمل من أعمال الخير! يريدون التأكد فقط من أنها ستستخدم في عمل حقيقى! أنا أعلق أملا كبيرا عليك يا سيد "كهنا".

قال "كهنا" بلا حياء:

– أنا لا أهتم بمثل هذه الأعمال الترفيهية، إلى أى مدى تسيرون في عبودية الغرب؟! لقد صارت النساء تنفر من الأعمال المنزلية، واستولى على فكرهن ممارسة الرياضة، ولا يعدن يفعلن شيئا! وعندما تعمل المرأة في المنزل لن تحتاج إلى الرياضة، ومن لا تعمل فى المنزل وتغرق فى المتع والراحة فأنا أعتقد أن التبرع لرياضتها أمر مخالف للدين!

لم ييأس "مهتا":

– فى هذه الحالة لن أطلب منك شيئا! إذا كنت غير مقتنع بالتبرع فهو بالتأكيد مخالف للدين، ألا توافق السيد "كهنا" يا "راى صاحب"؟!

فكر "راى صاحب" مليا، إن خمسة آلاف روبية من "سورج برتاب سنج" قد تثبط عزيمته، فجأة قال:

– أقلت شيئا؟!

– قلت أتعتبر التبرع لذلك النادى مخالفًا للدين؟

– أى عمل تشارك أنت فيه لا أبالى إن كان مخالفا للدين أم لا.

– أريدك أن تمعن التفكير، وإذا كنت تعتقد أنه أمر مفيد للمجتمع فلتتبرع له.

– أنا معجب بطريقة تفكير السيد "كهنا" للغاية.

قال "كهنا":

– أنا أقول الحقيقة دائما، لهذا ساءت سمعتى!

قال "راى صاحب" بابتسامة خفيفة:

– أنا عاجز عن التفكير! فأنا أعتقد أن الدين هو السير على منوال الإله شرما.

– لتكتب تبرعا جيدا.

– حدد المبلغ، فأكتب.

– كما تشاء!

– حدد المبلغ، وسأكتبه!

- لا تكتب أقل من ألفى روبية!

قال "راى صاحب" بلهجة مجروحة:

- أهذه منزلتى عندك؟!

- أمسك بالقلم واكتب أمام اسمه خمسة آلاف روبية.

أخذ "مهتا" القائمة من يده، لكنه شعر بالأسى حتى إنه نسى أن يشكر "راى صاحب"! فقد أخطأ لأنه أراه قائمة المتبرعين، وهذا التفكير يحزنه!

نظر السيد "كهنا" نحوه بنظرة عطف، وقال:

- يالك من غبى!

فجأة احتضن "مهتا" "راى صاحب"، وقال بقوة:

- لنصفق لراى صاحب، أطال الإله عمره!

فقال "كهنا" بخجل:

- إن هؤلاء الناس من الملوك، إذا لم يتبرعوا لهذه الأعمال فمن سيتبرع؟!

قال "مهتا":

- أنا أعتقد أنك ملك الملوك، تأمرهم وهم خاضعون!

قال "راى صاحب" بسرور:

- لقد قلت كلاما كبيرا يا سيد "مهتا"، الملوك الحقيقيون هم أصحاب المصارف!

تملّق "مهتا" "كهنا":

- أنا لا أنتقدك يا سيد "كهنا"! وإذا لم ترد التبرع لهذا العمل فلا بأس فى ذلك! لكن فى يوم من الأيام ستشترك بالتأكيد، إن حركتنا الكبيرة تسير بأموال الأغنياء، من الذى جعل الثورة الوطنية تصمد سنتين أو ثلاث؟ من الذى ينشئ ملاجئ الأيتام، ونزل الفقراء؟ أصحاب المصارف هم الذين يتحكمون فى العالم اليوم، والحكومات ألعوبة فى أيديهم. أنا لم أيأس منك حتى الآن! فالتبرع بألفين أو أربعة آلاف روبية أمر بسيط بالنسبة لمن دخل السجن من أجل وطنه! وقد تشاورنا فى أن تضع السيدة "جوبندى" حجر أساس هذا المشروع، وسنسرع معًا للقاء المحافظ وأنا على يقين أنه سيحضر لمساعدتنا. إن السيدة "ويلسون" تحب الحركات النسائية كثيرا، وأنت على علم بأن "راجا صاحب" وغيره كانوا يريدون أن تقوم السيدة "ويلسون" بوضع حجر الأساس، لكن فى النهاية اتفقنا أن تضعه أختنا فى هذا العمل الجيد. فأقل ما تفعله هو حضور هذه الجلسة.

قال "كهنا" ساخرا:

- حسنا! عندما يصل اللورد "ويلسون" من الضرورى أن أحضر، وهكذا يقع الكثير من الأغنياء فى شباكك! أنتم تؤمنون بهذه الأشياء، وذلك ما يليق برئيسنا، أنتم تجعلون منهم حمقى ثم تسرقونهم!

- عندما تزيد النقود عن حاجته يبحث عن طريق لإنفاقها، وإلا ستنفق على لعب القمار، أو سباق الخيل، أو ستذهب على الطوب والحجر، أو في المجون!

كانت الساعة الحادية عشرة، وقد حان موعد ذهاب السيد "كهنا" إلى مكتبه، فرحل "مهتا"، ووقف "راى صاحب" أيضا، لكن السيد "كهنا" أمسك بيده، وقال:

- كلا! اجلس قليلا، كما ترى فإن السيد "مهتا" قد أوقعني في شبكة لا أجد سبيلا للنجاة منها! فهو يريد من "جويندى" أن تضع حجر الأساس، في هذه الحالة فإن وجودى سيثير السخرية أليس كذلك؟! كيف وافقت "جويندى" على هذا؟! لا أفهم هذا الأمر! وكيف تحملت "مالتى" ذلك؟ هذه مشكلة أخرى! أتعتقد أن هناك سرا في هذا؟!

قال "راى صاحب" بصداقة:

- لا بد للمرأة من استشارة الزوج في مثل هذه الأمور.

نظر "كهنا" إلى "راى صاحب" بعيون ممتنة، وقال:

- هذه الأشياء تثير حنقي على "جويندى"، ولذلك يعتقد الناس أنني سيئ! لكن قل لي ما علاقتي بهذ الخصومة؟ إنما ينفق على تلك الأشياء من لديه نقود، ووقت زائد، ومهووس بالشهرة! ما يحدث هو أن اثنين أو أربعة من السكرتارية، أو ما تحت السكرتارية، أو الرئيس ونائب رئيس

الجمعية يدعون الحكام، حيث يمجدونهم، ويتلذذون بجمع فتيات الجامعات؛ الرياضة مجرد حجة لرؤيتهم، ويجعلون منا نحن الأثرياء حمقى! وكل هذا بسبب "جويندى"!

نهض من على الكرسى فجأة، ثم جلس؛ كان غضبه من "جويندى" يزيد، وضع يده على رأسه، وقال:

– لا أعرف ماذا أفعل؟!

وافقه "راى صاحب" على رأيه:

– لا شيء! اطلب من السيدة "جويندى" بوضوح أن تكتب خطابا لمهتا ترفض فيه المشاركة، وهكذا تتخلص منه. لقد وقعت هى فى حيلة تمجيد الذات، فلم تقع أنت أيضا؟!

قال "كهنا" بعد أن أمعن التفكير في اقتراحه لوهلة:

– لكننى أعتقد أن هناك مشكلة كبيرة! لقد أتى على ذكر السيدة "ويلسون"، وسينتشر الخبر فى المدينة كلها، وربما سينشر فى صحف اليوم أيضا! هذا كله من فعل "مالتى"، هى التى فكرت فى هذه الطريقة لتصيبنى بالهم!

– نعم هذا معروف!

– تريد إذلالى!

– لتغادر المدينة قبل وضع حجر الأساس بيوم.

– لا يمكن! فعندها لن أتمكن من أن أُرى وجهى لأحد فى أى مكان. حتى لو أصابنى إسهال فلا بد أن أذهب فى ذلك اليوم!

خرج "راى صاحب" على وعد بالحضور فى الغد، دخل "كهنا" إلى المنزل، وبدأ فى استجواب "جوبندى":

– لماذا وافقت على وضع حجر أساس النادى الرياضى؟!

كيف تخبره "جوبندى" أن هذا التشريف قد أسعدها للغاية، حتى إنها بدأت تكتب خطبة فى هذا الشأن، كما نظمت شعرا حماسيا! وقد ظنت أن الموافقة على هذا الاقتراح سيسعد "كهنا"، فشرفها من شرف زوجها! كيف يمكن أن يعترض "كهنا"؟ لم يخطر لها ذلك على بال، كما أن جرأتها قد زادت بسبب كرم زوجها معها منذ عدة أيام، وكانت تحلم أن يتحمس الناس لكلمتها ونظمها.

عندما سمعت هذا السؤال، ورأت حال "كهنا" بدأ قلبها يدق، ردت كأنها مذنبة:

– لقد أصّر الدكتور "مهتا"، فوافقت.

– لو طلب منك الدكتور "مهتا" أن تلقى بنفسك فى البحر ربما ما كنتِ استعددت بمثل هذا السرور!

فلم تحر "جوبندى" جوابا!

– إذا كان إيشور(١) لم يمنحكِ عقلا، فلم لا تسألين؟ لقد أوقعك "مهتا" و"مالتى" فى هذه الشبكة كى يسرقوا منى ألفين أو أربعة آلاف روبية! وقد قررت أن لا أعطيهم مليما واحدا، وستكتبين اليوم خطاب اعتذار إلى "مهتا".

فكرت "جويندى" للحظة، وقالت:

– اكتبه أنت.

– لم أكتبه؟ أنتِ وافقت، وأنتِ تكتبين!

– وعندما يسألنى الدكتور "مهتا" عن سبب الاعتذار، ماذا أقول؟!

– قولى: ألديكِ عقل أم ماذا؟! لا أريد التبرع لجمعية الراحة هذه!

– من طلب منك أن تتبرع؟!

عضّ "كهنا" على شفتيه، وقال:

– كيف تتحدثين كالحمقى هكذا! تضعين حجر الأساس ولا تتبرعين، ماذا سيقول الناس؟!

قالت "جويندى" وكأن سكين "كهنا" على رقبتها:

– حسنا، سأكتب!

---

(١) هو الإله الواحد عند الهندوك.

– لا بد أن تكتبى اليوم!

– قلت سأكتب!

مضى "كهنا"، ويبدأ يطالع البريد؛ فعندما كان يتأخر فى الذهاب إلى مكتبه كان الساعى يحضر البريد إلى منزله. لقد زاد سعر السكر، فأشرق وجه "كهنا". فتح خطابا آخر: الجمعية التى أنشئت لتحديد سعر السكر، ليس لها حق فى ذلك! تبا لهذا! لقد ذكروا هذا من قبل، لكن هاهو "جنهوترى" الذى أصر على بناء الجمعية قد أخذ الصفعة على وجهه، إن تحديد سعر السكر مسألة تخص أصحاب المصانع والفلاحين، فهل من حق الحكومة التدخل فيه؟!

فجأة نزلت "مالتى" من سيارتها: وجهها متفتح كزهرة اللوتس، لامع كالمصباح مسرورة كأنها تمثال للحبور، لا يخالجها خوف أو فكر كأنها تعتقد أن باب الراحة والعزة مفتوح لها فى هذه الدنيا! رحب بها "كهنا"، وأدخلها إلى الصحن.

سألت "مالتى":

– أحضر "مهتا" إلى هنا؟

– نعم، لقد حضر.

– أذكر إلى أين سيذهب؟

– لم يقل شيئا!

– لا أعرف أين اختفي؟! لقد بحثت عنه فى كل مكان! بكم تبرعت للنادى الرياضى؟

رد "كهنا" كمذنب:

– أنا لا أفهم فى هذه الأشياء!

نظرت "مالتى" نحوه بحدة، وعيون واسعة؛ كأنها تفكر أترحمه أم تغضب عليه، فقالت:

– هل هذا أمر يحتاج إلى فهم؟ افهم فيما بعد، هذا وقت الدفع! لقد أحضرت "مهتا" إلى هنا مكرها؛ فالمسكين كان خائفا من ردك، لا أعرف ماذا ستكون نتيجة بخلك؟ هل تعرف؟ التجار هنا لن يدفعوا شيئا، ربما تريد إذلالى! فقد اتفقوا على أن تضع السيدة "ويلسون" حجر الأساس، لكننى وقفت بجانب السيدة "جوبندى"، وجعلت الجميع يوافق بعد مشاحنات، والآن تزعم أنك لا تفهم فى هذا الأمر حتى الآن؟! أنت تفهم فى معاملات المصارف، وتعجز عن فهم هذا الكلام البسيط؟! إن هدفك فقط هو إذلالى وليس شيئا آخر! حسنا، إذا كان هذا ما تريده!

احمر وجه "مالتى"، فارتعش "كهنا" وذهب كل غروره! ومع هذا كان يعلم أنه لو سقط على الأشواك فستقع "مالتى" مثله، لو حدثت مشكلة تخص النقود فإنها تؤثر على كرامة "مالتى"، التى هى أثمن من النقود! لم لا يشعر بالسعادة من حالة "مالتى" هذه؟! لقد أوقعها فى مشكلة،

لكنه عاجز عن إغضابها، ولا يريد اضاعة الفرصة دون أن يسمعها كلمتين، ويريها أنه ليس أحمق على الإطلاق! وقف فى طريقها، وقال:

- ما الذى جعلك تتكرمين على يا "مالتى"؟ إن هذا يصيبنى بالحيرة!

رفعت "مالتى" حاجبيها، وقالت:

- لم أفهم قصدك!

- هل تعاملينني الآن مثلما كنت تعاملينني فى الماضى؟!

- أنا لا أرى فرقا!

- لكن أنا أرى أن الفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض!

- حسنا، وإن كان ظنك فى محله؟! لقد جئت أطلب مساعدتك فى عمل الخير، لم أحضر لاختبارك! وإذا كنت تعتقد أنك ستجنى من التبرع شيئا غير حسن السمعة والشهرة والامتنان فهذا ظنك وحدك!

انهزم "كهنا"، كأنه قد سقط فى مكان ضيق، بحيث عجز عن الحركة يمينا أو شمالا! أيمكن أن يتجرأ ويخبرها: لقد أنفقت عليك آلاف الروبيات، فهل هذا هو جوابك؟! ظهر الخجل على وجهه كأنه انكمش، وقال بخجل:

- هذا ليس ما قصدته يا "مالتى"، لقد أخطأت فهمى!

قالت "مالتى" ضاحكة:

- أحمد الإله، لقد فهمت خطأ؛ لأنه إذا كان ما فهمته صحيحا فسأختفى حتى من خيالك! وأنت واحد من الطامعين فيّ، وكان كرما منى أن أقبل شاكرة هداياك حتى الصغيرة منها، فى الوقت الذى كنت أرفض فيه تحف الآخرين! كنت أطلب منك النقود عندما أحتاجها، لكن إذا جعلتك نشوة النقود تفكر فى شىء آخر فسأسامحك لأن هذه هى عادة الرجال، وأنت لست استثناء من الرجال! لكن اعلم أن هذه النقود لم تفتح قلب المرأة يوما، ولن تفتحه!

كان "كهنا" كأنه يغوص مترا تحت الأرض مع كل كلمة، لم يستطع أن يصبر لسماع المزيد فقال بخجل:

- "مالتى"! سأسقط عند قدميك، لا تذلينى أكثر من هذا، ولترضى ببقاء صداقتنا.

قال هذا، وأخرج من درج المكتب دفتر الشيكات، وكتب شيكا بألف روبية وقدمه لمالتى بخوف، أخذت "مالتى" الشيك، وقالت بسخرية لاذعة:

- أهذا ثمن صداقتى، أم من أجل النادى الرياضى؟

قال "كهنا" باكيا:

- ارحمينى يا "مالتى"! لم تلطخين وجهى بالعار؟!

ضحكت "مالتى" بقوة، وقالت:

- أرأيت؟ عندما زجرتك أخذت ألف روبية، ألن تقترف الإثم؟!

- أبدا، طوال العمر!

– سأؤدبك.

– سأشد أذني، لكن لترحميني، وتذهبي! دعيني وحدي، حتى أجلس أفكر وأبكي؛ لقد حولت اليوم سعادة حياتي....

ضحكت "مالتي" بقوة:

– انظر يا "كهنا"، أنت تهينني بشدة! وأنت تعلم أن الجمال لا يمكنه تحمل الإهانة! لقد صنعت فيك خيرا وأنت تعتبره شرا.

نظر "كهنا" إليها نظرة احتجاج، وقال:

– أصنعت فيَّ خيرا، أم قطعتِ عنقي بسكين بارد؟!

– أنت تعتقد أني أملأ بيتي بسرقتك، وقد نجوت من هذه السرقة الآن!

– لماذا تضعين الملح على الجرح يا "مالتي"؟! أنا أيضا إنسان!

نظرت "مالتي" إلى "كهنا" تريد التأكد أهو إنسان أم لا؟ ثم قالت:

– لا أجد دليلا على ذلك!

– أنت معقدة تماما! اليوم تأكدت من هذا.

– نعم أنا معقدة بالنسبة إليك، وسأكون معقدة دائما!

قالت هذا وطارت كالعصفورة، ووضع "كهنا" يده على رأسه وكان يفكر: أهذا تظاهر فقط، أم هو وجهها الحقيقي؟!

الفصل الثالث والعشرون

بعد ذهاب "جوبر" و"جهنيا"، خيّم الوجوم على المنزل؛ كانت "دهنيا" تذكر "منو" دائما، فبالرغم من أن "جهنيا" هى والدة الطفل فإن "دهنيا" هى التى قامت على تربيته فكانت تدهنه، وتكحله، وتضعه على الفراش وعندما تفرغ من العمل تلاعبه، كان حبه وتدليله ينسيانها متاعبها، فبمجرد أن ترى وجهه البرىء حتى تنسى كل أفكارها ويمتلئ قلبها بالحب والفخر، وقد ضاع هذا الشىء من حياتها! فبمجرد أن ترى رؤية سريره الخالى تبدأ فى البكاء، كان بالنسبة إليها تعويذة لإبعاد الآلام والقلق. كانت تفكر فى علاقتيهما، ما الذى أساءت به لجهنيا حتى تلقى منها هذا الجزاء؟! لقد حضرت هذه الشيطانة ودمرت منزلها الذهبى، "جوبر" كذلك لا يرد لها كلمة! هذه الأرملة هى السبب فى انفصالهم، ولا أعلم ما الذى ستجره عليه هناك. إنها لا تلقى بالا للطفل، فهى تتزين فى كل وقت فكيف سترعى الطفل؟ لا بد أن المسكين يجلس على الأرض ويبكى، لن يعرف الراحة ولو ليوم واحد! أحيانا يصاب بالكحة وأحيانا بالإسهال وغير ذلك، وعندما تفكر فى هذا يزداد حنقها على "جهنيا". مازال حب الأم فيها باقيا لجوبر حتى الآن، لكن هذه الشيطانة سحرت له، وجعلته فى قبضتها،

وإذا لم تكن ساحرة فلماذا صار مسحورا؟! لا أحد يسأل عنها، كانت تتلقى الركلات من زوجات أخويها، وقد وجدت هذا الأحمق فأصبحت اليوم ملكة!

قال "هورى" غاضبا:

- تتحدثين عن "جهنيا" بالسوء فى كل وقت، وأنت لا تفهمين أن الصائغ لا ذنب له إذا كان الذهب مقلدا؟! إذا لم يأخذها "جوبر" معه، فكيف تذهب لوحدها؟ لقد غيرته أجواء المدينة، لم لا تفهمين هذا؟!

نهضت "دهنيا" صارخة:

- حسنا، لتصمت! أنت الذى رفعت من قدرها، وإلا كنت سأطردها من أول يوم بضرب المكنسة!

كانت الغلة قد جمعت فى المخزن، فكانت ثيران "هورى" تستخرج القمح من أعواده، قال وهو يشيح بوجه:

- حتى إن كانت هى من أبعد "جوبر" عنا، فلماذا تكرهينها إلى هذه الدرجة؟! ما يحدث فى الدنيا كلها هو من صنع "جوبر"، لديه أهل وعيال فلم يفكر فى أبنائنا، ويوقع نفسه فى المصائب؟ لماذا ترجعين لها كل مصائبك؟!

- أنت السبب فى هذا كله!

- اخرجى وخذى الثيران، وأخرجى القمح من أعواده، وسأجلس وأدخن.

- لتذهب وتطحن، وسأستخرج القمح.

ذهب الحزن مع هذا المزاح، هذا هو علاج الداء! كانت "دهنيا" تمشط لروبا شعرها المشعث، وهي تشعر بالسرور، أما "هوري" فقد ذهب إلى المخزن. كان فصل الربيع ينشر عطره ومناظره الخلابة، وكان العندليب يغرد بين أغصان المانجو بصوت جميل مؤثر، يوقظ الأماني النائمة. كان الكثير من اليمام قد عشش على شجر المهوا، وكانت أشجار النيم، والخردل والكرونده تنشر رائحتها المسكرة. وصل "هوري" إلى حديقة المانجو، وكان يرى النجوم بين أغصانها، فزاد همه وحزنه، وغرق في هذا المشهد الجميل الخلاب، حتى إنه بدأ يغني:

قلبي يحترق ويعيش كل يوم

لكني لا أشعر بالراحة والعندليب يغرد بين أغصان المانجو!

مرت "دلاري" من أمامه وقد ارتدت ساريا ورديا، وفي قدمها خلخال ذهبي، وتتقلد عقداً ذهبيا ثقيلا غاليا، ورغم شحوب وجهها فإن في قلبها طراوة! كان "هوري" منذ زمن طويل يغازلها في مخازن الحقل، كانت بالنسبة إليه كزوجة أخيه وهو كأخي زوجها، وكانا يمزحان على هذه العلاقة في بعض الأحيان. عندما مات "سيته جي"، تركت "دلاري" المنزل، وأصبحت تجلس في دكانها دائما، وتعرف أخبار القرية كلها؛ إذا تشاجر أحد تذهب للإصلاح، ولا تقرض أحدا بفائدة ستة قروش على الروبية، لكنها لا تأخذ رأس المال طمعا في الفوائد، لكن الفوائد كانت محددة، فكيف تحصلها المسكينة؟! كيف تقوم بعمل محضر وهي لا تملك

إلا قوة لسانها! ومع تقدمها فى السن زادت حدة لسانها وقوتها، وأصبح الناس الآن يضحكون على سبابها، ويقولون مازحين:

- ماذا ستفعلين بالنقود يا عمتى؟ أنتِ لن تأخذى مليما إلى القبر، لتعطيها الفقراء، فيدعون لك، وهو ما ينفع فى الجنة!

كانت "دلارى" تغضب من ذكر الموت.

قال "هورى" يعاكسها:

- اليوم قد أصبحت شابة حقا، يا زوجة أخى!

قالت "سيتهانى" بسرور:

- اليوم هو الثلاثاء، لا تصوب نظرك نحوى، ولهذا لا ألبس أو أتحلى بشىء، فعندما أخرج من المنزل يحدق بى الجميع كأنهم لم يتزوجوا قط! حتى "بتيشورى لالا" يعود إلى عادته القديمة عندما يرانى!

توقف "هورى"، لأنها قد أثارت موضوعا جميلا! خرجت الثيران وسارت، فقال:

- لقد أصبح اليوم من المتدينين، ألا تعلمين أنه يسمع الكتاب المقدس فى كل پورنما، ويذهب إلى المعبد صباحا ومساء للتعبد؟!

- كل من كانت أخلاقه سيئة يتدين حين يتقدم به السن، ثم يصبح شيخا متدينًا، فلا بد له من التوبة عن أعمال السوء! اسأله: لقد صرت عجوزا فكيف به يغازلنى حتى الآن؟!

– كيف صرت عجوزا يا زوجة أخى؟! أنا أعتقد أنكِ مازلت حتى الآن....

– حسنا، لتصمت! وإلا سأمطرك بوابل من السباب! يكسب ابنك فى المدينة ولم تطعمنى الحلوى! وتريد أن تجعلنى زوجة أخيك بالمجان!

– أقسم لكِ يا زوجة أخى إننى لم آخذ مليما من مكسبه، لا أعرف ما الذى أحضره ولا أين أنفقه، لا أعلم شيئا! كل ما أخذته اللباس الدهوتى وكوفية واحدة.

– حسنا، لقد بدأ يكسب، وإذا لم يفعل اليوم ففى الغد سيتحمل عبء المسؤولية! الإله سيحفظه، لتعطينى نقودى لأن الفائدة ستزيد.

– سأدفع لك كل مليم يا زوجة أخى بمجرد أن تأتى النقود فى يدى، لن أهضم حقك فنحن منكِ ولسنا غرباء!

لم تستطيع "سيتهانى" أن تقول شيئا بعد هذا التملق، فابتسمت وذهبت فى طريقها. هرع "هورى" نحو الثيران حتى وصل عندها، وبدأ يفصل القمح عن الأعواد، كانت كل القرية فى هذا المخزن؛ حيث كانوا يفصلون القمح عن الأعواد وينخلونها وبعضهم كان يزنها. جاء الحلاق، والغسال، والنجار، والحداد، والعلماء الهندوك، والفقراء جميعا لأخذ حقوقهم. كان "جهنكرى سنج" قد جلس على السرير تحت الشجرة وأخذ يحصل نسبته، وكان العديد من البقالين يفاصل فى ثمن الغلة، كان المخزن قد أصبح سوقا، كان أحد الباعة يبيع البرقوق والحرنكش،

وأحد الباعة الجائلين يبيع العصير وحلوى جاليبى(١). حضر "بندت داتادين" هو الآخر لأخذ نصيبه من غلة "هورى"، وجلس مع "جهنجرى سنج"، قال "داتادين" وهو يطحن التبغ:

– أسمعت أن الحكومة تقول هى الأخرى أنها ستقلل الفائدة، وإلا لن تربح القضية؟!

دخن "جهنجرى سنج" التبغ، وقال:

– "بندت"! أنا لا أعلم إلا شيئا واحد، فعندما يحتاجون سيسعون للاقتراض مائة مرة، وعندها نأخذ فوائد كما نريد. وإذا أقرضت الحكومة الفلاحين فهذا لن يضرنا، سنكتب كما تقول الحكومة، لكننا نأخذ خمسة وعشرين فى المائة مقدما فوائد على المائة، فماذا يمكن للحكومة أن تفعل؟!

– هذا صحيح، لكن الحكومة تعلم هذا الكلام جيدا، وتعرف كيف تمنعه. سترى!

– لا يمكنها منعه.

– حسنا، لو فرضت الحكومة وجود صك، ولا يعترف به إلا بتوقيع العمدة، فماذا ستفعل؟!

– لو احتاج الفلاح فسيحضر مائة مرة ومعه عمدة القرية، وسيشهد على ما نريد فيقترض بفائدة خمس وعشرين فى المائة.

---

(١) حلوى تشبه المشبَّك الدمياطى، وتُصنَّع غالبا فى الأعياد القومية.

– ولو وقعت فى قبضة الحكومة بتهمة الغش فى الحساب، ستسجن أربعة عشر عاما!

ضحك "جهنجرى سنج" بقوة:

– ماذا تقول يا "بندت"! هل ستتبدل الدنيا؟ القانون والمحكمة تحت أمر الأغنياء، وقد وُضع القانون حتى لا يتشاجر المرابون مع الفلاحين، ولا الإقطاعيون مع العمال! لكن ماذا يحدث على أرض الواقع، تشاهد كل يوم الإقطاعى يربط العامل المسكين ويضربه، والمرابى لا يتكلم إلا بركل حذائه، لكن الإقطاعى والمرابى لا يُكرِهان، ويضغطان على أعناق الآخرين بمساعدتهم! أنت مدين بخمسمائة روبية لراى صاحب، لكن هل يستطيع "نوكهى رام" أن يقول شيئا عنك؟ كلا! لأنه يعلم أن مصلحته فى صداقتك. من من العمال يمكنه الذهاب إلى المحكمة؟! لو فعل فسيضيع كل ما يملكه، وسيسير الأمر كما كان! فالمحكمة والنيابة لمن يملك النقود، وليس علينا أن نخشى شيئا من هذا الكلام!

قال هذا ودار حول المخزن، ثم عاد وجلس على السرير وقال:

– حسنا! ما الذى حدث لزواج "متّى"؟ رأيى أن تزوجه، فلقد ساءت سمعته!

كان هذا الكلام كأنه دبور قد لدغ "داتادين"، ماذا يريد بحديثه هذا؟ هو يعرف جيدا، فقال بحدة:

- من أراد الحديث عن ابنى فى غيابى فليفعل، لو تكلم أحد أمامى فسأنتف شواربه! ليكن أحدهم مثلى أولا، فما أكثر من أعرفهم ولم يتعبدوا ولن يتعبدوا أبدا! لا علاقة لهم بالدين، لا يعرفون إنفاق النقود، ولا يحضرون الجلسة الدينية! ومن يقول إنه برهمى، كيف يضحك علينا؟! أنا لم أدع شيئا من هذه الصفات طوال عمرى؛ فلم أشرب شربة ماء قبل الاستحمام والعبادة، الامتناع عن أكل طعام السوق صعب فهل زعم أحد أننى تناولت طعاما من السوق، أو شربت الماء من يد أحد ومن يزعم ذلك أكون أسيرا له! إن "سيليا" لم تطأ قدمها الباب حتى الآن، ولم تمس شيئا من متاع المنزل. أنا لا أقول أن "متّى" يفعل أمرا جيدا، فقط قد خالف أمر الدين ويجب عليه ترك المرأة! أنا أتحدث بصراحة، ولا أخفى شيئا! إن المرأة مباركة.

كان "داتادين" فى شبابه ماجنا كبيرا، لكنه لم يترك تدينه مطلقا! وكان "ماتادين" يسير على منواله؛ الجزء الأصلى من الدين هو العبادة، وحضور المجالس الدينية، وإطعام الناس فى المناسبات الدينية، وإذا كان الأب وابنه متمسكين بأصل الدين، فمن يستطيع القول إنهما غير متدينين؟!

قال "جهنجرى سنج":

- لقد أخبرتك بما سمعته!

قدّم "داتادين" قائمة طويلة عن براهمة فى المهابهارت والبران(٢) تزوجوا من فتيات من طبقات أخرى، ومع هذا فمن الثابت أن أبناءهم قد أصبحوا براهمة، والبراهمة الموجودون اليوم هم أحفادهم، هذا تقليد شائع جيلا بعد آخر وليس فيه ما يخجل!

قال "جهنجرى سنج"، وهو سعيد بقدراته:

– لم يدعِ أحد اليوم أنهم من باجبى وشكل(٣).

– لقد شاع هذا مع الوقت ليس إلا، أيملك أحد القدرة التى يحمى بها من أكل السُّم، إن هذا الكلام قد عفى عليه الزمن! وقد مرّ الوقت، وأصبحت الحياة تسير الآن بمصالحة القوم! لكن ماذا أفعل وأهل الفتاة لم يحضروا؟ لقد ذكرت هذا لك ولغيرك، لكن أحدا لا يسمع فماذا أفعل؟! هل سأقوم أنا بصنع فتاة ليتزوجها؟!

زجره "جهنجرى سنج":

– لا تكذب يا "بندت"! لقد أحضرت لك رجلين، لكنك بدأت تطلب منهما المال ففراً. لماذا تطلب خمسمائة روبية أو ألفا، وعشرة فدادين؟ التسول هو كل ما تملكه!

---

(٢) من كتب الهنادكة الدينية القديمة.

(٣) اسماء طبقات من البراهمة، الطبقة الأولى من طبقات الديانة الهندوكية الأربع.

أصيب كبرياء "داتادين"، فمسح بيده على لحيته، وقال:

- لا أملك شيئا، وأنا أتسول! لكن عندما زوجت بناتى دفعت لكل واحدة خمسمائة روبية، فلم لا أطلب لابنى مثلها؟! لو كان هناك من تزوج ابنتى بالمجان لزوجته ابنى بالمجان! إنها مكانتى وقدرى، وأنت تعتبرها شحاذة! أنا أراها إقطاعية، بنك! وحتى إن انهارت الإقطاعية، وتحطم البنك فستبقى النقود عندى الأصل إلى النهاية! البابهن يعيش حيث يوجد الهندوك، وتبقى إقطاعيته! أنا آخذ فى الخطبة مائة أو مائتى روبية وأنا أجلس مرتاحا فى المنزل، وأحيانا أكون سعيد الحظ وأكسب أربعمائة أو خمسمائة روبية، فوق ذلك هناك الملابس، والأوانى والطعام فالمال موجود أينما ذهبت! وإذا لم نجد نقودا فأقل شىء هو أن نأخذ الهدايا، أو اثنى عشر قرشا أو أربعة وعشرين. هذه الراحة لا تتوفر عند الإقطاعيين والمرابين، و"سيليا" تعمل عندى، لو كانت زوجة ابنى لما فعلت شيئا، لأنها ستكون جالسة فى المنزل كعروس، ولا تصنع شيئا إلا الخبز! و"سيليا" تقوم بعمل ثلاثة أشخاص لوحدها، ولا أعطيها سوى الخبز، ماذا غيره؟! وأكثر ما أمن عليها به هو الثياب.

تحت شجرة أخرى كان مخزن "داتادين" الخاص، حيث يعمل فيه أربعة ثيران. كان "دهنّا" المنبوذ يحرث بالثيران، و"سيليا" تخرج الغلة ثم تفصلها عن الأعواد، وكان "ماتادين" يجلس فى الناحية الأخرى ويمسح عصاه بالزيت.

كانت "سيليا" سمراء، ممشوقة القوام، ليست جميلة لكنها جذابة، كان في ضحكاتها، وعيونها وكل حركاتها جنون الفرح، كأن كل أعضائها ترقص! كان القش يغطيها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، والعرق يسيل منها، وظهر نصف شعرها، كانت تفصل القمح بسرعة كأن هناك شيئا في نفسها وقلبها يشعلها!

قال "مادانين":

– لن تبقى غلة حتى مساء اليوم، لو تعبت يا "سيليا" فسأكمل أنا.

قالت "سيليا" بسعادة:

– لماذا تكملها أنت يا "بندت"؟ سأنهيها كلها حتى المساء!

– حسنا! أنا سأحمل الغلة وأنقلها، كيف تعملين كل شيء بمفردك؟!

– لا تتعب نفسك! سأفصلها وأحملها، وعندما يحل المساء لن تكون هناك حبة واحدة.

اليوم تُحصل "دلاري" مستحقاتها، فقد اشترت "سيليا" من دكانها ألوانا يوم مهرجان الألوان ولم تدفع ثمنها حتى الآن، فذهبت لديها وقالت:

– "سيليا"! لقد مرّ شهر منذ شرائك للألوان ولم تدفعي قرشا! وعندما أطالبكِ، تذهبين وتتحركين بلا مبالاة، لكن اليوم لن أعود قبل أن آخذ نقودي!

انسحب "ماتادين" بصمت؛ كان يريد أن يأخذ من "سيليا" كل شيء ولا يدفع شيئا في المقابل! لقد أصبحت "سيليا" بالنسبة إليه آلة للعمل فقط، ويستغل حبها بمكره.

عندما رفعت "سيليا" بصرها لم تر "ماتادين"، فقالت:

– لا تصرخي يا "سيتهاني"! خذي غلة بأربعة قروش بدلا من قرشين، هل ستأخذين روحي؟ أتعتقدين أني سأموت دون أن أدفع؟!

أخذت كيلو من كوم الغلة ووضعته في ملابس "سيتهاني"، خرج "ماتادين" من وراء الشجرة غاضبا، وشدّ ملابس "دلاري"، وقال:

– ضعي الغلة دون نقاش، هذا ليس للنهب!

ثم نظر إلى "سيليا" بعيون حمراء، وزجرها:

– لم تعطينها من الغلة؟ ممن استأذنت؟ ومن أنتِ حتى تعطي من غلتي؟!

وضعت "سيتهاني" الغلة على الكومة، ونظرت "سيليا" إلى "ماتادين" بحيرة؛ وهي تشعر أن الغصن الذي كانت تجلس عليه باطمئنان قد انكسر، وأنها هوت إلى أسفل دون سند! قالت بخجل، والدموع تنساب من عينيها:

– سأدفع لك نقودك، لترحميني اليوم يا "سيتهاني"!

نظرت "سيتهانى" إليها بعطف ومضت، وهى تنظر إلى "ماتادين" بعيون يملؤها اللوم. وعندما سألته "سيليا" وهى تفصل الغلة بألم:

- أليس لي حكم فى أملاكك؟!

جحظت عينا "ماتادين"، وقال:

- كلا، ليس لك حكم! تعملين، وتأكلين. تأكلين ما تريدين لكن أن تنهبى لن أدعكِ تفعلين هذا! إذا لم تشعرى بأن مصلحتك هنا فاذهبى إلى مكان آخر، فالعمال ليسوا قليلين، أنا لا آخذ العمل بالمجان! بل أقدم الطعام والملابس.

صارت "سيليا" كعصفور قص صاحبه أجنحته، وأخرجه من القفص! نظرت نحو "ماتادين"، كان فى نظراتها ألم أكثر من الشكوى! لكن ظل قلبها يرفرف كعصفور عاجز عن التحليق فى الفضاء والجلوس على الغصون العالية، وعندما وجدت نفسها عاجزة عن الطيران أرادت الجلوس فى نفس القفص، حتى لو ماتت وهى تخبّط برأسها فى حديد القفص دون طعام أو شراب! فكرت "سيليا" أنه لا مكان آخر لديها؛ فقد كانت زوجة دون زواج شرعى، فلو ضربها "ماتادين" أو قطعها فلا سند لديها! تذكرت الأيام التى لم يمضِ عليها أكثر من عامين، عندما كان "ماتادين" هذا يلهث تحت قدميها، وأقسم وهو يحمل بيده الكتاب المقدس:

- "سيليا"! طالما كنت حيا ستكونين كزوجة لى.

كان يدور وراءها مضطربا فى الغابات والحدائق وسواحل الأنهار كالمجنون، واليوم يعاملها بهذه الطريقة المهينة؟! لقد أهان كرامتها من أجل حفنة غلة!

لم تجب بشىء، كانت تشعر بأن قطعة من الملح فى حلقها، أكملت عملها بقلب مجروح ويد ضعيفة.

فى ذلك الوقت أحاط والدها وإخوانها والمنبوذون بماتادين، حضرت والدة "سيليا" وأخذت السلة من يدها وأبعدتها وهى تسبها قائلة:

- أيتها الأرملة(٤)، إذا كنت تريدين العمل فلم تركت أعمال المنزل وجئت للموت هنا؟! عندما تعيشين مع "بابهن" لم لا تعيشين كواحدة منهم! لقد ألحقت بنا العار، وما زلت منبوذة! لماذا حضرت إلى هنا؟ أكنت تعتقدين أنك ستأكلين السمن؟! لماذا لا تذهبين وتلقين بنفسك فى البحر؟

أسرع كل من "جهنجرى سنج" و"داتادين" عندما رأوا ثورة المنبوذين، وحاولو تهدئتهم، سأل "جهنجرى سنج" والد "سيليا":

- ما الذى حدث يا "تشودرى"؟ لم الشجار؟

---

(٤) هى نوع من السباب لأن الزوجة التى يموت زوجها ولا تحرق معه تعامل بأقل من الحيوانات فى الديانة الهنوكية، لكن الاحتلال الإنجيزى جرم هذا الأمر فى القرن الثامن عشر.

كان والد "سيليا" "هركهو" يناهز الستين من عمره، أسود، نحيفا، وكان كالفلفل المجفف ومثله حارقا لكنه مر، وقال:

– ليس ثمة شجار يا "تهاكر"، سنجعل "ماتادين" اليوم منبوذا، أو ستسيل الدماء! "سيليا" فتاة، لا بد لها من الزواج من أحد، ولن نقول عنه شيئا! لكن من يتزوجها يكون تابعا لنا، إذا كنت عاجزا أن تجعلنا من البابهن فسنجعلك نحن منبوذا! إما نصبح نحن وقومنا كلهم من بابهن وإلا سنجعلك منبوذا، تأكل وتشرب معنا، تجلس معنا، عندما تأخذ كرامتنا تعطينا دينك!

لفّ "داتادين" عصاه، وقال:

– لنتكلم بشكل جيد! ابنتك واقفة خذها حيث تريد، نحن لا نربطها! كانت تعمل بالأجر، والعمال ليسوا قلة.

قالت والدة "سيليا" وهى تحرك أصابعها:

– ما أعدلك يا "بندت"، لو ذهبت ابنتك مع أحد المنبوذين أكنت ستتكلم كما تتكلم الآن؟! نحن منبوذون، لا كرامة لنا! نحن لن نأخذ "سيليا" فقط، بل "ماتادين" أيضا الذى أضاع كرامتنا! أنت لست متمسكا بتعاليم الدين، فأنت تنام معها لكن لا تشرب الماء من يدها! وتلك الشيطانة تصبر على هذا! لو كنت مكانها لأطعمت هؤلاء الناس السم!

قال "هركهو" يحث أصدقاءه:

– أسمعتم كلامه أيها الناس؟ ماذا ستفعلون الآن وأنتم واقفون؟

بعد سماع هذا الكلام هرع منبوذان، وأمسكا بيد "ماتادين"، وهجم عليه الثالث حتى كسر عقده الدينى، وقبل أن يتمكن "داتادين" و"جهنجرى" من استخدام عصيهم، وضع منبوذان قطعة كبيرة من العظم فى فم ماداتين، عض "ماداتين" على أسنانه لكن شيئا من المكروه مس شفتيه، فانقلبت معدته وفتح فمه بنفسه، ووصلت العظمة إلى حلقه. اجتمع كل من كان فى المخزن، لكن العجيب أن أحدا منهم لم يتدخل لدفع لصوص الدين، فقد كان الجميع يكره سلوك "ماتادين" لأنه يراود النساء، كان الجميع مسرورا بما حدث له لكنهم فى الظاهر كانوا يخيفون المنبوذين!

قال "هورى":

– حسنا، لقد فعلت الكثير يا "هركهو"! إذا أردت الخير فلتذهب من هنا.

رد "هركهو" بلا خوف:

– لديك بنتان فى منزلك يا سيد "هورى"، لتعلم هذا! إذا ضاعت كرامة الناس فى القرية فلن يبقى لأحد عزة!

فى لحظة انتصروا على عدوهم، فأرادوا التسلل من هناك لأن هذا سيكون مناسبا! فلن يمضى وقت طويل حتى يبدل الناس رأيهم، لنذهب قبل أن يتبدل هذا الرأى. تقيأ "ماتادين"، فقال "داتادين" وهو يمسح على ظهره:

– سأضعكم جميعا فى السجن لخمس سنوات.

ردّ "هركهو" بقوة:

– لا بأس بهذا، فنحن لا نرتاح خارج السجن! حيثما كنا نعمل ولا نشعر بالشبع.

بعد أن تقيأ "داتادين"، استلقى على الأرض كأن وسطه انكسر، أو أنه قد غرق، وقد ذهبت عزته ورجولته وإقدامه التى كان يفتخر بها فى نزواته! هذه القطعة من العظم لم تلوث فمه، بل لوثت روحه أيضا! لأن دينه يقوم على الطعام والشراب والفروق الطبقية، واليوم انقطعت أصول هذا الدين! لو تاب ألف مرة، وأكل الروث مائة ألف مرة، وشرب من جنجا، وتبرع بمئات الآلاف، وأدى الحج لما تمكن من إحياء مذهبه الميت! لو حدث هذا فى الخفاء لأمكن تداركه، لكن تحقير دينه كان أمام الجميع، لقد ضاعت هيبته إلى الأبد! من اليوم سيكون منبوذا فى بيته، حتى والدته ستكرهه! لقد ضاع الدين من الدنيا. ورآه كثير من الناس ولم يفعلوا شيئا، بل إن أحدهم لم يتنفس! قبل لحظة كان الناس يقبلون قدميه عندما يرونه، والآن سيشيحون بوجوههم عنه! لن يتمكن من الذهاب إلى أى معبد، لن يمس أوانى الناس، وكل هذا بسبب المشؤومة "سيليا"!

كانت "سيليا" تفصل الغلة، وهى واقفة مطأطئة الرأس كأن هذا الأمر قد حدث لها هى! فجأة زجرتها أمها:

– إلام تنظرين وأنت واقفة؟ اذهبى إلى البيت مباشرة، وإلا سأقطعك إربا إربا! لقد رفعت أسماء أجدادك، فماذا تريدين أن تفعلى أكثر من هذا؟!

كانت "سيليا" تقف كالتمثال؛ كانت غاضبة من والديها وإخوانها، لم يتدخلون بينهما؟ ستعيش كما تريد، ما علاقة الآخرين؟! إنهم يقولون إنها ليست كرامتكِ، فهل يأكل البابهن من طعامها، أو يشرب الماء من يدها؟ قبل قليل كان قلبها غاضب من أفعال "داتادين"، لكن ظلم أهلها وقبيلتها قد غير نفورها إلى رغبة شديدة، فقالت محتجة:

– لن أذهب إلى أى مكان، ألا تريدين أن أعيش عيشة هنيئة هنا أيضا؟!

قالت العجوز بصوت قوى:

– ألن تذهبى؟!

– نعم!

– لتذهبى على الفور.

– لن أذهب!

على الفور أمسك أخواها بيديها، وجراها معهما، جلست "سيليا" على الأرض ولم يدعها أخواها وأخذا يجرانها حتى تمزق ساريها، وتقرح جلد ظهرها ووسطها، ومع هذا رفضت الذهاب!

قال "هركهو" لولديه:

– حسنا، دعوها الآن سنعتبرها قد ماتت! لكن لو حضرتِ عند بابى سأشرب من دمكِ!

قالت "سيليا" كأنها فدت نفسها:

- حسنا، عندما أحضر عند بابك اشرب من دمي!

ركلت العجوز "سيليا" عدة ركلات بغضب مجنون، لو لم يبعدها "هركهو" لقتلتها! عندما هاجمتها العجوز مرة أخرى، دفعها "هركهو" للخلف وقال:

- أنتِ قاتلة يا "كيليا"، ستقتلينها!

أمسكت "سيليا" بأقدام والدها، وقالت:

- لتقتلني يا أبي! اقتلوني كلكم، آه يا والدتي! أأنتِ بلا رحمة هكذا؟! ألم ترضعيني كي تفعلي بي هذا؟ لم لم تقتليني عندما ولدتني؟! لقد دمرت "بندت" من أجلي، فما الفائدة فهو لن يسأل عني بعد أن دمرت دينه؟! وسواء سأل أم لم يسأل سأعيش معه! لو تركتني جائعة أو قتلتني فلن أتركه! كيف أدعه بعد ما حدث له بسببي؟ سأموت لكن لن أكون لغيره، والشخص الذي أخذ يدي سأكون له!

عضّت "سيليا" على شفتيها، وقالت:

- اتركوا الأرملة، فهي تعتقد أنه سيعيش معها! لكنه اليوم سيقتلها ويفر، إذا لم يفعل هذا فسأعتزل الناس!

أشفق إخوانها عليها، ثم تركوها وذهبوا جميعا. وقفت ببطء واتجهت إلى مخزن الغلة وهي تتألم، جلست وأخذت تبكي وهي تغطي وجهها.

صبّ "داتادين" جمّ غضبه عليها:

– لِمَ لَمْ تذهبى معهم يا "سيليا"؟ ماذا تريدين أن تفعلى بى؟ ألم يكفكِ القضاء على دينى؟!

انسابت الدموع من عينى "سيليا"، ورفعتهما، كان فيها شىء من النور، وقالت:

– لِم أذهب معهم؟ من أخذ يدى سأعيش معه.

هددها "بندت جى":

– لو وضعتِ قدمك فى منزلى سأركلك!

قالت سيليا بوقاحة:

– حيثما يضعنى سيدى سأعيش، حتى لو وضعنى تحت شجرة أو فى قصر!

كان "ماتادين" يجلس بلا وعى، كان وقت الظهيرة، وأشعة الشمس تصل إلى وجهه من بين أغصان الأشجار، والعرق يتصبب منه، لكنه كان يجلس صامتا بلا حراك!

فجأة استعاد وعيه، وقال:

– ماذا كنت تقول يا أبى؟!

وضع "داتادين" يده على رأسه يواسيه، وقال:

– ماذا أقول لك الآن يا بنى؟ استحم، وكل، وبعد ذلك سنشاور العلماء الهندوك ونعمل بمشورتهم، يجب أن تترك "سيليا"!

نظر "ماتادين" إلى "سيليا" بعيون مليئة بالدم:

– لا أريد رؤية وجهها بعد الآن، لكن إذا تبت الآن فلن توجد مشكلة؟!

– الإثم يمحى بعد التوبة!

– لنذهب اليوم إلى العلماء الهندوك.

– سنذهب اليوم يا بنى!

– لكن إذا قالوا إنه لا يمكننى التوبة فماذا سنفعل؟

– أى شىء يطلبونه!

– هل ستطردنى من المنزل؟

قال "داتادين" باضطراب، وحب أبوى:

– لا يمكن أن يحدث هذا يا بنى! لا يمكن أن أتركك، حتى لو ضاع المال والدين والكرامة!

أخذ "ماتادين" عصاه، وسار خلف والده نحو المنزل، ووقفت "سيليا" كذلك ومشت خلفه وهى تعرج. نظر "ماتادين" إلى الخلف وقال بلا رحمة:

– لا تأتى معى، لا علاقة لى بكِ، ألم تكتفى بما حدث بسببكِ؟!

أمسكت "سيليا" يده بوقاحة، وقالت:

– كيف تنكر ما بيننا؟! لم أمسك يد غيرك فى هذه القرية، وهم أغنى وأجمل منك وأكثر عزة؟ لم حدث لك هذ اليوم والحبل الذى سقط فى عنقك، لن تتمكن من التخلص منه ولو حاولت مائة ألف مرة! أنا لن أدعك وأذهب إلى مكان آخر، سأعمل بالأجر، وأتسول لكن لن أتركك!

قالت هذا وتركت يد "ماتادين"، وعادت إلى الحقل وبدأت تفصل الغلة.

كان "هورى" هو الآخر يفصل الغلة، استدعته "دهنيا" لتناول الطعام. أخرج "هورى" الثيران من العمل، وربطها فى أحد الأشجار وقال لسيليا:

- اذهبى أنتِ أيضا لتأكلى وتشربى يا "سيليا"، فدهنيا تجلس هنا. قد تلوث ساريكى بالدم من الخلف، قد لا يلتئم الجرح، يالقسوة والديك!

نظرت "سيليا" إليه بعيون حزينة، وقالت:

- ومن هنا ليس قاسيا يا والدى؟ لم أر شخصا طيبا!

- ماذا قال لك "بندت"؟

- قال لا علاقة لى بكِ.

- أقال هذا؟

- أظن أنه يعتقد أنه هكذا سيستعيد دينه، لكن من بمقدوره أن يخفى ماتكشّف؟ إذا صعب عليه إطعامى فلا يطعمنى، لا توجد عندى مشكلة! أنا أعمل بالأجر وسأظل أعمل! لو طلبت منكِ مكانا للنوم ألن تعطينى؟!

قالت "دهنيا" بعطف:

- المكان ليس ضيقا يا بنيتى! اذهبى إلى المنزل.

قال "هورى" بألم:

- أنتِ تطلبين منها المجىء، ألا تعرفين "بندت"؟!

قالت "دهنيا" بثقة:

– لو غضب ليأكل خبزا أكثر، فماذا سيفعل أكثر من هذا؟ هل اقترضت منه شيئا؟ لقد أخذوا كرامتها، وأخرجوها من قومها، والآن يقول لها لا علاقة لي بكِ! أهو إنسان أم جزار؟ هذا جزاء سوء نيته! لِمَ لم يفكر عندما كان يعيش معها؟ والآن يقول لا علاقة لي بكِ!

كان "هوري" يعتقد أن "دهنيا" مخطئة:

– لقد دمّر أهل "سيليا" مذهب "متّي"، هذا ليس عملا حسنا! إذا أرادوا أن يأخذوا "سيليا" ويضربوها أو يدللوها فهي ابنتهم، لكن لماذا يفسدون عقيدة "متّي"؟!

زجرته "دهنيا":

– حسنا، لتصمت! أنت تجعل من نفسك عادلا، كل الرجال سواء، عندما دمرها "متّي" لم يقل أحد شيئا! والآن عندما أصبح "متّي" بلا دين لم يهتم الناس؟! أليس لسيليا دين؟! يعيش مع منبوذة دون زواج، ويظهر نفسه على أنه متوسط التدين! لقد فعل "هركهو تشودري" خيرا، فهذا هو علاج الباطجة! لتأتي يا "سيليا" إلى منزلي، لا أعرف كيف يكون والداها بلا رحمة هكذا؟! لقد ضرباها حتى غطت الدماء ظهرها! لتذهب وتستدعِ "سونا"، وسأحضر معها.

ذهب "هوري" إلى المنزل، وأمسكت "سيليا" بقدمي "دهنيا" وهي تبكي!

الفصل الرابع والعشرون

كانت "سونا" فى السابعة عشرة من عمرها، وكان زواجها فى هذا السن ضروريا. كان "هورى" يفكر فى هذا الأمر منذ سنتين لكنه كان خالى الوفاض، ولا يملك حيلة! لكن فى هذا العام لا بد أن أزوجها حتى لو اقترضت، أو رهنت الحقل! لو كانت "دهنيا" قد أصغت إلى كلامه لكان زوّجها قبل عامين، كان يريد أن ينفق بحكمة لكن "دهنيا" كانت تقول لو لم تنفق النقود وظلت معك فستضيع فى أى شىء. سيصرف مائتين وخمسين روبية فى الزواج وهذا أقل شىء، لقد انحطت مكانته فى القبيلة منذ مجىء "جهنيا"، ولا يمكن أن يجد زوجا طيبا دون دفع مائة أو مائتى روبية! لم يأخذ شيئا فى شهر تشيت من العام الماضى، لهذا اشترك مناصفة مع "بندت داتادين"، لكن "بندت جى" ادعى أنه أنفق النقود على البذور، وعلى العمال بالأجر فلم يأخذ "هورى" سوى ربع الغلة، ودفع الخراج كاملا. وقد ضاع محصول القصب والقنب؛ ضاع القنب بسبب السيول، وضاع القصب بسبب السوس، لكن المحصول هذا العام كان جيدا، كذلك وجدت غلّة للزواج فى فصل القصب. لو وجد مائتى روبية فسيزوج ابنته، لو ساعده "جوبر "بمائة روبية فسيقترض مائة روبية

بسهولة، فقد لان معه "جهنكرى سنج" و"منجرو شاه": فإذا كان "جوبر" يكسب فى المدينة فلن تضيع نقودهما!

ذات يوم اقترح "هورى" أن يذهب إلى "جوبر" ليومين، لكن "دهنيا" حتى الآن لم تنسَ كلامه، وهى لا تريد أن تأخذ منه مليما بأى طريقة.

قال "هورى" بغضب

– لكن كيف ستسير الأمور؟!

هزّت "دهنيا" رأسها، وقالت:

– هب أن "جوبر" لم يذهب إلى المدينة فماذا كنت ستفعل عندها؟

لم يحر "هورى" جوابا، ثم قال بعد لحظة:

– أنا أسالكِ؟!

أخذت "دهنيا" حذرها:

– التفكير عمل الرجال.

كان الجواب حاضرا عند "هورى":

– هبى أننى مت، وأنت وحيدة فماذا ستفعلين؟

نظرت "دهنيا" إليه باحتقار:

– لو بعت ابنتى وقتها فلن يسخر منى أحد!

هذا ما كان يمكن لهورى فعله بسهولة، وكان سيعود عليه بالخير، لكن كيف يهدر كرامة منزله؟! حين تزوجت أخواته، كان المدعوون ثلاثمائة شخص ودفع للعريس مبلغا كبيرا، وشهد العرس كل ألوان اللهو من الرقص، والمسرح، والغناء، والفيل والحصان. حتى اليوم تذكر القبيلة اسمه، إن لديه علاقة بعشرات من القرية، فكيف يريهم وجهه لو زوج ابنته زواجا عاديا؟ الموت أفضل له! لكن كيف يزوجها؟ إنه يمتلك الشجر، والأرض والكرامة، ولو باع فدانا فسيحصل على مائتى روبية؛ لكن الأرض أعز على الفلاح من روحه ومن كرامة أسرته، كل ما يملكه ثلاثة أفدنة لو باع فدانا كيف يحرثها؟

ظل في حيص بيص لعدة أيام، وهو عاجز عن اتخاذ قرار!

كان فى أحد عطلات أيام دسهره، عاد أولاد "جهنجرى، وبتيشورى"، و"نوكهى رام" إلى المنزل فى إجازة. كان الثلاثة يدرسون الإنجليزية، وأعمارهم تناهز العشرين، لكن حتى الآن لم يتمكنوا من دخول الجامعة؛ فهم يقضون فى الصف سنتين أو ثلاثة، وكانوا ثلاثتهم متزوجين. كما أنجب "بنديشورى" ابن "بتيشورى" صبيا، وكان الثلاثة يدخنون البانجو ويلعبون الورق، ويدورون فى القرية، وعندما يمرون أمام منزل "هورى" ينظرون نحوه. لكن من حسن الحظ كانت "سونا" واقفة عند الباب لعمل من الأعمال وهى ترتدى نفس السارى الذى أحضره "جوبر"، كان "هورى" غاضبا وهو يرى نظراتهم؛ كأن الحجارة تنزل من السماء على حقله لتدمره!

فى أحد الأيام ذهب الثلاثة للاستحمام فى البئر، حيث كان "هورى" يسقى القصب و"سونا" تساعده، فغلى الدم فى عروقه.

فى المساء ذهب عند "دلارى" معتقدا أن فى النساء رحمة تجعل قلبها يرق، وتعطيه النقد بفائدة قليلة، لكن "دلارى" اشتكت من قلة النقود، لا يوجد منزل فى القرية لم يأخذ منها نقودا، حتى "جهنجرى سنج" اقترض منها عشرين روبية، لكن لا أحد يريد الدفع، فمن أين تأتى المسكينة بالنقود؟

قال "هورى" بعجز:

– يا زوجة أخى، إن هذا عمل خير! أنت لن تعطينى النقود من أجل الطعام والشراب، لكن من أجل فك العقدة عن عنقى، فجهنجرى و"بتيشورى" يريدان الاستيلاء على حقلى، أنا أعتبره ذكرى عن أجدادى، إذا ضاعت فإلى أين أذهب؟ هناك ابن يعمل على زيادة ممتلكات والده، فهل أكون أنا من الأبناء الذين يضيعون أملاك أجدادهم!

أقسمت "دلارى":

– "هورى"، أقسم بقدم الإله "تهاكر جى" إنى لا أملك نقودا الآن، من اقترض لا يريد رد النقود! أنت جزء منى، و"سونا" كابنتى لكن قل لى ماذا أفعل؟ لقد اقترض أخوك "هيرا" خمسين روبية لشراء الثيران، لكن لا أحد يعلم له مكانا! وعندما أطلب من زوجته تبدأ فى الشجار. "سوبها" أيضا رجل طيب، لكن لا يريد رد نقودى! فى الحقيقة لا أحد

لديه نقود، فمن أين يدفع؟! أنا أعرف أحوال الجميع ولهذا أصبر عليهم. كيف يعيش الناس إذا طلبت من أحد بيع حقله؟ فعزة النفس أعز ما يملك المرء!

ثم همست قائلة:

– أنت تعرف ابن "بتيشورى لالا" إنه يلف ويدور حول منزلك ليراود الفتيات، وهذا هو حال الثلاثة، لتحذر منهم! لقد أصبحوا من أهل المدينة فلم يعودوا يفهمون حق أخوة القرية، هناك أيضا فتيان في القرية، لكن لديهم شيء من الحياء، والأدب، والخوف، لكنهم كالحيوانات الطليقة! لقد حضرت ابنتي "كوسيليا" من عند حماها، لكن عندما رأيت أحوالهم، استدعيت حماها وودعتها، فحتى متى سأحرسها؟!

رأت "هورى" مبتسما، فقالت بلهجة شاكية حلوة:

– إذا كنت تضحك فسأخبرك شيئا آخر، أنت أقل شرا منهم؛ إنك تحضر إلى الدكان خمسين مرة بحيل مختلفة، لكن لم ألتفت قط إليك!

قال "هورى" بلهجة محتجة ناعمة:

– أنت كاذبة يا زوجة أخي! أنا لم أكن أحضر دون سبب، العصفورة تحضر مرة وتأخذ الحب، ثم تعود لأخذ حبة أخرى!

– اصمت أيها الكاذب!

– إذا لم تكوني تنظرين، فإن قلبك ينظر، إنه يناديني!

- حسنا، لتصمت! أنت تجعل من نفسك عرافا، عندما أراك تدور حولى كنت أشفق عليك، أنت لم تكن شابا وسيما!

حضر "حسينى" لشراء ملح بقرش فانتهى المزاح، أخذ "حسينى" الملح وذهب، فأكملت "دلارى" الكلام:

- لم لم تذهب إلى "جوير" لرؤيته وقد تأخذ منه شيئا!

قال "هورى" بيأس:

- لن يعطينى شيئا، عندما يكسب الأولاد أربعة قروش تتبدل أحوالهم! كنت مستعدا للذهاب إليه دون حياء لكن "دهنيا" منعتنى، وإذا ذهبت دون موافقتها فلن تدعنى أعيش فى المنزل؛ أنت تعرفين سلوكها!

قالت "دلارى" بسخرية:

- أصبحت عبدا لزوجتك!

- لماذا تسألين، ماذا كنت أفعل؟!

- لو كنت عبدى لكتبت هذا، حقا!

- لم لا نكتب الآن؟ سأكتب مائتى روبية، أنا لست أرخص من هذا!

- بعد ذلك لن تتحدث مع "دهنيا"؟!

- كلا، أقسم لك!

- وإذا تكلمت؟!

– لتقطعى لسانى!

– حسنا، لتذهب وتبحث عن شابٍ مناسبٍ وسأعطيك النقود.

انسابت الدموع من عينى "هورى"، وأمسك بقدمى "دلارى" وقد أغلق الإحسان لسانه، أبعدت قدميها وقالت:

– أنا لا أحب هذا اللون من المراودة! سأشد أذنيك، وآخذ هذه النقود مع الفائدة خلال عام. أنت لست صادقا فى معاملاتك، لكنى أعتمد على "دهنيا". لقد سمعت أن "بندت" غاضب عليك، ويقول لن أكون من بابهن إذا لم أخرجه من القرية! لِمَ لا تطرد "سيليا"؟ لقد افتعلت شجارا دون داعٍ!

– "دهنيا" هى التى أحضرتها، ماذا أفعل؟!

– سمعت أن "بندت" ذهب إلى بنارس حيث يوجد هناك عالم هندوكى مشهور، لكنه يريد خمسمائة روبية ليقبل توبته. حقا، الوقت الآن شديد الظلمة! عندما يضيع الدين لا يعود وإذا تبت ألف مرة، فلن يشرب أحد الماء من يدك ولو تبت حتى آخر عمرك!

ذهب "هورى" إلى منزله مباشرة وقلبه يتراقص؛ لم يذق هذه التجربة المريحة فى حياته! فى الطريق عرج على "سوبها"، ودعاه للذهاب معه إلى منزل العريس، كما ذهب كلاهما إلى داتادين لسؤاله عن الوقت المناسب للخطبة، بعد العودة تشاوروا وهم عند الباب فى تجهيزات الخطوبة. خرجت "دهنيا"، وقالت:

– لقد مرّ الليل ولم تحضر حتى لتناول الخبز! اجلس للعشاء، وأمامك الليل كله للحديث.

أصر "هورى" على أن تشارك فى المشورة، وقال:

– الخطبة مناسبة فى هذا الشهر، وأنا لا أعرف شيئا عن الأمتعة التى نحتاج إلى شرائها.

– إذا كنت لا تفهم فى شىء فكيف تجلس للتباحث فيه؟ أأحضرت النقود؟ أنت تحلق فى الخيال!

قال "هورى" بتفاخر:

– لا دخل لك بهذا! أخبرينى عن الأمتعة التى تريدين شراءها، وأنا لا أحلق فى الخيال! أخبرينى ما هى الأمتعة التى اشتريتها فى زواج أخواتى؟

– قل لى أولا هل جهزت النقود؟

– نعم جهزتها، أتظنين أننى أدخن البانجو؟!

– لنتناول العشاء أولا ثم نتشاور.

لكن عندما سمعت أنه تحدث مع "دلارى"، قالت وهى تحك أنفها:

– لقد أخذنا النقود منها ولم نردها حتى اليوم، فالشيطانة تأخذ فوائد كثيرة!

– لكن ماذا أفعل، من سيعطينى غيرها؟

- لم لا تقول إنك ذهبت إليها محتالا لتراودها؟ أصبحت شيخا، لكن مازلت على عاداتك!

- أنت تتحدثين كالأطفال يا "دهنيا"! أيمكن لمثلها أن تمازح شخصا بمثل حالتى؟ إنها لا تريد الحديث معى!

- لا يذهب إليها إلا شخص على شاكلتك!

- كثير من الأغنياء يسجدون عند بابها. يا "دهنيا"! أتعرفين لم؟! لأنها ثرية!

- لأنها وعدت بإعطاء النقود أنت تمدحها فى كل مكان!

- لأنها كانت جادة فى وعدها!

ذهب "هورى" لتناول الخبز، وعاد "سوبها" إلى منزله، وخرجت "سونا" مع "سيليا" للخارج. كانتا تقفان عند الباب فسمعتا أنهم سيقترضون من "دلارى" مائتى "روبية" من أجل خطبتها، وقد جعل هذا الأمر قلبها يضطرب كالجير إذا وضع فى الماء! كان هناك مصباح يضىء عند الباب وقد اسود الحائط بسببه، وكان الثوران يأكلان من معلفهما، وهناك كلب قابع ينتظر قطعة من الأكل. وقفتا عند معلف الثورين، قالت "سونا":

- أسمعتِ! لقد اقترض والدى مائتى روبية من سيتهانى بسبب خطبتى!

كانت "سيليا" تعرف بعض أحوال منزلهم، فقالت:

- إذا لم يكن فى المنزل نقود فماذا سيفعل؟

نظرت "سونا" إلى الأشجار السوداء، وقالت:

- لا أريد زواجا كهذا، حيث يضطر والدى للاقتراض، فمن أين سيردها المسكين؟ قولى! إنه غارق تحت عبء القرض الأول، لو أخذ مائتى روبية ألن يزيد الحمل عليه؟!

- أيمكن حتى للأغنياء الزواج دون اقتراض يا مجنونة؟ دون تجهيز المنزل سيتزوجك أحد الكهول، هل تتزوجين من كهل؟!

- لم لا أتزوج من كهل؟! أكان أخى كهلا عندما تزوج "جهنيا"؟! من دفع له ثمن تجهيز المنزل؟!

- لقد لوّث اسم أجداده!

- سأقول لأهل سينارى: لو أخذتم مليما واحدا لتجهيز المنزل فلن أتزوج!

كانوا قد اتفقوا على تزويج "سونا" لابن أحد الفلاحين الأغنياء من سنارى.

- لو قال إن والدك يدفع، ووالدى يأخذ فماذا أفعل أنا؟!

علمت "سونا" أن الأسلحة التى تظن أنها ناجعة لا طائل من ورائها، فقالت بيأس:

- أريد أن أقول له هذا لأعرف ماذا يحدث، إذا قال لى ليس فى استطاعتى؛ فنهر جومتى ليس بعيدا عن هنا! سأذهب وأغرق نفسى.

لقد رباني والديّ بصعوبة، أيكون جزاؤهما أن أضغط عليهما بالقرض عند وداعهما؟ لو أعطى الإله والديّ مالا لينفقا كما يريدان على ابنتهما، فلن أمنعهما! لكن إذا كانا لا يملكان شيئا فيجب على الفتاة أن تلقى بنفسها في النهر! يجب أن تبقى الأرض، والمنزل، والممتلكات عونا على الطعام. سيبكى والديّ لأربعة أيام ثم يصبران، لكنهما سيبكيان طوال حياتهما بعد زواجي وقد تضاعفت المائتي روبية في ثلاث أو أربع سنوات، فمن أين يردها والدي؟!

سمعت "سيليا" هذا الكلام، فكأن لمعانا جديدا قد تولد في عينيها، احتضنت سونا بقوة وقالت:

– من أين لكِ هذا التفكير السديد يا "سونا"؟ تبدين في الظاهر ساذجة للغاية!

– لا يحتاج هذا إلى تفكير سديد، ألا يوجد عندى نظر؟ هل أنا مجنونة حتى يقترضون مائتي روبية من أجل زواجي، ثم تتضاعف بعد ثلاث سنوات؟ ثم يقترضون بعد ذلك من أجل زواج "روبا" مائتي روبية! سيباع الحقل الذى نملكه فى مزاد علنى، وسيتسولون على كل باب، أصحيح أم لا؟! لهذا أقول إنه من الأفضل أن أضحى بنفسى. اذهبى فى الصباح الباكر لسنارى واستدعيه، لكن هذا لا يحتاج إلى استدعائه لأنى أخجل عندما أتحدث معه، لتبلغيه كلامى وتسمعى رده، أهو بعيد؟ القرية على الضفة الأخرى، أحيانا يحضر بحيواناته إلى هذه الناحية، ذات مرة دخلت جاموسة فى حقلى فأمطرته بالسباب، فأخذ يضم يديه.

نعم! قولي لي هل التقيت "متّى" في هذه الأيام؟ سمعت أن البابهن لا يخالطونه!

قالت "سيليا" باحتقار:

– لم لا يخالطونه في القبيلة؟ هذا لأن الكاهن يرفض إنفاق النقود! يمكن للكاهن أن يحلف على نهر جنجا بالكذب عوضا عن دفع المال! ابنه يجلس في الصحن الخارجي في هذه الأيام.

– لم لا تتركينه، وتتزوجين رجلا من قبيلتكِ فترتاحي، ولا تهان كرامتكِ؟!

– نعم، لم لا؟! كيف أتركه وقد عوقب بسببي؟ حتى إن تطهر، وأصبح عالما هندوكيا، أو أصبح إلها لكن بالنسبة لي سيظل هو "متّى" الذي كان يسجد عند قدمي! لو أصبح من بابهن، وتزوج من قبيلته لكنها لن تخدمه مثلي، يمكنه أن يتركني ثأرا لكرامته، لكن سترين أنه سيأتي إلي راكضا!

– يبدو أنه سيحضر، ولو وجدكِ سيأكلكِ حية!

– من يذهب لاستدعائه؟ لكل شخص دينه. وإذا غير هو دينه فلم أفعل أنا؟!

في الصباح الباكر أرادت "سيليا" الذهاب إلى سناري، لكن "هوري" أوقفها؛ كي تعمل مكان "دهنيا" التي كانت تشعر بالصداع، لم

تستطع "سيليا" الرفض. وعند استراحة الظهيرة ذهبت إلى سنارى، وعندما حضر "هورى" بعد العصر لم يجدها، قال بغضب:

– إلى أين ذهبت "سيليا"؟ تختفى فى لحظة. يبدو أن لا أحد يحب العمل! أتعلمين يا "سونا" إلى أين ذهبت؟

احتالت "سونا" عليه:

– لا أعلم شيئا! كانت تقول إنها ستذهب إلى منزل الغسال لإحضار الملابس، لعلها ذهبت إلى هناك.

نهضت "دهنيا" من السرير، وقالت:

– سأذهب للعمل معكم، لماذا تغضب هكذا، أتعطيها أجرة؟!

– ألا تعيش فى منزلنا؟ ألم تسؤ سمعتنا فى القرية بسببها؟!

– حسنا، لتصمت! إنها ترتمى فى ركن من المنزل، فهل ستأخذ منها أجرا؟

– إنها لا تنام فى ركن من المنزل، بل تأخذ حجرة كاملة!

– أتريد أن تدفع لك خمس روبيات شهريا؟!

– حتى لو كان أجر الحجرة قرشا واحدا! لكنها تعيش فى منزلنا، لذا يجب عليها الاستئذان قبل الذهاب إلى أى مكان، سأزجرها عندما تعود.

بدأ يسقي الأرض، وقد منع "دهنيا" من الذهاب. كانت "رويا" تجهز الساقية، و"سونا" تقسم الأرض. كانت "رويا" تصنع موقدا من الطين، أما "سونا" فكانت تنظر بيأس وأمل ناحية سناري! قل الأمل، وزاد اليأس أخذت تفكر: إذا أخذ هؤلاء الناس النقود فلماذا يعيدونها؟! من يملكون النقود يحبونها أكثر! والسيد "جوري" شديد الطمع، لكن "متهره" متدين ورحيم، ومع هذا سيقبل ما يقوله والده. لكن "سونا" ستزجر هذا الطفل ليتذكر طوال حياته، وستطلب منه بوضوح أن يتزوج من فتاة غنية، لا يمكن أن أعيش مع رجل مثلك! لو قبل السيد "جوري" هذا الاقتراح فستغسل قدميه وتشرب ماءهما، وستخدمه كما لم تخدم والدها، وستطعم "سيليا" الحلوى حتى تشبع! إنها مازالت محتفظة بالنقود التي منحها لها "جوبر" حتى الآن، لمعت عيناها، واحمرت وجنتاها من هذا الخيال الحلو!

لكن لماذا لم تحضر "سيليا" حتى الآن؟! أهي بعيدة جدا؟ ربما لم يدعها هؤلاء الناس تعود، واه! إنها آتية، لكن ببطء شديد، انقبض قلب "سونا"! ربما لم تتفق مع سيئ الحظ وإلا لحضرت ركضا، لا يمكن أن يتزوج بها حتى لو غسلوا وجوههم! حضرت "سيليا"، لكنها مضت لتجهيز القناة للري، وكانت تخشى أن يسألها "هوري" عن مكان تواجدها فبماذا ستجيبه؟

مرّت الساعتان على "سونا" بصعوبة بالغة، لكن بعد انتهاء السقاية أسرعت نحو "سيليا":

– لماذا تأخرت؟ لقد ضاعت العيون في انتظارك!

قالت "سيليا" وهى مستاءة:

- أكنت نائمة هناك؟! لا يمكن أن نتحدث فى الطريق، لا بد أن نتحيّن الفرصة. كان "متهره" قد ذهب بالحيوانات إلى المرعى عند النهر، وقد بحثت حتى وصلت إليه وأبلغته بحديثك. لقد سعد لدرجة لا يمكن أن أصفها، وسقط عند قدمى وقال: " لقد طار النوم من عينى منذ معرفتى بأننى سأتزوج "سونا"، لقد أسر سبابها لبى، لكن ماذا أفعل مع أبى؟ إنه لا يسمع لأحد! "

اعترضت "سونا":

- إذا لم يكن يسمع فأنا أيضا عنيدة، وسأفعل ما أقول ولن يحصد سوى الندم!

- لقد ترك القطيع وأخذنى عند السيد "جورى"، لديه أربع ماكينات رىّ، وبئر وعشرة أفدنة قصب. لقد ضحكت عندما رأيته فهو يشبه قاطع العشب، لكن حظه جيد. تجادل الأب وابنه كثيرا، وكان السيد "جورى" يقول: "ما شأنك أنت؟ ومن أنت حتى تتحدث فيما إذا كنت سآخذ أم لا؟!" فردّ عليه "متهره" غاضبا: "إذا كنت تريد المال من أهل العروس فلا تزوجنى، أنا سأزوج نفسى بطريقتى"، اشتد الخلاف، وضرب "جورى" "متهره" بالعصا ضربًا شديدًا، لو كان شخصا غيره لضربه، فلو ضربه "متهره" بقبضة واحدة لما تمكن من الحركة، لكن المسكين تلقى الضرب ولم يقل شيئا، سالت الدموع من عينيه ونظر نحوى وذهب. ثم زجرنى

والده، وأمطرنى بالسباب، لكن لم أسمع له، ولِم أخافه؟! قلت له بوضوح: إن مائتى أو ثلاثمائة روبية ليست مبلغا كبيرا يا سيدى! والسيد هورى لا يباع بهذ الثمن البخس، وأنت لن تصبح غنيا بها! هذه النقود تنفق على اللهو والرقص، لكن لا يمكن أن تجد عروسا مثلها!

انسابت الدموع من عينى "سونا"، وقالت:

- أضربه والده على هذا الكلام البسيط؟!

أخفت "سيليا" جزءاً من الحديث، لأنها لا تريد أن تسمع "سونا" كلاما يحقّر من شأنها. لكنها لا تستطيع إخفاء الأمر بعد أن سألتها، فقالت:

- كان الكلام عن أخيك "جوبر"، قال والده: "عندما يكون الطعام حلوا فالإنسان قد يشارك أحدهم فيه، أما العار فيذهب بالقضمة!"

قال "متهره": "أى منزل يا والدى يخلو من العار؟ الفرق هنا أن أحدهم أظهرها، والآخر واراها!" كان السيد "جورى" يحب منبوذة، وقد أنجب منها ولدين.

عندما ذكر "متهره" هذا الكلام كأن شيطانا قد ركب الشيخ، كان غضبه كطمعه، ولا يمكن أن يوافق دون أن يأخذ!

سارت الاثنتان ناحية المنزل، كان حبل السقاية وثقل المحراث على رأس "سونا" لكنها حتى الآن لم تكن تشعر بهذا الثقل، فكان خفيفا كالوردة، كانت كأن عينا من الفرح قد انفجرت في قلبها! وقف "متهره" أمامه برجولة ومروءة، فتربع فى قلبها، كانت تريد أن تغسل قدميه بدموعها! كأن أرواح السماء تحملها بين أحضانها، وتحلق نحو الأفق الأحمر!

فى تلك الليلة أصابت "سونا" حمى شديدة!

فى اليوم الثالث أرسل السيد "جورى" رسالة مع الحلاق قال فيها:

(السيد المحترم الموقر "هورى"، سلام "جورى" إليك! لقد فكرت بجدية فى الحديث الذى دار بيننا عن تجهيز الأمتعة، وتوصلت إلى أن الأخذ من أهل الفتاة يثقلها بالقروض، وبما أننا قد صرنا أهلا فيجب ألا يسىء أحدنا إلى الآخر فى التعامل! لا تفكر فى تجهيزات المنزل، وأنا أقسم عليك أن تطعم الأصدقاء حسب استطاعتك، إننى لا أريد أن أطلب إطعام الضيوف، فنحن قد جهزنا الطعام. لتفعل ما تشاء من أجل ضيافتهم، وأنا أقبل منك ذلك).

قرأ "هورى" الخطاب، وأسرع للداخل ليسمعه لدهنيا، كان يقفز من السعادة، لكن "دهنيا" غرقت فى التفكير. بعد لحظة قالت:

– هذه إنسانية من السيد "جورى"، لكن يجب علينا أن نفعل ما باستطاعتنا للحفاظ على كرامتنا – النقود تراب اليد – لذا لا يمكن أن نضيع هيبة المنزل! بل سنفعل ما يمكننا حتى يأخذ السيد "جورى" النقود، لتكتب له خطابا، أليس هناك نصيب للفتاة فى أملاك الوالدين؟! كلا، لا تكتب بل نبلغه عن طريق الحلاق.

وقف "هورى" فى الصحن كان يغيب عن الوعى، أما "دهنيا" فكانت ترد على جواب "جورى" الكريم، ثم قدمت شرابا للحلاق، وودعته بالبشرى.

عندما ذهب، قال "هورى":

– ماذا فعلت يا "دهنيا"؟ لم أفهم طريقتك حتى الآن! أنت تسيرين إلى الأمام، وفجأة تتراجعين إلى الخلف! فى البداية تشاجرت حتى لا أقترض من أحد من أجل الزواج، وأننا لن نعطى أحدا شيئا، فلما ألقى الإله فى قلب "جورى" كتابة هذا الخطاب تذكرت نغمة عزة المنزل، الإله وحده يفهمك!

قالت "دهنيا":

– تعطى التبغ لمن يستحقه، فهمت أم لا؟ فى ذلك الوقت كان "جورى" يريد أن يرينا مكانته، والآن يتعامل بالإنسانية؛ رد الطوب يكون بالحجارة، لكن رد السلام لا يكون سبابا!

حك "هورى" أنفه، وقال:

– لترينى إنسانيتكِ! سأرى من أين ستحضرين النقود؟!

أغمضت "دهنيا" عينيها، وقالت:

– إحضار النقود ليس عملي، هو عملك!

– سآخذ من "دلارى".

– لتأخذ، كلهم يأخذ الفوائد! إذا كان الغرق مقدرا علينا فلا فرق بين البحيرة ونهر جنجا!

خرج "هورى"، وأخذ يدخن النارجيلة: كنا سنخرج من متاعب التجهيزات بسهولة، لكن ماذا نفعل فى "دهنيا"، إنها تسير عكسيا كأن شيطانا قد ركبها، تعرف أحوال المنزل، وترفض أن تفتح عينيها!

الفصل الخامس والعشرون

تزوج "بهولا" مرة أخرى، كانت حياته بائسة دون امرأة! عندما كانت "جهنيا" موجودة كانت تعطيه شربة ماء، وتستدعيه وقت الطعام، والآن أصبح مسكينا، لا حول له ولا قوة، وزوجات أبنائه لا يجدن له وقتا بسبب أعمالهن المنزلية، كيف يخدمنه؟! لذا كان زواجه ضروريا للغاية! وحدث أن التقى بأرملة شابة، لم يكن قد مرّ على وفاة زوجها سوى ثلاثة أشهر فقط. كان لديها ولد، وأراد "بهولا" أن يتزوجها وبسرعة، اصطادها لكن بعد أن حفر الطريق إلى منزلها!

كان المنزل حتى الآن لزوجتي ابنيه، تفعلان ما بدا لهما، ومنذ ذهب "جنجي" وزوجته إلى لكهنؤ أصبحت زوجة "كمتا" سيدة المنزل، لم تمض خمسة أو ستة أشهر حتى جمعت ثلاثين أو أربعين روبية؛ لأنها تسرق كل يوم نصف كيلو من الحليب وتبيعه. الآن ستصبح زوجة حماها سيدة المنزل، وهي لا تحب أوامر حماتها الجديدة، فكانتا تتشاجران يوميا، حتى إن "بهولا" و"كمتا" تشاجرا بسببهما، واشتد الخلاف حتى إنهما انفصلا. منذ أمد بعيد والقاعدة أنه عند انفصال الإخوة يحدث الضرب، وقد حدث هذا الأمر هنا أيضا! كان "كمتا" شابا، ويتعامل مع "بهولا"

بأدب لأنه أبوه، لكن منذ حضور المرأة الجديدة ضاع منه حق الاحترام! لم يستسلم "كمتا"، بل ركل "بهولا" وألقاه خارج المنزل، ولم يمنحه شيئا! لم يتدخل أحد فى القرية لحماية "بهولا"، فقد جعله الزواج الجديد بلا قيمة! أمضى الليل تحت شجرة، وفى الصباح الباكر اتجه إلى "نوكهى رام" واستغاث به؛ فقد كانت قرية "بهولا" هى الأخرى تتبعه، وكذلك كل شىء فى المنطقة. أنّى لنوكهى رام أن يعطف على "بهولا"؟! لكن عندما رأى معه امرأة ملونة وشابة رضى على الفور أن يسكنهم حيث يربط البقرة، وأعطاه حجرة بجوارها، لقد وجد رجلا يرعى حيواناته، ويعطيها العلف والماء، وقد كان ماهرا فى هذا، وقد أعطى "بهولا " العمل مقابل ثلاث روبيات شهريا وكيلو غلة فى اليوم. كان "نوكهى رام " قصير القامة، وسمينا، أصلع، طويل الأنف وعيونه فى غاية الصغر. كان يضع عمامة كبيرة على رأسه، يلبس قميصا قصيرا، ويغطى نفسه بغطاء فى الشتاء ويخرج به.

كان يستمتع بالتدليك بالزيت، ملابسه دائما قذرة، وله أسرة كبيرة: سبعة من الإخوة وأولادهم، كلهم يعتمدون عليه. كان ابنه يدرس الإنجليزية فى الصف التاسع، كان من الصعب على أحد تربيته لأنه كان يعيش كالأمراء! كان يأخذ من "راى صاحب" أجرا اثنتى عشرة روبية فقط، لكن نفقاته لا تقل عن ألف روبية! لهذا إذا وقع أحد العمال فى شبكته لا يدعه حتى يمتصه. فى البداية كان يأخذ ست روبيات شهريا، فى ذلك الوقت لم يكن ينهب العمال بهذا الشكل، لكن عندما أصبح راتبه اثنتى عشرة روبية زاد هوسه كثيرا، لهذا لم يقم "راى صاحب" بترقيته!

كان كل شخص في القرية مستعدا لخدمته، حتى "داتادين" و"جهنجرى" كانا يتملقانه، ماعدا "بتيشورى" الذى كان دائما حاضرا لمواجهته. كان "نوكهى رام" يزعم أنه من البراهمة، وكل ما تأمر به القبيلة كايستهون ينفذه على الفور، وكان "بتيشورى" يفتخر بأنه كايسته ملك الكتابة، لا أحد يمكنه الفوز عليه فى هذا المجال، وفوق ذلك كان خادما للحكومة التى لا تغرب عنها الشمس، وليس عبدا للإقطاعى! لو صام "نوكهى رام" فى إيكاديشى(١)، وأطعم خمسة من البراهمة، فإن "بتيشورى" يسمع الكتاب المقدس فى البورنماشى، ويطعم عشرين من البراهمة. ومنذ أن صار ابن "بتيشورى" الأكبر محاسبا، أراد "نوكهى رام" أن يكمل ابنه هو الآخر تعليمه، ويجتاز الصف التاسع ويعمل فى الكتابة، ولهذا كان دائما ما يقدم الهدايا للحكام من ثمار كل فصل، ويذهب للسلام عليهم. كان "بتيشورى" أعظم منه فى شىء واحد، هو أن الناس كانت تعتقد أنه تزوج من امرأة تصنع الفخّار، وفكر "نوكهى رام" أيضا فى إعلاء شأنه بالزواج من أخرى!

قال لبهولا يواسيه:

– ستعيش هنا فى راحة يا "بهولا"، لا تخش أحدا! إذا احتجت إلى شىء فأخبرنى، وسأجد عملا لزوجتك أيضا. وعملك سيقتصر على وضع الغلة فى المخازن، وإخراجها، ونخلها وتنقيتها، هذا ليس عملا بسيطا!

---

(١) عادة هندوكية بصيام اليوم الأول من كل شهر.

ترجّاه "بهولا":

– استدع "كمتا "واسأله: أهكذا يكون احترام الابن لأبيه؟! لقد أسست المنزل، واشتريت البقر والجاموس، الآن استولى على كل شيء، وطردني! إذا لم يكن هذا ظلما فماذا يكون؟! أنت سيدنا، لا بد أن نحصل على العدل في محكمتك!

قال "نوكهي رام" يفهمه:

– لن تفوز عليه يا "بهولا" في الشجار، الإله سيجازيه على فعلته! لم يفز من لا إيمان له حتى اليوم، إذا كانت الدنيا بلا إيمان فلم خُلقت جهنم؟! من الذي يحترم العدل والدين هنا؟! الإله يعلم كل شيء، ويعرف كل ما خفي، هل يخفى عليه ما في قلبك؟ لا يخفى عليه شيء، ولهذا يسمى بعالم الغيب! هل يمكن أن يفر من قبضته؟ اصمت وسوف ترى، لو أراد الإله فحالتك لن تكون أسوأ من حالته!

نهض "بهولا" من عنده، ذهب إلى "هوري" وقصّ عليه ما حدث، وقصّ عليه "هوري" أيضا ما حدث معه، وقال:

– لا تسأل عن أولاد اليوم، يا أخي "بهولا"! نربيهم بالتعب حتى يصبحوا شبابا، فينقلبوا أعداء! فابني "جوبر" مثلا، تشاجر مع والدته وهو ذاهب من هنا، وقد مضت سنوات ولم يرسل خطابا ولا حتى ورقة! وقد حان وقت زفاف ابنتي لكن لا علاقة له بالأمر! لقد رهنت الحقل بمائتي روبية، لا بد أن نعيش ونحن نحافظ على كرامتنا!

بعد أن طرد "كمتا" والده، علم قدره! فقد كان الشيخ رجلا عاملا، يستيقظ فى الصباح الباكر، يطعم العلف للحيوانات، ويذهب إلى السوق لبيع الحليب، ثم يعود ويطعم الحيوانات ثم يحلبها. تبدلت أحواله فى خمسة عشر يوما، تشاجر الزوجان وقالت زوجته:

– لم أحضر هنا لأموت! لو كان طعامى صعبا عليك فسأعود إلى منزلى.

خاف "كمتا"، إذا ذهبت فكيف يأكل؟ سيتعب من الطهى بيده. فى النهاية أحضر خادما، لكنه لم يتمكن من العمل بجد، فطرده بعد أن علم أنه يسرق العلف ويبيعه. ثم تشاجر مع زوجته، فغضبت وذهبت إلى منزل أسرتها. تعب "كمتا" كثيرا، وذهب عند "بهولا" منهزما، وقال يتملقه:

– لتسامحنى يا أبى على ما فعلته، تعال معى وأدر شئون المنزل، وسأعيش كما تريد.

كان "بهولا" يكره أن يعيش كأجير، فقد استضافهما "نوكهى رام" فى أول شهرين، لكن الآن تغير الحال؛ فأحيانا يطلب منه "نوكهى رام" تجهيز النارجيلة، بل يطلب أن يجهز الفراش! كان "بهولا" يتجرع السم فى تلك الأوقات وهو صامت، ورغم أنه يتشاجر فى منزله، لكنه لم يكن خادما لأحد!

عندما سمعت زوجته "نهرا" هذا الاقتراح غضبت، وقالت:

– هل ستعود إلى المكان الذى تلقيت فيه الركلات؟ ألا تملك ذرة من الكرامة؟!

قال "بهولا":

– هل أجلس هنا على العرش؟!

قالت "نهرا" وهي تتلوى:

– إذا أردت فلتذهب، أنا لن أذهب!

كان "بهولا" يعرف أن "نهرا" ستعارضه، ويعرف أيضا السبب ويدركه! كان من أهم أسبابها أن أحدا هناك لا يسأل عنها، بينما كانوا هنا يسألون عنها كثيرا، حتى العمال والحراس كانوا يطيعون أوامرها! عندما سمع ردها غضب، لكنه عجز عن فعل شيء، لو كانت لديه الشجاعة لترك "نهرا" وعندها كانت ستتبعه، لأن "نوكهي رام" لا يمكن أن يدعها هنا وحدها، فقد كان رجلا يصطاد من وراء الستار! لكن "نهرا" كانت تعرف طبيعة "بهولا".

قال "بهولا" برجاء:

– انظرى يا "نهرا"، لا تضغطى على! إن زوجتا ابنى ليستا هناك، سيكون كل شيء في يدكِ! إن سمعتى تسوء في القبيلة لعملى هنا كأجير، فكرى في هذا!

أشارت "نهرا" بأصبعها، وقالت:

– إذا أردت الذهاب فلتذهب، أنا لا أمنعك! إذا كنت تحب ركلات ابنك، فأنا لا أحبها! أنا راضية بالعمل بالأجر.

بقى "بهولا"، فذهب "كمتا" إلى زوجته يتملقها، فرضيت وعادت. أما هنا فكان الجميع يتهامس على "نهرا":

– إنها ترتدى اليوم ساريا ورديا، يا للجمال! إذا أرادت فسترتدى ساريا جديدا بلون مختلف؛ إذا كان زوجها هو مدير شرطة المحافظة فلماذا تخاف؟ .... هل أصاب العمى "بهولا"؟!

كان "سوبها" يحب المزاح، بل كان يعتبر مهرج القرية كلها، وكان دائم البحث عن الأسرار. ذات يوم التقى بنهرا فى منزله، فأخذ يمازحها، فاشتكته إلى "نوكهى رام"، استدعاه فى المجلس، وزجره زجرة لن ينساها فى حياته!

ذات يوم حدثت مصيبة؛ "لالا بتيشورى"! كان اليوم حارا، و"لالا" يراقب جمع المانجو من الحديقة، مرّت "نهرا" بقربه، فناداها:

– تعالى يا ملكة "نهرا"! خذى بعض المانجو إنها حلوة.

شكّت "نهرا" أن "لالا" يهزأ بها، كانت تشعر بالزهو، وكانت تريد أن يعلم الناس أن الإقطاعى يكرمها! إن الشخص المغرور دائم الشك، وخاصة إذا كان فى قلبه شىء يزيد شكه! لماذا ضحِك عندما رآنى؟

لماذا يحترق الناس من رؤيتي؟ أأذهب لسؤاله؟ من مِن الناس ليس موصوما؟ ليحضر أمامي لأراه!

عرفت "نهرا" أسرار القرية في هذه الأيام: هذا هو "لالا" يحب صانعة فخار، ويسخر مني! لا أحد يقول له شيئا لأنه رجل ثرى، أما "نهرا" ففقيرة، ومن قبيلة متواضعة لذا يسخر منها الجميع! الابن كأبيه، يجرى وراء "سيليا" كالمجنون، يحطون على المنبوذات، كما يحط النسر على اللحم، ومع هذا يدعون أنهم من علية القوم!

وقفت هناك، وقالت:

– منذ متى صرت كريما؟ لو وجدت خبز أحد لسرقته، واليوم صرت سخيا! إذا كنت تغازلني فلن يكونَ خيرا، وقد حذرتك!

واه، لقد ارتفعت درجتها هكذا، بعد أن أوقعت "نوكهي رام" في شباكها، وتظن أنه مالك الدنيا! قال:

– يبدو من غضبك يا "نهرا" أنك لن تتركي أحدا يعيش في القرية! أمسكي لسانك، ولا تنسي نفسكِ بسرعة!

– هل جئت أتسول عند بابك؟!

– لو لم يكن "نوكهي رام" قد أعطاكِ مكانا، لما أعطاك أحد شيئا حتى لو تسولت!

احترقت "نهرا" بكلام "لالا"، وردّت عليه بكل ما خطر على بالها: يا ذا اللحية، يا دميم الوجه، وأكثر من هذا! دخلت حجرتها وهى ثائرة، وأخذت تخرج أمتعتها، سمع "نوكهى رام"، فحضر وهو خائف وسألها:

– ماذا تفعلين يا "نهرا"؟! لم تخرجين ملابسك؟ هل قال أحد لك شيئا؟

كانت "نهرا" تعرف كيف تلاعب الرجال، وقد تعلمت هذا الفن طوال حياتها. كان "نوكهى رام" رجلا متعلما، يعرف القانون، قرأ الكثير من الكتب الدينية، وعمل لدى كبار المحامين والقضاة، لكنه أصبح اليوم ألعوبة فى يد "نهرا" القروية! عبست، وقالت:

– الأيام دول! لقد حضرت إلى هنا، لكن لن أضيّع كرامتى!

غضب البراهمى، وبرم شواربه، وقال:

– من ينظر إليكِ سأقتلع عينه!

طرقت "نهرا" على الحديد وهو ساخن:

– كلما رآنى "لالا بتيشورى" تكلم معى كلاما سيئا، أنا لست ساقطة ليرينى كل شخص نقوده! هناك نساء أخريات فى القرية، ولم يتكلم أحد عنهن! كل شخص يرمينى بكلمة!

ركب الشيطان "نوكهى رام"، فأخذ عصاه الغليظة وأسرع كالطوفان حتى وصل إلى الحديقة، وناداه:

- لتحضر إن كنت رجلا لمواجهتي! سأنتف شواربك، سأحفر وأدفنك! اخرج، وتعال أمامي؛ لو عاكست "نهرا" سأشرب من دمك، وأستخرج كل علم المساحة الذي بداخلك، تعتقد أن الناس مثلك علام تفتخر؟!

أخفض "لالا بتيشورى" رأسه، ووقف صامتا كالتمثال، لو فتح فمه لنزلت مصيبة عليه! لم يُهن هكذا في حياته، ذات مرة حضر بعض الناس عند البحيرة ليلا وضربوه، لكن لم يعرف أحد في القرية، ولا يوجد دليل عند أحد، لكن اليوم أهين أمام القرية كلها! المرأة التي حضرت إلى القرية بالأمس تبحث عن مأوى، ترعب القرية كلها اليوم! من يستطيع أن يقول لها كلمة؟ حتى "بتيشورى" لم يتمكن من فعل شيء، فماذا يفعل الآخرون؟!

أصبحت "نهرا" الآن ملكة القرية! إذا رآها أحد الفلاحين في الطريق يفسح لها؛ كان سرا معلنا: يمكن الاستفادة من "نوكهى رام" إذا تملقوها، من يريد التقسيم، من يريد مهلة لدفع الخراج، ومن يحتاج إلى بناء منزل على الأرض، لا يمكن أن يتم العمل دون عبادة "نهرا"! كانت أحيانًا تزجر كبار الفلاحين، وهي لا تخيف العمال فقط، بل تخيف صاحب العمل!

لا يريد "بهولا" أن يعيش محتاجا إليها، إن أسوأ شيء في رأيه أن يأكل من كسب زوجته! كان يأخذ ثلاث روبيات شهريا، لكن شيئا منها لا يصل لديه، كانت "نهرا" تنتزعها من المصدر! لم يعد بإمكانه صرف مليم على تدخين التبغ، في حين كانت "نهرا" تدخن تبغا بروبيتين كل يوم! وكل من يراه لا يعمل له حسابا، حتى إن الحفاة يأمرونه بتجهيز

النارجيلة، وقطع الأخشاب، والمسكين عندما يعود فى آخر اليوم متعبا يستلقى على السرير الممزق تحت الشجرة عند الباب، لا يقدم له أحد إبريقا من الماء! كان طعامه ما يتبقى من الماء والملح فقط.

فى النهاية أراد أن يعود إلى منزله، ويعيش مع "كمتا"، إذا لم يجد شيئا فسيأكل قطعة من الخبز وهو فى منزله.

قالت "نهرا":

– لن أذهب إلى هناك لأصبح جارية لأحد!

قال "بهولا" بعد أن استجمع شجاعته:

– أنا لم أطلب منك أن تذهبى، قلت سأذهب أنا!

– ستتركنى وتذهب، ألا تستحى؟!

– لقد شربتِ أنت الحياء!

– لكن لم أشرب حيائى! ولا يمكنك أن تتركنى وتذهب.

– افعلى ما تشائين، لماذا أجعل من نفسى عبدا لكِ؟!

– سأرفع دعوى فى مجلس القرية، وألطخ وجهك بالعار، لتفهم جيدا!

– ألم أتلطخ بالعار حتى الآن؟ أتريدين أن تجعلى منى ديوثا؟!

– أنت تتجرأ علىَّ كأنك تقدم لى كل يوم هدية من المجوهرات، لا يمكن لنهرا أن تتحمل غضب أحد هنا!

وقف "بهولا" غاضبا، وأخذ الفأس من عند رأسه. أراد الذهاب، أمسكت "نهرا" يده، فعجز عن التخلص من قبضتها القوية، جلس صامتا كالمقيد! كان من زمن يداعب النساء بأصابعه، واليوم وقع فى قبضة امرأة، وعجز عن التملص منها! لم يكن يريد أن يفضح نفسه بمحاولة التملص منها، فقد عرف قوته! لكن لماذا لم يقل لها: إنك لست مناسبة لى، ولهذا سأتركك! تهدده بمحاكمة القرية، هل مجلس القرية شىء مخيف؟! إذا كنتِ لا تخافين مجلس القرية، فلم أخاف أنا؟! لكنه لم يستطع أن يواجهها بذلك كأن "نهرا" قد سحرته!

الفصل السادس والعشرون

كان "لالا بتيشورى" مجسدا لأوصاف عامل مساحة، لا يمكن أن يسمح لأحد أن يستولى على بوصة من أرض أخيه، ولا أن يراه يأخذ نقود المرابين. كان واجبه الأول هو الحفاظ على مصالح جميع أهل القرية. لا يؤمن بالتفاهم والصلح، وكان هذا دليلا على القلب الميت! يؤمن بالنضال ويعتبره أساس الحياة، ويحاول الانتصار لهذا النضال، ودائما ما كان يفتعل المشاكل، وكانت تربطه بمنجروشاه صداقة خاصة. كان "منجروشاه" أثرى رجال القرية، لكنه لا يحب التدخل فى شؤون المنطقة السياسية؛ فلم يكن طامعا فى سلطة أو منصب. كان منزله خارج القرية، وقد بنى هناك حديقة، وحفر بئرا، وأقام معبدا صغيرا، لم يكن لديه أولاد لذا كانت تعاملاته قليلة، وكان يصرف كل وقته فى العبادة. كم من فلاح هضم نقوده، لكن لم يقم عليه دعوى! كان "هورى" قد أخذ منه مائة وخمسين روبية مع الفائدة ولم يردها، ولا يفكر فى هذا، ولم يكن "منجروشاه" يفكر فى تحصيلها، طلبها منه مرتين أو أكثر وزجره، لكن كعادة "هورى" جلس والتزم الصمت! فى هذا الفصل كان قصب "هورى" أكثر محصول فى القرية، ولن يربح من بيعه أقل من مائتين وخمسين روبية،

كما كان الناس يعتقدون. أفهم "بتيشورى" "منجروشاه" أن الوقت قد حان ليطلب نقوده من "هورى"، وأنه سيحصل عليها كاملة، لم يكن "منجرو" رحيما مثلما تفرض شيبته، لكنه لا يحب أن يقع فى مشكلة. فلما تعهد "بتيشورى" بأنه سيتحمل العبء كله، وأنه لن يذهب إلى المحكمة ولو ليوم واحد، ولن يلحقه مكروه، وأنه سيفوز فى الدعوى وهو جالس فى مكانه رضى برفعها، وقد دفع مصروفات الدعوى. لم يكن "هورى" يعلم شيئا عن المؤامرة التى تحاك ضده، لم يعلم شيئا عن رفع الدعوى، وفوز "منجروشاه"، علم بهذا فقط عندما حجزوا على قصبه، ووضعوه فى المزاد! اجتمعت القرية كلها حول الحقل، وهرع "هورى" إلى "منجروشاه"، وبدأت "دهنيا" تمطر "بتيشورى" بوابل من السباب لأنها علمت أن كل هذا من صنيعه. لكن "منجروشاه" كان مشغولا فى التعبد، فلم يتمكن من مقابلته! كما لم يؤثر سباب "دهنيا" على "بتيشورى". بيع القصب بمائة وخمسين روبية فى المزاد، وفى النهاية قد رسى المزاد على "منجرو" لأن أحدا لم يتمكن من المزايدة عليه، حتى "داتادين" لم يكترث لسماع سباب "دهنيا". قالت "دهنيا" لهورى تحثه:

- لماذا تجلس؟ لم لا تذهب إلى "بتوارى"؟ أهذا هو دينك مع أهل قريتك؟

قال "هورى" بعجز:

- أتركت شيئا أحدثه فيه؟ ألم يسمع سبابكِ؟!

- من يفعل فعلا يستحق السباب، فجزاؤه أن يسمع السباب!

– أنت تسببينهم، وتريدين أن تقيمى معهم علاقة أخوة!

– سأرى من سيأتي إلى حقلي.

– سيحضر عمال مصنع السكر ويقطعونه، ماذا ستفعلين، وماذا سأفعل أنا؟! أيمكن أن تواسى نفسكِ بسببهم؟! نعم، نعم أنا وأنت نحيا! القرية كلها لا تستطيع منعهم، لم يعد القصب ملكا لى، بل ملكا لمنجروشاه!

– هل روى "منجروشاه" القصب فى شهر جيته وقت الظهيرة؟ هل هو الذى طهره من الأعشاب؟ لقد فعلت أنا كل شىء! لكن الآن أصبح ملكا لمنجروشاه.

– ألم نقترض منه؟!

ضاع القصب، لكن ظهرت معه مشكلة جديدة: كانت "دلارى" قد رضيت بإقراضه النقود مقابل القصب، فبأى ضمان تقرضه؟! كما أن عليه من قبل مائتى روبية، فكرنا أن نأخذ القصب ونعطيها منه النقود القديمة، ثم نحسب الجديد، من وجهة نظرها كانت قيمته مائتى روبية، وإذا دفعت أكثر فستكون مشكلة! لقد آن أوان الخطبة، حدد الموعد، وقد أعد السيد "جورى" كل شىء، فلم يعد تأخير الزفاف ممكنا! كان "هورى" غاضبا، ويريد الذهاب إلى "دلارى" ويشنقها، فقد ترجاها بكل السبل، لكنها كانت كالحجر لا تلين! ذهب إليها مسترحما، وقال:

- "دلارى" لن أفر بعد أخذ نقودك، ولن أموت بسرعة! أملك الحقل، والأشجار، والمنزل، ولى ابن شاب لا يمكن أن تضيع نقودك، لكن كرامتى ستضيع، لتحافظى عليها!

لكن "دلارى" لا تعرف الرحمة فى أمور التجارة، لو كان باستطاعتها أن تكون رحيمة فى التجارة لفعلت، لكنها لم تتعلم الرحمة فى التجارة! عاد "هورى" إلى المنزل وقال لدهنيا:

- والآن؟

صبّت "دهنيا" جم غضبها عليه:

- هى من أرادت الاقتراض منها!

نظر إليها "هورى" بعيون مجروحة:

- أهى مشكلتى؟!

- لا أعرف مشكلة من؟! لكن لم يحدث ما كنت تريد!

- هل تريدين أن أرهن الأرض؟

- إذا رهنتها فماذا ستفعل؟

- أعمل بالأجر!

لكن الأرض كانت غالية عليه، وكانت عزته وكرامته تقوم عليها؛ من لا يملك أرضا فهو ليس فلاحا، بل عاملاً بالأجر!

لم يحر "هورى" جوابا، فسأل:

- ما رأيك؟

قالت "دهنيا" بقلب مجروح:

- ماذا أقول؟! عندما يحضر "جورى" مع أصدقائه فى حفل الزفاف نطعمهم مرة واحدة، ثم تودع ابنتك معهم. وليسخر منا من يسخر، الإله هو الذى يريد لأنوفنا أن تنقطع ويلحق بنا العار، فماذا سنفعل؟!

فجأة رأت "نهرا" تمرُّ وهى ترتدى قميصا وتنورة، عندما رأت "هورى" وضعت حجابها على وجهها، فهى تعتبره صهر زوجها. كانت "دهنيا" تعرفها من قبل، فنادتها:

- إلى أين تذهبين يا نسيبتي؟ تعالى واجلسى.

كانت "نهرا" تريد أن تقيم علاقات ودية مع الناس، فحضرت ووقفت، نظرت "دهنيا" إليها نظرة فاحصة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، وقالت:

- أى ريح أحضرتك إلى هنا؟

قالت "نهرا" بخضوع:

- لقد حضرت للقائكِ فقط، متى يُعقد زفاف ابنتك؟!

قالت "دهنيا" بشك:

- متى شاء الإله!

– لقد سمعت أن الزفاف سيعقد فى هذا الموسم؟

– نعم، نعم! تحدد الزفاف.

– هل ستدعيننى؟

– إنها ابنتكِ أنتِ أيضا.

– لا بد أنكِ قد أعددت أمتعة الزفاف، أرينى إياها.

وقعت "دهنيا" فى حيص بيص، ماذا تقول؟ ساعدها "هورى":

– لم نجهز أى أمتعة حتى الآن، ماذا نفعل بها؟ سنعطيهم ابنتى فقط!

نظرت "نهرا" دون اكتراث، وقالت:

– كيف تعطى ابنتك دون متاع يا سيدى؟!

ضحك "هورى" كأنه يقول: أنت ترين الخضرة فى كل مكان، لكن لا يوجد هنا سوى الجفاف:

– نحن فى ضائقة مالية، كيف أصارحك؟ لا توجد أسرار بيننا!

– ابنك يكسب، وأنت كذلك، فكيف تكون فى ضائقة؟ من يصدق هذا؟!

– لو كان ابنى بارا فلم نبكى؟! لم يرسل لنا خطابا أو ورقة حتى الآن، فكيف يرسل النقود؟!

في ذلك الوقت حضرت "سونا" لتقدم العلف الأخضر للثيران، كانت تحمله على رأسها وتخفى شبابها بحجابها، حضرت ببطء ووضعت حملها، وعادت إلى الداخل.

قالت "نهرا":

– لقد صارت البنت شابة.

قالت "دهنيا":

– إنها تنمو سريعا، لكنها ما زالت صغيرة!

– هل حان الوقت أم لا؟

– نعم، لقد حان. بمجرد أن تحل أزمة النقود ستتزوج فى خلال شهر.

كانت "نهرا" خيّرة بطبيعتها، ومازالت تحتفظ بالنقود التي جمعتها! ماذا لو أعطت هذه النقود كهدية لزواج "سونا"؟ سيعلو قدرها، ويشتهر اسمها فى القرية كلها، وسيقول الناس متعجبين: لقد أعطت "نهرا" كثيرا من النقود، إنها إلهة! وسيمدحها "هورى" و"دهنيا"، ويقصان حكايتها فى كل بيت، وسيرتفع قدرها فى القرية، وبهذا تغلق أفواه الجميع! من سيملك الجرأة ليسخر منها أو يلوك سيرتها؟! القرية الآن كلها عدو لها، بعد هذا ستحبها القرية كلها! أشرقت وجهها بهذه الأفكار وقالت:

– إذا شئتما فسأقرضكما جزءا من النقود وأعيداها إلى عندما تملكان المال.

لم ينظر "هورى" و"دهنيا" نحوها، فهى لم تكن تمزح! كانت الحيرة، والشك والخجل فى عيونهما، كم أخطأ الناس فى فهم "نهرا"!

ثم أكملت:

– كرامتك من كرامتى، لو سخر الناس منك ألن يسخروا منى؟! كيف هذا وقد صرتم الآن أصهارى!

قال "هورى" بخجل:

– نقودك فى المنزل، عندما نحتاجها سنأخذها! الإنسان يعتمد على إخوانه، لكن لو جاءتنا نقود من الخارج، فلم لا ندع نقود البيت؟!

أيّدته "دهنيا":

– نعم، هذا صحيح!

أظهرت "نهرا" كرمها:

– إذا وجدت النقود فى المنزل، فلماذا نمد أيدينا إلى الخارج؟ أنت ستدفع فوائد، وتكتب سندا، أو تحضر شهودا وتعطيه من أجل الكتابة، وستتملقه، لكن إذا كان فى نقودى عيب، فهذا أمر آخر؟!

فقال "هورى":

– كلا، كلا! عندما توجد النقود فى المنزل، فلم نمد أيدينا للخارج؟! إنه أمرٌ بيننا. لن نعتمد على الحقل، لكن لو أردت استرداد نقودك بسرعة، وعجزنا فى ذلك الوقت عن ردها فستشعرين نحونا بالسوء، وتقع مشكلة! لهذا السبب رفضنا، لكنها على كل حال ابنتك!

– لا أريد نقودى بسرعة.

– سنأخذ منكِ، ولن يذهب ثواب زواج البنت بعيدا!

– كم روبية تريد؟

– كم روبية يمكنك دفعها؟

– أيكفيك مائة؟

طمع "هورى"؛ عندما يعطى الإله نقودا دون حساب فلم لا يأخذ كما يريد:

– المائة تكفى، وكذلك الخمسمائة حسب قدرتك.

– لدى مائتا روبية، سأعطيك مائة منها.

حان موعد إشعال المصباح، وبدأ البرد، وغطّت الأرض بحلة زرقاء. ذهبت "دهنيا" إلى الداخل، حيث أحضرت موقدا كى يستدفئوا به. كانت "نهرا" تجلس بينهما كأنها بركة فى نور المصباح! متدلّلة، متزينة، وسيئة الخلق. فى ذلك الوقت كانت عيناها تمتلآن بالمواساة، ويظهر الحياء على خديها، وعلى شفتيها كلام صادق! أخذت تتحدث فى مواضيع شتى، ثم نهضت للذهاب، وقالت وهى متجهة إلى المنزل:

– لتحضر غدا يا سيدى، وتأخذ النقود.

– سأذهب معك.

– كلا، اجلس وسأذهب أنا.

– أريد أن أحملك على كتفي، حتى أوصلك!

كانت مظلة "نوكهي رام" تقع في آخر القرية، وكان الخروج يسيرا. سار الاثنان في الطريق، والصمت يلف أرجاء المكان.

قالت "نهرا":

– لماذا لا تسأل راوت عن سبب تشاجره مع الجميع؟ لا بد أن يعيش بينهم، فلماذا الشجار؟ لا بد أن يكسب الناس في صفه، وهو يتشاجر مع الجميع. إذا كنت لا تستطيع وضعي وراء الحجاب فأنا مجبرة على العمل لدى الآخرين بالأجر! فكيف لا أكلم أحدا، أو أضحك معه، ولا ينظر نحوي أحد ويمازحني؟ كل هذا ممكن إذا وضعني وراء الحجاب! إذا نظر أحدهم نحوي وعاكسني، فماذا أفعل؟ لا يمكنني فقؤ عيونهم! ومن يعش بين الناس بحب فبإمكانه الاستفادة منهم في مائة عمل. يجب مسايرة الزمن، لو كنت تملك في المنزل فيلا فهل سيفيدك في شيء؟ الآن تعمل بثلاث روبيات شهريا، في منزلي مائة جاموسة وأعمل بالأجر، ورغم ذلك فراوت لا يقتنع بهذا الكلام! أحيانا يفكر في العيش مع أبنائه، وأحيانا يفكر في الذهاب للعيش في لكهنؤ، إنه يؤلمني للغاية!

تملقها "هوري":

– هذه طبيعة "بهولا" الجاهلة! لقد أصبح شيخا، فيجب أن يكون قد وعى وهو في هذه السن، سأفهمه!

- لتحضر فى الصباح الباكر، وتأخذ النقود.

- هل نكتب شيئا؟

- لا يمكن أن تأكل نقودى، أنا أعرف هذا!

وصلا إلى منزلها فدخلت، وعاد "هورى" إلى بيته.

الفصل السابع والعشرون

عندما عاد "جوير" إلى المدينة، عرف أن أحدهم قد استولى على المكان الذى يبيع فيه، وقد نسيه زبائنه، وكان يشعر أن المنزل كالقفص! كانت "جهنيا" تجلس وحيدة تبكى، أما الطفل فكان يلهو دائما فى الصحن أو عند الباب، فلم يوجد مكانا آخر للعب، أين يذهبون؟ المنزل يقع على طريق عرضه متر، تنتشر فيه الرائحة العفنة، ولا يوجد وقت للجلوس فى الخارج وقت الحر. لم يكن الطفل يترك أمه للحظة واحدة، إذا كان لا يجد ما يلعب به فماذا يفعل سوى الأكل وشرب الحليب؟ عندما كان فى القرية كانت "دهنيا"، و"روبا" و"هورى" يدللونه، لكن هنا كانت "جهنيا" وحيدة، وأعمال المنزل كلها على عاتقها.

كان "جوير" قد سكر، لم تكن رغباته قد امتلأت كأنه يريد الغوص فى بحر أهواء النفس! لا يريد قلبه عمل شىء، عندما يذهب للبيع يعود بعد ساعة أو ساعتين، لم يكن يوجد ما يشغله، وكان عامل عند الجيران، والحوذى يلعبان القمار طوال الليل، فى البداية كان يلعب كثيرا ليسرى عن نفسه فى وقت الفراغ، وكان دائم الشجار مع "جهنيا". بعد فترة قصيرة تعبت "جهنيا" من هذه الحياة، إنها تريد أن تجلس بمفردها فى

مكان وتتمدد وتنام بلا تفكير، لكنها لم تجد هذا المكان الخالى! كانت دائمة الغضب على "جوبر"؛ فقد صور لها الحياة فى المدينة على أنها شيء جذاب، لكنها لم تكن سوى هذه الحجرة المظلمة! كانت تثور على الطفل أيضا، وأحيانا تضربه وتطرده خارجا وتغلق الباب، حتى تتقطع أنفاسه من البكاء.

وزاد الأمر سوءا أنها كانت حاملا فى طفل آخر، ولا تجد من يساعدها، وكان رأسها يؤلمها معظم الوقت. كانت تعاف الطعام أيضا، حتى أصبحت كسولة تريد الجلوس فى ركن وهى صامتة ولا تكلم أحدا، لكنها كانت تحن لاستقبال "جوبر" الذى لا يرحمها! جف حليبها، ومع هذا كان الطفل يتعلق بثديها دائما، وصار جسدها ضعيفا كقلبها، لو شاءت لانفصلت عن زوجها بسهولة!

كانت تستلقى فيحضر الطفل عند ثديها غصبا يحاول أن يرضع الحليب، كان الآن فى الثانية من عمره، وقد ظهرت له أسنان حادة، عندما لم يكن يجد الحليب كان يغضب، لكن لم تكن لدى "جهنيا" قوة حتى تدفع الطفل عنها، كان الموت يتراقص أمامها فى كل وقت، ولم يعد لديها رغبة فى زوجها أو الطفل، فكلاهما يلين ويرق معها من أجل المصلحة! فى موسم الأمطار أصاب الطفل الإسهال، وترك شرب الحليب، شعرت "جهنيا" بأن بلاء قد زال عن رأسها؛ لكن عندما توفى بعد أسبوع استيقظت فيها مشاعر الأمومة، وأخذت تبكيه.

كانت ذكرى الطفل عند "جهنيا" أغلى من الطفل عندما كان أمامها، وكانت ترتاح منه! الآن صارت تشعر بالهم أكثر من الراحة، وقد استقر الطفل فى قلبها يضحك مطمئنا صامتا، وممتلئا بالحب. عندما تتخيله تشعر بسرور مؤلم، لا يوجد ظهور لظله، وكان الطفل الداخلى عكس الطفل الخارجى، حيث عكس أمامها الباطل، وعدم اليقظة! كان مجسمه الحقيقى فى داخلها، يحيا بأعمالها وأمنياتها الطيبة، وتربيه بشرب الدم عوضا عن الحليب! لم تكن تشعر حتى برائحة احتراق الطعام، ولا الرائحة الكريهة، أو الحجرة المظلمة، لم تشعر بشىء من هذا! وكانت الذكريات تمنحها القوة، إن الطفل الذى كان ثقيلا عليها فى حياته، عاش فى روحها بعد موته، كما أصبحت مشاعر الأمومة جزءا من روحها، فأصبحت لا تعبأ بالخارج! جاء "جوبر" متأخرا أو مبكرا، أراد أن يأكل أو لا يريد، سعيدا كان أو متألما؛ لم تعد تفكر فى هذه الأشياء أو تبالى كم يكسب "جوبر"، وكيف ينفق! كانت حياتها كلها فى الداخل، أما الخارج فكان آلة دون روح!

كان بإمكان "جوبر" أن يشاركها حزنها، ويدخل إلى حياتها الداخلية ويصبح جزءا منها، لكنه كان يعود من عمله القاسى عطشان. ذات يوم قال لها دون اهتمام:

– إلى متى ستبكين الطفل؟ لقد مرت أربعة أو خمسة أشهر.

زفرت "جهنيا" زفرة حارة، وقالت:

– لا يمكنك فهم ألمى، اهتم بعملك واتركنى لحالى!

- هل سيعود الطفل ببكائكِ؟!

لم تكن "جهنيا" تملك ردا، نهضت وغلّت البطاطس فى الإناء، لم تكن تفهم كيف يكون قلب "جوبر" متحجرا هكذا؟!

اشتدّ حب الطفل فى قلبهــا بسبب هذه القســوة، الطفل ملك لها، ولا أحد يشاركها فيه! حتى الآن كان الطفل شيئا خارج قلبها، وجزء منه في قلب "جوبر"، لكن الآن أصبح الطفل كله لها!

يئس "جوبر" من العمل كبائع متجول، فتركه وعمل فى مصنع السكر.

كان السيد "كهنا" قد افتتح مصنعا ثانيا للسكر بعد نجاح الأول، وكان جوبر يذهب هناك فى الصباح الباكر ويعود متعبا فى المساء، ولا يجد فى جسده أى قوة! عندما كان فى الماضى يعمل فى المنزل لم يكن يشعر بأى تعب، وكان يمزح مع جميع الناس فى وقت العمل، وكان يعمل فى ميدان مفتوح وتحت السماء فيعوض ما يفتقده فى المنزل. كان يعمل بمشقة إلا أن القلب كان حرا دائمـا، أما فى مصنع السكر فلا يعمل بمشقة كبيرة، لكن الضوضاء، وأصوات الآلات تضغط على جسده، ودائما كان يخاف أن يزجره أحدهم. كان العمال جميعا فى مثل حالته، وكانو جميعًا يشربون الخمر ويدخنون البانجو ليزيلوا تعب العقل والجسد.

بدأ "جوبر" يعاقر الخمر، ويعود إلى المنزل سكرانا وفي وقت متأخر، ودائما كان يسب "جهنيا" لأى سبب، ويطردها من المنزل، وأحيانا يضربها.

فيما بعد بدأت "جهنيا" تشعر أنها مجرد خليلة، ولهذا يهينها، لو كانت زوجة شرعية لما استطاع أن يعاملها هذه المعاملة السيئة! ولعاقبته القبيلة، ومنعته من الاختلاط بهم، لقد أخطأت خطأ كبيرا عندما فرت معه من منزلها؛ فقد ضاعت كرامتها، ولم تحصل على شيء في المقابل! كانت تشعر أن "جوبر" هو عدوها، فلم تعد تبالى بتقديم الطعام له، ولا تبالى بإطعام نفسها، وعندما كان يضربها كانت تشعر بالغضب، لو استطاعت لقطعت عنقه بالسكين! كان موعد ولادتها يقترب، ومشاكلها تزيد؛ كانت تفكر في أنها ستموت في هذا المنزل فمن سيرعاها، ومن سيساندها؟! ولو استمر "جوبر" في ضربها فستصعب عليها الحياة. ذات مرة ذهبت إلى صنبور الماء لجلب المياه، فرأتها امرأة وسألتها:

- كم مرّ على حملك؟

ردّت عليها "جهنيا" بحياء:

- لا أعرف يا أختى.

كانت امرأة عريضة، سوداء، قصيرة القامة، قبيحة المنظر، وكان زوجها يعمل حوذيا، وهي تملك دكانا لبيع خشب الوقود. كانت "جهنيا" قد اشترت منها الخشب عدة مرات، وكانت هذه حدود العلاقة بينهما.

قالت مبتسمة:

- أعتقد أن شهور الحمل قد اكتملت، وربما تلدين اليوم أو غدا. هل تحدثتِ مع أى قابلة.

قالت "جهنيا" بصوت خائف:

- أنا لا أعرف أحدا هنا!

- كيف وضع زوجك الزيت فى أذنيه؟!

- إنه لا يعبأ بى!

- حسنا، سأرى! عندما ترتاحين فى مكان الولادة من سيخدمك؟ أين حماتك أو سلفتك أو زوجة أخى زوجك أو سلفة كبيرة؟ لتستدعى إحداهن!

- لقد ماتوا بالنسبة لى!

عندما وصل الماء وبدأت تنظف الأوانى، أخذ قلبها يدق خوفا من الولادة: "يا إلهى، ماذا سيحدث؟! سأموت، وهذا أفضل لى! سأفر من المصائب!

بدأ بطنها يؤلمها فى المساء، فأدركت أن وقت المصيبة قد حلّ! أشعلت النار، وأمسكت بطنها وهى مبتلة بالعرق، طهت الأرز، واستلقت على الأرض من الألم. حضر "جوير" الساعة العاشرة مساء، ورائحة البانجو تفوح منه، فقال متلعثما:

- أنا لا أبالى بأحد! من يريد أن يعيش وفقا لرغباتى فليعش أو ليرحل، لا يمكن أن أصبر وأسمع زجر أحد! إننى لم أعبأ بغضب والدىّ اللذين ربيانى، فلم أسمع غضب الآخرين؟ لماذا ينظر رئيس العمال نحوى؟ لا يمكن أن أصبر وأسمع زجر أحد! لولا أن الناس جذبونى لكنت شربت من دمه! غدا سأريه، سيشنقونى، لكن سأريه كيف يكون الرجال.

سأعدم وأنا أضحك، وأبرم شواربى! إن النساء أصحاب مصالح! تطهو الأرز، وتنام وهى تفتح قدميها، وتأكل هى الطعام الشهى وتعد لى الأرز! لتظلمنى كما تشاء، فالإله سيجازيها!

لم يوقظ "جهنيا"، ولم يقل لها شيئا، وضع الأرز فى آنية وهو صامت، وأكل لقمتين أو أربع ونام فى الصحن. عند الفجر شعر بالبرد فنهض ودخل إلى الحجرة ليأخذ الغطاء، فسمع صوت تأوه "جهنيا"، ذهبت عنه النشوة وسألها:

– كيف حالك يا "جهنيا"، هل تشعرين بأى ألم؟

– نعم! أشعر بألم فى بطنى.

– لم لم تقولى شيئا؟ إلى أين سنذهب فى هذا الوقت؟!

– أقول لمن؟!

– هل مت؟!

– هل تعبأ بحياتى أو موتى؟!

شعر "جوير" بالخوف فإلى أين يذهب للبحث عن قابلة؟ وكيف ستحضر فى هذا الوقت؟ لا يوجد شىء فى المنزل، لو أخبرتنى هذه الشيطانة منذ البداية لاقترضت روبيتين أو أربع. كان فى يدى دائما خمسين روبية أو مائة، وكان كثير من الناس يتملقنى، لكن منذ حضرت وجه الشؤم إلى هنا كأن النقود قد غضبت، وأصبحت محتاجا إلى القرش!

فجأة ناداه أحدهم:

– هل زوجتك تتألم؟ أتشعر بالألم أم لا؟

كانت هذه هى المرأة السوداء السمينة التى كانت "جهنيا" قد تحدثت اليوم معها، فقد نهضت لتعطى حصانها العلف فسمعت تأوه "جهنيا"، فحضرت تسأل عنها.

خرج "جوبر" إلى الصحن، وقال:

– بطنها يؤلمها، إنها تتوجع، أتوجد هنا قابلة؟

– لقد تحدثت معها فى هذا اليوم، إنها تسكن فى كتشى سراى، أسرع واستدعها، وأنا سأجلس هنا.

– أنا لا أعرف "كتشى سراى"، أين تقع؟

– حسنا! لتروحها بالمروحة، وسأستدعيها أنا، يقال إن الرجل الجاهل لا فائدة منه! لقد اكتمل حملها دون أن تجد لها قابلة.

قالت هذا ورحلت، يطلق عليها الناس اسم "تشوهيا"، لكن من ورائها يطلقون عليها "متلى"(١)؛ عندما تسمع أحد يقول لها ذلك تسبه إلى سابع جد!

لم يجلس "جوبر" سوى عشر دقائق حتى عادت، وقالت:

---

(١) تعنى فى الهندية السمينة.

– كيف يمكن للفقراء العيش فى هذه الدنيا؟! قالت الأرملة سآخذ خمس روبيات، وعندها أذهب، ونصف روبية عن كل يوم، وفى اليوم الثانى عشر سآخذ ساريا، قلت لها: سأحرق وجهك، اذهبى إلى الجحيم! أولست أما لاثنى عشر طفلا! اذهب يا "جوبر"، وسأقوم بكل شيء؛ يجب على المرء مساعدة الآخرين، لقد ساعدت فى ولادة أربعة أطفال فأصبحت قابلة!

ذهبت وجلست عند "جهنيا"، ووضعت رأسها فى حجرها، وأخذت تمسح على بطنها وتقول:

– لقد علمت اليوم عندما رأيتك، صدقينى أنا لم أنم اليوم بسبب هذا التفكير! أيوجد أحد من أقاربك لمساعدتك؟

زمّت "جهنيا" على شفتيها من الألم وتأوهت، وقالت:

– لن أعيش يا أختى! أنا لم أطلبه من الإله، فقد ربيت طفلا وانتزعه منى فلم أعطانى آخر؟! عندما أموت يا أمى أعطفى على هذا الطفل واهتمى به، وسيجازيك الإله على ذلك!

مسحت "تشوهيا" بحب على رأسها، وقالت:

– اصبرى يا بنيتى، اصبرى! إن الألم والتعب يذهبان فى لمح البصر، أنت أيضا صمتِ عن الحديث عنه، ما المخجل فى هذا؟! لو أخبرتنى لأخذت تعويذة من مولانا، إنه مرزاجى الذى يسكن فى هذا المنزل المسوّر.

بعد هذا فقدت "جهنيا" وعيها، وفى التاسعة صباحا استفاقت فرأت "تشوهيا" تجلس حاملة الطفل، وهى نائمة فى سارٍ نظيف، كانت ضعيفة كأنه لا يوجد دم فى جسدها!

كانت "تشوهيا" تحضر كل صباح عند جهنيا؛ تصنع لها الحلوى، وتحضر أيضا عدة مرات فى اليوم لتدلّك الطفل بالخردل المطحون، وتسقيه الحليب. كان هذا هو اليوم الرابع، لكن لم ينزل الحليب من "جهنيا"، والطفل يبكى بصوت عالٍ لأنه لا يستطيع هضم حليب السوق، لم يصمت للحظة! أرضعته "تشوهيا" من ثديها، مصّ الطفل لدقيقة لكن عندما لم يخرج منه شىء أخذ يصيح. عندما لم ينزل الحليب من "جهنيا" فى مساء اليوم الرابع خافت "تشوهيا" أن يصاب الطفل بالجفاف، فاستدعت طبيبا من نخاس، عندما رآها قال:

– ليس فى بدنها دم فكيف سيكون فيه لبن؟! لقد تعقد الموقف، لا بد أن تأخذ أدوية مقوية لعدة شهور حتى يعود لها الدم وعندها سينزل الحليب، وحتى يحدث هذا سيموت هذا الطفل الذى هو قطعة لحم!

حلّ المساء، كان "جوبر" مستلقيا فى الصحن وهو سكران، وكانت "تشوهيا" تعطى الطفل ثديها فى فمه حتى شعرت أن الحليب قد نزل منها، فقالت وهى مسرورة:

– "جهنيا" ابنك سيعيش، لقد نزل منى الحليب!

قالت "جهنيا" بدهشة:

– حقا؟!

– أقسم بالله!

– أنا لا أصدق هذا!

– انظرى!

ضغطت على ثديها فخرج الحليب، لقد انفجر منها!

سألت "جهنيا"؟

– إن ابنتك الصغرى لا تقل عن الثامنة من عمرها، أليس كذلك؟!

– نعم فى الثامنة، لكن لبنى كان كثيرا.

– ألم تلدى طوال تلك المدة؟!

– هذه البنت هى آخر أبنائى، لقد جف ثدياى تماما لكنه عطاء الله!

أصبحت "تشوهيا" تحضر أربع أو خمس مرات لإرضاع الطفل، كان الطفل ضعيفا لكنه بدأ يتحسن شيئا فشيئا، وأخذ يسمن من لبن "تشوهيا" الدسم. ذات يوم ذهبت "تشوهيا" لتستحم فى النهر، وأخذ الطفل يتململ من الجوع. عادت "تشوهيا" فى العاشرة، كانت "جهنيا" قد وضعت الطفل على كتفها وأخذت تهدهده وهو يبكى، أخذت "تشوهيا" الطفل فى حضنها، أرادت إرضاعه لكن "جهنيا" دفعتها، وقالت:

– اتركيه، من الأفضل لسيئ الحظ هذا أن يموت! لن أدع أحدا يعطف علىّ.

ترجتها "تشوهيا"، فأعطتها "جهنيا" الطفل فى حضنها بعد عدة محاولات.

لم تكن تربط "جهنيا" و"جوبر" علاقة جيدة، حتى الآن كانت جهنيا تعتقد فى نفسها أنه رجل يحب مصلحته، ولا قلب له، لا يعرف سوى راحته ومتعته، لا يكترث إن ماتت أو عاشت، لا يرضى سوى نزواته، ولا يتألم مطلقا! يعتقد أنها إذا ماتت سيحضر أخرى، لكن هذا لم يحدث! أنا التى كنت غبية عندما وقعت فى شباكك! كان يسجد عند قدمى، وعندما حضرت هنا تغيرت معاملته لى. حلّ الشتاء ولا يوجد غطاء فى المنزل ولا فرش، ولم يتبق سوى الخبز والعدس، ويصرف روبيتين أو أربع على شرب الخمر. كان هناك غطاء قديم ينام الاثنان تحته، لكن كان يفصل بينهما مئات الأمتار.

كان "جوبر" يتمنى أن يحتضن الطفل ويطعمه لكن دون فائدة، كان يستيقظ فى الليل وينظر إلى وجهه الجميل، لكن قلبه لم يكن بعيدا عن "جهنيا"! لم تكن تحدثه، ولا تخدمه، ازداد البغض بين الاثنين مع الوقت، كالحديد الذى يعلوه الصدأ، لا يفهم أحدهما كلام الآخر، الأمر الذى زاد نفورهما، ويظلان لعدة أيام يتذكران هذا الكلام فى قلبيهما حتى يتشرب دمهما بهذا البغض، فيستعدان للهجوم كأنهما كلاب صيد!

منذ عدة أيام حدثت مشكلة فى مصنع "جوبر"؛ كانت الحكومة قد رفعت الضرائب عليه، فوجد أصحاب المصنع حيلة لتخفيض الأجور، سيخسرون خمس روبيات فى الضرائب فهى التى سيستقطعونها من الأجر،

وعندما يخسرون خمس روبيات فى الضرائب، فإنهم سيكسبون عشر روبيات عند إنقاص الأجرة! منذ عدة أشهر وهذه المشكلة مشتعلة فى المصنع، وقد استعدت مجموعة من العمال للإضراب، إذا أنقصوا الأجرة فسنقوم بإضراب، فليس مقبولا تقليل الأجرة ولو مليما واحدا! لقد زادت الأسعار، ولم تزد أجور العمال، فلم نشترك معهم فى خسارتهم؟! كان "مرزا خورشيد" رئيسا لجمعية العمال هذه، و"بندت اونكارناته" رئيس تحرير بجلى سكرتيرا لها، وقد أصر الاثنان على الإضراب ليعطوا أصحاب المصنع درسا! لكنهم لم ينظروا مطلقا إلى أن الخسارة ستصيب العمال أيضا فى الإضراب، ولن يجد آلاف الناس لقمة العيش! كان "جوبر" من أوائل المضربين؛ كان شابا قرويًا ساذجا، يحتاج فقط إلى من ينادى، وهو لا يخشى من أن يَقتل أو يُقتل! ذات يوم تجرأت "جهنيا"، وقالت:

- أنت رجل تعيل أسرة، وليس من الخير أن تقفز فى هذه النار!

غضب "جوبر"، ونهض:

- من أنتِ حتى تتدخلى فى شئونى؟ هل طلبت نصحا منكِ؟!

اشتعل الشجار، فضربها بشدة. حضرت "تشوهيا"، وجذبت "جهنيا"، وزجرت "جوبر"، كان الشيطان قد ركب رأسه! جحظت عيناه الحمراوان، وقال:

- لا تحضرى إلى منزلى يا "تشوهيا"، لا دخل لك بمنزلى!

قالت "تشوهيا" ساخرة:

- إذا لم أحضر إلى منزلك فمن أين سآخذ الطعام؟ أنا أشحذ منك ثم أضعه فى المقلاة! لو لم أحضر لما وجدت هذه الزوجة اليوم لتركلها!

قال "جوبر" وقد ضمّ قبضته:

- لقد طلبت منك ألا تحضرى إلى منزلى، أنت التى رفعت شأن هذه الشيطانة إلى عنان السماء!

وقفت "تشوهيا" بثبات ورباطة جأش:

- حسنا، لتصمت الآن يا "جوبر"! لقد ضربت هذه المرأة المسكينة نصف الميتة، هذا ليس شجاعة منك! ماذا فعلت من أجلها حتى يحق لك ضربها؟ ألأنك تطعمها الرغيف؟! لتمدح حسن طالعك أنك وجدت هذه المرأة الصبور كالبقرة! لو كانت أخرى لضربت وجهك بالمكنسة، ورحلت!

اجتمع أهل الحى، ونزلت اللعنات واللوم على "جوبر" من جميع الجهات، حتى الناس الذين كانوا يضربون زوجاتهم فى بيوتهم كل يوم أصبحوا الآن تماثيل للرحمة والعدل! فاستأسدت "تشوهيا"، وصرخت:

- يقول لى بلا حياء لا تحضرى إلى منزلى! يريد أن يربى الزوجة والطفل، لكن ألا يعرف مشقة تربية الطفل وإعالة المرأة؟! اسألوه لو لم أكن إلى اليوم معه كيف كان سيصبح حال هذا الطفل الذى يقفز؟ يضرب زوجته ليرينا شجاعته! لو كنت زوجتك لضربتك بهذا الحذاء على وجهك مرة تلو الأخرى، ولكنت دفعتك خارج الحجرة وأغلقتها، وكنت ستموت جوعا!

ذهب "جوبر" إلى عمله غاضبا، لو كانت "تشوهيا" رجلا لأريته، لكن كيف أتشاجر مع امرأة.

اشتدّت الاضطرابات فى المصنع، والعمال يتجولون يحملون جريدة بجلى، وعندما يجدون فرصة يبدأون فى قراءتها. زاد بيع الصحيفة، وكان زعماء العمال يجلسون فى مكتب بجلى ويتشاورون فى خطط الإضراب حتى منتصف الليل، وعندما تصدر بجلى فى اليوم التالى تحمل هذا الخبر الرئيسى يتكالب الناس على شراء الصحيفة، وتضاعف سعرها مرتين أو ثلاثا! كان رئيس المصنع مستعدا أيضا للحفاظ على مصلحته، فالإضراب ليس فى الصالح؛ العمال ليسوا قليلين، والبطالة منتشرة، ويمكنه أن يجد غيرهم بنصف الأجر وبمنتهى اليسر! سيكسبون النصف فى تجهيز البضاعة، كان العمل سيتعطل لخمسة أو عشرة أيام، لا يهم هذا! فى النهاية اتفقوا على أن يُعلن عن تخفيض الأجرة، وحددوا الوقت واليوم، وأطلعوا الشرطة. لم يصل خبر للعمال الذين كانوا يراقبونهم حتى يحددوا موعد الإضراب، عندما تقل البضاعة فى المخزن نقوم عندها بالإضراب. فجأة عندما كان العمال ذات يوم عائدين فى الليل بعد انتهاء العمل، قام الرئيس بهذا الإعلان، حضرت الشرطة فى نفس الوقت، قام العمال بالإضراب فى وقت لم يكونوا يريدونه؛ فقد كان المخزن ممتلئا بالبضاعة التى تكفى ستة أشهر حتى مع كثرة الطلب!

ضحك "مرزا خورشيد" عندما سمع هذ الخبر، كما يسعد القائد باكتمال خطة لعدوه! وبعد أن فكر بعمق لدقيقة قال:

– حسنا! لو كان هذا رأى الرؤساء فلا حرج! المناخ مناسب لهم، لكننا نعتمد على الحق والعدل، إنهم يسعون لتسيير العمل بإحضار عمال جدد، يجب علينا أن نجتهد حتي لا يجدوهم، هذا هو نصرنا!

عندما وقعت الأزمة اجتمع العمال في مكتب بجلي، وأسسوا لجنة للعمال، وانتخبوا الرؤساء. في الساعة الثامنة مساء خرج العمال في موكب طويل، وفي العاشرة ليلا توصلوا إلى ما يجب فعله في اليوم التالي، واتفقوا على منع حدوث فتن بأى ثمن، لكن جهودهم ذهبت هباء! عندما رأى المضربون عمالا جددا بأعداد هائلة عند باب المصنع خرجوا عن شعورهم، كانوا يعتقدون أن عدد العمال لن يزيد عن خمسين أو مائة في اليوم فيتمكنون من صرفهم بالتهديد، وكان العمال الجدد عندها سيخافون من المضربين لكثرتهم. لكن اختلف الأمر، وفكروا أن هؤلاء جميعا لو دخلوا إلى المصنع فلن يتمكنوا من العودة إلى العمل! اتفقوا على عدم السماح لهم بالدخول، ولم يجدوا بُدًّا من استخدام القوة، كان العمال الجدد مستعدين للضرب والقتل، كان معظمهم جوعى ولا يريدون ترك هذه الفرصة تضيع من أيديهم، والموت في مواجهة هذه المشكلة أفضل من رؤية أطفالهم يموتون جوعا! اشتبك الفريقان: فرّ رئيس تحرير بجلي، أما السيد "مرزا" فقد ضُرب في هذا الشجار، كما جُرح "جوبر" جرحا بالغا وهو يحاول حماية السيد "مرزا". كان "مرزا" رجلا قويا ومصارعا ماهرا، لم يدع أحد يضربه ضربا مبرحا، أما "جوبر" فقد كان من القرويين الذين يعرفون كيف يهجمون، لكن لا يعرفون كيفية حماية أنفسهم، وهو

أمر مهم فى الشجار! انكسرت عظام يده، وجُرح فى رأسه، فى النهاية سقط فى مكانه، وضربه الناس بالعصا على كتفه حتى أصيبت كل أعضائه من شدة الضرب. عندما رأى المضربون سقوطه فروا، وبقى عشرة أو عشرون فقط من المصارعين المهرة، الذين أحاطوا بمرزا. دخل العمال الجدد المصنع يهزون رايات النصر، وبدأ المضربون يحملون جرحاهم، ويذهبون بهم إلى المستشفى، حتى لم يعد بها متسع لهذه الأعداد الغفيرة. دخل "مرزا" المستشفى، أما "جوبر" فقد أخرجوه بعد تضميد جراحه، وأوصلوه إلى المنزل. عندما رأت "جهنيا" "جوبر"جسدا بلا روح استيقظت أنوثتها، حتى الآن كانت ترى فيه القوى الذى يأمرها، ويزجرها، ويضربها! لكن اليوم كان عاجزا، يحتاج إلى الرحمة والشفقة. ركعت "جهنيا" عند السرير، ونظرت إلى "جوبر" بعيون دامعة، وفكرت فى حالة المنزل، فغضبت حزنا على "جوبر". كان "جوبر" يعلم أنه لا يوجد بالمنزل مليم واحد، ولا أمل لديه فى أخذ نقود من أحد! رغم هذا، ورغم إفهامه عدة مرات إلا أنه أحضر هذه المصيبة لنفسه! كم مرة أفهمته بألا يلقى بنفسه فى هذه الكارثة، وأن الناس يشعلون النار ويفرون، والفقراء هم الذين يخسرون! لكن كيف يسمع كلامها وهو يعتقد أنها عدو له؟! الرؤساء هم الذين كانوا يتجولون فى السيارات بلذة! طمأنها وهى غاضبة أنها كانت مع "جوبر" كالذى يمنع الطفل من الجلوس على الكرسى، لكنه يجلس فيسقط وهو يصرخ. حسنا! فليجرب حقيقة الأمر، وما حدث فى هذه التجربة أن رأسك قد انجرح!

لكن عندما سمعت صراخ "جوبر" عادت إلى وعيها، قالت بصوت متألم:

- آه ، آه! لقد جرح كل عضو فيك، ولم يرحمك أحد!

كانت تطيل النظر إلى وجهه، تريد رؤية علامة الحياة فيه بأمل يخبو، وصبرها وقوتها يأفلان كل لحظة كالشمس الغاربة، وظلمة المستقبل تحيط بها!

فجأة نادت "تشوهيا":

- ما حال "جوبر" يا زوجة ابني؟ لقد سمعت الآن، فهرعت من الدكان.

سالت الدموع المنحبسة فى عينى "جهنيا"، لم تستطع أن تقول شيئا! وإنما نظرت إلى "تشوهيا" بخوف. نظرت "تشوهيا" إلى وجه "جوبر"، ووضعت يدها على صدره، وقالت تواسيها:

- سيشفى خلال أربعة أيام، لا تخافى! حدث خير، لقد كان زوجك محظوظا، لأن الكثير من الناس قد ماتوا فى هذه الاضطرابات. ألديكِ نقود؟

هزّت "جهنيا" رأسها بخجل.

- سأحضر لكِ! وسأشترى حليبا، هلمى بغليه.

أمسكت "جهنيا" بقدميها، وقالت:

- يا أختاه، أنتِ والدتى! ليس لى أحد غيركِ.

كان مساء هذا الشتاء حزينا، أشعلت النار، وغلت الحليب، وأخذت "تشوهيا" تطعم الطفل فى الصحن. فجأة قالت "جهنيا" بألم:

- أنا سيئة الحظ، يا أختى! قلبى يخبرنى أن كل ما حدث بسببى؛ إذا كان القلب متألما يخرج منه السباب والدعاء بالسوء، ومن يدرى فقد يكون سبابى قد أصابه....

لم تقوَ أن تقول كلمة أخرى، اختلطت الكلمات بالدموع، مسحت "تشوهيا" دموعها بحجابها:

- كيف تفكرين هكذا يا بنيتى؟! من حسن حظكِ أنه على قيد الحياة، ولتعلمى أن من يتشاجر يسب من أمامه، لكن قلبكِ لا يحتفظ بشىء، لأنه إن كان مبذورا فى القلب لا بُد أن ينبت!

سألت "جهنيا" بصوت مرتعش:

- ماذا أفعل الآن يا أختى؟!

واستها "تشوهيا":

- لا شىء يا بنيتى! اذكرى الله، فهو الذى يحفظ الفقراء!

فتح "جوبر" عينيه فى ذلك الوقت، ورأى "جهنيا" أمامه، فقال بصوت ضعيف فيه رجاء:

- لقد أصبت اليوم يا "جهنيا" إصابة بالغة، لم أفعل شيئا لأحد، وفجأة ضربونى جميعهم! سامحينى على ما فات، كنت أعاملك معاملة

سيئة وهذا هو جزائى! أنا ضيف لوقت قصير ثم سأموت، جسدى كله ينفجر من الألم.

دخلت "تشوهيا"، وقالت:

– ابقَ على السرير، ولا تتكلم، لن تموت أتعهد لك بهذا!

التمع وجه "جوبر" بالألم، وقال:

– هل أنت صادقة، ألن أموت؟!

– كلا، لن تموت ولن يصيبك شيء! أصاب رأسك جرح بسيط، وقد تحركت عظام يدك من مكانها، الرجال يصابون بمثل هذه الجروح ولا أحد منهم يموت!

– لن أضرب "جهنيا" بعد الآن أبدا.

– أنت تخاف أن تضربك "جهنيا"!

– لو ضربتنى فلن أقول لها شيئا.

– هل ستنسى بعد شفائك؟!

– لا يا أختى، لن أنسى!

كان "جوبر" يتكلم فى هذا الوقت كالأطفال؛ يغيب عن الوعى خمس دقائق أو عشرا، وكانت روحه ترفرف هنا وهناك! أحيانا كان يشعر بأنه يغرق فى النهر و"جهنيا" تحضر لإنقاذه، وأحيانا يشعر أن شيطانا

يركب على صدره فينقذه إله على شكل "جهنيا"، وبعد خمس دقائق أو عشرا يفيق، ويسأل فجأة:

– ألم أمت يا "جهنيا"؟!

ظل على هذه الحالة ثلاثة أيام، وقد أنقذته "جهنيا" من فم الموت وهى ساهرة عليه طوال الليل، وواقفة بالنهار ترعاه، وتركت الطفل فى رعاية "تشوهيا". فى اليوم الرابع أحضرت "جهنيا" الحنطور، وركب "جوبر" فيه وأوصلوه إلى المستشفى، وعندما عاد من المستشفى وبعد أن علم أنه سيعيش، قال لجهنيا والدموع تسيل من عينيه:

– لتسامحينى يا "جهونا"!

صرفت "تشوهيا" ثلاث روبيات أو أربعا فى تلك الفترة، وكانت "جهنيا" تستحى أخذ شىء منها فهى ليست غنية، فتشوهيا تعطيها النقود من بيع الخشب. فى النهاية فكرت "جهنيا" أن تعمل، لأن شفاء "جوبر" قد يستغرق شهورا وهم يحتاجون إلى الطعام والشراب والدواء، إذا عملت تستطيع إحضارها. لقد تعلمت منذ طفولتها رعاية البقر، وجمع العشب، هنا لا توجد أبقار لكن الناس يذهبون لجمع العشب ويكسبون ثمانية وأربعين أو ستين قرشا فى اليوم. فى الصباح كانت تغسل يدى "جوبر" وفمه، وتعطية الطفل وتخرج للعمل فى جمع العشب حتى الظهيرة وهى جائعة وعطشى، ثم تبيعها فى السوق، وتعود فى المساء إلى المنزل، وفى الليل تنام أيضا مع "جوبر"، وتستيقظ معه! لكن مع كل هذا التعب

والجهد، كان قلبها مسرورا كأنها فى أرجوحة! تغنى، وتتحدث وتضحك مع صديقاتها وأصدقائها من الرجال، وعندما تعمل تتحدث معهم بسرور، ولا تشتكى من قلة التقدير، ولا سوء الحال! وكان إيثار الآخرين، ومعنى الحياة، والتحدث مع الناس بحرية تمنح أعضاءها كلها اللمعان، كالطفل الذى يقف على قدميه فيفرح ويصفق! إنها تشعر بنفس السعادة، كأن عين السرور انفجرت فى قلبها، لأن القلب إذا كان مسرورا تصبح هى الأخرى مسرورة! كانت أحوالها كلها قد تغيرت فى هذا الشهر، فقد حلّ النشاط فى أعضائها بدلا من الكسل، بل لان جسدها، وأصبحت أكثر دلالا، واختفى الاصفرار من وجهها، واحمرت وجنتاها، وتوهج شبابها الذى كان منطفئا فى الحجرة المظلمة المليئة بالشجار! الآن لا شىء يثيرها، بل أصبحت تصبر على بكاء طفلها بعد أن كان يغضبها، ولم يعد لحبها له حد!

على العكس من ذلك كان "جوبر" قد أصابه اليأس بعد شفائه: عندما نظلم أهلنا، ونقع فى المصائب، وتضيع قوتنا، ونشعر بهذا الألم فى داخلنا، عندها تستيقظ قلوبنا، ونستعد لدفع كفارة عن هذا السلوك! وقد كان "جوبر" مضطرا لدفع هذه الكفارة. كان يفكر فى أن حياته يجب أن تسير بشكل مختلف، لا يجد فيها المرارة بل الحلاوة، ويحل التواضع مكان الغرور، وتعلم أن من يخدم الآخرين هو سعيد الحظ، ولن ينسى هذا أبدا!

الفصل الثامن والعشرون

كان السيد "كهنا" يشعر أن هذا الإضراب لا ضرورة له على الإطلاق، وكان يحب دائما العيش مع عامة الناس لأنه يعتقد أنه فرد منهم؛ شارك ببسالة فى الثورة الوطنية، وكان زعيما للمحافظة فى ذلك الوقت. دخل السجن مرتين من أجل الوطن، وخسر آلاف الروبيات! كان مستعدا لسماع شكوى العمال، لكن لا بد أن يفكر أيضا فى مصلحة شركائه، وكان يمكن أن يترك الفائدة التى تعود عليه شريطة أن توافق فكره، وألا يصيب شركاءه أى ضرر؛ لأن عدم المحافظة على أموال شركائه أمر مخالف للدين، كما أن هذه هى التجارة، ولا يجوز أن يعطى العمال كل شىء! عندما أخذنا أموالا من الشركاء وعدناهم أن نعطيهم خمس عشرة أو عشرين فى المائة أرباحا، وإذا لم يأخذوا عشرا فى المائة أرباحا فسيظنون أن المديرين – خاصة السيد "كهنا" – مخادعون! كيف ينقص من راتبه وهو أقل راتب بين المديرين؟ فهو يأخذ ألف روبية شهريا فقط، وبعض النقود من العمولة، لكن إذا لم يأخذها فكيف ستسير أموره، وكل الأعباء على عاتقه؟! إن العمال يعملون بأيديهم فقط، أما المديرون بعقولهم وعملهم واتصالاتهم، ولا يمكن أن تتساوى القوتان! لم لا يصبر العمال،

ويعلمون أن هذا هو وقت كساد السوق، ولا يوجد عمل فى أى مكان؟ وقد أصبحت الأيدى العاملة رخيصة، لذا يجب أن يشعروا بالسرور حتى لو أخذوا خمسة وسبعين قرشا بدلا من روبية. لكن الحقيقة أننى واثق أن ما حدث لم يكن بتقصير منهم - فهم جهلاء - وما حدث هو من فعل السيد "اونكار ناته" و"مرزا خورشيد"، فهما اللذان يحركونهم كالدمى من أجل بعض النقود، أو طمعا فى الشهرة، لكنهما لم يفكرا كم منزلا سيخرب بسببهما؟!

إذا لم تكن صحيفة "اونكار ناته" تباع، فماذا على "كهنا" فعله؟! وإذا وصل عدد من يشترون الصحيفة إلى المائة ألف وربح خمسمائة ألف روبية فهل سيأخذ منها ما يحتاج ويعطى الباقى للفقراء؟! هذا لن يحدث، وهذا الزاهد السيد "مرزا" كان ذات يوم مليونيرا ولديه آلاف العمال، فهل كان يأخذ ما يكفيه ويقسم الباقى عليهم؟! وإذا كان قد فعل هذا فكيف سافر إلى أوربا، وتعرف على النساء، وكان يشترك فى دعوات كبار الضباط، ويعاقر الخمر شهريا بآلاف الروبيات، وكل عام يسافر إلى فرنسا وسويسرا للنزهة؟! اليوم يتمزّق قلبه على حال العمال! إن "كهنا" لا يبالى بهذين الزعيمين؛ لأنه كان يشك فى صفاء نيتهما، كما أنه لا يقيم وزنا لراى صاحب الذى كان يوافق على كل ما يقال له، ويؤيده! كان "كهنا" يقدر شخصا واحدا بين أصدقائه هو "مهتا"، الذى كان يتسم بعدم التحيز. لكن منذ بدأت علاقته تقوى مع "مالتى" قلّت مكانته فى نظر "كهنا"؛ كانت "مالتى" تملك قلب "كهنا"، لكنه كان دائما ينظر إليها على أنها لعبة!

ومما لا شك فيه أن هذه اللعبة كانت أغلى شيء في نظره، حتى إنه بكى عندما ضاعت منه وأخذها آخر، لكنها كانت مجرد لعبة! لم يكن يقدر "مالتي" على الإطلاق، وهي لم تصل إلى قلبه لأنها تهتم بالمظاهر، لو عرضت نفسها على "كهنا" كي يتزوجها لما قبلها، ولا احتال كي يرفض عرضها! كانت حياة "كهنا" جحيما ككثير من الناس: فهو على جانب يؤمن بالزهد والتعاون، وعلى الجانب الآخر كان يحب نفسه ويعشق الراحة والسلطة، أما وجهة نظره الحقيقية من ذلك فلا نعرفها! ربما كانت نصف روحه تتوق للخدمة والمواساة، والنصف الآخر للأنانية والراحة والسلطة، لكن دائما ما كانت هناك مواجهة بين الأعلى والأدنى والنصف الأدنى هو الذي يتغلب بقوته على النصف الأعلى الممتلئ بالأمن والسكينة! الأدنى خاضع لمالتي، والأعلى خاضع لمهتا، لكن الآن دخل "مهتا" هو الآخر في الجزء الأدنى! لم يكن يستطيع أن يفهم كيف هبط مستوى السيد "مهتا" لمن هي على شاكلة "مالتي"، التي كانت تحب الدلال والراحة وهو لا يعتبر السيد مهتا واحدا مِمن يحبون النزوات، كان يشك أحيانا في أن "مالتي" لها وجه آخر لا يستطيع رؤيته، وليس جديرا به!

بعد تردد، وتمعن في الموضوع توصل إلى أنه يجب أن يسترشد بمهتا في هذه المشكلة. كان الدكتور "مهتا" مستغرقا دائما في العمل، ينام بعد منتصف الليل، ويسهر النصف الآخر. وإذا أراد عمل شيء يبحث له عن وقت، فهو يلعب الهوكي، ويشترك في الندوات الجامعية، وجمعية القرية أو في حفلات الزفاف؛ كل شيء كان له مكان في قلبه ووقت للمشاركة فيه!

كان يكتب المقالات فى الصحف، كما كان يؤلف كتابا ضخما عن الفلسفة بدأه منذ سنتين وقد أوشك على الانتهاء منه. فى ذلك الوقت كان يخترع شيئا وهو جالس، فهو يبحث عن تأثير الكهرباء على النبات، ويرى أثرها وهو جالس فى حديقته، وقد أثبت لجمعية العلوم أنه من الممكن إنبات النبات في وقت قصير بالقوة الكهربائية، وكذلك زيادة الثمار، ويمكن أن تنبت نباتات في غير فصلها، وفي هذه الأيام يقضى ساعتين أو ثلاثا كل صباح في هذه التجربة. عندما سمع "مهتا" كلام "كهنا" نظر نحوه، وقال بمرارة:

– أكان لزاما عليك تخفيض رواتب العمال بعد زيادة الضرائب؟ كان من واجبك أن تشتكى إلى الحكومة، واذا لم تسمع لك فلم تظلم العمال؟! أتعتقد أن إنقاص ربع الأجرة لن يحدث لديهم مشكلة؟! عمالكم يعيشون في الضنك، والقذارة، والرائحة الخبيثة، لو عشت فى مكان كهذا لدقيقة واحدة لتقيأت. الملابس التى يلبسونها لا تحب أن تنظف بها حذاءك، والطعام الذى يأكلونه لا يمكن لكلابكم أكله!... وقد عشت جزءا من حياتهم، وأنت تريد أن تأخذ لقمة عيشهم وتعطيها لشركائك كى يشبعوا بطونهم!

قال "كهنا" بتسرع:

– لكن الشركاء ليسوا جميعا أثرياء، كم واحد منهم قد دفع كل ما يملك فى هذا المصنع! وليس لديهم أى سند سوى ربح المصنع.

رد "مهتا"، كأن كلام "كهنا" لا قيمة له:

– من يشترك في أى تجارة لا يمكن أن يكون مفلسا لهذه الدرجة حتى تعتمد حياته على أرباحها! قد يخفض من عدد خدمه عندما يحصل على أرباح أقل، أو قد يقلل من القشدة والفاكهة، لكنه لا يمكن أن يعيش جائعا عاريا! من يعملون بأرواحهم لهم حق أكثر من الذين يشتركون بالنقود.

هذا هو نفس ما قاله "بندت اونكار ناته"، والسيد "مرزا خورشد"، وحتى زوجته "جوبندى" التى كانت مناصرة للعمال! لكن "كهنا" لم يسمع لهم، وعندما سمعه من فم "مهتا" تأثر؛ لأنه يعتقد أن "اونكار ناته" صاحب مصلحة، و"مرزا" لا يوجد لديه إحساس بالمسؤولية، وهو لا يعتمد على "جوبندى"، أما حديث "مهتا" فيحمل فى طياته العمل والاطلاع والأخلاق. فجأة سأل "مهتا":

– هل استشرت زوجتك فى هذا الأمر؟

قال "كهنا" خجلا:

– نعم سألتها.

– ماذا كان رأيها؟

– مثل رأيك.

– كنت أتوقع هذا، لكنك لا تعتمد عليها!

فى هذا الوقت وصلت "مالتى"، وعندما رأت "كهنا" قالت:

- حسنا، أنت موجود هنا! لقد دعوت السيد "مهتا" اليوم، وقد أعددت كل شيء بيدى، وأدعوك أنت أيضا، وسأستسمح السيدة "جويندى" فى هذا الإثم!

تعجب "كهنا"، فمالتى الآن تجهز الطعام بيديها؟! "مالتى" التى لا ترتدى حذاءها بنفسها، ولا تضغط زر الكهرباء، والراحة كل حياتها! فتبسم وقال:

- لو طبخت بيديكِ فلا بد أن أتناوله، أنا لم أتوقع أنكِ ماهرة فى هذا الفن!

قالت "مالتى" دون تريث:

- لقد جعلنى حكيمة بالضرب المستمر، كيف لا أطيع أوامره والرجل هو الإله!

سر "كهنا" من مزاحها، وغمز "مهتا" وقال:

- لم يكن للرجال أى مكانة فى عينيكِ من قبل!

لم تشعر "مالتى" بالخجل، وفهمت القصد من تلميحه، فقالت بحماس:

- لأنه أفضل رجل فى صفاته بين الرجال من أصدقائى، إنه أفضل وألين رجل!

نظر "مهتا" نحو مالتى بانكسار، وقال:

– كلا يا "مالتى" لتعطفى عليّ! وإلا سأفِر من هنا.

من يصاحب "مالتى" فى هذه الأيام يجدها تغدق المديح على "مهتا"، كما يعلن المريد الجديد عن عقيدته! وهى لا تبالى بأحد، والسيد "مهتا" المسكين يشعر بالخجل من داخله، كان يسمع النقد المر بلهفة ورغبة، لكن عندما يسمع المديح يصبح كالأحمق ويفغر فاه! لم تكن الآنسة مالتى من النساء اللاتى يكتمن ما بداخلهن، بل تظهر أمام الناس، لا تعرف كيف تخفي شيئا في العمل والتفكير والقلب، كما تضطرب عندما ترى ساريا جميلا يمكن ارتدائه، كذلك لا يخطر ببالها شيء جيد وتخفيه! اقتربت "مالتى" منه، ووضعت يدها على ظهره كأنها تحرسه، وقالت:

– حسنا، لا تفر! لن أقول شيئا عنك، أعتقد أنك تحب أن تذمّ أكثر من أن تمدح، سأسمعك ما تريد! يا سيد "كهنا"، إن هذا الشخص حولى بشباك الحب....

كانت مدخنة مصنع السكر تُرى من هذا المكان، نظر إليها "كهنا" وهى تقف، رأسها فى السماء كعمود للشهرة، فلمعت عيناه بالغرور، لا بد أن يذهب إلى المصنع الآن لأنه سيعقد جلسة طارئة مع المديرين ليقنعهم بالأمور الخاصة بذلك الموضوع، ومع هذا كان يفكر كيف ستُحل هذه القضية؟ لكن من أين يتصاعد هذا الدخان بجوار المدخنة؟! كان ينظر إلى السماء وقد امتلأت بالدخان كالبالون، كان الجميع يلتفت نحوها

خائفين من اشتعال النار، نعم إنها النار! فجأة شوهد آلاف الناس فى الشارع يهرعون نحو المصنع، وقف "كهنا" وصرخ فيهم:

- إلى أين تذهبون؟!

وقف رجل، وقال:

- لقد اشتعلت النار في مصنع السكر، ألا تراها؟!

تبادل "كهنا" و"مهتا" النظرات، وأسرعت "مالتى" إلى الفيلا وارتدت حذاءها وحضرت، فلم تكن هناك فرصة للشكوى والأسف. لم يتفوه أحد بكلمة؛ إن الوعى يغيب عن الناس وقت الخطر! كانت عربة "كهنا" واقفة فركب ثلاثتهم فيها وهم خائفون، وهرعوا نحو المصنع. عندما وصلوا إلى الميدان وجدوا المدينة كلها قد تجمعت هناك، إن النار فيها سحر يجذب الناس نحوها! لم تتقدم العربة إلى الأمام.

سأل "مهتا":

- هل أمنتم ضد الحريق؟

أخذ "كهنا" نفسا عميقا، وقال:

- كلا يا أخى، كنا نجهز الأوراق، من كان يعلم أن المصيبة ستحل؟!

تركوا العربة، وأخذوا يزيحون الناس حتى وصلوا أمام المصنع فرأوا أن هناك بحرا من النيران يشتعل فى السماء، كانت ألسنة النار

المجنونة تتَّحد مع بعضها كأنها تضم أسنانها بغضب، وتبرزها كأنها تبلع السماء! كان الدخان شديدا، كأن أمطار ساون تنزل من السماء، وقد وقفت النار ترتعش وتغلي كأنها جبل! كان هناك آلاف الأشخاص في المنطقة المحيطة، كما كان هناك الكثير من رجال الشرطة والإطفاء والمتطوعين، لكن تكاسل الجميع من شدة النار، لم تنفع مياه المطافئ حيث كانت تغيب في بحر النيران، واحترق الطوب والمواسير العديدية، وقد انتشر السكر المحترق في كل ناحية، وشعلة النار تخرج فوق كل هذا. كان "مهتا" و"كهنا" يتعجبان وهما يقفان بعيدا كيف يرى الناس هذا المشهد ولا يفعلون شيئا؟ لماذا لا يساعدون في إطفاء النار؟! لكن الآن عرفا أنه لا فائدة سوى المشاهدة، وفعل أي شيء آخر يخرج عن الاستطاعة. كان الدخول من أسوار المصنع لمسافة خمسين مترا خطراً للغاية؛ لأن قطعا من الطوب والأحجار كانت تنفجر وتطير في السماء، وكان الناس يفرون عندما يتغير اتجاه الريح.

وقف الثلاثة خلف الجمع الغفير عاجزين عن فعل شيء، كيف أصابت النار المصنع؟ كيف انتشرت بهذه السرعة؟ ألم يرها أحد عندما بدأت؟ ألم يحاول أحد إخمادها بعد رؤيتها؟! كانت هذه الأسئلة تدور في أذهانهم، لكن من يسألون؟! كان العمال بكل تأكيد موجودين، لكن من الصعب العثور عليهم في هذا الجمع الغفير.

فجأة هبّ الهواء بشدة، فأصبحت شعلة النار قرب الأرض كالموج في البحر، وفرّ الناس بسرعة، كانوا يتدافعون كأن أسدا يهجم عليهم،

أو كأن الشعلة قد حلّت فيها الروح! عندما تحركت كانت كأنها ثعبان كوبرا بألف فم يخرج النار منه! دُهس كثير من الناس، ووقع "كهنا" على وجهه، كان "مهتا" قد أمسك "مالتى" بكلتا يديه وإلا لدهستها الأقدام هى الأخرى. وقف الثلاثة تحت شجرة تمر هندى عند السور، ونظر "كهنا" إلى مدخنة المصنع كأنه فاقد الوعي! سأله "مهتا":

- أليست إصابتك بالغة؟

لم يجب "كهنا"، بل ظل ينظر نحو المدخنة، لم يظهر أى إحساس فى عيونه كأنه جن! فأمسك "مهتا" بيده، وقال:

- نحن نقف دون داع، وأخشى أن تكون إصابتك بالغة، لنعد!

نظر "كهنا" نحوه كأنه يقول فى جنونه: أنا أعرف الفاعل جيدا، لو كان قد فر بفعلته فالإله سيجازيه!

- أنا لا أبالى بشيء، لو أردت أن أقيم اليوم مصنعا جديدا، نعم جديداً يمكن أن أفعل هذا! ما الذى يعتقده هؤلاء الناس؟ أنا الذى صنعته، لم يصنعنى هو! أنا الذى صنعته، يمكن أن أقيمه مرة أخرى! لكن من فعل هذه الفعلة سأدمره، وأجعله رمادا، أنا أعرف كل صغيرة وكبيرة!

عندما رأى "مهتا" وجهه وحركاته، قال خائفا:

- تفضل حتى أوصلك إلى المنزل، أنت لست على ما يرام.

ضحك "كهنا"، وقال:

– أنا على ما يرام! أُدمِّر هذا المصنع؟ يمكن أن أبنى مصانع مثله فى لحظة واحدة، أنا السيد "كهنا"! "تشندر بركاس كهنا"! لقد وضعت كل ما أملك فى هذا المصنع، ودفعت فوائد عشرين فى المائة فى المصنع الأول، لقد تجرأت على فتح هذا المصنع الذى دفعت نصف تكلفته، واقترضت مائتى ألف روبية من البنك ووضعتها فيه، كنت قبل ساعة بل نصف ساعة مليونيرا! نعم نصف مليون روبية، لكن الآن صرت فى فاقة! لقد خسرت كل شىء، وعلىّ دفع مائتى ألف روبية للبنك، إن المكان الذى أسكن فيه لم يعد ملكى، وكذلك الآنية التى آكل فيها، وسأطرد من البنك! كان الناس يحترقون عند رؤية "كهنا"، الكهنا صار رمادا! لم تعد لى أى مكانة فى المجتمع، ولم أعد جديرا بحب أصدقائى، بل سأكون موضعا للعطف والشفقة! وأعدائى لن يحترقوا منى، بل سيضحكون! أنت لا تعرف يا سيد "مهتا" كم من المبادئ دستها؟! كم رشوة أخذت وكيف طففت فى الميزان؟ ماذا ستفعل بعد سماعك هذا؟! لماذا عاش كهنا حتى وصل إلى هذه الدرجة؟! ليكن ما يكون، لتضحك علىّ الدنيا، ليتأسف أصدقائى، وليسبنى الناس كما يريدون، لكن "كهنا" ليس شخصا بلا حياء، ولا نخوة فيه، لا يمكن أن يعيش ويرى بعينيه ويسمع بأذنيه، بل سيموت!

كان "كهنا" يقول هذه الكلمات، وأخذ يضرب على رأسه ويبكى بحرقة. ضمّه "مهتا" إلى صدره، وقال بلهجة حزينة:

- يا سيد "كهنا"، لتصبر! أنت رجل عاقل، وأنت تقلل من شأنك هكذا. إن المكانة التى ينالها الإنسان بماله ليست مكانة حقيقية، بل هى مكانة الثروة! يمكن أن تكون مفلسا ومع هذا تكون جديرا بالمكانة عند أصدقائك وكذلك أعدائك، بل لن يوجد لك أعداء! تفضل، لتذهب إلى المنزل حتى ترتاح، ويهدأ قلبك.

لم يجب "كهنا" عليه، ووصل ثلاثتهم إلى الميدان، كانت العربة موجودة فوصلوا إلى بيت "كهنا" فى عشر دقائق. نزل "كهنا"، وقال بلهجة مطمئنة:

- خذ العربة، لست فى حاجة إليها.

نزلت "مالتى" و"مهتا"، وقالت "مالتى":

- لتدخل إلى المنزل وترتاح قليلا، سنجلس ونتحدث، لسنا فى عجلة للذهاب إلى المنزل.

نظر "كهنا" نحوهما بامتنان، وقال بلهجة حزينة:

- لتسامحانى على ما أخطأت فيه، "مالتى" و"مهتا"! لا يوجد لى فى الدنيا سواكما، وأرجو ألا تقل قيمتى لديكما؛ فربما أغادر هذه الفيلا خلال خمسة أيام أو عشرة، فقد جافانى حظى!

قال "مهتا":

- أصدقك القول يا سيد "كهنا" لقد زادت مكانتك لدىّ اليوم مثلما لم تكن من قبل!

دخل الثلاثة إلى الحجرة، عندما سمعت "جويندى" صوت فتح الباب، حضرت من الداخل وقالت:

- أحضرتم من نفس المكان؟ لدى خبر سيئ يا سيدى!

انفجر في داخله طوفان من المشاعر، وأراد أن يسقط عند قدمى "جويندى" ويبللها بدموعه، قال متألما:

- نعم، يا حبيبتى لقد دمرنا!

كان قلبه بلا حس، يائسا، مجروحا، يبحث عن السكينة، والحب الصادق، كالمريض الذى ينظر إلى وجه الطبيب برجاء! وقد علم الآن أن "جويندى" التى يظلمها، ويذلها، ويعاملها دائما بجفاء هى سكنه فى الحياة! كان دائما يتمنى موتها، وهى التى كانت تحميه فى حجابها بالدعاء والتفاؤل، كأن الجنة تحت قدميها! كانت كأنها تنفخ الروح فى عروقه حتى تجرى فيها الدماء، حين تضع يدها على رأسه المنكّس! كانت تريد أن تعانقه فى ضعفه هذا، وفى هذه المصيبة الكبيرة. عندما كنا نتنزه بالسفينة كنا نريد أن نقتلع الجبال التى نعتبرها مصدرا للخطر ونحفرها، لكن عندما تتحطم السفينة لا نجد سوى هذه القمم!

أجلسته "جويندى" على الأريكة، وقالت بلهجة محبة:

- لم تتعب قلبك؟ الثروة هى سبب كل الذنوب! فنحن لم نكسب الراحة منها، كنا نواجه المصائب من الصباح حتى المساء بسبب خراب الذمم، وموت الضمائر! كان الأطفال فى شوق للحديث معك، ولم تكن تجد فرصة

لكتابة خطاب لأقاربك، أهذه هى العزة؟! نعم كانت هذه هى العزة لأن العالم اليوم يعبد النقود، هى من تُعبد منذ فترة طويلة وأنت لا قيمة لك! عندما تكون ثريا يحرك الناس أذنابهم أمامك، وفى الغد يسجدون عند أبواب الآخرين كالمتعبدين، وهم لا ينظرون نحوك! الإنسان الصادق لا يحنى هامته أمام الثروة، بل إنه ينظر إلى حقيقتك، فلو وجد عندك الصدق والعدل والزهد والرجولة، عندها يعبدك، وإلا صرف نظره عنك وهو يعتقد أنك لص فى المجتمع! هل أكذب يا سيد "مهتا"؟

قال "مهتا" وكأنه استيقظ من الجنة:

– تكذبين؟! أنت تقولين ما ذكره أعاظم الناس بعد تجربة كبيرة فى الحياة، هذا هو السند الحقيقى فى الحياة!

قالت "جوبندى" مخاطبة "مهتا":

– الثرى لا يلتفت نحوه أحد، بل يلتفتون نحو من يجعل الآخرين حمقى....

قطع "كهنا" حديثها، وقال:

– كلا، يا "جوبندى"! بل يجب أن يملك فطرة إنسانية ليكسب المال، فهو لا يكسبه بمهارته فقط؛ فكسب المال يحتاج إلى الزهد، والتبتل، وهذا أمر أساسى، وقد نعرف الإله بهذا الاجتهاد! إن الاتزان النفسى والجسدى هو الثروة.

لم تعارضه "جويندى"، بل قالت تؤكد كلامه:

– أعتقد أن الإنسان يجتهد كثيرا فى عبادة النقود، لكنها ليست أهم شىء فى حياتنا كما نظن! أنا مسرورة لنزول هذا الحمل عن كاهلك، وسيكون أولادك ذوى نزعة إنسانية، ولن يصبحوا أنانيين ولا تماثيل للغرور! إن الراحة فى الحياة هى فى منح الراحة للآخرين، وليس بنهبهم! لا تفهمنى خطأ، لكن حتى الآن كنت تعتقد أن الحياة هى الراحة والاهتمام بالنفس، لقد حرمنا الإله من هذه النقود، وفتح لك بابا لحياة نظيفة وسامية. لو كنت تشعر بالألم لوقوع هذه المشكلة، فعليك أن ترحب بهذه الحياة. لماذا تعتقد أنها مصيبة؟! لم لا تعتبرها فرصة لمواجهة الظلم؟ أنا أعتقد أن المظلوم أفضل من الظالم! عندما نجد أنفسنا ونضيع أموالنا، لا تعتبر ذلك صفقة خاسرة! ألم تقف إلى جانب العدل وأنت جندى، واستشعرت العظمة والراحة، أنسيت بهذه السرعة؟!

كان وجه "جويندى" الأصفر الجاف يلمع بالجلال، كأن قوة عجيبة قد سكنته، وكأن الخطابة قد أصبحت من سماتها!

كان "مهتا" ينظر نحوها بثقة ويخفض رأسه، معتقدا أنها إلهام من الإله! كانت "مالتى" تشعر بالندم فى داخلها؛ فما أرقى وأسمى أفكار "جويندى" وما أجل حياتها؟!

الفصل السابع والعشرون

كانت "نهرا" من النساء اللاتى تحسن وتمن بإحسانها، وتنشر هذا بين الناس، وتسعى لكسب شهرة بأكثر مما فعلت! ومثل هؤلاء الناس ينالون سوء السمعة بدلا من حسنها، إن عدم الإحسان ليس من سوء السمعة لأن الناس قد لا يستطيعون خدمة الآخرين ولا يتحدث عنهم أحد بسوء، لكن عندما نعمل عملا حسنا ونمُن به يتحول من أحسنا إليه إلى عدوٍ لنا، يريد أن يمحى إحساننا! لكن إذا ظل هذا الإحسان مخفيا فى قلبه حينئذ يصبح إحسانا، لكن عندما يعلنه يصبح أمرا سيئا! كانت "نهرا" تعلن فى القرية كلها: أن المسكين "هورى" كان فى مصيبة كبيرة، ويريد رهن حقله حتى يزوج ابنته، عندما رأيت حالته أشفقت عليه، لم أكن أحب "دهنيا"؛ فهذه الأرملة تسير في الأرض مرحا! كان جسد المسكين "هورى" يضمر من الفكر، ففكرت فى مساعدته فى مصيبته، فالإنسان فى عون أخيه، و"هورى" ليس غريبا عني، شئت أم أبيت فهو من أقاربى! لقد أعطيته النقود، وإلا ما كانت ابنته ستتزوج! لا يمكن لدهنيا أن تسمع هذا الكلام: هل تصدّقت علينا بهذه النقود؟! أهى بهذا الكرم؟! أنتِ تأخذين الربا كالمرابى، فكيف تحسنين إليّ؟! لو أعطيت

الآخرين، لما أخذت رأس المال مع الفائدة! لقد أخذنا منكِ وعندما ستأتينا النقود سنلقيها في وجهك، لقد تجرعنا السم في منزلكِ ولم أتحدث، ولم يدعنا أحد نقف على بابه، لقد أعطيناكِ العزة والكرامة!

كانت الساعة العاشرة ليلا، وقد ظلت غمامة شهر ساون الليلة المظلمة، وكانت القرية كلها غارقة في الظلام. تناول "هوري" عشاءه، ودخن النارجيلة، وأراد أن يذهب إلى الفراش، لكن "بهولا" حضر فسأله "هوري":

– كيف حالك يا أخي "بهولا"؟ لم لا تبني لك منزلا صغيرا مادمت تعيش في هذه القرية؟ الناس يلوكون سمعتك، أيرضيك هذا؟ لا تفهمني خطأ فقد صرنا أصهارا، لذا لا أستطيع أن أسمع ما يسيء لك، فماذا أفعل معك؟

حضرت "دهنيا" في هذا الوقت لتضع إبريقا من الماء بجوار رأسه، فسمعته فقالت:

– لو كان رجلا غيرك لقطع رأس مثل هذه المرأة!

زجرها "هوري":

– لم تقولين هذا؟ ضعي الماء واذهبي للنوم، هل أقطع رأسك إذا مشيت في طريق السوء؟ وهل ستتركينني أفعل هذا؟!

رشته "دهنيا" بالماء، وقالت:

– أختك هي التي تسير في طريق السوء، لماذا أسير أنا في هذا الطريق؟! كنت أردد ما يقوله الناس فأخذت تسبني، أأصبح فمك يقطر

عسلا الآن؟! المرأة التى تذهب أينما تشاء، وزوجها يراها فلا يحرك ساكنا لا أعتبره رجلا!

كان "هورى" يشعر بالندم فى داخله، لأن "بهولا" قد حضر لديه ليقص شكواه فهاجمته! قال غاضبا:

– تفعلين ما تريدين طوال الليل، أفعلت لكِ شيئا؟! وعندما أقول شيئا تركضين نحوى لتلدغيني، تذكرى هذا؟

لم تكن "دهنيا" تعرف التملق، فقالت:

– لو انكسر وعاء السمن، وأشعلت الزوجة المنزل قد يسامحها الرجل فى كل هذا! لكن لا يمكن أن يسامحها إذا سارت فى طريق السوء!

قال "بهولا" بلهجة حزينة:

– كلامك صحيح، لا بد أن أقطع رأسها يا "دهنيا"! لكن الآن لا سيطرة لى عليها، لقد حاولت إفهامها ففشلت، لتفهميها أنتِ!

– إذا كنت لا تستطيع السيطرة على زوجة، فلم تزوجت؟! لقد ساءت حالتك هكذا! أظنت أنها ستحضر لتدليك قدميك، وتقدم لك النارجيلة، وتخدمك فى مرضك خدمة كاملة؟ لا يمكن لامرأة فعل هذه الأشياء إلا تلك التى عاشت معك منذ شبابها! لا أعرف كيف وقعت فى حبها؟ كان لزاما عليك أن تعرف سلوكها وحقيقتها، لكنك سقطت فى مخالبها كثعلب جائع! واجبك الدينى هو قطع رأسها بالفأس، قد تموت جزاء فعلتك، لكن ذلك أفضل من أن تسوء سمعتك!

اشتعل الدم فى عروق "بهولا"، وقال:

- أهذا هو رأيكِ؟

قالت "دهنيا":

- نعم، هذا رأيى! لن تعيش خمسين سنة أو مائة حتى تظن أن عمرك سيضيع!

زجرها "هورى" بقوة:

- هل أنتِ صبور؟ حتى العصفور لا يعيش فى القفص رغما عنه، فكيف يعيش الإنسان؟! لتطلقها يا "بهولا "وتعتبرها قد ماتت، وتذهب وتعيش مع أبنائك فى راحة، وتكتفى بما يسد رمقك وتتعبد. لقد ولّت راحة الشباب، إنها امرأة مدللة، لن تجد منها سوى سوء السمعة والعذاب!

من المستحيل أن يفارق "بهولا" زوجته "نهرا"، غير ممكن! فى ذلك الوقت كانت "نهرا" كأنها تنظر إليه بعيون حادة غاضبة، لكن كلا، سيطلقها "بهولا" لتنال جزاء فعلتها!

انسابت الدموع من عينيه، وقال:

- يا أخى "هورى" أنا أعلم كم ساءت سمعتى من جرائر هذه المرأة! تشاجرت مع "كامتا" بسببها، وكأن المكتوب علىّ هو هذا العار! وتطعننى كل يوم بأن ابنتى قد فرت، لكنها تعيش مع زوجها، تعيش معه فى السراء والضراء، فى الصحة والمرض، أما هذه المرأة فتضحك مع الآخرين،

وعندما تراني تصمت! أنا رجل فقير، وأعمل بربع روبية في اليوم، فمن أين يأتي الحليب، والزبادي، والسمك، والقشدة؟!

بعد أن تعهد "بهولا" بأن يطلق زوجته، عاد إلى منزله حتى يعيش مع أبنائه، لقد تحمل الكثير من الهموم. لكن في صباح اليوم التالي رآه "هوري" عائدا من عند دكان "دلاري سيتهاني" بعد شراء التبغ، علم "هوري" أنه لا ينبغي له أن يناديه، فالإنسان عاجز في الحب! عندما حضر من هناك، قال لدهنيا:

– "بهولا" لا يزال هنا، لقد سحرته "نهرا" بالفعل!

جعدت "دهنيا" أنفها، وقالت:

– ياالقلة حيائها، وهو مثلها يجب على مثل هذا الرجل أن يغرق نفسه في الماء، لا أعرف أين ذهبت رجولته، عندما حضرت "جهنيا" إلى منزلنا كان يدور حاملا عصاه لضربها، كان يشعر بالكرامة، فأين ذهبت كرامته الآن؟!

أشفق "هوري" على "بهولا":

– المسكين يدمر نفسه في شبكة هذه المرأة اللعوب! كيف يتركها؟ هل ترك مثل هذه المرأة أمر سهل؟ هذه الشيطانة لن تدعه يذهب هناك ليعيش في راحة، سترفع ضده دعوى في مجلس القرية، وستطالب بالمأكل والملبس. الآن لا يعرف إلا أهل القرية، وهم يفكرون قبل قول

شيء له، ويتهامسون فيما بينهم، لكن فيما بعد ستتحدث الدنيا كلها بالسوء عن "بهولا"، وسيقول الناس ماذا تفعل المسكينة إذا كان الرجل قد ترك زوجته؟! عندما يكون الرجل سيئا يقطع عنق زوجته، لكن عندما تكون المرأة سيئة فهي تصِمُ زوجها بالعار!

بعد شهرين انتشر في القرية خبر أن "نهرا" قد ضربت "بهولا" بحذائها ضربا مبرحا على رأسه!

كان موسم الأمطار قد انتهى، وبدأ الاستعداد لحرث الأرض فى الربيع، كان قصب "هورى" قد بيع فى المزاد العلنى، فلم يتمكن من أخذ نقود لشراء البذور، ولم يستطع حرث القصب. على الجانب الآخر كان ثور الميمنة قد شارف على اعتزال العمل، ولا يمكن الحراثة بغير ثور جديد، وحدث أن غرق أحد ثورى "بنيا" فى الترعة، ومن ذلك الوقت وقع فى مشكلة كبيرة؛ فقد كان يحرث حقل "بنيا" مرة، وحقل "هورى" مرة لكن الحقول لم تحرث جيدا.

أخذ "هورى" المحراث، وذهب إلى الحقل، لكن كان يفكر فى "بهولا"، لم يسمع فى حياته عن امرأة ضربت زوجها بالحذاء! كيف، وهو لم يصادف امرأة تصفع أو حتى تضرب بقبضتها، لكن اليوم ضربت "نهرا" "بهولا" بالحذاء، ووقف الناس يشاهدون! كيف يتخلص من هذه المرأة الخبيثة؟ يجب على "بهولا" الآن إغراق نفسه، إذا لم يعد فى الحياة إلا سوء السمعة وفقدان الكرامة، فالأفضل للرجل أن يموت! من سيبكى "بهولا"؟ ربما يدفنه أبناؤه حيا، لكن لن يدمع أحد عليه، كم يدمر الرجل نفسه!

عندما يحب امرأة لا يوجد هناك من يبكيه، كيف يجد اللذة فى الحياة؟! وكيف يخاف من الموت؟!

من ناحية كانت هناك "نهرا"، وعلى الجانب الآخر "سليا" المنبوذة؛ كانت أجمل منها وتطعم شخصين، وكان بإمكانها أن تعيش كملكة، لكنها تعمل وتموت من الجوع وهى فى انتظار زوجها! لكن هذا الظالم لا يسأل عنها! لو ماتت "دهنيا" لأصبح حال "هورى" مثلها، عندما مرّ الموت بخاطر "هورى" وتسمر شعره، وتخيل "دهنيا" أمامه كآلهة للعبادة والزهد، حادة اللسان، لكن تحمل قلبا معطاء، وتموت على كل قرش، لكن تضيع كل شيء حتى تحافظ على العزة! ألم تكن جميلة فى شبابها؟ من تكون "نهرا" أمامها؟! عندما تسير كانت كالملكة، ومن يراها يحدق فيها. فى ذلك الوقت كان "بتيشورى وجهنجرى" شابين، عندما كانا يريانها يضعان أيديهم على صدورهم، ويدوران حول المنزل مائة مرة! كان "هورى" ينتظرهم دائما، لكن لم تحن له فرصة. في ذلك الوقت كانت حالة المنزل سيئة فيما يتعلق بالأكل والشرب؛ فقد دُمِّر الحقل بسبب الجليد، حتى العلف لم يبق فيه، وكان الناس يعيشون على البرقوق. ذهب "هورى" للعمل فى معسكر للقحط، وكان يأخذ ستة قروش فى اليوم، وكانت "دهنيا" تعيش في المنزل وحيدة، لكن أحدا لم يرها تنظر إلى الرجال، عاكسها "بتيشورى" مرة فزجرته زجرة لم ينسها حتى الآن!

فجأة رأى "ماتادين" يتجه نحوه، ذلك الظالم! كيف يضع العلامة الدينية الحمراء على جبينه كأنه متدين، ورع أمام الإله؟ ذلك الثعلب المحتال! كيف يؤمن أحد على يد هذا البابهن؟!

حضر "ماتادين" قربه، وقال:

– لقد أصبح ثور الميمنة طاعنا فى السن يا "هورى"، إنه الآن لا يستطيع تشغيل الساقية فى هذا الفصل، ألم تشتره منذ خمسة أعوام؟!

وضع "هورى" يده على ظهر الثور، وقال:

– أتقول منذ خمسة أعوام؟ لقد بدأ عامه الثامن يا أخى! أود أن أجعله يعتزل العمل، لكن لا يمكن للفلاح ولا لثيرانه اعتزال العمل إلا إذا حل القضاء! عندما أضع حول عنقه المحراث يشعر قلبى بالألم، فالمسكين يعتقد أن لا حق له فى الراحة حتى الآن! أبإمكانه حراثة حقلى؟ لكن لا أستطيع فعل شىء! كيف حالك؟ أأنت بخير الآن؟!

كان "ماتادين" قد أصابته الحمى الموسمية منذ شهر، وذات يوم توقف نبضه حتى إنهم أنزلوه عن الفراش! فى ذلك الوقت جال فى خاطره أن هذا جزاء ظلمه لسليا، فعندما طردها من المنزل كانت حاملا، ولم يشفق عليها قط! ورغم ثقل الحمل كانت تعمل، لو لم تشفق عليها "دهنيا" لماتت، إذ كيف يمكن أن تعيش بعد هذه المصائب كلها؟ كما لا يمكنها العمل وهى على هذه الحالة! وقد حضر إلى "هورى" برقة وندم ليعطيه روبيتين ليوصلهما إلى "سليا"، وكان يعتبر هذا إحسانا كبيرا منه!

اقترب "هورى"، وقال:

– لم لا تذهب وتعطيهما لها؟

قال "ماتادين" بانكسار:

– لا ترسلني إليها يا سيد "هورى"، وهى تزجرنى؟ رفقا بى! لا أستطيع السير، ومع هذا ذهبت إلى أحد زبائنى على بعد ميل لإحضار هذه النقود، لقد أخذت جزاء فعلتى مضاعفا، أنا عاجز عن حمل ثقل كرامة بابهن؛ ففعل السوء جائز فى الخفاء، لكن لا يمكن فى العلن وإلا لحقت بكرامتى العار! أخبرها أن تسامحنى على ما فعلته بها أنا ووالدى، إن الرباط الدينى متين للغاية! ولا بد أن أحمى كرامة المجتمع الذى ولدت فيه. إذا أسىء إلى دين أى قبيلة فلا ضرر فى هذا، لكن عندما يسوء دين أحد البابهن فإن كل شىء يذهب أدراج الرياح! دينه هو إرث أجدادى لأنه يأكل به الخبز، لقد ضاعت ثلاثمائة روبية من أجل التوبة! عندما أعيش بلا دين سأعمل ما أريد أمام الناس! إذا كان الإنسان يعيش فى مجتمع ويحترمه، فلم لا يحترم الإنسانية والدين؟ عندما تحترم المجتمع يبادلك الاحترام، لكن عندما نحترم الإنسان يفرح الإله!

فى المساء عندما أعطى "هورى" لسليا النقود وهو خائف، كانت كأنها أخذت ثمرة عملها! تستطيع حمل الثقل لوحدها، لكن لا أحد يستطيع التمتع بالراحة بمفرده! من تخبره هذا الخبر السار؟! لا تستطيع إخبار "دهنيا" بما فى قلبها، ولا يوجد فى القرية من تربطها به صلة وثيقة. كانت الفئران تقفز فى صدرها! كانت "سونا" صديقتها، وقد اشتاقت للقائها، كيف ستصبر طوال الليل؟! اضطرب قلبها، إنها ليست وحيدة الآن! لقد أحبها "ماتادين"، ولم يعد طريق حياتها خندقا مخيفا ومظلما،

بل وجدت أمامها واحة خضراء، تغنى فيها الشلالات، وتقفز الغزلان، حبها الحزين قد سكر اليوم! كم كانت تسب "ماتادين" فى قلبها، أما الآن فتطلب له المغفرة؛ الحقيقة لقد أخطأت فى الإساءة إلى كرامته أمام القرية كلها! هى منبوذة فكيف تفسد عليه دينه؟ لو أطعمت القوم بعشر روبيات أو عشرين لأصبحت من القبيلة، أما المسكين فقد صار بلا دين إلى الأبد! لا يمكن أن تعود كرامته الآن! فى ذلك الوقت كانت عمياء وهى تذيع خبر حبهما، لقد ضاع دينه، ووقع فى هذه المصيبة، لم ركب الشيطان على رأسها؟ لو ذهبت إلى منزلها ما الذى كان سيصيبها؟ لن يربطها أحد فى البيت! كان الناس جميعا يعبدون "ماتادين" لأنه من أهل الدين، فلما ذهب دينه فلماذا لا يقضى عليها؟!

قبل قليل كانت كل الأخطاء تراها فى "ماتادين"، والآن تراها فى نفسها! لقد ولد العطف من العطف، ضمّت طفلها إلى صدرها بحب ودللته، لم تشعر بالندم وهى تنظر إليه الآن، فهو لا يحتاج إلى الرحمة بل إلى الأمومة الكاملة!

كان الأول من شهر كاتك، حيث يضىء البدر الفضاء كأغنية حلوة! خرجت "سليا" من المنزل، ستذهب إلى "سونا" لتخبرها بالنبأ السعيد، لن تستطيع الانتظار! مازال الليل فى أوله، كانت العبارة فى الضفة الأخرى، ولا يعرف مكان الملاح. كان القمر كأنه يذوب فى النهر. وقفت تفكر لحظة، وشقّت عباب النهر، لم يكن فى النهر ماء كثير، سعادتها التى كانت كالبحر لا حقيقة للنهر أمامها! فى البداية وصل الماء حتى

ركبتيها، ثم وصل إلى وسطها، وفى النهاية بلغ عنقهـا، خافت "سليا" أن تغرق، وتزل قدمها فى حفرة، لكن تقدمت بشجاعة، بيد أنها وقعت فى دوامة، كان الموت يتراقص أمامها لكنها لم تفزع، كانت تعرف السباحة؛ كم مرة فى طفولتها سبحت فى النهر! وكم مرة عبرت هذا النهر على قدميها؟ كان قلبها يدق، لكن بدأ المـاء يقل، فلم الخوف؟ عبرت النهر بسرعة، وعندما وصلت إلى الضفة الأخرى عصرت ملابسها، وأخذت ترتعش من البرد. كان الصمت يلف المكان، ولم يكن هناك حتى صوت الثعالب، لقاؤها مع "سونا" قد يجعلها تطير من السعادة.

لكن عندمـا وصلت إلى القرية، وذهبت إلى منزل "سونا" أخذت تفكر: ماذا سيظن "متهرا"؟ وماذا سيقول أهله؟ ستزجرها "سونا": لماذا تحضر فى هذا الوقت؟! فى القرى ينام الفلاح عند بداية الليل لأنه يتعب طوال النهار، كانت القرية كلها تغط فى النوم، وباب منزل "متهرا" مغلقا، لم تستطع "سليا" طرقه؛ فماذا سيقول الناس عنها فى هذه الحالة؟ كانت هناك نار عند الباب قد خمدت قليلا، ذهبت "سليا" لتجفف ملابسها، فجأة فُتح الباب، ونادى "متهرا" وهو يخرج:

– حسنا، من يجلس هناك عند النار؟!

وضعت "سليا" حجابها على وجهها بسرعة واقتربت، وقالت:

– أنا "سليا"!

– كيف حضرت فى هذا الوقت من الليل يا "سليا"؟ أكل شىء على ما يرام؟!

– نعم، كل شيء على ما يرام! كنت مضطربة، ففكرت أن أحضر هنا للقائكم، لا توجد فرصة في النهار.

– هل عبرت النهر بنفسك؟

– وكيف أحضر إذن؟ لم يكن ماء النهر عميقا.

أدخلها "متهرا"، كانت حجرة الاستقبال مظلمة، أخذ بيد "سليا" وشدها ناحيته، جذبت "سليا" يدها، وقالت بغضب:

– اسمع يا "متهرا"، إذا غازلتني فسأخبر "سونا"، فأنت زوج أختي الصغرى، أتفهم هذا؟ أرى أنك لم تشبع من "سونا" بعد!

وضع "متهرا" يده على وسطها، وقال:

– أنت قاسية يا "سلو"! من سيرانا في هذا الوقت؟

– أأنا أجمل من "سونا"؟! يجب عليك أن تمدح حسن طالعك لأنك تزوجتها، والآن تريد أن تصير كالدبور! لو أخبرتها فلن ترى وجهها بعد ذلك.

لم يكن "متهرا" ماجنا، كما كان يحب "سونا"، لكن عندما رأى شباب "سليا" في هذا الوقت المظلم والخالي تحرك قلبه، وقد تنبه بعد هذا التحذير، ترك "سليا" وقال:

– أسجد عند قدميك يا "سلو"، لا تخبريها! الآن اقتصي مني كما تريدين.

أشفقت "سلو" عليه، فصفعته على وجهه صفعة خفيفة، وقالت:

– هذا هو جزاؤك، حتى لا تفعل هذا معى مرة أخرى ولا مع غيرى! وإلا ستضيع "سونا" من يدك.

– أقسم لك يا "سلو" ألا أعود لهذه الفعلة.

كان صوته مليئا بالرجاء، فتحرك قلب "سلو" وتحولت شفقتها إلى حب:

– ولو فعلت؟

– لتفعلى عندها ما تريدين!

اقتربت "سلو" من فمه، وارتعش جسدهما وأنفاسهما وصوتهما، فجأة نادت "سونا":

– مع من تتحدث هنا؟!

تراجعت "سلو"، وتقدم "متهرا" حتى وصل إلى الصحن، وقال:

– لقد حضرت "سلو" من قريتك.

سارت "سلو" خلفه ببطء، ووقفت فى الصحن حيث شاهدت الراحة التى كانت "سونا" تعيش فيها؛ كان فى البهو فراش عليه مفرش ناعم – كذلك كالموجود على فراش "ماتادين" – ووسادة ولحاف، وتحت السرير وضع إبريق من الماء، وقد أضاء القمر الصحن كالمرآة، فى إحدى الأركان كانت هناك صرة من الريحان، وفى الجانب الآخر كانت هناك أعواد من

الشعير موضوعه على الجدار، وفى الوسط أعواد من القمح وبجوارها مطحنة صغيرة، وعندها أعواد من الأرز. كان نبات اللوف على السقيفة، حيث يمكن رؤيته، وفى جهة أخرى من البهو ربطت بقرة، كان "متهرا" و"سونا" ينامان فى هذا المكان، والآخرون ينامون فى مكان آخر. فكرت "سليا" فى حياة "سونا" الرغدة! نهضت "سونا"، وحضرت إلى الصحن، لكن دون قصد لم تعانق "سلو"، ظنت "سلو" أنها ربما تفكر فى سبب وقوف "متهرا"؟ أم أن الغرور قد أصابها؟! لعلها تظن أن تقبيل سلو المنبوذة يسيء لكرامتها! برد حماسها كله، وبدلا من السعادة باللقاء تولد لديها الحسد، كم نضرت "سونا"، واستدار جسدها، وامتلأ لحمها، وتلألأ على وجهها ضحكة الشباب، ورونق زوجة الفلاح؟! وقفت "سليا" مبهوتة للحظة: هل هذه هى سونا التى كانت ترقص هنا وهناك بجسدها الجاف، وشعرها المشعث؟! لم يكن شعرها يدهن بالزيت لشهور، و كانت ترتدى الملابس القديمة الممزقة، اليوم أصبحت ملكة المنزل! فى جيدها عقد وسلسلة، وفى أذنيها قرط ذهبى، وفى يدها أساور من الفضة، كانت مكتحلة العينين، وعلامة الزوجية الحمراء فى مفرقها، كانت الجنة لسليا هى ما تراه هنا! لم تسر "سونا" برؤيتها، يالها من مغرورة، هى التى كانت تعانق "سليا"، وتضع يدها حول عنقها، وتذهب معها لإحضار العشب، اليوم لا تنظر نحوها! كانت تظن أن "سونا" ستعانقها، وتبكى طالبة منها الجلوس باحترام، وتطعمها، وتسألها الكثير من الأسئلة عن القرية، وتحكى لها تجربتها الجديدة، وتخبرها عن ليلة الزفاف، لكن "سونا" وقف الكلام فى فمها، وندمت هى الأخرى على حضورها إلى هنا!

فى النهاية سألتها "سونا" بجفاء:

– كيف حضرت فى مثل هذا الوقت من الليل يا" سلو"؟!

أمسكت "سلو" دموعها، وقالت:

– كنت أريد أن ألقاكِ، فقد مر وقت طويل منذ آخر لقاء بيننا.

قالت "سونا" بحدة:

– لكن من يحضر للزيارة يحضر فى النهار، وليس فى مثل هذا الوقت المتأخر!

كانت "سونا" فى الحقيقة تكره مجيئها فى هذا الوقت؛ لأنه وقت الراحة، والتسلية، والكلام، والضحك، كأن "سلو" قد أخذت من أمامها آنية معدة للأكل!

وقفت "سلو" صامتة وهى تنظر إلى الأرض، لم لا تنشق وتبتلعها؟! كم تحملت فى حياتها الإهانة، ورأت تحقير كرامتها، لكن اليوم دخل شوك فى قلبها! لم يحدث لها هذا من قبل، كالعسل الأسود المحفوظ الذى لا تضره الأمطار، لكن عندما يوضع فى الشمس حتى يجف فلو وصلته قطرة ماء لأفسدته! كان قلب "سليا" قد امتلأ بالأحاسيس الرقيقة فى ذلك الوقت انتظارا لأن تمطر السماء مطرا عذبا، لكنها أمطرت السم بدل الحلوى، وقد أخذ ينتشر فى جسد "سليا" التى كانت تضطرب بشدة! لو أصابتها فاقة وهى نائمة فى المنزل فهذا يمكن تحمله، أما أن

تطرد فهذا شيء آخر! كانت "سليا" تكره أن تقف هنا ولو للحظة، كأن أحدهم يشنق عنقها! لم تستطع السؤال عما يدور في قلب "سونا"، فقد يخرج ثعبان من حفرتها، وكانت تريد أن تفر من هنا أولا، كيف تفر؟! كيف تحتال لهذا؟ لم لا تخرج روحها؟! أخذ "متهرا" مفتاح المطبخ لإحضار طعام لسليا، لكنه ظل واقفا وهو صامت. كانت أنفاس "سليا" متقطعة، كأن هناك سيفا معلقا على رقبتها!

كان خطأً فادحا في نظر "سونا" أن ينظر رجل إلى امرأة أخرى، أو تنظر امرأة إلى رجل آخر، ولم تكن لتسامح في هذا الخطأ! فالنهب، والقتل، والغش لا يقاس بهذا الجرم! إنها لا تكره الضحك لكن في العلن، أما المزاح في الخفاء فيعد ذنبا كبيرا! منذ طفولتها كانت تعي الكثير من عادات وتقاليد المجتمع، عندما كان "هوري" يتأخر وتعرف "دهنيا" أنه ذهب إلى دكان دلاري، حتى لو ذهب لشراء التبغ فلا تكلمه لأيام، ولا تقوم بأي عمل منزلي. ذات مرة فرّت إلى بيت والدها لهذا السبب، وكان هذا هو التفكير الذي ترعرعت عليه "سونا". لم يكن هذا الفكر قويا عندها هكذا قبل الزواج، لكن بعد الزواج نضجت كثيرا. ولذلك فهي لا تشعر بالشفقة حيال الرجال والنساء الذين يرتكبون هذه الحماقة! لا مكان عندها للحب خارج دائرة الزواج، يجب على الرجل والمرأة أن يرتبطا ببعضهما وهذا هو الحب في نظرها! كانت "سلو أختا لها، وكانت تحبها وتعتمد عليها، و"سلو" هي التي تخونها اليوم! بالتأكيد كانت هناك علاقة بين "متهرا" و"سلو" من قبل، وربما كانا يلتقيان في الحقول وعند ضفتي النهر،

هذا هو سبب حضورها فى هذا الوقت المتأخر بعد عبور النهر! لو لم تسمع كلامهما لما عرفت هذه الحقيقة، اعتقد "متهرا" أن هذه فرصة سانحة للقاء العشاق، كان الهدوء يسود المنزل. كانت مضطربة حتى تعلم كل شيء، وكانت ترغب فى معرفة جميع الأسرار حتى تحتاط لنفسها. لماذا يقف "متهرا" هنا؟ لن يعطيها فرصة للكلام، قالت بغضب:

- لم لا تذهب إلى الخارج، أم ستبقى هنا لتحرسنا؟!

ذهب "متهرا" إلى الخارج دون أن ينبس ببنت شفة، كان دمه قد جفّ خشية أن تقول "سلو" شيئا! كانت "سلو" منهارة، لأن السيف المعلق على رقبتها يريد أن يذبحها!

سألت "سونا" بهدوء جم:

- يا "سلو"، أخبرينى الحقيقة وإلا سأضرب عنقى بهذا الفأس، وأقتل نفسى، فتصبحين ضرتى من بعدى وتعيشين كالملكة! انظرى هذا هو الفأس أمامكِ، لا يمكن وضع سيفين فى غمد واحد!

ثم أسرعت وأخذت الفأس وأمسكته بيدها، وقالت:

- لا تعتقدى أننى أهددك فقط، فى أى لحظة سأفعل هذا، لا يمكننى أن أخبرك! أخبرينى بالحقيقة.

وقفت "سليا" مرتعشة، وخرج الكلام من فمها كلمة كلمة كصوت مسجل على التسجيل، لم تستطع إخفاء شيء؛ كان الخوف يظهر على وجه "سونا"، ثم اعتراها الغضب!

نظرت "سونا" كأنها تصوب نحوها رمحا، وقالت بلهجة تجرح كالفأس:

- هل قلتِ الحقيقة؟

- بالتأكيد، أقسم بابنى!

- ألا تخفين شيئا؟

- لو أخفيت شيئا لتفقئى عينى!

- لم لم تضربى هذا الآثم؟! لماذا لم تعضيه بأسنانكِ؟! لماذا لم تشربى من دمه؟! لم لم تصرخى؟!

بماذا تجيب "سلو"؟!

جحظت عينا "سونا"، كأنهما نار أو كمجنون، وقالت:

- لماذا لم تقولى شيئا؟! لماذا لم تعضى أنفه بأسنانك؟! لم لم تضغطى على عنقه بيديك؟! عندها كنت سأسجد عند قدميك، أما الآن فأصبحت فى نظرى امرأة لعوبا مائة فى المائة! لم جلبت العار لماتادين؟ لم لم تتزوجى؟ لم لا تذهبين إلى منزلك؟ هذا ما كان أهلك يريدونه، لكنك ذهبت لبيع الروث والعشب لتحضرى النقود، ويجلس والدكِ فى المنزل يحتسى الخمر! لم أسأت لكرامة ذلك البابهن؟ لم جلبت العار عليه؟ لم صوّرت نفسكِ كزاهدة؟ إذا لم تكونى قادرة على الحياة لوحدكِ لم لا تتزوجين؟ لم لا تغرقين نفسكِ فى النهر؟ لم تضعين السم فى حياة الآخرين؟

اليوم أقول لكِ لو حدث هذا مرة أخرى وعلمت به لا يمكن لثلاثتنا أن يحيا، لطخي وجهك بالعار، وامشي من هنا، ومن اليوم لا علاقة بيني وبينكِ!

نهضت "سليا" بصمت، ووقفت مترنحة، لقد شعرت بأنها قد تحطمت! وللحظة كانت تسعي لتستعيد قوتها، لكنها عجزت عن تبرئة نفسها، كان الظلام أمام عينيها، دار رأسها، جفّ حلقها، وكان جسدها كله بلا روح كأنها خرجت من كل مسامها! أخذت تخطو كأن هناك حفرة أمامها، خرجت واتجهت إلى النهر.

وقف "متهرا" عند الباب، وقال:

- إلى أين تذهبين فى هذا الوقت يا "سلو"؟!

لم تجب بشيء، ولم يعاود هو السؤال!

مازال البدر منيرا حتى الآن، والقمر مازال يستحم فى أمواج النهر، سارت نحو النهر كالمجنونة كأنها تحلم!

الفصل الثلاثون

استمر إضراب العمال، لكن الملاك لم يصابوا بخسارة من جراء ذلك؛ حيث وجدوا عمالا آخرين بأجرة أقل، ويعملون بجهد شاق، لأن أغلبهم كانوا بلا عمل فشعروا بمشقة ذلك، وكانوا لا يريدون فعل شيء يقطع أرزاقهم. فرغم العمل الشاق، والعطلات القليلة لا يشكون من شيء! وهم منهمكون في العمل، ويعملون خافضي الرؤوس كالثيران، ولا يعترضون حتى لو ضُربوا بالعصا، وتعرضوا للسب والزجر! لم يجد العمال القدامى بُداً من العمل بالأجرة التى قلّت، وأخذوا يتملقون السيد "كهنا"، لم يعودوا يثقون فى "بندت اونكارناته"، ولو وجدوه ربما ضربوه، لكن "بندت جى" كان يحطاط منهم؛ فلا يخرج من مكتبه بعد إضاءة المصباح، ودائما ما يتملق الضباط. أما "مرزا خورشيد" فقد ظل يحتفظ بمكانته حتى الآن، لكنه لم ير سبيلا لتجنب مشاكل الفقراء سوى أن يعودوا إلى العمل رغم نقص الأجر، لكن من يسأله يرد عليه: نظرا لمشاكل العمال الجدد فلتفعل ما تريد!

عندما رأى السيد "كهنا" العمال الجدد يريدون العمل تمسك بكلامه، كان يعلم جيدا أن العمال القدامى أفضل منهم مع الأجرة الجديدة؛

لأن معظمهم كان يعمل فى المصنع منذ طفولته، فكانوا ماهرين فى العمل، أما الجدد فكان أغلبهم من القرويين المطحونين الذين اعتادوا أن يعملوا فى الميادين والهواء الطلق والأدوات القديمة، فكانت أرواحهم تنضغط داخل المصنع، ويخافون عندما تعمل الآلات بقوة. فى النهاية وبعد محاولات يائسة من العمال القدامى رضى السيد "كهنا" بعودتهم لعملهم، لكن العمال الجدد كانوا مستعدين لأخذ أجر أقل منهم، فكانت القضية أمام المديرين هل يعود العمال القدامى، أم يبقى الجدد؟ كان نصفهم قد اتفق على بقاء الجدد مع تخفيض أجرتهم، واتفق النصف الآخر على أن يعود القدامى بنفس الأجرة الحالية، من الضرورى صرف مزيد من النقود، لكن العمل أيضا سيزيد. كان "كهنا" مسئولا عن المصنع، والمديرون كالدمى فى يديه، فكان القرار فى يده، لم يكن يأخذ بآراء أصدقائه فقط بل أعدائه أيضا! فى البداية سأل "جوبندى" عن رأيها، وذلك بعد أن فقد الأمل فى "مالتى". كما عرفت "جوبندى" أن "مهتا" كعالم ومجرب وخبير يحترمها، لكى تتولد المحبة بين الزوج وزوجته، ورغم غياب الحب عنهما فقد قويت الرابطة بينهما، ولا توجد بينهما مشاعر مشتعلة ومضطربة، لكن الجدار بينهما قد تحطم.

لقد تغيرت "مالتى" أيضا، أما "مهتا" فقد أمضى حياته حتى الآن فى القراءة، وإمعان الفكر، وقد توصل بعد أن قرأ كثيرا، وتعرف على الدين والكفر سواء كانت بينهما علاقة أم لا، إنهما يشتركان فى طريق الخدمة، وهذا هو الذى يعطى للحياة معنى، ويرفع من طهارتها! إنه لا يؤمن

بوجود الله العليم، لكنه أيضا لا يظهر إلحاده؛ لعجزه عن إثبات رأى قاطع فى هذا الأمر، لكن استقر قلبه على أن حياة الخلق وموتهم، ومشقتهم وراحتهم، وعذابهم وثوابهم لا علاقة له بالقانون الإلهى! وكان يعتقد أن الإنسان يعلى من شأنه أمام نفسه بنسبة أفعاله إلى الإله، كالجراد الذى يعبر البحار ويموت بالمليارات وهو يعتقد أن الإله هو سبب موته! لو كانت القوانين الإلهية غير قابلة للفهم، فكيف يعتقد الإنسان أنه واثق من الإيمان بها؟! شيء واحد كان يرى فيه الإله، وهو اتحاد الحياة الإنسانية، أما التوحيد والكثرة والعدم والتشدد، فلم يكن يراها روحانيات بل أفكارا مادية. لا قيمة لهذا الكلام فى أى عصر من العصور، ومع هذا فإن الرقى الحضارى أمر مهم للإنسان، وكان "مهتا" يؤمن بالوحدة الإنسانية، لكنه لم ير أن الاعتقاد فى وجود الإله ضرورى لهذا الإيمان! إن حب الإنسان غير محدود، لأن الخلق جميعا روح واحدة. كان يعتقد أن التوحيد والشرك لا أهمية لهما سوى أنهما تقاليد، فالهدف من وجود البشر هو التقارب، ومحو الفوارق، وإيقاظ حب الأخوة، وكان هذا أمرا خافيا. استقرت في قلبه هذه الوحدة، حتى إن تنشئة الروح لم يعد لها معنى عنده، وعندما علم هذه الحقيقة لم يستطع السكوت، كان يعمل دون مصلحة وإلا لما اطمأن قلبه، فلم تخطر له الشهرة، والفائدة، وأداء الواجب هو فقط الذى يكفى لإنقاذه! لكن الخدمة تحولت لمصلحته الشخصية، فقد أثرت سعة قلبه على "مالتى" دون قصد منه؛ فكل رجل التقت به أيقظت فيه مجونه، فأثر هذا عليها، حتى تركت الإيثار، لكن صداقتها لمهتا جعلتها تُؤثر الناس! هذا الأمر موجود لدى الجميع،

ويلمع عندما يجد النور، ولو جرى المرء خلف الثروة أو الشهرة لعرف أنه لم يقع فى أيدى أهل القلوب! كانت "مالتى" تذهب أحيانا إلى منازل الفقراء، وتكشف عليهم دون أجرٍ، حتى أصبح سلوكها مع المرضى أرق، لكن لم تستطع التخلص من عادة التبرج، فالابتعاد عن هذا الأمر كان أصعب من تغيير الباطن!

فى هذه الأيام كانا يذهبان إلى القرى، أحيانا لقضاء ساعتين مع الفلاحين، وأحيانا يمضيان الليل فى أكواخهم العشبية، ويتناولان طعامهما، وهما يعتبران ذلك من حسن حظهما! ذات يوم وصلا إلى سمرى، ومنها إلى قرية بيلارى، كان "هورى" جالسا عند الباب يدخن النارجيلة، فحضرت "مالتى" و"مهتا" ووقفا. تعرف "مهتا" على "هورى"، فقال:

– أهذه قريتك؟ أتتذكر عندما حضرنا عند "راى صاحب"؟ كنت تعمل كبائع زهور فى المسرحية.

تذكر "هورى" وتعرف عليهما، فهمَّ بالذهاب إلى منزل "پتيشورى" لإحضار مقاعد، قال "مهتا":

– لا حاجة إلى إحضار الكراسى، سنجلس على هذا الفراش، لم نحضر للجلوس بل للتعلم!

جلس الاثنان على الفراش، ووقف "هورى" محتارا ما الذى يضيفهما به؟! كأنا من علية القوم، ولا يوجد لديه ما يليق بضيافتهما، فى النهاية سأل:

– هل أحضر الماء؟

قال "مهتا":

– نعم، أنا عطشان.

– هل أحضر شيئا من الحلوى؟

– إذا كانت متوفرة فى المنزل فلتحضرها.

ذهب "هورى" لإحضار الماء والحلوى من المنزل، واجتمع حولهما أولاد من القرية وأخذوا يحدقون بهما، كأنهما نموذجان من المتحف! كانت "سيليا" ذاهبة للعمل فى أحد الأماكن، عندما رأتهما وقفت وهى متعجبة حضرت "مالتى" واحتضنت طفل "سليا"، فسألت "مالتى":

– كم عمره؟

لم تكن "سليا" تعرف بالضبط، أخبرتها امرأة أخرى:

– حوالى سنة.

أكدت "سليا" كلامها.

مزحت "مالتى":

– طفل جميل، لتعطيه لى.

قالت "سليا" بغرور:

– هو لكِ!

– هل آخذه؟

– نعم، لتأخذيه! فسيصبح رجلا معك.

حضرت نساء أخريات من القرية وأخذن "مالتى" إلى منزل "هورى"، لأنهن لم يجدن فرصة للتحدث معها أمام الرجال. رأت "مالتى" فراشا عليه مفرش أحضروه من "پتيشورى" لتجلس عليه، كانت تتحدث عن رعاية الأطفال وتربيتهم، والنسوة يصغين لها.

قالت "دهنيا":

– كيف سنفعل كل هذا يا سيدتى؟ نحن لا نجد لقمة العيش!

أفهمتها "مالتى":

– النظافة لا مشكله فيها، قليل من التعب فقط وشىء من الوعى!

سألتها "دلارى":

– كيف تعرفين كل هذا الكلام يا سيدتى، وأنتِ لم تتزوجى حتى الآن!

ابتسمت "مالتى"، وسألتها:

– كيف علمت أننى لم أتزوج؟!

ضحكت جميع النساء وهن يحولن وجوههن، ثم قالت "بنيا":

– هل هذا أمر يخفى يا سيدتى؟ إنه أمر يعرف من النظر إلى الوجه!

قالت "مالتى" بخجل:

– لم أتزوج كى أخدمكن!

قلن بصوت واحد:

– أحسنتِ يا سيدتى!

أخذت "سيليا" تدلك قدمى "مالتى":

– ما أبعد المسافة من مسكنك إلى هنا يا سيدتى، لا بد أنكِ متعبة.

أبعدت "مالتى" قدميها، وقالت:

– كلا، لست متعبة! لقد حضرت بالعربة، أريد أن تحضرن أطفالكن لأراهم، وأخبركن كيف يمكنكن المحافظة على صحتهم.

بعد قليل حضر عشرون أو خمسة وعشرون طفلا، وبدأت "مالتى" الكشف عليهم، كان هناك رمد فى عيون بعض الأطفال فوضعت دواء فى عيونهم. أغلب الأطفال كانوا يعانون من سوء التغذية؛ لأن الوالدين لا يطعمونهم بشكل جيد. تعجبت "مالتى" كثيرا لعدم وجود حليب فى معظم المنازل، حتى إنهم لا يرون السمن لسنوات! أخبرتهم "مالتى" عن أهمية الطعام، كما كانت تتحدث فى جميع القرى. كان قلبها يتألم، لم لا يأكل هؤلاء الناس طعاما جيدا؟! وهى تغضب من القرويين: هل أنجبتموهم ليعيشوا هكذا؟! إنكم تكسبون الكثير، ولا تأكلون مما تنبت الأرض، وحيثما يوجد عشب لثورين أو أربع، لماذا لا يكفى لبقرة أو اثنتين؟ لم لا يفهم هؤلاء الناس أن للطعام أهمية خاصة فى الحياة، وليس لإنقاذ

النفس فقط؟ لماذا لا تطلبون من الحكومة أن تعطيكم قرضا بفائدة بسيطة حتى تنجوا من قبضة المرابين؟ من سألته كان يخبرها أن معظم مكسبه يذهب لسداد ديون المرابين، كذلك تفشى مرض الانفصال، فلم يعد هناك حب حتى يعيش الإخوان معا، والسبب فى هذا هو ضيق الأفق والأنانية. كانت "مالتى" تتحدث مع النساء فى هذه الأمور، فاستيقظ حب العطاء فى قلبها؛ كانت ترى حياتها المريحة صغيرة ومصطنعة أمام حياة التضحية! لقد شعرت اليوم بالخجل من ملابسها الحريرية المطرزة بالتطريز اليدوى، والعطر الذى يفوح منها، ووجهها المزين وتعلوه الحمرة، كانت ساعتها الذهبية كأنها تحملق فيها، وكأنها تعرف الكثير من الأشياء أكثر من هؤلاء القرويات! كانت تعرف كيف تمضى الوقت بسرعة، لكن هل من الممكن أن تعيش هذه الحياة التى تعيش فيها هؤلاء النسوة الفقيرات، وتجعل حياتها نافعة؟! قلوبهن خالية من الغرور، يعملن طوال النهار، يعشن فى فاقة، ويبكين ومع كل هذا عندما يضحكن تكون قلوبهن حية! لقد ابتعد الناس عنهن كأنه ليس لهن وجود، وكل عملهن هو تربية أولادهن، وخدمة أزواجهن وأقاربهن، والحفاظ على العادات التى ستبقى دليلا للنساء فى المستقبل. لقد صارت النساء المتعلمات أنانيات، لديهن حب الذات، ويفكرن فى مصلحتهن وراحتهن! كانت أحلام النساء أفضل من هذه الحالة. لو كن يعتقدن أن الرجال بلا رحمة، إلا أنهم ولدوا من هؤلاء النسوة، وهؤلاء الأمهات لم يعلمن أبناءهن عبادة النساء حبا فى الأمومة! أعتقد أن هذا لا يحدث لأن الأم عاجزة عن تعليمهم، وقد نسيت نفسها حتى تغيرت حياتها، وانمحت شخصيتها!

لكن فناء الذات لا يفيد، لا بد أن يحافظن على حقوقهن من أجل نجاح المجتمع، كما يجب على الفلاح أن ينسى عاداته الساذجة ليحفظ نفسه.

حلّ المساء، والنسوة جالسات حول "مالتى" كأنهن لم يشبعن من حديثها! وقد أصرت العديد من النسوة أن تقضى الليل معهن، وقد أجابت دعوتهن نظرا لحبهن الشديد، وكانت النساء تغنين لها أغانيهن. فى الليل أمضت "مالتى" وقتها فى التجول بين المنازل للاطلاع على الأحوال، حتى إنها أصبحت بركة كالإلهة عند القرويات، لإخلاصها وحنانها!

وعلى الجانب الآخر كان السيد "مهتا" يشاهد المصارعة بين الفلاحين وهو جالس على الفراش، وكان يتأسف على عدم اصطحاب السيد "مرزا" حتى يرى مصارعته معهم. وكان يتعجب لم يعامل المتعلمون هؤلاء الناس الأقوياء، والأولاد الأبرياء بلا شفقة؟! إن الجهل يؤدى إلى السذاجة، والشفافية، مثل الحلم الذهبى، حتى تؤثر فى الإنسانية، ويعتقدون أن أى سلوك مغاير هو سلوك غير إنسانى، لكن ينسون أن الذئاب تهجم على الأغنام البريئة بمخالبها أو أسنانها القوية، وكان الحلم يصور لهم الجميع أخيارا! وهم يعيشون دائما فى هذا الحلم، أما الحقيقة فغير مفهومة ويصعب عليهم تصديقها! كان السيد "مهتا" فى ذلك الوقت جالسا بينهم، وهو يرغب فى حل قضية الفلاحين، لماذا وصلوا إلى هذه الحالة، حتى إنهم عاجزون عن مواجهة الحقيقة؟ توصل إلى أن السبب

فى دمارهم هو سذاجتهم الملائكية، ليت هؤلاء الناس يصبحون أكثر إنسانية وأقل ملائكية، عندها لن يصيبهم الدمار. لو حدث فى البلاد شيء أو حتى قامت ثورة، لا علاقة لهم بهذا كله! أى جماعة تسيطر عليهم بالقوة يخضعون رؤوسهم أمامها، لقد وصلت سذاجتهم إلى حد فقدان الشعور، فلا يمكن تحريكهم سوى بصدمة شديدة أو أمر يجعل أحاسيسهم تتحرك! لقد أصاب قلوبهم اليأس من كل جانب، وكأن أقدامهم قد تكسرت، وكأن إحساسهم بالحياة قد انتهى!

حلّ المساء، وقد عاد الناس الذين يعملون فى الحقول مسرعين أيضا. فى ذلك الوقت أخذ "مهتا" ينظر إلى "مالتى" وهى تجلس وسط النسوة، وتحتضن طفلا وكأنها منهن فامتلأ قلبه بالسعادة. كانت "مالتى" قد أوقفت حياتها على "مهتا"- وهو لا يشك فى هذا - لكن حتى الآن لم يتولد فى قلبه تجاهها الطهر، والمكانة العالية، ودون هذا لا يمكنه الزواج منها، وإلا أصبح أضحوكة! لقد حضرت "مالتى" عند بابه دون دعوة، وقد رحب بها لكنه ترحيب خال من حرارة القلب، فقط يعبر عن مشاعر الرجولة. لكن لو عرضت "مالتى" الحب على "مهتا" فليس بإمكانه الرفض، لأنه يريد إبعادها عن طريق "جوبندى"، وكان يعرف جيدا أن "مالتى" لا تحرك قدما دون أن تثبت الأخرى! كان يعلم أنه يخدعها، وهذا عنده رذيلة، وكان ضميره يؤنبه دائما لهذا السبب! لكن عندما يرى "مالتى" عن قرب ينجذب قلبه إليها أكثر، لم يكن حسنها يستطيع التأثير فيه، بل صفاتها. إنه يعرف أن الحب الحقيقى يولد بعد الزواج، والحب الذى يقع فيه

الإنسان قبل الزواج هو محض خداع، وليس له أساس ولا يستمر طويلا. كان من الضرورى أولا أن يتأكد أن الحجر المتجه إلى المصنع للتقطيع جيد أم لا؟ لا يمكن أن تكون الأحجار جميعا بعد قطعها تمثالا جميلا! وقد انعكست "مالتى" على قلب "مهتا" بصور مختلفة، لكنها حتى الآن لم تضئ كشعلة تنير قلبه كله! أما اليوم فقد انعكست "مالتى" انعكاسا كاملا بعد جلوسها وسط القرويات دون كلفة، وقد أحس "مهتا" اليوم ولأول مرة بمشاعر جديدة!

عندما عادت "مالتى" من القرية بعد جولتها اصطحبها ناحية النهر، وقد أراد أن يبيت الليلة فى هذا الوادى. كان قلب "مالتى" يدق دون أن تعلم السبب، لقد رأت اليوم نورا عجيبا، وأمنية غريبة يلمعان على وجه "مهتا"!

كان القمر يفرش نوره على ضفتى النهر، كأنه يرتدى جواهر ماسية، ويغنى ويرقص للقمر، والنجوم والأشجار واقفة خافضة رأسها، لقد أسكرت المناظر الطبيعية "مهتا"، كأن طفولته قد عادت ومعها كل ألعابه! قفز وجرى على الرمل حتى دخل فى النهر، ووصل الماء إلى ركبتيه.

قالت "مالتى":

- لا تقف فى الماء حتى لا تصاب بالبرد!

قال "مهتا" وهو يرش الماء:

- لكننى أريد أن أعبر النهر سباحة.

- كلا، كلا! لتخرج من الماء، لن أدعك تعبره.

- ألن تحضرى معى إلى القرية الخالية، حيث توجد مملكة الأحلام؟!

- لا أعرف السباحة.

- حسنا، تعالى نصنع قاربا ونعبر به.

خرج حيث كانت توجد غابة طويلة من أشجار الجهاو، فأخرج "مهتا" سكينا من جيبه وقطع الكثير من الغصون، وكان على ضفة النهر نبات اللوف فقطع بعضا منه وجلس على الرمل، وأخذ يصنع منه حبالا. كان فى غاية السرور، كأنه ذاهب إلى الجنة؛ كم من مرة جرحت أصابعه وسال الدم منها؟! حتى غضبت "مالتى" منه، وأصرّت على أن يعود إلى القرية، لكنه لم يكن يبالى بها كان مسرورا كالطفل فى سذاجته وعناده. نسى الفلسفة والعلم مع هذه السعادة!

أعد الحبال، ووضع خشبة كبيرة، وربط الغصون بالحبال من الجانبين، ثم وضع الأوراق فى الأماكن الفارغة حتى لا يخرج الماء منها فأصبحت جاهزة. كانت الليلة كالحلم!

وضع "مهتا" القارب فى الماء، وأمسك بيد "مالتى" وقال:

- تفضلى بالجلوس.

قالت "مالتى" بخوف:

- هل سيتحمل ثقل شخصين؟!

ابتسم "مهتا" كالفلاسفة، وقال:

– القارب الذى نكمل فيه مشوار حياتنا أضعف من هذا، فلماذا الخوف يا "مالتى"؟!

– لماذا الخوف وأنت معى؟

– حقا؟!

– حتى الآن عشت وعبرت الكثير من المشاكل دون مساعدة أحد، لكن الآن أنا معك!

جلس الاثنان فى قارب الجهاو، وأخذ "مهتا" فرعا وبدأ يجدف، سار القارب وهو يتأرجح، سألت "مالتى" لتبعد عنها التفكير فى الخطر:

– لقد عشت فى المدينة طوال الوقت، فكيف اعتدت على حياة القرية؟ أنا لا أستطيع صنع مثل هذا القارب!

نظر إليها "مهتا" بنظرة محبة، وقال:

– ربما كان هذا عملى فى حياتى الأخرى، فعندما ألامس الطبيعة تتولد حياة جديدة بداخلى، وتتحرك فى كل عروقى، كأن كل عصفور أو حيوان يدعونى بسرور، ليذكرونى بالراحة المنسية! هذا الفرح لا أجده فى أى مكان يا "مالتى"، حتى فى الموسيقى التى تبكينى، ولا أجدها وأنا أحلق عاليا فى الفلسفة! أنا أشعر بأن الطبيعة أقاربى، وعندما أكون وسطها أشعر أننى وجدت نفسى، كالطائر الذى يعود إلى عشه!

كان القارب يهتز أحيانا، ويميل من الجانب الآخر، وأحيانا يسير مستقيما، وأحيانا أخرى يدور ويتقدم.

فجأة سألت "مالتى"، بحزن:

- ألا تفكر فىّ على الإطلاق؟!

أمسك "مهتا" بيدها، وقال:

- بلى، أنتِ تأتيننى كثيرا كالرائحة الذكية وعلى عكس ما أنتظر، ثم تغيبين! فأجرى لآخذ يدك وأمسكها بإحكام، لكنك تتملصين من يدى وتطيرين!

قالت "مالتى" بجنون:

- أتعرف سبب هذا؟ هل فكرت فيه؟!

- نعم يا "مالتى"، فكرت، بل فكرت كثيرا!

- هل عرفت؟!

- نعم، فأنا أريد أن أبنى حياتى على أساس، لكنه غير قوى! ليس قصرا كبيرا، بل حجرة واحدة صغيرة ونائية، لكنها تحتاج مع هذا إلى أساس متين لتقوم عليه!

تركت "مالتى" يده وهى غاضبة، وقالت:

- هذا هجوم كاذب، هجوم كاذب لأنك تنظر نحوى بنظرة الممتحن لا بنظرة المحب! ألا تعلم أن المرأة لا تريد الامتحان، لكنها تريد الحب؟

لأن الامتحان يحول الحسنات إلى عيوب، والحسن إلى قبح، أما الحب فيفعل العكس! عندما أحببتك اعتقدت أنك منزّه عن العيوب، لكنك عندما امتحنتنى ظننت أننى متقلبة ومدللة، ولا أعرف ماذا اعتقدت أيضا، لهذا كنت دائما تبتعد عنى! كلا، بل كل ما أريد قوله لك دعنى أكمله: لم كنت متقلبة ومدلّلة؟! لأننى لم أجد الحب الذى يجعلنى قوية وثابتة، لو كنت أوقفت حياتك علىّ، مثلما فعلت أنا لما احتجت اليوم إلى مهاجمتى بألفاظ جارحة!

تلذّذ "مهتا" من غضب "مالتى"، وقال:

– ألم تمتحنينى حقا حتى الآن؟!

– كلا، أبدا!

– لقد أخطأت!

– أنا لا أبالى!

– لا تغضبى يا "مالتى"، كلنا نمتحن قبل أن نحب! وقد امتحنتنى لكن من وراء الستار، سأقول لك بصراحة: لقد كنت من قبل أنظر إليكِ كما أنظر إلى آلاف النساء كل يوم، بغرض التسلية، ولو أخطأت فى ظنى فأنتِ أيضا قد جعلت منى لعبة تتسلين بها!

قالت "مالتى":

– هذا ليس صحيحا، أنا لم أنظر إليك هكذا أبدا! لقد وضعتك فى قلبى كالإله منذ أول يوم....

قطع "مهتا" كلامها قائلا:

– لم تتحدثين وأنتِ غاضبة؟ أنا لا أحب أن يغضب أحد فى مثل هذا النقاش! لو أنك منحتنى هذا الشرف منذ البداية، فلأننى أكثر مهارة منكِ فى تبديل الوجوه! أنا من دراستى لطبيعة النساء وجدت أنهن يدرسن جيدا قبل الحب، أولا يختبرن الرجال منذ القدم، وما زال الأمر موجودا، ربما تغير شكله! ومنذ ذلك الوقت وأنا أسعى دائما لأضع نفسى أمامك على حقيقتى، ومع هذا أردت الوصول إلى قلبك! وعندما اقتربت ودخلت إلى أعماقك وجدت اللآلئ، لقد حضرت من أجل التسلية لكننى صرت عبدا لك؛ لا أعرف ما الذى أعجبك فى!

وصلا إلى الضفة الأخرى للنهر، فنزلا وجلسا على الرمل، فقال "مهتا" بنفس اللهجة:

– لقد أحضرتكِ اليوم إلى هنا لسؤالكِ نفس السؤال!

قالت "مالتى" بصوت مرتجف:

– هل ما زلت تحتاج إلى سؤال؟!

– نعم، لهذا أحضرتك اليوم حتى ترى وجهى الحقيقى، فربما لم تريه حتى الآن لأننى أخفيته! هبى أننى تزوجتك، وغدا غدرت بك فبماذا ستعاقبيننى؟

نظرت "مالتى" نحوه بحيرة ولم تفهم مقصده، فقالت:

– لم تسأل هذا السؤال؟!

– لأنه بالنسبة إليّ شيء مهم!

– لا أعتقد أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث!

– لا يوجد شيء مستحيل في الدنيا، فقد ينحرف زاهد كبير في لحظة واحدة!

– سأبحث عن السبب، وأتخلص منه.

– افترضي أن هذا عادة في؟

– لا أعرف ماذا سأفعل، ربما أتناول السم وأنام!

– لكن لو سألتني السؤال نفسه لأجبتك إجابة مختلفة!

سألت "مالتي" خائفة:

– أخبرني!

قال "مهتا" بثبات:

– سأقتلك، ثم أقتل نفسي!

ضحكت "مالتي" بقوة، وقد ارتعشت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، وهي تخفي ارتعاشها خلف الضحك!

سأل "مهتا":

– لماذا ضحكت؟!

– لأنك لست ممن يعرف عنهم الاستهزاء!

– لكننى فى هذا الأمر يا "مالتى" حيوان بكل معنى الكلمة، ولا أستحى من هذا! الشخص الذى يمنح المحبة الروحية، والإيثار، والحب دون غرض حتى يفنى نفسه ويعيش لمحبوبه؛ فيفرح لفرحه، ويضحى عند قدميه، هذا كله بالنسبة إلى كلام لا معنى له! لقد قرأت فى الكتب قصص هذا الحب الذى يفنى فيه الحبيب ذاته من أجل أحباب المعشوق الجدد، قد تكون هذه المشاعر حقيقية لكن يمكننى أن أقول إنها خضوع، لكنها ليست حبا! الحب ليس بقرة سانجة، بل هو لبؤة مرعبة لا تحب أن يقع نظر أحد على صيدها!

نظرت "مالتى" فى عيونه، وقالت:

– لو أن الحب لبؤة مخيفة فسأبتعد عن هذا الحب، فأنا أعتقد أنه كالبقرة! أعتقد أن الحب أسمى من سوء الظن، وهو ليس جسديا بل روحيا! لا يمكن أن يوجد فيه سوء ظن، فالظلم هو ثمرة سوء الظن! والحب أن يضحى الحبيب بحياته وروحه، ولا يمكن أن تجد بركة بالامتحان بل بالعبادة.

نهضت واقفة وسارت نحو النهر بسرعة، كأنها وجدت الطريق الذى ضلته. لم تشعر بهذا الإحساس القوى من قبل؛ فهى تشعر بالضعف فى الحياة الحرة التى تزلزلها وتجعل قلبها دائم الاضطراب! كان قلبها كأنه يبحث عن شىء يعتمد عليه حتى يمكنه مواجهة الحياة به، وهى لا تجد فى نفسها القوة. لقد جذبها نحوه عقله، وحسن سلوكه، وهى تختار جميع الأشكال، كالماء الذى يوجد فى الآنية ليس له شكل محدد!

كانت طبيعتها كالطالب؛ يدخل الامتحان وهو يحب الكتب، لكن تركيزه يكون منصبا على الفصول التى قد تأتى فى الامتحان، وكل هدفه هو النجاح فى الامتحان، أما التمكن من العلم فيأتى فيما بعد! ولو عرف أن الممتحن ذو قلب رحيم، أو أعمى، وسينجح الطالب دون إجابة ربما لا ينظر إلى الكتب أبدا! وما تفعله "مالتى" كان لإسعاد "مهتا"، وكان هدفها الفوز بحبه واحترامه، وأن تملك عليه قلبه، كانت مثل الطالب الذى يريد أن يثبت جدارته، فيجيب جيدا حتى يطمئن الممتحن إليه، لكنها ليست صبورا!

لكن اليوم حفّز "مهتا" قوتها الروحية بعد أن رفض حبها، عندما رأت "مهتا" للمرة الأولى ومن يومها خضع قلبها له، ورأت أنه الرجل المثقف من بين أصدقائهما. كانت أقل ميزاته هى حياته الطاهرة النظيفة، ذكاؤه، وعمق تفكيره! وهى تعتقد أن الثروة والسلطة كاللعبة التى يلعب بها الأطفال ثم يكسرونها، والمال والسلطة ليس لهما جاذبية خاصة عندها، وهى تكره القبح، لكن يجذبها العقل القوى الذى يمكن الاعتماد عليه، ويحفز الارتقاء الذاتى، فتأتى القوة داخلها، وتجعل حياتها مفيدة! وقد أثرت عظمة "مهتا" وعقله وفهمه عليها، ومن وقتها وهى تصلح من نفسها، وقد وجدت القوة التى تحتاجها إلى الحركة، فتمنحها قوة خفية تحركها! كان هناك معيار جديد للحياة قد ظهر أمامها، وهى تسعى للوصول إليه، وتتخيل ذلك اليوم الذى ستصبح فيه هى و"مهتا" شخصا واحدا، وكان هذا الخيال منذ ذلك اليوم وما بعده قد صار قويا!

لكن اليوم وضع "مهتا" أمنياتها على الباب، فجعل مقياس الحب خاليا من الروحانية والإيثار، وأسقطه من أعلى إلى أسفل، حتى أوصله إلى سطح المادية حيث توجد مملكة الحسد، وسوء الظن! عندها انجرح عقلها الطاهر، وإيمانها وثقتها فيه؛ كالطالب الذى يرى أستاذه يرتكب الإثم! لقد رأت أن "مهتا" رغم ذكائه الشديد قد نحّا بالحب نحو الحيوانية، وأغلق عيونه عن صفات الملائكة، فانقبض قلبها!

ندم "مهتا"، وقال:

- تعالى لنجلس بعض الوقت.

قالت "مالتى":

- كلا، يجب أن نعود لأننا تأخرنا!

الفصل الحادى والثلاثون

أصبح نجم "راى صاحب" فى ارتفاع؛ فلقد اكتملت مشاريعة الثلاثة، فتزوجت ابنته بعد كرٍّ وفرٍّ، وربح قضيته فى المحكمة، ولم ينجح فقط فى الانتخابات بل صار رئيسا للمجلس. كانت التهانى تنهال عليه من كل جانب، لم تكن مكانته قليلة فى البداية، لكنها الآن قويت واستحكمت. كانت الصحف الموسمية تنشر صوره، وسيرة حياته. ومع ذلك زادت القروض، لكن "راى صاحب" لم يهتم، فلو باع جزءا صغيرا من أملاكه الجديدة لاستطاع تسديد القرض. وصل إلى قمة الراحة التى لم يتصور أن يصل إليها! كان لديه قصر فى لكنهؤ فقط، لكن الآن أصبح من الضرورى أن يبنى قصرا فى كل من نينى تال، ومنصورى وشمله، فلا يليق به أن ينزل فى فندق أو فى قصر أحد الأمراء! كان لراجا برتاب سنج قصور فى هذه المدن، وكان من المخجل ألا يكون لراى صاحب قصر هناك! ولم يكن بناء القصر مشكلة، لأنه وجد قصرا جاهزا بسعر رخيص، وقد عيَّن لكل قصر حارسا، وخادما وطباخا. ومن حسن حظه أن جلالته قد منحه لقب ملك بمناسبة عيد ميلاده، لقد تحققت جميع أمانيه، وأقام حفلا كبيرا، ودعا الناس جميعا حتى حقق رقما

قياسيا! عندما أخذ اللقب من محافظ الولاية تحرك الغرور الملكى داخله، وتفتّحت أطماعه، هذه هى الحياة الحقيقية! من قبل كان قد دخل السجن بسبب مساعدة الثوار، حتى نزلت مكانته فى عيون الضباط، ومدير الشرطة الذى قبض عليه فى أثناء الثورة يقف أمامه الآن باحترام، كأنه يطلب عفوه! لكن كان أكبر انتصاراته عندما طلب عدوه اللدود "سورج برتاب سنج " أن يزوج ابنته من ابنه الكبير "ردر بال سنج"، لم يسر "راى صاحب" بفوزه فى المحكمة، ولا برئاسة المجلس، فكل شىء تمناه قد أصبح لديه؛ لكن هذا الأمر كان خارج توقعاته، فقد كان "سورج برتاب سنج" منذ شهور يعتبره أقل من كلبه، واليوم يطلب أن يزوج ابنته لابنه، كان هذا أمرا مستحيلا! كان "ردر بال سنج" يدرس الماجستير فى ذلك الوقت، كان شخصا شجاعا، يتحلى بصفات الكمال، كما كان يعتمد على نفسه، مغرورا، متقلب المزاج، كسولا وكان يمقت قوة والده وأوامره.

كان "راى صاحب" فى ذلك الوقت فى نينى تال، عندما وصلته هذه الرسالة سر كثيرا. لم يكن يريد الضغط على ابنه فى أمر الزواج، لكن كان متأكدا أن "ردر بال" لن يعترض على ما يفعله، من حسن حظه أن يرتبط بعلاقة مع "راجا سورج برتاب سنج"، وأن "ردر بال" لن يعترض على هذا الأمر. على الفور ردّ بالإيجاب على سورج برتاب سنج، وفى نفس الوقت اتصل بردر بال، فأجابه:

- أنا غير موافق.

لم يصب "راى صاحب" باليأس والغضب فى حياته مثلما أصابه فى هذه اللحظة، سأله:

– وما السبب؟!

– ستعرف فى الوقت المناسب.

– أريد أن أعرف الآن!

– وأنا لا أريد أن أخبرك!

– لابد أن تطيع أوامرى!

– ما يرفضه قلبى لا يمكن أن أوافق عليه نزولا على رغبتك!

حاول "راى صاحب" إفهامه، وهو يترجاه بشدة:

– يا بنى، لا تضرب قدميك بالفأس من أجل شعارات! هل فكرت كم ستعلو مكانتك فى المجتمع بهذه المصاهرة؟ واعتبر ذلك نعمة إلهية، لو كنت وجدت فتاة من هذه العائلة، أيا كان شكلها لتزوجتها، ومدحت حظى! لكن هذه ابنة "سورج برتاب" نفسه! إنه تاج رؤوسنا! أنا أراها يوميا، وأنت بالتأكيد رأيتها أيضا؛ لم أرَ فى مثل جمالها، وأخلاقها، كما أنها ربة منزل ماهرة. لم يبق لى فى الحياة الكثير، أما أنت فأمامك الحياة بطولها، لا أريد إجبارك، وأنت تعلم سعة أفقى فى أمر الزواج، لكن من واجبى تنبيهك إذا رأيتك على خطأ!

أجابه "ردر بال":

- لقد حزمت أمرى فى موضوع الزواج منذ فترة، ولا يمكننى العدول عن هذا.

غضب "راى صاحب" أمام عناد ابنه وجهله، فقال زاجرا إياه:

- أرى أن رأسك قد دار، عندما أستدعيك لمقابلتى لا ترفض لأننى أعطيت كلمتى لراجا صاحب.

أجابه "ردر بال":

- آسف، لا وقت عندى الآن لمقابلتك.

فى اليوم التالى حضر "راى صاحب" بنفسه، وقد شحذ كلاهما أسلحته: فمن ناحية كانت لراى صاحب تجربة واسعة فى الحياة ومليئة بالمصالح، ومن ناحية أخرى كان لدى ابنه المعايير الفطرية، عديمة المروءة، الشريرة والعنيدة!

قال "راى صاحب" مباشرة:

- أريد أن أعرف الفتاة التى اخترتها!

قال "ردر بال" بثبات:

- إذا كان هذا يسعدك، فاعلم أنها "سروج" أخت "مالتى".

قال "راى صاحب"، كأنه سقط جريحا:

- هى؟!

- بالتأكيد رأيت "سروج"!

- لقد رأيتها جيدا، هل رأيت أنت "راج كمارى" أم لا؟

- نعم لقد رأيتها.

- مع ذلك....

- أنا لا أهتم بالشكل.

- أنا حزين على طريقتك في التفكير، أتعلم من "مالتى" حتى تتزوج أختها؟!

جحظت عينا "ردر بال"، وقال:

- لا أريد الحديث فى هذا الأمر، لكن عندما أتزوج سأتزوج من "سروج".

- لا يمكن أن تتزوجها مادمت حيا!

- إذًا بعد مماتك!

- آه، أوصلت إلى هذه الدرجة؟!

اغرورقت عينا "راى صاحب" بالدموع، كأن حياته قد انهارت كلها! إن رئاسة المجلس، والإقطاعية، واللقب كل هذا أصبح بلا روح، كالأزهار الذابلة! أصبح كل ما صنعه فى حياته هباء، عندما توفيت زوجته لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين من عمره، وكان يستطيع الزواج والتنعم

بالراحة، كان الجميع يلح عليه من أجل الزواج، لكن عندما نظر إلى وجه ابنيه اختار حياة العزوبة، لقد ضحى براحته كلها من أجل أولاده! حتى اليوم كان يعطى حبه كله لأبنائه، واليوم ها هو ابنى يتكلم معى بلا مروءة، كأنه لا صلة بيننا! لماذا يُضيّع على نفسه الثروة، العزة، السلطة؟! إن كل ما يفعله هو من أجل هؤلاء الأبناء؟! فإذا كانوا لا يقدرونه فلم يجتهد من أجلهم؟ إنه لن يعيش طويلا فى هذه الدنيا، وبإمكانه أن يحيا فى راحة، والآلاف من أقرانه يعيشون فى راحة ولطف، يبرمون شواربهم، ويتنزهون، فلم لا يفعل هو الآخر مثلهم؟ فى ذلك الوقت لم يتذكر أن كل ما فعله كان من أجل نفسه وليس من أجل أولاده، ومن أجل شهرته! كما أنه معتاد على العمل، ويحتاج إليه كى يستمر فى الحياة، فقلبه لا يطمئن بالكسل والمجون، وهو يجهل أن هناك بعض الناس الذين لا يمكنهم حب الكسل والمجون، وأنهم ولدوا لشرب دماء قلوبهم، وطالما هم على قيد الحياة فسيستمرون فى الشرب!

لكن رد فعله على هذه الصدمة ظهر على الفور؛ نحن نضحى من أجلهم، ولا نريد منهم جزاء، لكن نريد أن نتحكم فى قلوبهم حتى لو كان هذا الحكم من أجل صالحهم هم، فإننا نتصرف وكأنه من أجل مصلحتنا! إذ وُجد الاحتشام فإنه يغرى بالحكمة أكثر، أما إذا جوبهنا بالرفض فجأة فنحن نغضب، ويتحول الاحتشام إلى انتقام! وقد عارض "راى صاحب" زواج "ردر بال" من "سروج"، حتى لو اضطر إلى طلب مساعدة الشرطة، أو خالف الدين، فقال وكأنه قد أشهر سيفه:

– نعم، سيكون بعد موتى وما زال بعيدا!

قال "ردر بال" كأنه يطلق الرصاص:

– ليمد الإله فى عمرك، لقد تزوجت من "سروج".

– كذب!

– كلا، ووثيقة الزواج موجودة.

سقط "راى صاحب" من هول الصدمة، لم ينظر إلى أحد من أعدائه كما نظر إلى ابنه، بنظرة حادة وانتقامية! إن العدو قد يطعنه فى مصلحته أو جسده، أو كرامته، لكن هذه الضربة كانت فى المكان الحساس الذى اجتمعت فيه كل آماله، كانت كالريح الصرصر التى اقتلعتها من جذورها! أصبح الآن عاجزا تماما، ومع وجود قوة الشرطة فى يده ما زال عاجزا! كانت الشدة آخر أسلحته، وقد ضاع هذا السلاح من يده. إن "ردر بال" راشد، وكذلك "سروج"، كما أنه يملك إقطاعيته ولا يمكنه إجباره! آه لو كنت أعرف أن هذا الولد سيخالفنى، لما حاربت من أجل الإقطاعية التى فى يده! لقد أضعت فى هذه الحرب مائتين وخمسين ألف روبية، لقد دمّرت حياتى! ستبقى عزته بتملق هذا الولد، لقد تدخل فى أحد شئونه فأصبحت كرامته فى الثرى، لقد ضحى بحياته كلها، ومع ذلك ليس بيده القرار! آه، لقد دمرت حياتى كلها، حياتى كلها! رحل "ردر بال"، فاستدعى "راى صاحب" السيارة وذهب للقاء "مهتا" ليطلب منه شرح الأمر المالى، لا يمكن لسروج أن تعصيها، لو دفع عشرة أو عشرين ألف روبية لإيقاف هذا الزواج فلا مانع لديه! لكن لم يخطر بباله وهو فى هذه النشوة أن هذا لا يتفق مع مبادئ "مهتا"!

سمع "مهتا" كل ما جرى، فأخذ يسخر منه، وقال بقوة:

– أهذا أمر متعلق بكرامتك؟!

لم يستطع "راى صاحب" معرفة نواياه، فقفز وقال:

– نعم، متعلق بكرامتى، وأنت تعرف "راجا برتاب سنج" جيدا!

– لقد رأيت ابنته، و"سروج" لا تساوى تراب قدميها!

– لكن عقل هذا الولد قد تحجر!

– دعك من هذا الأمر، ما الذى تريده؟ أتريد أن يندم؟!

– آه، لا يمكنك فهم هذا الأمر يا سيد "مهتا" لا يمكن ترك العزة وهى بين يدى، كيف أضحى بهذه المكانة، وهذه العزة من أجل الرئاسة؟ بإمكانك شرح الأمر لمالتى، وعندها ستتحسن الأمور؛ أما لو رفضت فإن "ردر بال" سيضرب رأسه، وستذهب النشوة فى خمسة أيام أو عشرة، هذا ليس حبا إنه جنون فقط!

– لكن "مالتى" لن تسمع دون أن تأخذ رشوة.

– سأفعل ما تطلبه، إذا أرادت فسأجعلها مديرة مستشفى فرن!

– هب أنها تريدك أنت، فهل ستوافق؟ منذ أصبحت رئيسا للمجلس بالتأكيد تغير رأيها فيك!

نظر "راى صاحب" إلى وجه "مهتا"، فرآه يبتسم ففهم، وقال بلهجة حزينة:

- هل هذا وقت مناسب للمزاح؟! لقد أتيت إليك لأننى أثق أنك ستفكر فى وضعى، وتشير على بالرأى السديد، بينما أنت تسخر منى، من لم يشعر بآلام الأسنان، فكيف سيحس بمن تؤلمه أسنانه؟!

قال "مهتا" بقوة:

- سامحنى، فلقد حضرت بسؤال أعجز عن التفكير فيه، ولو فكرت فيه فسيكون التفكير مدعاة للضحك! يمكن أن تزوج نفسك، لكن لماذا تجعل زواج ابنك على عاتقك خاصة إذا كان الولد بالغا، ويمكنه معرفة الضار والنافع؟! أنا لا أفهم علاقة الكرامة بأمر مهم كالزواج. لو كانت العزة فى الثروة، ما كان "راجا صاحب" ليقف خاضعا كالخادم أمام العالم الهندوسى العارى! أنا لا أعرف إذا كان هذا صحيحا أم لا، لكننى سمعت أن "راجا صاحب" يسلم على ضابط منطقته، فكيف تعتبر هذا عزة؟! اذهب وارتاح، لا يمكن أن تجد زوجة لابنك أفضل من "سروج".

اعترض "راى صاحب":

- إنها أخت "مالتى"!

قال "مهتا" بانفعال:

- أعار أنها أخت "مالتى"؟! أنت لم تعرف "مالتى" على حقيقتها، ولم تسع لمعرفتها! كنت أفكر مثلك أيضا، لكن عرفت الآن أنها كالذهب،

تلمع حقيقتها عندما توضع فى النار! وهى من الذين يضحون بأرواحهم عندما تحين الفرصة، مثلها لا يشهرون سيوفهم ويهربون! أتعرف ما آل إليه حال "كهنا"؟

هزّ "راى صاحب" رأسه بمواساة، وقال:

– لقد سمعت! كنت أريد مقابلته، لكن لم تتح لى الفرصة حتى الآن. لقد حطمه احتراق مصنعه!

– نعم، وهو الآن يعيش على مساعدات أصدقائه، وفوق كل هذا "جوبندى" مريضة منذ شهور، لقد ضحت بنفسها من أجل "كهنا"، وذلك الحيوان كان يحرقها دائما! إنها الآن تقترب من الموت، و"مالتى" تجلس بجوارها طول الليل؛ "مالتى" التى لم تكن تجلس طوال الليل بجوار ملك أو أمير حتى لو دفع خمسمائة روبية! حتى عبء تربية أطفال "كهنا" صار على عاتقها، أين كانت هذه الأمومة مختفية؟! لا أعرف! عندما رأيت تصرفات "مالتى" هذه بدأت أؤمن بها – وبالرغم من أنك تعرف أننى ملحد كبير – فقد ظهرت على وجهها لمعة غير بشرية، مع صفاء باطنها! إن الإنسانية تحمل كثيرا من الألوان، لكنى لم أتصور وجود هذه القوة إلا بعد رؤية هذه التجربة أمام عينى! إذا أردت لقاءها فسآتى معك بهذه الحيلة.

قال "راى صاحب" بشك:

– إذا كنت لا تفهم ألمى، فكيف ستفهمه "مالتى"؟! لن أجد سوى الخجل. لكن لماذا تحتال لرؤيتها، كنت أعتقد أنها واقعة فى شباك حبك؟!

أجاب "مهتا" وهو يبتسم بحسرة:

- لقد أصبح هذا الأمر حلما، فأنا الآن لا أراها، ولا توجد فرصة! لقد ذهبت إليها أربع مرات، لكنها لم تسعد كثيرا بلقائي، ومنذ ذلك الحين وأنا أخجل من الذهاب إليها. نعم لقد تذكرت أن هناك احتفالا اليوم في نادى النساء، أتذهب معى؟

قال "راى صاحب" دون اهتمام:

- كلا، لا توجد عندى فرصة، فأنا أفكر كيف أرد على "راجا صاحب" بعد أن أعطيته كلمتى.

ثم نهض "راى صاحب"، وسار نحو الباب ببطء، لقد ازداد الأمر الذى حضر ليجد له حلا تعقيدا، واشتدت الظلمة! ودَّعه "مهتا"، فذهب إلى سيارته.

اتجه "راى صاحب" إلى قصره مباشرة، أخذ الصحيفة ليقرأها، فوجد بطاقة السيد "تنخا". لم يكن يريد رؤيته، لكنه كان فى حاجة إلى التحدث مع من يواسيه، وقد يتمكن من فعل شىء له، أذن له بالدخول على الفور، دخل "تنخا" إلى الحجرة منسلا، ووجهه باك، ركع على الأرض مستسلما، وقال:

- كنت أود أن أذهب إلى نينى تال لأراك، ومن حسن حظى أننى وجدتك هنا. هل مزاجك جيد يا سيدى؟

ثم بدأ يفيض فى مديحه، وقد نسى سلوكه السابق تجاهه:

- كيف تسير رئاسة المجلس؟ أرى الناس يتحدثون عنك فى كل مكان، هذا المنصب يليق بسيادتك.

فكر "راى صاحب" في نفسه: ياله من شخص مخادع؟! من أجل مصلحته يقول للحمار يا والدى! سافل، ليس لديه وفاء أو خجل، لكنه لم يغضب منه، عطف عليه، وسأله:

- ماذا تفعل فى هذه الأيام؟

- لا شيء يا سيدى، أنا أجلس عاطلا! كنت أرجو أن أكون فى خدمتك. تعرف "راجا برتاب سنج"، إنه لا يقيم وزنا لأحد! ذات يوم بدأ يهجوك، لم أستطع سماعه، فقلت: اصمت أيها الملك، فراى صاحب سيدى، ولا أستطيع أن أسمع السوء عنه! فغضب من هذا الكلام، فتركته وعدت إلى منزلى. لقد أوضحت له أنه إذا كان يملك الثروة والقوة، فلن يصل إلى منزلة "راى صاحب". العزة من اللياقة، والدنيا تعلم أنه لا لياقة له!

قال "راى صاحب" كأنه لا يعرف شيئا:

- لقد أشعلت النار فى المنزل مباشرة!

قال "تنخا" بغرور:

- أنا أتحدث بالحقيقة، سواء غضب الناس أم لا! إذا كنت أنت سيدى وأنا خادمك فلماذا أخاف الآخرين؟ إنه يحسدك، ويتكلم عنك

بالسوء دائما، ومنذ أن أصبحت رئيسا للمجلس والثعبان ينهش صدره! لقد هضم الملك كل أجرى، إنه لا يعرف العطاء يا سيدى، ويظلم عماله كثيرا، ولا يسلم شرف منه، حتى النساء فى وضح النهار....

سمعا صوت عربة، نزل "سورج برتاب سنج" منها، فخرج "راى صاحب" من الحجرة لاستقباله، لقد زادت عزته فقال:

- كنت أنوى الذهاب للقاء سيادتك.

هذه هى المرة الأولى التى يطأ فيها "راجا سورج برتاب سنج" بقدمه هذا المكان، وهذا من حسن الحظ!

جلس "تنخا" كالقطة الخجلة، الملك هنا! هل أصبح الاثنان أصدقاء؟! لقد أراد إشعال نار حسد "راى صاحب" ليستفيد منه، لكن كلا، حتى لو حضر "راجا صاحب" هنا، والتقى به فإن النار بينهما صارت كموقد صانع الفخار لا تنطفئ من الداخل، حتى لو انطفأت من الخارج!

أشعل "راجا صاحب" سيجارا، ونظر نحو "تنخا" بعيون لا ترحم:

- لِم لم أرَ وجهك يا سيد "تنخا"؟ لقد أخذت منى نقودا من أجل الدعوى، لكنك لم تدفع للمطعم مليما واحدا، وهو الآن يلومنى! أنا أعتبر هذا خداعا، ولو أردت لسلمتك للشرطة.

ثم قال مخاطبا "راى صاحب":

- لم أرَ مثل هذا الرجل الذى لا دين له! أصدقك القول يا "راى صاحب"، لم أكن أريد الوقوف أمامك فى الانتخابات أبدا، لكن هذا الشيطان

أغرانى، وضيّع على مائة ألف روبية. اشترى قصرا، أخذ سيارة، وصارت له عشيقة، وقد جعل من نفسه أميرا! الآن بدأ يخدعك، فمن يريد أن يرفع من شأنه فلا بد أن يملك الثروة، وهو يخدعك فى ثروتك ويضع التراب فى عينيك!

نظر "راى صاحب" نحو "تنخا" باحتقار، وقال:

- لماذا تصمت يا سيد "تنخا"؟ لتجب، ألم يهضم "راجا صاحب" أجرتك كلها؟! ألديك رد عليه؟ لو سمحت لتتفضل إلى الخارج ولا ترنى وجهك أبدا، لقد جعلت اثنين من الأخيار يتشاجران لتستفيد منهما، هى تجارة لا يوجد فيها رأس مال، لكن لتعلم أن نفعها أو ضررها يزهق روحك!

طأطأ "تنخا" رأسه ولم يرفعها حتى انسل خارجا، مثل كلب سارق يدخل منزل السيد وينسل خارجا!

عندما ذهب، سأل "راجا صاحب":

- أكان يتحدث عنى بالسوء؟

- نعم، لكنى أعرفه جيدا.

- إنه شيطان!

- تماما.

- يشعل الحرب بين الأب وابنه، الزوج وزوجته، إنه أستاذ فى هذا الفن! حسنا، لقد أخذ الأستاذ درسا جيدا اليوم.

بعد ذلك بدأ الحديث عن زواج "ردر بال"، انقبضت روح "راى صاحب" كأن أحدهم يصوب مسدسه نحوه! إلى أين يذهب؟ فهو لا يستطيع الضغط على "ردر بال"، لكن "راجا صاحب" كان يعلم الموضوع كله، فلم يضطر راى صاحب لقول شىء ونجت روحه. سأله:

– من أين عرفت؟!

– منذ فترة. أرسل "ردر بال" رسالة باسم ابنتى، وقد أعطتنى إياها.

– فى هذه الأيام لا يتحلى الأولاد بالصفات الحميدة، لا توجد سوى الحرية التى سيطرت على عقولهم!

– أنا أعرف هذا الجنون، لك عندى له دواء؛ أستطيع إخفاء هذه الفتاة، فلا يعلم أحد عنها شيئا، وبعد خمسة أيام يهدأ هذا الجنون، فلا طائل من محاولة إفهامه!

ارتعش "راى صاحب"، فقد فكر فى هذه الفكرة من قبل، لكن لم يأخذها على محمل الجد. كانت عادتهما متماثلة، وتحيا داخل كل منهما صفات خفية يسترها "راى صاحب" برداء خارجى، أما "راجا صاحب" فكانت عنده مكشوفة! لم يستطع "راى صاحب" أن يضيع الفرصة ويريه عظمته، فقال بخجل:

– لكن هذا هو القرن العشرين وليس القرن الثانى عشر! لا أستطيع معرفة تأثير هذا فى "ردر بال"، لكن من الناحية الإنسانية....

فقاطعه "راجا صاحب" قائلا:

- أنت تحرس الإنسانية، ولا ترى أن الحيوانية اليوم تتغلب عليها! وإلا لم تنشب المعارك بين البلدين، لكن الناس تصالحوا فى مجلس القرية، طالما بقى الإنسان حيا ظلت حيوانيته حية!

تطرقا إلى موضوع هامشى، فتحول إلى شجار فانصرف "راجا صاحب" غاضبا. وفى اليوم التالى ذهب "راى صاحب" إلى نينى تال، وبعده بيوم سافر "ردر بال" إلى إنجلترا مصطحبا معه "سروج". انقطعت الصلة بين الأب وابنه الآن، وكان كل منهم يعارض الآخر، وكان السيد "تنخا" هو مستشار "ردر بال"، فقام برفع دعوة على "راى صاحب" بتوكيل من "ردر بال" وربح من "راى صاحب" مليون روبية! لم يحزن على خسارته فى المحكمة، لكن حزنه كان على كرامته التى ضاعت، وأكثر من ضياع الكرامة ندم على حياته التى ذهبت أدراج الرياح! كان أكبر آلامه هو خداع ابنه له، فقد انتزع منه فخره بأبوته لابن صالح بلا رحمة!

لم يكن كأس أحزانه قد امتلأ بعد، فما بقى أكمله انفصال ابنته عن زوجها! كانت "مينا كشى" كعامة الفتيات الهندوكيات تتسم بالسذاجة، وترضى عمن يزوجه لها والدها، لكن دون وجود حب بين الزوج وزوجته. كان "دج وجى سنج" ماجنا ومعاقرا للخمر، وكانت "مينا كشى" تحترق فى داخلها، وتسرى عن نفسها بقراءة الكتب والمجلات. لم يكن عمر "دج وجى سنج" يزيد عن الثلاثين، وكان هو الآخر يقرأ، لكنه كان شديد الغرور، ودائم التحدث عن مكانة أسرته، لا يعرف الرحمة لكنه يجتهد فى البخل،

كان يلقي بشباكه على فتيات ونساء من سفلة القوم فى القرية، ويصادق الساقطات، وكان يحب أن يتملقه الناس. لم تكن "مينا كشي" تحترم هذا الشخص فى قرارة نفسها، وكانت تقرأ فى الصحف عن حقوق النساء، فبدأت تفكر فى هذا الأمر، وبدأت تذهب إلى النادى يوميا حيث كانت تحاضر هناك المتعلمات والنساء ذوات المكانة العالية، ويتحدثن عن حق الانتخاب، والحرية والنهضة النسائية، كأنهن يتآمرن ضد الرجال! لم تكن معظمهن تتمتع بعلاقة جيدة بأزواجهن، ولهذا يرون كسر هذا الرباط البالي بسبب تعليمهن. كم فتاة منهن حصلت على الشهادات، وتبحث عن عمل! وهن يعتبرن الزواج مهلكا لهن. كانت من بينهن الآنسة "سلطانة" التى انضمت إليهن بعد حصولها على شهادة من كلية الحقوق، وكانت تعطى المشورات القانونية للنساء المتضررات، وقد رفعت "مينا كشي" دعوى نفقة على زوجها بناءً على مشورتها. لم تكن تريد العيش فى بيته، ولا حاجة لها بنقوده، وتستطيع الحياة براحة فى بيت والدها، لكنها تريد أن تصم وجه "دج وجى سنج" بالعار قبل رحيلها! ادعى "دج وجى سنج" عليها بسوء السلوك، وحاول "راى صاحب" بكل طاقته إنهاء هذه الحرب، لكن "مينا كشي" لم تكن تتحمل صورة زوجها! رُفضت دعوى "دج وجى سنج"، وفازت "مينا كشي" بدعوى النفقة، لكن العار كان دائما كالشوكة فى قلبها! كانت تعيش فى قصر مستقل، وأصبحت من الناشطات فى الحركة الاشتراكية، لكن حروقها لم تبرد!

ذات يوم ذهبت إلى قصر "دج وجى سنج" غاضبة وهى تحمل السياط، حيث عجّ القصر بالمشاهدين الذين تحلقوا حول راقصة. اقتحمت مجلس الشياطين للقضاء عليهم كإلهة حرب، فبدأ الناس يفرون من ضرب سياطها، كيف يقف المجانين أمام هذا الرعب؟! وعندما بقى "دج وجى" لوحده، بدأت تلهبه بسياطها، وضربته حتى صار بلا روح! كانت الساقطة مختبئة فى ركن من القاعة، وقد حان دورها، كانت "مينا كشى" تريد ضربها، فسقطت عند قدميها وقالت وهى تبكى:

– سيدتى، ارحمى روحى اليوم! لن أحضر فيما بعد أبدا، أنا بريئة!

نظرت "مينا كشى" نحوها باحتقار، وقالت:

– حسنا، أنت بريئة، هل تعرفين من أنا؟ اغربى عن وجهى، ولا تأتى إلى هنا أبدا. نحن النساء خلقن لتسلية الرجال، وهذا ليس ذنبكِ!

وضعت الساقطة رأسها عند قدميها، وقالت بانفعال:

– ليسعدك الإله دائما، أنت مثلما سمعت عنك!

– ماذا تريدين من إسعاد الإله لى؟

– أنت تعرفين يا سيدتى!

– كلا، قولى أنتِ!

وصلت روح الساقطة إلى حلقومها: لماذا دعوت لها؟ لقد نجوت، كان يجب أن أنسلَّ فى صمت، لماذا أصررت على أن أدعو لها؟! كيف أنقذ روحى الآن؟!

قالت بخوف شديد:

– يا سيدتى، ليعلو اسمك، ومنزلتك ومقامك!

ابتسمت "مينا كشى"، وقالت:

– حسنا، هذا صحيح!

ثم ذهبت إلى عربتها، وجلست حتى وصلت إلى حجرة مدير الشرطة، أخبرته بالواقعة ثم ذهبت إلى قصرها. منذ ذلك الوقت أصبح الرجل والمرأة يتعطشان لدم أحدهما الآخر! كان "دج وجى سنج" يتربص لها بالمسدس، وكانت تمشى مع حارسين لحمايتها. كان "راى صاحب" ينظر إلى جنة الراحة وهى تتهدم فى حياته. يأس من الدنيا، واتجه إلى الروحانيات. حتى الآن عاش لتحقيق الأمانى، لكن هذا الباب قد أغلق! فتوجه بنفسه إلى العبادة، حيث يوجد فيها الصدق أكثر من الأمنيات. ضاعت الأملاك الجديدة التى أخذ قروضا من أجلها من يده دون دفع مديونيتها، وقد صارت حملا على رأسه! كان يأخذ راتبا جيدا من رئاسة المجلس، لكنها تنفق كاملة للحفاظ على مكانته. كان "راى صاحب" يحتاج إلى أخذ نقود إضافية من الرعايا للحفاظ على مظهره، وعلو مكانته، أو أن يطردهم من الإقطاعية، أو أن يأخذ منهم الهدايا، لكنه فى قرارة

نفسه كان يكره أن يفعل هذا، فهو لا يريد أن يسيء إلى رعاياه، كما كان يشفق عليهم، لكنه مجبر نظرا إلى احتياجاته! المشكلة أنه لم يكن يجد الطمأنينة فى العبادة، كان يريد ترك الدنيا لكن لم تكن هى تريد تركه! عندما وقع فى هذا الصراع لم يستطع التخلص من الذل، والندم والاضطراب، وإذا لم يكن القلب مرتاحا، فكيف يرتاح الجسد؟!

كان دائم الاهتمام بصحته، لكنه مصاب دائما بأحد الأمراض! كانوا يطهون الطعام الشهى، لكن لم يكن من نصيبه سوى العدس والبطاطس! كان يرى من هم مدينون أكثر منه، لكنهم أقل منه غما وحزنا، ولا يقللون من راحتهم ومكانتهم! لكن حياءه كان يمنعه من فعل هذا، فروحه العالية لم تكن خربة، ولم يكن قلبه يطمئن بإدارة شئون الإقطاعية بالظلم والخداع وعدم الحياء وإيذاء الناس، وهذا هو السبب الأكبر فى خسارته!

الفصل الثانى والثلاثون

بعد أن غادر "مرزا خورشيد" المستشفى بدأ عملا جديدا، لم يكن يفكر فى الجلوس بلا عمل، لكن ما هو هذا العمل؟! كان يريد إقامة عرض مسرحى تؤديه ساقطات المدينة! فى أيام الدعة كان ماجنا كبيرا، وقد تبدل حاله فى المستشفى مع ما تعرض له من آلام، وامتلأ قلبه بالتدين. كان يتألم عندما يتذكر حياته الماضية، لو كان لديه عقل فى ذلك الوقت لاستطاع خدمة الناس كثيرا. كان فى وسعه أن يبعد عنهم الآلام والإفلاس، لكنه أضاع ثروته فى المجون! ليس هذا الأمر جديدا، فأرواحنا تستيقظ فى المصائب، من الذى لا يتأسف فى كبره على أخطاء شبابه؟! لو صرف طاقته فى تقوية عقله، وادخر الأعمال الصالحة، لارتاح قلبه اليوم! وفى نفس الوقت فقد ندم بعد هذه التجربة الجديدة؛ لأنه لم يجد له محبا فى الدنيا، ولن يبكيه أحد بعد وفاته. كان يتذكر بين الفينة والفينة حادثة قديمة قد مرّت به، عندما مرض بالملاريا فى إحدى القرى فى البصرة، كانت فى الخيمة فتاة قروية فى ذلك الوقت تمرّضه بجهد شاق، عندما شفى أراد أن يعطيها نقودا، وجواهر أجر خدمتها، فاغرورقت عيناها بالدموع، وطأطأت رأسها رافضة أخذ هذه الهدايا!

كانوا يخدمون الناس بصبر، لديهم مبادئ وصدق، لكن الآن لا يوجد ذلك الحب والتفانى اللذان كانت تحملهما تلك الفتاة الجديدة فى العمل! لقد انكسر تمثال الوفاء هذا داخله، وعد بالعودة لكنه لم يرجع، لقد جعلته مشاعر الثورة والراحة ينساها، وعندما جاء ذكرها أشفق عليها دون حب. لا أحد يعرف ماذا حدث لهذه الفتاة، لكن حتى اليوم ما زال وجهها يطارده بسذاجته وسكونه وانكساره، يا ليته تزوجها لكانت الحياة اليوم جميلة! إن سلوكه غير العادل معها هو الذى جعله يخدم جميع النساء، ويشفق عليهن ويواسيهن! عندما كان نهر شبابه ممتلئا كانت أشعة الضوء تنتشر فى هذا الماء العكر وتذوب فيه، لكن الآن استقر الماء، وأصبح شعاع النور يصل إلى القاع.

كان السيد "مرزا" جالسا فى إحدى أمسيات الربيع الباردة أمام المظلة، بصحبة ساقطتين وهو يحدثهما، فجأة حضر السيد "مهتا"، رحب "مرزا" به كثيرا، وصافحه قائلا:

– أأبسط عينى من أجل استقبالك، كنت فى انتظارك!

ضحكت الساقطاتان، وشعر "مهتا" بالخجل.

أشار "مرزا" إليهما بالذهاب، وجلس "مهتا" على مقعد، فقال له:

– كنت أريد الحضور إليك بنفسى، فالعمل الذى أنوى القيام به لن يكتمل دون مساعدتك، فقط ضع يدك على ظهرى وشجعنى دائما، تقدم يا "مرزا"، تقدم يا "مرزا"!

ضحك "مهتا"، وقال:

- إذا بدأت العمل فلا حاجة لك بمن هو مثلى، فأنا دودة كتب! أما أنت فعمرك أكثر مني، وتعرف الدنيا جيدا، وتستطيع التأثير فى الرجال من الصغير حتى الكبير، لا أستطيع هذا، لو كنت أملك هذه القوة لفعلت الكثير!

أوضح "مرزا" بكلمات موجزة مشروعه الجديد: فقد كان رأيه أن النساء يذهبن إلى سوق الدعارة لسببين: إما أنهن لا يجدن الاحترام فى بيوتهن، أو أنهن يحتجن إلى النقود؛ لو حلّت هاتان المسألتان لما سقط من النساء فى بحر الرذيلة إلا قليل القليل. كان "مهتا" قد أمعن التفكير فى هذه المسألة كرجل علم مثل الآخرين، وكان يعتقد أن أغلبية النساء يقعن فى الرذيلة لرجحان الرغبة، وحبا للمال والراحة. تناقش الاثنان فى هذا الموضوع، وكان كلاهما مقتنعًا برأيه، ضم "مهتا" قبضته ورفعها فى الهواء ثم أسقطها، وقال:

- أنت لم تمعن التفكير فى هذه المسألة يا سيد "مرزا"! هناك طرق كثيرة لكسب العيش، لكن جوع الرذيلة لا يذهبه الخبز! لا بد من وجود أشياء عديدة جميلة فى الدنيا. إذا لم يتبدل النظام الاجتماعى من أعلى أو أسفل، فلا فائدة من إقامة هذه الجمعية.

برم "مرزا" شاربه، وقال:

- لا أعتقد أن هذا بسبب الرزق فقط! نعم هذه الحاجة ليست متساوية عند جميع الناس، فالعامل يكتفي بالعروس والدقيق وكوخ خشبى،

أما المحامى فيريد عربة، وقصرا وخدما. الإنسان لا يريد الخبز فقط، بل يريد الكثير من الأشياء، وعندما تتوافر أمام النساء مختلف المغريات بأشكالها وأنواعها فهل هذا ذنبهن؟!

لو فكر الدكتور "مهتا" قليلا لعلم أنه لا يوجد فرق بين تفكيره وتفكير "مرزا"، الفرق فقط فى طريقة التعبير لكن كيف يصبر على التفكير مع حرارة المناقشة؟! قال بحرارة:

– أعذرنى يا سيد "مرزا"! الساقطات سيوجدن فى العالم طالما وجد أثرياء. هب أنك نجحت فى إقامة جمعية – وإن كنت أشك فى هذا – لا يمكن أن تضم إليك أكثر من خمس نساء أو عشر، ولفترة قصيرة؛ فمعظم النساء لن يتمكن من التمثيل فى مسرحية، كما لا يمكن أن يصبح الجميع شعراء! ولنفترض أن هؤلاء النسوة انضممن إلى مسرحيتك، وسيعشن فى الجمعية طوال حياتهن، إلا أن مكانهن لن يبقى خاليا، لا فائدة من قطع أوراق الشجر إذا لم تجتثها من جذورها! أحيانا نجد بعض الأثرياء يتركون كل شىء فى سبيل الإله، لكن مملكة الغنى مازالت قائمة، ولم تزل اللحظة!

تألم "مرزا" من عناد "مهتا"، كيف يقول شخص متعلم مثل كلامه؟! هل يمكن تغيير النظام الاجتماعى بسهولة؟ إنه أمر يحتاج إلى قرون، فهل ندع الأمور تسير وفق أهواء الرجال؟! ألا نعمل على إيقافهم؟ هل ندع النساء الفقيرات يقعن فى شباك هوس الرجال؟! لم لا نربط الأسد فى القفص حتى لا يستطيع أن يصيب أحد بأنيابه ومخالبه؟ هل نظل

صامتين فى هذا الوقت حتى يتحول الأسد إلى زاهد؟! الأثرياء يبذرون ثرواتهم، لا اعتراض لى على هذا، كما لا أعترض على إدمانهم الخمر، ولو وضعوا العربات عقودا حول أعناقهم، أو بنوا القلاع، والقصور والمساجد، لما بالى "مرزا" بهذا! لكن أن يخربوا حياة النساء، فهذا ما يعجز "مرزا" عن رؤيته! إذا خلا سوق الحسن فلن يجد الأغنياء حتى من يبصق على نقودهم، فعندما خلت المحلات من الشراب، أطفأوا نار قلوبهم بالماء!

ضحك "مهتا" على حماقة "مرزا"، وقال:

– يجب أن تعلم أن بعض مدن العالم لا يوجد فيها مكان للساقطات، لكن ثروة الأثرياء تحقق لهم رغباتهم!

ضحك "مرزا" أيضا على جهل "مهتا":

– أعرف يا كريم، أعرف! لقد رأيت الدنيا بدعائك، لكن هذه الهند وليست أوربّا!

– الطبيعة الإنسانية واحدة فى الدنيا كلها.

– لتعلم أن لكل جماعة خصوصيتها، وهو ما يسمى بالروح؛ والعصمة هى روح الثقافة الهندية!

– أنت تشكر نفسك بنفسك!

– وأنت دائما تهجو الثروة، لكنك تعيش فى حماية "كهنا"!

هدأ "مهتا"، وقال بانكسار:

- لقد أصبحت فى حماية "كهنا" منذ ضياع ثروته، ولو رأيت حالته فى هذه الأيام لأشفقت عليه! لكن كيف يحتاج إلى حماية من لا يجد فرصة إلا للكتب والمكتبة؟! أكثر شىء أستطيع فعله هو المواساة الجافة، الحماية حقا هى فى إنقاذ "مالتى" لكهنا! فى أعماق الإنسان طاقة كبيرة، ومخيفة من الإيثار - ولم أعرفها حتى اليوم - أنت أيضا يجب أن تذهب إلى "كهنا" وتقابله، وعندها ستعرف الأمر جيدا ، فأكثر شىء يحتاج إليه الآن هو المواساة!

قال "مرزا" خلافا لرغبته:

- لو أردت فسأذهب إليه، فأنا لا أعتذر عن الذهاب إلى جهنم مادمت فى صحبتك! لقد سمعت أنك ستتزوج من الآنسة "مالتى"، كان خبرا ساخنا!

قال "مهتا" بخجل:

- أنا أحاول، وسنرى متى أقطف الثمرة!

- إنها تموت فيك عشقا!

- أنا أيضا كنت أظن ذلك، لكن عندما أردت الإمساك بيدها رأيتها تحلق فى السماء، ووصولى إليها فى هذا العلو مستحيل! لهذا أتوسل إليها أن تنزل إلىّ، كما أنها لا تحدثنى فى هذه الأيام! قال هذا وضحك ضحكة كالبكاء، ثم وقف.

سأله "مرزا":

- متى سنلتقي؟

- ستصيبك المشقة، لكن اذهب إلى "كهنا".

- سأذهب!

مضى "مهتا"، وأخذ "مرزا" ينظر إليه من النافذة، لم تكن سرعته في السير كما كانت من قبل، كأنه غارق في التفكير!

الفصل الثالث والثلاثون

تحوّل الدكتور من مُمْتحِن إلى مُمْتحَن، وأصبح يشك كلما ابتعدت مالتى عنه! فمنذ عدة أشهر وهى لا تحضر إليه، وعندما عجز عن الصبر ذهب هو إلى منزلها، لكنه لم يجدها. فى فترة الحب التى جمعت بين "ردربال" و"سورج"، كانت "مالتى" تحضر مرتين لاستشارته، لكن بعد سفر الاثنين إلى إنجلترا انقطع حضورها، كما أنها غير موجودة بالمنزل، وهو يعتقد أنها تتهرب منه، كأنها تريد إجبار قلبها على الابتعاد عنه! لم يستطع التقدم فى الكتاب الذى كان يكتبه فى هذه الأيام، كأن تفكيره مفقود! لم يكن ماهراً فى الأعمال المنزلية، ورغم أنه يتقاضى ألف روبية شهرياً فإن شيئًا لا يبقى منها، وهو لا يتناول سوى الخبز والعدس! وإذا كان يملك شيئًا فهى عربته التى يقودها بنفسه. ينفق بعض المال على الكتب، والبعض على التبرعات، والبعض لمساعدة الطلبة الفقراء، والبعض الآخر لتزيين الحديقة التى يعشقها. كان يشترى مختلف النباتات من الخارج بثمن باهظ، ويزرعها؛ وكانت هذه مواضع إنفاق النقود! لكن منذ عدة أشهر وهو يهمل حديقته، كما أهمل أمور المنزل، كان يأكل البطاطس المهروسة، وينفق أكثر من ألف روبية!

بلى قميصه - فقد كان يلبسه طوال الشتاء القارس - ولم يحظ بثوبٍ جديد! كان يأكل العدس أحيانًا دون سمن، متى اشترى آخر عبوة سَمْنٍ لا يتذكر؟ كيف يسأل الطباخ عن هذا؟! هل سيعتبره شخصًا لا قيمة له؟ ذات يوم التقى أخيراً مع "مالتى"، فى المرة الرابعة بعد أن يئس فى المرات الثلاث، عندما رأت حالته لم تستطع الصبر، وقالت:

- هل ستقضى الشتاء كله على هذا الحال؟ ألا تخجل من ارتداء هذا القميص؟!

لم تكن "مالتى" زوجته، لكنها كانت تسأله بأسلوب عادى، كأنها تخاطب شخصًا من أفراد أسرتها!

قال "مهتا" دون خجل:

- ماذا أفعل يا "مالتى"، لا تتبقى معى نقود!

تعجبت "مالتى":

- أنت تكسب أكثر من ألف روبية، ولا يبقى لديك نقود لخياطة ثياب جديدة؟! أنا لا أكسب أكثر من أربعمائة روبية، لكننى أدير المنزل كله بها، كما أدخر بعضًا منها، على أى شىء تنفق نقودك؟!

- لا أصرف النقود فيما لا ينفع، كما أنه ليس لدىّ هوايات!

- حسنا! خذ منى وقم بحياكة قميصين.

قال "مهتا" بخجل:

- سأحيكها، أنا صادق معك!

- عندما تأتى إلى هنا لزيارتى فلتلبس ما يليق بإنسان!

- هذا شرط صعب!

- حسنا، هو صعب! لكن الأمر لن يسير دون أن أضغط عليك.

لكن صندوق النقود كان خاليًا، ولا يستطيع الذهاب إلى أى محل دون نقود؛ كيف سيذهب إلى منزل "مالتى" كان قلبه مضطربًا!

ذات يوم حدثت مصيبة جديدة؛ فمنذ عدة أشهر لم يدفع أجرة المنزل، وفى كل شهر تتراكم عليه خمس وسبعون روبية، عندما لم يحصل المالك على أجرته بعد أن طلبها عدة مرات، قام بإنذاره، لكن الإنذار ليس آلة لصنع النقود! مرّ الوقت ولم تصله النقود، عندها اضطر لدفع دعوى ضده فى المحكمة؛ كان يعرف أن السيد "مهتا" رجل شريف وكريم، لكن كيف يصبر وقد تحمل أكثر من ستة أشهر؟! لم يوكل "مهتا" محاميًا، ففاز المالك على الفور وأخذ صورة الحكم. وصل أمين المزاد أولاً ليطلع السيد "مهتا" عليه؛ لأن ابنه كان يدرس فى الجامعة، وقد يعطيه السيد "مهتا" منحة، وحدث أن كانت "مالتى" موجودة فى ذلك الوقت، فقالت:

- أى حجز؟ ما السبب؟!

قال الأمين:

- ربح دعوة الإيجار، لقد حضرت لإطلاع سيادتك عليه، المطلوب أربعمائة أو خمسمائة روبية، هل هذا مبلغ كبير؟! لو دفعت خلال عشرة أيام لن تحدث مشكلة، وسأعطل المرابى لمدة عشرة أيام.

عندما ذهب الأمين، سألته "مالتى" باحتقار:

- أوصلت إلى هذه الدرجة؟! إننى أتعجب كيف تؤلف كتبًا ضخمة ولا تدفع الأجرة لمدة ستة أشهر؟ هل كنت تعلم؟!

طأطأ "مهتا" رأسه بخجل، وقال:

- كيف لا أعلم؟! لكن ليس لدى نقود، وأنا لا أنفق مليماً فيما لا يفيد!

- هل تدون ما تنفقه؟

- كيف لا أدونه؟ كل ما أنفقه مدون عندى، وإلا ما تركتنى الضرائب على الدخل!

- أتدون كل ما تصرفه؟

- ليس عندى كشف بالمصاريف.

- لم؟!

- من الذى سيكتب؟ أنا أشعر بالضجر!

- فكيف تكتب هذه الكتب إذاً؟!

- أنا لا أفعل شيئًا سوى الإمساك بالقلم، فأشرع فى الكتابة، لكن لا أستطيع الجلوس لتدوين المصروفات فى كل وقت!

- كيف ستدفع هذه النقود؟

- سوف أقترض من أحد، إذا كان لديك فأقرضيني.

- سأعطيك بشرط واحد: أن أستلم دخلك كله، وأقوم أنا بالإنفاق.

فرح "مهتا"، وقال:

- لو أخذت هذا العبء على عاتقك فسأقرع الطبول!

أعطته "مالتي" نقود القضية، لكن في اليوم التالي أجبرته على إخلاء منزله، وأعطته حجرتين كبيرتين في فيلتها، وكان الطعام وغيره يجهز في منزلها. لم يكن لدى السيد "مهتا" الكثير من الأمتعة، لكن الكتب حملت على عدة عربات، وقد امتلأت الحجرتان بها! كان قلقًا على ترك حديقته، لكن "مالتي" تركت له حديقتها كلها ليزرع فيها ما يشاء من نباتات.

انتهى قلق "مهتا"، لكن "مالتي" قد واجهت الكثير من المشاكل لإصلاح طريقته في الإنفاق؛ لقد رأت أن دخله أكثر من ألف روبية، لكنها تذهب كلها في التبرعات الخفية: فهو يعطي منحة لعشرين أو خمسة وعشرين طالبًا لإكمال تعليمهم، ولم يكن عدد الأرامل أقل من هذا، لم تعرف من أي جهة تستطيع تقليل النفقات؟! كل ذنب سيلحق بها، وكل عار سيقع فوق رأسها! كانت تغضب من "مهتا" أحيانًا، وأحيانًا من نفسها، وأحيانًا من السائلين الذين لا يخجلون من وضع عبء حياتهم على إنسان كريم وساذج! أكثر ما كان يغضبها؛ أن بعضهم يأخذ الصدقة وهو غير مستحق لها! ذات يوم نصحت "مهتا"، بعد سماع اعتراضها، أجاب "مهتا" دون تفكير:

- الخيار لكِ، أعطِ من تشائين أو لا تعطيه، لا حاجة بك لسؤالي! سوف تفعلين أنت ذلك بالتأكيد.

قالت "مالتى" وهى غاضبة:

– نعم، أو ماذا؟ تأخذ أنت حسن السمعة وأخذ أنا سوءها! لا أفهم على أى أساس تدفع هذه التبرعات؟ إن الأكل المجانى يصيب الإنسان بالكسل! وما الذى سينهدم من الاعتماد على النفس؟ إن الظلم لا يصيبه بهذا الضرر، بل أعتقد أن الظلم هو الذى يولد الثورة فى الإنسان ليصبح نافعًا فى المجتمع.

وافق "مهتا":

– هذا هو نفس تفكيرى.

– كلا، هذا ليس تفكيرك!

– كلا، يا "مالتى" أنا صادق!

– فلماذا لا يصدق فعلك قولك؟!

فى الشهر الثالث استطاعت "مالتى" أن تصيب الكثير من السائلين باليأس؛ أوضحت لبعضهم أنها ليست مجبرة، وفضحت البعض الآخر. استقامت أمور السيد "مهتا" المادية، لكنه ندم على هذه الأفعال. فى الشهر الثالث وفرت "مالتى" ثلاثمائة روبية، لم يقل شيئًا، لكن عظمتها قلت داخله! لا بد أن تتحلى المرأة بحب العطاء والزهد، وهذا هو أكبر خزانة لها، وهذا هو الأساس الذى شيّدت عليه القصور الاجتماعية، وهو يعتقد أن العقل التجارى أمر سيئ!

وعندما أحضرت له قميصاً وساعة جديدة، لم يخرج لعدة أيام خجلاً، لأن إظهار النفس كان أعظم ذنب في نظره!

لكن السر أن "مالتي" تريد أن تضعه في قبضة الحساب، وتغلق باب تبرعاته، وفي نفس الوقت تصرف بيدها على الإيثار من وقتها وخبراتها؛ لم تكن تذهب لمنازل الأثرياء دون أخذ المال، لكنها تكشف على الفقراء وتقدم لهم الدواء بالمجان! كان الفرق بينهما فقط في أن "مالتي" تدير المنزل وتدير خارجه، أما "مهتا" فلا يدير سوى الخارج. كان كلاهما يريد التضحية بنفسه، لكن كان طريق "مهتا" واضحاً، ليس فيه حواجز سوى نفسه، أما طريق "مالتي" فكان متعرجاً، تتحمل فيه المسؤولية، وهو حاجز لا يمكن تحطيمه كما أنها لا تريد ذلك، لأنها تجد حركة الحياة بهذه الحواجز! لكن الآن بعد أن رأت "مهتا" تشعر بأنها عاجزة عن تقييد الرجل المنطلق في الغابات في قفص، ولو قيدته فسيحاول مهاجمتها! القفص مكان للراحة، إلا أن قلبه كان دائماً متعلقاً بالغابة، ودنيا المنزل بالنسبة "لمهتا" دنيا غريبة، لا يعرف عاداتها وتقاليدها!

لقد نظر إلى الدنيا من الخارج، فوجدها محض خداع ومكر، وأي مكان ينظر إليه يرى فيه السوء! لكن عندما دخل إلى عمق المجتمع، ونظر إليه نظرة فاحصة علم أن السيئات تخفي تحتها إيثاراً وحباً! وعندما أصابه الشك والريبة، وجد في الظلام وجه "مالتي" الإلهي، فأسرع نحوها بسرعة ودون تريث، وأراد أن يخفيها بأية حيلة حتى لا ينظر إليها أحد! لكن لم يعلم أن تحقيق رغبته هو أساس الدمار، هل يمكن أن نربط

الحب دون مروءة خوفاً عليها؟! إنه يريد ثقة كاملة، حرية مطلقة ومسؤولية، إنه يحمل قوة نموه ونشأته في داخله، وهو يحتاج إلى النور والسعة، فهو ليس جداراً حتى تضع عليه الأحجار! إنه الروح، والرقي والقدرة على الانتشار.

عندما حضر "مهتا" إلى الفيلا أصبح بإمكانه لقاء "مالتي" عدة مرات في اليوم، واعتقد أصدقاؤه أن هذا استعداد للزواج، ولم يبق سوى المراسم فقط. كان "مهتا" أيضاً يحلم بهذا! إذا رفضته "مالتي"، فلم تحبه هكذا؟! ربما تعطيه فرصة للتفكير. لقد وصل بعد تفكير عميق إلى أن حياته تعادل نصف قيمتها دون "مالتي" وهي التي بإمكانها أن تكملها! من الخارج هي متقلبة المزاج، لكن من الداخل هي مركز للقوة، لقد تبدل الحال: ففي البداية كانت "مالتي" هي العطشى في البداية، والآن "مهتا" هو المضطرب في العطش! عندما ردت عليه "مالتي" في هذا الموضوع، لم يجد في نفسه القدرة على قول شيء مرة أخرى، وليس لديه شك في هذا! كما أن انجذابه إلى "مالتي" قد زاد بسبب قربه منها، كانت حروف الكتابة تختلط مع بعضها، لكن قربه منها وضحها، وقد كان فيها هدف ورسالة!

عينت "مالتي" "جوبر" بستانياً في الحديقة؛ حدث هذا عندما كانت عائدة من عيادة أحد المرضى فنفد الوقود وهي في الطريق، وكانت تقود عربتها بنفسها، فكرت من أين تحضر الوقود؟ فقد كانت الساعة التاسعة ليلاً، وكانت ليلة باردة من ليالي شهر ماج، والشارع يلفه السكون ، لم ترَ أحداً ليقوم بدفع العربة إلى محطة الوقود، كانت في غاية الغضب من الخادم: "آكل الحرام، إنه دائم النوم، ولا يهتم بشيء!"

وحدث أن كان "جوبر "يسير هناك، عندما رأى "مالتى" واقفة فهم كل شيء، ودفع العربه لميلين حتى أوصلها لمحطة الوقود.

قالت "مالتى" بسرور:

- أتعمل عندي؟

وافق "جوبر" وهو ممتن لها، واتفقا على أن يكون أجره خمسًا وعشرين روبية. كان يحب العمل فى الحديقة - كان هذا هو عمله وهو ماهر فيه - كانت أجرته فى المصنع أكثر، لكنه لم يكن يرتح فيه.

فى اليوم التالى بدأ "جوبر" العمل عند "مالتى"، فأعطته حجرة للسكن، وحضرت "جهنيا "أيضًا. عندما كانت "مالتى" تحضر إلى الحديقة كانت ترى ابن جهنيا يلعب فى الطين، ذات يوم أعطته الحلوى ومنذ ذلك اليوم أحبها الطفل، وكان عندما يراها يلتصق بها، ولا يتركها حتى يأخذ الحلوى. ذات يوم حضرت مالتى إلى الحديقة ولم ترَ الطفل، وعرفت من "جهنيا " أن الحمى قد أصابته، قالت "مالتى" باضطراب:

- عندما أصيب بالحمى لماذا لم تحضريه إلىّ؟! تعالِ لنراه.

كان الطفل فاقداً الوعى على سريره من الحمى، كانت الحجرة مصنوعة من الطوب، رطبة، ومظلمة، والناموس يملؤها حتى فى الشتاء القارس، فلم تستطع "مالتى" أن تقف هناك لدقيقة! ذهبت على الفور، وأحضرت ميزان الحرارة وعادت، فوجدت أن الحرارة قد بلغت الأربعين، فشكّت "مالتى" أنه قد أصيب بالجدرى وهو لم يطعم ضده، لو عاش فى هذه الحجرة الرطبة لربما تزيد الحمى.

فجأة فتح الطفل عينيه، ونظر بعيون دامعة نحو "مالتى" الواقفة، ورفع يده ليرتمى فى حضنها، أخذته فى حضنها، وأخذت تربت عليه. جلس الطفل فى حضنها، كأنه يستشعر الراحة الشديدة، ثم أخذ عقدها بيده الساخنة وأخذ يجذبه ناحيته، خلعت "مالتى" العقد ووضعته فى عنقه، حصل الطفل على مراده فهدأ. بعد أن أخذ العقد لم يعد يريد البقاء فى حضنها؛ لأنه خاف أن تنتزع منه العقد، فى ذلك الوقت كان حضن "جهنيا" أكثر أماناً.

قالت "مالتى" بسرور:

– إنه ماهر جداً، كيف يأخذ الشىء ويفر؟!

قالت "جهنيا" :

– أعطه لها يا بنى، فهذا العقد ملك للأنسة.

أمسك الطفل العقد بيديه الاثنتين، ونظر نحو والدته بغضب.

قالت "مالتى":

– ارتده يا بنى، فأنا لا أطلبه.

فى ذلك الوقت ذهبت إلى الفيلا، وأخلت حجرة الضيوف، وأحضرت "جهنيا" لتقيم فيها لهذه المدة، نظر "منجل" بعيون متعجبة لتلك الجنة: كان فى السقف مروحة، ولمبات كهربائية ملونة، وعلى الحائط علقت صور، فأخذ يحملق فيها لمدة طويلة. نادته "مالتى" بحب شديد:

– "منجل"!

نظر "منجل" نحوها مبتسماً، كأنه يقول: لا يمكننى الضحك اليوم يا آنسة، ماذا أفعل؟ إذا كان بإمكانك أن تساعدينى فساعدينى!

أفهمت "مالتى" "جهنيا" بعض الأشياء، ثم سألتها وهى ذاهبة:

– هل توجد امرأة أخرى فى منزلك، حتى تطلبى من "جوير" إحضارها هنا ليومين؟ أنا أشك أنه مصاب بالجدرى، كم يبعد منزلكِ؟!

ذكرت "جهنيا" اسم قريتها، وأعطتها العنوان، كانت تبعد ثمانية عشر ميلاً، تذكرت "مالتى" بيلارى فقالت:

– هل هى القرية التى يقع فى شرقها نهر على بعد نصف ميل؟

– نعم، نعم يا سيدتى! هى هذه القرية، كيف عرفتها؟!

– ذات يوم ذهبت إلى هناك، وتوقفت فى منزل "هورى"، هل تعرفينه؟

– إنه حماى يا سيدتى، بالتأكيد قابلت حماتى؟

– نعم، نعم! إنها امرأة عاقلة للغاية، وهى حلوة الكلام. أرسلى "جوير" لإحضار أمه.

– إنه لا يذهب إلى هناك حتى يستدعيها!

– لماذا؟!

– هناك بعض الأسباب.

كانت "جهنيا" تقوم بكل أعمال المنزل، كغسيل الأوانى، وخبز الخبز، والكنس، والتنظيف وغيره. كانا يعيشان على البقوليات، وعندما تحضر "مالتى" فى المساء تقوم "جهنيا" بطهى الطعام، وتجلس "مالتى" عند الطفل. أرادت "جهنيا" أكثر من مرة أن تجلس هى بالطفل لكن "مالتى" منعتها! فى المساء كانت الحمى تزيد على الطفل فيرفع يده باضطراب، كانت "مالتى" تأخذه فى حضنها، وتسير به فى الحجرة لساعات، فى اليوم الرابع ظهر الجدرى، فطعمت "مالتى" جميع من فى المنزل: طعمت نفسها، و"مهتا"، و"جوبر"، و"جهنيا" و"مهراج" لم تدع أحداً. فى اليوم الأول كانت الحبوب صغيرة ومتفرقة، فظنت أنه جدرى صغير، لكن فى اليوم التالى تفتحت الحبوب وأصبحت كالعنب، ثم تجمعت معاً فأصبحت كحبة التمر. أخذ منجل يصرخ من الاحتراق والحكة وهو مضطرب، وينظر نحو "مالتى" بعجز ومسكنة، وعندما كان يتأوه كان كالكبار؛ كأنه أصبح شاباً فجأة! وكأن هذا الجرح قد محا طفولته البريئة، وكان عقله قد نضج، وأصبح يفهم أن "مالتى" هى التى بإمكانها مساعدته ليسترد صحته. عندما كانت "مالتى" تغيب لأى سبب يبدأ فى البكاء، وعندما تعود مالتى يسكت. كان اضطرابه يزيد فى الليل، فى معظم الأحيان كانت "مالتى" تجلس بجواره طوال الليل - لكنها لا تغضب - وإنما كانت تغضب من "جهنيا" لأنها تقوم بالأشياء الممنوعة التى تضره! كان "جوبر" و"جهنيا" يؤمنان بالتعاويذ، لكن لم يجدا هنا فرصة لذلك، لقد كانت "جهنيا" أماً لطفلين، لكنها لا تعرف كيفية تربية الأطفال! عندما كان

"منجل" يزعجها كانت تزجره، وكلما وجدت فرصة تنام على الأرض، ولا تستيقظ حتى الصباح. كان "جوبر" يخشى الدخول إلى هذه الحجرة، فقد كانت "مالتى" تجلس هناك فكيف يدخل؟! كان يسأل "جهنيا" عن حال الطفل، ثم يأكل وينام.

لم يكن فى صحة جيدة منذ أن تعرض للضرب المبرح، وكان يتعب بسرعة من أقل عمل! فى الأيام التى كانت "جهنيا" تبيع فيها العشب، كان يعيش فى راحة فاسترد صحته، لكن منذ شهور وهو يحمل الأثقال ويعمل بالدهان فساءت حالته. كان العمل هنا كثيراً: فكان يسقى الحديقة كلها، ويحرثها، ويقص العشب، ويطعم البقرة ويحلبها. ورغم أن المالك كان رحيمًا، لكن كيف يتساهل فى عمله؟ كان عطفها لا يدع له فرصة ليرتاح لدقيقة! كان "مهتا" يعمل فى الحديقة لساعات بالجاروف، فكيف يرتاح هو؟! كان يذبل، لكن الحديقة تزهر!

كان "مهتا" أيضًا يحب الطفل، ذات يوم كان فى حضن "مالتى" وجذب شاربه، لقد جذب هذا الظالم شاربه بقوة كأنه يقتلعه من جذوره، امتلأت عيون "مهتا" بالدموع، وقال بغضب:

- هذا الولد شيطان!

زجرته "مالتى":

- لم لا تحلق شاربك؟!

- إن شاربى أعز عندى من روحى!

- لو شدها مرة أخرى سيقتلعها من جذورها.

- وأنا سأقتلع أذنيه!

كان "منجل" يتلذذ للغاية بشد شاربه، وكان يضحك بشدة عندما يشده، وربما كان "مهتا" أيضًا يتلذذ؛ فهذا يعطيه الفرصة لبرم شاربه مرة أو مرتين فى اليوم!

عندما أصيب "منجل" بالجدرى، حزن "مهتا" كثيرًا، وكثيرًا ما كان يدخل إلى الحجرة وينظر إلى "منجل" بعيون حزينة. كان قلبه الرقيق الغض يرتعش عندما يفكر فى ألمه! ولو كان هناك شيء يشفيه، لجرى حتى آخر الدنيا لإحضاره، ولأنفق نقوده من أجل شفائه، حتى لو تسول! لكن لم يكن بإمكانه فعل شيء، وعندما كان يمسكه كانت يداه ترتعشان خوفًا من انفجار الحبوب. كانت "مالتى" تحمله بهدوء، وكانت تضعه على كتفها، وتسير به فى الحجرة وتطعمه الحليب بحب؛ وهذا الحب الأمومى كان يرفعها فى نظرهم إلى الدرجات العلا! "مالتى" ليست امرأة، بل هى أم؛ ليست أمومة معنوية بل أمومه حقيقية! إنها إلهة، ومانحة للحياة، تعتبر الطفل ابنها رغم أنه ليس كذلك، كأن شعور الأمومة كان بداخلها منذ الأزل واليوم تنثره بيدها! كانت الأمومة تتفجر من كل أعضائها، كأنه وجهها الأصلى، وكانت أمومتها تختفى وراء ستار الدلال والتبرج، حتى تحافظ عليها جيدًا!

كانت الساعة الواحدة صباحًا، استيقظ "مهتا" عندما سمع بكاء الطفل، فكر أن "مالتى" المسكينة ظلت مستيقظة حتى منتصف الليل، ولو استيقظت الآن فستشعر بإرهاق شديد، إذا كان الباب مفتوحًا سأسكته أنا. وعلى الفور نهض حتى وصل إلى باب الحجرة، ونظر ناحية "مالتى"

من الزجاج، فوجدها جالسة وقد أخذت الطفل فى أحضانها وهو يبكى دون سبب، ربما رأى كابوسًا أو شيئًا جعله يخاف. أخذت "مالتى" تهدهده، وتربت عليه، وتريه الصور، وتسير وهو فى حضنها، لكن الطفل لم يسكت. عندما رأى "مهتا" الحب الشديد والأمومة الخالدة فى "مالتى" ترقرقت الدموع فى عينيه، وشعر فى قلبه أنه يريد أن يذهب إلى الحجرة، ويضع رأسه عند قدميها، ويغرقها بكلمات الحب: يا حبيبتى، يا إلهة الجنة، يا مليكتى....

صرخ وهو فى حالة الحب الجنونى هذه:

- افتحى الباب لدقيقة يا "مالتى".

حضرت "مالتى"، فتحت الباب ونظرت إليه بعيون متسائلة.

سألها "مهتا":- ألم تنهض "جهنيا"؟ لماذا يبكى بشدة؟!

قالت "مالتى" بصوت متألم:

- اليوم هو اليوم الثامن، ولهذا فالألم يشتد.

- أعطِه لى، سأحمله قليلاً فأنتِ متعبة.

قالت "مالتى" مبتسمة:

- إنك تغضب بسرعة!

كان الكلام صحيحًا، لكن من الذى يسلم بضعفه؟ قال "مهتا" يعارضها:

- أتعتقدين أننى ضعيف إلى هذه الدرجة؟!

أعطته "مالتى" الطفل فى حضنه، وعندما جلس فى حضنه صمت تمامًا؛ الفهم الطبيعى لدى الاطفال هو الذى يفهمهم أنه لا فائدة من البكاء، فهذا رجل جديد، ليس امرأة بل رجلاً! الرجل يغضب وليس لديه رحمة، يمكن أن يضعه فى الفراش، ويتركه فى الظلمة ويخرج ويبتعد، ولا يدع أحداً يقترب منه!

قال "مهتا" بفخر:

– أرأيت كيف صمت!

قالت "مالتى" مازحة:

– أنت ماهر فى هذا الفن، أين تعلمته؟!

– منك!

– أنا "امرأة"، ولا يمكنك الثقة بى!

قال "مهتا" بخجل:

– "مالتى"، أتضرع إليك، وأطلب منك أن تنسى كل ما قلته، لقد ندمت بشدة طوال تلك الشهور! كم تأسفت واضطربت، لا يمكنك تخيل هذا!

قالت "مالتى" ببساطة"

– حقاً، لقد نسيت!

– كيف أتأكد؟

– الدليل أننا نعيش فى مكان واحد، نسكن معًا، ونضحك معًا، ونتحدث معًا.

– أتسمحي أن أطلب منك شيئًا؟

وضع "منجل" على السرير، حيث نام وهو متكور على نفسه، ونظر نحو "مالتى" بعيون مستعطفة، كأن حياته متوقفة على موافقتها!

قالت "مالتى" بتأثر:

– أنت تعلم جيداً أنه لا يوجد في الدنيا من هو أقرب لي منك، لقد مرّت أيام كثيرة وضعت فيها نفسى تحت أمرك. أنت مرشدى، إلهى، وأستاذى، أنت لا تحتاج أن تطلب منى شيئًا بل يكفى أن تشير فقط! قبل أن أراك، وأتعرف على شخصيتك في ذلك الوقت لم أكن أعرف سوى الراحة والأنانية، وكان هذا هو هدف حياتى! وعندما حضرت أنت حركت تلك الصفات وثبتها، لهذا لا يمكننى أن أنسى إحسانك أبداً! لقد تمسكت بكلامك الذى قلته عند ضفة النهر، ما آلمنى أنك ظننتنى كما يظن الرجال الآخرون، وكان أملي ألا تكون مثلهم! لكن هذا يرجع إلي، وأنا أعرف هذا جيدًا، لكنك ظننت أنني عندما أجد حبك سأعود لسابق عهدى، وأنت لم تنصفنى فى هذا! فى ذلك الوقت كنت مغروراً للغاية، لا يمكن أن تفهم ذلك؛ لكن بعد أن وجدت حبك وثقتك كان هذا كافيًا لتحل البركة في حياتى، وهذا هو هدفى!

بعد أن قالت هذا، شعرت بأنها تريد أن تلقي بنفسها على صدر "مهتا"؛ فلقد تحولت أمنيتها الداخلية إلى حقيقة، تفتحت جميع مسامها، والسعادة التي كانت تعتبرها بعيدة المنال، يمكن أن تحدث وتصبح قريبة المنال! كان سرور قلبها قد ظهر على قسمات وجهها، حتى اعتقد "مهتا" أن وجهها يلمع كالإلهة، هل هذه امرأة أم تمثال مجسم للخير والطهارة والإيثار!

في ذلك الوقت استيقظت "جهنيا"، وحضرت وجلست، فذهب "مهتا" من الحجرة ولم يجد فرصة لتبادل الحديث مع "مالتي"، ولمدة أسبوعين لم تنفرد به "مالتي" مطلقًا، كانت كلماتها تدور في خاطره: كم كانت مقنعة، وعاجزة!

بعد أسبوعين تحسن "منجل"، لم تختف آثار الجدري تمامًا، في ذلك اليوم وزعت "مالتي" الحلوى على أطفال الحي، وأكملت نذرها، كم كانت السعادة موجودة في التضحية! هي الآن تمر بهذه السعادة. كانت سعادة "جهنيا" و"جوبر" تنعكس على قلبها، لم تكن تشعر بمثل هذه السعادة وهي مرتاحة، ولم تشعر بها مثلما تشعر في إزالة الحزن عن الآخرين! وقد ضعفت الأمنيه كالزهرة المثمرة، وتجاوزت المرحلة التي كانت تعتقد فيها أن السعادة الحقيقية للإنسان في النقود! أما الآن فتشعر أنه لا قيمة لها، بل هي تأخذها للأسفل، وتعتبرها شيئًا مخيفًا! إنها لا تجد السرور في هذا القصر الكبير، بل عندما تناديها المنازل العشبية والطوبية طلبًا للعون تسرع إليها، ولا تفخر بامتلاكها لعربة، "منجل" الطفل الجاهل قد أنار حياتها كأنه فتح لها باب السرور الحقيقي!

ذات يوم أصيب "مهتا" بصداع شديد، كان مغلقًا عينيه، ويرتعش على السرير، حضرت "مالتى" ووضعت يدها على رأسه وسألته:

– منذ متى تشعر بالألم؟

شعر "مهتا" أن يديها الرقيقتين الناعمتين قد محتًا كل آلامه، فنهض وجلس قائلاً:

– كنت أتألم منذ الظهيرة، ولم أشعر بألم كهذا قبل اليوم، لكن عندما وضعت يديك شفى رأسى كأن شيئًا لم يكن، وكأن فيها الشفاء!

أحضرت "مالتى" دواءً، وأصرت أن يرتاح، وعلى الفور خرجت من الحجرة. قال مهتا بإلحاح:

– ألا تجلسين لدقيقتين؟!

قالت "مالتى" وهى تدير وجهها من عند الباب:

– لو تحدثت الآن قد يعاودك الألم، استرح؛ ففى هذه الأيام أراك دائمًا تكتب أو تقرأ شيئًا . كف عن القراءة والكتابة ليومين!

– ألا تجلسين لدقيقة؟

– أنا ذاهبة لعيادة أحد المرضى.

– حسنا، لتذهبى.

عندما رأت "مالتى" هذا الحزن على وجه "مهتا"، حضرت أمامه وقالت:

– حسنا، قل ما تريد.

قال "مهتا" دون اهتمام:

- لا يوجد شيء خاص، أي مريض ستذهبين لرؤيته في مثل هذا الليل؟

- إنها ابنة "راى صاحب"، فقد كانت حالتها سيئة للغاية لكنها تحسنت.

بعد أن ذهبت تمدد "مهتا"، لم يفهم كيف زال الألم عندما وضعت "مالتى" يدها على رأسه؟ لديها بالتأكيد قوة خارقة! ربما هى خدماتها، وبركة أعمالها الإنسانية! لقد وصلت "مالتى" لأسمى درجات النساء، حيث تتلألأ كضوء نجمة، إنها ليست للحب بل للإيمان، فلقد أصبحت شيئًا نادرًا، والتغير الذى حدث لها هو سحر الجهد عند أهل الفراسة والعقل! العشق الذى يحبه "مهتا" قد أعطته هذه العقيدة عمقا وحياة، العشق به الغرور والتعلق، أما العقيدة فتضحى بنفسها، وتعتبر هذه التضحية هى أسمى هدف! العشق يريد السيطرة، وإذا منح شيئًا يريد بديلاً عنه، لكن غاية السعادة فى العقيدة هى التضحية بالنفس، وأن يفقد فيها روحه!

أنهى "مهتا" كتابًا كبيرًا، استغرقت كتابته ثلاث سنوات، وقد جعل كل جزء منه يحتوى على فلسفة العالم. أهدى الكتاب لاسم "مالتى"، وعندما وصلت النسخ من إنجلترا، أهدى نسخة لمالتى التى تعجبت، وشعرت بالحزن عندما رأت الإهداء موجها لها.

قالت:

- لم فعلت هذا؟ أنا لا أستحق هذا التقدير!

قال "مهتا" بفخر:

- لكننى أعتقد ذلك، كما أن هذا ليس شيئًا، لو كان لدى مائة روح لنثرتها كلها عند قدميكِ!

- الشخص الذى لا يعرف عنى سوى الأنانية؟!

- لو أخذت جزءًا من إيمانك لاعتبرت نفسى أسعد الناس حظًا فى الدنيا، إنكِ إلهة!

- أنا إلهة من الحجارة، لماذا لا تقول هذا؟!

- بل إلهة للتضحية، والراحة والطهر!

- الآن تعرفنى جيدًا، أين أنا من الزهد! أصدقك القول: لم يمر الزهد بخاطرى أبدًا، كل ما أفعله سواءً فى الخفاء أو العلن، من أجل هدف؛ أنا لا أغنى من أجل الزهد، أو أغنى لأسلى أصحاب الهموم، لكن فقط من أجل سعادة قلبى! من أجل هذا أوزع الدواء على الفقراء، فقط لأسعد قلبى، ربما تكون الأنانية الموجودة فى قلبى تشعر بالسعادة، وأنت تصنع منى إلهة دون سبب! لم يبق سوى أن تحضر المصباح والحلوى، وتعبدنى!

قال "مهتا":

- أنا أفعل هذا منذ سنين يا "مالتى"، وسأظل أفعله حتى أتبرك بكِ!

قالت "مالتى" مازحة:

- لكن عندما تجد البركة ربما تخرج الإلهة من معبدك!

تماسك "مهتا"، وقال:

- لا حياة لى فى الوحدة، العابد سيتحد مع المعبود!

قالت "مالتى" بقوة:

- كلا يا "مهتا"! لقد فكرت فى هذا الأمر لشهور، وفى النهاية قررت أن لصالحنا أن نعيش أصدقاء لا كزوج وزوجة! أنت تحبنى وتثق بى وتعتمد على، ولو حانت فرصة لضحيت بحياتك من أجلى! لم أرَ فيك هاديًا لى فقط، بل وجدت فيك الحارس! أنا أحبك، وأثق بك، وأستطيع أن أضحى بكل شىء من أجلك، وأدعو الإله أن يجعلنى على هذا الطريق طوال عمرى، هل نريد شيئًا أكثر من هذا كى تكتمل حياتنا، وترتقى أرواحنا؟! أم نصنع إدارة صغيرة ونسجن فيها أرواحنا داخل قفص صغير؟! نحن نتقاسم الراحة والهموم، فهل يمكن أن نتقارب بلا حدود؟ لو فعلنا هذا لكان حجر عثرة فى طريقنا، القليل من الناس من يمكنه وضع قدميه فى الحديد ويسير فى طريق الرقى! وأنا أعرف أن الحب والتضحية لهما دور مهم فى تكوين الأسرة، لكننى لا أجد فى قلبى القوة والاستقلال فى هذا الأمر. لا وجود للحب والأنانية ولا الطمع فى الحياة، وعندما لا توجد قوة الأنانية يشعر القلب بالطمع، فيقوم حاجز بيننا، عندئذ ستحدد دائرتنا الإنسانية، وستتولد لدينا مسئوليات جديدة فتضيع طاقتنا لإكمالها. لا أريد أن أحد من روح إنسان مثلك؛ مثقف وعلى فطرته! حتى الآن كانت حياتك تمضى دون اختبار الأنانية، فلا أريد أن أهبط بها. الدنيا تحتاج لرجل مثلك، يمتلك قلبًا واسعًا، بإمكانه أن يسع الدنيا كلها. فى كل مكان فى العالم يوجد الظلم، والغبن، والخوف،

ويوجد ضعف الإيمان والخداع الديني، والأنانية؛ أسمعت هذا النداء؟! إذا لم تسمع أنت فمن سيأتي لسماعه؟! أنت لا يمكنك غلق أذنيك كما يفعل الناس محبي المظاهر، فهذه الحياة وبال عليك! لتأخذ علمك، وعقلك، وقوة تيقظك الإنساني، وقوتك إلى هذا الطريق وسأسير خلفك حتى تجعل من حياتي وحياتك نافعتين. أريد منك إذا التفت قلبك نحو الأمور الدنيوية، أن تدعني أمنعك بكل قوتي عن هذا الطريق، والإله لن يخذل مسعاي! لكن إذا ظللت على هذه الحالة سأتركك، بعد أن أذرف دمعتين، ولن أتمكن من إخبارك عن نهايتي كيف ستكون وإلى أين سأذهب؟ أخبرني ما هو رأيك؟!

نكس "مهتا" رأسه وهو يسمع؛ فقد كانت كل كلمة كأنها تفتح عيناً جديداً في قلبه، لم تكن مفتوحة من قبل! الأفكار التي كانت من قبل كالحلم، أصبحت الآن تتحرك كحقيقة، إنه يشعر بالرقي والنور في كل مسامه! عندما ينوي تحقيق أمنية كبيرة فإن طفولته كانت تتراقص أمام عينيه، وطفولته الحلوة كانت تلعب أمامه. كان يشعر براحة كبيرة عندما كان يجلس في حضن والدته الأرملة، أين أمه لتأتي لترى ابنها، وشهرته وسيرته الطيبة! كي تدعو لي، فقد وُلد ابنك العنيد مرة أخرى اليوم!

أمسك قدمي "مالتي" بيديه الاثنتين، وقال بصوت مرتعش:

– أنا موافق على رأيك يا "مالتي"!

تعانق الاثنان كقلب واحد، وانسابت الدموع من عينيهما!

الفصل الرابع والثلاثون

كان ابن "سيليا" سيتم العامين، وكان يجرى فى أرجاء القرية كلها، كان يتحدث بكلمات غريبة، وكان ألثغ. وهو يقلد أصوات الحيوانات حتى تتألم بطون الناس من كثرة الضحك، لو سأله أحدهم:

- "رامو"، كيف يتكلم الكلب؟

يقول "رامو" بجدية:

- هو، هو!

ويجرى ليعضه.

- "رامو" ما الذى تقوله القطة؟

- مياو، مياو!

ويجحظ بعينه، وهو يحدق ويخربش. كان طفلاً شقيًا للغاية، يلعب فى كل وقت ولا يلتفت لطعام أو شراب، لا يحب الأحضان، وكانت أسعد لحظة فى حياته عندما يجلس تحت شجرة النيم عند الباب، ويجمع التراب ويتقلب فيه، ويضعه على رأسه، ويصنع منه تلالا ومنازل صغيرة،

ولا يصادق من هم فى مثل سنه، ربما لأنه يعتبر أنهم غير جديرين باللعب معه!

لو سأله أحدهم:

- ما اسمك؟

يرد على الفور:

- "لامو".

- وما اسم والدك؟

- "ماتادين".

- ووالدتك؟

- "تشليا"

- ومن هو "ماتادين"؟

- إنه صهرنا.

لا نعرف من الذى علمه صلة القرابة هذه!

كان "رامو" و"روبا" صديقين، كان كاللعبة بالنسبة لروبا تدلله، وتكحله، وتمشط شعره، وتحممه وتطعمه بيديها، وفى أحيان كثيرة ينام الليل فى حضنها. كانت "دهنيا" تزجرها: أنت تعادين الجميع! لكنها لا تسمع كلام أحد، فعروس القماش الممزقة قد علمتها الأمومة، وقد استيقظت فيها هذه المشاعر عندما وجدت طفلاً حقيقياً، فكيف تكتفى بالدمى؟!

منذ وقت طويل كان مكان ربط الثيران خلف منزل "هورى" قد تهدّم، فقامت "سيليا" بصنع بيت عشبى على أطلاله وعاشت فيه؛ فهى لم تكن تستطيع العيش فى منزل "هورى" طوال حياتها!

أعاد العلماء الهندوك فى مدينة كاش لماتادين برهميته مرة أخرى بعد أن أنفق مئات الروبيات، فى ذلك اليوم أقام حفلة كبيرة، وأكل فيها الكثير من البراهمة الطعام، وتُليت مقتطفات من الكتاب المقدس، تناول الروث الخالص، وشرب بول البقرة، وقد تطهر قلبه بالروث، وأهلك البول جراثيم روحه الفاسدة! إلا أن هذه التوبة قد طهرته بالفعل؛ فتلألأت إنسانيته فى ضوء موقد النار الهندوكى، وقد فهم أركان دينه فى أنوار الموقد جيدًا! منذ ذلك الوقت كره اسم الدين، فخلع عقده الدينى، وأغرق مأذونتيه فى نهر جنجا، وأصبح الآن فلاحًا صرفًا! فقد رأى أنه رغم تسليم علماء الهندوك ببرهميته، فإن الناس لا يشربون من يده شربة ماء، إنهم يسألونه عن الساعة المباركة للزواج وتاريخ يوم الزفاف، يعطونه الهدايا فى الأعياد، لكن لا يتركونه يمس أوانيهم!

عندما وُلد طفل "سيليا"، احتسى كثيرًا من الخمر، فكأن صدره قد اتسع من الغرور! فأخذ يبرم شاربه بأصابعه: ما هو شكل الطفل؟ هل يشبهه؟ كيف يراه؟ كان قلبه مضطربًا! فى اليوم الثالث حضرت "روبا" إلى الحقل، قابلها فسألها:

- "روبا" هل رأيت ابن "سيليا"؟

قالت "رويا":

- كيف لم أره؟ إنه أحمر، سمين للغاية، عيونه واسعة جداً، شعره مجعد، ويحدق طوال الوقت.

كان الطفل قد دخل قلب "ماتادين"، وأخذ يحرك يديه وقدميه، فأسكرت النشوة عينيه، فحمل "رويا" فى حضنه، ثم وضعها على كتفه، ثم أنزلها وقبل خديها.

وضعت "رويا" يدها على شعرها، وقالت بشجاعة:

- لتذهب معى لأريه لك من بعيد، إنه فى رواق الدار، وأختى سيليا تبكى كثيراً!

أشاح "ماتادين" بوجهه، وامتلأت عيناه بالدموع، وارتعشت شفتاه. فى تلك الليلة عندما نامت كل القرية وغابت الأشجار فى الظلمة، حضر عند باب "سيليا"، فسمع صوت بكاء الطفل بكل حواسه، وكأن بكاءه أعزب وأجمل عزف!

عندما كانت "سيليا" تضع طفلها على الفراش فى منزل "هورى" وتذهب إلى العمل، كان "ماتادين" يحضر إلى منزل "هورى" بحيلة مختلفة، فيختلس النظر نحو الطفل فيبرد قلبه. قالت "دهنيا" مبتسمة:

- لماذا تخجل؟ لتحتضنه وتدلّله، إن قلبك من خشب! إنه يشبهك تماماً.

كان "ماتادين" يترك روبية أو اثنتين لسيليا ويخرج، إنه يشعر فى روحه بالطهر، والتفتح واللمعان مع الطفل! كان هدف حياته شيئًا واحدًا، وعهدا واحدًا هو المسؤولية، والقوة والضوابط.

ذات يوم كان "رامو" نائمًا على الفراش، وقد خرجت "دهنيا" وذهبت "روبا" لتلعب عندما سمعت ضوضاء الأطفال. كان المنزل خاليًا، وقد حضر "ماتادين" فى ذلك الوقت، كان الطفل ينظر نحو السماء الزرقاء، ويحرك يديه ورجليه وهو مسرور؛ إنه سرور الحياة التى مازالت فى بدايتها! عندما رأى "ماتادين" ضحك، فاضطرب "ماتادين" من حبه، وحمله فى صدره، كان قلبه وجسده كله يرتعش من السعادة، مثل أشعة النور التى ترتعش بين الأمواج، كأنه وجد الحياة الصادقة فى عيون الطفل المسرورة، كما وجد العمق والطهر! كان يخاف كأن نظراته تنفذ إلى قلبه، كم هو غير طاهر؟ كيف يترك هدية الإله؟ ألقى الطفل بقلب خائف، فى ذلك الوقت دخلت "روبا" وهو يخرج.

ذات يوم تساقط الجليد، أخذت "سيليا" العشب وذهبت إلى السوق، وكانت "روبا" مشغولة فى لهوها، عندما رأى "رامو" الجليد يغطى الصحن اعتقد أنه حلوى بتاشا، أخذ الكثير منه وأكله ولعب فى الصحن كثيرًا، فى الليل أصابته الحمى، وفى اليوم التالى أصابه ضيق فى التنفس، وفى مساء اليوم الثالث طارت روح الطفل وهو فى حضن "سيليا".

لكن رغم وفاة الطفل، فإنه ما زال مركز حياة "سيليا"؛ كان اللبن ينزل من صدرها ويبلل حجابها، عندئذ تسيل الدموع من عينيها.

كانت عندما تنتهى من العمل تضم "رامو" إلى صدرها، وفى الليل تطعمه الحليب، كان قلبها يعيش على براءة الطفل؛ عندئذ كانت تغنى الأغانى الحلوة، وتحلم أحلامًا سعيدة تبنى فيها دنيا جديدة، و"رامو" كان الملك! لكن الآن عندما تنتهى من عملها، تجلس فى كوخها العشبى وحيدة تبكى، كانت روحها تضطرب رغبة فى أن تطير إلى حيث ذهب حبيبها، فتحتضنه وتلعب معه! كانت القرية كلها تشاركها حزنها، فقد كان "رامو" طفلا شقيا، من يناديه يرتمى فى حضنه. عندما مات، وأصبح صعب المنال أعزه الجميع أكثر، وكانت صورته أجمل منه، وأكثر شقاوة وجاذبية!

فى ذلك اليوم انحلّت عقدة لسان "ماتادين"، فالستار يصنع من أجل الهواء، لكن عندما تهب الريح ننزعه حتى لا يطير! رفع الميت بين بيديه، وذهب إلى ضفة النهر وحده، حيث كان له فرع جديد بعد ميل، وظل يشعر بالألم فى يده لثمانية أيام! فى ذلك اليوم لم يشعر بالخجل قط، ولا خاف من أحد، ولم يقل له أحد شيئا، بل مدحه الجميع لعلو همته وقوته!

قال "هورى":

- هذا هو دين الرجل، إذا أقام معها علاقة لم يدعها!

قالت "دهنيا" بعيون جاحظة:

- لا تتكلم كثيرا، روحى تحترق؛ أهذا رجل؟! إن مثله ليس رجلا فى نظرى! عندما أقام معها علاقة فى ذلك الوقت هل كان يشرب الحليب؟ وهل أصبحت "سيليا" الآن برهمية؟!

مرّ شهر على الوفاة، وبدأت "سيليا" تعمل من جديد. حلّ المساء، وقد ظهر البدر ضاحكا، أخذت "سيليا" جزءا من الشعير الذى سقط فى الحقل ووضعته فى سلتها، أرادت الذهاب للمنزل، رفعت بصرها إلى القمر، وكأن الذكريات المؤلمة قد انفجرت كعين، وابتل حجابها باللبن، ووجهها بالدموع، نكست رأسها كأنها تتلذذ بالبكاء! فجأة انتبهت لصوت أحدهم، حضر "ماتادين" من خلفها، ووقف أمامها وقال:

– إلى متى ستظلين تبكين يا "سيليا"؟ إنه لن يعود بالبكاء!

ويكى فى أثناء حديثه، انحلت عقدة الشكوى فى فم "سيليا"، وقالت وهى تتماسك:

– كيف حضرت إلى هنا اليوم؟

قال "ماتادين" بألم:

– كنت أمر من هنا فرأيتك جالسة، فحضرت.

– لقد عجزت حتى عن أن تطعمه!

– كلا، يا "سيليا" لقد أطعمته ذات يوم!

– حقا؟

– حقا!

– وأين كنت أنا؟

– كنتِ فى السوق.

- ألم يبك فى حضنك؟

- كلا يا "سيليا"، بل كان يضحك!

- هل أطعمته مرة واحدة فقط؟

- نعم مرة واحدة، لكن كنت أحضر يوميا لرؤيته، كنت أراه وهو يلعب فى الفراش فكنت أجبر قلبى على الرحيل!

- كان يشبهك.

- إننى نادم، لماذا لم أحتضنه فى ذلك اليوم؟ هذا جزاء إثمى!

لمع العفو فى عيون "سيليا"، ووضعت السلة على رأسها وذهبت إلى المنزل، فسار "ماتادين" أيضًا بجوارها.

قالت "سيليا":

- أنا الآن أنام فى الصحن عند عمتى "دهنيا"، فقلبى لا يطمئن فى منزلى.

- "دهنيا" تواسينى دائمًا.

- حقا؟!

- نعم، حقا! عندما تقابلنى تواسينى.

عندما اقتربت القرية، قالت "سيليا":

- حسنا لتذهب الآن من هنا إلى منزلك، حتى لا يراك "بندت"!

رفع "ماتادين" رأسه، وقال:

- أنا الآن لا أخاف أحدا.

- لو طردك من المنزل فأين ستذهب؟!

- بنيت لى منزلا.

- حقا؟!

- نعم، حقا!

- أين؟ أنا لم أره!

- تعال أريكِ إياه.

تقدم الاثنان، "ماتادين" فى المقدمة و"سيليا" خلفه، وصلا إلى منزل "هورى"، ذهب "ماتادين" خلفه، ووقف عند باب كوخ "سيليا" العشبى، وقال:

- هذا هو منزلى.

قالت "سيليا" بلهجة مليئة بالشك، العفو، السخرية والألم:

- هذا منزل المنبوذة "سيليا"!

فتح "ماتادين" باب الكوخ قائلا:

- هذا معبد إلهتى.

لمعت عيون "سيليا"، وقالت:

- إذا كان هذا معبدا، فستنثر الماء من الإبريق وتمضى!

قال "ماتادين" بصوت مرتعش، وهو يساعدها في إنزال السلة عن رأسها:

– كلا يا "سيليا"، ما دمت حيا سأعيش عند قدميكِ وأعبدكِ!

– أنت تكذب!

– كلا، بل أقول ذلك وأنا أتوسل وأتضرع إليك. لقد علمت أن ابن "بتواري بهنسيري" كان يعاكسك كثيرا، لكنكِ زجرته بشدة!

– من أخبرك؟

– "بهنسيري".

– حقا؟!

– نعم، حقا.

أشعلت "سيليا" المصباح، لم يكن في الدار سوى قلّة في أحد جوانبه، وفي جانب آخر موقد، وأنيتان نظيفتان من الحديد والنحاس، وفي الوسط أعواد هي فراش "سيليا"، وبجواره سرير صغير لرامو، كان كأنه يبكي على فراقه! وبجواره فيلان وحصانان من الحجر، ثلاثة منها محطمة؛ إذ لم يكن صاحبها موجودا فمن سيرعاها؟! جلس "ماتادين" على الأعواد، كان قلبه مضطربا ويريد أن يبكي بشدة.

وضعت "سيليا" يدها على ظهره، وسألته:

– هل كنت تتذكرني؟

وضع "ماتادين" يدها على صدره، وقال:

– صورتك تلوح فى عينى دائمًا، هل كنتِ أنتِ أيضًا تتذكرنى؟

– كنت أحترق بسببك!

– ألم تشفقى علىّ؟

– كلا!

– و"بهنسيرى"....

– حسنا، لا تسبنى! لكن أخاف من كلام أهل القرية.

– الطيبون سيقولون هذا دينه، والخبثاء لا أبالى بهم.

– من سيطبخ طعامك؟

– مليكتى "سيليا".

– كيف ستكون برهميا؟!

– لا أريد أن أكون برهميا، بل أريد أن أكون منبوذا، من يحافظ على دينه هو البرهمى، ومن يتركه هو المنبوذ!

طوّقت "سيليا" عنقه!

الفصل الخامس والثلاثون

كانت حال "هورى" تزداد سوءا يومًا بعد يوم؛ فلقد هزمه جده واجتهاده فى الحياة، لكن عزيمته لم تخذله! كل هزيمة كانت تعطيه القوة لمقاومة حظه، لكن أمره كان قد وصل إلى منتهاه، عندها لم يعد الاعتماد على نفسه فى إمكانه، لو كان قد تمكن من التمسك بدينه لكان زخرا له! لكن هذا لم يحدث، لقد خربت نيته، وقام بأعمال يحرمها الدين، لا يوجد إثم لم يرتكبه، مع هذا لم يحقق أمانيه فى الحياة، حتى أيامه السعيدة ولّت عنه كالسراب، حتى إنه لم ينخدع بها! لم ير خضرة الأمل الكاذب ولمعانه، فقد اعتزل كملك منهزم فى قلعة الحقل التى تبلغ ثلاثة أفدنة، هكذا كان يقى نفسه الفقر، وسوء السمعة والعمل بالأجر، ولهذا لم يدع هذه القلعة تضيع من يده ، لكن الآن القلعة هى الأخرى تضيع من قبضته؛ فما زال عليه خراج ثلاثة أعوام، وقد رفع "بندت نوكهى رام" عليه الآن دعوى، لا أمل له فى الاقتراض من أى مكان، ستضيع الأرض من يده، وسيعمل كأجير بقية حياته، كما يشاء الإله! لِم يحزن "راى صاحب"؟ إنه يعيش على كد عماله، ونصف سكان القرية يجب عليهم إخلاء منازلهم، وسيصير عليه ما يصير عليهم.

لو كانت الراحة من نصيبه، لما ضاع ابنه من يده؟!

حلّ المساء، كان جالسًا غارقًا فى التفكير عندما حضر "بندت داتادين"، وقال:

– ماذا حدث بشأن إخلاء المنزل يا "هورى"؟ أنا لا أتحدث مع "نوكهى رام" فى هذه الأيام لذا لا أعرف شيئًا. سمعت أنه لم يبق سوى خمسة عشر يوما لردّ الدعوى؟

فرش "هورى" له فراشًا، وقال:

– إنه سيد، وما يريده يفعله! لو كانت معى نقود لما وصلت لهذه الحال. لم أضيّع المال على الأكل ولا سواه، لكن إذا لم يزرع فى الحقل شىء، ولو زرع شىء يباع بثمن بخس، فماذا يفعل الفلاح؟!

– لكن يجب إنقاذ الأرض، كيف ستعيش؟ هذه الأرض ذكرى أجدادك وآبائك، لو ضاعت منك أين ستعيش؟!

– إذا كان هذا يرضى الإله، فماذا أفعل؟!

– هناك حل يمكنك فعله.

كأن روح "هورى" قد ردّت إليه، قبّل قدميه، وقال:

– سيكون هذا عمل دينى عظيم، يا سيدى لا يوجد لى سواك! كنت قد يئست.

- لا شيء يدعو لليأس، لتعلم أن الدين فى الراحة شيء، وفى الغم شيء آخر؛ إذا كان الإنسان مرتاحا يمكنه التصدق، لكن عندما يكون فى هم يشحذ، وقد تصبح الشحاذة من شيمه! عندما تكون الحياة مريحة لا نأكل دون أن نستحم ونتعبد، لكن عندما نمرض نأكل دون استحمام أو غسل الملابس، نأكل ونحن جلوس على الفراش، فهذا هو دين ذلك الوقت! الفرق كبير بيننا، لكن فى جكن ناته بورى لا يوجد فرق، فالكبير والصغير يأكلان معا. فى الأيام السيئة أكل الملك الإله "رام چندر جى" ما بقي من برقوق "سيورى"، كما قام بقتل طفل فى الخفاء! عندما تحل المصائب يضيّع كبار الناس كرامتهم، فكيف يكون الحال معى ومعك؟ أتعرف السيد "رام سيوك"؟

قال "هورى" دون اكتراث:

- نعم، كيف لا أعرفه؟!

- إنه عميلى، حياته حلوة للغاية: يملك حقلاً كبيراً، وله معاملات كثيرة، لم أر شخصاً مهيباً مثله! لقد توفيت زوجته منذ عدة أشهر، ليس لديه أولاد، لو زَوَّجته "روبا" أستطيع أن أجعله يقبل، إنه لن يرفض- لقد صارت شابة، والوقت سيئ، لو حدث ما يسوء فسيلحقك العار! هذه فرصة عظيمة للغاية؛ ستزوج ابنتك، وتنقذ حقلك، وكذلك تنجو من مصاريف الزواج.

كان "رام سيوك" يصغر "هورى" بسنتين أو أربع، والسماح بزواج "روبا" من رجل كهذا إهانة كبيرة؛ أين "روبا" الزهرة، من الشيخ الجاف؟!

لقد انجرح "هورى" فى حياته كثيراً، لكن هذا الجرح هو أعمقها! لقد حلّ اليوم الذى يتحدثون فيه عن بيع ابنته وهو عاجز عن الرفض، طأطأ رأسه من الألم! بعد دقيقة سأله "داتادين":

– ماذا قلت؟

لم يُجب "هورى" بوضوح:

– سأرد عليك بعد أن أفكر.

– هل هذا أمر يحتاج إلى تفكير؟!

– يجب أن أسأل "دهنيا" أيضًا!

– هل أنت موافق أم لا؟

– دعنى أفكر قليلاً يا سيدى، لم يحدث فى الأسرة مثل هذا الأمر من قبل، لا بد أن نراعى كرامتهم!

– لترد على خلال خمسة أو ستة أيام، كيف تدع منزلك يضيع وأنت تفكر؟!

ذهب "داتادين"، لم يكن قلقًا إزاء "هورى" بل إن قلقه كان إزاء رد فعل "دهنيا": لها أنف طويل للغاية، ويمكن أن تدمر نفسها، لكنها لا يمكن أن تتخلى عن كرامتها! لكن لو وافق "هورى" قد توافق هى الأخرى بعد البكاء، فالكرامة تضيع بضياع الحقل!

حضرت "دهنيا"، وسألته:

- لم حضر "بندت"؟

- لا شيء، كان يتحدث عن إخلاء المنزل.

- جاء ليمسح دموعك، ويرفض إعطاءك مائة روبية!

- لا يليق بنا الاستجداء!

- فلم حضر إلى هنا؟!

- كان يتحدث عن زواج "روبا".

- بمن؟

- هل تعرفين "رام سيوك"؟ منه.

- أنا لم أره، أسمع اسمه منذ زمن، إنه شيخ!

- ليس شيخا، بل فى منتصف العمر.

- لِم لم تزجر "بندت"؟ لو قال هذا لى، لأجبته إجابة يتذكرها طوال حياته!

- لم أزجره، لكن رفضت! كان يقول إننى لن أنفق فى الزواج شيئًا، كذلك سأنقذ الحقل.

- لِم لم يوضح أنه يتحدث عن بيع البنت؟ كيف تجرأ هذا الشيخ هكذا؟!

كان "هورى" كلما فكر فى هذه المسألة بعمق تضعف مقاومته؛ لم تكن الكرامة قليلة القدر فى حياته، لكن إذا أصيب الإنسان بمرض مهلك فلا يبالى بالممنوع فى الأكل! لم يظهر "هورى" أفكاره هذه أمام "داتادين" حتى لا يوضح موافقته، لكنها استقرت داخله. السن ليس مهمًا، فالحياة والموت بيد الإله، قد يبقى الشيخ ويموت الشاب! لو كان من نصيب "روبا" الراحة فستعيش بها هناك، ولو كُتب عليها الألم فلن تجد غيره فى أى مكان! ليس فى هذا بيع للبنت، فما سيأخذه "هورى" منه سيكون كقرض، وعندما تأتيه النقود سيسدده! ليس فى هذا الأمر حياءً أو امتهان كرامة، فلو كان فى يده نقود لزوج "روبا" من شاب من قبيلة ذات مكانة، وكان سيجهزها، وينفق على الأكل والشرب فى حفلة الزفاف، لكن إذا كان الإله لم يكتب لها هذا فليس فى يده سوى أن يزوج ابنته على هذه الحال! سيضحك الناس؟! إن الذين يضحكون لا يمدون له يد المساعدة، فلمَ يبالى بضحكهم؟! المشكلة أن "دهنيا" لن توافق، إنها حمارة، تتمسك بالحياء القديم، وهذا ليس وقت التمسك بالكرامة! إنه زمن إنقاذ أرواحنا، لو كانت صاحبة حياء حقا فلتحضر خمسمائة روبية من حيث دفنتها؟!

مرّ يومان ولم يتحدث الاثنان فى هذا الشأن، فقط كانا يتكلمان عنه بالإشارة.

تقول "دهنيا":

- إذا كان الزوجان فى نفس العمر يكون الزواج مريحًا.

فيجيب "هورى":

- الزواج ليس عنوانا للراحة يا مجنونة، إنه عبادة!

- لتصمت، أهو عبادة؟!

- نعم، كل ما أقوله إن الإله إذا قسم للإنسان أمرًا فيجب أن يرضى عن هذا الأمر، فإذا لم تكن هذه عبادة فماذا تكون؟!

فى اليوم التالى فكرت "دهنيا" فى جانب آخر من جوانب السعادة الزوجية، فقالت:

- إذا كان المنزل خاليًا من الحمو، الحماة، أخوات الزوج، وزوجات إخوان الزوج الكبار فعندها هل ستجد الراحة فى بيت الزوجية؟ فالزوجة تستريح عدة أيام برفقتهم!

قال "هورى":

- هذا ليس زواجا مريحًا، بل إنه همّ!

غضبت "دهنيا":

- كلامك فريد من نوعه، فريد! كيف تعيش عروس فى البيت لوحدها، ولا يكون أحد أمامها أو خلفها؟!

قال "هورى":

- عندما جئتِ إلى هذا المنزل، ألم يكن هنا أخواى، حماتكِ وحماكِ، فهل كنتِ مستريحة؟ تكلمى؟!

– هل الناس جميعًا متشابهون فى بيوتهم؟!

– بالتأكيد، هل آلهة ستنزل من السماء؟! العروس وحيدة، والأسرة كلها تأمرها، فماذا ستقول المسكينة؟! لو لم تطع كلمة لأحد فستصبح عدوته، لهذا من الأفضل أن تكون وحيدة!

انتهى الكلام عند هذا الحد، لكن كفّة "دهنيا" قد خفّت! فى رابع يوم حضر "رام سيوك" بنفسه، يركب على جواد ضخم، كان بصحبته حلاق وخادم؛ كان من كبار الإقطاعيين، عمره يتعدى الأربعين، وقد صار شعره أبيض، لكن كان وجهه لامعًا وجسده فتيًّا، كان "هورى" بجواره شيخًا طاعنًا فى السن! كان ذاهبا لردّ الدعوى فى المحكمة، وأراد أن يمضى الظهيرة هنا فقد كانت الشمس حارقة، والهواء الساخن يتحرك بقوة. كان "هورى" قد أحضر الدقيق والسمن من دكان دلارى، صنع الخبز المقلى، وأكل الثلاثة.

حضر "داتادين" وهو يدعو له، وبدأ الحديث، سأله "داتادين":

– ما نوع القضية يا سيدى؟

قال "رام سيوك" بعظمة:

– هناك دائمًا قضية تلو الأخرى يا سيدى! العمل لا يسير إذا كان المرء كالبقرة، فعندما تخاف يخيفك الناس أكثر! هناك قسم الشرطة، المحكمة وكل شىء موجود، لكن أحدًا لا يحمينا! النهب فى كل مكان، والكل مستعد لقطع رقاب الفقراء والمساكين، والإله لا يعطى أحدًا الإذن

ليرتكب عملا مخالفًا للدين، فهذا إثم كبير! إذا فكرت كيف يضغط الإنسان على نفسه؟! الفلاح معلف ليّن، إذا لم يعط الهدايا، والرشوة لعامل المساحة لأصبحت حياته فى القرية صعبة! إذا لم تشبع بطون فراش الإقطاعى وحارسه فلا يمكن أن نعيش! مأمور القسم، ونائبه كأنهم أصهاره، وعندما يحضر لزيارة القرية يجب على الفلاح أن يضيفه بكل ما يملك، وإلا سيضع القرية كلها فى الحبس بمحضر واحد! أحيانًا يحضر إلى القرية المستشار القانونى، وكيل النيابة، مدير الشرطة، البوليس، رئيس النيابة أو رئيس المقاطعة، فيجب على الفلاح أن يقف أمامهم مكتوف اليدين، ويجب عليه أن يعد لهم المأكولات من البيض، والدجاج، والحليب والسمن - كما يحدث معك يا سيدى - كل يوم يزداد الحكام واحدًا! فى هذه الأيام يحضر طبيب لوضع دواء فى البئر، وآخر للكشف على العمال، ومفتش لامتحان الأولاد، والكثير من الضباط، مسئول عن النهر، مسئول عن الغابة، مسئول عن الشراب، مسئول عن الخمر، التمر، مسئول عن إصلاح القرية ومسئول عن الحقل؛ إلى متى أعددهم؟! لو حضر راهب من الكنيسة، نعطيه الهدايا الخاصة بالأكل والشرب! لكن الفلاح لا يستفيد من هؤلاء الضباط والمسئولين، ولو اسمًا! لقد حدد الإقطاعى روبيتين لكل حراثة؛ وذلك بعد دعوته لضابط كبير. رفض الفلاحون دفع النقود، فمنعهم من العمل فى الحقل، وقد ساند الحاكم الإقطاعى! إنهم لا يعتبرون الفلاح إنسانًا أيضًا، لديه أسرة وأطفال، وله كرامة، وكل هذا بسبب خوفنا! لقد أعلنت فى القرية كلها ألا يدفع أحد أكثر من الخراج، ولا يترك حقله، ولو أثبت لى بالدليل فنحن

مستعدون لدفع الزيادة، لكن إذا كنت تريد أن تطحن الفلاح مقطوع اللسان فهذا لن يحدث! أطاعت القرية كلها كلامى، ورفضوا جميعًا دفع الزيادة. عندما رأى الإقطاعى أن القرية كلها اتحدت، أصبح مضطربًا، لو حجز على الحقل فمن سيحرثه؟! فى هذه الأيام لا يسمع لك أحد حتى تصير قويًا، حتى الطفل لا يحصل على حليب أمه دون بكاء!

رحل "رام سيوك" بعد العصر، لكنه أثر بشدة على "دهنيا" و"هورى" - تأثيراً لا يمحى - وأثر سحر داتادين، الذى سأل:

- ما رأيك يا "هورى"؟

أشار "هورى" نحو "دهنيا"، وقال:

- لتسألها؟!

- أنا أسألكما أنتما الاثنين.

قالت "دهنيا":

- إنه كبير فى السن، لكنى موافقة، فكما تقولون المكتوب فى القدر سيحدث فى المستقبل! لكن الرجل طيب.

اعتمد "هورى" على "رام سيوك" كما يعتمد الضعيف على القوى، وأخذ يبنى قصوراً فى الهواء كالشيخ چلى(١)! لو طلب رجل كهذا يد ابنته فسوف تتحسن حياته.

---

(١) شخصية تشبه شخصية جحا فى الأدب العربى.

حددوا وقت الزواج، لا بد أن نستدعى "جوير" - يجب أن نكتب له - ثم نترك له أمر الحضور إلى هنا، حتى لا يقول إنهم لم يدعونى، وسندعو "سونا" أيضا.

قالت "دهنيا":

- هذا ليس طبع "جوير"، لكن هل ستدعه "جهنيا" يحضر؟! لقد نسينا فى الغربة، حتى إنه لم يكتب خطابًا! لا أعرف كيف حاله؟

قالت هذا، وامتلأت عيناها بالدموع!

عندما وصل "جوير" الخطاب استعد للذهاب، لم تكن "جهنيا" موافقة لكنها لم تجد الفرصة لقول شيء، كيف لا يذهب الأخ لزواج أخته؟! كما أن شعوره بالعار لم يكن قليلا عندما لم يحضر زواج "سونا"!

قال "جوير" بألم:

- ليس من الجيد أن تكون العلاقة مع الوالدين سيئة، لدينا يدان وقدمان، حتى وإن تشاجرنا معهما، إلا أنهما الذين أنجبونا وربونا حتى صرنا شبابا! وكل شيء فعلوه من أجلنا، فلو أسمعونا كلمتين أو أربع يجب علينا أن نتحمل. أنا أتذكرهما دائمًا فى هذه الأيام، ولا أعرف كيف غضبت عليهما فى ذلك الوقت؟ لقد هجرت والدى بسببك!

قالت "جهنيا" بغضب:

- لا تحملنى هذا الإثم، فأنت من تشاجر معهما! لقد عشت مع والدتك أيام كثيرة ولم أخرج نفسًا!

- لقد كان الشجار بسببكِ.

- حسنًا، لو كان الشجار بسببى فأنا أيضًا قد تركت منزلى بسببك!

- من كان يحبك فى منزلكِ؟ إخوانكِ ينهرونكِ، وزوجاتهم يسيئون إليكِ، ولو وجدك "بهولا" لأكلك دون طهى!

- كل هذا بسببك!

- فى هذه المرة سنعيش معهما لنجعلهما ينعمان بالراحة، ولا نفعل شيئًا يغضبهما. والدى عطوف جدًا؛ لم يزجرنى أبدًا، ووالدتى ضربتنى عدة مرات، لكن عندما كانت تفعل هذا كانت تقدم لى الطعام لتراضينى، تضربنى لكن لا تطمئن حتى أضحك!

تحدث الاثنان مع "مالتى"، لم تعطهما إجازة فقط بل أعطتهما هدية للعروس؛ آلة لصنع الخيط وسوار. كانت تريد الذهاب بنفسها لكنها لا تستطيع ترك المرضى ليوم واحد، لكنها وعدت بالحضور يوم العرس. أعطت الطفل الكثير من اللعب وقبلته، ودللته كثيرًا كأنها تريد أن تأخذ الحب منه مقدمًا! لم يكن الطفل يبالى بحبها؛ لسروره بالذهاب إلى المنزل، منزل لم يره من قبل، وهو فى خياله الطفولى أفضل من الجنة.

عندما وصل "جوبر" إلى المنزل، ورأى حالته شعر باليأس، وأراد أن يعود فى نفس الوقت! كان جزءًا من المنزل قد أوشك على الانهيار، ورُبِط على الباب ثور واحد فقط، وهو نصف ميت. فرحت "دهنيا" و"هورى" بوجوده، لكن قلبه كان مضطربًا، هل يمكن لحال المنزل أن يتبدّل؟ إنه يخدم،

لكن يأكل جيدا! وهو يخدم مالكا واحدا فقط، لكن هنا الجميع يخيفه، الخدمة جافة، تنبت الغلة بعد جهد شاق، وكل ما تأخذه من نقود تعطيه للآخرين، ثم تعود قائلا رام، رام! قلب والدى هو الذى يستطيع الصبر على كل هذا، هو لا يمكنه الصبر ليوم واحد! لم تكن هذه حال "هورى" وحده، بل حال القرية كلها؛ لا يوجد رجل واحد حاله جيدة، كأن الروح خرجت من الفلاح، وحلّت المشقة محلها، وهى التى تجعلهم يتراقصون كالدمى! إنهم يسيرون، يعملون، ويطحنون وكل هذا مكتوب عليهم، لا يوجد فى حياتهم أمل أو أمنية، كأن عين حياتهم جفّت وذبلت كل خضرتهم! هذا هو شهر جيته، وما زالت الغلة فى الحقل حتى الآن ، لكن لا توجد فرصة على الإطلاق ؛ فالكثير من الغلة قد ذهب إلى المرابين والعمال، وما يتبقى يذهب أيضا للآخرين، كان المستقبل أمامهم مظلما، ولا يُرى فيه أى مخرج، وقد ماتت كل أحاسيسهم، تجمعت القاذورات عند الأبواب لمئات الكيلوجرامات، وانتشرت الرائحة الكريهة، لكن الأنوف لا تشمُّ، والعيون ليس بها نور! عندما يحل المساء تعوى الثعالب عند أبوابهم، وهم لا يبالون، وكل طعام يأتيهم - وإن كان كريهًا - يأكلوه؛ كالمحرك الذى يتغذى على الفحم! وثيران الأغنياء لا تضع فمها فى المعلف حتى تأكل الحمص والردة، أما هم فيريدون فقط ملأ بطونهم، لا يريدون التذوق فلقد ماتت حاسة التذوق لديهم، لقد فقدوها فى هذه الحياة! تستطيع أن تستخدمهم للعمل دون إيمان بمقابل بسيط، وأن تجعلهم يتشاجرون بالعصى من أجل حفنة من الغلة، وهذه هى نهاية الإنسان عندما ينسى العزة والكرامة!

كان "جوبر" يرى حال القرية هذه منذ طفولته، وكان يعتبرها أمراً عادياً، لكن اليوم وبعد أربع سنوات، رأى دنيا جديدة، وعاش مع أناس طيبين، جعلوا عقله يتفتح! ذهب لسماع المحاضرات، والجلسات السياسية، التي تسللت إلى كل عضو فيه. وقد سمع ووعى أن الحظ يصنعه الإنسان بنفسه، ولا بد أن يعتمد فى كل مشاكله على عقله وهمته، لأنه لن تحضر قوة إلهية خفية لمساعدته! وقد شعر بهذا، فلم يعد قروياً ولا مغروراً، بل أصبح منكسر المزاج ومدبراً، وفى حالة كهذه لم تخرب أمورك الراهنة بالحرص والأنانية؟! لقد أصبحت قريباً للغم، فلم تكسر حاجز الأخوة من أجل مصلحتك السيئة؟! بل اجعل هذا الحاجز حاجزا للاتحاد؛ وهذه الأفكار هى التى جعلت للبشرية أجنحة! أما الشخص الساذج فعندما يرى التقلبات الدنيوية فيتسع قلبه، كأنه مستعد للطيران فى السماء.

كان عندما يرى "هورى" يفعل شيئًا، يقوم هو بعمله بدلا عنه؛ كأنه يريد التكفير عن سلوكه السيئ السابق، ويقول: يا والدى، لا تفكر فى شىء بعد الآن! اترك كل شىء لى، وسأرسل كل شهر مبلغًا من المال. لقد عشت حياة صعبة، فلترتاح لبعض الوقت، اللعنة علىّ إن تركتك تتحمل هذه المشقة وأنا حى!

كان "هورى" يدعو لابنه بكل خلجة فيه، وبدأ يشعر بالقوة فى جسده الضعيف. لم يكن يريد إطلاعه على ديونه؛ حتى لا يرتعد شبابه من الفكر والهم! إنه يأكل ويشرب براحة، ويستمتع بالحياة، إنه مستعد

للموت؛ هذه هى الحياة! لو سبح رام، رام لن يمكنه أن يطيل عمره. إنه محتاج إلى محراث وفأس، وقلبه غير آمن بتسبيح رام!

قال "جوبر":

– سنؤدى لكل شخص نقوده شهريًا على أقساط، كم تبلغ كلها؟

هزّ "هورى" رأسه قائلا:

– كلا يا بنى، لا تتحمل هذا العبء، فأنت لا تكسب الكثير! سأرعى كل شىء، ولن يستمر الوضع هكذا! ستذهب "رُوبا"، وبعدها سندفع القروض، لا تفكر أنت فى شىء! كل، واشرب جيدا، فلو تغذى جسدك فسترتاح طوال عمرك، وأنا لا أهمية لى فقد اعتدت المصائب! لا أريدك أن تحرث، فقد وجدت سيدًا جديدًا، اخدمه لأيام حتى تجعل من نفسك رجلا، لقد حضرت هنا إنها إلهة كاملة!

– قالت إنها ستحضر فى يوم العرس.

– سنضعها على رأسنا، وفى أعيننا! إن الحياة مع أناس طيبين هكذا حتى إذا لم توجد الكثير من النقود – تجعل علمك يزيد، وعيونك تتفتح.

فى ذلك الوقت استدعى "بندت داتادين" "هورى" بإشارة، وأخذه بعيدًا، وأخرج من وسطه مائتى روبية نقدًا، وقال:

– لقد صنعت خيرًا بموافقتك على رأيى، فقد قمت بعملين جيدين: خففت حمل الزواج عن كاهلك، واحتفظت بذكرى أجدادك وآبائك. لقد فعلت كل ما بوسعى من أجلك، والباقى عليك.

أخذ "هورى" النقود بيد مرتعشة، ولم يستطع رفع رأسه ولم ينطق بكلمة! كان ذلّه قد أخذه إلى قاع البحر، وأخذ يهبط. لقد انهزم اليوم بعد صراع مع الحياة لثلاثين عاما، لقد انهزم وكأنه واقف على باب المدينة وكل من يمر من هناك يبصق على وجهه، وهو يقول بصوت عال: "يا إخوانى أنا أستحق الرحمة، لم أعرف هواء شهر جيته الساخن، ولا أمطار مجه! ولو مزقت جسدى لرأيت كم من الروح قد بقيت فيه؟ وهو مجروح من الضرب، مضغوط من الركلات، اسأله هل ذقت الراحة طوال عمرى؟ هل جلست فى الظل قط؟ وقد نزلت هذه الذلة، فأصبح يعيش الآن فوق كل هذا دون رجولة، وبطمع ورذيلة. الاعتقاد الذى كان مستقراً قد تعمق، وأصبح أعمى كأنه انتشر فى أجزاء كثيرة!

قال "داتادين":

– سأذهب، ولو شئت فلتذهب أنت إلى "نوكهى رام".

قال "هورى" بعجز:

– سأذهب يا سيدى، لكن كرامتى فى يدك!

الفصل السادس والثلاثون

ظلّت القرية ليومين في فرح وسرور، حيث قُرِعَت الدفوف، وأُنشدَت الأغاني، وذهبت "رويا" بعد البكاء. لكن أحدا لم يرَ "هورى" خارج المنزل، كأنه يجلس مختبئا من العار الذى أصابه! حضرت "مالتى" فزاد السرور، وحضرت نساء القرية الأخريات.

أخذت القرية كلها تمدح "جوبر" وأخلاقه، وسلوكه، لا يوجد منزل إلا ترك فيه ذكرى سلوكه الحسن، حتى "بهولا" سقط عند قدميه، وقد قدمت زوجته له التبغ، وأعطته روبية كهدية، وسألته عن عنوانه فى لكنهؤ وعندما تذهب إلى هناك، ستحضر لديه بالتأكيد، ولم تتحدث عن النقود التى كانت قد دفعتها.

عندما استعد "جوبر" للذهاب فى اليوم الثالث، اعترف له "هورى" أمام "دهنيا"، وعيونه ممتلئة بالدموع بالإثم الذى يذله منذ أيام، ويجعله مضطربا، وقال باكيا:

– يا بنى، لقد حملت صرّة الإثم على رأسى بسبب هذه الأرض! لا أعرف كيف سيجازينى الإله؟!

لكن "جوبر" لم يغضب من هذا الأمر، ولم يظهر على وجهه امتعاض، بل قال باقتناع:

- هذا ليس ذنبك يا أبي! بل يجب علينا أن نرد لرام سيوك نقوده. ماذا كنت ستفعل؟ ولم يكن بوسعي مساعدتك، وحقلك لا يخرج غلّة جيدة، ولم نجد من يقرضنا، لا توجد غلة تكفي لشهر واحد؛ في مثل هذه الحالة لم يكن بوسعك أن تفعل أكثر مما فعلت! لو لم تحافظ على حقلك، فأين كنت ستعيش؟! عندما يعجز الإنسان عن فعل شيء فليترك نفسه للحظ، لا أعرف حتى متى يستمر هذا الظلم؟! من لا يجد خبزا لبطنه لا يعبأ بالعزة والكرامة! حتى إن ظلمت الآخرين، وغبنت نقودهم، وضغطت على الأعناق فستكون رجلا طيبا! لكنك لم تدع دينك أبدا، وهذا هو جزاؤك. لو كنت مكانك لكنت في السجن أو أعدمت، لا يمكنني أن أصبر على العمل فأكسب وتمتلئ بيوت الآخرين، وأكمم أفواه أسرتي!

رفضت "دهنيا" إرسال زوجته معه، كما أن "جهنيا" أيضا أرادت قضاء بعض الوقت في القرية، واتفقوا على أن يرحل "جوبر" لوحده.

في اليوم التالي، وعند الصباح ودّع "جوبر" الجميع ليذهب إلى لكنهؤ، وقد أوصله "هوري" إلى خارج القرية، لم يشعر بالحب نحو "جوبر" هكذا من قبل، وعندما قبل "جوبر" قدميه بكى كأنه لن يرى ابنه أبدا! كان في روحه فرح، وغرور وعزم، وقد ظهر النور والرواء عليه بعد أن حاذ على حب ابنه. كان منذ أيام قد أصابه الوهن، وكانت الظلمة قد حلّت عليه فنسي الطريق، لكن الآن حلّ محلهما النشاط والنور!

كانت "رويا" سعيدة فى بيت زوجها؛ ففى فترة الطفولة كانت النقود أهم شيء، وكثير من أمانى قلبها التى كانت تحجزها ستتحقق، وقد صار "رام سيوك" الشيخ شابا، ولهذا كان لرويا زوجا، لا فرق عندها بين الشاب والشيخ فى مشاعرها الأنثوية! فهذا الإحساس لا يقتصر على سن زوجها وشكله، بل هو أعمق من هذا، إنه فى عمق العادات الراسخة التى لا تهتز سوى بزلزال! كان شبابها يسكرها، فتتزين بنفسها وهى سعيدة من داخلها. كان لرام سيوك وجه آخر، وفى ذلك الوقت تجعل من نفسها سيدة البيت. لم يجل بخاطرها أى نقص، حتى إن أى نقص قد تشعر به فى حياتها كان يضيع أمام الحقول المليئة بالغلة، والمنتشرة فى كل مكان، وتمتد من قرية إلى أخرى، وصف من المواشى عند بابها.

كانت أكبر أمانيها أن ترى أهلها يعيشون فى راحة، كيف تبعد الفقر عنهم؟ مازالت ذكرى البقرة حية فى قلبها، والبقرة التى وصلت كضيف ورحلت تاركة الجميع يبكون، وقد تحولت هذه الذكرى لشيء حلو! لم تستقر شخصيتها فى هذا البيت الجديد حتى الآن، ومازال المنزل القديم بيتها، حزنهم حزنها، وراحتهم راحتها. لم تستطع أن تشعر بالسعادة برؤية قطيع المواشى عند بابها كما سعدت برؤيه بقرة واحدة، لم تكتمل أمنية والدها هذه، فعندما حضرت البقرة كان مسرورا كأن الإله قد نزل من السماء! ولم تسمح له ظروفه بإحضار بقرة أخرى، لكنها تعلم أن هذه الأمنية ما زالت حية حتى اليوم فى قلبه! عندما تذهب إلى بيتها ستأخذ معها بقرتين حلوتين، كلا لم لا ترسلها مع خادم؟

ولقد تأخرت فى إرسالها لأنها أرادت أن تستأذن من "رام سيوك"، وعندما يوافق سترسلها فى اليوم التالى مع أحد اللبانين، وستبلغه أن يقول لوالدها أن هذه البقرة من أجل حليب "منجل".

كان "هورى" أيضا يفكر فى شراء بقرة، لكنه لم يكن فى عجلة من أمره، لكن بما أن "منجل" هنا، فكيف يعيش دون حليب؟! عندما تتوفر له النقود سيشترى البقرة، فمنجل ليس حفيد ابنه "جوبر" فقط، لكنه لعبة "مالتى ديوى" ويجب أن يُربى كما كانت تربيه! لكن من أين يأتى بالنقود؟

حدث أنه فى اليوم الذى بدأ فيه مقاول برصف الطريق فى أحد أراضى القرية البور، سمع "هورى" فذهب هناك على الفور، وبدأ يسعى للعمل بأجرة ثمانية وأربعين قرشا، لو عمل لمدة شهرين لاشترى البقرة. عندما يعود إلى البيت بعد أن تلفحه حرارة الشمس يكون ميتا، لكنه لا يحس بالتعب، ويعود فى اليوم التالى للعمل بنفس الشجاعة. بعد تناول العشاء يجلس أمام المصباح لصنع حبل، ثم ينام فى الثانية عشرة أو الواحدة. كانت "دهنيا" هى الأخرى قد جنّت تماما؛ فكانت تجلس معه لتصنع حبلا حتى تمنعه عن العمل الشاق: سنشترى البقرة، ولا بد أن نعيد لرام سيوك نقوده، لقد قال "جوبر" إنه يفكر فى هذا الأمر كثيرا.

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا، والاثنان يصنعان الحبل، قالت "دهنيا":

– إذا كنت متعبا فاذهب واسترح، فأنت تعمل منذ الصباح الباكر.

نظر "هورى" إلى السماء، وقال:

– سأذهب، أظن أن الساعة الآن العاشرة! فلتذهبى أنتِ للنوم.

– أنا أنام فى الظهيرة كى أستريح.

– أنا أيضا أرتاح فى فترة تناول البقوليات.

– أعتقد أنك ستصاب بضربة شمس!

– كيف أصاب بضربة شمس وهناك ظل وارف؟!

– أخشى أن تمرض!

– اصمتى، فالذين يمرضون هم من يجدون فرصة للمرض! أنا أفكر فى عودة "جوبر"، عندها أكون قد جمعت نصف قرض "رام سيوك"، وهو سيحضر شيئا من المال، ففى هذا العام نتخلص من القروض ونبدأ حياة جديدة!

– أنا أذكر "جوبر" كثيرا، لقد أصبح رجلا شهما!

– لقد قبل قدمى عند الوداع!

– عندما حضر "منجل" كان سمينا، أما هنا فقد صار نحيفا.

– هناك كان يوجد اللبن والسمن، أما هنا فلا يوجد شىء، ولو وجدنا الخبز لكفانا! بمجرد أن آخذ النقود من المقاول سأحضر البقرة.

– لو سمعت كلامى لأحضرنا بقرة منذ مدة، لكنك لم تقدر على خدمة حقلك، وتحملت على رأسك عبء "بنيا"!

– ماذا أفعل؟ مازال هناك شيء من الدين! إذا كان "هيرا" قد أذنب، لكن يجب علينا رعاية امرأته، ومن يرعاها غيرى؟ أخبرينى! لو لم أساعدها لساءت حالتها اليوم، فكرى أنه رغم كل هذه المساعدة أقام "منجرو" دعوى عليها!

– إذا كانت تدفن النقود فلماذا لا يقيم الدعوى؟

– ماذا تقولين؟ لو أشبع الحقل البطون فهذا أمر عظيم، فكيف لأحد أن يدفن النقود؟!

– أرى أن "هيرا" قد رحل عن الدنيا.

– قلبى يحدثنى أنه سيعود ذات يوم!

نام الاثنان، فى الصباح استيقظ "هورى" ليجد "هيرا" واقفا أمامه، وقد طال شعره، وتمزقت ملابسه، وجف وجهه، ولم يعد فى جسده لحم أو دم، وضمر جسده! أسرع، وألقى بنفسه عند قدمى "هورى"، أخذه "هورى" فى صدره، وقال:

– لقد ضمرت تماما يا "هيرا"! متى حضرت؟ لقد تذكرت ذلك اليوم كثيرا، هل أنت مريض؟

لم يعد "هيرا" اليوم فى عيونه هو الشخص الذى دمر حياته، لكنه كان "هيرا" أخاه الأصغر ابن أمه وأبيه، وانمحت الخمسة وعشرون أو الثلاثون سنة التى تفصلهما، ولم يعد هناك دليل عليها! لم يُجب "هيرا" بشىء، بل وقف يبكى.

أمسك "هورى" بيده، وقال بألم:

- لماذا تبكى يا أخى؟ كل إنسان يخطئ، أين كنت طوال هذه المدة؟

قال "هيرا" وهو يتظاهر بالمسكنة:

- ماذا أقول يا أخى؟ لتعلم أنه كان مقدرا لى أن أراك! لقد ركب القتل على رأسى، حتى صرت أرى البقرة تقف أمامى في كل لحظة، فى النوم واليقظة، ولم تبتعد عن عيونى! لقد ذهب عقلى، ومكثت خمس سنوات في مستشفى المجانين، وقد مر على خروجى من هناك اليوم ستة أشهر. كنت أتجول، وأنا أشحذ الأكل والشرب، لكن لم أجرؤ على العودة إلى هنا، كيف أرى وجهى للدنيا؟ ورغم عدم اطمئنان قلبى حضرت، وأنت كنت تساعد أسرتى....

قاطعه "هورى":

- لقد فررت دون سبب، لو دفعنا خمس روبيات أو عشرا كديّة لمدير الشرطة لانتهى الأمر، ماذا كان سيحدث؟!

- سأظل أحمل إحسانك طول العمر يا أخى!

- أنا لست غريبا يا أخى!

كان "هورى" مسرورا، وقد تحطم يأسه ومشقة حياته عند قدميه! من يمكنه القول إننى انهزمت رغم جدى واجتهادى فى الحياة؟! أهذه السعادة، وهذه القوة والغرور علامة الهزيمة؟! إنه فتح فى هذه الهزيمة!

وأسلحته المحطمة كانت علامة النصر. اتسع صدره، ولمع وجهه، فقد جسّد امتنان "هيرا" كل نجاحه فى الحياة، لو كان يمتلك مخزنا للغلال به أربعة أطنان أو ثمانية أطنان من الغلة، أو خبأ خمسة آلاف روبية فى جرة لما شعر بمثل هذه السعادة!

نظر "هيرا" إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وقال:

- لقد أصبحت أنت الآخر نحيفا للغاية يا أخى!

قال "هورى" ضاحكا:

- أهذه أيام السمنة؟ الذين يسمنون هم الذين لا يفكرون فى النقود، ولا فى الكرامة! السمنة فى هذه الحياة لا حياء فيها، فهو يجعل من المئات نحاف ليسمن هو! كيف تكون الراحة فى سمنة كهذه؟ الراحة عندما يسمن الجميع. هل التقيت بسوبها؟

- لقد التقيته فى الليل، لقد ربيت نفسك وربيت من يعاديك، وحافظت على كرامتك. لقد باع حقله، والإله وحده يعلم كيف سيعيش فيما بعد.

عندما ذهب "هورى" لأعمال الحفر، شعر أن جسده قد ثقل، فالألم لم يبارحه طوال الليل، لكن رغم هذا كان يسير بسرعة، وكان فى سيره قوة وعدم اكتراث!

بدأ الهواء الساخن منذ الساعة العاشرة، وعند الظهيرة كان الجو كأن نارا تسقط من السماء! كان "هورى" يحمل سلّة الجص من مكانها إلى الشارع، ثم يضعها على العربة، وعندما أتت استراحة الظهيرة لم

يعد به نفس، لم يشعر بهذا التعب من قبل، لم يستطع رفع قدميه، وكان جسمه يحترق من الداخل! لم يستحم أو يتناول البقول، بل بسط كوفيته ونام عليها وهو فى هذا التعب. لكن حلقه كان جافا من شدة العطش، لكن لا يصح أن يشرب على بطن خاوية، حاول أن يوقف إحساسه بالعطش، لكن احتراقه الداخلى كان يزيد فى كل لحظة، لم يستطع الصبر، ملأ أحد العمال الدلو ووضعه بجواره، وكان هو يأكل البقوليات. نهض "هورى" وشرب إبريقا كاملا من الماء، وذهب واستلقى، لكن بعد نصف ساعة بدأ يتقيأ والموت يعلو وجهه!

قال هذا العامل:

– كيف حالك يا أخى "هورى"؟

كان رأس "هورى" يدور، فقال:

– لا شىء، أنا بخير!

تقيأ وهو يتكلم، وبردت يداه وقدماه، شعر بالخوف: لماذا تدور رأسه هكذا؟ لم هذه الظلمة أمام عينيه؟ انغلقت عيناه، وقد تجسد فى قلبه مجسم لحياته كلها، لكنه كان حلما مفككا وغير مترابط؛ تذكر طفولته السعيدة عندما كان يلعب، وينام فى حضن والدته، ثم رأى "جوبر" يحضر ويركع عند قدميه، تغير المشهد: "دهنيا" عروس، ترتدى ملابس العرس الحمراء، وتطعمه الطعام، ثم لاحت أمامه صورة البقرة، لقد حلب لبنها وسقاه لمنجل، لقد اختارت البقرة شكل الإله و....

ناداه ذلك العامل:

– لقد مرت الظهيرة يا "هورى"، لتقم وتأخذ القصعة.

لم يقل "هورى" شيئا، وأخذت روحه تحلق فى عوالم مختلفة، كان جسده يحترق، وقدماه تبردان. لقد أصيب بضربة شمس!

أسرع رجل إلى المنزل، فحضرت "دهنيا" بسرعة، وفى لمحة حضر "سوبها" و"هيرا" خلفه.

لمست "دهنيا" جسد "هورى" فدق قلبها، وشحب وجهها، قالت بصوت مرتعش:

– كيف حالك.

نظر "هورى" نحوها بعيون مجنونة مضطربة، وقال:

– هل حضرت يا "جوبر"؟ لقد اشتريت بقرة "منجل"، انظر إنها واقفة هناك.

كانت "دهنيا" قد رأت صورة الموت من قبل – كانت تعرفه – لقد رأته وهو يحضر ببطء، ورأته يحضر كالطوفان، لقد مات حماها وأطفالها وخمسون من أهل القرية أمام عينيها. شعرت فى قلبها بضربة، فالأساس الذى تقوم عليه حياتها كان كأنه يتحلّل! لكن كلا، هذا هو وقت الصبر، خوفها بلا أساس، لقد أصابته ضربة شمس فأغمى عليه! احتجزت دموعها التى كانت كالطوفان، وقالت:

– انظر إلى، إنها أنا، ألا تعرفنى؟

استعاد "هورى" جزءا من وعيه، كان الموت يقترب، والنار قد دنت من الاشتعال، ابتعد الدخان عنه، ونظر إلى "دهنيا" بضعف، ونزلت من عينه دمعتان، وقال بصوت واهن:

– لتسامحينى على كل ما قلته أو فعلته لك، أنا سأرحل دون تحقيق أمنية البقرة، وقد تنتهى النقود كلها فى دفنى. لا تبكِ يا "دهنيا"، إلى متى ستظلين تحترقين؟! لقد مرَّت علينا جميع المصائب، دعينى أموت الآن!

ثم أغلق عينيه. فى ذلك الوقت عاد "هيرا" و"سوبها" وهما يحملان سريرا، وضعوا "هورى" عليه وساروا نحو القرية، التى انتشر الخبر فيها كالدخان، فتجمع أهل القرية. كان "هورى" مستلقيا على السرير، ربما كان يرى شيئا أو يفهم شيئا، لكن لسانه كان معقودا، بالتأكيد كانت الدموع المنسابة من عينيه تعبر عن صعوبة كسر رباط الدنيا! الأشياء التى عجز عن تحقيقها هى ما يسمى بالدنيا، أما الأعمال التى حققها والفرائض التى أداها كيف يندم عليها؟! الندم هو فى ترك المساكين دون إكمال واجبنا نحوهم!

كانت "دهنيا" تتماسك بصورة الأمانى الممسوحة، وقد فهمت كل شىء، فنزلت الدموع من عينيها. كانت تجرى كالآلة وهى تشوى المانجو لعمل مشروب له، وأحيانا تدلك جسده بالردة، ماذا تفعل؟ ليس لديها نقود، وإلا لاستدعت الطبيب!

قال "هيرا" باكيا:

– قوى قلبك يا زوجة أخى الأكبر، لتقومى بعمل حفلة قربان، لقد رحل أخى!

نظرت "دهنيا" نحوه باحتقار؛ كيف تقوى قلبها أكثر من هذا؟ أهي بحاجة إلى إخباره عن الحقوق الزوجية؟! أليس البكاء على من كان رفيق عمرها دينا لها؟!

قالت بعض الأصوات:

- نعم لتقدمى قربانا!

نهضت "دهنيا" كالآلة، الحبل الذى باعته اليوم كسبت فيه مائة وعشرين قرشا، أحضرتها ووضعتها فى يد "هورى" الباردة، وقالت لداتادين الذى كان واقفا أمامها:

- يا سيدى، لا يوجد فى المنزل بقرة ولا بنتها، ولا نقود، هذا كل ما معى من نقود، هذا هو القربان(١)!

ثم سقطت مغشيا عليها !

---

(١) هى هدية يقدمها أهل المتوفى للكاهن لتشفع له فى حياته الأخرى.

المترجمة فى سطور :

رانيا محمد فوزى

مدرس بقسم اللغات الشرقية – فرع اللغة الأردية – كلية الآداب

دكتوراه فى اللغة الأردية وآدابها عام ٢٠٠٤م بمرتبة الشرف الأولى .

ماجستير فى اللغة الأردية عام ٢٠٠٠م بتقدير امتياز .

ليسانس الآداب بتقدير امتياز من قسم اللغة الفارسية وآدابها – كلية الآداب – جامعة عين شمس .

تدريس فى جامعة عين شمس والتدريس فى جامعة الأزهر منذ عام ٢٠٠٥م وحتى الآن .

المراجع فى سطور :

أحمد محمد أحمد عبد الرحمن

أستاذ بالقسم اللغة الأردية - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر - القاهرة .

عمل بتدريس اللغة العربية بجامعة دهلى .

وتدريس اللغة الأردية - كلية اللغات والترجمة من ١٩٩٤م وحتى الآن .

وكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر من ١٩٩٨م وحتى الآن .

تدريس التاريخ والحضارة الهندية بكلية الآداب عين شمس من ٢٠٠٦م وحتى الآن .

الإشراف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه بالجامعات المصرية .

عضو (من الخارج) باللجنة العلمية الدائمة للغات الشرقية لترقية الأساتذة بالمجلس الأعلى للجامعات ٢٠٠٧م .

- ممتحن من الخارج بجامعة البنجاب باكستان ٢٠٠٧م .

من مؤلفاته :

"القواعد العملية لدراسة الأردية" (مشترك) ١٩٩٧م . و"الشعر الأردى فى القرن الثامن عشر الميلادى : (مشترك) ٢٠٠٠م . و"من علماء العربية فى شبه القارة الهندوباكستانية" (مشترك) ٢٠٠٦م .

ومن ترجماته :

"التصوف المعروف بـ لطائف المعارف" شاه محمد عبد العليم – الصديقى القادرى من الأردية إلى العربية (مشترك) ٢٠٠٤م .

"العلاقات العربية الهندية» لسيد سليمان الندوى مطبوع ٢٠٠٧م.

التصحيح اللغوى : محمود فودة
الإشراف الفنى : حسن كامل

القربان

تعتبر هذه الرواية من أهم روايات "بريم تشند"؛ حيث إنها تعالج قضايا اجتماعية مهمة، فقد اتخذ المؤلف القرية مسرحاً لروايته هذه، وكان لحسن تصويره لحياة الفلاحين والكادحين في القرية أبلغ الأثر في شهرة أعماله؛ إذ نجح في أن ينقل إلى القارئ صورة حية لجو القرية.أضحت هذه الصورة خالدة في ذاكرة قراء الأردية.

ليست القرية مجرد شريحة من شرائح المجتمع كما يُفهم من قراءة الرواية، بل هي تجسيد لعالم القرية كنظام اجتماعي وإداري كان سائداً في البلاد ولا يزال قائماً إلى اليوم، وإنما كان تقديم أديبنا للقرية باعتبارها نموذجاً مصغراً للعالم الكبير، مما يضفي على الشخصيات من أبناء القرية وما ينتابهم من أحداث بُعداً رمزياً إنسانياً بارزاً، يصبح أساساً في قراءتها للعمل القصصي وتقييمه.

تصميم الغلاف: شريف مكي

الإبداع القصصى